كاردينيا الفوازي

تغزلين للعشقِ جيوشاً

ضياء
t.me/twinkling4

سلسلة قلوب تحكي (٨)

روايات منفصلة متصلة

تغزلين للعشق جيوشًا

(كل الخواطر والاشعار داخل الرواية هي بقلم الكاتبة كاردينيا الغوازي)

٢٠٢١

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَاد، الإلكترونية.©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب

t.me/twinkling4

غزل عرافة

فجأة هبّت ريح حملت الرمال العاصفة فسارع عبد الملك ليحمي أمه بجسده، لكن عجمية تلتفت يميناً في اتجاه محدّد حمل رائحة العود وعيناها تقتحمان وسط الغبرة تبصران البعيد، فارساً بدوياً ضخماً شديد السمرة يعدو على صهوة حصان أشهب، فارس مُلثّم بكوفيته وتبرق عيناه الخضراوان كما لم تر عجمية يوماً عينين تبرقان،

تمتمت عجمية: **«لله درك يا صاحب العود»**.

***

الغزل الأول

(خيطُ غَزلَه الحلم وخيطُ غَزلَه الكابوس.. هذا هو واقعنا الذي نحيكه بالخيطين معاً حتى لم نعد نميزهما من بعض).

يعدو الأشهب وقلب فارسه الضخم يعدو معه، محياه الذي يخيف الأطفال في القرية فيتجنبوه مرتعبين، يبدو اللحظة خائفاً خائف مما يمر فيه ويعانيه ويقاومه، ليلة الأمس كانت عسيرة.. عسيرة للغاية، لقد رآها في المنام حتى لو لم تكشف وجهها فقد عرفها، نفس حار أفلت من بين شفتيه الغليظتين ليمر عبر كوفيته التي يتلثم بها هامساً اسمها: «دلال».

أغمض عينيه.. صدره يهدر.. فرائصه ترتعد كأنه في مجابهة جيوش جرارة تتجمع من حوله متأهبة لقتاله ولا قدرة له على مقارعتها.

«جلبابها الأبيض حوافه من ذهَب، وخمار أسود فوق رأسها يظن لهويتها قد حجَب

تتربع على الأرض ومغزلها أمامها دائر، وفي معصميها رنين تعزفه الأساور

الحناء تُنقَش فوق كفيها بفعل فاعل مجهول، حروف مبهمة بين شفتيها كطلسم مغزول».

عاود صفوان همس اسمها «دلال» والوجع في قلبه أيّما وجع ثم ينفض رأسه ويستغفر ربه فيرفع وجهه للسماء

التي احتجبت عن ناظريه بالرمال المهتاجة فيشكو وهو يستغفر: «أستغفرك ربي وأتوب إليك، لا قِبل لي على حكم أحلامي بها يا رب، أعنّي على ما ابتليتني وأنا بحولك وقوتك سأنتصر».

يلكز حصانه الأشهب ليزيد سرعته وكأنه في سباق طويل لا يعرف نهايته، أجفل صفوان والرمال من حوله تهتاج أكثر وهمس امرأة ليس بغريب عليه يصل إليه بوضوح: **«لله درك يا صاحب العود»**.

يشتد عبوسه وهو يتلفت حوله وسط الغبرة ويتساءل بارتياب من أين يأتيه هذا الهمس؟ كأنّ الرمال المهتاجة هي من تهمسها في أذنيه ثم حدسه ينبئه كأن الهمس قادم من جهة الجبل، لم يهتم.. لم يثره فضوله ليهتم ويبحث ويعرف، فما هو فيه يغنيه عن إغواء همس الرمال القادم من ناحية الجبل، أخذ يعدو بحصانه في عمق البرية وهو يهتف هادراً يقارع هدير الرمال: «أعنّي يا رب».

***

نظر عبد الملك لأمه العابسة التي تجلس جواره في السيارة ليعود بها من الجبل نحو الدار في القرية، عصاها الأثرية المهيبة التي ظهرت من العدم صباح اليوم تثبتها أمامها بزاوية قائمة عمودية على أرضية السيارة وعيناها المتوهجتان لا تفارقان النظر للطريق المتعرج، بدت كأنها غير راضية أو ربما يشغلها أمر جديد، فجأة تمتمت: **«الغازلة**

تُحكم غزلَها، وستسعى قريباً لبدأ حربها».

سألها عبد الملك باهتمام حقيقي: «أخبريني عنها يا أم عبد الملك»».

فجأة التفتت بحركة حادة لليمين فتنظر عبر شباكها نحو بيت معزول ما بين الجبل والقرية فيشتد عبوسها وهي تتمتم: «**أي روح سوداء تقبع هنا كريح نجسة تنبعث منها، أستغفر الله.. أستغفر الله**».

يحول عبد الملك نظراته للحظات نحو ما تنظر إليه أمه فيعرف من تقصد ثم يعاود النظر للطريق أمامه وهو يوشك على بلوغ أطراف القرية قائلاً: «إنها السحّارة دنانير الغجرية، مؤكد روح سوداء، كفانا الله شرها، عندما حطّت رحالها عندنا قبل بضع سنوات أقامت مأوى لها من ألواح الصفيح الذي نرميه للأنقاض واليوم بات المأوى داراً واسعةً مبني من الحجر والطوب كله من خداع الناس والتلاعب بعقولهم، دوماً لم أحب الغجر يمتهنون أقذر المهن»».

تمتمت عجمية: «ليس كل الغجر سواء، فبعضهم مُبتلى وبعضهم ينشر البلاء»».

صمتت للحظات ثم تنهدت فجأة وهي تهز رأسها بأسف لتلتفت إلى ولدها تسأله بنبرة صوت رخيمة حملت الشجن: «هل تسمع عزف الناي يا عبد الملك؟»».

لم يستغرب عبد الملك انتقالات أمه وقد اعتاد حالها

بالآونة الأخيرة وأصبح يتفهمه حتى وهو لا يفهمه ويجب أن يشكر الدكتور فراس على هذا، وقد جعله يرى أمه بمنظار آخر مثير للاهتمام وحتى الفخر بدل أن يصيبه بالارتباك والإحراج، سألها بلطف: «هل تسمعين عزف ناي أماه؟ أنا لا أسمعه».

تزم شفتيها وبدت مغتاظة على نحو ما وبشعور غريب انتاب عبد الملك أن أمه مغتاظة من نفسها فقالت: «ما زال يُبكيها بعزفه، يكلّم الأرض يسأل عن مدفنها».

يضيق عبد الملك عينيه ونظراته على الطريق لكن تركيزه مع أمه ليسألها بفضول: «من الذي يبكي بعزفه؟ وعن أي مدفن تتكلمين أماه».

ردّت عن الشق الثاني من سؤاله وبنبرة جعلت جلده يقشعر: «عن قبر المذبوحة».

ارتفع حاجبا عبد الملك ونظر للحظة إليها فيراها مغمضة العينين كأنها ترهف السمع وشفتاها ما زالتا مزمومتين وتشد بكفيها فوق عصاها فيزداد فضوله ليسألها: «عمّن تتكلمين أماه؟ شاركيني ما ترينه».

رفعت أحد كفيها لتضرب فوق الأخرى وهي تقول بحسرة: «ليتني أراه».

يرمش عبد الملك للحظات وهو يدخل بين دروب بساتين القرية ويتساءل: «من؟ عازف الناي؟».

فتحت عينيها فجأة لتنظر جانباً نحو أحد بساتين عشيرة الأسدي التي يمرون بها ثم ترد على ولدها بالقول: «بل قبر المذبوحة، لعلّه يرتاح حين يجده».

ثم تتنهد وهي ما زالت تناظر البستان الممتد مضيفة: «إن للقبور راحة بنيّ، تجعلنا نصدق فقد الأحباب».

لم يجد عبد الملك ما يقوله وهو يشعر بعجزه عن فهم ما تقوله أمه، لكن أذنيه التقطتا اللحظة فقط عزف ناي قادم من البستان الذي يمران به لكنه صمت ولم يعقّب بشيء بينما عجمية تقول برضا بالمكتوب: «لم يمنحني ربي هذه الرؤيا كي أعرف، وله شأن فيما أمر وحكم».

ثم تمتم: «وعد مكتوب.. وعد مكتوب».

تفاجأ عبد الملك وهو يلتفت لأمه أن دموعها تنزل فسألها بتعجب ودهشة: «أتبكين أماه؟».

لم تنظر إليه ودموعها ما زالت تجري بينما تهمس بشرود: «هذه ليست دموعي، إنها دموع المذبوحة».

***

يعزف ضرغام بالناي القديم الذي صنعه له والده يوماً، يعزف وهو هائم في ملكوت آخر، لا يعلم كم طال عزفه وسط البستان ولما الاشتياق اهتاج في قلبه قبيل فجر اليوم ليجبره أن يهجر فرشته، وبدلاً من أن يسعى للخلاء في البرية احتجب مع نفسه هنا في إحدى بساتين شيوخ

الأسدي، لم يكن يريد الابتعاد وقد يطلبه الشيخ في أيّ لحظة، أوقف العزف ووضع الناي جواره وارتكز بظهره للخلف على جذع نخلة، أخذ ينظر حوله في البستان الهادئ فغامت عيناه بالذكرى، ضحكاتها وسط النخيل لم تكن كأي ضحكات إنها كالعصافير.. عصافير شقيّة بريئة، أخذ يردد أبياتاً شعرية قالها يوماً وهو يسامر الشيخ عبد الهادي في البرية:

أيا أرض الشيوخ ردي عليّ

كيف الحبيب غدى من دوني

يا أرض أجدادي ألن تعيدي روحي إليّ

رحماك يا ربي من أمنية إن شئت قلت لها كوني

وآخر بيت قاله وهو يرفع عينيه للسماء فهو لم ييأس بعد هذه السنوات ليطلبها مجدداً ممن خلقه، اشتاق لفظ اسمها على لسانه لكنه لا يلفظه، كيف ينطق حروفاً زقزقت بها العصافير وتناقلها همساً سعف النخيل ثم سرقها رمل الصحراء ويأبى كشف أثر واحد من آثارها، عاد ضرغام ليطلبها من ربه: «رحماك يا ربي من أمنية إن شئت قلت لها كوني، لا تقبضني إليك ربي قبل أن أجد الأثر».

***

كانت تضفر ضفيرتها الثانية وهي تغني الأغنية القروية التي سمعت بالأمس من النسوة في عرس فراس ورهف،

تغني وتهز كتفيها متراقصة أمام مرآة طاولة الزينة وغمازاتها تتراقص على خديها، ابتسامتها تشع من وجهها بتحدٍ محسوس لمن يمعن فيها النظر وشرارة شقاوة تقدح من عينيها الزرقاوين بنوع من الاستفزاز لمن يجيد فهم الشرار، هي كلها على بعضها بقميصها الأصفر الليموني وسروالها الكحلي المناسب على جسدها الرشيق مستفزة، والمشكلة أنها واعية تماماً لهذا الاستفزاز وتستعرضه بعناد، تكتف نرمين وهي تقف بقميص نومها القطني خلف ابنة خالتها لتسألها بهدوء: «إلى أين تنوين الذهاب؟».

ردت سُلافة وهي ترفع قلم ملمّع الشفاه لتمنح شفتيها بريقاً خاطفاً وهي ترد: «سآخذ جولة في القرية، أحب التعرف عليها في وضح النهار».

عدّت نرمين بصوت شبه مسموع من الواحد وحتى الخمسة فتتجاهلها سُلافة ثم تعيد الملمع مكانه قبل أن تعاود هز الكتفين والغناء وهي تتحرك نحو باب غرفة رهف القديمة التي تشاركت النوم فيها مع نرمين والخالة نجاة، تقدمت نرمين عابسة تلاحق خطوات سُلافة التي تكاد تغادر لتسأل لها بغيظ: «إلى أين تذهبين بضفائرك الذهبية هذه؟».

فتحت سُلافة الباب وهي تلتفت لنرمين تقول بابتسامة واسعة وغمزة شقاوة من العينين: «ضفائري الذهبية تحب الشمس في الصباح الباكر».

عندها مدت نرمين يدها لتمسك بذراع ابنة خالتها قائلة بجدية: «دون غطاء الرأس لا يمكنك الخروج، يجب أن تحترمي العادات هنا».

توقفت للحظة قبل أن تضيف برجاء أكثر جدية: «أرجوك سُلافة».

ما زالت ابتسامة سُلافة عالقة على وجهها لا تتزحزح على اتساعها مرسومة بعناية لتظهر غمازات التحدي والاستفزاز فترفض جدية نرمين قائلة بمزاح: «هل ستعلمينني العادات في الأرياف الآن يا ابنة خالتي؟ قد تكونين طبيبة وأنا مجرد ممرضة بسيطة لكن لا تنسي أني من كنت أغيّر لك حفاضك».

كزت نرمين على أسنانها وهي ترد تحاول جرها للجدية مرة أخرى: «أنت لم تغيري لي حفاضي يوماً وركزي بما أقول».

لكن سُلافة تأبى سلوك الدرب الذي تجرها إليه نرمين فترد عليها وهي تُرقص حاجبيها صعوداً ونزولاً: «وما أدراك أنت؟ هل تملكين ذاكرة منذ الولادة؟».

هتفت نرمين بإحباط: «سُلافة».

برمت سُلافة شفتيها اللامعتين قائلة بدلع: «لا أعرف كيف يقولون عنك خفيفة ظل وتحبين الضحك هذه صفاتي أنا لا صفاتك يا حضرة الطبيبة».

حاولت سُلافة أن تفلت لكن نرمين تشبثت بذراعها قائلة بقلق حقيقي: «أنت بحاجة لهذا العمل، الدكتور فراس بنفسه توسط لك، لا يمكن أن تضيعي الفرصة بتهورك وعنادك».

رفعت سُلافة حاجبيها وهي تغلق أجفانها للمنتصف لتمثل دور الاستسلام وهي ترفع كفها قائلة دون أن تتخلى عن درع الفكاهة: «حاضر.. حاضر لا تقلقي.. سأكون الفتاة المؤدبة المطيعة خلال العمل».

تعقد نرمين حاجبيها وهي تؤكد بالقول: «وخارج العمل أيضاً».

عندها أطلقت سُلافة ضحكة انثوية رنانة لطالما أثارت حولها الشبهات وكانت أحد أسباب مشاكلها التي لا تحصى ثم قالت لابنة خالتها وعيناها تبرقان بما يعكس ضحكة شفتيها: «هذا لا أضمنه».

فتحت نرمين فمها لترد بغضب عندما لمحت الخالة نجاة تقف على بعد خطوات في الممر بيدها كوب شاي وهي تنظر إليهما نظرات مبهمة وهادئة لتلقي نرمين التحية وهي تشعر ببعض الحرج: «صباح الخير خالة نجاة».

ردت الخالة نجاة في اللحظة نفسها التي التفتت فيها إليها سُلافة: «صباح الخير لكما».

عينا نجاة تركزتا على السلسال الذهبي الذي تلبسه سُلافة وقد تدلى منه قلب مجسم ومقفول من جانبه بما يشبه

المفتاح، تلقائياً عبست سُلافة ورفعت يدها لتحاوط القلب بحمائية شرسة قبل أن تتحرك لتفلت من ابنة خالتها وهي تتمتم بتحية صباح باهتة، لاحقها صوت نرمين وهي تطلب منها برجاء: «لا تنسي وشاح الرأس، تجدين واحداً معلقاً جوار الباب».

نظرت نرمين للخالة نجاة قائلة بخفوت: «لا أريدك أن تأخذي فكرة سيئة عنها».

ردت الخالة نجاة بأسلوبها الصريح المعهود منها وهي تتقدم لتدخل الغرفة: «كنت سآخذ بالفعل فمنذ دخولها حفل العرس ليلة الأمس ولم تعطني انطباعاً جيداً، لكن أمرين جعلاني أغير نظرتي الأولى عنها».

تساءلت نرمين بفضول حقيقي: «ما هما؟ يهمني كثيراً أن أعرف خالتي».

ردت الخالة نجاة وهي تتقدم لتجلس على حافة السرير وهي ترتشف من كوبها وتقول: «الأول لأني أثق برأي بشرى ورغم أنها لم تفصح بكلمة عن ظروف ابنة خالتك لكنها نبهتني أن لا أتسرع الحكم».

جلست نرمين جوار الخالة نجاة لتسأل بفضول أشد: «والثاني خالتي؟».

وقعت عينا نجاة على الفرشات المطوية على الأرض حيث نامت نرمين وسلافة جوار بعض تاركتين السرير للخالة نجاة لترد بشرود وهي تتذكر ما رأته على ضوء الفجر:

«رأيتها مع نور الصباح الأول تبكي دون أن تصدر صوتاً، ثم تناجي القلب المعلق برقبتها بحرقة قلب آلمت قلبي حتى دون أن أعرف ما تناجيه». أطرقت نرمين بينما تضيف نجاة قائلة: «أعتذر.. أحيانا أتكلم كثيراً فيظنني الناس حشرية، لكنني لن أسأل عن حكاية ابنة خالتك».

ترفع نرمين عينيها للخالة نجاة وتشع نظراتها بالحزن والعجز ودون كلمات فهمت نجاة أن سبب حزن الفتاة وإحساسها بالعجز هو ابنة خالتها الشقراء حاولت التسرية عنها وهي تبتسم وتقول معترفة كطفلة تقرّ بذنبها: «بيني وبينك أنا حشرية بالفعل لكن لا تخبري عمك كريم أني قلت هذا».

ضحكت نرمين لكن ضحكتها ليست من القلب، القلق يسيطر عليها وبدأت تشعر ببعض الندم لأنها طلبت المساعدة من رهف في حل مشكلة سلافة.

***

دار السحّارة دنانير

الستائر الثقيلة قد أسدلت فتخفي نور الصباح الباكر بظلال قاتمة لا يبددها إلا إضاءات الشموع المتناثرة بترتيب عشوائي أقرب لأحجية تشوش الأذهان، تقف دنانير وسط أكبر غرف الدار وأمامها الوعاء النحاسي الكبير المثبّت فوق مسند ثلاثي، يتصاعد الدخان من الوعاء بكثافة فيواري هيئتها الغريبة التي تترك الأثر المطلوب

في نفوس (زبائنها)، في أواخر الثلاثين، متوسطة القامة، تلبس على الدوام جلباباً أحمر يلاصق قدها الذي يميل لامتلاء مغرٍ، وتضع فوق رأسها وشاحاً بنفس الحمرة القانية، ومن تحت الوشاح يبرز شعرها الطويل الكثيف بلونه الأسود الحالك، خصله مبرومة على نفسها كالحبال المتينة، حاجباها رفيعان طويلان يكادان يلتقيان في المنتصف يعلوهما حلية كهلال فضي متدلٍ مقلوب للأسفل، أجفانها مثقلة بالكحل الأسود وبشكل مبالغ فيه فترسم الكحل الغليظ كهالات قاتمة حول عينيها، فيكاد بياض تلك العينين المؤثرتين يختلط بسوادهما، شفتاها مغريتان بأحمر شفاه داكن أقرب للسواد المحمر وابتسامتها تثير الريبة والقلق في النفس، حلق فضي طويل منفرد معلق بطرف منه في أذنها اليسرى وممتد كسلسال يتدلى منه صف من خناجر صغيرة لينتهي في طرفه الآخر معلقاً بأنفها، يخفي السلسال ذو الخناجر تحته أثر جرح غائر مستعرض في خدها الأيسر، كانت جذابة لكن بشكل منفر يثير الخوف والاشمئزاز بالوقت ذاته.

تمايل يميناً ويساراً وهي تطلق الكلمات بلغة مبهمة، أو تريد الإيحاء أنها (مبهمة)، بينما تراقب بتفحص دقيق شيطاني (زبونها) الراكع على ركبتيه أمامها في استسلام تام، لقد ركع ولإرادتها خضع، «مروان الضاري» زبونها الأكثر أهمية الآن، لقد أوقعته في هاويتها المظلمة كما أوقعت قبل دقائق عن رأسه عقاله وكوفيته دون

همسة اعتراض منه وشعّثت رأسه بدم ديك ذبحته أمامه وهو راضخ لها ثم طلبت من خادمها الدميم حبّاس تحضير الشراب الذي أدمنه مروان من يدها وهو جاهل بإدمانه، عينا دنانير هبطتا إلى الأرضية حيث الديك المذبوح كأضحية ما زال مرمياً هناك وبقعة دماء حوله، رفعت نظراتها مجددا لمروان الضاري وهي تشعر بالاشمئزاز في داخلها منه، بينما تفكر بغباء بعض الرجال عندما يذلهم العشق هكذا ها هو ابن سلسال شيوخ الضاري يأتيها زاحفاً يطلب منها أن تمنحه ما لم يستطع أخذه، قلب امرأته، دليلة.

تحركت دنانير من خلف الوعاء النحاسي وهي ما زالت تتمتم بكلماتها الغريبة لتقترب من مروان فترى دموعه أخذت تنزل على خديه وتبلل لحيته وقد اختلطت ببعض قطرات الدم التي تناثرت من خصل شعره، كان مغمض العينين ولا يراها، إنه لا يرى اللحظة إلا أحلامه المهووسة بزوجته ويعيش الوهم أنها تحقق، الأفكار تدور في رأس دنانير وهي تمد كفها نحوها تلامس وجهه وتتلاعب بدموعه المختلطة بدم الديك، إنه رجل وسيم، كما أنه غني وابن شيوخ، لا تعرف لماذا زوجته تمقته لهذا الحد كما أخبرها هو بنفسه، لقد تحرّت دنانير عنه جيداً وعرفت المزيد من المعلومات، إنه لا ينجب رغم زواجه من عدة نساء وهذا يثبت أنه هو العقيم وليس زوجاته، خاصة الزوجة المعنية بهوسه دليلة.. دليلة يا له من اسم قوي،

أتراها كرهت زوجها لأجل عقمه؟ أم لأنه تزوج عليها الصبايا طلباً للإنجاب؟ الغريب أن مروان الضاري عندما طرق باب السحر والشعوذة لم يطلبه لأجل الإنجاب والولد إنما لأجل قلب دليلة، لا يهمه إلا الحصول عليها، كم هو بائس ويائس، تضيّق دنانير عينيها وهي ما زالت تتلاعب بدموعه السخية وتفكر أن (مروان الضاري) صيد ثمين لها ولن تدعه يفلت بسهولة، لقد جاءها منذ أكثر من شهر يطلب أن تنهي شقاءه وعذابه وقد استطاعت إراحته ولو لوقت محدود بشراب الأعشاب المخدرة من وصفتها السرية التي ورثتها عن جدّاتها الغجريات، وصفة تثير هلوسات العقل المُخادعة، سيطرت عليه جزئياً وتمكنت دنانير بعد مجهود وصبر أن تجرّ الكلمات من فمه لتعرف بعضاً يسيراً من حقائق ذاك الشقاء الذي يخبئه، تعترف له أنه رغم يأسه وإذلاله فإنه خبيث ماكر فلا يفصح عن كل شيء بالهين، فسايرته وبدأت معه خطوة بخطوة لتركعه أمام سطوة خديعتها، منحته وهم الخلاص التام عبر سحرها المزعوم وهي توهمه أنها ستجعل امرأته قريباً تهيم به عشقاً، لكن هذا لا يكفي، من خبرتها تعرف أنه سيأتي يوم ويفلت منها ابن الشيوخ ليبحث عن علاج أنجع من علاجها، ولأجل هذا يجب أن تحيك خيوطاً جديدة بشكل مختلف، وقبل أن تحيكها يجب أن تجمعها كاملة في قبضتها، فما زالت هناك خيوطاً مجهولة عليها أن تعرف سرها، همست له بصوت مغوٍ وهي تميل إليه: «شرابك حضر يا ابن الأكابر».

ثم فرقعت بأصبعيها ليدخل الخادم حاملاً الصينية وقد توسطها كأس نحاسي برائحة غريبة، التفتت إليه وغمزت له ليرد لها بابتسامة تشبه ابتسامتها ثم تقدم نحو مروان بينما دنانير تعاود الهمس بأمر هذه المرة: «افتح عينيك واشرب شرابك يا ابن تمرة».

فتح عينيه أخيراً وبدا تائهاً في ملكوت آخر وهو يسأل: «متى.. متى سيتحقق مفعوله؟ إنها ما زالت.. لا تنظر إليَّ، لا تكلمني حتى بحرف».

أخفت استخفافها بما يقول ويتمنى ثم نظرت في عينيه بقوة للتأثير فيه بينما تمد كفها إلى الجانب لتأخذ الكأس من الصينية ثم تقربه لفمه وتجعله يتجرع مرارته وهي تهمس بخفوت تسقيه مرارة الأوهام وخداع الهذيان: «ما زال أمامك بضعة كؤوس أخرى تحمل مرارتها ومزيداً من الأضاحي تغتسل بدمها قبل أن يتحقق المراد ويبطل السحر الذي يسجن قلب امرأتك ويمنعها من عشقك».

***

بين أشجار النخيل والحمضيات في البستان يحاول اللحاق بها وهو يشعر بالحرج من نفسه من تلك الملاحقة، يظهر وجهها المليح من خلف جذع نخلة وهي تمسك بطارف وشاحها المورد تخبئ ضحكتها البريئة وحالما يتقدم نحوها تعاود الهروب منه، يناديها متعباً يترقق صوته بالتفهم لشقاوة صباها النضر: «مزنة.. عودي.. عودي لدار

أبيك».

تمطر ضحكاتها في حشاه سعادة وهي تواصل الهروب منه وتشاكسه بالقول: «تعال وأعدني بنفسك يا ضرغام، هذا إن كنت تستطيع اللحاق بي».

تخنقه الضحكة وهو يقف مكانه مستسلماً ليحاول معها بأسلوب العتب: «يا بنت الحلال لم أعد صغيراً لألعاب الصبايا هذه، هيا، لا يجدر بك دخول بساتين شيوخ الأسدي».

اختفت ضحكاتها فانقبض قلبه وتنبهت حواسه وهو يعاود النداء: «مزنة.. مزنة». ينعصر قلبه وسكون البستان يغلب كاتماً كل أثر لضحكاتها لتخطو قدماه بثقل عجيب كأنها لا تطاوعه كي توصله إليها لكنه قاوم وهو يحمل جسده على قدميه المثقلتين وأنفاسه تتجمع في صدره مختنقة، يواصل همس اسمها حتى بدأ صوته يتلاشى فأصابه الهلع عليها وهو يدور برأسه يميناً ويساراً بحثاً عنها بعينيه وفجأة رفرف وشاحها أمام ناظريه معلقاً بجذع نخلة، جزع قلبه وصوت مهيب لامرأة يعرفها يرنّ في أذنيه:

«سيتناثر الدم على وجهك ويختلط بالدموع

أيا ساكني القبور كيف السبيل للرجوع؟».

كان جسده يرتعد وهو يكاد يصل للوشاح الأبيض المورد وما زال ذاك الصوت المهيب يعيد تكرار الأبيات نفسها، وفجأة.. تسمّرت قدماه مكانهما والوشاح بات مُمزقاً أمام

ناظريه وقبل أن يدرك ما يحصل تناثر الدم الحار على وجهه من حيث لا يعلم ليختلط بالدموع شهق بوجيعة مزقت فؤاده وقطعت نياط قلبه، الدم أعماه فلم يشعر إلا وهو يسحب بكفه الأيمن خنجره من غمده ويمد الأيسر ليمسك (المجهول) الذي يؤلمه حد الموت يريد قتله قبل أن يقتُله فجاءه هذه المرة صرخة بصوت امرأة أخرى لم يسمعه من قبل: «ربااه، استيقظ، استيقظ يا رجل».

في لحظة كانت عيناه مفتوحتين ووجه امرأة غريبة شقراء بضفيرتين قبالة وجهه تماماً، عن قرب شديد ينظر لزرقة عينيها المرتعبتين وأنفاسه تجيش في صدره بينما حدسه يخبره أن هناك خطأً فظيعاً يحصل لتنتقل عيناه إلى شفتيها فيدرك أنها تتكلم بارتجاف: «أبعد.. أبعد خنجرك عن.. عنقي».

أصابته الصدمة مما قالته ليستوعب أنها امرأة حقيقية من لحم ودم وليست حلماً ثم أتت الصدمة المروعة التالية عندما استوعب عقله ما همست به المرأة قبل لحظة لينظر إلى الأسفل أكثر فيجد خنجره يكاد يجزّ عنقها، أبعد الخنجر سريعاً وتشوشه انقشع، أفلتها وقد اكتشف أنه يمسك بها بخشونة مؤذية حتى إنها تأوهت وهو يحررها، أطرق برأسه وهو يحاول السيطرة على زمام نفسه، أعاد الخنجر إلى غمده بيد مرتجفة وهو يستعيد تفاصيل الحلم المألوف بينما يتمتم بحشرجة: «أعتذر منك، كنت أحلم».

ظن المرأة الغريبة ستهرول هاربة مفزوعة منه لكنه تفاجأ

بها أن ظلت جالسة على ركبتيها قبالته لتسأله بفضول: «أخبرني عن حلمك، أنا أجيد تفسير الأحلام».

رفع عينيه إليها وعاد الجمود المألوف لسحنته فيرد عليها بهدوء: «أظنك غريبة عن القرية يا سيدة، ولا تعرفين أن لا يجوز دخول البساتين الخاصة، خاصة بساتين الشيوخ».

تعجب من نظراتها التي لم تزحها عن وجهه ثم أذهله أن تبتسم ببساطة ابتسامة واسعة بهية والغمازات تزين خديها كفوانيس العيد لتقول بأريحية: «أنا لست بغريبة، سأكون من أهل قرية الشيوخ، أعرفك بنفسي، سلافة، ممرضة جديدة ستعمل في المستشفى العام».

عاود الإطراق في غض بصر عن هذه المرأة الغريبة فيمد يده ليأخذ الناي الذي وضعه جواره قبل أن تغلبه سنة نوم فيحشره في حزام جلبابه ويقف على قدميه برشاقة وهدوء بينما هذه الـ(سُلافة) تسأله بمزيد من الفضول: «هل تعزف على الناي؟».

تنحنح وهو يتأكد من عقاله وكوفيته قبل أن يقول بهدوء: «تفضلي يا ممرضة، سأرافقك حتى بوابة البستان».

نهضت سُلافة أخيراً وهي تنفض سروالها من تراب الأرض وتتمتم بثرثرة: «ربما ستحكي لي الحلم في وقت آخر، مزاجك غير جيد هذا الصباح».

كاد حقاً أن يضحك من أين هبطت عليه هذه الغريبة الحشرية الجريئة؟ بحدس غريزي شعر بتزحلق الوشاح

الخفيف عن رأسها بينما هي تنفض ملابسها فمد ضرغام يده بحركة تلقائية فيقبض على الوشاح قبل أن يقع أرضاً ثم قدّمه ناحيتها وهو لا يزال مطرقاً بنظراته، قالت له وهي تسحب الوشاح من يده: «أنت سريع للغاية بتحريك كفك وحدسك أسرع».

لم يرد عليها بينما يفرد كفه في دعوة كي تسبقه بخطواتها دون أن يرفع نظراته إليها على الإطلاق، سارت أمامه وهي تلف وشاحها حول رأسها وتثرثر حول عرس الدكتور فراس والدكتورة رهف وتسأل عن كاتب الأغاني التي غنتها النسوة بالعرس وما تاريخها بالضبط ومن وضع لها هذه الألحان البدوية ثم ترد على أسئلتها بنفسها يستمع إليها ضرغام دون أن ينطق بحرف بينما حاجباه يرتفعان قليلاً بتفكير فضولي نادر منه قد غلبه حول هذه المرأة الشقراء التي تجاوزت الثلاثين بشكل مؤكد، شقراء بضفيرتين عيناه قويتا الملاحظة بالفطرة وتسجلان دوماً التفاصيل من اللمحة الأولى، وشاحها كان خفيفاً ومُرخاً فوق رأسها ليكشف أكثر مما يستر فلم تبالِ حتى بتغطية نحرها، هبت ريح خفيفة تحمل رائحة الخريف القادم بينما يصلان للبوابة حيث يربط حصانه فعاودت سُلافة إلقاء الأسئلة: «هل هذا حصانك؟».

لم يرد على سؤالها بل نادى بصوت جهوري على أحد الفلاحين ليهرول أحدهم من بين الأشجار حتى وصل رجل أربعيني وهو ينقل نظراته باستغراب بين ضرغام

والسيدة الغريبة ليلفت ضرغام انتباهه وهو يقول له: «السيدة غريبة من خارج القرية وتاهت لتدخل البستان بالخطأ، اقفل البوابة خلفنا».

رد الفلاح: «أمرك ضرغام».

فيتفاجأ كلا الرجلان وسلافة تتساءل بتهور: «اسمك ضرغام؟ أليس هو من أسماء الأُسود؟ أظنه الأسد الأشد ضراوة».

يعبس الفلاح باستهجان واضح لأسلوب كلامها المنفتح بينما يتنحنح ضرغام دون أن يرد على سؤالها ليتقدم إلى فرسه يفك رباطه ويتحرك مغادراً عبر البوابة المفتوحة في دعوة صامتة للشقراء كي تفعل المثل فتتبعه سُلافة وهي تقول: «حسنٌ يبدو أن الصمت فيه إجابات لكل الأسئلة».

يخفي ضرغام ابتسامته وهو يركب برشاقة فوق صهوة الحصان ليكتفي بالقول وعيناه تلمحان الفلاح يغلق البوابة: «هل تعرفين طريق العودة يا ممرضة؟».

شعر بنظراتها مصوّبة نحوه بينما ترد عليه: «اسمي سُلافة وليس (ممرضة)، ورداً على السؤال الذي توجهه للفراغ الذي تحدق فيه أمامك، أنا دوماً أجد طريقي بمفردي، شكراً للحوار الطويل الدسم الذي تبادلناه اليوم وشكراً (أخرى) لأنك لم تقتلني ذبحاً بخنجرك كنعجة ضالة».

هذه المرة لم يستطع منع ابتسامته لكنها كانت قد

استدارت لتسير على قدميها في الاتجاه المعاكس، خلال لحظات كان ضرغام يعدو على حصانه عائداً إلى دار الشيخ الأسدي تاركاً حلمه المكرر هناك في البستان، الحلم نفسه على مدى خمسة عشرة عاماً وبالتفاصيل نفسها يغزو منامه بأوقات عشوائية دون سابق إنذار أو حدث فجأة يراوده لينتهي دوماً بالوشاح الأبيض المورد ممزقاً عالقاً بجذع النخلة والدم يتناثر على وجهه مختلطاً بالدموع.

***

في الاتجاه المعاكس من الدرب تسير سُلافة على مهلها سارحة، تفكر كم هو رجل غريب الأطوار هذا الـ«ضرغام» للمرة الأولى منذ زمن طويل لا تشعر بالانطباع المألوف الذي تتركه دوماً لدى كل من يقابلها للمرة الأولى، تعترف استفزها الأمر ولا تعرف لماذا استفزها بهذا الشكل لجعلها تزيد من عيار جرأتها؟ أتراها اعتادت على سوء ظن الناس بها؟ تسرع أحكامهم الجائرة؟ محاولتهم الدائمة لإبداء الامتعاض والرفض لما هي عليه؟ افتراض الأسوأ عنها وتوكيل أنفسهم كقضاة وجلادين؟ أو الأسوأ كناصحين أمناء بصفحات بيضاء ناصعة يحرصون كل الحرص على إظهارها بهذا البياض المترفع، أعاد خيالها تلك اللحظة التي رأت فيها هذا الرجل غافياً مستنداً بظهره لجذع نخلة، لم تتردد وهي تقترب منه لتجثو جالسة على ركبتيها قبالته وتمعن فيه النظر بفضول الاستكشاف للمحيط الجديد الذي ستعيش فيه، رجل ضخم الجسد نسبياً

بملابس بدوية مما يلبسه كل رجال القرية، حنطي البشرة مائل للسمرة، ملامحه رجولية وفيها بعض القساوة والجمود وفيها أيضاً قوة، حتى وهو مستسلم لغفوته شعرت بالقوة تنبض منه، لحيته كثّة غير مشذبة خطها الشيب، رسمت التجاعيد بعضاً من خطوطها تحت عينيه فمنحته لمحة شجن وربما تعب الحياة وثقلها، لقد أمعنت فيه النظر كثيراً وهي تجلس قبالته دون أن تشعر بأي حرج من مراقبتها له وهو نائم، دوماً فعلتها مع المرضى في المستشفيات التي عملت فيها في العاصمة، تنظر لوجوههم النائمة وتسرح بخيالها لترسم حياتهم، وهذا الرجل البدوي أثار فضولها أكثر خاصة عندما بدأ يبتسم في منامه فتزينت تعابيره بسعادة بدّدت جمود محياه ثم بعدها بدى جلياً أن حلمه تحول لكابوس، كان يتعذب حرفياً وينعصر وجهه بالألم المُبرح وشعرت بأنفاسه تختنق في صدره، لم تتردد لحظة لتوقظه مما كان يعانيه لكن المفاجأة الحقيقية كانت في ردة فعله تعترف أنها لم تلقَ ردة فعل مشابهة من أي إنسان في حياتها المهنية، بل في حياتها كلها كانت لحظة خاطفة سريعة كأنها غير محسوسة أو محسوبة من الزمن عندما قبض على ذراعها بكفه بينما كفه الآخر يشهر الخنجر حتى لامس بشرة عنقها ويكاد يجزه.

ورغم رعبها الحقيقي من أنه قد يقتلها بالفعل فإن نظرات عينيه جعلت وطأة الموقف أقل بكثير، ذاك العذاب الذي رأته في عينيه لا يمكن أن يكون لمجرد

كابوس عابر، إنها تعرف، بل أكثر من يعرف، أن الأحلام أحياناً كمشارط الجراحين تشق الجلد لتصل إلى قلب أوجاعنا فتعريها، دون شعورها رفعت يدها لتلامس القلب المعلق بسلسالها عندما مرت قربها بعض النسوة من الفلاحات فسارعت لترسم ابتسامتها الحيوية المستفزة وهي تلوح لهن قائلة: «مرحباً.. أنا سُلافة الممرضة الجديدة في المستشفى العام، هلا أخبرتني عن مكان سوق قرية الشيوخ؟».

وقع الوشاح عن رأسها كاشفاً عن شقرة ضفيرتيها والنسوة يحدقن فيها بعبوس وامتعاض فتعوج إحداهن فمها يميناً ويساراً وهي تتمتم بكلمات قروية مستهجنة بينما الثانية رفعت حاجبيها بترفع يخفي الغيرة النسوية ولا تكلف نفسها عناء الرد وثالثة لا تعرها أي اهتمام كأنها لا تراها ولم يتبق إلا الصبية التي ترافقهن بجمالها الريفي المحبب لترد هي بابتسامة حلوة خجول: «سيري طريقك حتى آخره يا خالة ثم اسلكي الطريق على اليمين مسافة نصف ساعة وستصلين بداية السوق».

غمزت لها سُلافة وهي ترد عليها بابتسامة عريضة: «شكراً يا روح الخالة».

ثم تعمدت سُلافة أن تجعل خطوات أكثر تميعاً وإغراء ولم تعاود تغطية رأسها، بل تتلاعب بضفيرتيها في دلع أمامهن وهي تدندن بإحدى أغاني العرس التي حفظتها من ليلة الأمس، كانت تشعر بنظراتهن مصوّبة إليها فيزيدها

هذا تحدياً، حقاً ستستمتع هنا فعلت خيراً أن جدّدت صبغة شعرها في العاصمة، لا أحد سينظر لأعمق من هذه الشقرة المزيفة فليحصلوا على ما يرون.

***

دار صفوان الضاري

استقبلته عند باب الدار أم إسماعيل بابتسامة عريضة تظهر ضرسها الفضي فيدخل صفوان وهو يقول لها بوجوم: «ألم تنتهي من التنظيف بعد؟».

ردت وهي تلاحق خطواته في الدار: «انتهيت يا ابن الأكرمين؛ لكني حضّرت لك إفطارك وكنت أنتظرك لأقدمه لك في الباحة الخلفية للدار كما تحب».

يدخل للمطبخ وأم إسماعيل في إثره يكاد يتنبأ بالكلمات التي ستقولها، فقالتها بالفعل وهو يفتح باب البراد بحثاً عن ماء بارد يشربه: «قلبي يوجعني عليك يا ولدي وأنت بمفردك في هذه الدار الواسعة دون امرأة تخدمك وتؤنسك ودون أطفال تلاعبهم ويلاعبونك».

يشرب من فوهة قنينة الماء الزجاجية وما زالت المرأة تثرثر: «زينة بنات قرية الشيوخ يتمنين الزواج بك، أنت فقط طاوعني وسترى أم إسماعيل ستختار لك أجملهن وأكثرهن صِبا».

أعاد القنينة لمكانا وأغلق باب البراد ثم قال بنبرته الجافة:

«ألن تكفي عن الكذب يا امرأة أم ربما تظنين أني لا أعلم عن محاولاتك الفاشلة مع ابنة مُسلط الضاري ورد أمها عليك».

قالها وهو يوجّه نظراته إليها فتعترف أم إسماعيل في نفسها أن صفوان الضاري بضخامته الشديدة وملامحه الخشنة العابسة مع سمرته الداكنة وغرابة جمعه بين هذه السمرة في بشرته والخضرة في عينيه فيبدو كله على بعضه مُخيفاً مُنفراً كاللقب الذي يلصقونه به (الوحش)، كان يقرأ سريرتها وهو ينظر إليها بهدوء تام، لم يكن الأمر جديداً عليه ولا يؤثر فيه، في الواقع لا يدري لماذا يترك أم إسماعيل تسعى سعيها دون طلب أو حتى موافقة منه تأتي كل بضعة أيام لتنظف داره وتعد له الطعام لكن غايتها واحدة، أن تسعى لتزويجه لتنال بعض (المحبة) نقداً، وهو يصمت، لا يقول نعم ولا يقول لا، ولا يعرف هل بصمته هذا اعتراف بحاجته الشديدة لما وصفته أم إسماعيل؟ هل باتت الوحدة أكثر إيلاماً من فقده لدلال؟ أم هو الواقع الذي يفرض نفسه كي يكوّن عائلة ويعيش حياة راضية بعد سنين غربة وعذاب ونفي وإحساس بذنب وهمي؟

يبدو أن أم إسماعيل تداركت نفسها سريعاً لتقول بحمائية مصطنعة: «دعك من ابنة مسلط هذه، فليزوجوها لسائس خيول شيوخ الضاري يليق بهم، أما أنت يا شيخ فـ...».

قاطعها بحدة وعيناه تبرقان بشكل مخيف: «إياك أن تناديني بالشيخ مرة أخرى، شيخنا هو حمدان الضاري

أطال الله بعمره».

ارتبكت أم إسماعيل وهو تعتذر وتقول: «عذراً منك يا ابن الشيوخ، كانت غلطة غير مقصودة مني».

خفت البريق الغاضب في عينيه ليتحرك بخطواته مغادرا المطبخ ومتوجهاً ناحية الباب الخلفي للدار المؤدي للباحة وهو يشعر بخطواتها تلاحقه من جديد فيقول لها دون أن يلتفت ناحيتها: «لن تصلي لمبتغاك يا أم إسماعيل، جدي لنفسك (زبوناً) آخر، كما أني لست مهتماً بالزواج حالياً».

تبتسم أم إسماعيل بمكر نسوة أهل القرى، لم ترد عليه وقد سبق وقال هذه الجملة مراراً من قبل لكنه يبقي الباب مواربا، قد يكون يقاوم الفكرة ولا تعلم لماذا بالضبط يقاومها وهو فحل ضخم مكتمل الرجولة هكذا، لكنها بفطنتها كـ(خاطبة) تعرف أنه يريد، إنه رجل الوحدة تقتله والاحتياج لامرأة يشبع منه، بالغت بتدليله اليوم وهي تحضر طعامه وشرابه وتخبره بغسلها لثيابه وتدس بين كل فعل وفعل جملاً عابرة عن حاجة الرجال للنساء.

***

كان ضرغام يصب القهوة للشيخ عمران الأسدي في مجلسه والشيخ يطالعه بتفكير، تساءل ضرغام بعفوية: «هل سيتأخر الشيخ عبد الهادي بالنزول اليوم؟ قال إنه يريد تفقّد الأرض الزراعية الجنوبية».

تبسم الشيخ عمران براحة بال وهو يقول: «دعه ينزل متى

شاء، أحمد الله أني أراه سعيداً هكذا يا ضرغام كما كنت اتمنى له دوماً، كنت أحمل وزر جبري إياه على الزواج من ابنة عمه؛ لكن سبحان رب القلوب عندما يشاء ويدبر».

اكتفى ضرغام بالابتسام وهو يجالس شيخه ويسرح قليلاً متفكراً في حال الدنيا عندما فاجأه الشيخ عمران بالقول الهادئ الجدي: «ألم يحن الوقت يا ضرغام؟»».

التفت ضرغام إليه متسائلاً: «لأي شيء حان أطال الله بعمرك؟»».

أمعن الشيخ عمران النظر في وجهه ليقولها صريحة: «أن تنجب من ظهرك أولاداً يسندونك في كبرك»».

أرخى ضرغام أجفانه وهو يرد على الشيخ بالقول: «أولادكم هم أولادي، ولن أفارقهم للممات، وأنتم حفظكم الله أهلي وعزوتي وسندي»».

لم يستسلم الشيخ عمران ليقولها بصراحة أكثر: «لكن ألا تهفو نفسك لامرأة؟»».

شحب وجه ضرغام وانحسرت روحه في جسده بينما يراقبه الشيخ عمران بإشفاق، إنه هو وحده من يعرف أسرار ضرغام، ربما ليست كلها لكن معظمها، لقد رباه بعد وفاة أبيه، وبنى له داراً صغيرة ملاصقة لدار شيوخ الأسدي ليكون قريباً منه، ربما فعلها بالبداية كإحساس بالذنب لأن والده رحمه الله مات وهو يحمي الشيخ عمران بجسده من ثورة حصان جامح؛ لكن فيما بعد أدرك

أن ضرغام هذا سيكون وتداً أساسياً من أوتاد شيوخ الأسدي، قال ضرغام أخيراً بصوت خافت عميق: «يا شيخ جرّبت النساء في الزواج وفي العشق، وكلاهما انتهى بقبر».

هزّ الشيخ عمران رأسه بأسف ليسأل عما لا يعرفه أحد غيره: «أما زلت تبحث؟». يشعر الشيخ بتوتر جسد ضرغام وهو يرد عليه بحشرجة: «أدعو الله أن يطيل بعمري حتى أجده».

ثم يرفع نظراته أخيراً لمن رباه منذ كان غلاماً ليضيف بنبرة خاصة: «هل تعلم يا شيخ عمران أحياناً أكون في الصحراء فأغمر كفي في الرمال أسألها إن كانت تعرف».

دخل الشيخ عبد الهادي اللحظة وهو يقول بوجه بشوش يفيض بالابتسام: «تسأل الرمال عن أي شيء يا ضرغام؟».

يقف ضرغام على قدميه احتراماً لدخول الشيخ بينما يتقدم عبد الهادي من أبيه فينحني مُقبّلاً ظاهر كفه يتبعها بلثم كتفه وهو يقول: «صبّحك الله بالخير يا شيخنا».

يتبسم الشيخ عمران وهو ينظر لوجه ولده الذي يطفح بالسعادة، سعادة عاشق نال من امرأته ما أراد، فيقول له: «وصباحك بِشْر كوجهك يا ولدي».

يتبسم الشيخ عبد الهادي ببعض الشقاوة النادرة منه وهو يرخي نظراته قائلا لضرغام: «لم ترد على سؤالي، أم هو سر

من أسرارك مع أبي فقط؟».

يشعر ضرغام بالحرج من عدم الرد فيتلاهى بصب القهوة بينما يسارع الشيخ عمران لإنقاذه قائلا لولده ببشاشة: «دع ضرغام الآن وقل لي ما سبب ابتهاجك اليوم؟».

تتسع ابتسامة عبد الهادي وهو يرفع كفه ليأخذ فنجان القهوة من يد ضرغام قائلاً: «ربما سينعم عليَّ الله بالولد في القريب».

شعّ وجه الشيخ عمران بفرحة البشرى فقال بلهفة: «امرأتك حامل؟ ما شاء الله لا قوة إلا بالله».

رد عبد الهادي: «لم نتأكد بعد، قلت لها أن تجري اختباراً في أول فرصة».

ظل الشيخ عمران يحمد الله ويصلي على النبي بينما ضرغام يلتزم الصمت تأدباً فلا يتدخل في الحوار، فجأة قال عبد الهادي بنبرة فكاهية: «ألا تظن يا شيخ عمران أننا يجب أن نُزوّج ضرغام ونفرح بأولاده أيضاً؟ بدأت أخاف عليه من الفتنة».

رفع ضرغام عينيه للشيخ عبد الهادي ثم يرد يحاول مجاراته الفكاهة دون أن يكشف دخيلة نفسه: «أبهجك الله دائماً هكذا يا شيخ».

يضحك عبد الهادي من قلبه ثم يرفع سبابته بتحذير لرفيقه وحارسه: «لن تهرب من الشيخ، زواجك لن يكون إلا

على يدي أنا».

تنحنح ضرغام بينما عبد الهادي يضحك ووالده يقول له بتأنيب مبتهج: «كُف عن مزاحك هذا، ماذا جرى لك هذا الصباح يا ولد؟!».

ثم وجه الشيخ عمران كلامه لضرغام قائلا: «اذهب وأخبر عبد القادر أني أحتاجه إليه اليوم فلا يبرح الدار».

هز ضرغام رأسه بطاعة بينما يترك المجلس للشيخ وولده، وحالما غادر سأل عبد الهادي وكأنه يستدرك للتو فقط أمراً غاب عن ذهنه لسنوات: «أخبرني أبي وبعيداً عن المزاح، لماذا لم يتزوج ضرغام حتى يومنا هذا؟».

أطرق الشيخ عمران بينما يضيف عبد الهادي باستغراب من نفسه: «لا أدري كيف لم يخطر لي هذا السؤال من قبل».

عندها قال الشيخ عمران: «لكن ضرغام تزوج بالفعل».

***

دار مروان الضاري

خلع ملابسه عند باب الحمام تفوح منها رائحة الدم، تنظر إليه زوجته شهلة بقهر وغم، تراه يدخل الحمام ليستحم وهي تعرف وجهته أين ستكون فيما بعد، تشعر بالطعن، بالإهانة، لم تكن تتصور أنها ستعاني هكذا عندما تتزوج مروان الضاري، اقتربت من باب الحمام لتقف هناك تطلع

لزوجها وهو يغتسل تحت رشاش الماء، يكاد البكاء يغلبها وهي تتحسر على حالها، تذكرت ليلة عرسها وكيف خفق قلبها لوسامة زوجها وظنت أنها بجمالها وصباها ستخلب لبه وتنجح فيما لم تنجح فيه زوجاته السابقات، أن تنجب منه وتدفعه ليطلق دليلة، عضت طارف شفتها بقوة حتى كادت تجرحها، الدموع في عينيها تتجمع بينما تراه يمد يده ليأخذ المنشفة المعلقة قريباً منه ليجفف جسده المبتل، شبت نار الغيرة في قلبها وهي تراه بهذه الرجولة والوسامة سيذهب إلى ضرتها، لم تستطع الصمت لتتقدم وسط الحمام وهو يلف المنشفة حول وسطه لتقول له باهتياج: «لم أعد أحتمل ما تفعله، أين تذهب هذه الأسابيع لتعود إليَّ بهذا الحال والرائحة المقرفة تفوح من ملابسك؟»،

ينظر إليها وكأنه لا يراها بل يحدق بصمت ثم يتحرك ليتجاوزها مغادراً الحمام فتلحق به شهلة وتنفجر فيه أكثر: «وكالعادة تغتسل ثم تذهب إليها، تلتصق ذليلاً عند قدميها كأنك عبداً مملوكاً لرضاها وماذا عني أنا؟ أين حقوقي وأنا زوجتك و..»،

كان قد وصل إليها وفي لحظة أمسكها من مرفقها بخشونة شديدة أخرستها وجعاً لينظر إليها بنظرات رهيبة أرعبتها ثم همس بنبرة أشد ترهيباً: «سأريك من هو العبد الذليل للرضا ستنالين حقوقك بالطريقة التي تستحقينها».

جرها من ذراعها وهي تقاومها لكنه كان أقوى بكثير ليدفعها نحو السرير ودون رحمة كان يصفعها ثم يمزق

ملابسها وهي تستغيث وتطلب العفو كي يتوقف، لكنه لم يكن يسمع صراخها ولا عذابها، فصراخ عذابه أشد وأعلى من أن يسمع عداه.

***

متربعة على الأرض تجلس دليلة ومغزل جدتها الخشبي يدور أمامها، يدها اليمين تمسك على ارتفاع ألياف صوف الغنم البيضاء بينما أصابع يدها اليسار تبرمه بنعومة محترفة ليلتف كخيوط حول المغزل الدائر، عيناها جامدتان لا تفارقان النظر للمغزل، يدور ويدور ومعها ترى كل حياتها كيف دارت، ترى خيوطها على مر السنين كيف بهتت وذابت، ومغزل عمرها يأبى التوقف لكن الروح ماتت كيف.. كيف وصلت لهذا الموت وعمرها ما زال مستمراً؟

أجفلت وهي تسمع صرخات فقد مغزلها توازنه ليوقف دورانه العمودي ويقع، أغمضت دليلة عينيها بقوة وصوت الصفعات يصلها واضحاً مع الصرخات، إنه صوت شهلة، آخر ضرائرها، كانت المرة الأولى التي يحدث فيها هذا مع شهلة هبطت يد دليلة التي تمسك ألياف الصوف إلى حجرها بشعور لا تعرف له وصفاً، أهو القهر؟ العجز؟ أم.. الغضب؟ الصرخات تعذبها وقد تحولت لتوسل باكٍ، ثم شيئاً فشيئاً خمدت وتلاشت ليعم صمت كئيب طويل، ما زالت على جلستها وعيناها مغمضتان وتمر الدقائق حتى سمعت صوت باب حجرة ضرتها القريبة يُفتح، ثم تلك

الخطوات التي تقبض الأنفاس تقترب من حجرتها، ولم يطل الأمر لتشعر بدخول مروان عليها هامساً اسمها في نبرة توسل مألوفة تبغضها كما تبغض قائلها حد الموت: «دليلة».

دوماً لم تكن ترد وقد اتخذت طريق الصيام عن الكلام معه؛ لكن اليوم في داخلها تشعر بثورة، ثورة عارمة أوقدت أول الفتيل لروح منتقمة فيها، متعطشة للانتقام، فتحت عيناها في لحظة على اتساعهما وشعّت نظرة غير مسبوقة منهما ليتردد صدى ثورتها في نفسها خلف أسوار صمتها: «إنه ليس القهر وليس الغضب، بل هو الثأر.. الثأر الذي سأناله منهم جميعاً».

أشعل مروان الفتيل أكثر دون أن يدري وهو يجثو على ركبتيه جالساً أمامها يتوسل إليها بالقول: «لا تكلميني لك هذا؛ لكن فقط انظري إليَّ، لا أريد اللحظة إلا نظرة واحدة من عينيك الذبّاحتين، انظري إليَّ يا ابنة خالي، قضيت سنين عمري كلها وأنا أحلم بنظرة منك تخصني وحدي، أنا راض اليوم حتى بنظرة كره واحتقار، سيكون أهون من عذاب اللاشيء».

لم ترفع عينيها إليه، ليس لأنها ترفض منحه ما يتوسل الحصول عليه، بل لأنها لا تحتمل رؤية آثار ما فعله بشهلة واضحة المعالم على محياه، مرت دقيقة وربما اثنتان وهما في صمت هكذا، لم يكن صمتاً من جانبها، بل العكس كان صخباً عالياً في داخلها ونار الثورة والانتقام تشتد قوة واتساعاً، أغمضت عينيها مرة أخرى والنار تشتعل خلف

الأجفان المغلقة لكن لسانها نطق أخيراً بنبرة هادئة للغاية لتفطر من صيام الصمت على كلمات طلب: «أريد الخروج، أريد زيارة أمي وأهلي».

سمعت لهاث الفرح في صوته وهو يوافق بسرعة عجيبة: «لك هذا، لك ما تشائين».

هي.. لم تكن تعرف أن سعادته هذه مصدرها الوهم بمفعول سحر الدنانير

هو.. لم يكن يعرف أنه للتو فتح الأبواب لجيوش ثائرين يمزقون للعشق دساتير

***

الغزل الثاني

«خيط الحق يحتاج إلى صبر خاص في غزله.. خيط الحق هو حبل مشنقة الظالم وحبل نجاة المظلوم».

«أخبرني أبي، وبعيداً عن المزاح، لماذا لم يتزوج ضرغام حتى يومنا هذا؟».

أطرق الشيخ عمران بينما يضيف عبد الهادي باستغراب من نفسه: «لا أدري كيف لم يخطر لي هذا السؤال من قبل».

عندها قال الشيخ عمران: «لكن ضرغام تزوج بالفعل».

ارتفع حاجبا عبد الهادي عالياً وانعقد لسانه للحظات من تأثير المفاجأة وهو يحدق بوجه أبيه المطرق ثم شيئاً فشيئاً عقد حاجبيه نزولاً ليتساءل بتركيز: «متى تزوج؟ وكيف لا أعرف أنا؟».

استرخى الشيخ عمران في جلسته وغرقت عيناه الهادئتان في الماضي ليخبر ولده بما وقع من الذاكرة: «كنتَ أنت طفلاً في الخامسة أو الرابعة ولذلك أنت لا تذكر عرس ضرغام، كما أن الزواج لم يطُل إلا بضعة شهور، المسكينة ماتت في أول شهور الحمل».

تمتم عبد الهادي بتنبه: «ماتت؟».

اكتفى الشيخ عمران بهز رأسه بالإيجاب، عقل عبد الهادي يحاول تفسير الأمور وربطها ببعض بينما يتساءل

بعجب: «ما زلت لا أفهم لماذا لم يذكر أحد هذا الأمر من قبل؟».

طرح تساؤله وجملة ضرغام ترن في أذنيه (**العشق هو الموت**) ثم يغرق عبد الهادي بأفكاره للحظة فيتساءل في سره، هل قلب الرجل في ضرغام مات مع زوجته؟ هل عشقها هكذا لتمضي سبعة وعشرون عاماً دون أن ينساها؟ دون أن يتزوج بأخرى كي ينجب الذرية على الأقل؟! أتاه صوت الشيخ عمران يفسر له: «ضرغام لا يحب الكلام عن شؤونه، وأنت تعرفه في هذا، وقد مضت سنوات طويلة، حصل فيها الكثير معه ومعنا».

لكن الشيخ عبد الهادي شعر بالغيظ من جهله، ورغم معرفته بطباع ضرغام فإنه لم يستوعب لماذا لم يذكر الأمر أمامه عندما كبر؟ ثم شعر بالضيق وكأن ضرغام أقل من أن يهتموا لآلامه، لقد كبر عبد الهادي وضرغام حوله وحول أبيه وأخوته، كان يستحق اهتماماً أكثر بكثير من هذا، ضرغام الذي كان معهم في كل شدة لم يجد مواساة ودعماً منهم، هم آل شيوخ الأسدي، بإصرار أراد عبد الهادي معرفة الحكاية كلها فسأل أباه: «إن كنت أنا في الخامسة أو الرابعة فهو كان دون العشرين، أليس كذلك؟ أخبرني أبي كيف تزوجها؟».

فرد الشيخ عمران وعيناه تسرحان بالماضي: «كان قرابة العشرين، شبّ قوياً صلداً، وفياً شجاعاً، أميناً مؤتمناً، كتوماً لا يشتكي ولا يطلب، يحمل من الحكمة المبكرة كما يحمل

من هدوء نفس وضبط الانفعال، كان، وما زال، رجلاً بحق في الشدائد، جاءني يوماً وقال (يا شيخ أريد أن أكمل نصف ديني وأعفّ نفسي من الوقوع في المعاصي فهلا اخترت لي عروساً من بنات الأسدي)».

تبسم الشيخ عمران للذكرى ببعض الشجن فتبدو ملامح وجهه أكثر ترققاً وضعفاً ليضيف: «كان نجولاً مع النساء فلم يبحث أو يطلب الود من إحداهن، فساعدته واخترت له، صبية طيبة ومن بيت طيب، رحمها الله».

التزم عبد الهادي الصمت بينما والده يكمل الحكاية وقد أسهب على غير عادته وكأن الشيخ عمران يكلم نفسه: «حملت الفتاة منذ ليلة عرسها لكنها منذ الأشهر الأولى بدأت تشعر بالتعب، وعندما أخذها ضرغام للطبيب علما أنها معتلة القلب والحمل خطر عليها».

يهز الشيخ عمران رأسه بأسف وهو يفسر (أسفه) تلقائياً بكلماته: «الجهل والخوف آفات قاتلة يا ولدي، لقد رفضت الفتاة إجهاض الجنين واستخفت هي وأهلها بكلام الطبيب، أنت تعرف عقول النساء، خشيت أن يتزوج عليها أو أن يطلقها، لم يستطع ضرغام إقناعها على الإطلاق رغم كل محاولاته، لتأتي مشيئة الله وتموت المسكينة قبل أن تكبر بطنها بما تحمل».

إحساس غريب مُحير ينتاب الشيخ عبد الهادي، رغم الحكاية المحزنة التي تتكرر كثيراً في قريتهم خاصة في ذاك

العهد فإنه يشعر بوجود أمر منقوص، عاد عقله ليطرق في إلحاح بجملة ضرغام **(العشق هو الموت)** فلا يجد فيها صدى في هذه الحكاية ولا يعرف لماذا؟! بحدس فوري انتابه سأل عبد الهادي بشكل مباشر وهو ينظر لأبيه: «هل هي من عشقها حد الموت؟ أنا أعرف عن يقين أنه عشق امرأة».

لم تغب عن ناظري عبد الهادي لغة الجسد لوالده، في لحظة رأى جداراً يفصله عنه يحتجب خلفه بحركة شبه دفاعية أذهلت عبد الهادي وحيّرته؛ لكن عبد الهادي لم يتوقف عند ذاك الجدار وقد التزم والده الصمت ليسأل بإصرار: «لماذا تصمت هكذا يا شيخ عمران؟ أخبرني بما تحاول حجبه عني».

أيضاً لم يرد الشيخ عمران مما زاد من حيرة عبد الهادي ودهشته تتضاعف ليكتفي عبد الهادي بالقول: «إن كنت لا تريد اطلاعي على المخفي من ضرغام وهو أقرب الناس إليَّ فعلى الأقل أخبرني لماذا لا تريد؟ ألست جديراً بالثقة منك؟».

عندها فقط رفع الشيخ عمران نظراته لولده ليقول بحنان الأب وفخر الشيخ: «كلي ثقة بك أكثر من ثقتي بنفسي».

فتساءل عبد الهادي بثبات: «إذن لماذا لا تريد؟».

رد الشيخ عمران بجملة واحدة: «لأني لست مأذوناً لأتكلم».

عقد عبد الهادي حاجبيه ببعض الاستنكار لفكرة أن والده لا يستطيع الإفصاح إلا بإذن: «أنت شيخ الأسدي ولك حق ليس لغيرك».

فرد الشيخ عمران بحكمة: «بل أنت شيخ الأسدي الآن، واعلم بني أن حتى المشيخة لا تبيح لنا كشف المستور دون استئذان».

صمت عبد الهادي وهو يتبادل النظرات مع أبيه ليسأل هذه المرة: «هل ضرغام من طلب منك عدم الإفصاح؟ حتى لي أنا؟».

رد الشيخ عمران بتفهم خاص: «لم يكن يحتاج ليطلبها صريحة، أنا أفهمه كما أفهم نفسي، إنه سره هو وموضع شقائه وبلائه فلن أعرّيه أنا، لقد ابتلاه الله وارتضى هو الابتلاء بصمت وزهد بالدنيا وما فيها».

عندها قال الشيخ عبد الهادي بيقين وعقله يفسرها: «إذن هي امرأة أخرى».

صمت الشيخ عمران ولم يرد وفي صمته كانت بعض الإجابات ليقول عبد الهادي وكأنه يكلم نفسه بعجب: «كيف لم أدرِ به ولم أشعر بحاله وهو يكاد يلازمني كقرين».

ثم وجه كلماته لأبيه مضيفاً: «فقط أخبرني أبي متى حصل هذا؟ أكنت طفلاً أيضاً لا أفقه ما يدور من أسرار؟».

بعد تردد استجاب الشيخ عمران لحيرة ولده ليمنحه بعض الإجابات: «بل كنتَ في الثامنة عشرة، حصل عندما ذهبت إلى العاصمة كي تدرس في الجامعة».

صمت عمران للحظة وعيناه تسرحان بالماضي قبل أن يضيف بشجن خاص: «كان قبل وفاة شقيقيك بعامين أو أقل أو ربما أكثر، رحم الله كل أمواتنا، ثم مرّت الأيام والسنون وقد انشغلنا جميعاً بمصابنا في أخويك وهموم العشائر».

تنهد الشيخ عمران للحظة متذكراً وجيعته في فلذتيّ كبده قبل أن يتمتم: «في كل الأحوال يا ولدي حتى لو كنت هنا لم تكن ستعرف، لا أحد في القرية بأسرها قد علم بمصاب ضرغام إلا أنا و.. العجوز عجمية».

قدحت عينا عبد الهادي عند ذكر (العجوز عجمية) ففتح فمه ليسأل المزيد لكن كف الشيخ عمران ارتفعت في حركة قاطعة وهو يقول منهياً الحوار: «ولا تسألني عن شيء بعدها، صمتت الألسن وأُغلِق الباب».

صمت عبد الهادي وقد علم أنه لن يعرف المزيد من أبيه؛ لكنه اللحظة لا يفكر إلا أنه لم يعرف ضرغام قط بهذا العمق رغم رفقتهما الطويلة التي تعمقت على وجه الخصوص بعد وفاة شقيقيه، وكأن ضرغام نذر نفسه ليكون السند ويعوضه ما فقد، شعر عبد الهادي بالتقصير الشديد نحو صاحبه وأنه لم يوفيه حقه، حتى إنه لم يخطر

بباله أن يسأل عن سبب عزوفه عن الزواج إلا اليوم.

***

وسط جلسة عائلية حميمية في بيت بشرى حيث اجتمع الجميع يتبادلون الحوارات العامة كانت بشرى تبتسم وهي تكلم والدة فراس قائلة: «أتمنى أن مبيتكم في عيادة فراس كان مريحاً».

فترد والدة فراس: «الحمد لله، رغم أن السرير لم يكن من النوع الذي يريح ظهري لكننا تدبرنا أمرنا».

ثم أخذت والدة فراس تتطلع هنا وهناك وهي تتساءل: «ألم تعد بعد ابنة خالة نرمين؟ لقد تأخرنا عن زيارة العرسان».

عندها هبّت نرمين من جلوسها جوار الخالة بشرى على قدميها لتقول وعيناها تطرفان عفوياً نحو الخالة نجاة الجالسة جوار زوجها العم كريم فتقول بإحراج تحاول جهدها إخفاءه: «سأتصل بها مجدداً، أظنها تاهت بين طرقات القرية».

فيعرض أحمد بطيب خاطر: «أستطيع الذهاب لإحضارها بسيارتي فقد بتّ أعرف كثيراً من طرقات القرية، فقط فلتصف لنا أين هي بالضبط».

هزّت نرمين رأسها وخداها يتوردان حرجاً بينما تنسحب للمطبخ وهي تزم شفتيها بغيظ وغضب، اتصلت بسلافة

مرة أخرى لكن دون جدوى، يبدو أن شبكة الاتصالات بالقرية غالباً سيئة، أخذت تمتم بسخط: «ماذا أفعل بك يا سلافة؟ إلى متى تحرجينني هكذا وتسيئين لنفسك؟».

وضعت الهاتف بخشونة على المائدة الصغيرة بالمطبخ وهي تغمض عينيها وتقول بيأس: «يا ربي ماذا أفعل؟ لا أستطيع التخلي عنها ولا أستطيع توريط الآخرين بمشاكلها، كيف أساعدها.. كيف؟».

شعرت بخطوات خلفها تدخل المطبخ فالتفت بحرج متزايد وهي تظن القادم الخالة بشرى فتنفست الصعداء عندما وجدت مرام التي قالت بتعاطف: «لا تضغطي على نفسك هكذا يا نرمين، ولا تقلقي، سُلافة ستكون بخير هنا، رهف وفراس معها، وأمي أيضاً ستراعيها وتهتم بها، لقد أخبرتني ليلة الأمس قبل أن ننام أنها ستبقى مع سُلافة بهذه الدار حتى يتم ترتيب مكان إقامة مناسب لها مع باقي الممرضات وعندها ستنتقل أمي للعيش مع رهف وفراس».

رفعت نرمين يدها لجبينها تدلكه بتوتر وهي ترد على مرام: «مؤكد أنا شاكرة جداً لمعروفكم مع سُلافة لكن هذا تحديداً ما يقلقني، أشعر وكأني أورط أشخاصاً معي بالمشكلة وأقحمهم بالتعقيدات، لا أريد التسبب لأحد بالإحراج، لكن سلافة..».

قاطعتها مرام بالقول: «سُلافة تحتاج لتستعيد إيمانها

بالناس، لقد عانت كثيراً وكلنا نتفهم هذا».

ثم صمتت للحظة قبل أن تضيف ببعض الشرود: «الناس لا يرحمون يا نرمين، عندما يجدونك في موقف اتهام لا يهتمون بالتحقق من حقيقتك، يحبون الأحكام المُدينة، وكأنها تزيدهم إثارة واستمتاعاً لا يأبهون بآلام أحد ولا يقفون للحظة كي يتفكروا بتأثير ما يفعلونه بغيرهم».

نظرت نرمين بعمق لأخت رهف الكبرى، أخذت تفكر أن مرام أيضاً عانت من سوء نظرة الناس لها، لكن وضع سُلافة أكثر تعقيداً وأسوأ بكثير، وكأن مرام أدركت ما يجول بخاطر نرمين لتقول لها بتفهم: «أنا أعلم أن ما عانته واختبرته من صدمات واتهامات شنيعة لا يقارن بغيرها، لكن من معرفتي البسيطة بها أظنها ستجد توازنها من جديد».

أخذت نرمين نفساً عميقاً ثم أطلقته ببطء قبل أن تقول بأمل: «أتمنى هذا من قلبي يا مرام، إنها لا تستحق ما حصل لها، لا تستحق على الإطلاق».

وقبل أن ترد مرام كان صوت سُلافة يأتيهما من غرفة الجلوس وهي تضحك وتثرثر بعلو صوتها حول رحلتها الاستكشافية (كما أسمتها) في قرية الشيوخ، قالت مرام متبسمة: «يبدو أن سُلافة استطاعت إيجاد طريق العودة ولم تته كثيراً». استعادت نرمين طبعها الفكاهي وهي ترد: «لن أستغرب أنها هي من ستدلنا إلى بيت فراس ورهف،

هذا إن لم تكن زارتهما قبلنا بالفعل»».

تضحك مرام وهي تتأبط ذراع نرمين لتخرجا معاً من المطبخ.

***

يقف ضرغام في ظهر الشيخ عبد الهادي صامتاً بينما الشيخ يستمع لشكوى الفلاحين وبعض مطالبهم، عينا ضرغام لمحتا الفلاحات الصغيرات يقفن في حمى آبائهن وهن يستمعن وينظرن للشيخ عبد الهادي بمهابة ووجل يمتزجان بالإعجاب، التجهم الطبيعي على وجه ضرغام لم يتغير؛ لكنه من الداخل يعيش قصة أخرى، لقد كانت مزنة مثلهن، فتاة بسيطة ابنة فلاح؛ لكن فلاح كسول جشع نخذل من احتمت بظله وتعلقت بأمان أبوته.

(ضرغام، إلى أين ستذهب اليوم يا ضرغام؟).

مزنة، كم اشتاق صوتها، تلك اللهفة منها التي كانت تجعل قلبه كهلام مرتجف ضعيف القوام يرتج بهمسة عشق منها، عشقته وبحثت في ظله عن حماية، لاحقته وأوقعته بتلك البراءة الماكرة حتى بات يلاحقها وهو لا يشعر بنفسه.

(لا تتأخر خارج القرية، أنا أخاف دون أمان وجودك يا ضرغام).

لأشهر جعلت من نفسها مداراً له، فرضت كواكبها

المنيرة في سمائه، كان يضحك من جملها تلك وهي تقولها بجدية وتعلق عجيب.

في البداية لم يكن يراها إلا طفلة، صبية صغيرة لم تتجاوز السادسة عشرة بينما هو كان في الثانية والثلاثين ضعف عمرها الغض، رآها للمرة الأولى وهي تبكي وسط الترعة وكاحلها الملتوي يؤلمها فساعدها وأخرجها من هناك وأسندها حتى باب دار أبيها، ومنذ تلك اللحظة كانت تحين الفرص بمكر لتلاحقه دون أن تلفت الانتباه إليها.

لم تكن صبية طفلة كما اعتقدْ

بل امرأة حرّة أرادته لحياتها وَتدْ

وحين لبّى كان الجسد قد همَدْ

ارتعدت أوصاله وصورة العجوز عجمية تتجسد أمامه، **في ليلة مقمرة وهو يجول منفرداً يتفكر بالصبية التي لم يعد يراها صبية، وبين فكرة وفكرة ظهرت له العجوز عجمية، كانت وكأنها تلك الليلة قد وقفت بانتظاره وعلى مفرق طرق تركت له اختيار تقبل أقداره**، هو ضرغام الذي لم يخف أحداً إلا الله، في طول حياته وعرضها، أوقعت تلك العجوز في قلبه رعدة لا سابق لها ولا لاحق، وجدها بين أشجار النخيل تقف عابسة تلامس بأناملها جذع نخلة وعيناها تبرقان بلون أزرق رهيب، اقترب منها يصارع تلك الرعدة في قلبه ليسألها وهو لا يعرف هويتها: «أأنت بخير يا خالة؟».

هتفت به: «أنا عجمية ولست خالة».

وقبل أن يقول شيئاً اقتربت منه بقامتها القصيرة وقدها النحيل الضئيل تضيف بنبرة صوت ما زالت حتى بعد هذه السنوات يتردد صداها في أعماقه: «**يا أسديّ أنت مُبتلى، فاصبر على إرادة المولى، جئتكَ برسالة، فانصت وتدبر المَقالة، أرى وشاح العِفّة مُعلقاً بجذع نخلة، وأنت بعيد تأخذُك الغفلة، النخلات تهمس لبعض اسمها، والمُزن تمطر دمعها، لن يبقى لها ذكر بالدنيا إلا في قلبك، ولن تزورها إلا في حلْمك**».

ثم اقتربت أكثر وهو مسمّر مكانه كأنه أمام أمر عظيم جلل يجهله لتضيف العجوز بترنيمة أشبه بنواح وترانيم النسوة في المآتم: «**سيتناثر الدم على وجهك ويختلط بالدموع.. أيا ساكني القبور كيف السبيل للرجوع؟**».

فجأة قاطعهما صوت منادٍ: «أماه، أماه».

فانطفأت عينا العجوز وبدت مرهقة في لحظة وهي ترد النداء: «أنا هنا يا عبد الملك، أين تركتني وذهبت؟».

كل هذه التفاصيل من تلك الليلة يذكرها ضرغام بوضوح شديد، كيف أتى عبد الملك الشيخ ليصطحب أمه وهو يشكر ضرغام لأنه وجدها، وفي الواقع هي من وجدت ضرغام لا العكس.

«ضرغام، هل أنت بخير؟ وجهك شاحب للغاية وتبدو مرهقاً».

تنبه ضرغام من شروده على صوت الشيخ عبد الهادي فالتفت إليه معتذرا: «أنا بخير يا شيخ، ربما لم أنم جيداً ليلة الأمس»

رأى ضرغام في عيني الشيخ تساؤلات مجهولة فقال له بتلقائية: «خيراً يا شيخ؟ أرى في عينيك ما يثير حيرتك وتساؤلك، هل قال الفلاحون شيئاً يستدعي البحث عن إجابات؟»».

بغموض وهدوء رد الشيخ عبد الهادي وهو يتحرك بخطواته ليتقدم ضرغام: «بل شيخنا عمران من قال، لكن دع الأمر الآن سأتصرف فيه بنفسي»».

ببعض الحيرة لحق ضرغام بخطوات الشيخ نحو السيارة ليغادرا المزرعة والصمت يفرض سلطانه عليهما معاً وكل لأسبابه.

***

دار سطام الضاري (والد دليلة).. قرابة العصر

تجلس جوار أمها وعيناها تعكسان احتداماً داخلياً لا أحد يشعر به، منذ ساعة أصر مروان أن يحضرها بنفسه إلى دار أبيها، فجاورته الجلوس في سيارته وهي لا تتفوه بكلمة فقط تنظر للأمام كأنها تمثال شمع لا روح فيه.

«لماذا تصمتين يا ابنتي؟ أبعد كل هذا الغياب عنا تلتزمين الصمت»».

ردت وعيناها الثائرتان تشعان: «غيابي بأمر من مروان».

فترد أمها وهي تتجنب النظر إليها مباشرة: «طاعة الزوج واجبة، هذا شرعنا وعرفنا».

للحظة.. لحظة واحدة فقط، تجمد شعاع الثورة في عينيها، ثم في اللحظة التالية كان يشتعل متأججاً لتصرخها من أعماقها: «مروان ليس زوجي وأنت تعرفين».

شهقت الأم وهي تضرب على صدرها وتقول مصدومة: «أجننتِ يا دليلة؟ اقفلي فمك قبل أن يعود أبوك ويسمعك».

ما زالت تلك الثورة تتأجج والكل يسعى ليضع فيها حطبه دون أن يدري، تتسابق كلماتها مع أنفاسها اهتياجاً لتفجر كل ما كتمته لعشر سنوات ولم تخبر به مخلوق فاكتفت أن يعلم به الخالق: «أقفلت فمي لعشر سنوات لأني كنت لا أبالي ظننت موت من أحب سلبني حق المبالاة بأي شيء يحدث لي في هذه الدنيا وقد خذلني الأحياء فيها، ظننت أني انتصرت حتى على فراق الموت فعشت زاهدة صابرة راضية بمرارة العيش انتظر موتاً لي كي ألقى من فارقت».

كانت أمها تنظر إليها وتكاد لا تفقه كلمة بينما تضيف دليلة باهتياج أشد وصورة صفوان تتجسد كأنها حية أمامها: **«حتى اكتشفت حمقي وأن الموت من تهمة الفراق بَراء اكتشفت أن العهود كُتِبتْ بحبر نقضها ولم تكن إلا**

هُراء».

أخذت الأم تلطم على خدها وتقول: «ماذا تهذرين؟ لا حول ولا قوة إلا بالله».

لم تكن دليلة تسمع ولولة أمها، لم تكن ترى إلا صوت ثأرها يصرخ متوعداً في وجوههم جميعاً وأولهم هو.. خائن العهود.

خفتت مشاعل الثأر في عينيها لتحيلها بإرادتها رماداً يخفي تحته الجمر الذي لن ينطفئ ثم نظرت لوجه أمها المتعب لتسألها ببعض الترقق: «لا تهتمي أمي لهذري، أخبريني عنكم كيف أخواتي البنات؟».

تنفست الأم الصعداء وهي تطمئن نفسها أن كبرى بناتها بخير ولم تفقد عقلها لترد عليها وفي عينيها ينبض أمل وعتب: «أخواتك بخير الحمد لله، كل واحدة منهن مشغولة بدارها وأولادها، لكن، ألن تسأليني عن حال أخيك جابر أيضاً؟».

سكنت تعابير دليلة ثم أرخت أهدابها وهي تشعر بخواء موحش، حتى الخواء له جدران، وجدرانه أن أمعنت النظر فيها ستجدها منقوشة برسوم الظلم والخذلان والقهر فتحيل قلب البشر إلى خواء، أضافت الأم لترقق قلب الأخت على أخيها: «قد يجري عملية خطيرة قريباً».

وقفت دليلة على قدميها لتترك أمها في مجلسها وهي تقول بهدوء بارد: «يجب أن أعود للدار».

رفعت الأم نظراتها لابنتها فتراها تضع الوشاح الأسود فوق رأسها فتسألها بعجب مختلط بالتوتر والقلق: «لكن.. ألن تنتظري زوجك ليعيدك بنفسه؟ أنت لم تريّ حتى والدك».

قلبت دليلة جزءاً من الوشاح ليغطي كامل وجهها كخمار ثم قالت بالهدوء البارد نفسه وعيناها تلمعان مجدداً من خلف القماش الأسود: «جئت لأراكِ أنت وأطمئن على أخواتي البنات ولا أظن أبي يهتم بحضوري من عدمه».

وقفت الأم على قدميها وهي تتساءل بجزع: «بنيتي دليلة لكن كيف ستعودين؟».

ردت والعزيمة تظل من تلك العينين المعبرتين: «سأمشي في القرية، مضى زمن طويل لم تطرق قدمايّ دروبها».

انحنت دليلة للأمام كي تعانق أمها مودعة بينما تتوسل إليها الأم بالقول: «يا ابنتي تعقّلي، زوجك سيغضب ولن يسمح لك بالخروج مجدداً».

ابتسمت دليلة ابتسامة قاسية وهي ترد على أمها بالقول: «لا تقلقي، منذ اليوم ستتغير الأمور ولن تعود لسابق عهدها».

تحركت دليلة مغادرة والأم تشيعها بنظرات الخوف والحيرة.

***

بستان ذياب الضاري

وسط ظلال أشجار البستان التي حجبت شمس العصر يجلس الأخوة الضاري على بساط وثير أُفترش من أجلهم حال وصولهم لتناول الغداء، الفلاح عبد الواحد الذي يسكن بيت الطين في البستان مع عائلته كان يحضر الطعام الذي تعده زوجته من داخل داره كي يقدمه لأصحاب المكان، تساعده ابنته وهي تناوله خبز التنور من عند الباب، عينا خلفان اللامعتان ترصدان حركة تلك الفتاة التي تتهرب منه عابسة وهي تداري وجهها الأسمر بطارف وشاحها كأنها تصد النظرات المصوّبة إليها، يقترب أبوها ليقدم الشاي بوجوم لكنه لم ينطق بحرف بينما يرفع أطباق الطعام بعد انتهاء الأخوة الضاري من غدائهم، ما زال خلفان بتحدٍ أرعن يراقب الفتاة الواقفة بالباب تنتظر أخذ الأطباق من والدها الذي أخذ يصرخ فيها كي تدخل وترسل أمها كي تأخذ هي الأطباق منه، يتبسم خلفان وعيناه تشعان غروراً وصلفاً واستهانة بينما يزجره أخوه الأكبر ذياب بالقول الخافت: «كفاك ما فعلت حتى الآن دع الفتاة في حالها ولا تزعج عبد الواحد أكثر، الآن فقط عرفت سر إصرارك على أن يكون لقاؤنا في بستاني أنا».

يضحك خلفان مقهقهاً بينما يلتفت ذياب لشقيقه مروان الذي لم يقل إلا بضع كلمات منذ حضورهم إلى هنا، حتى الأكل لم يمسّه إلا قليلاً وبدا كأن نفسه تعاف الطعام أو تنفر منه، تنهد ذياب في هم وهو يرى مروان

بنظرات جامدة شاردة يحدق في الفراغ فيقول له محاولاً جذبه لأي حوار: «هل ترضيك أفعال أخيك؟ يجب علينا أن نزوجه قبل أن يفضحنا».

لم يستجب مروان وكأنه لا يسمع حتى، بينما يعترض خلفان بقوة: «من قال إني أريد الزواج؟».

ثم أخذ يعدّل عقاله وكوفيته بتباه ويمرر يده فوق شاربه ولحيته السوداء قائلا: «دعني أستمتع بعزوبيتي وشبابي، سيكون خسارة للنساء زواجي بواحدة فقط».

ثم عاود الضحك وذياب يعبس ليوبخه بالقول: «يجب أن نتعقل يا خلفان، سمعتك بدأت تتسخ بما تفعل وتظن نفسك تفعله في الخفاء ولا يدري عنه أحد لقد جاءتني شكاوٍ عنك أنك تتحرش بالفلاحات في الحقول».

يهز خلفان كتفيه وهو يرد بتبجح أكبر وغرور ذكوري ذي منطق معوج: «النساء خلقن لإرضاء الرجال، إنه فخر لهن أن يخدمننا فما بالك إن عاشرهن واحد من الأسياد».

نهره ذياب بالقول: «أخفض صوتك وإلا سيصل لمسامع عبد الواحد وأنا لا وقت لدي لأضيعه في إيجاد فلاح أمين بديل عنه، يهتم ببستاني نظير أجر زهيد».

عبس خلفان قائلاً بتبجح سافر: «ومن يكون عبد الواحد هذا لأخفض صوتي لأجله؟ مجرد فلاح حقير يسكن بيت طين، هو وأهل بيته كلهم طوع أوامرنا ورغباتنا».

يزفر ذياب بقوة يأساً من حمق خلفان وصغر عقله بينما يطفو الحقد في عيني خلفان ليضيف بكره: «عبد الواحد هذا يذكرني بضرغام الأسدي، كم أمقته، يحسب نفسه ذا قيمة وشأن وهو ليس إلا خادم شيوخ الأسدي وابن سائس خيولهم».

رد ذياب يحاول جهده جعل أخاه ينضج وينزع حلة الغرور والتباهي التي تحكم عقله فيجهل قيمة عدوه: «ابن سائس الخيول اليوم له أكبر حظوة عند شيوخ الأسدي، بل وذراعهم الأيمن كسيف بتار، يضرب بمقتل ويحمي بالروح لا يهاب الموت».

يعبس خلفان بلا رضا بينما يضيف ذياب: «لا تستهن بقدر رجال من هذه العينة، حتى لو كان مقامهم لا يرقى لمقامك».

عاود ذياب الالتفات إلى مروان ليحاول مجدداً إشراكه بالحوار قائلاً: «ألا توافقني الرأي يا أخي؟».

تطلع مروان بنظرات لا حياة فيها إلى وجه أخيه الأكبر، كانت عيناه فارغتين أو توشك على النضوب كأن أحدهم يسحب الحياة منهما ببطء فأضاف ذياب بجدية: «مروان بالله عليك ألم يئن الأوان لتفيق؟ أنا أحتاج دعمك ودهاءك يا أخي، أين أنت؟ لا أعلم ما جرى لك منذ عودة صفوان».

عند اسم (صفوان) هبّ مروان على قدميه وهو يقول

على عجل: «أنا.. ذاهب، دليلة تنتظرني في دار أهلها كي أعيدها لداري».

يغادر مروان دون انتظار بينما يضرب ذياب كفاً بكف وخلفان يعلق باشمئزاز لم يعد يخفيه: «منذ عودة صفوان وهو لا نفع فيه إنه يفقد عقله ولم يعد لدي شك أنه يتعاطى حبوباً مخدرة».

زجره ذياب بعنف: «لا تتكلم عن أخيك هكذا وإياك أن يفلت فمك الثرثار بهذا الهذر عنه أمام أحد».

أخذ خلفان يتأفف بتذمر بينما ذياب يمسح وجهه بكفه في إحباط وهو يتمتم في سره: «لا أدري ماذا سأفعل لوحدي، مروان تائه الفكر في عالم آخر، وخلفان أهوج مغرور قليل الفطنة».

***

دار الحاج عبد القدوس

في سكون دار بسيط تلمس زهد صاحبها في تلك البساطة التي تناثرت في غرفة الاستقبال ببضع قطع أثاث، أريكتان من الخشب تطري الجلوس عليها فرشات من القطن المنجد وتقابلهما طاولة مستطيلة من الخيزران، رفوف خشبية كثيرة تراصت عليها كتب لا تحصى في الفقه والشريعة ودراسات في تعدد المذاهب والأديان، قراءات فلسفية وروحانية وأخرى عن التسامح والتقارب بين مختلف البشر، مؤلفات في علوم النجوم والفلك وأخرى

في علوم الاجتماع، إن كانت بساطة الأثاث تعبر عن زهد صاحب الدار فإن كتبه تعكس غناه العقلي والروحي، إنه الحاج عبد القدوس بملبسه الزهيد أو كما يناديه معظم أهل القرية بـ(مولانا) ممن حضروا له دروساً في الصغر فكان لهم خير مُعلّم وموجه، ولأجل هذا الكل يُكِنُّ له احتراماً يخصه وحده، تجلس دليلة على الأريكة المجاورة لأريكته وباب غرفة الاستقبال مفتوحة للحديقة فتصل زقزقة العصافير التي تجد وقت العصر أنسها الخاص، كانت قد رفعت مقدمة وشاحها لتعيده للخلف فيظهر وجهها بكل خطوط العزم التي رسمت ملامحها وبعد أن أنهت كلامها ظل الحاج عبد القدوس صامتاً مطرقاً وقد تركها تقول كل ما تشاء دون مقاطعة، وعندما طال صمته سألته ولهفة من نوع خاص تشعُّ من عينيها كما تشع من كلماتها: «ماذا قلت يا مولانا؟».

كف الحاج عبد القدوس اليمين تربت فوق ظهر اليسار وكأنه يتفكر ثم مرت لحظات أخر ودليلة تنتظر، أخيراً قال برخامة صوت طالما أثارت محبة الله في القلوب عند نداء أذان الصلاة: «ملخص ما قلته يا ابنتي أن مضت عشر سنوات على زواج بعقد باطل فهل لي أن أطرح سؤالاً أو اثنين؟».

فسارعت دليلة لترد: «اسأل ما تشاء يا مولانا».

قال بتأنٍ ودون أن يرفع نظراته: «هل كان يحبسك في الدار طوال هذه الأعوام؟». صمتت للحظة قبل أن ترد

بوجوم: «لا».

فطرح سؤالاً آخر بنفس الهدوء والتأني: «هل منعك بأي طريقة من الحضور إلى داري كما فعلتِ اليوم؟».

تشابكت أصابع كفيها وهي ترد مجدداً: «لا.. لم يفعل».

توقفت كفه عن التربيت فوق الأخرى ليقول بنبرة الأمر الواقع: «إذن لعشر سنوات ارتضيتِ هذا الزواج».

هتفت دون شعورها: «لم أرتضيه أبداً، لقد اغتصبني منذ الليلة الأولى».

لم يرفع نظراته حتى الآن بينما يعاود مواجهتها بالواقع: «لكنك صمتِ، لعشر سنوات لم تقطعي الطريق إلى داري وتدقّي بابي لتصارحيني بكذبة والدك سامحه الله حول موافقتك المزعومة، فهل لي أن أسأل سؤالا ثالثاً وأقول (ما الذي منعك)؟».

أغمضت عينيها تستذكر عشر سنوات عاشتها في دار ابن عمتها مروان مغصوبة، كيف ستشرح للحاج عبد القدوس أسبابها الغبية؟ الكلمات خرجت من فمها دون شعورها: «كنت أعيش في وهم جعلني.. لا آبه».

عندها فقط رفع الحاج عبد القدوس رأسه لينظر إلى من عرفها طفلة وعلمها قراءة القران في صفوف تلاميذه وقد كانت من أشقى الأطفال وأكثرهن قوة وصلابة لتغدو اليوم بهذا الحال المتخبط والثورة تطل من عينيها، رغماً

عنه تسلل إلى نفسه عودة صفوان الضاري المفاجئة للقرية وقد ظنوا جميعاً أنه مات، وهو أكثر من يعلم كما أرادا بعض وقد توسّط لهما مراراً كي يقنع أباها بقبول صفوان لكن الأب رفض، قال الحاج عبد القدوس في تساؤل رابع وفي نفسه يخبئ تخمين الإجابة: «وعندما تبدد الوهم قررتِ.. إبطال العقد؟»».

ردت ببعض العنف: «أنا أريد حقي، إبطال زواج عقده باطل من الأساس»».

شعّت عيناها بمزيد من الثورة فذكّرت الحاج عبد القدوس بالطفلة التي كانت عليها يوماً بل رأى في تلك العينين ما لم يره فيهما قط من قبل، رأى ظلماً وظلاماً، رأى رغبة انتقام وثأر، صبر ولم يتعجل فمنحها ما قد يدحض تخمينه ليقول مُقترحاً: «إن كنتِ لا تطيقين عشرته دعيني أتدخل لأقنعه بتسريحك بإحسـ..»».

قاطعته بحدة دون شعورها وبنبرة لا تراعي آداب الحديث مع شخص بمقام: «لا.. لا أريد أن تقنعه ليطلقني، هو لم يتزوجني ليطلقني عقد زواجنا باطل، أريد كل من في القرية أن يعلموا هذا، أن أبي زوّر موافقتي، وأخي أعانه وحرّضه، ومروان شاركهما فيما فعلاه، أريد أن يعلم أهل القرية جميعاً الجرم الذي وقع عليّ منهم، أريد أن تسوَدَّ وجوههم ولا يبقى مجلس رجال يقبل حضورهم»».

صدرها يعلو ويهبط في تلك الثورة التي أفلتت عقالها

لكن الحاج عبد القدوس واجهها بحقيقة ما تريده: «أنت إذن تريدين الانتقام بالفضيحة، تريدين فضح أبيك وأخيك، فضح زوجك».

هتفت ولم تعد تحتمل أن يصفه بـ(الزوج): «ليس بزوجي.. ليس زوجي.. أشهد الله أنه ليس زوجي، ساعدني يا مولانا لأسترد حقي منهم جميعاً».

يعقد حاجبيه وقد عادت هيئته للمعلم الصارم عند الخطأ فيقول لها: «أساعدك لرد حقك بالشرع والقانون لكني لن أساعدك بالفضائح».

قالت ودموع قهر غاضب تتجمع في عينيها: «لست أنا من سعى للفضائح، هم من فعلوها».

حاول الحاج عبد القدوس من جديد ليحتوي غضبها المتراكم فقال بحزم: «دعيني أكلم زوجك ليفارق».

ردت بيقين: «لن يفارق إلا بالإجبار».

ثم رعشة انتابت صوتها وهي تضيف: «كنت أظنك قادراً على إبطال زواج تم دون موافقة العروس، زواج عقدته أنت بنفسك يا مولانا».

نغزته رغم أنه لا ذنب له، لكنه لم يدعها تتلاعب به وهو يتذكر كيف كانت تخدعه في طفولتها فهادنها ليشغلها عن السعي في طريق شائك: «يا ابنتي إبطاله اليوم فضيحة كبرى لك ولأهلك وعشيرتك، إن لم يكن يهمك فضيحة

أبيك وأخيك جابر المغترب لعلاج فاهتمي بأخواتك البنات، أنت تشهرين بنفسك عندما تقولين إنك عشت لعشر سنوات تعاشرين رجلاً بعقد باطل هل تدركين معنى كلامك في مجتمع قرية كقريتنا؟ وماذا سيكون مصيرك بعدها؟ لن يرحمك أحد وأولهم والدك والكل سيقول (معه حق)».

نظرت إليه مطولاً قبل أن تقول وعيناها في عينيه كأنها تجاهر بمظلوميتها بعد صمت السنين، تصرخ بضياع حقها: «إذن الأعراف في القرية انتصرت على الشرع يا مولانا».

رد الحاج عبد القدوس وهو يقف على خط الحياد العادل بين حقها في كف الظلم عنها وبين ما تحاول فعله بالثأر لن يودي بأحد إلى خير: «معاذ الله، شرع الله فوق كل عُرف؛ لكن المشرع يجب أن يراعي أعراف البلد دون نقض للشرع نفسه».

أرخت أجفانها وكأنها تغلق باباً لكنه لم ييأس ليقول لها ناصحاً: «الخط الفاصل بين الظالم والمظلوم أحياناً يصبح رفيعاً للغاية، فاحذري يا ابنتي في خطواتك فتجدين نفسك بين ليلة وضحاها قد عبرت من هنا إلى هناك، وأعرضها عليك مرة أخرى، دعيني أكلم مروان وأقنعه كي يفارق».

ردت دليلة: «لا تتعب نفسك دون طائل يا مولانا، ولن يدفع غيري الثمن».

ثم رفعت كفيها ومدتهما للخلف كي تعيد طارف الوشاح

فتغطي وجهها وهي تضيف بهدوء عجيب يناقض انفعالاتها السابقة: «أستودعك الله يا مولانا، وأعدك المرة القادمة عندما أزورك سأمنحك ما ستجد فيه مخرجاً لي بالشرع يلائم (أعراف) القرية».

***

على الطريق الترابي وفي موضع لا يبعد إلا بضع خطوات من باب دار الحاج عبد القدوس تقف دليلة مكانها وقد انتابها للحظة إحساس بالتبلد، هاتفها أخذ يرن في حقيبتها، لكنها لا تجد أدنى رغبة لتكلم أي مخلوق، تزدحم الأفكار في رأسها وتحتاج لبذل كل طاقة كي تستجمعها وتجد نقطة البداية الصحيحة كي تحقق ما تريد، يعدو الأشهب وعلى ظهره صفوان الضاري، لا يدري لماذا خرج اللحظة على صهوة الحصان ليتخذ الطريق الذي يمر بدار الحاج عبد القدوس، لا.. بل هو يعرف لكنه يكابر ويؤجل يحتاج لنصيحة، يحتاج لمن يثق به، يقترب من الطريق الترابي حيث دار الحاج معزول بعض الشيء بين بستانين عن اليمين والشمال يعودان للشيخ عبد الجبار الذي منح الدار للحاج عبد القدوس منذ سنوات طويلة جدا، عفوياً خفّف صفوان من سرعة الأشهب عندما لمح امرأة تقف قريباً من باب الدار، كانت ترتدي العباءة السوداء التقليدية لنساء القرية لكن تغطي كل وجهها بخمار، لم يُرِدْ إثارة الغبار بحوافر حصانه فيضايقها لذلك خفّف أكثر وهو يكمل الطريق ليمر بها وهو يومئ برأسه في اعتذار صامت

وأجفانه ترتخي في غض بصر ثم يتجاوزها ويكمل طريقه والمرأة ثابتة مكانها، يستمر حصانه العدو في الطريق ويلكزه صفوان ليزيد سرعته من جديد وقلبه يقرع لجنون ضربات حوافر الأشهب، رغماً عنه يفكر صفوان دون إرادته متسائلاً إن كانت هذه المرأة المحتجبة الهوية بخمارها يمكن أن تكون دلال؟ ثم يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويمنع نفسه بشق الأنفس من الالتفات للوراء فقط كي يقنع القلب أنها ليست دلال، شمّت عطر العود قبل حتى أن ترى وجهه لتعرفه قبل أن تحدد عيناها ضخامة هيئته المألوفة لذاكرتها، تجمدت لحظة.. شهقت كأنه النفس الأخير لحظة.. ماتت لحظة.. ثم أحييت لحظة.. واشتعلت نقطة البداية في لحظة، رنين هاتفها يعاود الصدح كأن المتصل يصرخ مستنجداً كي تلبي النداء، عيناها تشتعلان ومرّت لحظات ولحظات قبل أن تدس كفها في الحقيبة كي ترد على نداء (مُغتصِبها)، ومن سيتصل بها إلا هو، فتحت الخط وردت في إيجاز وبصوت هادئ للغاية كأن لا ثورة ولا موت ولا حياة: «أنا عند دار الحاج عبد القدوس، تعال وخذني».

لم تهتم لصراخ مروان المجنون ولم تتحرك بها شعرة عندما انتهى الصراخ ببكائه، على العكس بكاؤه وهو يتمتم بمخاوفه التي أفلتها لسانه وقد اعتقدها هربت منه أعطاها المزيد من غزل الانتقام، إنه غزل حقها في الدنيا ولن تتركه حتى تتمه.

***

في السيارة رباعية الدفع

يصرخ مروان وهو يضرب بكفيه على المقود، ولم يكف عن الصراخ منذ أخذها من أمام دار الحاج عبد القدوس، يصرخ وعروق جبهته نافرة وعيناه تومضان كمجنون تنظر إليه دليلة بصمت وهدوء غير مسبوقين، تخيلت للحظة سيصاب بنوبة قلبية وينكفأ ميتاً فوق المقود لتتمادى بالخيال وهي ترى السيارة تخرج عن الطريق وتنقلب وهما الاثنان داخلها حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة جوار ابن عمتها، تجمدت نظراتها فلم تعد ترى وجه مروان ولا تسمع صراخه، إنها تجول اللحظة في عمق نفسها وتحاور معها، هل تخاف الموت؟ أبداً على الإطلاق، على العكس كانت مرحبة بانتظاره منذ اثنتي عشر عاماً، حتى إنها خاطت كفنها بنفسها استعداداً كاملاً له كأنها عروس بانتظار يوم زفافها؛ لكنها اليوم لم تعد تلك العروس المُرحّبة بفستان كفنها، فروح أصلها البدوي استيقظت على ثأر كانت تجهله، صفوان عاد من الموت ولن تكون بنت الضاري إن ماتت وثأرها يبقى حياً ولا مطالب به.

«لماذا غادرتِ دار أبيكِ وأتيت إلى دار الحاج عبد القدوس؟ انطقي دليلة.. انطقي قبل أن أقتلك وأقتل نفسي»،

نظرت إليه وتكاد ترى إلى أي منحدر يسقط فتتشفى به

وهي تتذكر كل لحظة اغتصبها فيها، كل صفعة من كفه ليخضع جسدها لإرادته، كل صرخة ووجع ومهانة، كل إذلال وهي كسجينة بين جدران أحكام هذه القرية التي فرضت عليها الرضوخ في دار مروان الضاري، شعرت بحريق يشتعل في جوفها فيحفزها كي تدفع مروان أكثر للهاوية التي يسقط فيها لتقول له بغموض ساخر بارد: «ربما ذهبت كي أطلب منه أن يطلقني منك»».

بحركة عنيفة رعناء يوقف السيارة على جانب الطريق ثم يمد كفيه نحوها في هجوم مجنون فيمسك رأسها بعنف من الجانبين يهزه، كانت لا تزال تضع الخمار ليغطي وجهها وهي تتبادل معه النظرات وهو يصرخ: «أقسم بالله أقتله بيدي هاتين»».

ثم دون سابق إنذار كان يميل إليها ليقبل شفتيها فوق الخمار حتى جرحهما وشقق رقتهما بينما تنتاب دليلة رغبة التقيؤ، ليس نفوراً واشمئزازاً منه كرجل مُغتصب فقط بل من أنفاسه المشبعة برائحة غريبة باتت تلازمه، والأغرب من كل هذا أنها لم تقاومه بل كانت شعلة نار باردة من نوع جديد فريد توقدت داخلها وتحثها على الصمت والجمود، كان هو يغلي بجنونه المخيف وهي كلوح ثلج لا تذيبه حتى شمس الصحراء في قيظ الصيف، عيناها المفتوحتان تلتقطان بعض عيون المارة من أهل القرية وهم يحدقون فيهما بذهول وصدمة فتومض عينا دليلة من خلف الخمار بالرضا.

ابتعد أخيراً وهي تشعر بطعم الدم في فمها بينما أخذ يصرخ بمن ينظر إليهما ويشتم فيهم ليتفرق المارة ويبتعدوا كي يسلموا من شر مروان الضاري وبعضهم أخذ يضرب كفاً بكف مما رأى، التفت إليها والعرق يتصبب منه بينما حدقتا عينيه متسعتان بشكل مخيف ليقول لها بأنفاس هادرة ونبرة مشحونة: «هذه آخر مرة تخرجين بها من الدار».

ردت بنفس الهدوء والجمود: «بل سأخرج، وبرضاك، هل تعلم لماذا سترضى يا مروان؟ لأنك تنشد رضاي، تنشده كما لم تفعل يوماً في حياتك من قبل، هل تريد أن أخبرك لماذا تنشده الآن تحديداً؟».

فجأة أطبق أجفانه بقوة ورفع كفيه لجانبي رأسه يضغط بأصابعه هناك كأن يتوجع، أدارت دليلة وجهها جانباً لتنظر من شباكها إلى بعض الصبية يلعبون فتفكر للمرة الأولى بحرمانها من نعمة الأطفال، فتضيفه خيطاً جديداً لغزل ثأرها، تمتمت: «أعدني لدارك يا ابن عمتي، فقط أعدني إلى حيث مغزلي».

***

دار فراس ورهف

وسط أحاديث الفرح بين الأهل تراقب سُلافة بنظرات جذلى العروسين فراس ورهف وقد بديا في حالة تطفو فوق أي مشاعر يمكن أن توصف، وللحظة تذكرت نفسها

وهي ابنة الثانية والعشرين، تقابلت عيناها بعيني نرمين فقرأت فيهما الدهشة من صمتها، يحق لابنة خالتها أن تندهش من حالة صمتها ولو كانت تدري ما يشغلها اللحظة عن المشاركة بالأحاديث بصخبها المعتاد لكانت نرمين الآن تعيش أشد حالات القلق بدلا من الدهشة، طنين رسالة نصية جعل سُلافة تقف على قدميها مباشرة لتغادر غرفة الجلوس مستأذنة بتعجل، لقد كانت تنتظر هذه الرسالة على أحر من الجمر.

في المطبخ الصغير توسطت سُلافة الوقوف فيه وهي تقرأ الرسالة التي وصلتها من (سميرة) عبر الواتس آب (عزيزتي سُلافة أتمنى منك التفهم أني لا أستطيع فعل ما تطلبينه، لقد فكرت مراراً واستشرت زوجي وهو غير مرتاح أيضاً لتدخلنا).

سارعت سُلافة لتكتب رداً بعزيمة (أرجوك سميرة أنا لن أتسبب لأي منكما بالمشاكل، كل ما أطلبه أن تدبري لي الحصول على رقم هاتفه الجديد، وأنا أعلم أنك تستطيعين).

عاودت سميرة تكرار الكلام نفسه (لا أريد أن أتدخل بهذه المشاكل يا سلافة) فتكتب سُلافة لتعدها مجدداً (لن تدخلي ولن يعرف أحد.. أقسم بالله لن أخبر أحداً ولن أتسبب بالمشاكل، لا أريد إلا رقم الهاتف كي أكلمه بنفسي) كانت دموع القهر والألم تتجمع في عيني سُلافة وهي تتوسل هكذا فقط كي تحصل على رقم هاتفه انتظرت وانتظرت ولا تحتمل رفضاً من سميرة الآن

حتى تنفست الصعداء عندما جاءها الرد (أمهليني بضعة أيام لأحاول، أنت تعرفين لن يكون سهلاً) كانت أصابع سُلافة ترتجف وهي تكتب لها (لن أنسى معروفك، شكرا لك).

عندما عادت إلى غرفة الجلوس كانت غمازتاها تزغردان على خديها لتعود لتلك الواجهة المشرقة الصاخبة التي تتخذها لنفسها فتشارك بضجيج الكلام وتخفي ضجيج الآلام.

***

آخر النهار

الجميع يتبادلون الوداع وقد أزف وقت مغادرة القرية والعودة كل إلى روتين حياته وبيته في العاصمة، تحتضن نرمين ابنة خالتها بقوة وتهمس في أذنها: «سُلافة أرجوك اهتمي بنفسك، لا تضيعي هذه الفرصة التي تحتاجينها بقوة».

ردت سُلافة بمرح ظاهري وشقاوة وهي تبعد نرمين عنها قليلاً: «سلمي لي على خالتي وقبليها من غمازتيها اللتين ورثتهما عنها».

ردت نرمين بجدية: «أمي قلقة عليك».

ارتد رأس سُلافة للخلف في ضحكة مرفرفة ثم تغمز وتقول بمزيد من الشقاوة: «وأنا قلقة (على نفسي) أكثر منها».

ثم تتابع بالشقاوة نفسها: «ما حفلة القلق هذه؟ أتظنينها جينات متوارثة كالغمازات؟»».

بصوت خافت وبختها نرمين بالقول: «كفى عن التهريج يا سلافة، هذا ليس الأسلوب الصحيح لتتجاوزي ألمك»».

ما زالت الابتسامة المستفزة المتحدية مكانها، ما زالت الغمازتان تحفران بفرح زائف خديها لكن العيون الزرقاء تفصح بما يكشف الزائف، فيستجيب اللسان لما تظهره العينان لترد على نرمين بالقول: «لا أحد منكم، لا أحد على الإطلاق يشعر بما أشعر، لذلك أنتم لستم مؤهلين لتوجيهي كيف أتعامل مع ألمي، أنا فقط المعنية بالأمر لأني (فقط) من أعيشه كل يوم، كل ساعة.. كل لحظة»».

وقبل أن ترد عليها نرمين مالت سُلافة لتقبل وجنة ابنة خالتها بقوة وهي تعاود أسلوبها بإظهار المرح قائلة: «أراك بخير يا ابنة خالتي الصغيرة»».

ثم داعبتها بالقول الخافت: «وسلمي لي على طبيبك الصامت، يقال إن الصامتين يخفون مشاعر جياشة متفجرة فاحذري أن تنفجر في وجهك أنت»».

ثم أخذت سُلافة تضحك بصوت عال ونرمين ترقبها بعجز.

***

بعد أسبوع.. دار صفوان الضاري

يقف أمام المرآة في الممر ليضع كوفيته فوق رأسه يتبعها بالعقال بينما عيناه ترقبان انعكاس خيال أم إسماعيل خلفه وهي تلف وتدور بمبخرتها وتتمتم بقراءة المعوذات ثم تتبعها بالقول: «انفقأت عيون الحساد ومات بغيظهم العباد، تبدو اليوم في أبهى صورة، ابن شيوخ متأصل وملامح وجهك تنطق بأصلك الضاري، سبحان من منحك طولك وعرضك وضخامتك المهيبة هذه»».

يكاد يبتسم فملامح وجهه نسخة (مُذكّرة) من ملامح أمه، وقد كانت غريبة ومن بلد آخر ولا تمت لعشيرة الضاري بأي صلة دم، عاود النظر لنفسه فيعترف أن رغم الشبه بينه وبين أمه فإنها بطريقة ما كانت جذابة فاتنة، أما هو فيبدو كمن لم يأخذ منها شيئاً رغم الشبه العظيم لا يعرف كيف لكنها الحقيقة فقط، مد يده لجيبه وأخرج تلك القنينة الصغيرة من عطر العود ليتعطر بها، هذا العطر كان فيه نجاته في صغره ثم في غربته الطويلة، وجد فيه تفرده وجمال روحه واستكشف قوته ونبع صبره وتجلده، أخذ يحدق بالقنينة وهو يتمتم في سره: «سامحني يا رب لن أستطيع التخلص من هذه القنينة، إنها لم تعد هدية دلال فحسب، لقد بات عطر العود جزءاً مني أنا، والتخلي عنه كأني أتخلى عن هويتي، وكأني أمحو ذاكرتي وأتبرأ من تاريخي وأتوه في عنواني»».

«يا ابن الشيوخ، ألن تنظر للصور التي أحضرتها لك؟ صبايا يفلقن الحجر بجمالهن، يلقن بهذه الرجولة والهيبة»».

تنبه صفوان على كلمات أم إسماعيل ليرفع نظراته عن قنينة العطر الصغيرة ويحدق فيها عبر المرآة، يرى الطمع في عينيها جلياً، الطمع والنفاق والمداهنة، أعاد القنينة لجيبه وهو يفكر أن الوقت حان للقائه بالحاج عبد القدوس، لم يعد هناك مفر، الشائعات كثرت من حوله في القرية فيرمونه بالباطل أو يتقولون عليه بالفسق والفجور في غربته وأنه اعتاد الأمر ولم يعد يأبه للحلال، ولا يستبعد أن أم إسماعيل نفسها تشارك بهذه الأقاويل، رد بسحنته المتجهمة: «سأرى فيما بعد، لدي ما أفعله أولاً».

قلبه يتبرأ من الرد، بل قلبه يتبرأ منه كله.

اعتزل القلب وانحجب، وأم إسماعيل تبتسم لحصد المغانم بعد الصبر وجب.

***

دار دنانير

تشرب شاي الأعشاب البرية المفضل لديها بينما تسترخي على أريكتها وعيناها ترمقان بلا اكتراث الفوضى التي أثارها مروان الضاري قبل ساعة، وقد بلغت هلوساته ذروتها فأخذ يضرب ويحطم ما حوله حتى سقط أرضاً فاقداً للوعي، دخل عليها حباس فسألته بمزاج رائق: «هل رحل».

فيرد حباس بإيماءة وكلمة: «أجل».

أخذت تتلاعب بكأسها تدوره بين راحتيّ كفيها وهي تسأله: «هل تأكدت أنه استعاد وعيه كفاية ليقود سيارته؟ لا أريده أن يموت بحادث الآن».

رد وتلك الابتسامة المنفرة تطل على ثغره: «لقد استعاد وعيه لا تقلقي سيصل بيته آمناً، الرجل أصبح عجينة سهلة بين يديك».

علقت دنانير: «إنه الألم من يجعله عجينة سهلة، امرأته تذيقه مُرّ الآلام، وإن صدق حدسي فإنها تثير جنونه هذه الأيام، كم أتمنى أن أعرف ما فعله بها كي تنتقم منه بهذا الشكل أنا لا أشتكي وقد غدا بفضلها زبوني لكن الفضول سيقتلني».

رد حبّاس مقترحاً: «لكنه اليوم بدا عنيفاً وردة فعله قوية، أظن أننا يجب أن نقلل الجرعة».

توقفت دنانير عن تدوير الكأس لتقسو نظرات عينيها وهي تقول له بزجر مخيف: «أنا وحدي من يقرر يا حباس، أنت لست سوى خادمي المطيع الذي ينفذ».

تنبّه حباس لتجاوزه فأحنى رأسه في تذلل معتذراً: «عفوك وسماحك».

بنظرات مستهينة ترمقه دنانير برضا وتعالٍ ثم تعاود تدوير الكأس بين كفيها بينما يضيف حباس: «أنا ذاهب للسوق كي أتبضع وأبحث عن المزيد من المعلومات التي طلبتها عن زوجة مروان الضاري، هل تحتاجين لأمر مني؟».

نظرات دنانير ترمق حباس من فوق لتحت وبتمعن غريب قبل أن تقول بخفوت: «قريباً، سأحتاجك كلك يا حبّاس».

من نبرة صوتها التمعت شراهة فجّة في عينيه الضيقتين ليقول والتخمينات القذرة تطل منهما: «هل الأمر حول.. مروان الضاري؟».

تبتسم لتلك الشراهة القذرة التي تقرأها فيه فتزيد فيها بتلاعب وهي تقول بابتسامة شيطانية: «أتذكر ما فعلناه مع تلك المرأة الغبية قبل عامين لجعلها تحمل؟».

توهجت عينا حباس وغرائزه تتأهب كأنها تنتظر احتفالاً فيقول لاهثاً: «يقال إن دليلة زوجة مروان الضاري شديدة الحسن».

انفجرت دنانير ضاحكة ثم قالت ساخرة: «امسح لعابك الذي يسيل باكراً جداً».

بينما يعالج حباس حالة الإثارة التي انتابته كانت دنانير تغرق بأفكارها وخططها لتهمس: «الأمر هذه المرة أشد تعقيداً ويحتاج لخطة محكمة أنسج خيوطها على مهل».

ثم ترفع كفها الأيمن الذي يحاوط جانباً من الكأس لتتلاعب بأصابعها كأنها تمسك خيوطاً وهمية وتضيف: «خيط بخيط».

ثم نظرت نحو وجه حباس المنفر لتقول: «إنها ضربة

العمر يا حبّاس، ضربة العمر التي لن تتكرر».

***

المستشفى العام

كفا ضرغام متعانقان خلف ظهره وهو يتحرك بخطوات هادئة متمهلة في حديقة المستشفى الصغيرة بالخلف، إنه بانتظار المسؤول عن الأدوية في المستشفى كي يسلمه دواء الشيخ عمران وقطرة ضغط العين للشيخة مليحة، قالوا له سيتأخر لنصف ساعة فقط، فجأة تناهى لسمعه صوت امرأة مألوف بنبرة توسل تحمل ألماً مبرحاً: «أرجوك.. استمع إليَّ.. أرجوك حبيبي امنحني الفرصة لأتكلم.. لا تصدق كلامهم عني.. إنه كذب.. افتراء.. ألو.. ألووو».

رآها من الجانب على بعد بضعة أمتار وسط الحديقة الخالية، بملابس الممرضات البيضاء، عرفها من ضفيرتيها الشقراء وصوتها، أوشك أن ينسحب عندما رآها تنهار فجأة جاثية على ركبتيها وقد بدت محطّمة، كفها الذي يحمل الهاتف تراخى إلى حجرها في جزع وكفها الآخر يلامس القلادة التي تعلقها بعنقها، كانت اللحظة مختلفة كلياً عن المرأة الجريئة الضاحكة التي التقاها في البستان، دوماً كانت انطباعاته عن البشر تأخذ وقتاً طويلاً لتتشكل، وكم يتشابه البشر عندما يحتمون بالظاهر الذي يصنعونه بحرص، لم يكن أمامه إلا الانسحاب ومنحها المساحة مع نفسها، ألقى نظرة أخيرة تلقائياً قبل أن يخطو منسحباً

عندما توقفت خطواته وهو يراها تمايل بجذعها يمينا ويساراً، بنخوة عفوية غيّر مسار خطواته نحوها ليتأكد أنها بخير عندما مالت باستسلام جانباً ناحية اليسار لتنكفئ مغشياً عليها أمام ناظريه.

***

الغزل الثالث

«خيط الألم يُغزل بالدموع، ثم يُنسج لوحة لطفل أخرس بأمه مفجوع».

المستشفى العام

بينما كان ضرغام يضعها على أقرب سرير فارغ في غرفة الطوارئ طرفت عيناه إلى أصابعها الواهنة وكيف تتعلق بأطراف كُمِّ جلبابه، لم ينظر إليها على الإطلاق ولم تطرف عيناه نحوها ولا للحظة، تأدباً فطرياً؛ لكن تلك الأصابع أجبرته النظر وكأنه يستجيب لنداء وهمهمات ثلاث من الممرضات خلفه لم تعجبه وهن يتندرن بالكلام عليها مع تلميحات أنها تمثل فالتفت إليهن ومنحهن نظرة كالصاعقة ثم قال: «ألا يفترض أن تنادي إحداكن طبيباً؟».

ارتبكت اثنتان فانسحبت واحدة وذهبت الأخرى لتبحث عن الدكتورة إسراء بينما تتقدم الثالثة وقد كانت أكبرهن سناً وأكثرهن خبرة لتقول بنبرة شبه ساخرة: «امرأة قوية مثلها لن تموت من إغماء، خاصة إغماء درامي كهذا».

كظم ضرغام غيظه بينما ينسحب بهدوء وهو يلمح تلك الممرضة تتقدم من السرير وترفع كفها لتبدأ بالتربيت على خدي سُلافة وهي تحثها على استعادة وعيها حتى استجابت، غادر غرفة الطوارئ وبعض الأعين الفضولية تلاحقه، كان دخوله عبر بوابة المستشفى حاملاً إحدى

المرضات قد جذب روادها القليلين في هذا الصباح لكنه كان مقتضباً وهو يعلن ببضع كلمات أنه وجد هذه المرضة مغمى عليها في الحديقة الخلفية، كان ينوي التحرك ناحية مذخر الأدوية التابع للمستشفى كي يأخذ الأدوية المطلوبة للشيخ والشيخة ثم يغادر عندما لمحت عيناه في الممر طفلة تتلاعب بسلسال ذهبي في يدها وقلب متدلٍ منه، عيناه الحادتان لقطتا القلادة وعرفها مباشرة، إنها قلادة المرضة سلافة، لا بد أنها سقطت من عنقها وهو يحملها، تقدم من الطفلة فيراها كيف تفتح بفضول ذاك القلب المقفول.

هذه المرة عندما عاد إلى غرفة الطوارئ وجد سُلافة بمفردها مستلقية على سرير الطوارئ الأبيض وعيناها الزرقاوان مفتوحتان بنظرة جامدة، وجهها كله جامد شاحب، بدت وحيدة محطمة لكن في إباء وتحمل يثيران الإعجاب حتى وأنت جاهل بما تعاني، تنحنح وهو يقف قرب السرير لينبهها إلى وجوده ثم قال: «الحمد لله أنك بخير».

طرفت عيناها نحوه للحظة باهتة قبل أن تعود إلى جمودها وهي تتمتم: «أحقاً أنا بخير؟ لقد نسيت الشعور كيف يكون وأنت (بخير)».

لم يرد أن يقف مطولاً هنا فيبدو أن هذه المرضة القادمة من العاصمة غير مدركة لوضع الريف وأهله، رغم أن حدس يخبره أنها مدركة لكنها فقط لا تبالي، مدّ كفه

بالسلسال وهو يغض البصر قائلاً: «هذه قلادتك يا ممرضة وقعت منك».

ما إن قالها هي التفتت إليه بلهفة لتخطف من يده السلسال ومباشرة تمسك القلب لتفتحه وتتأكد مما فيه، وقد علم ضرغام ما فيه عندما استعاد السلسال بقلبه المفتوح، فلم يكن داخل ذاك القلب إلا صورة لوجه طفل صغير بعينين زرقاوين سبق ورأى انعكاس الزرقة نفسها في عيني الممرضة، عقله يسجل بشكل تلقائي ودون أي تخطيط، هي طبيعته بقراءة ما حوله، يقرأ بصمت ويسجل بصمت ويكوّن تصوراته الخاصة محتفظاً بها في صمت، حنى رأسه بإيماءة خفيفة وهو يقول قبل المغادرة: «أتركك في رعاية الله».

قبل أن يلتفت نادته بسؤال فاجأه: «بماذا كنت تحلم ذاك اليوم وتتألم؟».

لم يستطع منع عينيه من رفع نظراتهما إلى وجهها، يحدق في زرقة عينيها للمرة الثانية بعد المرة الأولى في البستان، كان هناك إلحاحاً عجيباً في عينيها ثم ألماً مبرحاً لتصفه بلسانها وهي تضيف كأنها تكلم نفسها مع نفسه: «أنا أيضا أتألم؛ لكن ليس في الحلم فقط، أنا أتألم في صحوي وفي منامي، ألا يوجد هدنة؟ ألا أجد فسحة لألتقط أنفاسي دون وجع؟».

تعتصر القلب الذهبي في قبضتها وتتجمع الدموع في عينيها

وهي تهمس بتقطع: «رفض أن يكلمني، قال لي مجدداً (لا أريدك)، إنها ثالث مرة يغير رقمه بسببي كي لا أصل إليه، ولن تكون الأخيرة».

أغمضت عينيها وانقلبت على جانبها وهي تكمل همسها كأنها تتقوقع على ألمها بعيداً عن الجميع: «لو كان أبي على قيد الحياة لما سمح لأحد أن يؤذيني هكذا، للمرة الأولى في حياتي أشعر أني يتيمة ضعيفة، أبي علّمني كيف أعيش دونه لكنه لم يعلمني كيف أعيش دون ولدي».

لحظة تساءل وفي اللحظة التالية كتم، شعر وكأنه يتعدى على حُرمة ألم

جروح من أوجاعها لا تعرف السأم، تنقش الـ«آه» في الروح أمد الدهر كوشم

أرخى أهدابه وأطرق برأسه قليلاً وهو ينسحب للخلف بهدوء شديد متمتماً بإيماءة من رأسه: «عافاك الله».

ثم تركها ومضى ولسانه يردّد دعاء من قلب مكلوم: **«منك العفو والعافية يا رب الشفاء، اغفر لنا ضعفنا وجهلنا بصحيح الدواء».**

***

دار الحاج عبد القدوس

في جلسة مهيبة هادئة كفُّ الحاج عبد القدوس الأيمن يربت فوق كفه الأيسر، عقله يتفكر وحكمته تتدبر، زيارة

صفوان الضاري إليه هذا الصباح تحمل أكثر من احتمال وأكثر من سبب، تمعّن الحاج عبد القدوس بنظرة ثاقبة في الرجل شديد السمرة الذي يكاد يبتلع الأريكة كلها بضخامته فيفكر كم من الغريب عندما دعا صفوان الضاري قبل قليل مُرحباً كي يدخل إلى المجلس أن يختار صفوان الجلوس على الأريكة نفسها، الموضع نفسه بالضبط الذي اختارته دليلة للجلوس عليه قبل أسبوع، يخشى الحاج عبد القدوس من ذنب التفكير بذاك الرابط بينهما منذ بدأت للحكاية فصول، وقد كان أحدهما يسلك طريق الآخر دون تخطيط أو جهد مبذول، حكاية شهدها الحاج عبد القدوس من أولها؛ لكن ما كان في الماضي براءة صِبا مقبول، لم يعد في الحاضر له حق مكفول، طال الصمت وبدا صفوان كمن يبحث عن أول خيط انقطع، فلا يدري أي طرف منه يمسك كي يوصله بالآخر، أعانه الحاج عبد القدوس على الكلام وهو يبتدأ أوله: «أود أن أنتهز فرصة زيارتك يا ولدي لأثمّن الدور الكبير الذي لعبته في الصلح وإنهاء نزاع العشائر في قرية الشيوخ، بل إنك أعدت عشيرة الضاري إلى رعيّة العشائر واستعادة هيبتها وصدارتها بعد التصرفات الرعناء التي بدرت من شيخها حمدان، لم تكن المشيخة له من أولها».

رفع صفوان نظراته المطرقة للأرض كي ينظر مباشرة لوجه معلمه، لو كان أي رجل آخر قال ما قاله الحاج عبد القدوس للتو لما فكر لحظة، لما منحه وقتاً، كي يتم جملته

حتى وهو مقتنع داخله أنها الحقيقة، اكتفى صفوان بالرد على الشق الأول من الكلام: «أنا لم أفعل كل هذا يا مولانا، الفضل كله للشيخ عبد الهادي الأسدي بحكمته وحسن تصرفه وبذله الكثير ليتم هذا الصلح».

بعض الدهشة مرّت بعيني الحاج عبد القدوس وهو يمعن النظر في تعابير صفوان ليرد عليه بالقول: «الغريب أنك مقتنع تماماً بهذا الكلام رغم عدم صحته».

فيرخي صفوان نظراته قائلا بقناعة: «لكنها الحقيقة يا مولانا».

فيناقشه الحاج بالقول: «لا أنكر حكمة الشيخ الأسدي ودوره ليكون صمام الأمان ومفتاح الصلح، لكن عودتك ومبادرتك كان لها عظيم الشأن كي يجد فيك الجميع المخرج المنشود، لقد كنت ذاك الباب الذي أخرج قرية الشيوخ من عنق الزجاجة».

بالقناعة نفسها رد صفوان: «أنا ليس لي هذا التأثير الذي تعتقده، لقد وصلت القرية صدفة في هذا التوقيت والكل كان بحاجة لمن يحمل غصن الزيتون نيابة عنهم الجميع كانت تمنعه العزة والكبرياء وأنا لم أفعل أكثر من التطوع لفعلها، لذلك سواء أنا أو غيري لا فرق من حَمَلَ ذاك الغصن، في الحروب لا أحد ينظر لوجه رسول السلام، لا أحد يهتم بهوية الحامل فالمهم هو المحمول».

رد الحاج عبد القدوس بنظرة تتعمق في الماضي البعيد:

«دوما كنت تظن أنك غير مرئي بتأثيرك على من حولك، تظنهم لا يرون أبعد من هيئتك الملفتة».

علّق صفوان بنظرة هادئة صافية لا يعكرها الماضي الأليم، كأن لديه حصانة روحية جعلت عينيه تشعان بخضرة خاصة: «لا أظن كلمة ملفتة مناسبة لي يا مولانا».

يعقد الحاج عبد القدوس حاجبيه وهو يتذكر كم تعرض هذا الرجل في صغره لتنمر أقرانه حتى أشاعوا عنه صفات القبح وألصقوا به ذمامة الوجه فقال الجملة نفسها التي قالها له قبل خمس وعشرين عاماً: «هذا خلق ربي، فليروني من يعيبون خلق ربي ماذا خلقوا هم»».

عاد صفوان لتلك الأيام وهو ابن العاشرة والحاج عبد القدوس يستمع لشكواه من نعت أقرانه له بـ(الوحش) و(القبيح) و(وجه الزواحف) لخضرة عينيه الشديدة البارزة وسط دكنة بشرته، كم توجع قلبه الفتيّ وكم قاوم دموعه مراراً كي يحفظ كرامته ثم يحولها لطاقة غضب يفرغها فيهم فيهاجمهم يخيفهم بضخامة جسده المتفوقة عليهم جميعاً، فلا يأتي هياجه هذا بالخير بل يزيدهم تنمراً عليه فيصرخون به أن مكانه البرية أو كهف في أعلى الجبل مع باقي الحيوانات والضواري، ابتلع صفوان ريقه وأرخى أجفانه رغماً عنه يتذكر نفسه في ذاك الموقف أمام معلمهم الحاج عبد القدوس وكيف تسلل كف دلال ابنة السابعة إلى كفه تنصره وتناصره وهي تقف عابسة جواره وترمق الأولاد بنظرة تهديد ووعيد.

الحاج عبد القدوس قال له يومها نفس ما قاله اليوم (فليروني ماذا خلقوا) لكن الفرق الآن أن دلال ليست معه وكفها الناعم ليس في كفه، لسنوات عاش على ذكرى ذاك الكف المُناصر، فتح عينيه بقوة ليصحو من تلك الغفوة التي سحبته إلى الماضي حيث لم يعد له مكان فيه يتشاركه بالحاضر والمستقبل، محرم عليه ذكرى كف دلال، بل محرم عليه أن يناديها بهذا الاسم، عليه أن يؤمن أن دلال رحلت مع الماضي، ولم يبقَ إلا (دليلة)، ودليلة لم تكن ولن تكون له أبداً، قال فجأة ما جاء لأجله: «جئتك في طلب يا مولانا».

ثم حول نظراته لعيني الحاج عبد القدوس الذي قال له بفطنة مقدراً أهمية (الطلب): «ما الذي تحتاجه بهذه الشدة لتطلبه مني، أنت لا تطلب على الإطلاق».

هز صفوان رأسه موافقاً ثم قال: «أنا أطلب النصيحة مولانا».

خضرة عينيه باحت بعذاب، كشفت المستور ورفعت الحجاب، فهمها الحاج عبد القدوس وأشفق عليه مما هو فيه، ومع الشفقة تملؤه الدهشة أن كان بعد كل هذه السنوات ما زال قلبه يحمل عشق صبية عرفها منذ الصغر فلِمَ هجر القرية؟ لِمَ تركها فريسة لما لا تقوى على ردعه؟

أطرق الحاج عبد القدوس ليقول بصوت منخفض كأنه يخشى للجدران آذان تسمع: «لن أسألك عن سر غيابك

كل تلك السنوات».

فيقول صفوان يتقبل قدره: «وأنا لن أستطيع الإفصاح مولانا؛ لكن الأمر وقع وليس له مُرتجع».

رفع الحاج عبد القدوس نظراته إلى صفوان ليقول بنبرة حازمة قوية التأثير: «تزوج بنيّ».

رد صفوان بصدق وألم يذبحه: «أتظن أني لا أفكر في هذا؟».

ما زال الحاج عبد القدوس ينظر في عينيه بينما يعاني صفوان وهو يضيف بصوت أجش لتبوح كلماته بما تنطقه عيناه: «رغم ملاحقات عيون الناس في القرية ودهشتهم أني بلغت الخامسة والثلاثين ولم أتزوج، رغم ارتيابهم وشكوكهم بأخلاقي، رغم الوحدة التي أقاسيها وغربة عانيتها وما زلت أعانيها، لكني لا أجد قوة على فعلها».

واجهه الحاج عبد القدوس بنبرة معلم ومُرشد: «ما الذي يمنعك؟ أفصح وأصدقني القول كي أُسدي النصيحة».

تجمد ذاك العذاب في عينيه ليرفع كفه الضخم إلى صدره موضع قلبه فيعترف وهو يعاني الأمرين بما لا قبل له على تغييره: «هذا يمنعني، فليغفر لي الله لكن ليس لي حكم عليه».

ثم أطرق صفوان في شعور خزي عظيم يزمّ شفتيه ويده تتقبض بتوتر شديد، مد الحاج عبد القدوس يده ليحاوط

تلك القبضة فوق موضع قلبه ليقول له بيقين: «حكمه بيد من خلقه فلا تصدق غير هذا».

يهز صفوان رأسه حيرة وهو يقول بخفوت: «لا أريد أن أَظلِم أو أُظلَم».

أعادها الحاج عبد القدوس وأضاف عليها: «تزوج بنيّ، إن لم تعشق من ستتزوج فإنك ستكنُّ لها المودة وتعاملها بالرحمة، فمثلك لا يصدر عنه إلا كل خير».

يقاوم صفوان بكل ما يملك من قوة كي لا يستعيد في رأسه ذكرى دلال فيكفيه عذاب القلب الذي يحفر ذكراها بالدم، يغمض عينيه والألم المبرح يشتد حتى تجمعت قطرات عرق على جبينه لكنه يقاوم أكثر ويتحمل مزيداً من الوجع وهو يجبر نفسه على مجاراة الحاج عبد القدوس قائلاً: «أنا لست ودوداً بطبعي يا مولانا، أنت أكثر من يعرف طباعي بعد عمي محمد وأمي رحمهما الله، إن.. تزوجت.. لا أعرف كيف سأجد في نفسي ما أمنحه إياها».

رد الحاج عبد القدوس ويده ما زالت فوق قبضة صفوان تشدُّ عليها: «يا صفوان العشرة الطيبة تجلب الأنس والمحبة وتعلم الود، فأحسن اختيار من تعاشر، ثم يرزقك المولى إن شاء الله بالذرية فتجد نفسك في قطع منك تكبر أمام عينيك فتكون لقلبك السلوى ولنفسك مأوى».

ارتج قلبه بعنف في صدره، مقاوماً، ثائراً، يجلده بصوت

دلال ويزرع في رأسه عنوة رسم عينيها المكحلتين تشعان بالقوة والفخر وهي تنظر في عينيه قائلة (أريد عشرة أولاد يحملون خضرة عينيك ولون بشرتك أباهي بهم قرية الشيوخ).

لكن صوت الحاج عبد القدوس علا: «اتقِ الله في نفسك يجعل لك مخرجاً».

تلاشى صوت دلال وتراجع القلب في مقاومته لتنحسر رؤية عينيها، وعندها همس فمه بإنهاك مُردّداً: «يجعل لي مخرجاً».

***

دار مروان الضاري.. حجرة دليلة

دخلت شهلة إلى حجرة (ضرتها) بتردد، تقدم خطوة وتؤخر أخرى، منذ الصباح تحمحم حول باب الحجرة، لقد انتظرت طويلاً انتهاء درس الغزل لبعض فتيات القرية اللواتي يحضرن للتعلم، ومعظمهن من الفقيرات اللواتي يحثن عن لقمة العيش يساعدن به أهلهن، فيتعلمن الغزل من الصوف ثم يتعلمن كيف يصبغنه وينسجنه كي يبعن المنسوجات في السوق، وقفت شهلة تعتصر كفيها ببعض وهي تنظر لـ(دليلة الضاري) كانت قد عادت إلى حجرتها منذ قليل بعد درس الغزل في المجلس الصغير نخلعت وشاحها وتربعت على الأرض تغزل بمفردها وعيناها مفتوحتان على وسعهما تكادان لا ترمشان وهما تحدقان

في المغزل الدائر، انقبض قلب شهلة ونظرات دليلة تخيفها تبتلع ريقها وهي تفكر بجمال ضرتها التي تكبرها بأكثر من عشر سنوات، تعترف بألم أنثى غيور أنها تملك الكثير من الحسن، شعر طويل حالك السواد وبشرة أقرب للبياض، عيناها واسعتان جميلتان مؤثرتان بسحر لا يخبو، تقاطيع وجهها مرسومة كأنها لوحة مبهرة، الغيرة تنهش قلب شهلة وهي تنظر إلى دليلة كيف تبدو في جلستها على الأرض كأنها ساحرة معجونة بالسحر الذي لا فكاك منه أجل هذا هو ما يسحر مروان، وليس سحر الغجرية دنانير التي يواظب على الذهاب إليها، أجفلت شهلة وصوت دليلة الساخر يباغتها وسط دوامة الأفكار المريرة: «لقد انتهى درس تعليم الغزل يا ضرتي»».

شمخت شهلة بأنفها تدّعي القوة، تحاول جهدها تذكير نفسها أنها هي الأخرى جميلة وصبية في العشرين، ومهما بلغ حُسن دليلة ومكانتها في قلب مروان فهي لن تستسلم، خطفت ببالها ذكرى معاشرته الأخيرة المهينة لها، انعصر قلبها ومرارة الإهانة والذل في روحها عالقة، لم تخبر أحداً لكنها واثقة أن ضرتها سمعت صوت صراخها كما سمعت صوت الصفعات.

عافرت لتتجاوز مرارة الذكرى ثم تتقدم بهيئة الفخر الكذابة فتقترب منها وتشرف فوقها بوقفة كبرياء قائلة: «لم آتِ لآخذ درساً لا أحتاجه في الغزل، بل أتيت..»». قاطعتها دليلة وما زال المغزل دائراً أمام ناظريها لتقول

بتهكم: «أتيتِ لتري عن كثب ضرتك لتمعني فيها النظر وتطرحي كل السؤلات التي تحيرك، وأهم هذه الأسئلة لماذا لم يطلقني كما طلق الأخريات».

عندها فقط أوقفت دليلة المغزل بكفها لترفع نظراتها وتحدق بضرتها الصبية في نظرة قوية شديدة القسوة لتضيف: «احذري مما تبحثين عنه، بعض الأسئلة تستجلب إجابتها الألم دون طائل، وأنا لا أريد أن أرى حولي مزيداً من ألم أنثى مقهورة».

رعشة مرت بجسد شهلة وهي تبادل ضرتها التحديق ودون شعورها تنثني ركبتاها ويحني جسدها لتجلس قبالتها وتسأل ما لا ينفع السؤال عنه: «ماذا فيك ليُجنَّ بك عشقاً؟».

تزداد قساوة نظرات دليلة بشكل مخيف بينما تضيف شهلة والضعف يقهرها: «إنه لا يرى امرأة غيرك، مهووس بك حد الجنون».

بالنظرات نفسها قالت دليلة وهي تشير للمغزل الذي تقبض عليه بكفها: «هل تريدين أن أعلمك الغزل؟ غزل الخيوط يعلمك الصبر».

سألتها شهلة وهي مشوشة تائهة يائسة: «هل تُلمحين إلى أن أصبر؟».

عندها صرخت بها دليلة: «أنت غبية».

ارتد رأس شهلة للخلف قليلاً وكأنها تلقت صفعة بينما تضيف دليلة بثورة مخيفة عارمة حملت معانٍ حقيقية: «مروان لن يحبك كما لم يحبني يوماً، لقد ربّوه ولقّنوه منذ الولادة أن النساء استحقاق له لأنه (ذكر)، لا يهم كيف تشعر نسائه، المهم ما يشعره هو، هو أولى وأرفع منهن».

كان صدر شهلة يعلو ويهبط وهي عاجزة عن إزاحة عينيها عن تلك الثورة المتجسدة بضرتها لتميل دليلة ناحيتها تضيف بنبرة أشد وطأة: «انجي بنفسك قبل أن يضيع عمرك وشبابك مثلي بين جدران مروان الضاري، لا تتعلقي بوهم يدفنك كما دفنني وجعلني بغباء لا أهتم أني ما زلت حية».

كانت شهلة ترتعش اللحظة لتنكمش مقاومة وهي تهمس بحشرجة: «أنت.. أنت تريدين الخلاص مني تدخلين هذه الأفكار برأسي لأنك..».

تقاطعها دليلة بعنف وهي تصرخ فيها: «قلت لك إنك غبية».

خرس لسان شهلة وانكمشت أكثر بينما الدموع تتجمع في عينيها والحيرة تعصف بها، غامت عينا دليلة وكسا الجمود محياها لتقول لها بنبرة قاسية: «أنت غبية لأنك لا تقدرين نعمة أب هو سندك، لو عدتِ إليه الساعة سيضمك في حماية، وإن طلبتِ منه انتقاماً ممن أذلك وأهانك فلن تغيب شمس اليوم إلا وثأرك في حجرك».

للحظة مرّت في عيني دليلة نظرة إشفاق بددت بعض الجمود والقساوة على محياها لتقول لها بخفوت: «انفدي بجلدك يا شهلة واهربي قبل أن يضيع عمرك وشبابك».

ثم تعود لجمودها وقساوة نبرتها وهي تضيف: «لقد دُفنت أنا حية ها هنا وصمت لأني لم أكن آبه أو أهتم لما يجري لي، كما لم يكن بيدي حيلة ولا سند لي في هذه القرية يحفظ كرامتي وسمعتي، لكن يكفيني أني حتى اللحظة أرفضه وأشهدت ربي على هذا فلم يقربني إلا اغتصاباً وجبراً».

همست شهلة بتشكك وكأنها تقاوم: «أنت.. تحاولين الاستئثار به لوحدك».

صوت مروان قطع عليهما الحوار الرهيب وهو يأمر بعنف: «اخرجي شهلة، وإياك ودخول حجرة دليلة مرة أخرى».

بتردد وخوف تلتفت شهلة وهي تنظر إلى زوجها يقف مستنداً على الباب وعيناه غريبتان، مخيفتان، وهيئته كأنه مريض يحتضر، صرخ بها مجدداً: «أخرجي».

تقف شهلة بارتباك لتسارع بخطوات مرتجفة إلى مغادرة الحجرة وهي تخنق شهقات البكاء، بذقن تشمخ تواجهه دليلة، تمنحه نظرات مباشرة لا تظهر خوفاً أو تردداً، يدها تتشبث بالمغزل كأنه سلاحها السري، أجادت للغاية إظهار صلابة وقوة، أجادت للغاية إخفاء ضعف كسرة

وقلة قدرة، لم يكن لديها إلا الكلام نتلاعب به وتعابير وجه ترسم أقنعته ومسار طريق قررت سلوكه لآخره، قد يتفوق مروان جسدياً لكنها ستقاومه وتقاتله بكل ما لديها حتى النهاية، فإما تقتل روحه أو يقتل هو جسدها، لكنه أبداً لن يصل لروحها، لا هو ولا غيره، لا بشر على وجه هذه الأرض سيهزها من جديد، أغلق مروان الباب بعد خروج شهلة بل حتى أدار القفل وعلى صوت تكته قفزت نبضة في قلب دليلة؛ لكنها صامدة ونظراتها لا تخني بإظهار ما يعتمل داخلها اللحظة، منذ اكتشافها غدر صفوان بها وأنه لم يمت، بل رحل بملء إرادته هاجراً إياها والقرية بأسرها ليتركها فريسة لهم جميعاً وهي تستذكر، تستذكر بذهن متيقظ كل ما مرت به منذ اثني عشر عاماً، صدمتها التي جعلتها ذاهلة لأسابيع تستوعب (موته)، إساءة المعاملة التي تلقتها من أبيها وأخيها، ضرب وصفع وركل وتجويع وحبس ثم ظهور ابن عمتها مروان بشكل ملح كطالب للزواج، سمعتها التي تتشوه بأفواه مدسوسة من مروان تحديداً، مروان الذي كان الوسواس الخناس لأخيها جابر حتى قبل اختفاء صفوان، ثم بعدها ولعامين كاملين كانت وساوسه أحقر وأكثر قذارة حتى أقنع جابر تماماً أن سبب رفض شقيقته الكبرى للزواج لأنها ارتكبت الفاحشة مع صفوان وتخشى فضح نفسها.. صرخة ألم شقت صدر دليلة عند هذه الذكرى، هل يمكن أن تنسى كيف ربطوها بالسرير وأحضروا القابلة كي تؤكد عذريتها؟! هل يمكن أن تنسى كيف زوجوها إلى مروان

بعد أسبوع واحد؟! هل يمكن أن تنسى كيف كمّموا فمها ليلة العرس وأدخلوها لهذه الحجرة بالقوة؟! هل يمكن أن تنسى الضرب المبرح من مروان حتى جعل جسدها يستنزف قواه ليغتصبها فوق فرشة عروس لم تخترها ولم تردها ويتلطخ بالدم ثوب زفاف أبيض ألبسوها إياه عنوة؟!

لم تكن تعرف أن الكره شعّ من عينيها بقوة جعل مروان يقولها لاهثاً بعذاباته هو الآخر: «أكل هذا الكره لي؟»».

رأته كيف يقف أمامها اللحظة كما وقفت قبله بدقائق زوجته شهلة، ما زالت تنظر إليه وهي ترفع عينيها دون وجل إلى عينيه الزائغتين، كانت تعرف أنه ليس طبيعياً ويتعاطى شيئاً ما، بدأت رائحته تفوح حتى خارج جدران داره، الأفواه تتكلم وقريباً جدا تلك الأفواه التي تنسج كلمات العجب من حالة (مروان الضاري) وكيف أصبح أشبه بمن مسّه جن أو عمل سحر أسود، سيتكلمون قريباً عن زياراته السرية للسحّارة الغجرية، شماتة.. لا تشعر إلا بالشماتة فيه، هذا دين ويُسدد، وما زال هناك المزيد، رأت في نظراته جنون الهوس وهو ينظر بشوق لاهث لجسدها ووجهها والرغبة تتلاعب بجسده كما الهوس يتلاعب بعقله، دارت على الخوف الرهيب الذي بدأ ينتشر داخلها لتظهر اللامبالاة والبرود وهي تسأل: «ماذا تريد يا مروان؟»».

رد بأنفاس متسارعة كأنه يخوض حرباً ويده المرتجفة

تبحث عن أزرار جلبابه ليفكها: «أريد امرأتي.. حقي في زوجتي».

خلع جلبابه أمام ناظريها ورماه للأرض ثم ينحني نحوها بسرواله الطويل الذي يلبس بالعادة تحت الجلباب، قلبها يقرع وكفها يعتصر المغزل لكنها جامدة حتى اللحظة ومروان يجثو على ركبتيه ويميل بفمه نحو وجهها ليضيف وهو يتشمم رائحتها: «أريني كيف ستقتلينني بعدها، أستطعنينني بمغزلك؟».

صوته، رائحة فمه المنفرة، حالته المزرية التي باتت ملازمة له بالفترة الأخيرة، كلها كانت تتجمع لتصيبها بشعورين يكادان يكونان متناقضين، شعور ثقيل برغبة التقيؤ وشعور مبتهج يستلذ بمعاناته ويرغب بالمزيد، وجدت نفسها ودون أي تفكير مسبق تقول بمقت شديد وهي تنظر في عينيه بتحدٍ: «إن فعلتها يا مروان فلن أقتل جسدك، بل سأصل لروحك وأغرز فيها خنجر الموت».

يحدقان ببعض عن قرب شديد بينما تضيف دليلة والانتقام يقطر من كل حرف: «هل تعرف كيف سأقتل روحك؟ عندما أختفي من حياتك كحبات رمل انتثرت في عاصفة هوجاء وسط الصحراء فأرني كيف ستمسكها يا ابن عمتي».

بدا مرعوباً وسط جنونه ليهدر متوعداً وعيناه تلمعان بالهوس: «قسماً بالله سألاحقك إلى أي مكان تذهبين إليه

وأعيدك، وسأقتل كل من تلجئين إليه ويعينك ولو كان والدك الذي خُلقتِ من ظهره».

أنفاسها تتسارع رغماً عنها وهي تحاول خنق الخوف منه ومما قد يفعله اللحظة وبينما يمد كفه لشعرها يجر خصله إلى فمه بعنف يلثمه وهو يردد كمخبول: «سأعيدك، دوماً سأعيدك».

دمعة أوشكت أن تغدر بدليلة فلم تمهل نفسها الغرق بشعور الخوف والعجز لتهاجم بقوة من جديد بفكرة لم تخطر على بالها من قبل: «وهل ستعيدني من القبر؟».

تجمد مروان مصدوماً وهو يرفع نظراته لدليلة فتضيف دليلة لاهثة: «أجل يا ابن عمتي، إن أجبرتني مجدداً واغتصبتني فأنا سأقتل نفسي وأكون لك شاكرة أن منحتني دافعاً كفاية لأفعلها وأرحل عن دنيا كم غير آسفة».

كانت مخاطرة منها لتفعلها وتدعو الله من صميم القلب أن يصدقها مروان، تستغل حالته غير المتوازنة لتتلاعب بعقله وستنتصر، ستنتصر عليه، تسربت باستسلام خصل شعرها من بين أصابعه وقد امتقع وجهه وكأنها أصابته بمقتل وكم ودّت لو لها القوة كي ترفع مغزلها وتغرز طرفه المدبب في قلبه، أخذ يرتعد وكفاه يرتجفان وهو يرفعهما نحو كتفيها لكن لا يجرؤ على لمسهما بل يهمس بهذر متقطع كأنه أصيب بالحمى: «لن أجبرك، لن أجبرك.. فقط.. ظلي هنا..

لا أريدك إلا ها.. هنا».

تنفست الصعداء أخيراً وهو يميل برأسه وجذعه كي يتوسد الأرض مضطجعاً على جانبه جوار دليلة ويعيد تكرار الجمل نفسها حتى خبت الكلمات من فمه وأصبحت غير مفهومة، تنظر إليه دليلة فتراه كحيوان ضال منهوش من وحوش البرية موجوع ولا أحد يغيثه، راحة مظلمة انتشرت داخلها، كم من مرة كانت مسجاة هكذا على الأرض تنتحب جسداً وروحاً انتهكهما مروان دون رحمة، فليذق المزيد، فما زالت في منتصف الطريق الذي اختارته وستمضي فيه حتى النهاية.

***

المستشفى.. منتصف النهار

ترفع سُلافة حاجبيها وتفتح عينيها وسعهما بنظرة مضيئة والابتسامة المرحة تشق شفتيها وتحفر على الخدين غمازتيها، تحكي للصبي الأسمر ذي العينين الداكنتين وهي تشير لخطوط كفه الأيسر وتقول: «انظر يا أسدي، هذا خط الحياة، مرسوم كشجرة فروعها عامرة بالأوراق والثمار، ستتزوج ابنة عمك الحلوة ويكون لكما الكثير من الأولاد والبنات إن شاء الله».

يرمش الصبي الذي لا يتعد الثامنة وهو يرد عليها بلهجته القروية: «حقاً؟ هل تقرئين كل هذا في كفي؟ أتجيدين قراءة الكف؟».

بنظرة خاطفة تشير سُلافة للطبيبة الشابة أن تؤدي عملها مع كتف الطفل الأيمن بينما تشغل الصغير بالمزيد وهي تقول له كأنها تحكي له مغامرة شيقة: «لو حكيت لك كيف أفسر الأحلام فلن تصدق ما..».

قطعت جملتها صرخة ألم من الطفل عندما أعادت الطبيبة كتفه المخلوع إلى مكانه بحركة واحدة، دون شعورها دمعت عينا سُلافة لدمعة الصبي المتفاجئ المتألم فأخذته في حضنها وهي تهمس له: «أنت شجاع يا ليث، أنا فخورة بك».

لم تفطن لما قالته إلا عندما همس الطفل: «اسمي عبد الله وليس ليث يا خالة».

تنحنحت وهي تبتعد عنه وتقول بمرح يخفي الكثير: «ألا تعلم أن اسم (ليث) من أسماء الأسود؟ وأنت تستحق اسماً كهذا يا أسدي».

شكرتها الطبيبة المبتدئة لمساعدتها فتبتسم لها سُلافة بلطف بينما أخذت تضاحك الصغير وهي تعترف له بمزحتها عن قراءة خطوط الكف، ممرضتان تراقبان ضحكات سُلافة الرنانة بتعابير ممتعضة بينما تسمعان الصبي الصغير يخبرها بخجل أنه يحب لون شعرها الأشقر، ما إن تحركت سُلافة مغادرة وهي تغمز للصبي مودعة حتى اقتربت الممرضتان منها لتقول إحداهما بسخرية وكلمات مبطنة: «سبحان الله من يراك الآن لا يراك وأنت لا حول لك ولا قوة يحملك

ضرغام الأسدي».

فتضيف الأخرى بنفس المعاني المبطنة التي قالتها صاحبتها: «كم هي صدفة عظيمة أن تقعي مغشياً عليك مع مرور الرجل جوارك».

تنظر إليهما سُلافة وهي ترفع حاجباً واحداً والابتسامة المستفزة المتحدية لا تفارق شفتيها قائلة بنبرة مغيظة: «أتعرفان؟ حتى اللحظة لا أصدق عظمتها ليت كل الصدف تشبهها».

ثم تضحك ضحكتها الرنانة وتضيف لتزيد في إغاظتهما: «أظنكما تدربتما طويلاً على (صدف) مماثلة ولم تحظيا بها».

أوشكت إحداهما على الرد بعنف عندما سبقتها سُلافة وهي تميل إليها قائلة بصوت خافت ونبرة شقية أكثر تحدياً واستخفافاً: «سمعت أن ضرغام الأسدي ليس بمتزوج، أستطيع تعريفه بكما لو شئتما فلربما يلتفت و...».

ألقت نظرة تقييمية عليهما من فوق لتحت لتكمل: «وقلبه يحن».

احمر وجه إحدى الممرضتين بينما الثانية تغلي وقد عجزت عن الرد لتتركهما سُلافة في غيظها وهي تدندن بأغنية وتتغندر، تمتمت إحدى الممرضتين تشتمها بخفوت: «سافلة».

لتضيف الأخرى بوجهها المحمر غيظاً: «من أي داهية

أنتنا؟».

جاء صوت كبيرة الممرضات من خلفهما أجفلهما معاً: «من نفس الداهية التي سأرميكما فيها اذهبا لعملكما وكفاكما، الممرضة سُلافة جاءت بتوصية مشددة من الدكتور فراس وأنتما أعرف بمكانته في القرية وبين الشيوخ، هو وزوجته الدكتورة رهف».

انفعلت الممرضة التي شمتت سُلافة قبل لحظات لترد على كبيرة الممرضات بالقول الغاضب: «حتى لو جاءت بتوصية منه، إنها بلا أخلاق».

بهدوء سألت كبيرة الممرضات: «ماذا فعلت؟».

فترد الممرضة الثانية بأسلوب تحريضي: «إنها مستفزة، تتغنج طوال الوقت، تغني للمرضى وكأننا في..».

رفعت كبيرة الممرضات كفها لتنهي الكلام قائلة: «هذا كلام تافه وتوقفا عما تفعلان حتى لا يرتد عليكما».

ثم أشارت بسبابتها إليهما بالتتابع قائلة: «أنتما من بدأ وكل ما في الأمر أنكما مغتاظتان لأنها لم تطأطأ الرأس وتتملق لكما كما فعلت من سبقنها من الممرضات الجدد القادمات من العاصمة أو أي بلدة أخرى».

إحدى الممرضتين انكمشت بينما تستمر الأخرى في ثورتها قائلة بعناد: «ليس هذا السبب لكنها ببساطة لا تعجبنا، كلنا هنا لم نحبها، بدلعها الذي لا يناسب عمرها

وضفائرها السخيفة الشقراء».

حذرتها كبيرة الممرضات للمرة الأخيرة: «ابتلعي لسانك يا وهيبة وكفاك تأجيجاً فقد يتكبدك الأمر خسارة عملك ولا أظنك تريدين هذا».

ثم تركتها ومضت لتوقف النقاش والممرضة وهيبة تغلي حقداً وربما.. حسداً للممرضة الجديدة القادمة من العاصمة وتجتذب الأنظار حولها.

***

في اليوم التالي

في أحدى دروب القرية لم يصدق ذياب عينيه وهو يرى أخاه مروان بحال لا يوصف يسير راجلاً على قدميه بخطوات غير ثابتة، شعره الداكن مشعث بعض الشيء بينما يمسك عقاله وكوفيته بيده وطارف الكوفية يتمرغ بتراب الأرض، أوقف ذياب سيارته ليترجل منها وعيناه تنظران يميناً ويساراً بخزي أن يراهما أحد من أهل القرية، اقترب من مروان على عجل ليمسك بذراعه وهو يحاول سحبه قائلاً بغيظ مكتوم: «تعال يا أخي، اركب معي السيارة».

يحاول مروان مقاومة أخيه بالبداية وهو يهذر بكلمات مبعثرة لكن ذياب صبر عليه وهادنه ببضع كلمات حتى أقنعه، بعد دقيقة كان ذياب ينطلق بسيارته في الدروب النائية من القرية حتى خرج إلى الصحراء قريباً من الجبل بينما يناظر بعبوس أخيه الهائم في ملكوت آخر، أوقف

ذياب سيارته مرة أخرى في الخلاء ثم ترجل ليدور حول سيارته ويفتح الصندوق الخلفي ثم يخرج قنينة مياه ويكمل دورته حول السيارة للجهة الأخرى حيث مقعد أخيه، يفتح الباب ودون كلمة كان يسحب رأس أخيه عنوة جانباً ثم يقلبه إلى الأسفل، كان مروان يحاول المقاومة لكن قواه الخائرة المخدرة لم تسعفه حتى شهق بعنف والماء البارد ينسكب فوق رأسه بكثافة حتى تيقظت حواسه من التخدير وانقشعت غمائم الهذيان، أمسكه ذياب من شعره ليرفع رأسه مجددا فيسكب المزيد على وجهه ومروان يشهق مجدداً لكن باستسلام هذه المرة بينما ذياب يهدر فيه: «يا خسارة الرجال يا ابن أمي وأبيا لحمد لله أن والدينا ميتان فلا يريان حالك».

ثم رمى القنينة بعيداً والغضب يفور في شرايينه، كفه ما زالت تمسك بشعر أخيه ليهز رأسه مُعنفاً وهو يقول بيأس وإحباط: «ماذا دهاك؟ انظر لنفسك أهذا مروان داهية آل الضاري؟ أهذا مروان الذي كان يضجّ رجولة ووسامة وأناقة بين رجال قرية الشيوخ بأسرها؟ ملابسك قذرة ورائحتك لا تطاق تبدو كالمخبول لا تفرق عن ذاك الفلاح الأجرب طحنون الذي كنا نسخر منه قبل سنوات وقد فقد عقله بعد أن ذبح ابنته ليقضي ما تبقى من عمره هائماً كحالك هذا حتى وقع ميتاً في أحد الدروب وكلاب مسعورة تنهش جثته، أتريد أن يكون هذا مصيرك؟».

كان مروان قد استعاد وعيه إلى حد ما ليحدق في أخيه

ويتمتم: «ليتني أملك القوة لأذبحها كما ذبح طحنون ابنته، أذبحها ثم أذبح نفسي بعدها».

أمسك ذياب بخناق أخيه من مقدمة جلبابه ليهزه بعنف وهو يقول هادراً: «دليلة باتت مرضاً مستحكماً سيقضي عليك وتلك السحارة النجسة الغجرية تتلاعب بك وهي توهمك بالدواء».

رد مروان بانكسار الرجال: «لم يعد لي إلا دنانير لتساعدني، وستقدر على فعلها يجب أن تقدر وإلا سأجن».

هتف به ذياب: «السحّارة دجّالة يا غبي إنها تخدعك وتسرق مالك، الكل في القرية بات يعرف أنك تذهب إليها ويتهامسون عليك من خلف ظهرك، قسماً بالله يا مروان إن لم تصحُ مما أنت فيه وتترك الدجل والشعوذة لأذهبن إلى تلك الغجرية وأقتلنّها بطلقة واحدة في رأسها».

اهتاج مروان فجأة ليدفع أخاه بعنف فيرتد ذياب خطوتين للوراء بينما يقف مروان على قدميه مغادراً مقعده وهو يهدد أخاه بنظرات تلمع بجدية مجنونة: «إن اقتربت من دنانير أو مسستها بسوء أنا الذي سيقتلك».

جحظت عينا ذياب وهو يواجه حالة أخيه فيتمتم بصدمة: «أتهددني بالقتل؟ أتهدد ابن أمك وأبيك لأجل.. سّحارة؟».

رد مروان والدموع تتجمع في عينيه وقد بدا في حالة

انهيار كامل: «فقط.. دعها تساعدني، لقد.. وجدت الحل».

يهز ذياب رأسه يميناً ويساراً ويكاد لا يصدق بينما يضيف مروان بتوسل يائس حتى الموت: «أعدك إن لم تنجح هذه المرة سأطردها.. سأطردها بنفسي من القرية».

تراخت تعابير الصدمة على وجه ذياب ثم فتح ذراعيه لأخيه ليستجيب مروان منهكاً ويلتجأ إليه معانقاً، يحتضن ذياب أخاه بينما جسد مروان أخذ يرتجف فيشدد ذياب من احتضانه وهو يعبس بشدة، لقد نفدت من رأسه الحلول.

***

المستشفى العام

تقف مستندة بظهرها للحائط في الممر بينما كوب الشاي في يدها ترتشف منه باسترخاء، تعدل قليلاً من حافة الوشاح الأبيض الذي تلفه كيفما أتفق حول رأسها، لقد اعتادت وضعه ولم تنزع منه امتثالاً للحشمة المطلوبة في القرية، لكنها تعترف أحياناً تتناساه عن عمد عندما يسقط للخلف عن رأسها كاشفاً شعرها الأشقر، يسعدها أن تغيظ بعض الممرضات بفعلتها هذه، فجأة أخذت تسمع صوت جلبة في الممر الهادئ فالتفتت لمصدر الأصوات وعندها رأت رجلين يخطوان بثبات خطوات متعجلة، أحدهما يخطو متقدماً والآخر بهيبة تجذب الأنظار إليه، رجل

مهيب وسيم بطريقة رجولية ملفتة، عيناه ثاقبتان وحاجباه مميزان، ملامحه الخشنة تشي بحكمة وقوة قرار، ملبسه ذو أناقة بدوية تختلف عن بساطة ملابس أهالي القرية العاديين، تمتمت سُلافة بخفوت وهي تكلم نفسها: «لا بد أن شيخ عشيرة ما».

وقد صدق حدسها الرجل خلفه يقول في احترام وتوقير خاص: «لا تقلق يا شيخ، الشيخة رغد بخير، الدكتورة إسراء تراها الآن وقالت أن لا نقلق».

ما زالت سُلافة تراقب وقد توقفت خطوات الشيخ عند باب غرفة الفحص فيسأل تابعه: «هل زادة معها بالداخل يا عبد القادر».

يرد المدعو عبد القادر: «أجل يا شيخ، هي من حملت الشيخة عندما أغمي عليها».

يكتفي الشيخ بإيماءة بسيطة من رأسه بينما يرخي أجفانه، ما زالت سُلافة تراقب وقد شدتها هيئة الشيخ القلقة، أجل لقد كان قلقاً للغاية ويداري على قلقه بشق الأنفس، ثم أخذت سُلافة تحلله أكثر وهي تنظر لوقفته المهيبة بتمعن فتهمس لنفسها: «رجل معتد بنفسه، ربما مغرور بعض الشيء، له هيبة طبيعية لا تهتز بسهولة، الأهم من كل هذا أنه عاشق مؤكد زوجته في الداخل وهو قلق عليها هكذا.

أجفلت والشيخ يلتفت بوجهه نحوها فجأة كأنه اكتشف

تلصصها السرّي عليه، ارتفع حاجباها قليلاً ببعض الدهشة ثم ابتسمت عفوياً ابتسامتها المشعة لتقترب منه وكوب الشاي في يدها لتعرض مساعدتها قائلة: «مرحباً يا شيخ، هل تحب أن أدخل وأطمئنك على زوجتك؟».

للحظات ظلت نظرات الشيخ مصوبة نحوها بتدقيق كأنه يدرس عرضها ليقول بنبرته المهيبة: «أكون شاكراً يا ممرضة».

اتسعت ابتسامتها وهي تقترب أكثر لتسلم كوبها إلى (عبد القادر) وهي ترد على الشيخ: «لن أتأخر، دقيقة أو اثنتان وأعود إليك».

ينقل عبد القادر نظراته العابسة بين كوب الشاي في يده وبين هذه الممرضة الغريبة بينما ترفع سُلافة يداً كي تطرق الباب ويدها الأخرى على المقبض الحديدي لتديره وتفتح الباب ثم تدخل مستأذنة من الطبيبة وتغلق الباب خلفها، تمتم عبد القادر بتذمر: «ماذا أفعل الآن بكوب الشاي هذا؟ امرأة غريبة».

في اللحظة التالية كان ضرغام قادماً من أول الممر ليتقدم لاحقاً الشيخ حتى وصل عنده قائلاً باعتذار: «عذرا منك يا شيخ تأخرت في الخارج، الشيخ عمران كان يطلب مني بعض الأمور المهمة لأفعلها اليوم».

اكتفى الشيخ عبد الهادي بإيماءة من رأسه بينما يرخي أجفانه مجدداً بانتظار خبر يطمئنه عن رغد العيش، لم

تمض دقيقة أخرى إلا وفُتح الباب بالزغاريد تتقدم رغد العيش بوجه متورد وعينين لامعتين لا تنظران إلا لشيخها، ومن خلفها كانت زغاريد سُلافة التي تندمج بالصوت الغريب الذي تطلقه الخادمة زادة كزغاريد خاصة بها، من خلف رغد العيش كانت سُلافة تراقب بنظرة مشعة مستمتعة فضولية وجه الشيخ وتشعر بحدس أنها ترى منه النوادر مما يفلت من ردود أفعاله، عيناه تكسران حاجز هيبته لتتمركزا حول شيختة، فتميل إليه الشيخة وينحني هو قليلاً برأسه نحوها كي يسمع همسها الخجول والزغاريد تحمل البشائر من حولهما، يتبسم الشيخ ورغم محافظته على وقاره فإن عينيه تفضحانه وهو ينظر لامرأته، نخُرُ شيخٍ عَشَق، قالها بعينيه وصَدَق.

اكتفت سُلافة من الزغاريد فهنأت الشيخ بحمل زوجته كما فعلت الدكتورة إسراء قبل أن تنسحب عائدة لغرفة الفحص، التفتت سُلافة إلى عبد القادر كي تأخذ كوب الشاي منه وهي تقول له بأريحية: «شكراً يا عبد القادر، آمل أن الشاي لم يبرد»».

فيزداد عبوس الرجل في وجهها وبدا غير راضٍ من تباسطها معه فتهز سُلافة كتفيها وتستدير كي تغادر لتتنبه اللحظة فقط إلى الرجل الآخر الذي يقف قريباً، لقد كان ضرغام، ضرغام الأسدي، تساءلت متى أتى؟ كان ينظر إليها نظرة عجيبة جعلتها ترتعش دون سبب، لكنه سرعان ما أرخى نظراته للأرض تأدباً واحتراماً،

شعرت بالاستفزاز من مجهول فتقدمت إليه خطوة وهي تقول بابتسامة عريضة تكاد لا تفارق شفتيها: «مرحباً يا ضرغام، كيف حالك، نسيت أن أشكرك البارحة عندما..».

قاطعها ضرغام قائلاً: «لا شكر على واجب يا ممرضة».

كتمت سُلافة ضحكة، المسكين شعر بشكل مؤكد أنها ستحرجه بجملة ما عمّا حصل البارحة وكيف حملها إلى داخل المستشفى عندما أغمي عليها في الحديقة، ارتفع حاجبا الشيخ عبد الهادي قليلاً في دهشة مما يراه وهو يرقب المشهد العجيب أمامه، منذ حديثه مع والده الشيخ عمران حول أسرار ضرغام وبات الشيخ عبد الهادي منشغلاً بالتفكير بصاحبه على نحو مختلف تماماً، فيشعر بحاجة ملحة كي يعرف المزيد عمّن يرافقه معظم ساعات اليوم، وحقاً اللحظة الآن كانت غير عادية وهو يرى تلك الممرضة الجريئة تكلم ضرغام بهذا الأسلوب وكأنها تحرجه بسر تشاركاه، أخفى الشيخ عبد الهادي ابتسامته ثم مال إلى زوجته يهمس لها: «هيا يا امرأة الشيخ».

ينسحب الشيخ وزوجته يتبعهما ضرغام وعبد القادر وتلك الخادمة الضخمة الخرساء زادة بينما تعود سُلافة إلى مكانها الأول فتستند بظهرها إلى الحائط مجدداً وكوب الشاي في يدها، خلعت مظاهر البهجة والبشاشة لتدخل عبر بوابة الماضي فتعود إلى الوراء أربعة عشر عاماً، يدها الحرة ترتفع للقلب المعلق على صدرها، دمعة غضب

لامست أجفانها، وجع مألوف وهي تتذكر اختبار الحمل الذي احتفظت به لسنوات، ضاع مع كل ما ضاع؛ لكن ذاكرتها تعاند وتتشبث بكل ذكرى، تتذكر وكأنها البارحة فقط كانت تجري اختبار الحمل وكيف هرولت كالمجنونة في المستشفى إلى غرفة الأطباء كي تبشر.. ثامر.

قست عيناها ويدها تتشبث بالقلب أكثر، لن تيأس، مهما فعلوا بها لن تيأس، حتى لو لم يعد لها ولدها يوماً لن تيأس من إقناعه ببراءتها، بالمؤامرة الحقيرة التي حاكها أبوه مع مجموعة حثالة ظنتهم أصدقاء ومحبين مخلصين.

***

يلتزم ضرغام الصمت بينما يقود عبد القادر السيارة وهو يناقر زادة في حوار عجيب، لا يعرف كيف تفعلها هذه المرأة الخرساء فتناقر دون صوت وتكتفي بحركات كفيها وتعابير وجهها وبضعة همهمات تطلقها وهي تزجر عبد القادر لسوء قيادته، ينظر ضرغام إلى سيارة الشيخ عبد الهادي التي تسير أمامهم، لقد أخذ الشيخ زوجته معه ليلحق البقية بهم في سيارة عبد القادر، كم هو سعيد لأجله، بل تكاد فرحته توازي فرحة الشيخ، لقد قالها مرة للشيخ عمران، أخبره أنه يشعر أن أولاد شيوخ الأسدي هم أولاده، وقد صدق.. إنه ينتظر الولد القادم من ظهر شيخ الأسدي، يشعر أنه سيكون صبياً، يشتاق لمولده وهو لا يزال في رحم أمه بأول تكوّنه، يشتاق أن يشارك بتربيته وتعليمه، مضى زمن طويل لم يشعر هكذا، غمازتان

قفزتا أمامه دون سابق استئذان فيرخي أهدابه وابتسامة تلقائية تلوح كطيف على شفتيه؛ لكن سرعان ما تلاشى الطيف المبتسم لتتلبد مشاعره بغيوم من حزن رقيق، في اللحظة التي وقعت عيناه عليها اليوم وهي تزغرد خلف زوجة الشيخ، انتابه الإحساس ذاته، بل بات أقوى، أن هذه المرأة وخلف الزغاريد والضحكات المنيرة بالغمازات فإن ألمها المكتوم حاضراً معها على الدوام، تذكر ما حصل صباح الأمس، كلامها عبر الهاتف (**أرجوك.. استمع إليّ.. أرجوك حبيبي امنحني الفرصة لأتكلم، لا تصدق كلامهم عني.. إنه كذب.. افتراء**).

لم تكن تكلم رجلاً، تلك الرنة المرتعشة في صوتها لم تكن رنة امرأة تكلم حبيباً أو زوجاً، وما سمعه منها لاحقاً أكد صدق حكمه، أصابعها التي تعلقت بكم جلبابه وهي فاقدة الوعي، كأنها كانت تبحث عن مساعدة، عن سند (**لو كان أبي على قيد الحياة لما سمح لأحد أن يؤذيني هكذا، للمرة الأولى في حياتي أشعر أني يتيمة ضعيفة أبي علّمني كيف أعيش دونه لكنه لم يعلمني كيف أعيش دون ولدي**).

ما زال ضرغام يرخي أجفانه وهو يتفكر لترن في أذنيه جملتها (**أنا أيضاً أتألم**)

هل يمكن لفوانيس العيد التي تحفر خديها وإشراقة الأزرق المبتهج في عينيها، أن تخفيا كل هذا الألم والوجع؟!

قطع أحجية لا يسعى لحلها، لكنها تجد وسيلة لتوقعه عنوة في طريقها

تلك المرأة سُلافة باتت تثير حيرته وإن صدق مع نفسه تثير بعض اضطرابه وكثير من فضوله وتشغل مخيلته، إنها هي الأحجية، قطعها حتى اللحظة لا تنسجم مع بعض في رأسه، ابتسم مجدداً، هذه المرة ابتسامة (رجل)، أمر واحد ينسجم معها، اسمها..

سُلاف، وزادتها التاء تأنيثاً.

***

بعد أيام.. مجلس الشيخ حمدان الضاري

في جلسة لا تضم إلا الشيخ حمدان وذياب الضاري، كان ذياب يسرح مفكراً بحال أخويه خلفان لم يعد يكترث بشيء ولم يعد يهتم كالسابق باستعادة (المشيخة) وكأنه يئس، فانشغل أكثر بملاحقة النساء وأصبح يسافر إلى العاصمة كثيراً كي يرتاد الملاهي الليلية بحثاً عن الراقصات يبعثر عليهن ماله، وفي القرية لا يستحِ أن يلاحق الفلاحات دون حياء أو خجل، وقد بات ذياب عاجزاً عن التغطية على أفعاله المشينة، أما مروان فهنا المصيبة العظمى لقد أمهله ذياب أسبوعين لا غير وبعدها سيتدخل بنفسه لطرد الغجرية من القرية بأسرها، هي وخادمها الذميم حبّاس، كم يكره ذاك الخادم ويتشاءم من رؤيته، كلما صادفه في القرية لا يراه إلا بوجه أفعى تراقب ما حولها

بعينين مسمومتين وتزحف بخبث بين عظام الأموات تنبش قبورهم أي ورطة هذه أوقعت مروان في شباك سحارة غجرية، شعر ذياب بالغم، يشعر أنه بات وحيداً وقد خذلاه كلا أخويه بحالهما الذي لا يسر، قست نظراته وهو يفكر أن السبب كله من صفوان، لولا عودته المفاجئة للقرية لما حصل كل هذا، لكان الآن قد أزاح هذا الأبله حمدان من المشيخة وسط النزاع العشائري الذي نشب وبات هو، ذياب الضاري شيخ عشيرة الضاري كما يفترض أن يكون.

عودة صفوان لم تسلبه فرصته بالمشيخة وحسب، بل أفقدت أخاه مروان صوابه فبات لا يفكر إلا بزوجته دليلة وكيف يبقيها جواره.

«بماذا تسرح هكذا يا ابن عمنا؟ لا تقل لي إنك تفكر بامرأة»».

استعاد ذياب واجهته المسيطرة ليقول بابتسامة متلاعبة: «يبدو أنك أنت من تفكر بالنساء يا شيخ لا أنا».

يضحك حمدان بغرور مكروه ثم ينظر إلى عيني ذياب ليقول له بنبرة فيها مشاكسة صبيانية: «في الواقع نعم، أفكر، أنت تعرف، أنا كـ(شيخ عشيرة الضاري) يجب أن أنجب الذكور كي يرثوا المشيخة من بعدي بعد عمر طويل، وامرأتي لا تنجب إلا الإناث»».

كتمها ذياب في قلبه حقداً كالسم الزعاف فاحتمله وهو

يرد: «كله رزق من الله يا شيخ».

يغمز الشيخ حمدان وهو يقول بسفه: «هل تذكر الحكاية القديمة يا ذياب؟ كيف أن جدي أخذ المشيخة من جدك؟».

فلم يحتمل ذياب هذه المرة ليرد عليه بنبرة ذات معانٍ مستترة: «كما فعلت أنت مع أخيك حامد رحمه الله، التاريخ يعيد نفسه في سلسالكم».

تأجج في عيني حمدان الغضب ليصحو ذياب من لحظة تهوره فيداريها بذكاء ويدير وجهة الاتهام بعيداً عنه مضيفاً: «ولأجل هذا جئتك اليوم ناصحاً أميناً أحذرك أن هناك من يحاول أخذ المشيخة منك».

خبت أجيج حمدان من تلميحات ذياب الأولى ليتساءل بنبرة مدافعة: «هل ستعود مجدداً للتلميح إلى ابن عمي وأخي صفوان؟».

شعر ذياب بالهدوء وصفاء الذهن بعد أن أنقذ الموقف بإلهاء حمدان، قد يدّعي حمدان محبة صفوان لكنه يخاف منه ومن إعجاب الناس به بعد دوره في فض النزاع، وفجأة أخذت تتشكل مكيدة آنية في رأس ذياب، فلم يتوانَ عن حبكها ارتجالاً وهو يقول لحمدان بتصنع الولاء والمحبة: «ليته يحبك كما تحبه وتقدره، لقد رفعت شأنه حتى اغتر وتمادى».

تساءل حمدان وهو يقع بالفخ: «كيف اغتر وتمادى؟».

رد ذياب متصنعاً الحرج: «لا تسألني أنا، فأنا إن تكلمت تظنني أوقع بينك وبين ابن عمك ومن تعتبره أخاً، لذلك أقول لك اسأل أم إسماعيل الخاطبة».

يعقد حمدان حاجبيه وهو يتساءل بقلة صبر ونزق: «اسألها عن أي شيء؟ وما شأنها في هذا الكلام؟ أفصح ذياب ولا تلف وتدور كعادتك».

تنهد ذياب بطريقة مدروسة وكأنه أعلن الاستسلام ليميل بجذعه مقترباً من حمدان كأنه يسره بالكلام المهم قائلاً: «لا بد أنك تعلم أن تلك المرأة تسعى لإيجاد عروس مناسبة لصفوان».

يهز الشيخ حمدان رأسه بـ(نعم) ثم يقول: «أخبرتني زوجتي بهذا».

فيقول ذياب: «وأنا أعرف من زوجتي أيضاً، أنت تعرف النساء يتناقلن هذه الأمور، ومنذ أيام جاءت أم إسماعيل إلى زوجتي تسألها النصيحة لأن صفوان لا يعجبه العجب يريد صبية لم تلدها ولّادة، جمال وحسن وابنة شيخ، لا يريد إلا ابنة شيخ عشيرة قوية».

يقولها ذياب وعيناه تدرسان ردة فعل حمدان، فشعر أنه التقط أول الخيط وذاك التوجس يلتمع في عيني حمدان الذي قال ببعض الاستغراب: «صفوان لا يعجبه العجب؟ ويطلب هذه الطلبات؟ غريب».

بسلاسة خبيثة ناعمة رد ذياب: «هذا لا يهمني، هو حر فيما يطلب، ما يهمني زلّة لسان أم إسماعيل أمام زوجتي».

عقد حمدان حاجبيه متسائلاً: «أي زلة؟».

رد صفوان وهو يتصنع التوجس والحذر: «قالت إن صفوان طلب منها أن..».

ثم توقف عن إتمام جملته عن عمد وكأنه يهاب النطق بالكلمات فيهتف به حمدان بغضب: «كفاك مماطلة بالكلام يا ذياب، قلها، ماذا طلب صفوان من الخاطبة؟».

رد ذياب والمكر في عينيه يشع: «طلب منها أن تناديه بـ(الشيخ صفوان) وأن تنشر التسمية في بيوت القرية وهي تبحث له عن عروس».

***

الغزل الرابع

«غزلُ خيطِ الكذب ثمنه عاجلاً أم آجلاً مدفوع.. لا يُنسج منه حق ولا يُوصل به مقطوع»

أوقف مروان سيارته على جانب الطريق ليترجل منها لاهثاً وهو يعاني صعوبة التركيز ويتعثر في خطواته، أخذ ينادي وهو يشعر بتعب يكبّل جسده ويشوّش ذهنه: «أم إسماعيل»».

التفت المرأة وحالما رأته اقتربت وهي ترد عليه: «نعم يا ابن الشيوخ، أأمرني»».

رأته في حال لا يسر، رفعت طارف وشاحها لتغطي نصف وجهها وهي تعوّج فمها يميناً ويساراً، أقسمت في سرها أن هذا الرجل قد جنّ بالفعل كما بات يتكلم عنه الناس، أما مروان فوقف أمامها مهزوزاً، بلا عقال ولا كوفية، يرفع كفيه إلى رأسه يضغط على صدغيه من الجانبين يحاول استجماع الكلمات، لقد كان في طريقه إلى دنانير؛ لكنه حالما لمح أم إسماعيل تسير لوحدها في أحد دروب القرية حتى أوقف سيارته ساعياً إليها، الفكرة في رأسه منذ زمن لكنها نتوه منه، تمتم يكلم نفسه بصوت مسموع: «ماذا أردت القول يا مروان؟ ماذا أردت؟»».

تنظر إليه أم إسماعيل ولا تعرف كيف نتصرف، ولم يكن أمامها إلا مداهنته ونفاقه لتقول بلهفة كذابة: «اسم الله يحميك يا ابن الشيوخ، ما بالك؟ عين وأصابتك يا

زينة الرجال، لا بد أنها إحدى النسوة اللواتي طلقتهن قد حسدتك».

أجفلت أم إسماعيل شاهقة عندما أمسكها مروان فجأة من ذراعيها، فتكتم توجعها دون أن تكتم خوفها، في سرها تقول وهي تحدق في عينيه الزائغتين ونظراته غير الطبيعية: «تشّهدي يا أم إسماعيل، هذا المجنون قد يزهق روحك».

وبينما تتمتم بالشهادة قال مروان أخيراً وقد بدت نظراته طافحة بالشر: «لقد تذكرت ما أردته منك، هل صفوان ما زال يبحث عن عروس؟».

ردت أم إسماعيل وصوتها يرتجف ذعراً منه: «نعم، نعم.. أنا أبحث له و..».

قاطعها بنزق وهو يقرب وجهه منها ويقول: «سأخبرك إلى من تلجئين وستعرض عليك أجمل العرائس في القرية».

تنبهت حواسها كـ(خاطبة) لمنافسة محتملة فنسيت خوفها من جنون مروان الضاري لتقول بعبوس: «من تكون؟ هل هناك خاطبة في القرية تنافسني في لقمة عيشي؟».

يهز رأسه بعنف سلباً ثم يقول والخبث يفوح من كلماته وكأنه استعاد وعيه فجأة: «إنها ليست خاطبة، بل امرأة عادية؛ لكن يأتينها دوماً الصبايا الملاح لأخذ دروس الغزل».

تمتمت أم إسماعيل بعد لحظات تفكر: «دروس الغزل؟ هل تقصد..»».

فيقاطعها مروان ليكملها لها بتأكيد: «أجل، هي زوجتي.. دليلة، اذهبي لها في بيتي واطلبي منها ترشيح أجمل الصبايا كعروس لصفوان»».

ثم اشتد لمعان الخبث في عينيه ليقول كأنه يهذي: «إنه ابن عمنا ودليلة ستفرح كثيراً بالطلب»».

ثم تركها وهو يتراجع نحو سيارته ليقول بهذر أكثر تشوشاً: «اذهبي يوم الخميس، أجل الخميس، الخميس جيد»».

ثم ركب سيارته وأم إسماعيل تعوج فمها مجدداً وتقول: «نذهب إلى زوجتك الخميس لما لا؛ لكن يا خسارتك يا ابن الشيوخ كنت زبوناً دائماً عندي»».

بعد دقائق كان مروان يقود سيارته مجدداً، لقد كان في طريقه إلى دنانير عندما لمح أم إسماعيل تسير لوحدها في أحد دروب القرية، عقله ظل يلح عليه التوقف، الفكرة في رأسه وقد احتاج لجهد كبير كي يتذكرها ويقولها لأم إسماعيل كي تنفذ، لم يعرف لما قال لها أن تذهب يوم الخميس ربما لأن الخميس سيكون يوم الفرج له، يد على المقود واليد الأخرى تمتد للمقعد المجاور يلامس ثوب دليلة الذي أخذه قبل قليل، منذ الصباح كان يتحين الفرص ليحصل على المطلوب كما وصفته وطلبته دنانير بالضبط.

ارتخى جسده بتعب شديد بات ملازماً له في الأيام

الأخيرة، لكن عقله يتشبث بكلمات دنانير كأنها القشة الأخيرة التي يتعلق بها وإلا غرق في الجنون تماماً، بذهن يطفو فوق سحب الأوهام والهلوسات والمواجع يستذكر ما جرى في لقائه بدنانير ليلة الأمس وما قالته له بالحرف...

جاثياً على ركبتيه ودنانير تدور حوله في فلك ثابت والمبخرة في يدها تشيع إحساساً روحانياً حوله بينما تقول له: «لن تحبك امرأتك إلا إذا تشاركتما الذرية، **طفل بربطكما بحبل متين من دم موصول، يفكّ سحر كره ونفور، لأجلكما معمول**».

بيأس يتساءل ورأسه يتلفت إلى الجانبين ليتابع خطواتها المستحكمة حوله: «كيف.. كيف؟ مضت سنوات ولم تحمل، ولا واحدة من زوجاتي حملت مني»».

تميل إليه دنانير لتهمس قرب أذنه بصوت خشن غريب: «مقدّر لك أن لا تتشارك بصنع طفل إلا مع امرأة واحدة يا ابن تمرة، دليلة فقط ولا غيرها»».

يحاول التركيز فيرفع كفه ويضرب جانب رأسه ويهتف بجنون: «أقول لك لم تحمل مني قط، ولا أستطيع المحاولة مجدداً الآن، لا أستطيع أن أقربها، لقد قالت لي، ستقتل نفسها إن فعلت»».

لمعة رضا خطيرة في عيني دنانير وهو تواصل بصوت خشن آمر: «أنا أساعدك بأمر من سيدي ملك الجان سيحصل هذا الاتحاد بينكما، سيحصل رغماً عنها ودون

حتى أن تدري».

تساءل وهو يتوه أكثر: «كيف؟ هل سنخدرها؟».

فترد وهي تغزل خيوط الكذب بدهاء: «لا ينفع أن تتخدر، وقد تسقط الجنين عن عمد فيما بعد أو حتى تقتل نفسها مع جنينها».

أصابه هلع مجنون وهو يتمتم: «لا.. لا».

تمد كفها بكأس الشراب لتسقيه المر وهي تقول بالنبرة نفسها: «أطعني وسيكون لك كل ما تشتهي؛ لكن سيتحقق بالكيفية والوقت المسطّر على جبينك فقرأناه واخترناه لك، فقط أطع».

ما زالت تسقيه وهي تضيف بلهجة آمرة لها وقع وهيبة: «سيدي ملك الجان يأمرك بإحضار ثوبها، ثوب يحمل رائحة عطرها، تكون قد خلعتْه للتو، يجب أن تحضر الثوب عندي قبل أن يبرد ويتلاشى منه دفء جسدها».

تبعد الكأس عن فمه فيهز مروان رأسه متمتماً بطاعة: «حاضر.. حاضر».

لتضيف دنانير طلباً آخر: «وسنحتاج أيضاً إلى خيطٍ من غزلها».

تساءل مروان بشفاه متراخية يسيل من فمه بعض من الشراب ليبلل لحيته: «خيط من غزلها؟».

تشم دنانير رقبته كأنها تشم رائحة فريستها قبل

الانقضاض الأخير عليها لتقول بصوت أنثى مغوٍ هذه المرة: «سيدي يقول **بذرتها في خيط غزلها مكنونة، وروحها في ثوبها مضمومة**، وسنحتاج الاثنين معاً حتى يتم تجهيز الوعاء الذي سيحمل طفلكما».

تعاود سقيه من الكأس وهي توصيه بتحذير شديد اللهجة: «إياك أن تخبر مخلوقاً بهذا وإلا فسد الأمر كله ولن ينصلح فيما بعد حتى آخر العمر».

رفع مروان كفه ليمسك الكأس بنفسه فيتجرع ما فيه حتى آخره دون أن يبالي بجفاف فمه من شدة مرارته، وحالما أنهاه رمى الكأس أرضاً وهو يسأل بعينين محمرتين: «كم.. كم سيطول؟».

تخصر دنانير وعيناها تبرقان بالجشع وهي تعده بالقول: «عندما تحضر المطلوب أمهلني ثلاث ليالٍ فقط وبعدها تأتي إلى مع غروب شمس الليلة الأخيرة».

ثم تستدرك أمراً فتبتسم بخبث امرأة اختبرت الرجال لتضيف: «أمر أخير أطلبه منك، إياك أن تعاشر أي امرأة منذ اللحظة وحتى آذن لك، دع جسدك وروحك يتطهران ويستعدان لتكوين طفل لم يسبق له مثيل في عشائر قرية الشيوخ كلها».

يهز رأسه وهو يردد: «لم يسبق له مثيل.. لم يسبق له مثيل».

***

دار الشيخ الأسدي.. بعد العصر

تلف سُلافة طارف الوشاح حول رقبتها جيداً بينما تلحق على عجل بخطوات عبد القادر الذي يسير أمامها في الباحة الخارجية للدار متجهاً ناحية السيارة، تناديه بتذمر: «على رسلك يا عبد القادر لماذا تستعجلني هكذا؟ لم أشرب حتى القهوة».

كان عابساً فتبتسم في سرها وهي تعرف أن عبوسه هذا بسببها، إنها لا تكف عن مشاكسته حتى دون قصد منها، تكاد تنفجر ضاحكة كلما أحست برودة فعله غير الراضية على تعليقاتها أو أسلوبها معه بالكلام، كيف سيتحملها ذهاباً وإياباً وما زالا في اليوم الثاني من علاج المضاد الحيوي الذي وصفته الدكتورة رهف للشيخة مليحة بعد إصابتها النزلة الشعبية التي ألمت بها واستوجب حقنة بالوريد يومياً ولمدة أسبوع، منذ يومين يتحملها عبد القادر صامتاً على مضض وعبوسه يحكي، يصعد عبد القادر مكانه ليجلس على كرسي السائق فتفتح سُلافة عفوياً باب المقعد المجاور له فيقول عبد القادر بنزق وبعض الفظاظة وبنبرة بدوية ثقيلة: «في المقعد الخلفي».

ترفع حاجبيها باستدراك بينما ترد عليه بابتسامتها الواسعة المنيرة: «حاضر أيها البدوي صعب الطباع».

زفر عبد القادر بقوة بينما تضحك سُلافة وهي تغلق الباب الأمامي لتتحرك نحو الخلفي وبينما تفتحه طرفت

عيناها نحو بوابة دار الشيخ الأسدي على بعد بضع أمتار فتلتقي نظراتها بنظرات ضرغام الأسدي وعندها منحته تلقائياً ابتسامة أوسع ورفعت كفها في تحية سلام، لكن ضرغام سرعان ما أرخى أجفانه ليطرق بنظراته ولم يرد سلامها إلا بإيماءة بسيطة من رأسه، هذا الرجل لا يُصدق فيه شيء غامض غير مفسر يصعب عليها تصديقه، ما هو بالضبط هذا الشيء، حتى اللحظة لا تعرف الإجابة.

***

اليوم التالي

خرجت سُلافة إلى الباحة الخارجية لدار الشيخ الأسدي تدور بعينيها بحثاً عن وجه عبد القادر، أشار لها أحد حراس البوابة نحو السيارة الرباعية الدفع التي تقف جانباً في الباحة بانتظارها وتلمح خيال رجل فيها، لم تتبينه وشمس المغيب تتعب نظرها وتلقي بظلال على الرؤيا، هزت كتفيها بلا مبالاة بينما تتقدم من السيارة وللحظة أرادت إزعاج عبد القادر بأن تفتح باب المقعد المجاور للسائق لكنها تراجعت في اللحظة الأخيرة وقررت بشقاوة مشاكسة أن تفعلها غداً، لقد أوجعت رأس المسكين في رحلة الحضور إلى هنا وهي تتعمد الثرثرة دون توقف وبصوت عالٍ مزعج فيكفيه ما ناله منها، فتحت الباب للمقعد الخلفي وهي ترمي السلام وتقول: «السلام عليكم عبد القادر، هل افتقدتني؟»،

لم تتنبه لمن يجلس خلف مقود السيارة وهي تتسلق الصعود ورأسها محني؛ لكن الصوت الذي رد عليها مؤكد ليس صوت عبد القادر الغليظ: «وعليكم السلام ورحمة الله يا ممرضة».

شخص واحد فقط يناديها (ممرضة) بهذه النبرة فرفعت وجهها وهي تستقر في جلوسها لترى (ضرغام الأسدي) يجلس في مقعد السائق ويرد سلامها دون أن يلتفت أو حتى يحاول النظر إليها عبر المرآة الأمامية، بابها لا يزال مفتوحاً وهو ينتظر بصبر عجيب واللحظات تمر لتصبح دقيقة أو ربما تجاوزها قبل أن تتساءل بخبث أنثوي وقد يئست أن يتكلم هو: «لماذا تعيدني أنت يا ضرغام؟ هل عبد القادر تضايق من ثرثرتي؟».

مالت جانباً لتغلق الباب وهي تلقي تساؤلات تلك ليتحرك ضرغام بسلاسة وهو يقول بنبرة هادئة: «واجبه يؤديه سواء تضايق أم لا، ليس له أن يقول (لا)».

كان مقتضباً للغاية دون أن يختصر، لديه قدرة على اختيار بضع كلمات فيها الرد لكنها لا تشبع السائل، بل تزيد من رغبته ليعرف المزيد، حتى هدوء نبرته غامض تذكرها بهدوء الريف الشديد بعد الغروب مُحاطاً بأسرار أصوات المخلوقات التي لا تراها لكنك تسمعها وتعرف بوجودها حولك وقريباً منك، غادرت السيارة بوابة دار شيوخ الأسدي لتقول سُلافة وهي تتلاعب بضفيرتها من تحت الوشاح الخفيف الذي تلفه حول رأسها: «إذن أفهم

من كلامك غير المباشر أني ثرثارة بالفعل لكن ليس للمسكين عبد القادر أن يعترض؟».

أيضاً لم يرد على كلامها، بل يكتفي بالقول: «أقل واجب نؤديه لك يا ممرضة كشكر على تعبك مع الشيخة المليحة».

فتعلق سُلافة وهي تهز كتفيها: «هذا واجبي، الدكتورة رهف اختارتني لأؤديه».

ثم تميل للأمام قليلاً بشكل عفوي لتثرثر المزيد مضيفة: «هل أقول لك سر؟ أظنها تحاول تخفيف وجودي حالياً في المستشفى بعد غيرة الممرضات وحقدهن عليَّ لأن رهف تدبرت أن آخذ الدار الذي كانت تسكنه مع أمها قبل زواجها بالدكتور فراس لأسكن فيه أنا طوال مدة بقائي في القرية بمشاركة طبيبتين مقيمتين جاءتا مؤخراً للقرية».

فيأتي رد ضرغام كما هو متوقع منه: «مبارك يا ممرضة».

بدأ الأمر يغيظها، مدت يدها لتفتح شباكها فيضرب الهواء صفحة وجهها بينما تنظر إلى هذا الرجل العجيب من زاوية حادة من ظهره وتفكر بطريقة لاستفزازه كي تخرج أسوأ ما فيه وحالما فتحت فمها رن هاتفها، فتأففت وهي تفتح حقيبتها تبحث عن الهاتف وتقول: «من يكون المتصل الآن؟ أنا مرهقة بما يكفي».

تجمدت يدها التي تمسك الهاتف في راحتها وشعور قلق سيطر عليها وهي تتطلع للرقم المجهول، أخذت نفساً عميقاً

من الهواء القادم من الشباك المفتوح بينما تستعد لكل الاحتمالات وهي تغمض عينيها لبضع ثوانٍ، كان ضرغام اللحظة ينظر إليها عبر المرآة الأمامية بدافع من حدسه القوي وقد شعر بتوترها.

فتحت سُلافة الخط وهي تدعو الله أن تحصل معجزة ويكون المتصل ولدها ليث؛ لكن زمن المعجزات ولّى، ليأتيها أبغض صوت يمكن أن تسمعه في حياتها، فالمتصل من الرقم المجهول لم يكن إلا ثامر، الدكتور ثامر، مطلقها الذي ارتكب بحقها كل أفعال الخسة والدناءة، كان صوت ثامر البغيض هادراً بعنف: «أيتها الوضيعة الحقيرة، ليث منذ أيام في حالة ثورة غضب رهيب ولم يصارحنا بمكالمتك له إلا اليوم، أقسم بالله يا سُلافة إن اتصلت به مرة أخرى سأبلغ عنك الشرطة وأتهمك بملاحقته رغم الأمر القضائي الذي يلزمك الابتعاد، بل وسأقول إنك اعتديت عليه بالشتم والضرب، وأظن تاريخك المسجل قضائياً بسلاطة لسانك وتعديك على الممرضات يشهد».

كانت تبعد الهاتف عن أذنها وصراخ ثامر يخرج منه عالياً لتضرب دون شعورها بكفها الحر على مقعد ضرغام من الخلف وهي تطالبه بتشنج شديد: «أوقف السيارة.. أوقفها».

دون كلمة كان ضرغام يميل إلى جانب الطريق وقد اختار بقعة منعزلة قرب الترعة لتفتح سُلافة الباب وتترجل من السيارة وهي ترد على ثامر بالقول الهادر: «لا

أستغرب منك أي فعل خسيس أيها الحثالة القذر، أنت متخصص في الادعاءات الكاذبة والتهم الباطلة».

لم يستطع ضرغام منع نفسه من الالتفات للخلف فيرى باب السيارة ما زال مفتوحاً بينما سُلافة تتحرك جوار حافة الترعة ذهاباً وإياباً وقرص الشمس يحترق من خلفها، لقد سمع كلام ذاك الرجل بوضوح كما سمع رد سُلافة عليه وعقل ضرغام يسجل عفوياً ليضع قطعاً جديدة في الأحجية، لم يسمع رد ثامر هذه المرة وهو يغيظ سُلافة بالقول الحقير: «أما زلتِ ترددين هذه التفاهات؟ ألم تتعبي وأقرب الناس إليك في المستشفى لم يصدقوكِ وشهدوا ضدكِ؟».

احتقن وجه سُلافة بالألم فترفع سبابتها تعض عليها بقوة كأنها تمنع صرختها، كان ضرغام ما زال يراقبها وبطريقة ما كانت مذهلة في غروب الشمس وهي تعض إصبعها هكذا، سمعها ترد أخيراً: «أنت تافه كمراهق يتفاخر أمام أقرانه أنه كسر زجاج سيارة معلمه حتى في تفاخرك القذر أنت تافه، ستظل دوماً بؤرة القذارة مع زميلة دراستك الفاضلة ومجموعة شاهدي الزور الذين لمتهم حولك ليشهدوا علي ويتهموني في شرفي وعرضي بالباطل».

اتسعت عينا ضرغام بل جحظتا بنظرة قوية رهيبة، فجأة الصورة اكتملت أمام بصيرته رغم النواقص التي فيها، وما يراه اللحظة لا يعجبه، خسئ الرجال الذين يرمون المحصنات، وخسئوا مرتين وهم يرمون المحصنات من

نسائهم، ألا ليت أرحام أمهاتهم خسفت بهم فلم يولدوا ولم ترهم أرض الله ولم تشرق عليهم شمس، ما زال ثامر يتبع طريقة الإغاظة والإنكار وهو يرد على مطلقته بالقول: «لا أعرف عن أي شيء تتكلمين أنا تصرفت كأب وحميته منك، أنت عار له».

ردت بعنف وهي تكابد الألم تحاول استفزازه ليتكلم: «أنت هو العار، الرجل الذي يطعن زوجته في شرفها ويشهر بها كذباً ليقضي على سمعتها دون اعتبار لولده المراهق هو العار ذاته، أنت رجل ناقص، وأفعالك كلها تعبر عن شعورك العظيم بالنقص».

هذه المرة كان صوت ثامر بارداً هادئاً وهو يقول بإنكار كامل: «مجدداً لا أعرف ما تتكلمين عنه، أنت تهذين أو ربما تهلوسين، أعتقد أنك تحتاجين لدواء مهدئ، هل تريدين أن أصف لك واحداً؟».

ثم أخذ يضحك ضحكة قميئة قبل أن يضيف: «أنت لن تتغيري، أو ربما لأني أصبحت أعرفك جيداً يا زوجتي السابقة، إن كنت تحاولين استفزازي لأقول كلاماً معيناً فلا تتعبي نفسك، أنت لن تفلحي، فلا تضيعي وقتك بالتسجيل لي».

عندها فقط شعرت بالتعب والألم يشتد عليها، لقد عرف خطتها لتتمتم تهينه وتتوعده: «جبان منافق، لكني سأفضحك يوماً بالأدلة والبراهين، وعد قطعته على نفسي يا

ثامر».

فيأتيها رد ثامر المتبجح: «أنا حريص دائماً كما تعلمين، لست غبياً مثلك، لسانك الثرثار هذا هو ما أوقعك بالفخ».

تستجمع قوتها لتقاوم الألم وهي ترد عليه بشجاعة: «على الأقل أقول ما بداخلي دون خجل أو خوف، لا أنافق ولا أكذب».

ثم صمتت لحظة قبل أن تضيف بإهانة جديدة لكن بشكل ضمني غير مباشر وأسلوب فكاهي ساخر: «هل تعلم أنت محق باتهامي بالغباء بل يجب أن يسجلوا اسمي في موسوعة غينيس لمعدل الغباء الذي أملكه عندما تزوجت بمن سجلوه بالخطأ في قائمة الذكور عند مولده».

ثم أغلقت الخط وأخذت تضرب بقدميها الأرض لتنثر الغبار من حولها وهي تشتم ثامر مجدداً وتتوعده، أخذت عدة أنفاس قبل أن تقرر العودة إلى السيارة فتصعد وتغلق الباب ثم تلتزم الصمت، شغل ضرغام السيارة مجدداً ومضت دقيقة أو اثنتان عندما سألها: «هل أنت بخير الآن يا ممرضة؟».

رفعت وجهها إليه فتراه لا ينظر إليها كعادته فترد عليه بحنق وهي تستعيد روحها الأصلية: «مؤكد بخير.. ثم لا تدعوني بالممرضة بتّ أكره مهنتي التي أحببتها طوال حياتي بسبب مناداتك هذه».

ابتسامة غير محسوبة ترتسم على شفتيه وهو يسألها بهدوء

شديد: «بماذا أناديك إذن؟».

تنهدت بقوة ثم حولت رأسها جانباً عبر الشباك المفتوح تحدق في ظلام القرية الذي يرخي سدوله فترفع يدها لتتلاعب بالقلب المعلق بالسلسال حيث صورة ولدها وهو بعمر السنتين ثم تقول بإصرار عنيد: «ناديني باسم ولدي، أم ليث، وحيدي وقلبي ونبضي».

رفع ضرغام كفه الأيمن فوق عقاله في حركة متبعة بين رجال القرية ليقول: «على رأسي مطلبك يا أم الليث».

التفتت إليه متفاجئة من إضافته الألف واللام لكنه بطريقة ما جعلها تشعر بفرح أم، بفخر تفرد ولدها، لتقول له بعزيمة متجددة هذه المرة: «أحببت (أم الليث) سأتخذها لي كنيّةً واسماً».

لم يقل شيئاً ومضت خمس دقائق أخر وقد أوشك أن يصل بها إلى سكنها عندما فاجأته بالسؤال الغريب: «ألا تشعر بالصدمة أمام أي شيء على الإطلاق يا ضرغام؟ ألا يثير دهشتك على الأقل؟».

لم يرد ولم تتوقع منه سُلافة الرد فأضافت وهي تعقد حاجبيها وتتساءل بجرأة وصراحة لا تخلو من الفكاهة: «أنا متأكدة أنك سمعت معظم كلامي مع ذكر الخنفساء الذي تزوجته، فلماذا تدّعي أنك لم تسمع ولم يثر فضولك حتى».

عندها فقط رفع نظراته للمرآة الأمامية، عيناه تلتقيان بعينيها وصوته في أذنيها له وقع أعجب من العجب: **«للبيوت**

حرماتْ، وأسرار البشر تطلب الستر للمماتْ، فلا انتهكُ حرمة بالنظرْ ولا أسعى لكشف ما الله سترْ، ولمن فهم عمق المعنى تخني أسماعه وأبصاره في تأدب خجلى، ولقد مر العمر طويلاً، أطول من أي سنوات محسوبة، فسمعت ما سمعت ورأيت ما رأيت حتى باتت الدهشة لا تحضرني إلا لتدبر عظمة الخالق في تسيير شؤون الخلق».

عيناها لا تفارقان النظر إلى عينيه عبر المرآة وقد تاه منها المكان والزمان لتهمس بـ(دهشة): «في حياتي كلها لم أسمع كلاماً مشابهاً هل كل أهل الريف والبادية فصحاء اللسان مثلك؟».

ابتسامة على فمه تتشكل واسعة ثم قال بمزح مبطن دون رد على سؤالها: «هل تعلمين يا أم الليث أن الخنافس يستهلكون أنقاض النباتات والحيوانات؟ بما في ذلك النفايات الخاصة بالحيوانات؟ إن لهم دورهم وفوائدهم رغم قرف ما يفعلونه، ودونهم لا تستقيم الحياة».

عندها جلجلت ضحكة سُلافة عالياً حتى دمعت عيناها ثم قالت من بين ضحكاتها: «أقسم بالله لم يطيب خاطري وصفٌ لثامر أكثر من هذا».

اكتفى ضرغام بالصمت وهو يشيح بنظراته بعيداً عن عينيها فيتابع الطريق والابتسامة تأبى مفارقة فمه.

***

بعد يومين.. الخميس.. بعد الظهر.. دار الشيخ حمدان

الضاري

عضلة تهتز في خد الشيخ حمدان الضاري وهو يستمع لكلام حارسه الذي أرسله ليستقصي تحركات صفوان في سرية منذ يومين، كان الحارس يخبره بأفعال صفوان مع أهل القرية خاصة الفقراء من عشيرة الضاري، وختم الحارس كلامه بالقول: «عدا المساعدات التي يقدمها بتوفير مصدر رزق أو دار صغير فإنه يوزع كل يوم تقريباً على الناس الطعام والمال، وكله في خفية، يدعون له ويقبلون يده».

قال الشيخ حمدان وعيناه تبديان الغضب: «اذهب واحضر أم إسماعيل الخاطبة، أحضرها بنفسك ولا تخبر أحداً».

رد الحارس: «على أمرك يا شيخ».

ثم أضاف حمدان وهو ينظر إلى حارسه: «وحالما تدخلها عليَّ المجلس اذهب من فورك لتبحث عن ابن عمي صفوان ولا تعد إلا به، أريدك أن تحضره بالتو واللحظة ولا تمنحه فرصة تفكير أو اتصال هاتفي، قل له إني أريده الساعة وكنت أحاول الاتصال به بنفسي لأمر عاجل لكن الشبكة سيئة بالقرية».

فيومئ الحارس ممتثلاً: «على أمرك يا شيخ».

ثم غادر الحارس الشاب تاركاً الشيخ حمدان بتعابير متجهمة ومخاوف جمّة.

***

دار مروان الضاري.. في الوقت نفسه

في مجلس النساء كغرفة خاصة للضيفات تجلس دليلة جامدة التعابير تكاد عيناها لا ترمشان وهي تنظر إلى أم إسماعيل وتتمتم: «يريدني أن.. أرشح له عروس؟ من الصبايا اللواتي أعلمهن الغزل؟»».

تهز أم إسماعيل رأسها بـ(نعم) وقد بدت مرتبكة وعيناها تنطقان بالغباء لا تعلم ما جرى لهذه المرأة، أخذت أم إسماعيل توبخ نفسها في سرها وتقول: «أيتها الغبية يا أم إسماعيل، كيف تسمعين كلام المخبول مروان لا بد أن الرجل فقد عقله، فمن الواضح من ردة فعل دليلة أنها تكره صفوان الضاري، بل وتشعر بالصدمة والإهانة من الطلب»».

هتفت بها دليلة فجأة وهي تقف على قدميها: «ارحلي، لا أريد رؤية وجهك، اغربي عني، ارحلي»».

أخذت تتعذر أم إسماعيل وهي تقف وتتعثر بخطواتها لتغادر الدار وهي توبخ نفسها مجدداً، وبينما تغادر دار مروان الضاري لتسير في دروب القرية تكلم نفسها أخذت بعض الأجزاء من ذاكرتها تعيدها للماضي، لا تعلم متى بالضبط وكم سنة مرت لكنها أخذت تتذكر كلام قيل عن صفوان الضاري ورغبته الزواج من.. دليلة

أجل.. الآن تذكرت، يا لها من غبية كيف نسيت، لقد كانت القرية كلها تتكلم، وعندما اختفى صفوان أخذت الألسن تلوك سمعة دليلة حتى تزوجها ابن عمتها مروان، توقفت خطوات أم إسماعيل وسط الدرب واتسعت عيناها بصدمة ثم لطمت على خدها وقالت: «أيها المخبول يا مروان لماذا أرسلتني لامرأتك كي أقول لها هذه الكذبة؟».

سمعت صوت رجل يناديها من الخلف فالتفتت لترى أحد حراس الشيخ حمدان الضاري، انقبض قلبها وهي ترد النداء: «هل تناديني يا ولدي؟».

اقترب الحارس الشاب منها بسحنته الغليظة ليقول: «الشيخ حمدان يطلبك اللحظة».

يد أم إسماعيل ما زالت على خدها لتلطم بحركة عفوياً وهي تتمتم في سرها بمثل محلي: «جاءك الموت يا تارك الصلاة».

***

دار مروان الضاري

في غرفتها كانت دليلة منهارة على ركبتيها وشعرها الأسود منثور حول وجهها، كلها ينتفض بشديد الألم حتى شعرت وكأن الحمى تهاجم جسدها بضراوة، عاد الماضي كله دفعة واحدة، أخذت تضرب بكفيها على الأرضية وهي تتذكر كلمات صفوان عندما كان بعمر الثامنة عشرة وهي تصغره بثلاثة أعوام (**كلما أوجعتك الدنيا في شيء**

فتذكري يا دلال الحسن أني أتوجع معك الضعفين، نخففي عنك لتخففي عني بالله عليك).

هطلت الدموع الساخنة من عيني دليلة المائجتين بالغضب والقهر فتكاد تحرق أجفانها ولسانها يردّد: «ليتني فقط أعرف كيف أوجعك مثلما كنت أفعل في الماضي، ليتني أعرف الطريق لوجعك يا صفوان، قسماً بالله سأؤلمك عشرة أضعاف ألمي، سأفعلها ولو فيها موتي».

***

بعد نصف ساعة.. مجلس الشيخ حمدان الضاري

كانت أم إسماعيل تقف أمام الشيخ حمدان الجالس باسترخاء ظاهري يتطلع إليها وقد بدت كالأرنب المذعور، تذرف الدموع وهي تعاود الحلف والقسم بارتعاد: «قسماً بالله يا شيخ حمدان كانت فلتة لسان، مرة واحدة لا غير، ولن أكررها حتى الممات».

في هذه الأثناء دخل صفوان وفي إثره الحارس الشاب ليلقي التحية وعيناه تتطلعان باستغراب لأم إسماعيل وحالتها: «السلام عليكم».

التفتت إليه أم إسماعيل شاهقة وكأنها وجدت نجاتها فيه لتقول: «أنقذني يا سيدي صفوان يا ابن الشيوخ، هناك من ينشر الأكاذيب عني وأني أروج بين بيوت القرية كي ينادوك بالشيخ و...».

قاطعها حمدان بحدة: «كفى هذراً يا امرأة وارحلي».

فأخذت المرأة تمسح دموعها وهي تتحرك بانفعال كي تنفذ بجلدها تمتم بطاعة: «حاضر.. حاضر».

فيحذرها حمدان مجدداً: «إن نطقت بحرف..».

ولم يزد على هذا لترد عليه وهي ترفع كفيها في استسلام وتسليم: «قسماً بالله لن أفعل».

ثم فجأة تبسم بنظرة خبيثة ليقول: «وقد أحتاجك مستقبلاً فلا تغيبي عني».

تواصل أم إسماعيل الهذر ما بين شكر ووعد وطلب مسامحة حتى غادرت المجلس وصفوان ما زال يقف وسط المجلس يفور بالغضب وهو يرخي أجفانه ويداه تتقبضان إلى جوار جسده، الحارس ما زال هو الآخر واقفاً قرب باب المجلس فتأتيه همسة آمرة من صفوان: «ارحل».

عينا الحارس تطرفان إلى الشيخ حمدان بانتظار أمره فيهز حمدان رأسه كي يمنح حارسه الإذن بالانصراف، وقد رحل مغلقاً الباب خلفه، عندها فقط رفع صفوان نظراته ليوجه نظرات مخيفة إلى حمدان، فشعر حمدان بعدم الارتياح والقلق للحظات ليحاول مداراتها بالقول وهو يشير بكفه: «تعال يا ابن العم اجلس جواري».

لكن صفوان لم يستجب، بل رفع سبابته وبدى هادراً بالغضب وهو يقول له: «إياك أن تضعني مجدداً في موقف

كهذا يا حمدان، لن تجد مني ما يسرك».

ابتلع حمدان ريقه بصعوبة وقد غلبه جبنه فحاول التماسك وهو يتساءل بنبرة لوم: «أتهدد شيخك يا ابن العم؟».

ما زال الغضب يرعد من صفوان ويبرق في خضرة عينيه وهو يرد: «لا نتلاعب بالكلمات معي وأنت تعرف وأنا أعرف، لست أنا من تقلل احترامه وقيمته أمام خاطبة القرية وحارس شاب يخدعني كي يحضرني إليك في التو كي يضمن أني لن أتصل بأحد».

لملم صفوان عباءته حول ضخامة جسده وهو يضيف: «حذرتك من الوشايات المغرضة يا ابن عمي، حذرتك من جعل حثالة القوم يتبجحون علينا ويوقعون بيننا بالدسائس».

حاول حمدان التوضيح مبرراً: «كان يجب أن أتحقق يا صفوان، ربما هي مجرد وشاية وربما من سمعها ونقلها قد فهمها بشكل خاطئ، وأم إسماعيل أوضحت سوء الفهم وأنك لم تطلب منها مناداتك بالشيخ في البيوت التي تسعى فيها لإيجاد عروس لك، بل على العكس لقد أكدت أنك وبختها عندما أخطأت مرة ونادتك هكذا».

لم يهتم صفوان لتبريراته بل رد عليه بقوة: «بدلا من أن تستمع لذياب وغيره وهم يحاولون إضعافك بالإيقاع بيني وبينك، استمع لأهل عشيرتك وما يحتاجونه منك».

عندها ظهر المزيد في عيني الشيخ حمدان ليقول ساخراً

برعونة يظهر ما يخفيه: «كما تستمع أنت إليهم مثلاً؟ تدور البيوت الفقيرة وتوزع المال والطعام لتكسب قلوبهم وولاءهم؟ تشتري بقرة لهذه وتشارك ببناء بيت لذاك و...».

قاطعه صفوان مذهولاً: «هل تتجسس عليّ؟».

رد الشيخ حمدان بغموض: «الأخبار تصلني».

مرت لحظة أو اثنتان قبل أن يقول صفوان بنبرة هادئة لكن تنذر بعواصف مروعة قد تهب في أي لحظة: «إن كنت تظن أني سأدافع عن نفسي وأبرّر حسن نيتي ولماذا أتصدّق على الناس كما رباني عمي ووالدك الشيخ محمد فأنت واهم».

ثم تحرك ناحية باب المجلس وهو يضيف بتحذير ضمني: «أنا سأعتبر ما حصل اليوم كأنه لم يكن، ولا أريد الخوض فيه مجدداً».

ثم فتح الباب ليغادر وهو يلقي التحية: «السلام عليكم يا شيخ».

لم يرد عليه الشيخ حمدان بكلمة، كان يغلي في داخله وقد مرغ صفوان بكرامته وغروره الأرض، حتى لو كانا بمفردهما فلن يتقبله حمدان، شعر بالتوتر وكثير من القلق، كيف سيتعامل مع صفوان؟ إنه يعرف بمطامع ذياب وأخوته بالمشيخة، ورغم أن صفوان لا يطمع فيها فإن ابن عمه ومن تربى معه كأخ يقلقه أكثر منهم، صفوان

الضاري خطر محدق حتى وهو لا يدري مدة خطورته.

***

دار الغجرية دنانير.. بعد غروب الشمس

جاثياً على ركبتيه، عاري الصدر وقد طلبت منه دنانير خلع جلبابه فلا يرتدي إلا السروال القطني الطويل الذي يُلبس بالعادة تحت الجلباب، يشعر بإحساس مختلف غريب بعد أن شرب كأس الشراب المرفي الواقع لم يكن بنفس المرارة ككل مرة، وقد منحه شعوراً غير مسبوق الليلة، كان جسده في حالة اهتياج كأنه عريس يشتاق ليطفئ غريزته مع عروس أرادها طوال حياته وقد حان وقت لقائهما.

دليلة.. دوماً كان العصية العاصية، منذ كان يراقبها خلسة تلتقي بصفوان قرب الترعة، كانت الغيرة والحقد تنهشان صدره ولا يصدق كيف فتاة بجمالها وحسنها تعشق ذاك القبيح غيرته وحقده تحولا لهوس، هوس أن يجعل ابنة خاله ملكه هو لا ملك صفوان الوحش، كان يغلي بالغضب وهو يرى نفسه أحق بها، ألا يكفي أنه أرادها؟ فكيف ترفضه؟ كيف؟! اشتعلت عيناه بالحقد القديم، ثم كستهما نظرات الشماتة وهو يتذكر كيف نالها في النهاية، خطّط ودبّر لكل شيء حتى نالها رغم أنفها، وعودة صفوان بعد هذه السنوات لن تغير الأمر، أجل لن تغير شيئاً سيدحره هذه المرة وينجب الذرية التي ستفك

العقدة بينهما لترضخ له وتؤمن أنها زوجته وامرأته، اقتربت دنانير منه تقف قبالته شامخة بردائها الأحمر المعتاد لتعلن بنبرة مهيبة قوية فخورة: «سيدي ملك الجان منحني الرفعة والمكرمة لأكون الوعاء الذي يحمل طفلكما أنت ودليلة».

رفع مروان نظراته إلى دنانير متمتماً: «أنتِ».

للحظة قرأت دنانير في عينيه التردد وربما بعض التشكك لكنها سرعان ما سيطرت على عقله مجدداً وقد بات عجينة سهلة التشكيل بين أصابع مكرها فقالت بالنبرة نفسها: «أنا مجرد وعاء وسيدي هو من يختار، لقد فضلني على بنات الجن أجمعين، فهل ستخالف؟ هل ستعترض؟ سيدي هو من يسألك وينتظر منك الرد، إنه يحضرنا الآن في الجلسة ولن يطيل البقاء إذا لم ترد في الحال، سيعود من حيث أتى».

سارع مروان للقول: «لا.. لن أعترض، أنا موافق، لا يهمني من يختار لتكون الوعاء».

أخفت دنانير ابتسامتها بينما يضيف مروان متسائلاً بإلحاح: «هل سيحصل الحمل الليلة؟».

ردت على مروان وهي تشير خفية لحباس الذي دخل للتو وهو يجر حملاً صغيراً أبيض: «سيحصل الليلة إن التزمت بكل خطوة، كلمة اعتراض واحدة وتفسد الطقوس».

عاهدها مروان بحشرجة: «لن أتفوه بكلمة».

ربط حباس الحمل في زاوية الغرفة وقد بدى الحيوان الصغير مرتعباً وهو يطلق أصوات المأمأة، تحرك حباس ليحضر علبة سوداء كبيرة فيقدمها لدنانير بحركة طاعة، تفتحها وما زال حباس يمسكها لها لتخرج من العلبة ورقتين وقلم، ثم تقول لمروان وهي تنحني نحوه: «وقع العقد يا ابن تمرة، وقع الورقتين ولا تقرأ ما فيهما».

التشوش كان يسيطر على مروان وهو يهمس متسائلاً: «أي عقد؟».

هتفت به وعيناها تبرقان بتحذير شديد: «أنت ستفسد الأمور بأسئلتك هذه آخر مرة أرد عليك، إنه عقد بينك وبين سيدي ملك الجان، ملزم لك وملزم له، ممهور بشهادتي أنا وحباس».

بيد مرتجفة أخذ مروان القلم ونفذ، وقع الورقتين دون أن يقرأ ما فيهما، وعندما حصلت دنانير على ما أرادت أعادت الورقتين إلى الصندوق ليعيده حباس بدوره إلى مكانه، تحركت دنانير نحو الحمل الصغير ثم تبعها حباس ومروان يحدق دون أن يفقه أو حتى يستوعب، لم يكن بأكثر من (خروف) سيق بإرادته إلى ذبحه، أخذت دنانير تفك خيطاً مغزولاً حول معصمها، إنه خيط غزل دليلة الذي أحضره مروان قبل ثلاثة أيام، أما حباس فقد كان يفك الحبل من حول رقبة الحمل ثم أمسك جسده الصغير مثبتاً إياه لتنحني دنانير وتلف خيط الغزل حول

رقبة الحمل وهي تمتم بصوت عالٍ كأنها تلقي تعويذة: «بذرة نستحضرها بأضحية بيضاء جليلة، تنفسي الحياة يا بذرة دليلة».

يوقع حبّاس الحمل أرضاً بعد أن أكملت دنانير لف الخيط ثم يخرج سكيناً كبيراً من خلف ظهره ودنانير تترنم هذه المرة بلغة غريبة غير مفهومة لتتصاعد وتيرة ترنيمتها عالياً مع خروج الدم النافر من رقبة الحمل، غرق خيط الغزل بالدم ومروان يحدق في انتعاش وقد غرق عقله في فتنة شعوذة كذب تلبست رداء حقيقة، نظرت إليه دنانير بطارف عينها فأدركت أنه يعيش اللحظة بالكامل وقد آن الأوان لإكمال خطتها، اقتربت من مروان وهي تشير بنظرات خاصة إلى حباس فيسارع خادمها للانسحاب حسب الاتفاق فيضيع وسط كثافة دخان المبخرة الضخمة ليختفي خلف عازل من القماش يتخذ موضعه للدور القادم، كان مروان مشدوهاً في عالم آخر عندما أفزعه صوت غريب قادم من زاوية الغرفة فيتمتم مرتعباً: «ما هذا؟».

وقفت دنانير أمامه ثم انحنت بجذعها نحوه تهمس له بتحذير: «ششششش، سيدي ملك الجان بدأ تأدية الطقوس الآن لاستحضار روح امرأتك دليلة».

يهز رأسه ونظراته تبرق بما يشبه الجنون لتهمس له دنانير الآن وهي تخرج من جيبها قطعة قماش أسود: «اغلق عينيك، لقد بدأ الأمر يحصل ويجب أن أستعد أنا الأخرى».

لفّت القماش الأسود حول عينيه كعصّابة تحجب الرؤيا كلياً وهو توصيه بشديد اللهجة: «لن تخلعها مهما حصل، واجه أقدارك يا بن تمرة لتغيرها رغماً عن الرافضين».

يتمتم مهووساً ضائعاً: «رغماً عن الرافضين».

تتحرك دنانير على عجل لتخلع كل ملابسها وحليّها ثم تضع على جسدها ثوب (دليلة)، وأخيراً تحركت نحو زجاجة عطر طلبت من حباس أن يشتريها لها البارحة، إنه نفس العطر الذي شمته دنانير في ثوب دليلة، حالما فاحت الرائحة أخذ مروان يهلوس بتنهيدات رضا واشتياق: «أشم رائحتها.. آه.. هذا عطرها منذ الصغر».

أخذت دنانير تفرد شعرها الطويل وقد سرحته ناعماً الليلة واستخدمت الزيوت لأجل تنعيمه، ثم اقتربت من مروان وهي تنظر لجسده باشتهاء تتمتم في نفسها قائلة: «سيكون هذا الجزء الأكثر إثارة يا دنانير، فمروان الضاري رجل شديد الوسامة والرجولة».

لم تتفوه بكلمة وهي تجثو على ركبتيها أمامه بينما كانت أنفاس مروان تتسارع وهو يهمس: «دليلة.. دليلة.. أنت هنا».

تبسّمت وهي تمد كفيها إلى كفيه ثم ترفعهما إلى جسدها ليلامس نقوش الثوب ببطء فيشعر بألفة معرفته، هذا ثوب امرأته التي يشتهيها، كم سهل أحياناً خداع العقول عندما تعصب بصيرتها بالسواد، بدأت تشعر بارتعاد جسده

وقد أخذ يلامس مفاتنها بخشونة، صوت حباس الذي يترنم من خلف العازل يتعالى أكثر فيزيد من هلوسات مروان، ثورة الغرائز تختلط بثورة الهلوسات المُضلِلة، مدّت دنانير كفيها إلى صدره تلامسه وتثير غريزته الجائعة أكثر حتى جعلته يفقد آخر قطرة صواب، وفي لحظة كان يطرحها أرضاً ويعاشرها بعنف أرضى ميولها وجعلها تطلق التأوهات وسط ترانيم حبّاس واسم (دليلة) يخرج كصراخ مجنون من فم مروان، بعد أن تم ما سعت إليه وقع مغشياً عليه من شدة الانفعالات التي تعرض لها والشراب المخدر والمهيج الذي سقته له.

وقفت دنانير على قدميها مشعة بالرضا الشيطاني، تنظر إلى المغشي عليه باستهانة بينما تلامس قماش الثوب الذي تمزق في أكثر من موضع، تنهدت برضا جسدي ثم أمرت حباس: «انتهى، توقف».

فأوقف حباس ترانيمه ثم خرج من خلف العازل، نظر إليها وعيناه تلمعان فدوره القادم قد حان، بابتسامة مستهينة أشارت برأسها ناحية الباب فغادر حبّاس الغرفة متوجهاً للغرفة الأخرى التي ينام فيها أحياناً حيث لحقت به دنانير بعد قليل لتخلع ثوبها وتمددت بجسدها العاري على سريره تغمض عينيها وتنتظر جسد خادمها حباس ليلتحم بجسدها فيزرع بذرة سفاح في رحم روح سوداء.

***

الغزل الخامس

«احذر غزلك يا غافل، الفِخاخ تُنسَج قوافل»

يكاد شروق الشمس يكتمل ومروان يقود سيارته في دروب القرية عائداً إلى داره، يشعر بالترنح والتيه والتشوش، بعض المارة يصرخون به وهو يكاد يدهسهم لكنه لا يأبه لهم، كان في حالة غريبة يشعر باللذة القصوى مع إحساس مناقض بالقرف، جسده يطفو كأنه يعوم في مياه صافية لكن روائح عفنة تزكم أنفه، على حين غرة أخذت معدته تغلي وتفور كأن النيران شبت فيها، يوقف سيارته وسط الطريق ثم يترجل وهو غير ثابت الخطى، يضغط معدته بكفه وهو يتمتم بنظرة ضبابية لما حوله: «أين أنا؟ أين.. دليلة؟»،

يشتد الألم في معدته وقدماه تمايلان به يميناً وشمالاً وهو يخطو تاركاً سيارته خلفه مفتوحة الأقفال ومحركها يعمل، المارة بالقرية ينظرون إليه بعبوس واشمئزاز، لقد بدا في حال بائس لأبعد حد، أخذ يهذر: «أين أنت.. دليلة؟»،

يواصل السير يحاول جهده أن يصل إلى داره ولا يعرف كم مضى من وقت حتى لمح بوابة الدار ليتحرك بتعجل فلا تحمله قدماه فيتعثر ويقع أرضاً متمرغاً في التراب، للحظة ظل هكذا وهو لا يستوعب ما يجري معه لينهض بشق الأنفس وهو يهمس اسم (دليلة)، شعر وكأن البوابة بعيدة، كأن صحاري وجبال تفصله عنها، قدماه ثقيلتان

وجسده شديد الضعف والوهن، معدته تحترق وإحساس القرف يشتد.

عندما وصل البوابة أخيراً كان ينهت، أخذ يضرب بكفه بكل ما تبقى له من قوة الآن، يضرب على البوابة الحديدية العالية وهو ينادي: «دليلة.. افتحي الباب.. أين تركتني ورحلتِ؟».

يقولها وعقله ما زال عائماً بأحداث ليلة الأمس الغريبة، رغبته العنيفة تصور له أنه قضى ليلة مجنونة مع دليلة وتحقق حلمه فزرع البذرة التي ستطرح ثماراً في رحمها؛ لكن نواقيس تثير جنونه وهي تدق بعنف أشد كضحكات ساخرة منه.

فتحت البوابة أخيراً ولوهلة شعر بالسعادة ظناً أنها دليلة لكنها لم تكن هي بل زوجته الأخرى شهلة التي أخذت تلطم وتولول وتصرخ: «أين كنت؟ لم أنم طيلة الليل ولا أعلم ما جرى لك أين كنت؟ أين قضيت ليلتك؟».

صوت دنانير رنّ فجأة في أذنيه **(إن سألوك أين أمضيت ليلتك فأخبرهم أنك كنت في داري وقضيت الليل فيه)**.

فوجد نفسه كمُسير لا مُخير يرد: «قضيت الليلة في دار دنانير».

أصبح صراخ شهلة كحطب جهنم انفجر حريق معدته ثم شعر بطعم دم فاسد في جوف حلقه، وفجأة دفع شهلة الباكية الصارخة في عنف لينفجر قيء الدم من فمه على

نحو رهيب جعل شهلة تصرخ هذه المرة مرتعبة: «رباااه دليلة أنجديني يا دليلة»،

في باحة دار مروان الضاري الخارجية كانت دليلة تركض مفزوعة على صوت الصرخات الرهيبة ثم تسمرت قدماها للحظات وهي تشهد هذا المنظر المروع، مروان يتقيأ الدم ووجهه شاحب كشحوب الموت، وشهلة إلى جواره عاجزة وتصرخ مستنجدة، كان مشهداً مهولاً فتتحرك دليلة نحوهما وهي مصدومة من رؤية كتل دموية داكنة غريبة تخرج من فمه، رائحتها لا تطاق، كأنه لحم عفن فاسد منذ أسابيع، سارعت دليلة لتتصرف بطريقة تلقائية دون تفكير وهي تصرخ في ضرتها: «كفي عن عويلك واتصلي بأخيه ذياب واطلبي منه إحضار الإسعاف على الفور»،

***

في المستشفى.. بعد ساعة

في أحد الممرات الخالية وقف ذياب قبالة زوجتيّ شقيقه وفي عينيه الشر ليهدر بهما: «فلتخبرني إحداكما اللحظة، ماذا فعلتما بمروان ليتقيأ الدم الفاسد والأطباء عاجزون عن معرفة السبب؟ انطقا وإلا قسماً بذي العزة سأدفنكما حيتين في قبر لا شاهد له، فلا يستدل عليكما أحد»،

أخذت شهلة ترتجف بعنف وقد انسحبت آخر قطرة دم من وجهها فتلف دليلة ذراعها حول ضرتها تسندها عفوياً بينما تواجه ذياب ببرود شديد: «اسأل شقيقك عندما

يفيق ماذا فعل هو بنفسه أم أنك لا تجيد إلا الصراخ في وجوه النساء يا ابن عمتي؟».

زمجر ذياب وأوشك أن يرفع كفه ليصفع دليلة عندما أضافت بعينين لا ترمشان: «أقرأ العجز في عينيك يا ذياب، أنت لست بقادر على فعل شيء لإنقاذ مروان».

تمتم ذياب بكره: «كله بسببك أنتِ لن أستغرب أن تكوني قد وضعتِ له السم».

عندها هدرت شهلة لتتدخل بينهما ودموعها تنسكب مدراراً: «كفى.. كفى دليلة لم تفعل له شيئاً، مروان لم يبت ليلته عندنا وقد عاد في الصباح وأنا من فتحت له بوابة الدار وكان بحالة رهيبة بشعة، ولم أتكلم معه إلا بضعة جمل عندما بدأ يتقيأ الدم». هتف ذياب بغضب مجنون: «أين كان؟ من فعل به هذا؟ ألم يقل لك شيئاً؟».

ردت شهلة وهي تمسح خديها بخشونة: «أجل قال، قالها صريحة إنه قضى ليلته مع السحارة الغجرية دنانير، قضى ليلته في دارها النجس».

تمتم ذياب وعيناه تبرقان بالغضب: «دنانير».

كما برقت عيناه بشعور الغضب برقت عينا دليلة أيضاً لكن بشعور الشماتة قالت وهي تنظر في عيني ذياب: «أخوك فقد عقله يا ابن عمتي».

صرخ بها» «اخرسي».

شهقت شهلة وذياب يرفع كفه هذه المرة فتخبئ نفسها في حضن دليلة تحتمي بها دون تفكير، أما دليلة لم تخشَه، بل واجهته بنفس النظرة قائلة: «بدل أن تتجبر علينا يا (سيد الرجال) اذهب إلى تلك الغجرية التي جنّنت شقيقك ولا يعلم إلا الله ما كانت تفعل به وتسقيه لأسابيع».

بتجهم كان كفه يتقبض بعجز وهو يرد عليها وعيناه في عينيها باتهام صريح: «أنت من جننه لا الغجرية».

جمود كسا محيا دليلة وهي تشمخ بذقنها وتقول: «بل هو من فعل بنفسه هذا، الدنيا سلف ودين يا ابن عمتي وعلى الظالم تدور الدوائر».

يزم ذياب شفتيه ثم يلملم عباءته حوله ويقول: «ليس هذا وقت الحساب، أولاً عليّ التعامل مع تلك المشعوذة الملعونة، ثم نطمئن على استقرار حالة مروان وبعدها يكون لنا كلام».

تحرك ذياب مغادراً بينما شهلة ما زالت ترتجف وتبكي في حضن دليلة، أما دليلة فعيناها تنطقان بالكثير، تشعر أن اللحظة حانت تلك التي انتظرتها طويلاً كي تزور الحاج عبد القدوس مرة ثانية.

***

دار السحارة دنانير

أمام الدار يقف ذياب بمواجهة الغجرية وقد جاءها

بمفرده لا يريد فضح شقيقه أكثر أمام رجاله؛ لكنه لن يتوانى عن فعل أي شيء إن اضطر، ينظر إلى تلك المرأة الخبيثة وهو يعترف بالعجز عن فهم نظرتها الغريبة إليه، كانت نظرة خليطاً من الخنوع المُداهن والاستهانة، فيها شيء شيطاني لكن جذاب بشكل رهيب، ترا ماذا فعلت بمروان؟ كيف استطاعت فعل هذا برجل داهية كشقيقه؟! غلا الدم في عروقه وهو يمنحها نظرة تهديد صريح ويسأل: «ماذا فعلتِ بأخي يا غجرية؟ لقد أخبرنا أنه قضى ليلته عندك».

ترد بهدوء وهي تطرق بنظراتها للأرض وكأنها (خجلة): «اسأله هو، لست مأذونة لأبوح بالأسرار».

القلق استبد بذياب على نحو مبهم وهو يشعر أن هذه المرأة قد شبكت خيوط السم حول أخيه كأنثى العنكبوت السوداء، صرخ بها وهو يشتمها: «لستِ مأذونة؟ هل أصبح لديك أسرار يا حثالة مع سيدك وتاج رأسك مروان الضاري»».

ما زالت على الإطراق نفسه وترد بالهدوء نفسه والنبرة الخافتة: «سيدي وتاج رأسي مروان هو من يأتي لي ولم أجبره»».

في هذه اللحظة خرج من باب الدار خادمها حبّاس فتبرق عينا ذياب ليضيف بنبرة ذات معانٍ: «ووجه الأفعى هذا الذي يقف خلفك، من يكون لك ليبيت في دارك؟»».

عندها فقط رفعت دنانير نظراتها الباردة لتواجه ذياب وتقول بثقة: «الكل يعلم أن حبّاس هو أخي بالرضاعة، إنه يتيم مجهول النسب وجدته أمي على قارعة طريق فأخذته وأرضعته وربته ثم أوصتني به خيراً لأراعيه من بعدها».

نظرة تكذيب ساخر أطلّت من عينيه ليقولها ذياب صريحة وهو يهزأ: «أخوك في الرضاعة؟ تقصدين تلك القصة المُختلقة التي أتيتنا بها عندما حللتِ بلعنتك على قرية الشيوخ؟».

في الواقع لم تكن نظرة تكذيب، ولا يهمه إن كان هذا الخادم الذميم أخاها أم عشيقها، لقد أراد ورقة ليهددها بها، فهو لا يملك أن يطردها وقد استجارت بشيوخ العشائر قبل سنوات تطلب البقاء والحماية في قريتهم فمنحوها ما طلبت، بنظرة صلف وقِح ردت عليه دون أن يرف لها جفن: «أثبت أنها مُختلقة وسأكون طوع أوامركم يا شيوخ».

ثم التمعت عيناها بنظرة خبث وهي تضيف باستدراك مصطنع: «عفواً نسيت، أنت لست بشيخ، فالشيخ حمدان أدامه الله هو شيخ عشيرة الضاري، أباً عن جد».

أخذ صدر ذياب يعلو ويهبط من شدة انفعاله، يستطيع أن يرى ابتسامتها الخفية الهازئة منه، هذه الغجرية الحقيرة تعرف الكثير وعقلها لا يستهان به، الآن عرف كيف استطاعت أن تغلب دهاء شقيقه مروان، تباً لها من غجرية

حقيرة وقحة، أقسم ذياب في سره أنها لن تبقى في قرية الشيوخ مهما كلفه الأمر، تقبضت يداه بينما يتمتم بنبرة تهديد: «أنت تحفرين قبرك بيدك يا غجرية».

عينا الغجرية الوقحتان لم تفارقا عينيه، لم تكن تتحداه، بل بدت وكأنها تدرسه، لم يهتم ذياب الغافل بفهم ما يدور في رأسها بل قرّر وحكم ليقولها بأمر: «سواء استجرتِ بالشيوخ أم لا، سترحلين أنت والأفعى التي شاركتها الرضاعة كما تدعين، لن تشرق شمس الصباح إلا وأنتما خارج القرية، اِتّقِ شرّي ولملمي كل أدوات شعوذتك وهلاهيل أسحارك وفارقينا بلا رجعة، إن كنتِ تعرفين عني الكثير كما يبدو جلياً فمؤكد أن تعرفين ما أستطيع فعله».

عاودت الإطراق لتظهر طاعة مفاجئة لذياب قائلة: «حاضر سيدي، سأرحل».

ورغم عدم ارتياح ذياب لردة فعلها السريعة فإنه لا يهتم اللحظة إلا أنها سترحل، استدار وهو يعود لسيارته قائلاً بنبرة المنتصرين: «أمهلك حتى الصباح فقط».

ثم غادر وحباس يقترب من دنانير ليسألها باستغراب: «هل سنرحل حقاً؟ ظننت أنك ستبقين حتى يظهر الحمل».

ابتسامة شيطان تجسدت على شفتيها وهي تقول بدهاء: «سنرحل الآن لكننا سنعود فيما بعد عندما يحين الوقت، أنا كنت أتوقع احتمالية حصول شيء كهذا وقد تجهزت

له».

فيتساءل حبّاس بفضول وعيناه تتطاولان بالنظر لرسم مفاتنها ونحرها المكشوف في غفلة منها: «وماذا عن مروان؟».

كان يتذكر ليلته بالأمس معها، فيجف ريقه وقد أعجبه للغاية ما حصل بينهما، بل ويتمنى لو أن الحمل لا يحصل من المرة الأولى كي تطلب منه معاشرتها مرة أخرى، غافلة دنانير عن نظرات خادمها ومن ادّعت أمام القرية أنه أخاها بالرضاعة لتبرر وجوده معها فترد عليه وعيناها تشردان بتفكير: «لم يعد يهمنا في شيء، يموت أو يجن، سيان عندي، لقد أخذت منه كل ما أريد، خاصة إعلانه أنه قضى الليلة عندي، هذا لوحده يكفيني وزيادة».

ثم استدارت كي تعود إلى الدار فسارع حباس ليخفي نظراته المتلصصة على جسدها بينما يتبعها وهو يقول: «أنا قلق من ذياب الضاري».

تفتح دنانير باب الدار وهي تقول بلا اهتمام: «إنه رجل لا ينطق إلا بالجعجعة الفارغة».

لكن حباس كان يخالفها الرأي فيقول محذراً: «ربما يحرض مروان ضدنا والخطة لن تسير على هوانا».

ابتسامة جانبية منها ثم لمعت عيناها بفكرة لتتمتم بها: «ظن أني سأترك شيئا صغيراً له قبل مغادرتنا القرية».

***

اليوم التالي.. أول خيط شروق للشمس

دخلت دنانير المستشفى متخفية بعباءة سوداء مما ترتديه نساء القرية وتغطي رأسها وتحجب كل وجهها بوشاح أسود، مرت قرب الاستقبال فوجدت الموظف هناك نائم، المستشفى كانت هادئة إلى حد ما فسارت في أروقتها وهي توحي أنها تعرف مقصدها، في الواقع هي لا تعرف كانت تبحث عمن يدلها دون أن يكشف هويتها، حتى وجدت ضالتها وهي ترى ممرضة قصيرة سمراء تبدو مرهقة وهي تتثاءب، خمنت دنانير أن الممرضة على وشك المغادرة بعد انتهاء خفارتها فتحركت نحوها وخففت من نبرة صوتها حذراً من أن تنكشف وهي تسأل الممرضة متصنعة الحيرة: «لو سمحت، في الاستقبال أرشدوني إلى غرفة زوجي مروان الضاري؛ لكني تهت ولا أحفظ الأرقام بسهولة».

بإجهاد واضح ردت الممرضة وهي تتثاءب مجددا: «أعرف أين غرفة مروان الضاري، أنت إحدى زوجتيه أليس كذلك؟».

ردت وهي تظهر الحزن: «أجل».

أشارت الممرضة باتجاه معين وهي تقول: «الغرفة ما قبل الأخيرة في ذاك الممر على اليمين، لقد حضرتِ باكراً ومؤكد هو نائم».

ردت دنانير بخفوت وهي تظهر المسكنة: «أردت أن أستبق ضرتي بالحضور إلى هنا فقد تمنعني من الاطمئنان عليه».

لم تهتم الممرضة بحديث (الضرائر) فاكتفت أن تشوح بيدها بلا معنى ثم تحركت مغادرة لتترك دنانير تكمل ما عزمت على فعله وخططت له، عندما دخلت الغرفة وجدت مروان نائم في السرير، وجهه شديد الشحوب وشفتاه متشققتان في جفاف، بدى عليه السقم العظيم والنحول، تبسمت وهي تتذكره ليلة الأمس، كأنها اعتصرت منه كل رجولته لترديه عليلاً مطعوناً بالمرض هكذا، بنشوى ورضا التمعت عيناها ثم مدت يدها تحت عباءتها وأخرجت علبة أسطوانية معدنية صغيرة مع فرشاة متوسطة السمك وضعتهما في كيس، تحركت مبتعدة عن السرير نحو الحائط المقابل لسرير مروان تبتدأ به فتحت العلبة وفاحت رائحة دم أرنب ذبحته قبل مجيئها ثم غمست الفرشاة بالدم الأحمر وبدأت تكتب ثلاث كلمات لا غير (ذياب كسر الوعاء)، ثم تكرر الجملة بخط كبير على نفس الحائط، وتمادى وهي تطوف بين الجدران فتملأها بنفس الجملة، وعندما انتهت كانت تشع بالنشوى والغرفة كلها تصرخ بالدم، أغلقت العلبة وأخفت كل شيء في الكيس مجدداً تحت عباءتها ثم عادت لمروان فتميل إليه وتوسوس تنادي اسمه: «مروان.. مروان».

أخذت تزعج نومه فيهذر ببضعة حروف وعندها همست

قائلة: «أنا راحلة يا مروان، أخوك ذياب أحرقني في بيتي، لقد انكسر الوعاء، وانسكب هدراً ما فيه، كله بسبب ذياب، أضاع حلمك بطفلك أنت ودليلة»».

أخذ يهز رأسه وكأنه يهلوس في كابوس فسارعت عندها دنانير لتغادر وخلال لحظات كان مروان يهب من سريره على صوت باب الغرفة وهو يغلق بعنف، بعينين جاحظتين مصدومتين كان يحدق بصراخ الجدران الأحمر من حوله، وصوت دنانير في أذنيه كأنها جواره هتف بجنون: «دنانير يجب أن أنقذ دنانير، يجب أن أنقذ ولدي»».

في الخارج وبسيارة أجرة كانت دنانير تنتظر وحالما رأت مروان يخرج من المستشفى كالمجنون حتى اتصلت بخادمها حباس لتقول له: «ابدأ الآن، مروان قادم»».

على الجهة الأخرى كان حباس يرفع شعلة ودار بها حول بيت دنانير يلهب النار فيه بعد أن أغرقه بالوقود، وحالما انتهى سارع ليركب سيارة النقل التي اشتراها بالأمس بناء على أمر دنانير ليحملا فيها الأغراض وانطلق مسرعاً والنار تشب في الدار بأكمله، كان مروان يلهث وهو يركض ثم وجد فلاحاً يركب عربة يجرها حصان فأوقفه وعندما حاول الفلاح مساعدته للصعود دفعه مروان وصعد بمفرده وانطلق بالعربة ناحية دار دنانير المنعزل، خلال عشر دقائق كان مروان أمام الدار المحترقة وهو يصرخ بأعلى صوته، يشد شعره ويضرب على رأسه ثم يمزق جلبابه وقد فقد عقله.

***

بعد أسبوعين.. دار الحاج عبد القدوس.. صباحاً

دخلت دليلة عبر بوابة الدار مكشوفة الوجه على خلاف دخولها في المرة السابقة، وفي إثرها دخلت شهلة وقد بدت مرتبكة مقهورة، ألقت دليلة التحية للحاج عبد القدوس وهو يرحب بها: «السلام عليك مولانا».

فيرد بينما يدعوها مع رفيقتها للدخول إلى مجلسه: «وعليكم السلام ورحمة الله يا ابنتي، تفضلا».

عرفتها دليلة بالقول: «هذه شهلة، زوجة مروان الثانية».

جلست دليلة على نفس الأريكة وإلى جوارها أجلست شهلة التي تلتزم الصمت وتنكس رأسها في هم، قالت دليلة دون أن تطيل الأمر أكثر: «لقد أتيتك اليوم كما وعدتك».

رفع الحاج عبد القدوس نظراته لدليلة فيتساءل: «وعدتني؟».

فتهز رأسها وعيناها تذكرانه باللقاء الأخير بينهما: «ألم أخبرك أني سأجد الحل».

ضيّق الحاج عينيه متسائلا بأسلوبه الصريح: «وضّحي يا ابنتي».

جارته في صراحته لتقول بعزم وتصميم يلتمعان في عينيها: «أنا وشهلة نطلب فسخ عقد الزواج من مروان الضاري

لوقوع الضرر علينا».

عينا الحاج مرتا على شهلة قبل أن تعودا لدليلة التي أكملت قائلة: «مروان أصابه الجنون التام منذ أسبوعين، وأخوه ذياب بات يسجنه في غرفة، مؤكد سمعت بكل ما حصل، القرية كلها حتى اللحظة تتحدث».

تمتم الحاج عبد القدوس: «نعم سمعت وأسمع، ولا أظن أحداً في القرية لم يعلم».

فتنفست دليلة الصعداء وكأنها حققت نصف هدفها لتسأل الحاج: «ما هو المطلوب ليحصل الأمر بأسرع وقت».

رد الحاج عبد القدوس: «الطلاق لوقوع الضرر بسبب الجنون، يحتاج منكما إلى تقديم طلب فسخ العقد من محكمة شرعية، وتحتاجان لمحامٍ وشهود على جنون الزوج وتفاصيل أخرى سأعينكما فيها».

قالت دليلة لتدعم موقفها: «والد شهلة له مقامه وعلاقاته لتسهيل الأمور، فقط اشرح لي المطلوب بالضبط لأني على عكس شهلة، أنا وحدي في هذا».

عندها فقط تدخلت شهلة لتقول بامتنان واضح: «أبي سيساعدك أيضاً يا دليلة، أنت لستِ وحدك».

تمتمت دليلة بالشكر وهي تبدي الصمود لكن الحاج عبد القدوس شعر بها، إنها بلا سند ووالدها لن يقف معها

في حقها بالطلاق، فقال الحاج يسندها هو الآخر: «وأنا سأساعدك يا ابنتي بما لدي مع معارف أيضاً، هو دين لك برقبتي وتكفير ذنب».

بنظرة هادئة قالت دليلة بصدق: «لم يكن ذنبك يا مولانا».

فيتأثر الحاج عبد القدوس ليقول بندم: «كان يجب أن أتأكد أكثر».

ثم نظر لدليلة بنظرة ذات معنى يعلمه كلاهما وهو يضيف: «آمل عند حصولك على حريتك أن يريحك هذا وتبدئي صفحة جديدة بحياتك وتنسين الماضي».

ردت له النظرة بنظرة غامضة طويلة ثم تبسمت ببرود وهي تقول ساخرة مما مر بها: «أنسى؟ أحقاً تظن سأنسى كل هذه السنوات التي عشتها في قهر؟ أنا لم أكتب صفحات حياتي الماضية فكيف أبدأ صفحة جديدة؟ الماضي أولا يا مولانا، ننتهي منه وبعدها نبحث عن حاضر ومستقبل».

ثم سرحت قليلاً والتمعت عيناها وهي تتمتم مضيفة: «وصفحات الماضي للتو بدأت أسجلها لنرى من له حساب عندنا».

***

في الوقت نفسه.. على الطريق الموصل إلى المستشفى

كان عبد القادر يقود السيارة وإلى جواره يجلس ضرغام وهما في طريقهما للمستشفى، يغرق ضرغام بالصمت وهو يتفكر بتلميحات الشيخ عبد الهادي في الآونة الأخيرة، تلميحاته في معظمها كانت عن (الممرضة الشقراء) لكن ضرغام يقرأ في عيني الشيخ المزيد، وكأنه يسأله عما هو أعمق وينتظر منه توضيحاً وكشفاً، أرخى أجفانه وهو ينظر للطريق وثرثرة عبد القادر بدأت تصدّع رأسه تحركت شفتاه في شبه ابتسامة وهو يواجه نفسه بالقول: «أنت تتحمل الثرثرة وصاحبت عبد القادر في مشواره للمستشفى لأنك تريد رؤيتها، ربما أنت قلق عليها، ربما تتمنى لو بإمكانك مساعدتها كي تستعيد حقها من ذاك النذل الذي تزوجته، تتمنى لو تعيد إلى حضنها ولدها الليث؛ لكن هل هذا كل شيء يا ضرغام؟!»،

ما زال عبد القادر يثرثر بحماسة عن زوجة ولده التي كانت في حالة وضع لحملها اللحظة في المستشفى، ووسط الكلام يعود للقصة التي لا تزال الأفواه بالقرية ترددها ذاهلة، قصة جنون (مروان الضاري) وكيف حاول قتل أخيه ذياب لولا أن أمسكوه بالقوة وأودعوه حجرة مغلقة كسجن ولم تقتصر القصة على هذا، بل تناقلوا الكلام عن السحّارة دنانير التي اختفت بعد أن احترق بيتها، وشائعات حول علاقتها بمروان الضاري، لم يحب ضرغام حديث (الأعراض) هذا، حتى لو كان عن امرأة كالغجرية

دنانير التي تتخذ من حيل الشيطان مهنة فتشيع أعمال السحر والشعوذة بين أهل القرية وهي تدعي الإصلاح والوفاق بين الناس، حمد ضرغام ربه أن رحلت المرأة بِشَرّها، لقد كان ينوي منذ مدة تنبيه الشيخ عبد الهادي لضرورة اتخاذ إجراء معها وقد فاحت رائحة أعمالها الخبيثة، ما زال عبد القادر مسترسلاً وهو يخبر ضرغام المزيد: «يُقال إن زوجتيّ مروان الضاري طالبتا ذياب بنفقتهما بعد أن فقد زوجهما عقله والمال كله أصبح بيد ذياب؛ لكن ذياب يماطل ويمنع عنهما حقهما، بل ويحملهما مسؤولية ما حصل».

أراد ضرغام إيقاف استرسال عبد القادر بالكلام عن هذا الموضوع فسأل: «دعك من هذه القصص وأخبرني، ماذا تنوون تسمية المولود لو كان ذكراً؟».

رد عبد القادر يستعيد بهجته بقرب ولادة حفيده الأول: «أفكر في اسم بندر».

في لحظة انتفض ضرغام وشع جسده بالعنف وهو يهدر في عبد القادر: «إياك.. إياك وهذا الاسم يا عبد القادر».

تفاجأ عبد القادر من هذه الثورة العارمة المباغتة من صاحبه فيعقد حاجبيه ويتساءل في حيرة: «ما بالك يا ضرغام؟ لماذا تكره هذا الاسم بهذا الشكل؟».

كانا قد وصلا بالفعل للمستشفى فأوقف عبد القادر السيارة في مكان قريب من البوابة ثم التفت لضرغام متعجباً وهو ينتظر تفسيراً لردة فعله؛ لكن ضرغام أدار

وجهه جانباً بعيداً عن تفحص عبد القادر له ثم قال وقد انطفأت ثورته: «اذهب واطمئن على ولادة حفيدك، أنا سأنتظرك هنا».

سأله عبد القادر بفضول: «لكنك قلت تريد سؤال الدكتور فراس عن دواء الشيخ عمران الجديد».

اكتفى ضرغام بالقول: «اذهب أنت، أنا سأكلم الطبيب لاحقاً، أشعر ببعض التعب والنعاس، لم أنم جيداً ليلة الأمس».

غادر عبد القادر وقد شغلته لهفته على حفيده من أن يرى أو يفهم ما يجول في سريرة صاحبه، عندما اختلى ضرغام بنفسه وسط الهدوء والصمت حوله وهو ما زال في السيارة، أغرقه الماضي بالأمواج، موجة تتبعها موجة، **فموجة ألم لخذل الحبيب وموجة ندم فكان الأولى به أن يستجيب، لقد حذرته العجوز عجمية من الغفلة، فترك المزيونة تنتهكها النفوس الرذلة.**

أغمض عينيه وصوت الحبيب ما زال يرن في أذنيه، كان اللقاء الأخير وداع **وقد غفل قلبه أنه الوداع فلم يُطِل الكلام ولم يجمع زاداً من بعدها لن يُباع،** يدللها بأحب الأسماء لقلبها: «أخبريني ما يقلقك هكذا من سفري يا مزيونة».

تحمر خدود السنابل ويهف حول وجهها المستدير وشاح الورود الذي اشتراه لها وهي تتمتم في خفر: «متى ستسافر

وكم ستتأخر؟».

كانت قصيرة، يكاد يميل إليها كي تسمع صوته الخافت فيرد متبسماً: «سأخرج في الحال، ولن أغيب أكثر من يومين بمشيئة الله».

عيناها تنظران إليه، كانت خائفة، وكم كان جهولاً بعمق خوفها وصدق حدسها لما ينتظرها، قالت: «أنا خائفة يا ضرغام، دوماً ينقبض قلبي عندما تترك القرية».

ظنها ككل مرة يسافر وتلاحقه بنفس الجملة، فيهدّئ روعها ويفرح قلبها ببعض الطمأنينة قائلاً: «لقد فاتحت الشيخ عمران وسيطلبك لي عند عودتي».

توقع فرحتها ستمحو خوفها، لقد لاحقته كي يحبها، رآها صغيرة بالسن نخجل قلبه من حبها ورأته كبيراً فأحبته بكل قلبها، خوفها غلب وهي تقول له بحشرجة: «أشعر أن أبي سيرد الشيخ عمران، إنه لا يسميك إلا..».

عضّت شفتها السفلى حرجاً ليكملها لها هو قائلا بلا خجل: «ابن السائس».

ثم داعبها مضيفاً: «أنا لا أبالي بهذا يا مزيونة».

عيناها زائغتان وقد بات يعرفها عندما تخفي أمراً فيسألها بصبر: «أخبريني بما يقلقك».

رفعت طارف وشاحها لتخفي فمها كأنها تداري ما تخشى قوله: «هل تعرف بندر؟».

عقد حاجبيه وهو يتساءل: «أليس هذا أحد تجار البضائع الخفيفة المتنقلين بين القرى؟»،

ردت وهي تهز رأسها: «هو».

ثم ترددت لحظة قبل أن تضيف: «أبي يريد تزويجي به».

اتسعت عيناه وهو يسألها ببعض الغضب: «لماذا لم تخبريني؟».

ردت والدموع تترقرق في عينيها: «لم أعلم إلا البارحة، سمعت أبي يعده بتزويجي إياه في القريب العاجل، لكني لم أسكت، صرخت ورفضت ولم أبال بصفعات أبي لي».

لن ينسى تلك الدمعة التي هطلت من عينيها وهي تضيف بهمس: «بندر يخيفني يا ضرغام، ينظر إليّ بشكل يجعلني أرتجف، كلما مررت به في السوق أشعر وكأنه سيفعل بي سوءاً».

تكلم عندها يوصيها بجدية: «ابقي في الدار لا تغادريها حتى عودتي، ولا تثيري المشاكل مع أبيك، ولو ضغط عليك بالقبول اطلبي منه الانتظار ليومين كي تعيدي التفكير».

لم تقل إلا: «لا ترحل يا ضرغام».

ولم يكن بيده البقاء فقال: «لولا أهمية الأمر للشيخ عمران لما بارحت القرية، يجب أن أذهب بنفسي إلى

شيوخ القواسم أحمل لهم المال المطلوب، لقد طلبوا مساعدة الشيخ ولم يستأمن غيري»».

ألجم لسانها بكلامه، فأغلقت فمها ويا ليتها لم تفعل.

بعدها أصبحت الكلمات مجرد وداع على أمل لقاء لم يحصل وعود لا نملك لها تنفيذاً وقد كانت لمشيئة الله الكلمة الأخيرة، قال لها: «أراك بعد غد بإذن الله، ولا تخافي، أنا سأحل الأمر مع أبيك والشيخ عمران سيتكفل بإقناعه»».

وسط الذكرى قبل خمسة عشرة عاماً أخذت ضرغام سِنة نوم فغرق في حلم، لا.. لم يكن حلماً بمعانٍ مجازية هذه المرة كما يحصل كلما حلم بمزنة تركض وتضحك في البستان، هذه المرة كان الحلم تجسيداً حياً لحدث جلل حصل بعد عودته للقرية بيومين كما وعدها، عقله يستذكر ما حصل بتفاصيله وحذافيره في رؤيا شاملة وكأنه يحدث مجدداً اليوم، وليس قبل خمسة عشرة عاماً، كيف عاد للقرية وسلك طريقه إلى دار الشيخ عمران يمر عبر السوق، وهناك وجد الناس في حال غريبة كأن أمراً حصل يثير اللغط بينهم، ترجل من السيارة ليسأل ماذا هناك فيخبره أحدهم أنهم سمعوا أن أحد الفلاحين ربما قتل ابنته.

لا يعلم لماذا انخلع قلبه حاول أن يفهم أي فلاح لكن لا أحد يجده عاد ليركب السيارة وتوجه ناحية دار طحنون، وقبل أن يصل بيت الطين الذي يسكنه طحنون

وابنته لمح وشاحاً يتطاير عالقاً بجذع نخلة أوقف سيارته ليترجل منها مهرولاً وقلبه يدوي كدوي المدافع، وكلما اقترب كلما خذلته ركبتاه بالارتعاش، يناجي ربه أن يعينه كي يصل ويتأكد، ويا ليته لم يتأكد كان يرتعد لحظتها كما لم يحصل له طوال حياته وهو يقف على بعد نصف متر يحدق في الوشاح المورد، إنه وشاح مزنة، لا يعلم كم وقف هناك ولا يعلم أي قوة كانت تسنده كي لا يقع أرضاً، ربما بقية أمل أن مزنة قد تمكنت من الهرب لتحمي نفسها، وعند هذه الفكرة أخذ يهرول راكضاً كي يكمل الطريق إلى دار طحنون على قدميه، لم يفكر، فقط قدماه تركضان به وقلبه يسابق قدميه، لما تبقى من حياته سيتذكر ضرغام ما رآه حالما وصل إلى هناك، طحنون بملابس مغبرة وشعر منكوش دون كوفية أو عقال، يعلق على واجهة الدار ثوباً مألوفاً لعيني ضرغام، ثوبٌ مخضب بالدم وفي يد طحنون اليمنى سكينٌ كبير مما يُذبح به ثور، لم يكن ضرغام يريد التصديق، الثوب الأزرق المألوف لمزنة، أحب أثوابها إليها، أهذا ثوبها حقاً؟ أيفجعه مجرد ثوب هكذا؟ يرتجف صوته وهو يسأل بذهول: «ماذا فعلت بمزنة يا طحنون»،

استدار إليه طحنون فبدى الرجل ذاهلاً كذهوله، ملابسه المغبرة تلطخت بالدم هي الأخرى، ورغم حاله رد بنبرة عادية: «ألا تراني أعلق ثوبها؟ لقد ذبحتها وغسلت عاري، لم يعد لدي ابنة اسمها مزنة؟»،

حريق.. حريق ليس له أول ولا آخر، ينتشر في روح

ضرغام قبل جسده، ساقاه لم تحملاه فسقط جاثياً على ركبتيه دون شعوره، يسمع صوت طحنون وهو يضيف بثرثرة عجيبة: «الغبية قلت لها أن تتزوجه فلم تسمع كلامي هذا جزاؤها لأنها رفضته، بندر لا يرضى بلا».

ثم تقدم طحنون بعد أن أتم تعليق الثوب ليفتح باب داره ويقف هناك بعينين شاخصتين يكمل الثرثرة: «وجدتها ملقاة على الأرض ها هنا تئن، ثوبها ممزق كشرفها».

ثم رفع السكين أمام عينيه ليقولها ببساطة ودموعه أخذت تسيل: «ذبحتها.. ودفنتها».

الحريق يستعر وضرغام يريد النهوض ولا يقدر، كل ما استطاع قوله أن سأل بحشرجة: «أين.. دفنتها؟».

رد طحنون ودموعه لا تتوقف رغم تعابيره الذاهلة وكأنه غير مدرك لبكائه: «مثلها لا شاهد على قبره، الصحراء الشاسعة تخفيها».

أخيراً وجد ضرغام قوة كي ينهض وهو يقول بوعد لا يخلفه أمثاله من الرجال ولو دفعوا حياتهم ثمناً: «قسماً بالله العلي العظيم لن أذوق طعم الزاد ولن تغفل عيني لنوم حتى آخذ بثأرها».

لم يذرف دمعة، لا دمعة ستنزل حتى أنال ثأرك يا مزنة، هكذا وعد نفسه قبل أن يعدها، ليومين كاملين كان يلاحق آثار بندر وتنقلاته حتى وجده في إحدى البلدات، أمسكه عند جذع نخلة، لا يذكر حتى ماذا قال له، لا

يذكر توسلات الخسيس كي يرأف به ولا يقتله، أمسكه ضرغام من أعلى شعر رأسه فثبته وما زال بندر يتوسل كي يرحمه ولا يقتله، لكن ضرغام لم يكن يسمع، لا شيء يراه تلك اللحظة إلا ثوب مزنة المضرج بالدم معلقاً على واجهة الدار، رفع خنجره إلى عنق بندر وفي لحظة جزّه ليتناثر دم بندر على وجه ضرغام فيختلط بدموعه التي هطلت أخيراً تنعى المذبوحة العفيفة.

سيتناثر الدم على وجهك ويختلط بالدموع

أيا ساكني القبور كيف السبيل للرجوع؟

صوت عجمية في أذنيه عندما أجفل بقوة على صوت رنين مفاجئ أيقظه من الحلم الرؤيا، فتح عينيه بقوة وقلبه ينبض بعنف وأنفاسه متسارعة بجنون والعرق يتصبب من جبينه، كله كان ينتفض، ينعصر، بل واكتشف أن دموعاً تسيل على خديه وتبلل لحيته الكثيفة، للحظة رفع يداً مرتجفة كي يمسح وجهه وكأنه سيجد الدم مختلطاً بدموعه كما حصل في الحلم، وكما حصل في الواقع قبل خمسة عشرة عاماً، نظر ليده فلم يجد فيها إلا أثر رطوبة فتنهد وهو يرخي يده إلى حجره ويستغفر الله مستعيذاً من الشيطان الرجيم، رنين الهاتف توقف دون أن يرد، بينما يحدق ضرغام من النافذة الأمامية للسيارة إلى السماء الصافية فيناجي ربه هامساً يتضرّع: «اغفر لي يا ربي ذنباً يجعلك تحجب قبرها عني، أتوسل إليك يا رب هي ليس لها غيري، أريد قبرها لأمحو عاراً ليس لها».

ابتلع ريقه بصعوبة بينما يمد يده إلى هاتفه كي يرى من المتصل فلم يكن إلا عبد القادر، أخذ نفساً عميقاً وأطلقه ببطء قبل أن يقرر الترجل من السيارة والدخول للمستشفى، وما إن فتح باب السيارة حتى لمح هيئة رجل يخرج من بوابة المستشفى، رجل لم يره من قبل في القرية، رجل بدا بوضوح من هيئته أنه من العاصمة، وقد تأكد له هذا عندما رآه يتجه لسيارته فتنبه لرقم سيارته معنوناً باسم العاصمة، ترجل ضرغام وعيناه تتبعان الرجل العابس، رجل وسيم الطلعة أنيق الملبس، في عقده الثالث، ركب الرجل سيارته عندما لحق به أحد الممرضين الذي خرج من المستشفى في أعقاب الرجل ليناديه قائلاً: «انتظر يا أستاذ.. انتظر».

ثم سلمه الممرض ورقة وقال له: «هذا العنوان رسمته لك كخارطة لتصل إليه بسهولة»».

فتبسم الرجل الغريب ابتسامة لم تعجب ضرغام بينما يشكره ويخرج من جيبه بعض النقود ليرضي بها مطمع الممرض، للحظة فقط تبادل الرجل النظرات مع ضرغام فأومأ برأسه في تحية ردها ضرغام بنفس الطريقة وما زال داخله حدس لا يعجبه، غادر الرجل بينما عاد الممرض إلى المستشفى وجيبه دافئ بالـ(بقشيش) الذي حصل عليه، أغلق ضرغام باب السيارة ثم توجه إلى بوابة المستشفى في إثر الممرض حتى لحق به في الداخل وهناك وجد ضرغام نفسه يستوقف الممرض ويسأله: «من الغريب

الذي كنت تكلمه في الخارج؟ أهو طبيب جديد؟».

فرد الممرض: «لا أعلم من يكون؛ لكنه جاء ليسأل عن الممرضة سلافة، أقصد أم الليث، كما طلبت أن نناديها، وعندما وجدها مُجازة اليوم أراد عنوانها».

لم يستوقف ضرغام مطلب سُلافة بالتسمية، بل الحدس داخله كان يرن بصوت عال وهو يسأل الممرض: «ولماذا يسأل عنها؟ بدا عابساً عندما خرج من المستشفى قبل أن تلحق به أنت».

فوضح الممرض: «موظف الاستقبال رفض إرشاده إلى دار السكن الذي تقطنه، والرجل قال إنه قريبها وقادم من العاصمة يحمل إليها بعض الأغراض المهمة من أهلها في العاصمة، ولذلك أردت أن..».

لم ينتظر ضرغام أكثر وهو يترك الممرض وسط الكلام ليخرج مجدداً من المستشفى فيركب السيارة وينطلق بها إلى الدار الذي تسكنه سلافة.

***

توقفت السيارة عند الوصول لمقصدها، فنظرت شهلة بكسرة خاطر إلى بوابة دار أبيها، ها هي ستعود إلى هذه الدار ولا تعلم ما سيكون من قدرها بعد أن يتم طلاقها من مروان.

«لا تشعري بالانهزام، احمدي الله أنك ستخرجين سالمة

من هذا الزواج، وأنا متأكدة أن الله سيعوضك بعدها بما هو أفضل»».

التفتت شهلة إلى (ضرتها) التي تشجعها يا لها من مفارقة أن تجلس جوار دليلة في سيارة واحدة بعد أن ذهبتا معاً إلى الحاج عبد القدوس كي يساعدهما بالنصيحة، لا تصدق غباءها عندما تزوجت بمروان وهي تتأمل أنها ستزيح ضرتها وتنتصر عليها ليكون زوجها لها وحدها، كم كانت مغفلة، فجأة رمت بنفسها على صدر دليلة لتقول لها بعبرة مخنوقة: «أنا آسفة لأني مضطرة لتركك وحدك في دار مروان؛ لكن أبي..»».

لم تستطع إتمام جملتها لتخفف عنها دليلة بالقول: «والدك محق بعودتك لداره، يجب أن تحظي بدعمه وقوته كما يفترض أن يكون الدعم من كل أب»».

الجرح الغائر في روح دليلة يصرخ متوجعاً وهي تفكر بأبيها، لقد تخلى عنها مجدداً وقال ليس لها مكان في بيته إذا تطلقت من مروان يتجاهل ببساطة كل ما يحدث ولا يهتم بمصير ابنته، بصبر واحتمال وجَلَد كانت دليلة تواجه أقدارها الجديدة بينما تقول لضرتها تطمئنها: «لا تقلقي علي يا شهلة، أنا سأتدبر أمري»».

بوابة الدار تفتح فتطل والدة شهلة وهي تنظر بحزن وكمد على مصير ابنتها، تنهد شهلة وهي تبتعد عن دليلة وتتحضر للنزول قائلة: «السائق سيوصلك إلى دار.. مروان»».

ردت دليلة بغموض وهي تحسس أساورها عفوياً: «لا داعٍ، سأسير بنفسي، أريد الذهاب للسوق أولاً».

لكن شهلة أصرت وهي تقول بامتنان: «أرجوك دليلة دعيه يوصلك إلى حيث تشائين، ومتى ما احتجته فقط أعلميني، هذا بعض من جميلك علي، لن أنسى وقفتك معي بوجه ذياب في المستشفى عندما اتهمنا فيما حصل لمروان، ثم عندما تهجم علينا في الدار قبل أيام».

ردت دليلة ساخرة: «ذياب لم أوقفه أنا، بل مقام أبيك، أفهمي هذا يا شهلة».

لكن شهلة لم تهتم بالمعلومة لترد عليها بالامتنان نفسه: «وإن يكن، المهم أنك وقفتِ معي ساعتها وأنت من لا سند لك».

ثم ارتعشت شفتا شهلة لتضيف بشعور الذنب والندم: «أنا آسفة لأي ألم تسببت فيه لك بزواجي من مروان، سامحيني يا دليلة».

ضحكت دليلة ضحكة قصيرة ساخرة ثم قالت وهي تنظر إلى عيني شهلة: «اضحكتني يا شهلة ونحن فيما نحن فيه أي ألم؟ مروان لا أعتبره زوجاً لي من الأساس».

تساءلت شهلة: «أتكرهينه لهذا الحد؟».

ردت دليلة والكره يطل من عينيها صارخاً صريحاً: «أكثر إنسان كرهته في حياتي».

ثم استدركت وعيناها تبرقان: «لا.. بل هناك شخص آخر أكرهه أكثر».

وقبل أن تسألها شهلة عن هوية ذاك الشخص أضافت دليلة أخيراً لتحثها على النزول: «والدتك تنتظر بالباب، انزلي إليها وكوني قوية فلا تظهري انكساراً ولا ضعفاً، فكري أنك كنتِ محظوظة لخروجك من هذا الزواج القميء»».

تهز شهلة رأسها بـ«نعم» بينما تؤكد عليها دليلة مجدداً: «إن كنت تريدين مساعدتنا نحن الاثنتين فخثي والدك على استخدام كل معارفه وقدراته ليحقق مبتغانا دون تأخير الروتين والمعاملات»».

فتحتضنها شهلة مودّعة وهي تعدها بالقول: «سأفعل، لا تقلقي»».

ثم ابتعدت عنها لتفتح الباب لكنها عادت وسألتها بصوت خافت من شدة الحرج: «أنا محرجة منك، لكن.. كيف ستعيشين؟ أقصد ذياب لن يعينك في شيء»».

ردت دليلة بهدوء وغموض: «في هذا لا تقلقي»».

حاولت شهلة الاقتراح: «جربي مع والدك ربما يغير رأيه ويعينك ويستقبلك في داره»».

ابتسامة لا معنى لها مرت على شفتي دليلة ثم قالت تختصر الشرح: «أنا لدي بعض المال، وعندما يتم الطلاق

سأتدبر أمر المطالبة بالنفقة وسأعمل أيضا».

هزت شهلة رأسها لتترجل من السيارة وتهرع كطفلة إلى حضن أمها، راقبتهما دليلة للحظات ورغماً عنها دمعت عيناها؛ لكنها سرعان ما مسحت الدموع قبل أن تنزل على خدها لتطلب من السائق العجوز بهدوء: «إلى السوق من فضلك يا عم».

***

دار سكن سلافة

كانت تمدد على الأريكة وعلبة المناديل الورقية فوق بطنها، لم تتوقف عن العطاس من أثر الحساسية، فتمسح عينيها الدامعتين وأنفها الذي يسيل وهي تشتكي نفسها لنفسها: «هل راضية الآن يا أم الليث؟ هذه آخرة من يتصرف بأفعال متهورة مثلك ليستغلها أمثال ذكر الخنفساء، وها أنت في قرية غريبة تعمّها الرياح من كل نوع وصنف حتى بات جسدك لا يعلم لأي ريح يتصدى مقاوماً التحسس».

سمعت صوت اقتراب سيارة ثم توقفها أمام الدار فعقدت حاجبيها وهي تستقيم بجذعها تتساءل: «من أتاني الآن؟».

تشعر ببعض الحمى مشعة من جبهتها بينما تقف على قدميها وتتحرك نحو المشذب القريب من الباب تلتقط العباءة المعلقة كي تستر منامتها البيتية فيها، وحالما وضعت

يدها على أكرة الباب كانت الخطوات تقترب من الجهة الأخرى، عندما فتحت الباب ظلت للحظات تعتقد أن الحساسية والحمى تجعلها تهلوس بوجود (ذكر الخنفساء) أمامها لكن حالما رأت نظرات البغض تشع من عينيه استعادت تركيزها لتعبس في وجهه وهي تهدر فيه: «ماذا تفعل هنا؟».

نظراته اللحظة كانت تشع غضباً وهو يسألها: «أنت بمفردك في الدار؟».

ردت وهي تضع كفها بثقة على الباب: «حاليا نعم أنا بمفردي، هل تظن أني سأخاف منك مثلا؟».

فاجأها، بل صدمها عندما وقف أمامها مباشرة وهو يسأل من بين أسنانه: «أين ليث؟».

رمشت وتراخت يدها عن الباب وهي تسأل بقلق: «ليث؟ ماذا تقصد أين ليث؟».

فقد ثامر أعصابه ليدفعها بقسوة للداخل وهو يدخل ويقول: «أيتها الحقيرة أين تخبئيه؟».

ثم أخذ يصرخ منادياً وهو يدور في أرجاء البيت: «ليث.. ليث».

استعادت توازنها سريعاً ولملمت عباءتها حولها وهي تلحق بثامر وتصرخ فيه: «توقف هنا، قلت لك توقف».

لكنه لا يأبه، بل يدفع يدها كلما حاولت التشبث

بملابسه كي تجره، جن جنون سُلافة وهي تصرخ فيه بينما يبحث في الغرف: «ماذا حصل لولدي؟».

التفت إليها وهو ينظر لوجهها ثم يقول مكذباً إياها: «كم أنت بارعة بالادعاء والتمثيل».

أخذت تضربه على وجهه وصدره وقد فقدت سيطرتها: «أيها الحقير الوسخ، أنت المدعي النجس، أنت وتلك الحقيرة التي أمسكتكما معاً بنصف ملابسكما فوق مكتبك في غرفتك وسط المستشفى أيها الطبيب الفاضل المحترم».

أمسكها من معصميها وهما وسط المطبخ ليهزها بكل قوته كرجل فجعلها تترنح ورأسها يلف من أثر المرض ثم يقرب فمه من أذنها ليذلها بالقول: «ولم يصدق قصتك أحد، بل صدقوا قصتي أنا وبصموا بأصابعهم العشرة عليها؛ لكن هذا لم يعد يهمني أتكلم فيه».

هذه المرة كان عيناه تنذران بالتهديد وهو يسأل: «لآخر مرة أسألك، أين أخفيتِ ليث؟».

كانت تنهت مرهقة رغماً عنها وهي ترد عليه بكره وتقاوم إمساكه بمعصميها: «قلت لك لا أعلم، ماذا فعلت بطفلي ليهرب منك؟».

لكنه لم يصدقها ليقول وفي عينيه الشر: «سأعرف كيف أجعلك تنطقين».

ومع جملته هذا كان يرفع كفه لينهال عليها صفعاً ويجرها

من شعرها فتتوجع وهي تقاومه بكل ما أوتيت من قوة، كانت مرهقة ومستنزفة ورغم صراعها معه ومقاومتها الشرسة له فإن دموعها أخذت تنزل وهي تتألم مما آل إليه حالها ليتهجم عليها هذا الحقير هكذا، الدم أخذ ينزف من أنفها وثامر ما زال يصفع فيها ويصرخ كي تخبره بمكان ليث حتى أوشكت أن تفقد سُلافة وعيها، شهقت حين تدخل أحدهم ليبعد ثامر عنها فتمسكت بحافة الخزانة كي لا تقع، وقد تشعث شعرها حول وجهها المكدوم، يدها الحرة ترفعها بارتجاف لتلامس أنفها النازف وهي تحاول السيطرة على الدوار، أخيراً استعادت تركيزها وهي تسمع صوت ضرغام.. أجل كان ضرغام الأسدي منقذها.

رفعت نظراتها نحوهما فتجمدت من صدمة المنظر الذي تحدق فيه، كان ضرغام يقف في ظهر ثامر يكبل جسده كاملاً بذراع واحدة، أما ذراع ضرغام الآخر فيلتف حول كتف ثامر وقد وجّه خنجراً لعنقه ونية القتل تبوح بها عيناه قبل الخنجر، حاولت سُلافة النطق لكن لسانها لم يعِنْها بينما تسمع صوت ضرغام بنبرة بدوية ثقيلة مهيبة مخيفة كما لم تسمعها منه من قبل: «أشباه الرجال أمثالك حتى الأرض تترفع عن دفن أجسادهم النتنة، لأدفننّك في روث البغال بعد أن أفصل رأسك عن جسدك».

ترفع سُلافة يدها تحاول قول شيء ولو بحركة لكن ضرغام لم يكن يتنبه لها، كان غريباً تماماً عما رأته منه في السابق، كان مختلفاً، وعلى قدر ما أخافها بحالته هذه،

على قدر ما أشبع داخلها إحساساً مُرضياً بالتفوق على ثامر الحقير، أما ثامر فقد كان يهتز مرتجفاً كسعفة في مهب الريح وهو يتوسل بصوت باك: «أرجوك، أتوسل إليك، لا تقتلني»».

ثم شهقت سُلافة بذهول وعيناها تلمحان البلل الذي بدأ يغطي سروال ثامر الرمادي.

***

في السوق

تلاحق أم إسماعيل خطوات صفوان وهي تكاد تشعر باليأس بعد أن أوشكت (اللقمة) تصل فمها، تكاد تهرول وخطوات صفوان واسعة وهي تتساءل بإلحاح: «يا ابن الشيوخ لماذا غيرت رأيك؟ ألم تختر إحدى الفتيات اللواتي عرضتهن عليك وقلت لي إنك موافق عليها؟»».

رد بوجه عابس: «قلت لك ليس هذا وقته يا أم إسماعيل، لدي مشاغل مهمّة هذه الفترة»».

نظرت إليه أم إسماعيل بتشكك، وتذكرت الكلام الدائر بين النسوة، فقررت أن ترمي حجارة في الظلام لعلها تصيب، قالت لصفوان وهي ما زالت تلاحقه في السوق: «هل سمعت يا ابن الشيوخ؟ يقال إن مروان الضاري فقد عقله تماماً ولن يعود إليه رشده»».

لم تتغير سحنة صفوان وهو يظهر اللامبالاة بالرد: «وما لي

أنا ومال مروان الضاري؟»».

ردت وهي تحاول مجاراة خطواته لتنظر لتعابير وجهه: «فقط أخبرك، فربما يهمك الأمر»».

كان صفوان يرد بذكاء ويتجاهل مقاصد هذه المرأة الثرثارة المزعجة ليقول بنفس التعابير التي لا تكشف دخيلة نفسه: «لست مهتماً بثرثرتك ونقلك أخبار أهل القرية، فليشفِ الله كل مريض»».

تمتمت أم إسماعيل وقد يئست منه وتعبت من مجاراة خطواته الواسعة: «آمين، عن إذنك يا ابن الشيوخ أشرب بعض العصير فقد جف ريقي»».

شوّح بيده دون اهتمام وواصل خطواته بينما أم إسماعيل تبحث عن بائع العصير بالاتجاه الآخر.

يسير في السوق الكبير على غير هدى، ينتقل بين أفرعه الكثيرة ومحلاته المنوعة، كان يحتاج لإلهاء عما يجعل النوم يجافيه، يتقلب كل ليلة في السرير على الجمرات، ساعة يستغفر وساعة يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وساعة ينهكه التفكير بما سيحدث لدلال، أجل هو لا يكف عن التفكير فيها منذ انتشار خبر جنون مروان وكيف حبسه أخوه ذياب في حجرة، أفكاره بدلال متخبطة لا ترسو على اتجاه، كسفينة تخوض غمار بحر هائج تبحث عن مرسى مجهول، لقد تشوش أكثر وعاد أسوأ من السابق، لم تعد النصيحة التي أسداها له الحاج عبد القدوس مُجدية، لا

يستطيع الزواج الآن بل لا يريده حتى، زفر أنفاسه بقوة وهي يحث خطاه بين أزقة السوق الضيقة، ولا يعلم كيف وصل إلى سوق المصوغات الذهبية الذي ترتاده النساء في الغالب شعر بالضيق فأراد أن يعود أدراجه عندما لمح وجهها بين الوجوه إنها هي، دلال، لم يشعر بجسده الضخم إلا وينبض كله نبضاً واحداً بينما قدماه تلاحقان طيفها حتى رآها تدخل إحدى المحلات.

***

بصبر كانت دليلة تُفاصل في السعر مع الصائغ كي تحصل على أفضل نتيجة، لم تتعب ولم تظهر ضعفاً أمامه وكان صبورة للغاية حتى حصلت جزاء سعيها، لقد كانت تعرف قيمة مصوغاتها، دون أي ذرة حسرة كانت تخلع كل أساورها ومحابس كفيها والقلائد الثلاث في عنقها من تحت العباءة، لقد كانت تخطط لهذا منذ الصباح فلبست كل حليّها، للحظة شعرت بمن يراقب عبر زجاج واجهة محل الصائغ لكن عندما التفتت لم تر أحداً عبست قليلاً وتعترف أنها توترت أيضاً بينما تنتظر الصائغ يعد المال قبل أن يسلمه لها، كانت تخشى أن يكون أحدهم فطن لبيعها المصوغات وربما سيترصدها لسرقة المال، استلمت المال كاملاً ثم فكرت للحظة لتقرر تغطية وجهها بجزء من وشاح رأسها، ثم غادرت المحل وهي تسرع الخطى لتضيع بين النساء في السوق، وظلت تدور وتدور في تلك الأزقة وقد ثبتت المال بمكان آمن في ملابسها تحت العباءة، ارتاحت

قليلاً من توترها، لقد شكت للحظة أن ذياب أرسل خلفها من يتابع تحركاتها وربما سيسعى لسرقتها، هذا الخسيس منقوص الرجولة يفعل أي شيء.

قررت بعزم أن تعود للدار مشياً على الأقدام، لن تجعل أحداً يرهبها بعد اليوم، كشفت وجهها مجدداً وسارت وهي ترفع ذقنها بشموخ أمام أهل القرية، لن تحجب نفسها أبداً، فليروا ما آلت إليه وكيف ستُعافر لتعيش ولن تنسى أن تكمل ثأرها.

***

من بعيد ظل صفوان يتابعها، أوشك أن يفقد أثرها أكثر من مرة؛ لكن حدسه يعيده اليها، منذ صغرهما وكانت هذه لعبتهما أن يجدها، بات الطريق خالياً وهي تسير أمامه على بعد أمتار، عقد حاجبيه وهو يفكر بحنق كيف تسير بمفردها هذه بين البساتين وهي تحمل كل هذا المال؟! كان يجب أن يتأكد من وصولها بأمان، لا يعلم لماذا اختارت السير على قدميها، لكنه للحظة شعر وكأنها تتحدى الجميع بظهورها، فجأة توقفت خطواتها لتتوقف خطواته هو الآخر، عاد جسده للنبض، بل روحه كلها تنبض مهما نهرها ومنعها إلا أن الروح لا تستجيب، هذه دلال، والنبض بها داء وشفاء، ابتلع ريقه بصعوبة وهي تستدير إليه وتقترب بضع خطوات ودون أن تنظر إليه سألت بنبرة باردة وهي تتوقف على بعد ثلاثة أمتار: «لماذا تسير خلفي؟».

خانه النبض فتسرب اسمها متحرراً من بين شفتيه: «دلال».

رفعت عينيها إليه لتصفعه بنظرة غضب، انخلع قلبه من صدره وهو يخفض بصره متمتما باعتذار: «عفوك، أقصد دليلة».

كان لقاء الغرباء الحزانى كأمهات ثكالى لا يبارحن قبور أولادهن، تجف مآقيهن من الدموع لكن الحزن لا يجف بعد كل هذه السنوات كل يحمل فاجعته، وكل غافل عن فاجعة الآخر فلا يدركها ولا يتفهم حزنها الذي لا يموت، سألته مجدداً وبتحدٍ: «لماذا تلحق بي؟».

فرد وهو لا يزيح عينيه من عينيها: «لماذا بعتِ مصوغاتك؟».

للحظة اتسعت عيناها متفاجئة ثم تذكرت إحساسها بمن كان يراقب من خلف زجاج محل الصائغ فاستعادت برودها وسيطرتها لترد عليه: «وما دخلك أنت؟».

ابتلع ريقه وهو يحدق في عينيها يهزمه شوق خبيث ليقول بعدها «إن كنت بحاجة للمال..».

قاطعته بعنف وهي تقول: «أنت آخر البشر على أرض الله سأطلب منه مساعدة».

برقت خضرة عينيه بالصدمة من شراستها معه، فتمتم اسمها بحنين الماضي: «دلال».

هدرت فيه: «إياك، ثم ألف إياك أن تناديني دلال مرة أخرى».

بدأ يغضب وهو لا يفهم لما ترمقه بكل هذا الكره والغضب؟ لتكمل دليلة وعيناها تشعان بالحقد: «دلال ماتت مع موت صفوان».

حاول أن يشرح: «أنا لم أمت، أنا..».

قاطعته وهي ترفع سبابتها نحوه باشمئزاز: «أنت ميت حتى وجسدك يقف شاخصاً بضخامته أمامي».

ثم أشارت بنفس السبابة لصدرها وهي تضيف: «قبر صفوان الذي عرفت في صدري ولا قبر آخر سيكون له».

لم يفهم لا يدري ما الذي دهاها؟ لماذا لا تمنحه فرصة ليشرح؟ للمرة الأولى يشعر إنها ليست دلال، أخيراً قالت له بقسوة تشوه صورة (دلال) في ذاكرته: «إن لحقت بي مجدداً فضحتك في القرية بأسرها، وأنت تعلم أني أفعلها».

ثم تركته واستدارت لتمضي في طريقها وهو يقف مكانه، مسح وجهه بكفه وهو يتمتم: «ماذا جرى لك يا دلال؟ ماذا فعل بك مروان؟ ماذا قالوا لك عني؟».

«ماذا تفعل عندك يا صاحب العود؟ دعها تذهب لغفلتها واقترب مني».

أجفل صفوان على الصوت الذي يناديه، فتلفت يميناً وشمالاً يبحث عن مصدره حتى وجده، اقترب ببطء

ليدخل بين أشجار النخيل حتى وصل لتلك العجوز التي تجلس على الأرض تحت ظل نخلة، وإلى جوارها عصا.

انحنى إلى العجوز الضئيلة تجذبه عيناها المتوهجتان في زرقة نادرة فيتذكرها على الفور، هي ذات العجوز الغريبة التي رآها يوماً في المستشفى عندما حمل طفلة مصابة إلى هناك أثناء النزاع العشائري.

سألها برفق: «هل أنت متعبة؟».

للحظة شعر بابتسامة خفية منها وبريق شقاوة في عينيها قبل أن تخفي كل شيء وهي تطلب منه: «احملني على ظهرك، وأعدني إلى داري».

لم يتأخر وهو يدير لها ظهره ويقول: «حاضر أماه، تشبثي بي».

في لحظة شعر بها تتعلق بظهره كطفلة مشاغبة لا عجوز مرهقة فوقف وهو يحملها ثم مدّ يده للعصا يلتقطها بينما العجوز تقول له بألفة: «لم يناديني أحد أماه إلا ولدي عبد الملك، أنا اسمي عجمية، لكني أحببت (أماه) منك فلا أمانع».

أراد أن يعود للطريق لكنها منعته بالقول: «لا، اسلك الطريق بين الأشجار».

فرد بطاعة: «على أمرك أماه، من أي عشيرة ولدك؟».

كان يتصورها عجوزاً فقدت تركيزها وتائهة، فيحاورها

بصبر ليعرف أين دارها، ردت عليه بفخر: «ولدي ابن الشيوخ، عبد الملك الشيخ، رعاه المولى وأطال عمره».

يهز صفوان رأسه وقد عرف دار ابنها بينما عجمية تبتسم بشقاوة وهي ترى من بعيد الخادمة تدور حول نفسها بحثاً عنها، خادمة غبية ألا تعلم أن لديها عمل كثير لتنجزه؟! تنهدت عجمية بغير رضا وهي تتمتم: «كيف سأجده؟ كيف؟».

سألها وعقلها ما زال عالقاً مع دلال: «عمّ تبحثين يا أماه؟».

قالت عجمية وعيناها تدوران بين أشجار النخيل في عجز: «ابحث عن قبر المذبوحة».

يعقد صفوان حاجبيه وهو يتساءل بفضول: «أي مذبوحة؟».

فردت: «ابنة طحنون».

بضع لحظات مرت وصفوان يسير بين النخيل وهو يفكر بالماضي ليقول وقد تذكر حكاية المخبول طحنون: «لقد مضت سنوات كثيرة جدا على هذا لكني أذكر تلك البنت المسكينة وحكايتها الموجعة، غريب أنك ما زلتِ تفكرين أين دفنها أبوها؟».

قالت عجمية بنبرة غامضة تحمل الهم: «لست وحدي من لا أزال أذكرها، أنا أبحث عن قبرها لأجل (الذاكرين)».

حتى اللحظة لم يأخذها صفوان على محمل الجد، لم تكن في نظره إلا عجوزاً تريد من يشاركها الثرثرة، قال لها بتلطف: «لا تتعبي نفسك يا أماه بالبحث عن قبرها، لقد دفنها أبوها في الصحراء الشاسعة، أنت تعرفين عادات العشائر مع قضايا العار».

قالت عجمية بغضب واشمئزاز: «لقد دفن عاره لا عارها، ذاك الأحمق عاره عندما أراد بيع ابنته للخسيس فطمع الخسيس وسرق شرفها دون ثمن».

فجأة مالت إلى أذنه فتسأله: «ما اسم التي أنجبتك».

ابتسم صفوان في حنين ليرد: «اسمها سدرة المنتهى».

فقالت عجمية في حبور: «اسم من الجنة، وقد خلقها المولى لتحمل عنوان مثواها».

ذاب قلب صفوان وهو يتذكر أمه، لقد صدقت العجوز عجمية، فمثل روح أمه لا تسكن إلا الجنة، فجأة قالت له عجمية: «أنت غافل يا ابن سدرة».

يعقد حاجبيه وهو ينظر لحفرة صغيرة في الأرض كادت قدمه أن تنزلق فيها فيتجنبها مبتعداً وهو يرد: «غافل عمن يحيك لي الفِخاخ لأقع؟».

فردت عجمية: «بل غافل عمّن تكون، لا تعرف قيمة نفسك».

شردت خضرة عينيه وهو يتذكر عيني دلال كيف بائتا

اليوم ليقول مقتولاً بالألم: «من كان يعرفها قتلني حياً».

هتفت به: «أنت رجل قتال، فقاتل».

بقناعة راسخة قال: «بل أنا رجل سلام».

لكن لعجمية مكرها وهي تقول له ما لا يراه ولا يعرفه: «من ستحاربك ستعطيك وقودك، وستعجب مما سيفعله بك ذاك الوقود».

تمتم حائراً: «لا أفهمك أماه».

لم توضح مقصدها، بل تنصحه بالقول: «**احذر من غفلة ينسجها قلبك فيوقع عقلك في الفخ، فغفلة الغازلة نسجها الظلم وفيها الشيطان قد نفخ**».

على حين غرّة وكأنها تستجيب لنداء خفي فوري التفتت بوجهها ثم رفعت ذراعها وأشارت بسبابتها في اتجاه وعيناها تبرقان بشدة وهي تقول: «**لقد فكّ أسره، وعند المجنون وضع الله مكره وسره**».

***

على بعد عشرات الكيلومترات كان مروان يركض ويركض، لقد قتل حارس غرفته خنقاً ثم هرب من الأسر، عيناه تشعان بالجنون، ويوم الحق بمشيئة الرحمن مرهون.

***

الغزل السادس

«يا ابن آدم لا تفلت خيط السند من يديك، ولا تهمل خيط الستر فيقع من عينيك، كلاهما ينسجان ثوباً من الرحمة، مهدى من العاطي الستار».

حاولت سُلافة النطق لكن لسانها لم يُعِنْها بينما تسمع صوت ضرغام بنبرة بدوية ثقيلة مهيبة مخيفة كما لم تسمعها منه من قبل: «أشباه الرجال أمثالك، حتى الأرض تترفع عن دفن أجسادهم النتنة، لأدفنّنك في روث البغال بعد أن أفصل رأسك عن جسدك».

ترفع سُلافة يدها تحاول قول شيء ولو بحركة لكن ضرغام لم يكن يتنبه لها، كان غريباً تماماً عما رأته منه في السابق، مختلفاً، وعلى قدر ما أخافها بحالته هذه، على قدر ما أشبع داخلها إحساساً مُرضياً بالتفوق على ثامر الحقير، أما ثامر فقد كان يهتز مرتجفاً كسعفة في مهب الريح وهو يتوسل بصوت باكٍ: «أرجوك، أتوسل إليك، لا تقتلني».

ثم شهقت سُلافة بذهول وعيناها تلمحان البلل الذي بدأ يغطي سروال ثامر الرمادي، الذهول جمّدها لبضع ثوانٍ، كان هدر كرامة ثامر بهذا الشكل يفوق حتى أقصى خيالاتها، شعرت فجأة بالشفقة ليس تلك الشفقة التي تثير الرحمة واللين في القلب، بل شفقة مقرونة بالنفور والازدراء، شفقة تنتابك وأنت عابس في اشمئزاز مما تراه عيناك، مدّت يداً مرتعشة بعض الشيء إلى منشفة المطبخ

المعلقة على الحائط، فأخذتها لتمسح أنفها من الدم بينما تقترب منهما وعيناها على ضرغام وهي تقول له: «دعه بالله عليك يا ضرغام، لا تبتلي نفسك بدمه الوسخ، هذا أقصى ما يستطيع فعله معي، وهو يعرف جيداً أني لن أنهزم، حتى إن قتلني فلن أنهزم»».

في لحظة رفع ضرغام عينيه عن ثامر الذي ما زال يكبله لينظر في عيني سُلافة وهي تضغط بالمنشفة أعلى أنفها كي توقف النزيف، نظراته ثقيلة بالمشاعر المحتدمة التي تحملها، شعرت سُلافة بإحساس غريب ومخيف في الوقت ذاته، هذا الرجل الذي لم تنجح يوماً في استفزازه أو إثارة فضوله، ولم تره يوماً فاقداً لهدوئه وسيطرته، تراه الآن كأنه محارب بدائي النزعة، يقاتل وسط صراع رهيب يصل حدّ الموت فيفتح صدره له وهو يصرخ متحدياً، رجل يجابه بمفرده إن استدعى الأمر، رجل يمتلك روحاً، هي كل أسلحته وجيوشه، اقشعر جلدها وهي تقف قريباً تكاد لا ترى ثامر وقد ملأ ضرغام الصورة كلها تقرأ ما يشع منه بشفافية شديدة فتتذكر لقائهما الأول في البستان وسحنة الألم التي اكتست خشونة وجهه وهو نائم يحلم، وجدت نفسها دون تفكير تمد يدها نحوه في دعوة طمأنينة لتقول له برفق روح (الممرضة) التي تخفف معاناة مرضاها مع الأوجاع؛ لكنها هذه المرة تهون ما تجهله من العلل: «دعه، لقد أخذتَ لي حقي منه وزيادة»».

ما زالت يدها ممدودة وقلبها يقرع وهي تنظر في عمق

عينيه المخيفتين أهما مخيفتان حقاً؟ إنهما ككهفين مظلمين وقد تأججت فيهما النار على حين غرة، ابتلعت ريقها عندما أطرق بنظراته مُرخياً أجفانه ليقول بصوت خافت بعث مزيداً من القشعريرة في جسدها: «تستّري يا أم الليث، عباءتك وقعت على الأرض».

تذكرت لحظتها فقط أنها ما زالت بمنامتها، فسارعت لتنحني كي تلتقط العباءة، ثم استقامت لترمي المنشفة في حوض غسل الصحون وتلبس بعدها العباءة في حرج، بينما يتحرك ضرغام يجرّ معه ثامر الذي أخرسه الخوف ليضيف ضرغام بنفس النبرة القروية الثقيلة: «أنا سأُخرج قامة الرجال هذه من هنا، وعذرا منك لأني تخطيت حرمة دارك دون الاستئذان أولاً».

كانت تلملم شعرها المشعث وهي تلحق بهما عند باب البيت وتقول: «لحظة.. أريد أن أعرف ما جرى لولدي؟».

يعبر ضرغام الباب ثم يدير ثامر بين ذراعه ليعتصره يكاد يخنقه وهو يهدده بالنبرة دون حاجة لكلمات مكتفياً بقول كلمة آمرة واحدة: «أخبرها».

تمتم ثامر بوجهه الشاحب من شدة الرعب بينما العرق يتصبب منه: «حاضر، حاضر».

ابتلع ريقه وهو ينظر لسلافة قائلا بصوت غير ثابت: «لا أعرف أين ذهب.. منذ ليلة الأمس بحثت عنه ولم

أجده».

ارتعد جسد ثامر وعيناه تهبطان للخنجر الذي ما زال يحز رقبته ليضيف: «لكني سأبحث مجدداً.. سأبحث في العاصمة ولن أزعجكم، ظننته جاء لاجئاً إلى أمه في القرية».

تقدمت سُلافة منه عاقدة الحاجبين وهي تسأله بعصبية واتهام ضمني موجه له: «ماذا حصل ليترك البيت؟ لا بد أنك فعلت أمراً عظيماً أغضبه».

للحظة بدت نظراته غير ثابتة وكأنه يتهرب لكن لسانه ينكر وهو يرد عليها: «لا أدري، اقسم أني لا أدري».

هتفت به وهي تقف قبالته مباشرة تواجهه وضرغام يكبله: «لا تقسم رائحة كذبك مفضوحة فلا تحمل ذنب القسم، أكاد أرى ما حصل في عينيك وأنت تحاول عبثاً مداراته وإخفائه، لهذا السبب ظننته لجأ إلى وجئت تتهجم عليَّ».

بينما كان يحاول ثامر النفي أداره ضرغام دورة كاملة بحركة واحدة، فأوشك ثامر أن يفقد توازنه ويقع على الدرجتين الخارجيتين أمام باب الدار لكنه استطاع التوازن للحظات فقط قبل أن تباغته ركلة من قدم ضرغام من الخلف دفعت به للأمام فينكفئ على وجهه وضرغام يمنحه التهديد الأخير وهو يلوح بخنجره: «إن رأيت وجهك في القرية دفنتك فيها، بل إن سمعت فقط أنك عتّبت حدودها بموضع قدم أتيتك للعاصمة ودفنتك في عقر

دارك، حرمات النساء عندنا فوق أي حرمة».

يتأوه ثامر وهو يُنهض نفسه بذل، ينفض التراب عن ملابسه لينكسر بمزيد من الإذلال وهو يرى سرواله الرطب، مرّ بعض الصبية فيراقبون المشهد ثم أخذوا يتهامسون ويضحكون، يسرع ثامر بخطاه يداري خزيه وعاره، يركب سيارته ثم ينطلق بها كي يغادر القرية وهو يكاد لا يصدق ما حصل له، تتجمع الدموع في عيني سُلافة وهي تراقب رحيل ثامر شاردة عن وقفة ضرغام القريبة منها وكأنه ينتظر أي إشارة لطلب مساعدة، أخذت تتمتم وكأنها تكلم نفسها: «يجب أن أعود للعاصمة وأبحث عن ليث بنفسي»».

ثم استدارت مغلقة الباب دون وعيها وهي تضيف على عجل: «يجب أن أؤجر سيارة كي تأخذني للعاصمة في الحال»».

خطواتها تسرع ناحية غرفتها كي تغير ملابسها ثم عقدت شعرها للخلف كيفما أتفق، وبينما هي تفتح الباب والهاتف على أذنها كي تتصل بمن يساعدها لاستئجار سيارة وجدت ضرغام واقفاً على بعد بضعة أمتار من باب الدار، كان في وقفته أشبه بجبل، راسخاً هادئاً للغاية وتعابير وجهه البدوية صامتة، صامتة لا تتكلم عن دواخل صاحبها، اكتفى بالقول حالما رآها عند الباب: «استأذنت من الشيخ عبد الهادي الأسدي لأكون معك اليوم يا أم الليث، أوصلك إلى العاصمة وأظل برفقتك، ولن نعود القرية إلا

وولدك في أمان بإذن المولى، نحن سندك وعزوتك فلا تخشي شيئاً».

ارتجفت شفتاها تأثراً لكنها ابتلعت عبرة التأثر لتسرع الخطى نحوه وهي تقول له على عجل: «لننطلق إلى العاصمة في الحال بالله عليك».

***

توشك دليلة على الوصول إلى الدار عندما لمحت عن بعد سيارة ذياب وهو يقف خارجها مع نفر من رجاله، ابتلعت ريقها خوفاً وجزعاً، ارتفعت يدها لا شعورياً كي تلامس ما تخبئه تحت عباءتها من النقود، عضت شفتيها بينما تردد في سرها الآيات القرآنية وهي تدعو الله تطلب ستره، من صميم قلب امرأة ليس لها سند في الدنيا إلا هو سبحانه، تحارب تلك المخاوف كي لا تظهر على تعابيرها بينما تقترب خطواتها منهم، لمحها ذياب أخيراً بسحنته الكريهة ليرمقها بنظرات المقت الشديد كأنه يبث السم الزعاف من عينيه، همست دليلة وهو توشك الوصول إليه «﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾».

شعرت ببعض القوة والسند في آيات الله لتأخذ نفساً وهي تشمخ بذقنها تواجهه بقناع البرود والقوة: «ماذا تفعل هنا يا ذياب؟».

أطرق رجاله بنظراتهم وقد بدوا متوترين، بل ذياب

نفسه كان شديد التوتر هتف بها: «أين كنتِ؟».

تأجج طبعها الأصيل وهي ترفض أن يرهبها ولو كان فيه موتها، لتنظر وسط عينيه وهي ترد بوقاحة: «أمر لا يعنيك».

رفع قبضته في وجهها والتهديد يشع منه وهو يقول بخفوت: «أفلت عيارك يا ابنة خالي وزوجة أخي».

تقارعه أمام رجاله وهي ترد بنبرة واضحة كي يسمعها الكل: «فأما صلة الدم فمفروضة عليّ، كامتحان عسير ممن خلق الأكوان، وأما (زوجة أخيك) هذه فأمرها محلول في القريب العاجل، العاجل جدا يا ذياب».

برقت عيناه وهو يسأل: «ماذا تقصدين؟ أستطلبين الطلاق؟ أهذا ما تلمحين له؟».

ابتسامة هازئة منها دون أن ترد ليغضب ذياب وهو يهدر: «قسماً بالله لو فعلتها فـ..».

قاطعته بهدير غضب يعلو هديره: «لا تقسم على ما لا تستطيع فعله والطلاق سيقع، سنناله أنا وشهلة في يوم واحد رغماً عن أنف جبروتك، هذا وعد مني يا ابن عمتي ليصل القرية بأسرها، واحبس أخاك المجنون في عقر دارك جيداً حتى لا يراه أحد، فسيرتكم يا أخوة الضاري باتت علكة ماسخة تمضغها أفواه الناس في الأسواق».

فجأة بزغ توتره أكثر ورؤوس الرجال ارتفعت،

فتوجست دليلة منه خيفة تخبئها في قلبها فلا تكشفها أمامهم بينما يقول أحدهم: «أنا سأظل هنا طيلة الليل بينما باقي الرجال يبحثون عنه، فلا تقلق، سنجده ونعيده».

يرخي ذياب أجفانه بينما يعض طارف شفته كأنه يقتله الغيظ قبضتاه إلى جانبي جسده متوترتان وقد بدا تفكيره مشغولاً بما هو أهم من تواجد دليلة معه، أما دليلة فقد خمّنت وهي تقرأ الوجوه وتفسّر تعابيرها مع الكلمات التي قيلت إن هناك أمراً جللاً حصل، وأقرب تخمين لذاك الأمر بناء على ما سمعته من الرجل هو هروب مروان من الحبس، شعرت بالخوف وعيناها تتجهان بالنظر إلى الدار الذي تسكنه، دار مروان، الليلة ستكون أول ليلة لها تبيت فيها لوحدها بعد رحيل شهلة إلى دار أبيها، كما صرفت الخادمتين فلم تعد بقادرة أن تمنحهما أجرتهما وذياب يمنع عنها حقها في نفقة من مال أخيه، تحركت وهي تتركهم بما هم فيه بينما تلتقط أذناها كلمات ذياب التي يوجهها لأحد رجاله: «لا تبارح المكان على الإطلاق، مهما غاب سيعود إلى هنا، أنا متأكد».

راقب ذياب دخول دليلة إلى الدار بينما يطبق أسنانه بغيظ، كم يمقتها وكلما تكالبت عليه الهموم والصعاب، يجدها هي السبب بطريقة أو بأخرى، زفر بقوة وهو يُخرج الهاتف من جيب جلبابه ليتصل مجددا بشقيقه الأصغر خلفان فلا يصله رد، شتم بنبرته القروية الثقيلة ثم قال: «لا بد أنه مع إحدى خليلاته، ألا لعنة الله على النساء

أجمعين»».

***

جالساً بسيارته المركونة على جانب الطريق الترابي غير المأهول، يملّس خلفان بسبابته اليسرى فوق جانب شاربه الكثيف الداكن وبعض لحيته، ابتسامة ترسم (اشتهاء رجل) يسعى كي يرضي غروره قبل غريزته، عيناه اللامعتان بالطمع لا تفارقان جسد الصبية التي تحمل سلة الخوص فوق رأسها، تسير على مهل تخشى سقوط حملها الثقيل الذي تنقله، لم يأبه لاتصال جديد من أخيه الأكبر ذياب، ترك هاتفه يرن ليترجل من سيارته وعيناه تتأكدان من خلو المكان والبساتين من حوله هادئة، تبسّم وهو يرفع حاجباً واحداً يلاحق جلباب الصبية يرسم خطوط جسدها بمزيد من الاشتهاء وطمع الضباع الخسيسة، قال يكلم نفسه: «ابنة عبد الواحد تتدلل، وبعض التدلل هو كل الرضا، هذا دَيْدَن كل النساء»».

تلتمع أسنانه البيضاء وهو يسرع الخطى خلفها حريصاً جهده ألا يصدر عنه صوت، لكن عندما أوشك الوصول أحست به فالتفتت إلى الخلف برأسها لتتعثر وهي تشهق من رؤيته، باغتها بحركة مفاجئة غير متوقعة عندما مد يده بجرأة ليمسك خصرها قائلاً بابتسامة واسعة: «اسم الله يحميك يا غنمة»».

يقرأ الخوف في عينيها ولا يفهمه، رفضاً ونفوراً منها

نحوه، لكنه لا يفسره، سلة الخوص ثابتة فوق رأسها بكفها الأيمن بينما الأيسر يبعد يده التي تجرأت عليها وهي ترد عليه بحاجبين معقودين: «لا أحتاج لعونك، أنا لا أقع».

يضحك خلفان مجلجلاً بغرور فيبدو في زهوة شبابه ووسامته لكن الصبية لا تراه إلا بعين القبح والأذية، أضافت وهي تلف وشاحها حول جانب وجهها وتقول: «واسمي غنيمة لا غنمة يا سيدي خلفان».

احتدت عيناه بنظرة أخافتها وبنيته أفصحت، تراجعت غنيمة للخلف وعيناها تبحثان عن أي بشر يمر لينقذها من ابن الشيوخ الحسيس، صوته كان خافت النبرات خشن النيات قائلاً: «ونعم الغنيمة أنت يا ابنة عبد الواحد ».

كانت ترتجف اللحظة حتى سمعت بعض النسوة قادماً من بستان مجاور فنادت إحداهن دون تردد فيسارع (ابن الشيوخ) ليغادر عائدا إلى سيارته لكن في عينيه ألف وعد ووعيد، وعد الملاحقة التي ستستمر ووعيد الانتقام لما يفسره غروره أنه (تدلل أنثى)، تراقب غنيمة رحيله ولا تستطيع الشعور بالراحة، قلبها مقبوض، مقبوض بشكل لم يحصل لها من قبل.

***

يركض مروان دون توقف عيناه جاحظتان تبرقان بالجنون وأنفاسه لاهثة، حافي القدمين، مشعّث الشعر،

يقطع الطريق بين الأشجار ويقع مراراً لكنه لا يتوقف، يجب أن يصل إلى هناك، يجب أن يصل إلى دليلة، يجب أن ينقذ طفلهما

(انكسر الوعاء.. انكسر الوعاء) صوت دنانير كالعويل يطنّ في أذنيه، فيجن أكثر ويضرب بكفيه على رأسه وهو ما زال يركض دون توقف، نبضات قلبه بتسارع مجنون كالجنون الذي أصاب عقله، لا يشعر بشيء ولا عقله يحتمل حمل أكثر من فكرة واحدة، أن يجدهما، دليلة وطفلهما.

وما بين القرية والجبل وصل إلى الهدف المنشود، ينهت وهو يقترب مما تبقى من دار دنانير، الفجيعة تداهم مشاعره المُضللة المريضة، يقع جاثياً على ركبتيه وهو يحدق في آثار الدار المحروق ويتمتم: «انكسر الوعاء.. انكسر الوعاء».

ثم أخذ يزحف على ركبتيه حتى لمس الحائط المحروق بيد مرتجفة ليتمتم هذه المرة: «ذياب كسر الوعاء».

وما زال يرددها وعيناه تضجّان بالشر ووعيد الانتقام: «ذياب كسر الوعاء».

ثم يميل بوجهه ليتوسد الأرض بخده ويغمض عينيه مضيفاً بنبرة خافتة: «وبشِّر القاتل بالقتل، بشَّر القاتل بالقتل».

***

قريباً من دار عبد الملك الشيخ

خرج صفوان من بين أشجار النخيل إلى الدرب السالك فيتجه يميناً وبغيته دار (عبد الملك الشيخ) التي لم تعد تبعد إلا بضعة أمتار، قال للعجوز التي يحملها: «نوشك الوصول يا أماه».

بعصاها التي تمسكها في كفها الأيمن، تضرب على كتفه وتوبخه بالقول: «لا تتعجل هكذا.. أبطئ مسيرك».

يخفف صفوان من سرعة خطواته وهو يقول مؤتمراً لرغبتها: «على أمرك».

تؤرجح عجمية عصاها بفرح وهي تلف ذراعها الأيسر حول رقبة صفوان تكاد تخنقه وهو لا يشتكي قالت بعدها: «اعتلاء ظهرك أشبه باعتلاء سفينة الصحراء تشق عباب الأمواج الرملية، هل تعلم أن أبي كان آخر من فعلها معي؟ سبقه جدي ومن بعدهما لم يفعلها لأجلي أحد».

ثم أضافت بتنهيدة مُحايلة مشاكسة: «هل تعلم أيضاً؟ طلبتها يوماً من زوجي المجنون ويا ليتني لم أفعل ظل يصرخ في وجهي لساعات حتى أصاب أذنيّ بالصمم لثلاثة ليالٍ قال لي (أنا لست بعيرك يا امرأة لتركبيني فوق ظهري)».

حار صفوان في أمره وقد وصل إلى بوابة دار عبد الملك بالفعل، فالتفت برأسه إلى الخلف ينظر إليها ولا يعرف كيف يتصرف، تراخى الشغب وتوارت الشقاوة لتلتمع

في عيني عجمية بعض الشفقة لرهافة قلبه التي لا يراها أحد غيرها فتقول له: «لا تجزع هكذا ولا تضعف أمام رغبات عجوز مجنونة، لقد حصلت على كثير من رغباتي ولم أبخل على نفسي، فلن أمانع اليوم بالتنازل وبعض الزهد».

ثم ربتت بعصاها على كتفه وقالت: «أنزلني، لقد أخذت الكثير منك فكم أنت سخي النفس يا ابن سدرة، تعطي بلا حساب وأنت في أمس الحاجة للأخذ».

لم يرد على كلامها بينما ينحني على مهل حتى جثا على ركبة واحدة ليساعدها النزول بأمان، كان رجلاً لا يحسن الكلام، ولا يهتم للإفصاح عما يخالجه، تقرؤه عجمية، ليس الآن فقط، بل طوال الرحلة وهو يحملها على ظهره بطيب خاطر كانت تقرأ خطوطه، وقفت على قدميها محنية الظهر لكن عصاها قائمة ثابتة على الأرض، يعاود صفوان الوقوف وحالما نظر في عينيها كان قد تغير لونهما بنفس التوهج الذي سبق ورآه من قبل، ارتبك وهو يمعن النظر في زرقتهما التي تأججت كأنها نار تشتعل بما يفوق خيال البشر، لتنطق شفتاها بنبرة صوت كأنها عزف حزين لربابة **«لله درك يا صاحب العود، اشتد بك الجوّى، وبعض الجوّى لا نملك له شكوى، قلبك يقاسي وِحْدةً كالظمى، ولا سُقيا للقلوب إلا أن تعشق وتشقى».**

بهيئته الضخمة يقف عاجزاً كطفل أمام هيئتها النحيلة المحنية، مشدوهاً ومشدوداً بالنظر إلى عمق تلك الزرقة فيرتعد وهو يُخيل إليه رؤية عينيّ دلال في عمق زرقة

عيني عجمية، انقطع عما حوله ولقائه بدلال اليوم بعد فراق السنين، قد أوهنه، وكشف ستر قلبه وفضح مكمنه، كلماتها القاتلة أدمت روحه وعرّت جروحه **(قبر صفوان الذي عرفت في صدري ولا قبر آخر سيكون له)**.

تمتم بحشرجة وعيناه تنطقان الألم: «أمفضوح أنا هكذا؟».

رفعت عجمية عصاها عالياً وهو ترد بعينيها المشعتين: «رب الخلائق شاء أن يكشفها لبصيرة عبدته عجمية لكن..».

توقفت لحظة ثم حركت عصاها لتشير نحوه وتكمل: «فضيحتك لن تُدارى عن الناس أكثر يا ابن سدرة، ومحاولة سترها سيكون أكبر فضيحة وعد مكتوب، لكل امرئ محسوب، في أوان محجوب».

أخذ صدره يعلو ويهبط وهو يسألها دون وعيه أو سيطرته: «ماذا أفعل يا أماه؟ بالله عليك أخبريني».

أعادت عصاها لتثبتها على الأرض ثم قالت تؤنبه: «اذهب إلى أمك سدرة، عيب عليك أن تتركها تنتظر وهي تناديك منذ الأمس».

اتسعت عينا صفوان ذهولاً وهو يكاد يصدقها بل هو يصدقها بالفعل ثم تبدّد كل شيء وصوت فتاة ينادي بلهفة: «عمّة عجمية، الحمد لله يا رب، الحمد لله».

كانت الفتاة الخادمة تهرول وتعابير وجهها تشي بأنها

قضت أسوأ ساعة في حياتها، وصلت إليهما وهي تضيف بصوت يتقطع اضطراباً: «كيف وصلتِ إلى هنا دون أن.. أراك لقد كنتُ.. أقطع الطريق ذهاباً وإياباً.. طوال الساعة الماضية.. أيعقل ألا ألحك حتى؟ كيف فعلتها؟»

بدى على الفتاة الشحوب الشديد وهي تعيد ترديد كلماتها وتدور بنظراتها بين العمة عجمية والسماء، فتهز عجمية رأسها وتقول لصفوان الصامت: «انظر إلى هذه الجاهلة، تظنني كنت أطير في الهواء حتى وصلت هنا».

حملقت الخادمة عندها في صفوان كأنها تراه للمرة الأولى رمقته بنظرة ارتياب وخوف وربما بعض النفور من شكله وهيئته، ثم سألت بخفوت وهي تقترب من العمة عجمية تمسك ذراعها كأنها تحامى فيها: «من هذا الرجل المخيف يا عمة؟».

نفضت العمة عجمية يد الخادمة عنها وزجرتها بالقول « قبّحك الله يا فتاة امحي نظرة الخوف والارتياب من عينيك يا جاهلة، عين الغباء لا ترى أبعد من القشرة».

عندها فقط نطق صفوان قائلاً بهدوء: «لا تبالي يا أماه، فأنا لا أبالي».

هزّت عجمية رأسها تؤيد ما قاله كأنها كانت تعرفه أو للتو انكشفت لها كل أسراره، تنظر إليه وتأخذها بصيرتها إلى عمق طفولته، لم يكن وحيداً، فالغازلة كانت دوماً قرينة روحه، تراها فيه، تملك منه ما لا يملكه من نفسه، تراها

في عمق وجدانه، وتسري كالدم القاني في عروق النبض من جسده، إنها ليست العشق فحسب، إنها فضيحته وستره، قالت عجمية وهي تمعن النظر: «**أجل أنت لا تبالي تلك الغازلة منذ أول العهد كفّتْ ووفّتْ، ملأتك يقيناً وللحاقدين تصدّتْ**».

ما زالت خضرة عينيه تحكيان الماضي عندما هتفت عجمية فجأة بعبوس: «اذهب إلى سدرة لقد أتعبتني بكثرة النداء، اذهب إليها ليلاً فالليلة ستكون صافية، ولا تنس أن تشعل لها الشمعة التي تؤنسها، واقرأ لها سورة يس تنير قبرها».

سأل وعيناه تتسعان بعجب: «كيف عرفتِ أنها تحب إشعال الشموع في الليل؟ هل كنت تعرفين أمي؟»

ردت بغموض وتوهج عينيها ينطفئ: «**إنها مثلك، تستر حنينها بالظلمة ولا تبوح، تشعل الشموع لفراق الأحبة وبصمت تنوح**».

الخادمة تنقل نظراتها بينهما كأنهما مجنونان يتكلمان بلغة عجيبة تمسك بذراع عجمية مجدداً لكن بقوة أكبر حتى غرزت أصابعها فيها دون وعيها من شدة التوتر والاضطراب، أما صفوان فقال في شجن: «كانت تحن لأهلها، دوماً ظلت تحن وتشتاق وتناجيهم على ضوء الشموع».

رفعت عجمية نظراتها للسماء حيث تحلق الطيور ثم قالت:

«كلنا في النهاية أموات، أموات ينادون أموات، يسلمون الرايات، عندما يحين الميقات».

أخذت الخادمة تترنح في هلع وكأن ساعتها ستحين اللحظة، أخذت تتوسل بالعمة عجمية بصوت مرتجف: «بالله عليك يا عمة دعينا من حديث الأموات هذا ولِندخل الدار».

التفتت إليها عجمية وقالت بامتعاض: «هذه الجاهلة سيغمى عليها وهي تظن أن رايتها قد حان تسلميها».

ثم هتفت بها لتعيد إليها عقلها: «يا قاصرة العقل والقلب، ادخلي الدار وحضري لي الحمام، خمس دقائق وتجدينني فوق رأسك أضربك بعصاي هذه إن لم أجد ما يعجبني».

أخذت الخادمة تتحرك يميناً وشمالاً وكأن الطريق إلى بوابة دار مخدوميها قد تاه منها ثم استعادت تركيزها لتصل البوابة وتدخل عبرها راضخة لأمر العجوز، قال صفوان عندها وعيناه ما زالتا تتابعان الطيور المحلقة: «وأنا أيضا سأرحل، كان يوماً غريباً، ولساني لا يطاوعني لأصفه، وأنا لم أعتد الوصف حتى لنفسي».

توقف قليلاً ثم أضاف: «كانت هي فقط من تعرف كل الأوصاف قبل أن أنطقها».

ثم حنى رأسه ورفع كفه في تحية وهو يضيف: «أستودعك الله يا أماه».

تحرك مبتعداً وعجمية تراقب رحيله، لم تر (قرينة روح) **كالغازلة مُستعمِرةً مُخيفة، عدوة لدودة إن شاءت، تغزل للعشق جيوشاً وبنيّة الانتقام باحث.**

تمتمت عجمية: «ولدك يا سدرة يحتاج الدعاء».

ثم تبسمت والتمعت عيناها تحدث نفسها هذه المرة: «شقية أنت يا عجمية كان بإمكانك أن تخبريه أنكِ تذكرتِ أمه».

تذكرتها عجمية عندما التقت بها صدفة ولمرة واحدة قبل سنوات عديدة عند المقبرة القديمة، تذكرت حديثهما العفوي المطوّل بينما كانت سدرة تشعل شموع حنينها للأهل، امرأة غريبة عن قرية الشيوخ وقد ترملت حديثاً وتستعد للزواج من أخي زوجها وعم ولدها، (الشيخ محمد الضاري)، كما تجري الأعراف في العشائر، أمالت عجمية رأسها جانباً، سرحت نظراتها الذكية بتفكر وتدبر لتهمس: «رحم الله روحك الطيبة يا سدرة، أورثتِ ولدك هيئتك وطيبتك وأودعته مكنون الحنين للأهل والأحباب، فعاد من غربته يحمل راية السلم حتى حلّ السلام وطاب، كان الله في عونه فحربه ما زالت قائمة دائرة، ليته فقط لا يغفل.. ليته لا ينسى وصيتي ولا يغفل».

تحركت نحو بوابة الدار وهي تستند على عصاها لتأخذها أفكارها هذه المرة إلى ما يشغلها منذ مدة، تمتم بما يشبه الدعاء: **«يا رب الطرائق والأسرار اكشف لي طريقة**

أصل بها إلى قبر المظلومة، يا رب الخلائق والأقدار أمهلني في عمري حتى أنسج بيدي كفن الستر للمحرومة».

***

قرابة الغروب.. العاصمة

«أين أنت يا أسدي؟».

بتعابيره الساكنة التي لا تعبر عن شيء كان ضرغام يستمع إلى نفس التمتمة تكررها سُلافة مع نفسها بين الفينة والأخرى، كلما ذهب بها إلى بيت أحد الأقارب أو رفاق ولدها لتبحث عنه ولا تجده، فتعود إلى السيارة كتفاها متهدلان ورأسها منحنٍ للأسفل، ومن بيت إلى بيت يتهدل كتفاها أكثر، وينحني رأسها بيأس أكبر، كأنها توشك على الانهيار والوقوع أرضاً منكفأةً على وجهها، لم يعد هناك بيت آخر يأخذها إليه كي تسأل وتبحث، دون أن تطلب كان يعود بها ناحية الحي حيث بيتها القديم، البيت الذي سكنته مع زوجها وولدها لسنوات قبل أن يمتحنها الله بأصعب الامتحانات، لتنهدم أسس ذلك الدار ويتناثر بنيانه الهش كالريش.

يضيّق ضرغام عينيه قليلاً وأضواء العاصمة المبهرجة تزعجه، **ليس فيها حنين ولا سكون ظلمة يستر الأنين، برّاقة مشعّة تخطف الأبصار، فتحجب النيّات وتشتت الأفكار.**

دخل الحي وبين دروبه سلك طريقه، وقد سلكه قبلها معها عندما وصلا العاصمة قبل ساعات، الظلام خيّم ولم

يضئه في الحي الهادئ إلا بعض أعمدة الأنوار المترامية، أطفأ المحرك قريباً من بوابة الدار المقصودة والتزم الصمت وقد ارتاحت نفسه لهذه الهدوء وخفوت الإنارة، فقد تباعدت الأضاءات العالية للشوارع الرئيسية للعاصمة، عيناه استرقتا النظر إليها عبر المرآة الأمامية فقط كي يطمئن عليها؛ لكن الاطمئنان تجاوز حدوده وعيناه تخونان القصد والنية، أمعن النظر في التفاصيل دون أن يدري أنه يفعل، كانت تميل برأسها جانباً وقد سقط عن رأسها الوشاح الخفيف فظهر شعرها الأشقر مشعثاً غير مرتب، عيناها الزرقاوان مفتوحتان على وسعهما كأنهما تقاومان اليأس وتأبيان الاستسلام والرضوخ للتعب والضعف وهما تحدقان باتجاه زجاج النافذة جوارها، ابتلع ريقه، أفكاره أخذته رغماً عنه لما حصل صباح اليوم، عندما دخل عليها دارها في القرية وهي تصرخ ووجد الخسيس منقوص الرجولة يضربها، شعر ضرغام لحظتها وكأن.. مزنة تناديه مستغيثة لم يراوده هذا الشعور نحو بشر قط إلا إياها، بعدها لم يكن مدركاً لما يفعله وأوشك أن يذبح الرجل حتى أتت هي ومدت له يد النجاة بصوتها، تدعوه للعقل والتعقل، وكأنها شعرت بخروج إدراكه عن نطاق السيطرة فهادنته وترفقت به وهي تعيد إليه سيطرته، فجأة حركت سُلافة وجهها لتنظر إليه عبر المرأة ثم قالت بحشرجة ضعيفة تطلب طمأنينة ضمنية منه: «أنا أعلم أنه بخير، لقد ربّيته منذ طفولته ليكون رجلاً يعتمد على نفسه، أجل هو بخير أليس كذلك يا ضرغام؟».

كانت المرة الأولى التي توجه له حواراً منذ دخلا العاصمة، بادلها النظر عبر المرآة فيرى في زرقتهما (خوف أُم) ليقول مُلبياً طلبها المتواري بالضعف: «بإذن الله بألف خير إنه ليس بالصغير يا أم الليث، فتى في الثالثة عشرة كبير كفاية فلا تخافي عليه».

تهز رأسها وعيناها تدمعان وهما تحدقان النظر في عينيه، لم تكن ضعيفة، أبداً ليست بالمرأة الضعيفة، فالضعف في عرف أمثالها من النساء محذوف، لكن ولدها هو نقطة ضعفها التي تجاهر بها في فخر، ويا لها من أم فخور ويا لها من.. امرأة.

ظل هكذا ينظر في عينيها حتى تنبهت مروءته وحكمت بغض البصر، فأرخى أجفانه مطرقاً والحياء قد انتصر.

***

بعد نصف ساعة ترجل ثامر من سيارته بوجه متجهم وهو يتمتم: «أين ذهبتَ يا ليث؟».

«ثامر.. ثامر».

التفت ثامر برأسه ويده ما زالت على حافة باب سيارته لم يغلقها بعد، بينما يرى سُلافة تدخل عبر بوابة الدار إلى الباحة الأمامية الطويلة، تتجه نحوه بلهفة وهي تناديه باسمه، لكنها لم تكن بمفردها، ذاك البدوي الغريب كان في ظهرها، هيئته المظلمة دون ملامح كالطود العظيم خلفها،

لا، لم يكن خلفها فحسب، بل يحاوطها من كل جانب، فيمنحها هالة من الحماية عصيّة الاختراق، كان يسير خلفها كظل لها وفي الوقت ذاته وكأنه يسبق خطواتها بخطوات، يتقدمها دون أن يتقدمها، شيطان تلاعب برأسه ليطرح السؤال (ما الذي بينها وبين هذا الرجل؟).

أغلق ثامر باب السيارة بعنف دون أن يرد على ندائها، الحقد شعّ من قلبه والجبن يلجم ذاك الحقد من الظهور علناً، ابتلع ريقه دون شعوره وهو يستدير بجسده يواجههما مدّعياً الصلابة، وليت لديه القدرة ليدّعي أمام نفسه أيضاً أنه صلب هكذا بل يتمادى بالتمني، لو كان لديه القدرة بالادعاء أن ما حصل صباح اليوم في قرية الشيوخ اللعينة كان محظ كابوس لا يمت للواقع بصلة، شعور الخزي والعار أغرقه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، تذكر عودته البائسة من قرية الشيوخ إلى العاصمة وهو يكاد لا يصدق ما جرى له وحال وصوله إلى داره، خلع كل ملابسه ورماهم إلى القمامة، ثم دخل الحمام ليستحم وهو يضرب بكفه على الجدار اللامع البارد والمياه تنهمر فوق رأسه تغسل جسده، لكنها لا تغسل عاره وفضيحته.

عند منتصف الباحة رأى البدوي يتوقف ثم ينتحي جانباً ليُكتّف ذراعيه فوق صدره ويستند بظهره إلى الحائط الفاصل عن الجيران تاركاً لسلافة الحرية في الاقتراب بمفردها دون أن يفلتها ظله الحامي، كيف يفعلها؟ كيف؟ من هذا الرجل؟!

«هل وجدْته يا ثامر؟ هل علمت شيئا؟ أخبرني بالله عليك».

عينا ثامر تحولتا إلى وجه سُلافة الشاحب وقد بدت هيئتها في حالة يرثى لها ثم ردّ على سؤالها ببرود: «لا، لم أجده».

قلق سُلافة الرهيب على ولدها جعلها لا تركز في حالة ثامر ونظراته المرتابة الحاقدة، غريزة أمومتها سيطرت لتوجه كل تركيزها وطاقتها نحو إيجاد فلذة كبدها، قالت له بنبرة جادة رابطة الجأش وقد بدت كأيّ أم تحاول منع نوبة هلع بالتصرف بحكمة وتعقل: «إذن يجب أن نبلغ الشرطة، لقد مضى يوم كامل على اختفائه».

أفلت حقده فيقول إمعاناً في أذيتها: «أنا وحدي المعني بأمر ليث، أنت لا حقوق لك لتبلغي الشرطة».

عينا ثامر رغماً عنه استرقتا النظر نحو البدوي، لكنه اغتاظ وهو يجد ملامح الرجل مُحتجَبة بالظلمة وما زال على نفس الوقفة، مستندا بظهره للحائط، تنبه لرد سُلافة عليه وهي تقول بصبر وتحكم بالأعصاب: «لن أدخل معك في تفاصيل قانونية كهذه، المهم هو أن نجد ولدي، بلّغهم أنت وليبحثوا عنه».

اغتاظ أكثر فرد بتعنت وكِبر: «لن أفعل».

عقدت سُلافة حاجبيها وهي تتساءل بحيرة حقيقية: «ماذا تقصد أنك لن تفعل؟».

وضع كفيه في جيبي سرواله بينما شمخ بذقنه ليقول بترفع عليها: «إنه فقط غاضب مني، وسيعود من نفسه، وكما قلت لكِ قبل لحظات، ليث لم يعد من شأنك».

بدت سُلافة في حالة دهشة أشد وعقلها لا يسعفها لتفهم ما يجري مع (مطلقها)، فتتساءل مجدداً لكن ببعض الحدة هذه المرة: «ثامر ماذا جرى لك لماذا لا تريد طلب المساعدة من الشرطة؟ قد يكون تعرض لمكروه لا سمح الله».

تقدح عيناه بالحقد والاتهام وهو يميل قليلاً برأسه ناحيتها قائلا: «تعرض لمكروه؟ هذا ما تريدينه أليس كذلك؟ تريدين إظهاري كـ(أب فاشل)، تريدين رفع قضية جديدة ضدي بدلائل وقرائين مسجلة قانونياً في محاضر الشرطة، أنا لن أنوّلك تلك الفرصة أبداً».

اتسعت عينا سُلافة للحظات كأنها لا تصدق ما تسمعه، وعندما استوعبته أخيراً هتفت بثامر في انفجار: «أي أدلة وأي قضية؟ ولدنا غائب ولا نعرف أين هو وأنت تقول لي (انتهز الفرصة)؟ هل كل شيء يجب أن يدور حولك؟ أنا لا أصدق نرجسيتك لا أصدق حبك لذاتك، بل لا أصدق إلى أي حد أنت تفتقر للنضوج ولا تعرف معنى تحمل المسؤولية كأب».

رفع سبابته في وجهها وهو يرد عليها: «الزمي حدودك سلافة، ولا تظني أن من أحضرتِه معك سيخيفني».

تلقائيا عينا ثامر انتقلتا إلى الرجل (المظلم)، ذاك الواقف بصمت بليغ على مقربة منهما، بينما يضيف بتهديد صريح وهو يوجه الكلام إليه مباشرة: «أنت في داري وسط العاصمة وباتصال واحد مني ستحضر عشر سيارات شرطة، فلسنا في قرية متخلفة يحكمها عصر الجاهلية».

حتى اللحظة لم يبدِ البدوي أي ردة فعل فشعر ثامر وكأنه طفل صغير، حاول طمأنة نفسه بعبارات رنّانة تبدو جوفاء للغاية أمام ذاك الرجل، تدخلت سُلافة لتلتفت إلى البدوي وتكلمه باسمه في نبرة تبدو حميمية في أذن ثامر كأنها تعرفه عن قرب شديد: «عفواً منك ضرغام، امسحها بي أنا».

كان ثامر يغلي الآن لسماع اسم البدوي من فمها بتلك النبرة لم يكن يغار عليها، بل يشعر فقط بالغضب لأجل نفسه دون أن يستطيع تحديد السبب بوضوح، أما سُلافة فلم تنتظر رداً من (ضرغام) عن اعتذارها نيابة عن ثامر، بل عادت لوالد ابنها لتقول له بكره واحتقار واضحين: «إذن لأجل حماية نفسك تستدعي عشر سيارات شرطة باتصال واحد؛ لكن ولدك غائب منذ يوم كامل فأنت لا تهتم».

وكأن (أبوته) تثاءبت مستيقظة من نومها العميق لتنغزه بشعور الذنب لعله يفيق، فيتجنب ثامر النظر مباشرة إلى سُلافة وهو يرد عليها بنزق: «قلت لك إنه غاضب فحسب، كان يمر بضغوط كثيرة في السنوات الثلاث الماضية».

هتفت سُلافة بانفعال: «أجل ثلاث سنوات دمّرت فيها طفولته، هل ترى إلى أين أوصلته؟ كله بسببك أنت، أنت جعلته يعاني لأنك حقير ونذل، أدخلت في رأسه أن أمه امرأة بلا شرف وبلا أخلاق».

(نرجسيته) غلبت (أبوته) ليرد على اتهاماتها باتهامات مماثلة، حتى لو كانت غير منطقية: «بل السبب أنت لو أغلقت فمك قبل سنوات ولم تحاولي فضحي لكنّا استمرينا كزوجين ووالدين حقيقين له».

تهز سُلافة رأسها مذهولة وهي تقول: «لا أصدق أتبرر لنفسك وتحمّلني مسؤولية قذارتك مع بيداء؟ ماذا كنت تنتظر مني وأنا أراكما معاً نصف عاريين في غرفتك الخاصة وسط المستشفى هل كان يجب أن أهرول لأحضر لكما بعض الأغطية والشراشف من أسرة المرضى؟».

لكن ثامر يمعن في منطقه اللامنطقي هادراً بكل وقاحة وصلف « لو سكتِ لما حصل كل هذا، لكن كيف تسكتين؟ غيرة المرأة السخيفة تغلبت عليك «

أفلت كل غضب سُلافة فتبرق عيناها وهي تصرخ فيه بكل ما يعتمل داخلها: «غيرة المرأة؟ وأين غيرة الرجل عندما تتهم زوجتك وأم ولدك بالفجور وأنها تلاطف وتتقارب مع الأطباء والممرضين؟ استغليت طبيعتي المنفتحة بشكل تلقائي مع الناس، استغليت عفويتي وحبي للمرح والفكاهة مع الجميع، اشتريت ذمم من يعملون في

المستشفى، تارة بالترهيب وأنت تهددهم بفقد وظائفهم، وتارة بالترغيب وأنت تعدهم بالعلاوات والترقيات، وتارة ثالثة استخدمت غيرة الممرضات مني، اللواتي كنت أظنهن صديقاتي وكأخوات لي، فطعنتني بهن أكثر من الجميع، جعلت الجميع في المستشفى يشهدون ضدي كي تكسب حضانة ولدي، لا حباً فيه ولا تحملاً لمسؤوليته، إنما قهراً لي أنا وانتقاماً مني لأني فضحتك».

فتح فمه كي يرد لكنها سبقت وأضافت وهي تهدر غضباً وتشع قهراً وكمداً: «وأين غيرة الأب لديك وأنت تتلاعب برأس طفل في العاشرة تقنعه أن أمه فاجرة وسيئة السمعة والصيت عرفتك معدوم الضمير لكن هل عدمت قلبك ايضا يا ثامر لتفعل به هذا؟»،

أخذ يمرر أصابعه في شعره ببعض الاضطراب وهو يدافع عن نفسه: «أنت من خطفته، أنت جعلتني أفعل هذا».

ردت وهي تضرب على صدرها بكفها: «أنا أمه وأحق الناس به، هل كنت تريدني أن أتركه لك؟».

ينظر إليها في عجز يثير غضبه أكثر، سُلافة تلك الممرضة التي سرقت اهتمامه منذ سنوات وجعلته يلاحقها لينالها ولم يستطع نيلها إلا بالزواج، لكن الأمر أبعد من مجرد امرأة اعجبته، لقد كان فيها شيء يشده إليها ويجعله يريدها بقوة، لم يكن حباً كان رغبة بامتلاك روحها، وبعد كل هذه السنوات يشعر أنه لم يفعل، زاد حقده وقد اختلط

الماضي بالحاضر، لتدحرج كرة الحقد الثلجية وتتضخم أكثر وأكثر بينما يرد عليها وعيناه تشعان بحقده: «لا حقوق لك بأمر من المحكمة، وخسرتِ حتى حق رؤيته بوجودي لأنك جرؤتِ على اختطافه، أسديت لي معروفاً في الواقع».

ظن أنه استطاع إيذاءها وقد شحبت بشرتها أكثر وسكنت تعابيرها كأن روحها فارقتها، وللحظات فقط أرضاه هذا الإحساس لكنه لم يدم طويلاً عندما رفعت كفها تشير للبدوي (ضرغام) فيتذكر ثامر وجوده لتقول بنبرة لا يجد لها وصفاً أو تعريفاً: «هل تعرف من هذا يا ثامر؟ إنه مجرد رجل غريب لا يعرف عني شيئاً ولا يهتم أن يعرف، السبب الوحيد لوجوده معي اللحظة أنه صاحب نخوة، هو وشيخ عشيرة الأسدي لم يتركاني أواجه ضياع ولدي بمفردي، نخوة، أنت لا تفهمها ولا تعرفها، وكيف أتوقعها منك وأنت لم تملك نخوة حتى نحو من أنجبتك، فتركتها تموت في المستشفى بين ذراعي أنا وهي لا تكف عن طلب رؤيتك»».

ضربة غير متوقعة منها آلمته، رغم اعتقاد سُلافة أنه رجل (نرجسي) لا يحب إلا نفسه، لكن كلامها عن أمه لمس وتراً موجعاً فيه، ورغم هذا حاول مداراة الوجع بالإنكار والتبرير المرتبك: «كنت.. مشغولاً، دراسات عليا و..»».

قاطعته سُلافة بالقول الصريح الذي أخرسه: «هذه الكذبة كنت أصدقها فيما مضى، عندما وقعت في حبك كأي

فتاة بلهاء، لكن اليوم، لم تعد تجدي نفعاً، أمك ماتت ودموعها تسيل على خديها حسرة على ولدها الوحيد الذي نبذها في أيامها الأخيرة»».

تقبضت يدا ثامر إلى جانبيه بينما تضيف سُلافة بهدوء: «اتصل بالشرطة حالاً يا ثامر، وإلا قسماً بالله أن أفعلها حقاً وأذهب إليهم بنفسي لأبلغ رسمياً أنك أضعت الولد ولا تريد التبليغ، وأنك أتيت إلى داري في القرية حيث أعمل واعتديت عليّ بالضرب، والشاهد معي، شاهد لا تستطيع رشوته ولا سلطة لك عليه»».

عندها فقط تحرك البدوي من موضعه المظلم ليجذب عينيّ ثامر الذي أخذ ينظر نحوه بمهابة تلقائية؛ لكن البدوي لم يكن يبادله النظر، بل عيناه تتجهان إلى الناحية الأخرى، حيث البوابة المفتوحة نهاية الباحة الطويلة، وذاك الفتى الذي يقف عندها، تجمد ثامر وهو ينظر من بعيد إلى ولده، فكرة واحدة سيطرت عليه، إن ليث ربما سمع بعض الكلام الذي قيل هنا، انتابه جزع مُخزٍ وخوف كريه، يعيدانه مباشرة إلى طفولته عندما كان يرتكب الأخطاء وينكشف سرها فلا يفكر إلا بالهرب، لكن تعجز قدماه عن الحركة رعباً وضعفاً لم يهتم لسلافة التي هرولت ناحية ولدهما الذي عاد، لم يفكر أن يتأكد حتى من أن ليث سليم معافى، فجُلّ ما يشغله ويجمد حواسه اللحظة أن يعرف مدى ما سمعه ولده، فيكفي ما رآه بالأمس، يستكين ضرغام للاستناد إلى الحائط مرة أخرى،

وهذه المرة لم يعتمد على سمعه الحاد، بل عيناه تمعنان النظر في ذاك الفتى، يقيمه ويتفرس فيه ليعرف ماهيته وجوهره.

الإنارة الخافتة عند بوابة الدار كشفت وجه الفتى الشبيه بوجه أمه، وكشفت أيضاً طاقة الغضب المهول والإحباط القاتل اللذين يشعان من جسده، نفور واحتياج، كلاهما في الوقت ذاته انطلقا من الفتى بضراوة بينما أمه تقترب منه بلهفة، الصبي يتعذب يريدها ويحتاجها كأم وينفر منها كامرأة مشوهة ارتبط مصيره بها، أرخى ضرغام أجفانه وترك لسمعه قراءة نفوس البشر من حوله، كل نبرة صوت تكشف شيئاً من دخيلة النفوس والمخبئ من المشاعر، كل تغيير تعزفه الأوتار في الحنجرة تخبر المستمع بأحوال المتكلمين.

بعفوية أم قلبها ملهوف على ولدها حاولت سُلافة احتضانه لكن ليث دفعها بخشونة وهو يصرخ بها: «ماذا تفعلين هنا؟»

ثم تحرك ليتجاوزها وخطواته تشعل ارضية الباحة الطويلة وهو يضيف هادراً بغضب: «عودي لحياتك ودعيني لشأني».

يمر بضرغام فيمنحه نظرة عابرة ثم يكمل طريقه حتى يصل والده الذي يقف آخر الباحة جوار سيارته، ليقف بمواجهته وعيناه في عينيه تقولان الكثير قبل أن يقولها لسانه: «ليتني لم أولد.. ليتني لست من ظهرك ولا من

رحمها».

حاولت سُلافة أن تتجلد ولا تنهار بالبكاء بينما تلحق بولدها لتقف خلفه وتحاول تهدئته: «بُنيّ.. فقط دعنا نتكلم، هناك أمور كثيرة تحتاج للتوضيح».

التفت إليها وصرخ فيها وهو يدفعها دون وعيه للمرة الثانية: «لا تلمسيني لا أطيق لمستك».

أنفاس سُلافة تختنق في صدرها بينما ليث ينقل نظراته باشمئزاز بين والديه ويقول لهما معاً: «وفّرا على نفسيكما أي قصص مُختلقة فقد شبعت من الأكاذيب لا أحتاج لتوضيح أي منكما لأني لم أعد أصدق أيّاً منكما، لم أعد أريدكما».

قال آخر جملة والكلمات من فمه تتقاطر مرارة وألماً، كان كثير جدا على فتى مثله أن يحمل كل هذا العذاب، فقدت سُلافة قدرتها على الهدوء لتصرخ في مُطلقها ثامر: «لماذا تسكت؟ ماذا فعلت به ليكون هكذا؟ أخبره بأي شيء يخفف عنه، لا تقف كالصنم هكذا».

كان ثامر قد ارتاح قليلاً أن ولده لم يسمع الحوار الذي كان دائراً قبل قليل؛ لكنه في مأزق الآن ليواجه ليث أمام سُلافة تحديداً، حاول ثامر أن يبرّر ونبرة صوته تفضح لا تستر حتى وهي تتوارى بالخفوت: «ليث ولدي، ما رأيته كان غلطة، أنت ما زلت صغيرا وأنا.. رجل».

رفع ليث كفيه ليغلق أذنيه في حركة عنيفة ثائرة:

«كفى.. كفى».

ثم أخذ يصرخ وهو يرشقهما بنظرات قاتلة لأي أم وأب: «أنا أشعر بالقرف منكما معاً، كلاكما عار عليّ».

حاولت سُلافة أن تمسكه وهي تترجاه بحشرجة: «ليث، اسمعني فقط حبيبي».

لكنه أخذ يدفعها بهستيرية وهو يصرخ بثورة: «ابتعدي عني.. لا أطيقك ولا أطيقه ابتعدا كلاكما عني.. أنا لن أبقى مع أيٍّ منكما.. كلاكما مزيفان سأغادر بعيداً ولا أريد رؤيتكما لآخر حياتي».

عندها أمسكه ثامر من كتفيه بالقوة ليصرخ به: «ماذا تعني أنك ستغادر؟ اهدأ وأفهمني معنى كلامك هذا».

نظر ليث في عيني أبيه وزرقة عينيه الشبيهة بزرقة عيني أمه تشتعلان برغبة الإيذاء: «سأتركك.. سأترك بيتك.. سأذهب منذ الليلة لأعيش مع الجدة نوال».

تمتمت سُلافة ببعض الصدمة: «خالتي.. نوال؟».

التفت إليها بقوة ليحذرها بالقول: «ولا أريد رؤيتك هناك، لا تتصلي ولا تحاولي القدوم، أقسم بالله إن فعلتها سأهرب ولن تجدوني أبدا».

ثم تراخى صوته وقد بدا منهكاً مستنزفاً يحمل على كتفيه الفتيين الكثير قائلا: «دعوني فقط أحاول نسيان من أنا ولمن أنتمي.. دعوني أنسى كل هذه القذارة لعلي أستطيع

النسيان»».

ابتعد خطوتين عنهما والجرح في زرقة عينيه عظيم بينما يقول أخيرا بقرار لا مراجعة فيه: «سأجمع كل أغراضي وأتصل بنرمين كي تأتي وتأخذني»».

راقبت سُلافة دخول ولدها وهي تقف مكانها متسمرة بالعجز عن إنقاذه بنفسها، كان أبشع ما يمكن لأي أم أن تختبره، العجز عن حماية ولدها من الألم، قالت أخيراً وعيناها ما زالتا تنظران في الاتجاه الذي غاب فيه ولدها: «رآك معها.. أليس كذلك؟ رآك كما رأيتك أنا في المستشفى»».

لم يرد ثامر فالتفتت إليه لتقرأ تأكيد الجواب دون حاجة كي ينطقه، فشدت شفتيها باحتقار قبل أن تضيف: «أين رآك؟ هنا؟ في البيت الذي عشنا فيه؟ على سرير جمعك بأمه؟»».

حرّك ثامر نظراته بعيداً وهو يتأفف بقوة، فتتقدم نحوه سُلافة تهاجمه دون شعورها وهي تمسكه من مقدمة قميصه لتهتف به: «كيف جرؤت على فعلها ألم تفكر بوجود ولدك المراهق؟ أوصلت إلى الدرك الأسفل من الوضاعة حتى لم تعد تبالي؟»».

رد مبرراً وهو غارق بالخزي والضيق: «كان بصحبة أصدقائه.. عاد.. مبكرا»».

جحظت عينا سُلافة وهي تكاد لا تصدق أنه قادر على

التبرير بهذا الشكل لتقول له وقد اشتعل وجعها هي: «عاد مبكراً أي رجل قذر أنت؟ ألم يكفِك ما فعلته به بالسابق؟ ألم يكفك أنك جنيت عليه يوم شوّهت سمعة أمه فشوهته هو من الداخل، وقد تناسيت أني جزء مهم منه، حمّلته عارا وأنت هو عاره».

ثارت ثائرته وتغلبت نرجسيته ليرد عليها بخسة: «يكفي.. غادري أنت وهذا الرجل البدوي الذي تصاحبين و...».

حركة تأهب مُهددة من ضرغام جعلت ثامر يخرس عن باقي الكلام ويبتلعه في جوفه بينما سُلافة لاهية عن جبن مطلقها لتزيح أصابعها المشدودة عن مقدمة قميصه وتقول بخفوت كأنها تكلم نفسها وتعترف بخطيئتها في الاختيار: «لا فائدة غلطة العمر أنت يا ثامر.. وسأظل حتى آخر العمر أدفع الثمن، لأني كنت بنتاً ساذجة اختارت منقوص رجولة مثلك كي تنجب منه طفلا رائعاً كليث، طفل مثله لا يستحق كل هذه المعاناة التي سترافقه كحمل ثقيل طيلة حياته».

ابتعدت أكثر وما زالت صامدة لا تبكي، بل تضيف لتتحمل مسؤوليتها بشجاعة: «ذنب ليث برقبتي أنا.. أنا سبب ألمه وعذاباته.. أنا سبب ابتلائه بأب مثلك.. كان عليَّ أن أستمع للعقل قبل أن أستجيب لنداء قلب غرٍّ».

استدارت بشموخ لتواجه عيني ضرغام، رأت في ظلمة تلكما العينين الكثير مما لا يسعها قراءته كله لكن كان

كافياً ليسندها في لحظة عصيبة من تلك اللحظات الأشد قسوة في الحياة، خطت نحوه كأنها تبحث عن عكاز يمنع وقوعها فتهمس بحشرجة: «أعدني للقرية يا ضرغام، لقد تأخر الوقت.. تأخر كثيراً».

***

طوال طريق الخروج من العاصمة والعودة إلى قرية الشيوخ، ساد صمت بألف كلمة، لم تنطق سُلافة بحرف، لكن ضرغام كان يسمعها بوضوح يقرأ وجهها الشاحب وقد انطفأت فوانيس العيد المعلقة بجانبي خديها، وخفت حتى اختفى شعاع البهجة الطبيعية في زرقة عينيها، كبركة ماء عذبة أخفتها عنوة صخور تدحرجت من قمة جبل واعر فطمست معالمها عن الناظرين، أزاح ضرغام عينيه بعيدا عن المرآة الأمامية فلا يتطلع لانعكاس تلك (الزرقة المخفية) وقد ترقرقت ببصيص بهجة رغماً عن تلك الصخور المظلمة التي حجبتها، روحها في عينيها، وروحها لا تهدأ ولا تركن للأفول، يحدق في الطريق أمامه، ربما لم يعد يرى انعكاس صورة في المرآة لكنه شعر بخطر غريب والصورة تنعكس في ذاكرته، تلك الفوانيس المنيرة وشعاع التحدي المنعش الوهّاج من عينيها، كانا أول ما لفت انتباهه في لقائهما الأول في البستان.

باتا على مقربة من مشارف القرية وتكاثفت الظلمة أكثر عندما شعر بحركتها في الخلف، لينظر إليها مجددا في المرآة فيراها قد رفعت وشاحها فوق رأسها تغطي شعرها ثم

غطّت كل وجهها بطارف الوشاح كأنها تتستر لا يعلم لماذا شعر أنها تبحث عما يغطيها عن الأعين، قالت بصوت مخنوق: «عندما علمت أني أحمل ذكراً في أحشائي بحثت في أسماء الأسود».

لم يرد عليها، بل منحها (الستر) أكثر وهو يزيح عينيه بعيدا عنها ليوجههما بالنظر ناحية الطريق أمامه بينما تكمل هي بنفس النبرة: «هل تعلم أن اسم (ضرغام) كان أحد اختياراتي من أسماء الأسود؟ لكن ثامر رفضه وقال ثقيل على اللسان فاخترنا (ليث)».

ثم ارتجف صوتها المخنوق وهي تضيف: «ضاع مني ليثي يا ضرغام، لم يكسرني في حياتي شيء إلا ولدي».

سأل بهدوء وعيناه على الطريق: «سجلتِ حواركما أنت ومطلقك، أليس كذلك؟».

صمتت للحظات تخرسها الدهشة وهي تزيح الوشاح عن وجهها لترد على السؤال بسؤال: «كيف عرفت؟».

لم يرد على سؤالها ولم ينتظر تأكيداً لرد سؤاله، سألها بما هو أهم قائلا: «هل ستكشفين الحقيقة لولدك الليث؟».

عاد الاختناق ليطوق كلماتها اليائسة وهي ترد عليه: «بعد ما حصل الليلة هل تظن سأشوه روح ولدي بالمزيد؟».

ثم عادت لتخفي وجهها بالوشاح وهي تضيف بالنبرة نفسها: «سأدعه لخالتي نوال تجبر فيه ما لا أملك أنا

جبره».

ساد صمت بليغ وضرغام يفكر أنها محقة، لم يتوقع امرأة مثلها شغوفة بهذا الشكل بولدها الذي حرمت منه ظلماً وبهتاناً، لم يتوقع أن تتخلى عن فرصتها لإثبات براءة وطهارة ثوبها، أحس بعجزها، وعجزها جرح رجولته ونخوته، هو ذاته عاجز عن مساعدتها إلا ببعض الرفقة والسند والحماية، تقلصت أصابعها حول المقود وضحكات المزيونة تطارد يقظته، همساتها المتوسلة أن لا يتركها لأبيها، خمس عشرة سنة مرت، لا ضحكاتها تفارقه ولا (الهمسات الخائفة) من ذنبه ترحمه.

«أنا سأختنق، أريد البكاء ولا أستطيع.. محبوس في الداخل يأبى أن يطيع».

عفوياً رفع عينيه لينظر إلى سُلافة في المرآة وقد اخرجه طلبها من صمته، سألها بجدية واختصار: «كيف أساعدك؟».

كانت تغطي وجهها بالوشاح وتلقي برأسها على ظهر المقعد، جسدها كله ملقى على المقعد باستنزاف قوى جليّ واضح، ردت بحشرجة: «احكي لي حكاية حزينة، احكي لي عن ظلم بيّن، عن قلب وجعه ليس بهيّن».

مضت بضع لحظات وهو ينظر إليها عبر المرآة تتخفى هكذا، تحجب آلامها المبرحة، إنها امرأة غريبة تبحث عن متنفس لآلامها في آلام غيرها، عاود النظر إلى ظلمة

الطريق ولم يجد إلا صورة مزنة تتراءى أمامه، نطق لسانه بعفوية وكأنه يستمع مع سُلافة لحكاية طلبتها، لقد كانت المرة الأولى التي يستمع فيها لحكاية مزنة من فمه.

ثقلت نبرته القروية وبدت مظلمة غامضة وهو يبدأها: «قبل خمس عشرة سنة كانت هناك صبية مزيونة اسمها.. مزنة».

همست سُلافة: «اسمها حلو، مزنة، هل لها أخوة أو أخوات؟».

رد بخفوت يداري ارتجافه من شدة الألم: «لا، لم يكن لها أحد، لم يكن لها إلا أباها».

قالت سُلافة بتأثر كأنها تبحث عن وصال لها في حكاية (المزيونة): «أنا أيضا كنت يتيمة الأم، لا أخوة ولا أخوات، لكن أبي كان خير سند، وخالتي نوال عوضتني عن حنان الأم، حتى نرمين ابنتها كانت كأختي الصغرى».

أرخت أجفانها الساخنة بدموع أبت الجريان لتضيف بصوت ضعيف: «ماذا حصل للمزيونة؟ أكمل، لماذا توقفت».

قالتها وعقلها يستكين باستسلام بطيء فيلجأ لحيلة النوم هروباً من الوجع، أما ضرغام فيحدق بعينين جاحظتين أمامه يكاد يسمع بأذنيه صوت تمزق في جوفه حشاه يتقطع وهو يجالد ويتحمل ولا يعلم لماذا يطاوعها بسرد

الحكاية ويفعل هذا بنفسه، أكمل غافل عن سكونها، أكمل ولسانه يتعجل كي لا يوقفه صوت التمزق: «مزنة كانت في السادسة عشرة فقط، ربيع لم يعرف الصيف، أبوها طحنون، كان فلاحاً جشعاً، لم يصنها لم يصن المزيونة».

كان يلهث وهو يتذكر لقاءه الأخير بتلك الصبية التي عشق، ما ذنبها؟ ما ذنبها؟!

أطبق أجفانه بقوة يستحي من دمعة أرادت أن تغافله، صوت الحاج عبد القدوس يرن في أذنيه وهو يرتل الآية الكريمة (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)، لقد ظل الحاج عبد القدوس يقرأها كل ليلة في الجامع بعد ما حصل لمزنة، وكأنها يغضب لها بكتاب الله، وكأنه كان يدعو لصحوة، مزنة هي الموءودة المذبوحة، ذنبها أنها كانت أنثى فوأدها من أنجبها خزياً وعاراً، كم من ليلة طويلة قضاها ضرغام يفكر أنها ربما كانت ما زالت حية لم تلفظ أنفاسها بعد وأبوها يهيل عليها التراب دفناً لجسدها الفتيّ، النقيّ، المُغتَصَب.

أجفل ضرغام.. أجفل بقوة في الواقع على صوت شخير سُلافة المفاجئ في المقعد الخلفي السيطرة على المقود أفلتت منه للحظات ثم تماسك واستعاده، حالته كانت غريبة، يجد نفسه يبتسم في لحظة، إنه يشعر بفمه مبتسماً ولا يحتاج لرؤيته في المرآة، يعلو شخيرها فتتسع الابتسامات ويتغضن ما تحت عينيه ولا يريد حتى التفكير لماذا هو يبتسم كلما سمع صوت الشخير منها.

***

أوقف السيارة على بعد بضعة أمتار عن الدار، الظلمة تفرض مزيداً من الحرمة لمكان لا يقطنه إلا النساء، عيناه لمحتا النور من إحدى الغرف فشعر ضرغام أن عليه الإسراع، لا يصح إطالة وجوده هنا في هذه الساعة، التفت إليها برأسه فرآها تغط بالنوم، وشاحها سقط عن شعرها الأشقر المشعث وانكشف وجهها ونحرها الأبيض وتلك الشامة السوداء تبرز أسفل عنقها، في الحال أزاح نظره عنها وهو يعتدل بجلسته على مقعد السائق ليناديها بترفق كي لا تجفل في نومها: «يا أم الليث، وصلنا حيث دارك».

أمهلها بعض الوقت وهو يستمع مُطرق النظرات إلى أصوات همهمتها بينما تنفض عن نفسها الغفوة، همست أخيراً بصوت ناعس: « كم الساعة؟».

رد باختصار: «قرابة الحادية عشرة».

شيء في داخله، بل شيئان يتنازعان في داخله أحدهما يتعجلها المغادرة، والآخر.. الآخر يريد أن.. قاطعت أفكاره ونزاع (الشيئين) وهي تقول بألفة: «ساقاي مخدرتان ماذا جرى لهما؟».

تلقائيا كان ضرغام يفتح بابه ليترجل من مقعده ثم يلتف حول السيارة رباعية الدفع إلى حيث تجلس سُلافة فيفتح لها الباب وهو يشجعها بالقول: «لا بأس عليك يا أم

الليث، إنه تعب الطريق فحسب، دلكيهما قليلاً ثم سمي باسم الله وانزلي على مهلك، وأنا هنا بعون الله أسندك إن احتجتِ للسند».

فعلت ما قال وضرغام ينتظر بصبر فتبدأ بتدليك ساقيها وهو يغض البصر عنها، السكون من حولهما يزيد من حرج وجوده هنا، لكن ليس بالإمكان فعل شيء آخر، وعندما همّت بالترجل، ابتعد قليلاً للخلف كي يمنحها مسافة أمان لتنزل، دون أن يبتعد أكثر خوفاً من فقدان توازنها لأي سبب، عندما ترجلت أخيراً ظن للحظة أنها بخير لكن في اللحظة التالية ساقاها خانتاها بالارتجاف فكانت هي السباقة لتستند إلى ذراعه الممدود ممسكا بالباب، أصابعها تضغط فوق كم جلبابه الطويل، يرفع نظره إلى وجهها فيراها مغمضة العينين كأنها تحاول السيطرة على دوار أو ربما على توازن جسدها، لم يقل كلمة لكنه عبس لرؤية شعرها الأشقر المكشوف وقد سقط الوشاح على كتفيها، فجأة سألت وهي تفتح عينيها ببطء: «ماذا فعل بها؟».

يعقد حاجبيه متسائلاً بحيرة: «من؟».

ردت بحشرجة: «المزيونة».

تراخى عبوسه واتسعت عيناه ببعض الدهشة فقد ظنها غفت ونسيت الحكاية، أضافت وهي ما زالت تستند على ذراعه: «لقد غفوت وأنت تحكي، لكن عقلي تشبّث يريد المعرفة».

رد بهدوء وعيناه تطوفان دون إرادته حول حدود بركتيّ عينيها: «أنت امرأة صعبة».

تهدج صوتها وهي تقول بخفوت: «أنا امرأة تريد البكاء فحسب، ساعدني».

شفتاها أخذتا ترتعشان وهي تلح لتعرف: «ماذا فعل طحنون بابنته المزيونة؟ أشعر أنه.. آذاها».

تحجّرت تعابير وجه ضرغام ومرت لحظات قبل أن ينطقها: «ذبحها».

شعر بالرعدة التي مرت بجسدها لتصل ذراعه، فيضيف بنفس الملامح المنحوتة: «ذبحها ودفنها في الصحراء الشاسعة، لم يضع حتى حجراً صغيراً ليُستدَل على قبرها كشاهد، ظلمها وهي حية ثم دفنها في رمال الظلم وهي.. ميتة».

أخيراً أخذت تتجمع الدموع في عينيها وهي تهمس: «رباه كيف استطاع؟ كيف لأب أن يذبح فلذة كبده؟ لماذا؟».

ما زال وجهه يحمل نفس التعابير، خيط من عجب يتخلل تلك التعابير المتحجرة على مهل، عجب من نفسه كيف يفصح وليس عجباً منها كيف تسأل، فقد اعتاد طباعها سريعاً وهي تجد طريقها لتفرض ألفة معها، امرأة صعبة، منحها ما أرادت قائلا: «اغتصبها رجل غريب عن القرية، رجل أراد شراءها من أبيها وعندما رفضت

الصفقة أخذها غصباً دون بيع أو شراء».

كانت تلهث، بل تشهق بأنفاسها وهي تهز رأسها فتتساقط أولى الدموع وهي تقول بصوت مخنوق: «لا أفهم تقول ذاك الخسيس (اغتصبها) فلماذا يقتلها أبوها؟ ألا يفترض أن يقتل الجاني وليس المجني عليها».

يحدق في دموعها التي تنسكب على الخدين فيجد فيها متنفساً له سبحان من يسبب الأسباب لتشاركه امرأة غريبة فجيعة الحزن على المزيونة، أبعد كل هذه السنوات يجد (مُعزية) في صيوان عزاء مزنة الذي لم يقام؟ قال وتنهيدة غريبة تسبق كلماته: «لأنها أنثى لأنها عاره، لأنها لم يكن لها أحد تلجأ إليه وتحتمي به، لأنها كانت..». توقف عندما انهارت سُلافة تماماً في نشيج بكاء مرير، تركها تبكي ما شاءت البكاء وهي تستند على ذراعه تطلب الدعم، تركها تبكي لأجل نفسها ولأجله هو، هو البدوي الذي اختلطت دموعه على معشوقته مع دماء مغتصبها، بكاها مرة واحدة ثم لملم باقي الدمع ليدفنه في قبر قلبه.

أخذت سُلافة تترنح بهذا البكاء الذي أفرغت فيه كل مشاعرها ثم نظرت في عيني ضرغام لتصارحه بحشرجة: «أشعر أني أقع مهزومة كهزيمة المزيونة وهي تتهاوى ذبحاً بيد أبيها دون ذنبٍ أو جريرة الظلم حين ينتصر يا ضرغام كذبح دون سكين، كاغتصاب للروح لا يقل عن اغتصاب الجسد».

عقد حاجبيه يشد أزرها بالقول: «لا هزيمة توقعك يا أم الليث، إن هو إلا ابتلاء، إن صبرتِ عليه رفعك، وامرأة مثلك خلقت للرفعة».

همست وكأنها تخبره بتشتت: «ولدي محق، أنا مزيفة كل ما أفعله بات مزيفاً حتى أخشى أني لن أعرف نفسي يوماً في المرآة».

رد بقوة: «عيناكِ حقيقيتان، وروحك دليلك، سيكبر الليث وتنزاح الغشاوة ليدرك صدق من أنجبته وطهر ثوبها».

شعّ امتنان رقيق من عينيها وهي تنظر إليه، دمعات مختلفة سالت على خديها تجلو دموع القهر وابتسامة أشرقت بأمل على شفتيها، يحدق فيها ضرغام وأمر مهول يحصل له، رعدت سماء مظلمة فوق أرض منسية مقفرة، اهتز خواؤها مع انهمار غيث العيون الزرق، إن هي إلا نبضة صدحت من حيث لا يدري لتصيب شاهد قبر بصعقة، اتسعت عينا ضرغام ثم نفرت روحه حين عصفت ريح حملت رائحة الخيانة تراجع للخلف يسحب ذراعه ووشاح مزنة المورد يرفرف ليحجب دموع سلافة، انطفأ كل شيء وعادت أرضه غير المأهولة لسكونها وظلامها الدامس، قال وهو يطرق للأرض: «ادخلي يا أم الليث، لا يصح بقاؤك خارج دارك حتى هذا الوقت».

لم تقل شيئاً، بل سارت بخطوات متعبة لكن صامدة

حتى وصلت باب الدار بمفردها لتلتفت إليه أخيراً تناديه: «ضرغام».

رد دون النظر إليه: «أؤمريني يا أم الليث».

قالت: «بلغ الشيخ عبد الهادي مني السلام، أخبره نعم الرجال هو، ونعم الرجال من يصاحب».

ابتلع ريقه لكنه لم يرد، بل رفع كفه فوق رأسه في حركة مألوفة لأهل القرية دلالة الامتنان، دخلت سُلافة تاركة ضرغام بمفرده، يعود بهدوء إلى سيارته، وفي ظلام الليل يجد بعض السكينة فيبحث في دفاتر النسيان عن ورقة بيضاء يكتب فيها عن تلك النبضة ويطويها.

***

مقبرة القرية.. في جنح الليل

أشعل الشمعة وفتح المصحف ثم أخذ يتلو بصوت خافت سورة يس، وحين انتهى أغلق المصحف وضمه إلى صدره قبل أن يضعه تحت عباءته فوق حجره، نظر إلى شاهد قبر أمه ويقرأ اسمها الغالي عليه (سدرة المنتهى)، يناجيها شاكياً يخجل من ذنب يحمله: «أتيتكِ أتستر بالظلمة علّها تستر ما يكاد يفلت من جنبات فؤادي ويبوح بها حشاي في غفلة من ثباتي».

ضوء الشمعة ينير اسم أمه وعيناه ثابتتان على ذاك الاسم، كأنه يبحث في حروفه عن حضنها الذي حرم منه باكراً،

صارحها أكثر ولطالما كان معها هكذا: «ولدك مفضوح يا سدرة، والغازلة لا ترحم غزلت بيدها خيط فضيحتي لتنسج منه رداء يعريني»».

هبّت ريح فسارع ليحاوط ضوء الشمعة بكفيه الضخمين فيمنع انطفاءه، أرخى أجفانه واشتد به الوجد هامساً بحشرجة: «**عشقها، لا بداية أذكرها ولا نهاية أصلها، عشقها، أهيم فيه كأني أهيم في صحراء، وعيناها كواحتيّ سراب لا ترويان الظمأ ولا تمنعان الرجاء**»».

يبتلع ريقه وهو يشعر بحريق يداهم حشاه فيسأل أمه وهو يرفع قبضته لصدره يضرب بها موضع خافقه: «ما العمل يا سدرة؟ أشيري عليّ ماذا أفعل في هذا الذي سكن الفؤاد وهو قاتلي»».

ما زال يكيل لخافقه الضربات ووجهه يتجهم وهو يعترف: «لست خسيسا أماه، وأمنع نفسي بشق النفس عنها، عن لمس طيفها في ذاكرتي، عن عشق بحور الحسن وقد كانت ملكي فباتت لغيري ماذا أفعل أماه؟ حاولت وكدت أجرؤ على الزواج بغيرها لكن فجأة..»».

توقف وكفاه تهبطان بعنف للأرض، تضربان الرمل هذه المرة فيثيره عاصفاً كعصف الهوى في روحه، يهدر وما هو فيه عظيم: «لست خسيساً أماه لكن كيف أمنع نفسي من التفكير إنها ستكون حرة من جديد؟ كيف أحبس الأمل وأمنع الاشتياق؟ كيف أخنق الهوى

ودلال الحسن هي الهوى لقلبي ولها عندي عهد وميثاق».

ذبحته ذكرى كلماتها اليوم فأخذ يكيل المزيد من الضربات للرمال وهو يتساءل بعنف: «ماذا تظن بي؟ ماذا أخبروها عني لتكرهني وتقتلني في قلبها؟ ماذا حصل بعدي ولا أحد يطلعني عليه؟».

كان ينهت عندما توقف أخيرا عن ضرب الرمال جوار قبر أمه، لكن عينيه لمحتا شيئاً يلمع على ضوء الشمعة قرب شاهد قبر أمه فمد يده عفوياً ليكتشف أنه ظرف رصاصة فارغ، هدأت عواصفه والأفكار تأخذه لأشهر قليلة مضت، ظرف الرصاصة جعله يتفكر بكل ما جرى في القرية منذ عودته على نحو جديد، لقد كان قبلها مشغولاً بالنزاع العشائري الدائر وما تبعه من أحداث، وبعدها، كلما حاول التفكير بما حصل قبل اثني عشرة سنة، توقفه أخلاقه التي رباه عليها عمه الشيخ محمد، لم يستطع التفكير بذياب ومروان إلا وهتف فؤاده باسم (دلال) فكان يقصي الحكاية كلها وقلبه متورط فيها؛ لكن اليوم مروان فقد عقله وخبر طلبها الطلاق انتشر، وجد نفسه يشرع الأبواب للماضي وكأنه تحرر، يفكر بما حصل.

أمسك الظرف بين أصابعه يقلبه وأفكاره تنساب دون قيود، بدأها بجابر الضاري، الأخ الوحيد لدلال، تترابط الأفكار في رأسه ويحلل، يبدو جلياً وبما لا يقبل الشك أن جابر لم يخبر أخته كيف تشاجر مع صفوان، وكيف أن صفوان أوقعه أرضا وأغمي عليه، بل إن جابر لم يخبر أحداً

ربما خجل من هزيمته ووقوعه، ما زالت عينا صفوان على الرصاصة كأنها تساعده كي يتصور ما حصل بعد هروبه من القرية في ضوء ما سمعه من جابر ومن ابن عمه حمدان وأيضا من الأخوة الضاري، تخيل كيف حصلت الأمور بعد انتشار خبر اختفائه والكل يبحث عنه.

سؤال التمع في رأسه بقوة، ذياب ومروان الوحيدان اللذان كانا يعرفان أنه حي ومع هذا جحظت عينا صفوان بشكل مخيف لمن يراه، قبضت كفه على ظرف الرصاصة بعنف وهو يتمتم من بين شفتيه الغليظتين: «رباه، كيف فاتني هذا؟ حمدان قال شيئا عن مشاركتهما بالبحث لقد خدعا الجميع ولم يقولا، وعندما ظن الكل أنه (ميت) لم يصحّحا لأحد، بل تصرفا وكأنهما لا يعلمان شيئا عنه».

أخذت أنفاسه تتسارع وهو يتخيل دلال، كل ما مرت به بعد رحيله، لقد ظنت ما ظنه الجميع في القرية، ثم الآن.. عودته، أطلق صوتاً صارخاً كمن يطلق آهة ألم وهو يرمي ظرف الرصاصة بعيداً ثم قال وأنفاسه تهدر في صدره: «دلال تظنني تخليت عنها، تركتها وحيدة بين يدي من لا يرحم، خذلتها وتخليت عنها، وهي التي لم تخذلني يوماً، لهذا تنظر إلى بكره، لهذا تراني متّ بعودتي لا عدت حياً».

حدق في قبر أمه وألمه يعصف بشكل لا يطاق ليسأل بحشرجة: «كيف أقنعها؟ كيف أعوضها أماه؟ لقد عاشت حياة بائسة وأنا كنت السبب أجبروها على الزواج من

النذل وطعنوها في شرفها لترضى».

صمت للحظة ثم أفلت اسم (جابر) من فمه كأن فيه طوق النجاة، فقال يحدوه الأمل: «أجل هو جابر من سينصفني، عندما يعود سأطلب شهادته أمام أخته على ما حصل تلك الليلة، أنا واثق أن جابر لن ينفي».

***

بعد منتصف الليل.. دار مروان الضاري

لم تستطع النوم، تجلس على كرسيها المنجد قبالة منضدة الزينة وتمشط شعرها الطويل الداكن أمام المرآة البيضاوية بذهن شارد عما حولها، لكن متيقظ بالأفكار، عيناها تلمعان بنظرة شديدة الوهج، بيد أنه وهج مخيف، يثير في نفس من يراه القلق والارتياب لكن.. من يراها حقاً في هذه الدار الكبيرة التي باتت مهجورة؟ هي وحدها حيث لا يراها ولا يسمع همسها لنفسها أحد، أسنان المشط تمر ببطء بين خصل شعرها الكثيف ككلماتها الملحفة بسواد الوعيد، كابتسامتها التي لا تصل إلى قلب فتسعده ولا إلى فكر فتنيره: «إذن ما زلت تهتم يا صفوان ألهذا أرسلت أم إسماعيل تطلب أن أختار لك إحدى فتياتي عروساً لك؟ أكنت تختبر نفسك أم تختبرني؟».

اشتد الوهج في عينيها وهي تتذكر نظرات صفوان لها اليوم، محاولاته أن يشرح ويفسر، إنه لم يتغير كما هو، يهوى رضاها كما يهواها، يتألم بألمها كما في الأيام الخوالي، فتؤذيه

أكثر وهي تصف مقامه عندها كيف بات اليوم، ميت هو فقط ميت، لكنها ستنبش قبره وتحرق بيديها روحه وتنزع منه راحة نفسه، سمعت صوتاً من الخارج فتركت مشطها لتقوم من جلستها وتتحرك نحو الشباك، تعترف أنها أقل قلقاً من مروان الآن، حدسها يخبرها أنه لن يأتي هنا، وذاك الحارس الذي تركه ذياب عن بوابة الدار غادر قبل قليل ولم يعد.

عقدت دليلة حاجبيها وهي تمعن النظر في الظلمة، تتساءل (هل هذا خيال رجل الذي تراه؟) للحظة انتابها القلق أنها ربما أخطأت الحدس وقد يكون مروان يملك بقية عقل فاختبأ حتى غادر الحارس كي يدخل الدار ويهاجمها لكن سرعان ما تلاشى خوفها، بل سرعان ما لامست فمها ابتسامة تشبه وهج عينيها وهي ترى خيال رجل ضخم، ضخم جداً، عند سور الدار العالي، ثم رأته كيف يتسلق السور بطريقته الخاصة التي تعرفها وتألفها منذ الطفولة.

تمتمت شفتا دليلة بنوع من الرضا: «صفوان».

ثم تعترف بالفضول ولا تدري ما الذي سيفعله بعد أن عبر السور، هل يفكر بالبقاء لحمايتها؟ لكن الرد أتاها دون إبطاء، رأته يُخرج من داخل ملابسه شيئا ملفوفاً ثم يقترب من البوابة الداخلية ليحشره في إحدى السلال الموضوعة هناك، لم ينسَ حتى هذه لقد كانت طريقته منذ طفولتهما ليضع لها الهدايا خفية عن أهلها، كان

سرهما، وكم تشاركا الأسرار، تقبضت يد دليلة وهي ترفعها إلى صدرها لتهمس: «وكل أسرارك في يدي يا صفوان الضاري».

فجأة رفع صفوان وجهه إليها، لقد رآها، لكنها لم تبتعد عن الشباك، بل ظلت تبادله النظر حتى وهي لا تراه واضحاً بالظلمة، يكفي أنه يراها، لم يطل النظر، بل سارع ليغادر كما أتى، تاركاً إياها تحدق في الظلمة وأفكارها تتكاثف حوله، همست ووجهها جامد التعابير: «لم أخطئ يا صفوان، أنت تحن أنا لم أمت في قلبك وقد متَّ أنت في قلبي، كم أتوق لتلك اللحظة التي سأسدد لك فيها الطعنات».

ثم اشتدت نظراتها قساوة وهي تضيف: «حتى الخائن له قلب يغلبه العشق ويعذبه».

رن هاتفها فالتفتت ناحيته عند منضدة الزينة، لم تتوقع المتصل إلا (ضرتها شهلة)، ربما الفتاة تشعر بالقلق عليها في أول ليلة تبيتها بمفردها، تحركت دليلة نحو الهاتف وعندما وصلت إليه وقرأت اسم المتصل تفاجأت سارعت لفتح الخط وهي تسأل مباشرة: «ماذا هناك أختي؟».

ليأتيها صوت شقيقتها الصغرى باكياً نائحاً: «أخونا جابر توفاه الله يا دليلة».

***

الغزل السابع

«وخيط الغيرة مغزول من نار، لا يخلو منه نسيج رداءٍ، لرجل حُرٍّ مغوار»

بعد أسابيع عديدة.. منتصف الشتاء

ليل بهيم وسماء شديدة الصفاء، تبرق النجوم في لمعان بهيّ فتضفي على الظلمة الزرقاء الداكنة رهبةً وسحراً ربّانياً، البرد شديد في الصحراء فيتدثر ضرغام أكثر بالعباءة الصوفية ثم يمد كفه لنار الحطب المشتعل أمامه يستمد الدفء منها، الليلة لا يسمع عواء ولا حتى لذئب واحد وكأنّ الرهبة أصابتهم فيلتزمون الصمت في رحاب خلق الخالق.

(جربته، طعنني فأزهق قلبي ثم رددت له الطعنة حتى قتلته ودفنته، فأصبحنا متعادلين، وكلانا مدفونان في قبر واحد، أحياء أموات).

كلام قاله ضرغام يوماً لحيدر الأسدي، عندما سأله إن كان جرّب العشق في حياته وقد صدق في الرد، يقسم بذات عزة وجلال الله أنه قد صدق القول، عشق المزيونة طعن قلبه فمات حياً، لكنه لم يسكت على ضيمه، ليرد الطعنة فأزهق كل مسمى للعشق في وجدانه، أرخى أجفانه قليلاً والنار تنعكس في عينيه، تحركت شفتاه دون أن تصدرا صوتاً: «إذن ما تلك النبضة يا مقتول؟ ولماذا يأبى النسيان أن يطويها؟».

مرت أسابيع و(حاملة تاء التأنيث) تأبى إلا أن تزور **مُخيلته، ترفع بين كفيها تلك النبضة، على خديها تنير الفوانيس، وفي بركتيّ عينيها تجمع كل الزرقة في قبضة**

تنهد حائراً الحيرة تربك تركيزه الحاد وصفاء ذهنه المعتاد، يتساءل والحيرة تعصف به: «أيعقل أني حفرت قبراً فدفنت القلب وما زال فيه نبض حي؟ وإلا.. من أين أتت تلك النبضة؟».

«بماذا تفكر بعيداً عني يا ضرغام؟».

سؤال الشيخ عبد الهادي جعله يتنبه، التفت إليه فيقرأ في عينيه أكثر من سؤال لأسابيع وهو يشعر بفضول الشيخ حوله، لأسابيع هو مدرك أن شيخه وشيخ عشيرة الأسدي يريد أن يعرف ما يجهله، فهل لديه جواب؟! رد ضرغام وهو يعاود النظر للنار: «أطال عمرك يا شيخ، كنت أفكر بمن ظننت أني أرديته قتيلاً».

رد الشيخ بدعابة: «وهل يفلت مقتولاً من بين يديك يا ضرغام؟».

فابتسم ضرغام ليرد على دعابة الشيخ بالقول: «يبدو أنه.. أفلت فسبحان مُحيي الموتى».

عمّ صمت قصير قبل أن يسأل الشيخ بجدية: «ألم يئن الأوان لتخبرني يا صاحبي؟».

عينا ضرغام تنظران للنار، كان يعلم أن الشيخ سيسألها

صريحة في يوم ما، إنه يعرفه جيداً حين يضع في رأسه أمراً يودُّ الوصول إليه، سأل ضرغام بخفوت: «أهو طلب صاحب أم أمر شيخ يا شيخ؟»."

تساءل الشيخ عبد الهادي كأنه يختبره: «إن قلت إنه أمر شيخ فماذا ستفعل؟».

رفع كفه إلى عنقه وقال دون تردد: «نفّذت، وسيف أمرك فوق رقبتي».

ترققت نظرات الشيخ عبد الهادي ثم تبسم ليقول: «هو طلب يا صاحبي، أخبرني عمّا أجهله عنك».

ثم اتسعت ابتسامته والتمعت تلك الشقاوة حديثة العهد في عينيه ليضيف: «ولا أريد معرفة الحاضر وسر عزوفك مثلاً عن الذهاب للمستشفى منذ أسابيع».

أرخى ضرغام نظراته وهو يعاود النظر في النار، نعم يعترف أنه لم يذهب للمستشفى منذ أسابيع، منذ تلك الليلة تحديداً، وطلبات الشيخة مليحة والشيخ عمران من الدواء والعلاج يجد طريقة كي يتملص من تلبيتها بنفسه، ابتلع ريقه وتلك (النبضة) تقلق راحته وهي تجول مفاخرة بوجودها بين الذكريات.

أعاده الشيخ عبد الهادي لمسار الكلام الذي يهدف إليه اللحظة: «(العشق هو الموت) هل تذكرها يا ضرغام؟ أنت قلتها لي يوماً، فهل قتيلك الذي أفلت منك هو.. العشق؟».

مدّ ضرغام كفه للنار يتدفأ، يبدو أن الشيخ هذه الليلة لن يدعه حتى يخبره بالماضي، والعجيب أن ضرغام لا يشعر بالرفض للفكرة لسنوات طويلة أخفاها، ثم فجأة في نهاية يوم طويل حكاها لغريبة ومن بعدها شعر وكأن بعضاً من حمله الثقيل قد خفَّ، حتى إن لسانه بات لا يستثقل النطق بها وكأن سُلافة فكّت العقدة، وجد نفسه يرد على الشيخ صادقاً: «لا أدري يا شيخ أأفلت حقاً أم أني أتوهم».

برد حمل معانٍ خفية قال الشيخ: «بعض الأوهام رزق يا صاحبي».

تحجرت ملامح ضرغام وهو يصحح الجملة للشيخ: «بعض الأوهام خيانة».

بذكاء ناوره الشيخ عبد الهادي: «لندع الحاضر فهو أمامي وأنا أراقبك عن كثب، أريد معرفة الماضي، من هي يا ضرغام؟».

شعر ضرغام وكأنه يعبر حدّاً فاصلاً، أو يوشك على عبوره، وكأن جزءاً من نفسه يرفض العبور فيتلكأ هناك بخطواته، حائراً فيما عليه فعله، ويبدو أن الشيخ يرى حيرته، بل هول الخطوة عليه، فيمد كفه يريد تشجيعه فقائلاً: «مؤخرا فقط علمت أنك كنت متزوجاً، لكنها ليست هي المقصودة، والشيخ عمران رفض الإفصاح».

مرت لحظات حتى عبر ضرغام ذاك الحد ليقول بخفوت:

«هل تذكر طحنون يا شيخ؟».

تساءل الشيخ ببعض الدهشة: «طحنون المجنون؟».

شابك ضرغام كفّيه ببعضهما وهو يتذكر كيف غدا حال طحنون بعد ذبحه لمزنة، يدور في القرية وسخاً، قذراً، ممزق الثياب، لا يأكل إلا من الأزبال، ولا ينام إلا في حظائر الحيوانات أو في العراء كالكلاب المشردة، وكأن الله مسخ إنسانيته التي فرّطت في عرضه وروح ابنته.

قال ضرغام مؤكداً: «نعم هو، هل تذكر يا شيخ حكايته وكيف فقد عقله؟».

فرد الشيخ عبد الهادي وهو يحاول استجماع ذاكرته: «لا أذكر تماماً، أذكر أني كنت في العاصمة أدرس، وعندما عدت كانت القرية كلها تتحدث عن طحنون الذي جن بعد..».

صمت الشيخ للحظات وعيناه تتسعان، لقد تذكر الآن ما قاله له والده الشيخ عمران قبل أسابيع، كانت المعلومة الوحيدة التي رضي أن يفلتها عن ضرغام، أخبره أنه ما حصل لضرغام كان في وقت ذهاب عبد الهادي للعاصمة كي يدرس في الجامعة، تمتم لسان الشيخ ليكمل جملته التي أوقفها وهو ينظر إلى ضرغام بإشفاق: «بعد.. ذبحه لابنته».

وكأن الحكاية فسرت نفسها وكشفت كل أسرارها، قال ضرغام بخفوت وهو يختصر الألم في جملة واحدة: «لقد

ذبحني أنا يا شيخ، ذبحني وأراق دمي أبد الدهر، فتراني أنزف حتى يومنا هذا».

لم تفارق عينا الشيخ صاحبه وهو يتمتم اسم المقصودة: «ابنة طحنون».

فيقولها ضرغام بخفوت: «مُزنة.. الموءودة المذبوحة».

***

بعد أيام.. في قرية صغيرة نائية.. مساءً

أغلق حبّاس شباك الغرفة بينما تسترخي دنانير على كرسيها بعد مغادرة (زبونتها)، الهواء كان بارداً للغاية لكن تلك المرأة المعتوهة كانت تهذي وتترنح لتباغتها نوبة اهتياج فتفتح الشباك وتبدأ بالصراخ، أغمضت دنانير عينيها وهي تبتسم بلذة الرضا، الصراخ يفيد عملها عندما يصدر عن الزبائن، يصل للأسماع ويبعث الرهبة في القلوب، والرهبة هو المفتاح لدخول عقول البشر، ما يرهبونه ويخشونه هي نقاط الضعف التي تتسلل هي من خلالها إلى جيوبهم ستفتقد هذه القرية العفنة حين تغادرها قريباً، الناس هنا أكثر انغلاقاً وتشبثاً بالتخاريف وأعمال السحر الأسود، وقد جنت الكثير لكنها باتت متعبة وليست بقوتها المعتادة، الحمل يؤثر عليها كثيراً وبدأت تميل لكثرة النوم، اقشعر جلدها تلقائياً مع لمسة يد حبّاس لبطنها وصوت لهاثه القميء يختلط بكلماته: «بطنك كبرت باكراً بحملها».

لم تبدِ أي ردة فعل لإبعاد يده، فمثله يحتاج لمعاملة خاصة كي يبقى تحت السيطرة، ردّت وهي ما زالت مغمضة العينين وتمارس قدرتها المميزة على جعل جسدها مسترخياً تماماً دون أي رفض للمساته أو توتر من أفعاله: «أجل، البذرة كبرت وعندما تنضج، هي من ستحصد، ولا أحد يحصدها».

يده لم تتوقف عن حركتها الدورانية فوق بطنها وهو يطرح السؤال: «هل أنت مصرة على العودة قريباً؟».

تبسمت بخبث وهي تفتح عينيها وتنظر لعينيه الأشبه بعيني أفعى: «أجل قد حان الوقت، يجب أن يروا البذرة كيف ستكبر أكثر أمام أعينهم، وليحضروا الدايّة أو حتى الطبيبة كي يتأكدوا من عمر الجنين».

ترى في عينيه الاشتهاء وتشعر في لمسته هدف الإغواء فتتجاهل ما تراه وما تشعر به بينما تضيف: «ولدي سيكبر في دار مروان الضاري وسيأخذ كل حقوقه من أبيه».

لكن حبّاس كان يلهث ويده ترتفع لمواضع فتنتها يلامسها بخشونة، بدهاء كانت تتعامل دنانير معه، لم ترفضه بردة فعل جسدية لأنها ستثيره أكثر لو فعلت، منذ تلك الليلة التي سمحت له بزرع بذرته فيها وهو يشتهي المزيد منها، هذا الغبي القبيح قد يفسد الأمور وعليها إحكام السيطرة عليه، ذراعاها تسترخيان على ذراعي الكرسي فتمنحانه رداً لا مبالياً على محاولاته المثيرة للشفقة كي يثير

شهوتها مع شهوته، اتسعت ابتسامتها وعيناها في عينيه، ابتسامة زرعت فيها القوة والقدرة، ونظرة منحت صريح التهديد وصدق الوعيد، ثم قالتها بلسانها بنبرة باردة: «يدك يا حبّاس أحتاجها في أمور كثيرة قادمة، فلا تدفعني الليلة لقطعها».

كان يائساً حقاً ترى يأس الرجل في عينيه، تساءل واليأس يطفح من كلماته اللاهثة: «ما الذي.. يمنع؟».

كانت المرة الأولى التي يعلن رغبته بشكل صريح مباشر هكذا خلال الأسابيع الماضية كان يناور بالكلمات والنظرات، منذ وصولهما إلى هذه القرية النائية وهي تشعر أن حبّاس تغير عما تعودت منه، نظراته مختلفة، وهي أعلم الناس بنظرات الرجل فيه، فقد رأته مع النساء من قبل وهو يعاشرهن أمامها، حتى باتت تعرف أيّها تعجبه، وأيّها هو يؤدي عملاً نجساً معها، ردت على سؤاله اللاهث بنبرة قوية خاصة تستخدمها مع زبائنها حتى تطلب الطاعة وهي تحقّر من قيمتهم: «أنا هي المانع أنا دنانير الغجرية، فلا تنسى مقامك يا مجهول النسب والهوية».

عيناها في عينيه تبثانه الكثير من سلطتها عليه منذ طفولته، إنها تكبره ببضعة أعوام وقد كانت دوماً تجيد تحقيره وتحجيمه، ليكون طوع يديها خادماً أميناً ينفذ المطلوب دون حق الرفض أو الاعتراض، حقيقة واحدة يؤمن بها، الخادم المطيع والسيدة التي تطاع، حقيقة تربى عليها وباتت جزءا من تكوينه النفسي والعقلي، حتى غريزة

الرجل لن تتغلب على هذا التكوين، كفه انسحبت ورأسه أطرق في تذلل وجسده انحنى كأنه يطلب السماح بينما لسانه يقول بخفوت صوت المذنبين: «أمرك سيدتي».

أرخت أجفانه تدّعي الاسترخاء لكنها ما زالت تراقبه لتقول له بنبرة استهانة وتحقير جديد: «اذهب وعاشر إحداهن، فلستُ في مزاج كي أجد لك من تطفئ شهوتك اللحظة».

تمتم وهو ينسحب: «أمرك».

غادر الدار تاركاً دنانير بمفردها، تملس فوق بطنها وتفكر كم عليها الانتظار بعد؟ هل الافضل أن تكبر بطنها بوضوح أكبر؟

نظرت لتلك البطن التي دوماً كانت شديدة التسطح، فتلبس كل ما هو ضيق ليظهر رهافة خصرها، اليوم تبدو منتفخة بوضوح وهي في شهرها الثالث فقط، تضيق عينيها ثم تتمتم بقرار: «بل الأفضل العودة إلى قرية الشيوخ منذ الآن، هذا الجنين يكبر سريعاً وقد يشكّكون أن الحمل حصل قبل زواجي بمروان الضاري».

شعرت بالرضا لقرارها النهائي، ستعود إلى القرية، وستهزها من أقصاها إلى أقصاها وهي تأخذ حق ابن الغجرية، رغماً عن أنوف كل العشائر والشيوخ، همست وهو تضغط بيدها فوق بطنها: «ستكون ولداً، يجب أن تكون ذكراً، فخبّاس لم يزرع إلا بذرة الذكور في أرحام

الغبيّات، ستكون ذكراً وستحمل اسم وصفة ابن الشيوخ». التمعت عيناها بمطمع أكبر وأخطر، هو أحد أهم مخططاتها المستقبلية بعيدة المدى: «سأربيك وأعلمك كل شيء، ويوماً ما بعد سنوات ستكون شيخ عشيرة الضاري، وستجعلها أقوى العشائر على الإطلاق».

***

دار مروان الضاري

عينا دليلة جامدتان وهما تراقبان عبوره السور مرة جديدة إنه يفعلها أسبوعياً، يضع لها اللفافة في الموضع السريّ ثم يغادر، لكنه لا يقاوم النظر للأعلى كي يراها دون أن تراه، هو في ظلمة الباحة الأمامية للدار وهي في نور إضاءة الغرفة، لكن في الواقع هو المكشوف وهي المخفية هو المفضوح وهي المتسترة، تحركت دليلة لتبتعد عن الشباك وتقترب من منضدة الزينة تطالع انعكاس صورتها في المرآة، إنها مطلقة الآن، ولم يتبق على عدّتها إلا بضعة أيام، عليها أن تواجه القادم وتتصرف بذكاء، ذياب الحقير يريد طردها من الدار مع انتهاء العدة، ووالدها.. دمعت عيناها للحظة وهي تتذكر أباها، ثم تحجرتا في اللحظة التالية، وفاة شقيقها جابر زادت والدها قسوة وجفاء معها، وكأنه يحمّلها مسؤولية مرض ولده الذكر الوحيد وموته، تمتمت شفتاها: «ليتك تعلم أبي، ليتك فقط تعلم ما فعله بي موت أخي جابر».

أعمتها المرارة المتغلغلة في أعماقها من سنوات طويلة فلم تر إلا عدوّاً واحداً هو السبب في كل هذا، صفوان، قبل سنوات طويلة جابر لم يكن إلا شاباً يافعاً لم يبلغ العشرين، متهور قد أفسده تدليل أبيه، ولو لم يتخلَ عنها صفوان وهرب، لما حصل كل ما حصل لما تقوّل عليها الناس بالباطل ليجن أخوها وأبوها ويجبرانها على الزواج من مروان، لما قضت كل هذه السنوات تقاطع شقيقها الوحيد حتى ودّعته كغريبة في مثواه الأخير، غريبة زارت قبره ليلة دفنه، تبكيه وتهيل الرمال فوق رأسها حزناً وكمداً عليه وعلى شبابه، تلاشت آثار دموع متحجرة لتكسو عينيها القساوة، تطالع وجهها في المرآة، رأت بطريقة ما وجه صفوان فتكلمه قائلة: «أتظن بالمال الذي تتصدق به علي سأسامحك؟ أم تظن سأراه جميلاً منك أن تكفني حاجتي وقد تخلى الكل عني؟ البشر ينسون حتى صلة الرحم يا صفوان، أقرب صلات الأرحام يتبرؤون منها، وأنا تبرأ مني أبي وأمي وأخواتي، حتى من كانت ضرتي شهلة ومن ساعدتني لنتمّم الطلاق، انكفأت في دار أبيها تطاوعهم بالابتعاد عني كأني استجلب لها العار، أو ربما يروني سيئة السمعة وقد بتُّ امرأة مطلقة تعيش وحيدة في دار مُطلقها المجنون الذي لا أحد يعرف إلى أين هرب بل أرى في أعين الناس في السوق كأني السبب في جنونه، فينبذونني ويرمونني بنظرات مشمئزة نافرة، لا أحد يرحم أنثى مثلي يا صفوان، لا أحد يخاف الله في ظلمي ومساس شرفي وسمعتي، لا أحد ، يرحم قلة حيلتي ولهذا، لن أرحم

أحد، وأولهم أنت.. أنت يا صفوان الضاري».

أخذت نفساً عميقاً وأطلقته، ثم أغمضت عينيها وهي تبحث عن الخطوة التالية، لم يعد لديها وقت، فتحت عينيها بغتة وهما تلمعان لتهمس بخفوت: «الشيخ حمدان الضاري».

***

صباح اليوم التالي

سأل ضرغام وهو ينظر لصاحبه جانباً: «إلى أين تذهب بنا يا شيخ؟».

رد الشيخ عبد الهادي بصوته الجدي وتعابيره المألوفة التي تميل للغموض: «إلى المستشفى، لي كلام مع الطبيبة التي تتابع حمل رغد العيش».

مع كلمتيّ (إلى المستشفى) توتّر ضرغام تلقائياً، مع إحساس عجيب بدغدغة لهفة حاول المداراة وهو يتنحنح متسائلاً باهتمام حقيقي: «أكل شيء على ما يرام مع الشيخة رغد؟».

تتراخى تعابير الشيخ الجدية في أقل من ثانية وهذا بات يحصل كثيراً في الأشهر القليلة الماضية، فيبدو أصغر سناً، أكثر كلاماً، باسم المحيا دون سبب للابتسام وكأنه يتشارك طرفة ما في خياله لا يعلمها أحد غيره مع لمعة شقاوة تلمع في عينيه لم يرَها ضرغام فيهما طوال سنيّ

معرفته بالشيخ، كأنّ امرأته تخلع عنه عباءة المشيخة، فتحرره ولو للحظات من همومها، ويكون عندها مجرد رجل، تمكّن منه الهوى وغلبه عشق البدوي، قال الشيخ عبد الهادي بنبرة غامضة وبحة خافتة: «الشيخة رغد أفضل مني ومنك؛ لكنها باتت تتحرك وتعمل في الدار أكثر مما يلائم حالتها، الخادمات يخشينها لكنهن يحببنها كثيراً في ذات الوقت، وقد أوصلن إلى خوفهن عليها من المجهود الذي تبذله يومياً».

تغافله ابتسامة اوسع وهو لا يدري بينما يضيف: «حتى زادة تشتكي منها، لكن الشيخة رغد تعرف كيف تسترضيها في لحظة وتكسبها إلى صفها، لتنقلب إلى (مدافعة عنها) أمامي».

يخفي ضرغام ابتسامته وهو يفكر في سره أن الشيخة رغد تفعل المثل مع حارسها الأمين عبد القادر، ما إن تخرج من بوابة الدار إلى الباحة الأمامية كي تؤدي بعض أعمال الترتيب والصيانة حول الدار، حتى يلازمها عبد القادر كظلها، بل وكأنه عباءة حجب وحماية فوق عباءتها، يكون عابساً غير راضٍ عن خروجها أمام الحرس ورجال الشيخ، لكن أن كلّمته أو طلبتْ منه أمراً، انقلب إلى طفل، يريد فقط رضاها وإنجاز المهمة كما تبغي وزيادة.

«لماذا أشعر أنك تعرف عن الشيخة أموراً أخرى تفعلها من وراء ظهري؟».

يلتفت ضرغام للشيخ عبد الهادي فلا يستطيع إخفاء ابتسامته أكثر فتزين ثغره وهو يصارحه بالقول: «إنها فقط تتعامل مع عبد القادر كمعاملتها لزادة».

يعبس الشيخ فجأة وهو يتساءل: «أتعمل خارج الدار أيضاً؟».

فيرد ضرغام بترفق: «إنها تشغل نفسها يا شيخ بالعمل المفيد، لا تخشَ عليها من التعب، إنها حريصة وتجيد حماية نفسها وصحتها».

ما زال الشيخ عابساً ففكر ضرغام أنه غيور فقط، لا يحب ظهور امرأته أمام الرجال، حتى لو كانوا رجاله المقربين المؤتمنين، أدار ضرغام وجهه للأمام يتابع الطريق حيث يقود الشيخ السيارة إلى الشارع المؤدي للمستشفى، للحظة مرّ بباله خاطر عجيب، إنه لم يجرّب ولا مرة واحدة في حياته معنى الغيرة كرجل، زوجته رحمها الله لم يعش معها إلا بضع شهور، وقد قضاها يشاركها محنة الحمل والمرض، أما مزنة فلهف قلبه الذي مات بعدها، لم تمنحه حتى سبباً كيّ يغار كانت له ولا ترى في الدنيا مخلوقاً سواه، هي من كانت تغار عليه وتختبئ بكليتها في رحاب وجوده، تنذر القرابين بانتظار تحقق وعوده.

«ها قد وصلنا، انزل معي يا ضرغام واذهب أنت لإحضار دواء الشيخة مليحة».

(أمر الشيخ) نافذ ولا يمكن لضرغام أن يقول لا، مد

يده يفتح باب السيارة الرباعية الدفع وهو يتمتم بطاعة: «أمرك يا شيخ».

بطارف عينه يراقب الشيخ وجه صاحبه ويعترف أنه تعمد اصطحابه إلى المستشفى اليوم، لقد أعطاه الوعد أنه لن يعيد ذكر الماضي، لكن الحاضر له شأن آخر، ترجّل الشيخ من السيارة وأغلق الباب بينما أفكاره تعيده إلى سر ضرغام الذي عرفه قبل أيام، قلبه الذي مات مع موت ابنة طحنون بتلك الطريقة وقبرها المجهول، ومنذ تلك الليلة في الصحراء وعبد الهادي يفكر بجدية في الممرضة سُلافة، يعترف الشيخ أن إحساس التقصير ناحية ضرغام هو أكثر ما يدفعه ليجد لصاحبه امرأة تعوضه.

للحظة.. للحظة واحدة فقط تردد الشيخ وهو يتفكر أن كانت الممرضة ابنة العاصمة سترضى بالبدوي ابن القرية؟!

***

بعد نصف ساعة

يصارح ضرغام نفسه أنه يكاد يتنفس الصعداء راحة لأنه سيغادر المستشفى أخيراً مع إحساس ملازم بخيبة الأمل، يحيّ برأسه الدكتور فراس وهو يمر بجانبه مع ابتسامة ونظرة احترام خاص متبادلة بين الرجلين، ثم يكمل ضرغام طريقه يكاد يصل إلى الرواق الرئيسي في المستشفى ومنها إلى البوابة ثم المغادرة لينتظر الشيخ في سيارته حتى يلحق به، لا يدري لِمَ يشعر أن الشيخ يطيل البقاء في

المستشفى دون سبب واضح، أيتوهم الأمر أم أن الشيخ في رأسه أفكار أبعد من زيارة عادية ليطمئن على صحة امرأته؟!

التفاتة عفوية واحدة إلى اليسار من رأس ضرغام ناحية شباك إحدى الغرف الخاصة في المستشفى، لتبصر عيناه هيئة ممرضة من الخلف، لا يعلم لما عيناه أبتا الابتعاد، ولِما تباطأت خطواته بينما نظراته تستقر على شعر الممرضة المجدول في ضفيرة واحدة بلون بني داكن، تتدلى من تحت وشاحها الأبيض وتستقر على ظهرها، ينتابه حدس مُقلق شديد القوة وعيناه تمران مرتين وثلاث قبل أن تطلق الممرضة ضحكة رنانة تطرب الأسماع تتشاركها مع ممرض ذكر يقف برفقتها، لم يتنبه ضرغام أن قدميه تسمرتا مكانهما، استدارت بجسدها فرأى وجهها ليَصدُق حدسه وتصيب بصيرته، إنها هي.

ينظر مباشرة في زرقة عينيها المبتهجتين وآثار ضحكاتها ما زالت تشعل فوانيس خديها، وحالما رأته، أمالت رأسها قليلاً للجانب، كأنها متعجبة من وجوده وكأنه أطال الغيبة كثيراً حتى يئست من حضوره، ثم تفيض بُركتا عينيها بمزيد من العجب والدهشة، وتضيء الفوانيس على نحو مختلف، فبدت كضي القمر، رقيقة هشّة.

رفعت كفها تحييه في ألفة، وقبل أن يستوعب ما هو فيه، وعلى حين غرّة، غاب كل شيء، بسلاسة التفتت فجأة ورفيقها يكلمها.

خيط رفيع من نار يلتف من حول ضرغام، ثم الخيط تبعه خيط، يدورون في فلك رجولته، **وكأنّ الخيوط تنادي بعضها من المغازل، لتنسج رداء يشتعل كالمراجل، برقت عيناه وكتم الـ«آه» من شدة الوجع، فالرداء، من حيث لا يدري، حطّ فوق جسده وفي جلده هجع.**

***

السوق

يسير صفوان في السوق وذهنه مشغول، نظرة دلال إليه ليلة الأمس جعلت ينقبض، يكاد يشعر بما تضمره من كره نحوه أحقاً تكرهه؟

«سيدي صفوان.. سيدي صفوان».

استعاذ صفوان من الشيطان الرجيم وهو يستدير مُجبراً مستجيباً لنداء أم إسماعيل وقد كانت أقرب من أن يستطيع تجاهلها، نظر إليها وعلم أنها تحمل له شيئاً أو خبراً، أوشك أن يصدها من البداية عندما سارعت لتقول بصوت خافت لاهث: «هل علمت بما حصل مع دليلة الضاري؟».

أفلتت منه مشاعره وقلبه يتخلع هلعاً وهو يمسك بذراع أم إسماعيل ويسأل: «ماذا جرى لها؟ تكلمي».

بهتت أم إسماعيل واختلط ذهولها من ردة فعله مع خوف تلقائي منه وهو يبدو بهذه الهيئة الضخمة الغاضبة

كأنه وحش أجل وحش، صدق من وصفه.

هتف بها: «انطقي يا امرأة».

ردت وهي ترتجف: «لا تقلق، لا تقلق يا ابن الشيوخ، إنها بخير، لقد رأيتها قبل ساعة، كانت ذاهبة إلى الشيخ حمدان الضاري في مجلسه في دار الشيخ الضاري».

***

دار الشيخ حمدان الضاري

عينا الشيخ تتابعان حديث دليلة وفكره يبتعد عن فحوى كلامها، المرأة فاتنة، شديدة الحسن، للرجال حتى أن يجنّوا بها.

صمتت فتنبه، ليتنحنح في جلسته ودليلة في كرسيها على مسافة أمامه، ليقول أخيراً مُدعياً مروءة زائفة وكرماً غير حقيقي: «اطلبي يا ابنة عمومتنا وطلبك أمر».

شعرت دليلة بغبائه، كما شعرت بنظراته الطامعة نحوها التي شغلته عن الإنصات بعناية لكلامها، لم يكن لها خيار، وهذا نصيبها في الدنيا أن يطمع بها الخسيس والغدّار، حتى شيخ عشيرتها لن ينصفها إلا إذا تحايلت وتغاضت، قالت أخيراً لتشرح له بصبر: «يا شيخنا أريدك أن تكلم ذياب وخلفان كي يمنحاني داره». صوت غاضب جهوري أتى من مقدمة مجلس الشيخ الضاري ليدخل ذياب وفي إثره خلفان دون سلام أو استئذان: «خسئتِ وأنت تشكيننا

للشيخ».

عبس الشيخ حمدان وهو يقول بغضب: «كيف دخلتما عليّ مجلسي دون استئذان؟».

فيرد ذياب وهو يبالغ في إظهار الغضب من (مطلقة أخيه) كي يغطي على تجاوزه الحدود: «يا شيخنا أنا كنت آتيك بنفسي مع أخي لنشكوك من هذه المرأة الخبيثة التي ابتلي بها أخي المسكين مروان حتى أفقدته عقله، وقد كان زينة شباب قرية الشيوخ، حتى أبوها تبرأ منها وقد تسببت بموت شقيقها الوحيد كمداً وقهراً».

لم تبالِ دليلة بسيل الاتهامات الباطلة والادعاءات الملتوية، بل ردت بكل هدوء ودهاء: «أتظن الشيخ حمدان قد حطّ على قريتنا البارحة؟ أنسيت أننا كلنا نشأنا هنا ونعرف بعضنا جيداً يا ابن عمتي؟ أم تظن أن شيخ عشيرتنا غبي وجاهل».

ثم التفتت مع آخر كلمتين لتنظر إلى الشيخ ملء عينيها وتعتذر: «عذرا منك يا شيخ للكلمتين، لك احترامك؛ لكن في الواقع ذياب هو من يقولها دون أن ينطقها».

ثار غضب الشيخ حمدان وهو يهبّ واقفاً على قدميه وقد نجحت دليلة بتأليبه على أولاد العمومة ليهدر في ذياب: «لقد تجاوزت كل الحدود يا ذياب فقف عندك وانظر مع من نتكلم».

نظرات كالسم الزعاف يرميها ذياب نحو دليلة بينما يهم

خلفان أن يتهور وهو يودُّ التقدم إليها كي يلقنها درساً، لكن ذياب سارع بلف ذراعه حول جسد شقيقه الأصغر كي يمنعه، بينما يلين بالكلام ليعتذر من الشيخ حمدان قائلاً: «السماح منك يا شيخ، ربما خانني التعبير، لكن أرجو منك أن تتفهم حالتي وشقيقي مروان لا يعلم إلا الله أين هو الآن، بينما هذه العقربة تريد أن تستحوذ على داره بعد أن ألّبت عليه زوجته الثانية أيضا وتطلقتا منه بيوم واحد وها قد أتت إليك تشكوننا وتوقع بالضغينة بيننا وبينك».

أحرجته دليلة بالسؤال والاتهام الضمني: «وكيف علمت أنني أتيت اليوم إلى هنا كي اشكوك؟ أم أن لديك جواسيس في دار الشيخ الضاري يخبرونك بكل صغيرة وكبيرة تحصل؟».

اتسعت عينا الشيخ حمدان بصدمة بينما يسارع ذياب ليرد التهمة: «لعنة الله عليك يا دليلة، كاذبة أنت والكذب من خصالك، لقد أتينا لزيارة الشيخ، فنحن نودّه ونجالسه على الدوام، لم تكن إلا صدفة كي تنكشف حقيقتك».

ابتسمت دليلة باستهانة وهي تعدل من وشاحها الأسود حول وجهها المنير بينما ترمق ذياب بنظرات مباشرة وتقول بصوت خافت النبرات مؤثر في الرجال: «إذن هي الصدفة التي جمعتنا هنا نخصوم يا ابن عمي، وأنا ليس لي إلا الشيخ أوكله أمري، فتكلم معه ولا تكلمني أنا».

ثم ترخي أجفانها في خفر ورجلان يحدقان فيها بإعجاب قاهر، الأول كان الشيخ حمدان وقد انتفخت أوداجه من تصريحها الأخير والثاني كان خلف أنف الأرعن استهواه جمال من كانت حليلة شقيقه، فزاغت عيناه يبيح لنفسه بالطمع فيها تحت أي مسمى، أما دليلة فتطرق بنظراتها للأرض، كانت تشعر بالغيظ من تأخر المراد لقد تدبرت أمر إيصال الخبر إلى صفوان عبر أم إسماعيل الخاطبة، منذ الصباح خرجت وظلت تبحث عنها وعندما وجدتها ادّعت الصدفة ثم نوّهت لذهابها إلى دار الشيخ حمدان الضاري كي تشكو أخويّ مطلقها اللذين يودّان طردها من الدار، وقد فعلتها لسببين، الأول كي تثير لهما فضيحة في القرية، فأم إسماعيل لن تتوانى عن نشره في القرية بأسرها فيكون ضغطاً عليهما كي يعوضانها ولو بدار صغيرة تأوي إليها، وضغط على الشيخ حمدان كي يتصرف كـ(شيخ عشيرة)، والثاني لأنها على ثقة أن أم إسماعيل ستوصل الخبر على الفور إلى صفوان تحديداً، فهذه المرأة تزورها باستمرار تدّعي المحبة، لكنها في الواقع كانت تبحث عن رزقها كخاطبة، تريد جمع رأسين في الحلال، ولم يكن إلا رأس (صفوان) هو المعني بالقصد والنية.

تنهيدة أوشكت أن تخرج من صدرها وهي تسمع صوت (المراد) يستأذن بالدخول أخيراً رامياً السلام: «السلام عليكم، هل أدخل يا شيخ؟».

كانت تشعر بانزعاج الرجال الثلاثة مجتمعين لوصول

صفوان إلى هذا الاجتماع الذي أقيم دون ميعاد مخطط بشكل علني، هي فقط من كانت تخفي إعلانه وتتلاعب بالخفاء، تجول عينا صفوان بينهم وهو يقرأ مطامعهم، تتقبض يداه والغيرة تكاد تفضحه، يودُّ لو يمزق وجوههم ويفقأ أعينهم التي رأى فيها الطمع في (دلال) حالما وقف عند عتبة دار الشيخ حمدان، ربما ذياب هو الوحيد ليس بطامع في حسنها لكن مؤكد طامع بمحوها من على وجه الأرض لو استطاع، يحاول صفوان جهده ستر فضيحته بينما يتساءل بنبرة غامضة تميل للهدوء: «ماذا يحصل هنا؟»».

حاول ذياب الكلام عندما سبقته دليلة وهي تقف على قدميها ودون أن تنظر نحو صفوان قالت: «شاركنا الرأي والحجة يا ابن عمومتنا، أنت لست بغريب، عدّتي ستنتهي بعد أيام وأخو زوجي، أقصد أخو مُطلقي، يريدان طردي من الدار»».

اشتعل غضب ذياب وقد شعر بالمؤامرة ليقولها علناً: « ذه مؤامرة مدبرة بينكما أيها الخائنان الحسيسان»».

قالها وهو يشير لدليلة وصفوان معاً، فانقض عليه صفوان يمسكه من مقدمة جلبابه ويهزه كأنه يهز الأرض تحته أوقع عقاله وكوفيته ولحقت بهما عباءته كان يصرخ حتى رجّ أركان الدار: «إن كنت رجلاً، أعد ما قلته اللحظة»».

حاول خلفان إبعاد صفوان عن أخيه لكنه وكأنه يحاول

إزاحة جبل من مكانها ما الشيخ حمدان فيحدق برعب حقيقي في ثورة لم يرها قط من ابن عمه وربيب أبيه، حتى جاء صوت دليلة حاسماً بارداً: «أنا جئت لآخذ حقي، لا كيّ أشهد قتل أحد».

التفت إليها صفوان بحدة وعيناه تبرقان، لقد علم اللحظة أنها فضيحته وانكشفت، وسترها أكبر فضيحة قالتها تلك العجوز عجمية، حاول الشيخ حمدان أن يستعيد هيبته بالقول: «دعونا نهدأ يا رجال ونتكلم بتعقل».

ما زال صفوان يحدق في عيني دليلة والوحش الحقيقي داخله قد خرج للعلن ولم يعد يبالِ بفضيحته، دفع ذياب حتى أوقعه أرضاً جوار عباءته وعقاله بينما يأمر دليلة بالقول: «اجلسي هناك».

أشار لها كي تجلس بعيداً فناظرته لبضع لحظات قبل أن تستدير لتجلس حيث أشار، بينما خلفان يساعد شقيقه الأكبر كي يلبس عباءته وكوفيته وعقاله ويستعيد بعض هيبته واحترامه، جلس الجميع وبدأ الشيخ حمدان بالكلام قائلا بنفخة غرور كذابة وكأنه هو من سيطر على الشجار ومنع القتال بين الرجال: «الآن كلمتي هي التي ستسمع هنا».

ثم نقل نظراته إلى حيث تجلس دليلة فالتمعت عيناه رغماً عنه وهو يضيف: «ابنة عمومتنا دليلة تريد الدار كي تستمر بالعيش فيه».

فيتدخل ذياب وهو يقول بحقد وخبث: «لا يمكنها البقاء في دار مروان، يفترض أن تعود إلى دار أبيها بانتهاء العدة».

تدخل صفوان وهو يحاول جهده السيطرة على ما أفلت منه وقد يفلت المزيد: «الكل في القرية يعلم أن والدها يرفض استقبالها في داره، فأين تذهب؟ أتنام في العراء؟».

رد ذياب بالحجة: «وهل تريدها أن تعيش بمفردها في دار كبيرة كهذه؟ هذه ليست أعرافنا مع النساء، يجب أن تكون في عصمة رجل وتعيش معه في داره إن لم يكن لها دار أبيها أو أخيها».

بتهور قالها الشيخ حمدان: «بل دار الشيخ أولى بها، تنزل عندي معززة مُكرمة». شعّت عينا صفوان بعاصفة فانكمش الشيخ ليزيد الطين بلّة قول خلفان الأكثر رعونة من الشيخ حمدان وهو يقول: «بل أنا أتزوج مطلقة أخي إن شاءت البقاء في الدار».

رفع ذياب كفه لوجهه يمسحه بعد جملة أخيه العجيبة، يتمتم في سره: «رباه بماذا ابتليتني؟».

الصمت طال وصفوان قد أطرق برأسه لكن جسده الضخم يهتز كأنه جبل بركاني يوشك على الانفجار، دليلة تراقب ولذة الانتقام شديدة الحلاوة والمرارة في فمها، كل ما تراه يجعلها تريد المزيد دون شبع منه لا تبالي بمرارته وقد أرضتها حلاوته، رغم التوتر العظيم في الأجواء

فإن ذياب أخذ يفكر بشكل مختلف، فربما تهور خلفان قد يكون فيه الفائدة ليدحض حجة دليلة برغبتها البقاء في الدار، فيعرض عليها الحل بزواجها من خلفان ومؤكد سترفض، وبهذا يحفظون ماء وجوههم أمام أهل القرية، إنهم فعلوا ما يستطيعون لسترها وفق الأعراف وهي التي رفضت، أراد أن يجد منفذاً ليقولها لكن صفوان سبقه وهو يقول بحشرجة مخيفة: «هل تعرف ماذا سيحصل إن تزوجتها يا خلفان؟ سأذبحك قبل أن تبصر بعينيك فرشتها».

يكز خلفان على أسنانه وتنقبض يداه دون أن يجرؤ على مواجهة صفوان وقد اختبر قوته البدنية المرعبة؛ لكن ذياب لم يهن عليه كرامة شقيقه الأصغر ليقول لصفوان بعجرفة مصطنعة: «الأمر لها وليس لك».

رفع صفوان نظراته أخيراً كي ينظر إلى ذياب، خضرتهما بهتت لتميل إلى لون شعاع الشمس في ظهيرة الصحراء منتصف الصيف اللاهب، بياض عينيه محمر بشكل خطير كأنه سينفجر كله كقنبلة ليقول بنبرة أخطر: «جربني يا ذياب، وهذه المرة سأتأكد أني تركت خلفي جثة هامدة».

شحب وجه ذياب بينما يلتفت صفوان بحدة ناحية الشيخ حمدان غير غافل عن نظراته الطامعة في دلال ليهدر فيه: «امسح لعابك الذي يسيل فقد لوث عباءة عمي الشيخ محمد الضاري».

أخيراً وقف على قدميه وقال: «تنتهي العدة ودليلة لها داري يكون لها داراً، ولها اسمي يكون لها حصناً وغلقاً لأفواه الناس، وليقارعني في هذا من يجرؤ».

وقفت دليلة على قدميها ليقف معها الرجال الثلاثة مذهولين من تصريح صفوان الصريح برغبته لتقول بشموخ: «أفهم من جلسة اليوم أني سأخرج وفي جعبتي أكثر من طلب للزواج، أليس كذلك؟».

لم يجرؤ أحد على الرد، فقط التفت إليها صفوان وقال آمراً بخفوت: «غادري إلى دارك».

عيناها تبتسمان ابتسامة النصر بينما تقول بهدوء: «انتظروا ردّي بعد العدّة».

***

الغزل الثامن

«من غزل خيطاً ينهش عِرضاً، نسج الله له ثوباً من نار جهنم».

بعد أيام.. آخر الليل.. دار ضرغام الأسدي

تتلكأ الخادمة بعد أن وضعت له صينية الطعام فتلملم شالها الصوفي حولها وسمرة خديها تتوشح بحمرة التفاح: «هل تحتاج لشيء آخر يا ضرغام؟».

لم ينظر ناحيتها وهو يقف عند باب داره المفتوح وهواء الشتاء البارد يمر من جواره بينما يرد باقتضاب على الخادمة التي تنشد ودّه وتبغي لفت أنظاره: «سلمتِ».

تقدمت الخادمة ناحيته وهي تحاول مجدداً ببعض الإحباط والخيبة: «أنا لن أنام الآن، إن احتجت أي شيء فقط نادني وأنا..».

قاطعها بنبرة حزم: «سلمتِ، عودي إلى دار الشيخ الأسدي فالجو بات قارص البرودة».

تنهدت الخادمة ثم تحركت لتمر به مغادرة وقد أعيتها الحيلة للفوز به، أغلق ضرغام باب الدار خلفها وهو يفكر أن الخادمات لا يتوقفن عن تلك المحاولات معه، حتى الصغيرات يجدن فيه (حلم زوج) وهو الذي في عمر آبائهن، خلع عنه عقاله وكوفيته ثم يلف عباءته الصوفية حوله جيداً يتدثر حتى وصل منتصف غرفة المعيشة،

جلس على أريكة أرضية دون قوائم جوار المدفئة، وسكن للإنارة البسيطة التي يوفرها لهيب النار، أو هو جلس يطلب (السكن) لكن هيهات.

عقد حاجبيه وعيناه تمعنان النظر في النار، كأنه يتساءل مِمّ خُلقت؟ كيف تكوي جرحاً نازفاً فتشفيه، وتحرق جلداً مُعافى وفي الوجع تَرُديه، ضحكتها تجلجل في ذاكرته فتتقبض كفاه ويشتد ذاك الوجع فينعكس ناراً في عينيه، يتمتم ضرغام: «أتباري الغيرة لأيام يا أسدي ثم تنكرها؟ تراها بأم العين كيف تهجع تحت جلدك ثم.. تنكرها تحيل الليل نهاراً فلا يقربك النوم، وتتهامس في أذن أفكارك، أسراراً، فلا يأتمر العقل بالصوم، ثم تتجرأ و.. تنكرها».

للمرة الأولى في حياته لا يفهم نفسه، أيخشى العشق مجدداً أم يخشى الخيانة؟

ارتخت أجفانه قليلاً وصورة سُلافة تتسرب إلى مخيلته بسلاسة، كيف غادرت تلك الغرفة وتقدمت نحوه، وقفت أمامه تغمره بفيض الأزرق من عينيها، وبحركة عفوية، أو ربما ليست عفوية، كانت تمد يدها إلى الخلف لتسحب طارف ضفيرتها البنية المتدلية من أسفل الوشاح فتمسكها بين أناملها تتلاعب بها وهي تلقي التحية والعتاب: «مرحباً ضرغام، أين كنت غائباً طوال أسابيع أنسيتنا هكذا؟».

لم يكن غنجاً مدروساً منها، كانت ببساطة امرأة تتصرف

على طبيعتها، وهذا، (أوجعه) أكثر

لهيب النار كان يخرج من مسام جلده وعيناه تحدقان بالضفيرة ليكتفي بالقول: «النسيان نعمة حين الألم، ونقمة حين الدروس».

ثم التفت مستديراً وهو يتمتم بالسلام قبل أن يغادر المستشفى عابس الوجه، متجهم المحيا، يكاد لا يطيق نفسه، إنها امرأة صعبة، صعبة للغاية، ودخولها إلى دائرة أفكاره ومشاعره هو الأصعب على الإطلاق، صوت غناء امرأة قروية يأتيه من بعيد قطع عليه ذكرياته، التفت ضرغام برأسه في اتجاه الصوت الذي تحمله ريح الشتاء، يكاد لا يتبين الكلمات لكن يتبين رائحة الخبز من التنور، عبس قليلاً وهو يقول بلا رضا: «لا فائدة من نصحهم أن لا يخبزوا وقت الريح».

يهز رأسه وهو يفكر كم من حريق شبّ والنار تطير من التنور لتتشبث بأي شيء في الدار قابل للاشتعال، لكن لا أحد يتعلم، فجأة هدأت الريح، فتتوضح الكلمات للمسامع

أيا محبوباً رحل، أين الوفا غاب

رب القلوب حكم، إن القلب قلّاب

أيا ناكر الهوى، إن الهوى غلّاب

***

تتلاعب بضفيرتها البنية بينما نتوسل بابنة خالتها عبر

الهاتف النقال: «افتحي اتصالاً مرئياً، أرجوك نرمين، فقط لحظتين كي أراه وهو نائم».

توجع قلب سُلافة ونرمين ترفض الطلب بصوت هامس: «لا أستطيع سلافة، أن شعر بي سيفقد الثقة ونخسره، للتو فقط بدأ يثق بنا أنا وأمي، كان يراقبنا طوال الأسابيع الماضية كي يتأكد أننا لن نخذله».

فاضت عينا سُلافة بالدموع وخنقتها العبرة وهي تقول: «أنت محقة، يكفيه خذلاناً في حياته، لا أدري كيف لطفل حبيب مثله يعاني كل هذا الخذلان من أقرب الناس إليه».

ردت نرمين بإشفاق: «أنا أيضاً يؤلمني ما عاناه ويعانيه».

ثم تغيرت نبرة نرمين للغضب وهي تضيف: «وذاك الأبله الحقير ثامر يتجرأ ويأتيني إلى المستشفى يتهمني بكل وقاحة أنني أتآمر معك لدسّ الأفكار المسمومة في عقل ولده».

تنهدت سُلافة لتقول بشعور الذنب: «أنا آسفة يا نرمين، لم أكن أريد لأحد أن يتورط ويدفع ضمن غلطة زواجي بثامر».

وبختها نرمين بالقول: «لا تكوني سخيفة أنت أختي».

دمعت عينا سُلافة وعضت شفتها السفلى تمنه نفسها البكاء، ثم فجأة سألت نرمين ببعض التردد: «ألن تخبري ليث عن التسجيل؟».

أخذت سُلافة نفساً عميقاً ثم أطلقته وجسدها يرتعش لتقول بعدها: «لا أستطيع، بل لا أجرؤ سأكون أنانية إن فعلت».

حاولت نرمين تغيير رأيها بالقول: «لكنك لن تفعليها لأجل نفسك فقط، بل لأجله أيضاً».

ردت سُلافة بقناعة: «سأوذيه في أبيه، كيف أملك قلباً لأجعله ينصت إلى محادثة حقيرة كهذه بين والديه؟ إذا كنت أنا نفسي لم أحتمل سماعها مرتين».

قالت نرمين بعاطفية: «لكنك سترفعين عنه الأذى فيكِ، أنت أمه يا سُلافة».

ترتجف شفتا سُلافة وهي تقول بحشرجة: «أحتاج أن يصدقني دون دليل يا نرمين، لا أعلم كيف أشرحها لك، لكن ولدي، فلذة كبدي، حبيب عمري منذ تكون في أحشائي، أريده أن يصدقني ويؤمن بي دون حاجة لأي إثباتات».

بدت نرمين منفعلة وهي تقول لها: «إنه طفل، مراهق فلا تطلبي منه أكثر مما يحتمل».

فتحت سُلافة شباك غرفتها حيث كانت تقف لتنصت لريح الليل البارد في القرية، لم تشعر بالبرودة، بل تواجهها بتحدٍ بقميص نومها القطني ثم قالت: «هل تعلمين يا نرمين، هناك حكاية تدور منذ أيام في القرية، عن امرأة اسمها دليلة، تلوك فيها الألسن وتتهامس بها الأفواه دون توقف،

يرمونها في عرضها وأنها تآمرت لتدفع زوجها إلى الجنون، ثم الطلاق منه، وغايتها الزواج من حبيبها وعشيقها الذي عاد مؤخراً من غربته بل حتى يتهمونها بمحاولة إغواء شقيق زوجها الأصغر الذي عرض عليها الزواج أيضاً، واتهامات أخرى مقرفة يا نرمين، هكذا ببساطة دون بينة، دون أن تراها عين تفعل الفاحشة».

أبدت نرمين رأيها بالقول المتأني: «الله أعلم يا سلافة، لا تندفعي بتصديق براءتها لأنك عانيتِ من ظلم مشابه، من يدري حقيقة الأمور؟»

شقّ الألم صوتها كما يشق الهواء البارد مجرى أنفاسها لتقول: «هل تظنين أني اكتفيت بمناصرتها دون أن أتأكد يا نرمين؟ لأيام وأنا أبحث وأبحث كأني أبحث عن براءتي فيها وقد علمت الكثير عنها، إنها امرأة وحيدة لا مأوى لها إلا دار مُطلقها، فقد تخلى عنها أبوها وتبرأ منها لأنها طلبت الطلاق وحصلت عليه، كما تبرأت عائلتها وكل عشيرتها، زوجها الذي فقد عقله لم يكن ملاكاً بل الكثيرون يعترفون بخسته وخبثه، والأدهى أنه تزوج عليها مرات لا تحصى بحجة الإنجاب ولم ينجب فيطلقهن إلا هي أبقاها كسجينة يأبى إفلاتها، امرأة لم تكن تغادر دارها إلا نادراً، تعلم فتيات القرية غزل الصوف وقراءة القرآن، كل هذا الظلم واتهامها في عرضها لأن هناك رجلاً كان يحبها في صباها يريد سترها في داره بعد تخلي الجميع عنها».

تمتمت نرمين: «هدئي من روعك يا سُلافة، لم أرك يوماً

منفعلة بهذه الطريقة».

كان صدر سُلافة يتألم من الهواء البارد الذي تواجهه وقد تحجرت نظراتها بقسوة قبل أن تقول بغضب مكبوت: «ظننت أن القرية والمجتمع العشائري أكثر دفاعاً عن عرض النساء، لكني اكتشفت أنه أسوأ وأكثر ظلماً وتجبراً، عند الشبهة يقتلون النساء مرتين مرة وهنّ أحياء يرمونهن بالفجر والزنا، ومرة بذبحهن فيردونهن أمواتاً».

قالتها وهي لا تفكر إلا بالـ(مزيونة)، كم مرة تخيلتها تُساق إلى الصحراء الجرداء بيد والدها الحقير، ليذبحها هناك كأنها خروف العيد، لكنها لم تكن أضحية للتقرب إلى الله، بل كانت أُضحية للظلم، فجأة أخذت كلمات ضرغام في آخر لقاء بينهما ترن في أذنيها، ومع الكلمات يداهما وَجَع

(النسيان نعمة حين الألم، ونقمة حين الدروس)

لا تعلم سُلافة ما الذي قصده بالضبط، لكنه كان غاضباً بشكل مؤكد، غاضباً منها هي تحديداً ولا تعلم أيضاً لماذا؟ كل ما تعلمه أن غضبه وكلماته المختصرة كانت تنخزها بالوجع كلما مرّت بخاطرها.

جاءها صوت ابنة خالتها عبر الهاتف بعرض جدي في النوايا: «ما رأيك أن تتركي العمل في القرية وتعودي إلى العاصمة؟ كأن جو القرية لم يلائمك، وأنا سأفعل المستحيل كي أجد لك عملاً، حتى لو مساعدة طبيب في عيادة، لن يستطيع ثامر تشويه سمعتك في كل مكان».

تراجعت سُلافة خطوة للخلف لتغلق ضرفتيّ الشباك وهي تقول بسخرية مريرة: «مساعدة طبيب في عيادة تقصدين سكرتيرة تنظم المواعيد، كنت سأصل إلى منصب رئيسة ممرضات يا نرمين».

تأففت نرمين وبدت طفولية عاجزة عن التصرف وهي تقول لها: «ما بك الليلة؟ تبدين كئيبة سلبية على غير طبيعتك، تصيبينني بسوء المزاج مثلك، منذ طفولتي تؤثرين بشكل يفوق قدرتي على مقاومته، وهذا يجعلني غاضبة، ما سرك معي يا ابنة خالتي؟».

ضحكت سُلافة بخفة ثم قالت وهي تلتجئ لسريرها البارد ترتعش أخيرا من الهواء البارد الذي عرضت جسدها له: «لا تقلقي يا صغيرة سيتحسن صباحاً حالما ترين طبيبك المحبوب».

ضحكت نرمين بينما ترفع سُلافة الغطاء فوق رأسها وهي ترتجف برداً، وكأن جسدها للتو أدرك صدمة البرد ثم قالت بهمس وهي ترتعش برداً تحت الغطاء السميك: «أنا فقط لا أكف عن التفكير بتلك المرأة دليلة، حكايتها أثرت بي حتى أنس تشاجرت مع ممرضتين وحذرتهما من الخوض في عرضها مرة أخرى؛ لكني وكأني أردم بركة عميقة بحفنة تراب في كفي تخيلي أنهم يرمون دارها بالحجارة كل يوم».

تنهدت نرمين وقالت: «لها الله يعينها».

فتغمض سُلافة عينيها وبعض الدفء يتسرب إليها، ثم فكرت أن عينيّ ضرغام الغاضبتين تنفعان كتدفئة مركزية ترى كيف ستبدو عيناه حين يحب ويعشق؟!

امتلأت دفئاً وأطلقت تنهيدة رقيقة قبل أن تهمس: «أرسلي لي صورة أسدي يا نرمين، أريد تقبيله وضمه في حضني حتى أنام».

تمتمت نرمين وهي تتثاءب: «حاضر، تصبحين على خير».

وخلال ثوان كانت سُلافة تشبع شاشة هاتفها بالقبلات لصورة ولدها قبل أن تضمه إلى صدرها وتهمس: «هل تظن يا أسدي أن ضرغام غاضب مني لأني كنت أضحك مع المرض غانم مثلاً؟ أم هي الأنثى الشريرة داخلي التي تتمنى وتتخيل؟».

ابتسمت بشقاوة ثم غفت من فورها وهي تتنهد.

صباح اليوم التالي.. دار والد دليلة «سطام الضاري»

لا يستبشر الحاج عبد القدوس خيراً من تجهم وجه سطام الضاري، منذ ربع ساعة أو تزيد وهما يجلسان صامتين، في الواقع الحاج عبد القدوس حاول إزالة الحاجز بلين الكلام وذكر آيات من القرآن، لكن الرجل وكأنه قُدَّ من حجر حتى كلمات المولى لم تلين قلبه، أطرق الحاج عبد القدوس وهو يحوقل بخفوت، يفكر بالمسكين صفوان والعبء العظيم الذي سيحمله على كتفيه بمفرده إن تم الأمر، إنه ليس زواج ستر عادي في ظاهره، بل سوء

سمعة وتثبيت تهمة لمن يرمي التهم جزافاً، قال الحاج أخيراً ودون أن يرفع نظراته للرجل الجالس جواره: «ألن تأتي معي اليوم لنعرف ما تنوي ابنتك دليلة فعله؟».

رد الأب بصوت ينضح قسوة ومرارة: «ليس لي ابنة اسمها دليلة».

رفع الحاج نظراته ليبدأ قوله: «يا أبا..».

توقف للحظة فلم يرد إيلام الرجل بذكر ابنه المتوفى اللحظة، فآثر أن يناديه باسمه يتحى مروءته: «يا سطام.. دليلة امرأة وحيدة اليوم، ساعدني لأسترها».

هتف الأب والبغض يطفح من كلماته: «فضحها الله في الدنيا والآخرة، لا عشت أن سرت في طريق يسترها ولا حتى بقشة».

يعقد الحاج عبد القدوس حاجبيه وهو يسأل: «ما الذي فعلته لتستحق كل هذا منك؟ إنه شرع الله أن تطلب الطلاق من رجل مجنون، والد ضرتها لم يفعل مثلك وقد تطلقت الاثنتان بيوم واحد».

العنف يموج في عيني سطام: «فلتذهب إلى الجحيم، تطلقت أم لا، ناكرة الجميل، الفاجرة، بعد أن سترناها أنا وشقيقها الغالي وزوجناها من مروان الضاري، بعد أن فضحتنا هي وذاك القذر الذي أغواها وتخلى عنها وهجر القرية ومرّغ بشرفها التراب».

حاول الحاج الكلام: «يا سطام اتق الله، ابنتك شريفة عفيفة ولو كانت..».

لكن الأب قاطعه وهو يضرب بقبضة كفه على صدره قائلا بحرقة قلب: «لقد مزقت فؤادي على ولدي وفلذة كبدي وقرة عيني، قتلته تلك الفاجرة، لسنوات حمّلته ثمن فجورها، هي السبب بموت وحيدي جابر، قاطعته لسنوات وأشعرته بالذنب أكثر عندما مرض، لقد كان يقولها لي (هذا ذنب دليلة)، هي كانت تدعو عليه طوال الوقت».

يعبس الحاج عبد القدوس ثم يقول بالعقل: «أتظن مشيئة المولى جلّ في علاه رهينة بمشيئة بشر؟ أتظنه يبتلي عبداً بداء فقط استجابة لأي دعاء كان، حتى لو كانت دعاء باطلاً؟ إنه وحده سبحانه من يقدّر الأقدار كيفما يشاء، ويستجيب لدعاء الحق إذا شاء، أو يرجئه إذا شاء».

فيرد الأب بتعنت: «ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب، أليس هذا كلام الله؟ وهذا قصاصها، أن أنكرها كأبنة، فلتذهب وتأوي للضباع في الصحراء تنهشها، فلن تحرك شعرة في جسدي».

الوقت كان يمر سريعاً والحاج عبد القدوس لا يملك منه الكثير، يجب أن يذهب إلى دار مروان الضاري حيث تسكن دليلة ويرافقها في مغادرتها بنفسه وإلا تعرضت لما لا يحمد عقباه، أنه يأمل بحضور أبيها فسيكون وقعه على أهل القرية أفضل بكثير، يجب أن يظل يحاول عسى أن

ينجح، قال بترقق: «أليس لي خاطر عندك يا سطام؟ أنا أطلب منك معروفاً، أريد مساعدتك في ستر امرأة، انسَ من تكون هي، افعلها لأجلي أنا».

رد سطام بقرار قاطع: «لا تحاول يا حاج عبد القدوس، هذه الرعناء الفاجرة لن أكون وكيلها ولن أزوجها لذاك النذل الذي لطّخ شرفي بالوحل لسنوات وهو يسرح ويمرح بالحرام معها، كان يجب أن أقتلها لا أن استجيب لتوسلات مروان الضاري الذي تكفل بستر عارها».

عندها قال الحاج عبد القدوس يذكره بحكم الله: «(إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم)».

لكن الكبر والعناد كان لهما الكلمة الأخيرة ليهتف سطام: «إنها ليست مُحصنة غافلة، بل فاجرة تجاهر وعاقّة تفاخر».

يئس الحاج عبد القدوس ولم يعد يستطيع البقاء أكثر، وقف على قدميه وقال: «لم يعد هناك ما يقال، لكن تذكر أني أتيتك أكثر من مرة، وطلبت منك نفس الطلب وأنت لم تستجب، يوم الحساب لنا وقفة يا أبا جابر».

توجّع الأب للحظة عند ذكر ولده المتوفى؛ لكن سرعان ما استعاد واجهة الجمود والقسوة، قال الحاج عبد القدوس كأنه يكلم نفسه أو ربما يتفكّر: «سأذهب إليها وحدي لأرى من ستختار».

الأفكار تداهم الحاج عبد القدوس، فليس صفوان وحده من يريدها زوجة، خلفان الضاري عرض الزواج مقابل إبقائها في دار شقيقه، لقد جاءه حتى داره متخفياً كي لا يعرف صفوان بجدية العرض، وما لا يعرفه أحد حتى الآن عدا دليلة، إن الشيخ حمدان الضاري هو الآخر أرسل إلى الحاج عبد القدوس البارحة يُسّره بأمر رغبته مجيء دليلة للعيش في داره، وقد لمّح بما لا يقبل الشك إلى رغبته بمنح إقامتها سبباً شرعياً يلجم الألسن لم يكن الشيخ حمدان صريحاً فهو يخشى صفوان كل الخشية، الكل خائف من صفوان ولا يجرؤون على إعلان رغباتهم، فيتخفون خلف مقام الحاج عبد القدوس وهم يعرفون مكانته لدي صفوان الضاري، وأكثر ما يخشاه الحاج عبد القدوس هو رد دليلة، حتى اللحظة لم تقل رأيها واكتفت أن تؤجله حتى اليوم الموعود، وقف سطام أخيراً على قدميه ليقول ساخراً بقسوة أشد: «من ستختار؟ أعذرني فيما سأقول؛ لكن أتمزح يا حاج؟ إنها لن تختار إلا المسخ القبيح»».

عند قوله هذا هتف به الحاج موبخاً: «أتعيب على خلقة ربك؟»».

بمزيد من الكبر والخيلاء قال: «لا أعيبها، لكني أذكرها كحقيقة»».

زفر الحاج عبد القدوس بقوة بينما يتمتم وهو يخطو نحو الباب كي يغادر: «في مطلق الأحوال لا أحد يعلم من

ستختار».

أوقفته الثقة في رد سطام وهو يقولها: «أنا أعلم، قلت لك لن تتزوج إلا بصفوان».

للحظات ظل الحاج عبد القدوس ينظر في عيني الأب، وفي لحظات تالية وصل لليقين، دليلة ستختار صفوان بلا شك، ليس لأنها تفضل الموت على الزواج من الأرعن شقيق زوجها ولا لأنها ذكية كفاية لتفهم أن دعوة الشيخ حمدان للمكوث (بصفة شرعية) في داره ليست دعوة مروءة ونخوة، بل سيطلقها حالما ينال ما يشتهيه منها كرجل، كل هذا لا يهم دليلة لو كان يؤدي لما تبغيه، وبغيتها هو الانتقام من صفوان، وقد علمت من أين تؤذيه أكثر وستفعل.

فكّر الحاج وهو يغادر دار سطام الضاري: «لك الله فيما أنت مقدم عليه يا صفوان، لكن ستر دليلة وحمايتها هو الاكثر وجوباً اليوم».

***

بعد أن استقر الحاج عبد القدوس بالمقعد الخلفي للسيارة أشار للسائق الذي أرسله إليه الشيخ عبد الجبار كي ينطلق إلى دار مروان الضاري، أخرج هاتفه من جيب جلبابه بينما عيناه ترقبان حركة الناس في الطرقات، الأمر لا يُطمئن وكأنهم يسيرون بنفس الاتجاه إلى دار مروان الضاري، تمتم وهو يضغط على زر الاتصال: «أعنّي يا رب

على ما حمّلتَني ثقله».

جاءه صوت صفوان متحفزاً غبر الهاتف رغم هدوئه وهو يسأل مباشرة: «هل أتحرك الآن يا مولانا؟».

رد الحاج: «نعم يا ولدي، لكن لا تقترب من الدار كثيراً حتى أتصل بك، وكُن على أهبة الاستعداد».

تمتم صفوان بتوتر ملحوظ: «على أمرك».

تحسباً لأي أمر غير متوقع قال الحاج عبد القدوس بهدوء العقلاء: «صفوان، عدني أنك لن تتهور إن..».

قبل أن يتم جملته سبقه صفوان بالقول في عنف: «الأمر انتهى يا مولانا، هذه المرة دلال ستصبح في عصمتي».

عينا الحاج خلف نظارته الطبية تلتقطان بعض النسوة وهن يتهامسن ويسرعن الخطى فينقبض قلبه، لكن حكمته تغلب مخاوفه مما يراه فيقول لصفوان: «إنها دليلة وليست دلال، ودليلة اليوم ربما لها رأي آخر».

رد صفوان بنفس العنف لكن في كلماته ظهرت فطنته وإدراكه: «أتظن يا مولانا سأتنحى ببساطة إن قررت دلال معاقبتي والتزوج برجل أبله يتخذها لمتعته بضعة أشهر ثم يرميها، أو يتزوج بثالثة عليها، أو أتركها لأرعن قذر مُحب للنساء، وقد طمع في جمال مُطلقة شقيقه كَي يناله؟».

رد الحاج عبد القدوس: «سيكون قرارها في أيٍّ من الحالتين».

تفجّر العنف في كلمات صفوان على نحو غير مسبوق وهو يرد بالتهديد الصريح: «وسيكون قراري أن أقتل من يجرؤ».

هتف به الحاج عبد القدوس: «صفوان أمدرك لما تقول؟»

فيرد صفوان وقد اختلط عنفه مجدداً بسعة إدراكه: «أجل مولانا، سأحميها من نفسها، ولتنتقم مني ما شاءت وهي محميّة بي».

صمت الحاج للحظات طويلة، صفوان الضاري، هذا الفتى يرمي بنفسه كأضحية، إنه يدرك دليلة كما تدركه هي، أوشكت السيارة أن تصل بالحاج إلى وجهتها، فاكتفى بالقول: «لله الأمر من قبل ومن بعد».

وعندما أغلق الهاتف كان قد وصل إلى دار مروان الضاري ليواجه الحاج عبد القدوس ما هو مكتوب بالأحمر على سور الدار العالي والبوابة، وقد تجمهر بعض الغلمان والصبايا يرمون البوابة العالية بالحصى والأحجار.

***

تضع وشاحها فوق رأسها وعباءتها السوداء تغطيها، حقيبتها بملابسها وأغراضها جاهزة على بعد متر واحد، تقف دليلة في شباكها تراقب النسوة بالقرية يتجمهرن بينما أولادهن وبناتهن الصغار يؤدون المهمة ولو إلى حين، فاليوم هو اليوم الموعود الذي ينتظرونه كي يشعروا أنهم أفضل برجمها هي، منذ يومين وهي تسمع صوت الحصى،

إنهم يعلّمون الأطفال منذ الصغر كيف يرجمون دون دليل يكتبون على سور الدار من الخارج بالصبغ الأحمر (**فاجرة**) (**غادري الدار**) (**قذرة**)، (**زانية**)، أم إسماعيل أتتها مرة يتيمة تتشمم الأخبار وأي إشاعات قد تلتقط رائحتها، ثم أخبرتها بما يحدث بالخارج وما يكتبونه على سور الدار ثم غادرت واختفت من ساعتها، الكل اختفى ليترك جهة (**الفاجرة**)، ويختار الجهة الأخرى من السور، ما بين صامت متفرج وراجم ظالم، ضجّت عيناها بمشاعر رهيبة وهي تتمتم: «ولكل نصيب في النار».

هدأ الضجيج في نظراتها وهي تبصر سيارة تتوقف لينزل منها الحاج عبد القدوس، مُعلمها زارها أيضاً مرة واحدة كي يخبرها بالعروض، أخذت نفساً وأطلقته من فمها باستعداد كامل، ثم قالت وضجيج عينيها بات مظلماً قاسياً: «ابتدأ المشوار، اليوم ليس يوم حريتي فقط، إنما يوم دفع الثمن، وكل ما سيحصل فيه خلف هذا السور، سيضاف للحساب يا صفوان».

للحظة واحدة شعرت بالانكماش وربما الخوف وهي ترى تأهب النساء مع أطفالهن وكل واحدة منهن انحنت لتلتقط حجارة، دارت بعينيها فتلمح وجوهاً كثيرة حتى لم تعد تميز هوياتهم، الكل جاء ليتفرج أو يشارك بالعرض، ثم فجأة لمحت في زاوية قرب إحدى الأشجار توقف سيارة تميزها، ودون شعورها تنفست الصعداء وهي تنظر إليه من بعيد، ثم شمخت بثقة هامسة: «مرحباً برفيق الصبا الذي

كنت أدافع عنه، هل جئت لتردها إليَّ اليوم يا ابن سدرة المنتهى؟».

***

قبل عشر دقائق

في سيارة مظللة النوافذ ومتخفية خلف جدار طيني لزريبة ماشية، يجلس ذياب وإلى جواره خلفان يراقبان ما يحصل، نظرات التشفي من عيني ذياب وابتسامة غدر ينوي له تشق فمه، كل حجارة تُرمى على البوابة تشفي غليله، وكلمة (فاجرة) بالأحمر كالماء البارد يروي ظمأ الكره فيه، سيفعل كل ما يستطيع ليشوه سمعتها أكثر وأكثر، فلينهشوها حيّة هي وذاك الحقير صفوان، طفح المقت من كلماته وهو يتمتم: «أيجن شقيقي مروان ويهيم على وجهه في المجهول وهذان يريدان أن ينعما ببعض؟ لا والله، لأجعلن أهل القرية يبصقون في وجوههما في كل صباح».

تأفف خلفان نزقاً وهو يقول: «أنت وراء كل هذا أليس كذلك؟ لماذا فضحتهما؟ لماذا لم تدعني أتزوجها ونغلق فمها».

نظر خلفان بطارف عينه إلى شقيقه الأصغر ثم قال: «اسمع يا خلفان واعقل ما ستسمعه، دليلة ليست امرأة حسناء تنالها في فرشتك، دليلة امرأة خطيرة».

بابتسامة غرور ووقاحة علّق خلفان: «أحب الخطورة».

هدر فيه ذياب قائلاً: «خيّبك الله إن لم تكن تخشاها، فاخش صفوان الذي هدّدك علانية بالذبح، وصدّق أنه يفعلها».

فجأة التمعت عينا خلفان ليتساءل عن فكرة غير محسوبة: «لماذا لم ننشر إشاعة أن حمدان يطلبها للزواج أيضا؟ فلعلّ صفوان كان سيذبحه ونتخلص منهما هما الاثنين».

رد ذياب وهو يهز رأسه باستهانة: «لكان ذبحك أنت يا محدود العقل والفطنة وقد جاهرت بعرضك كالأغبياء، هو لن يفعلها إلا إذا وافقت واختارت تلك الفاجرة».

تلاعبت ابتسامة اشتهاء على فم خلفان وهو يقول بغرور منفر: «من يدري ربما سترحب بعرضي، فأنا ابن عمتها، وزينة شباب قرية الشيوخ، تتمناني النساء وتلهثن خلف رضاي عنهن».

هدر به ذياب مجدداً: «كفاك حمقاً وغروراً وليكن في علمك لا أظن أن الأمر كان يحتاج منا لنشر إشاعة، أقطع ذراعيّ الاثنين إن لم يكن حمدان قد طلبها بالسر من الحاج عبد القدوس».

للحظة زاغت عينا خلفان بطريقة يعرفها ذياب جيداً اتسعت عينا ذياب وهو يسأل بتوجس: «هل فعلت شيئا من وراء ظهري؟».

حاول خلفان التملص من المواجهة متسائلاً وهو يدّعي الجهل: «ماذا تقصد؟».

أمسكه ذياب من ذراعه وأداره إليه ليواجهه بسؤال حازم: «هل فعلت يا خلفان؟ قلها ولا تضيع وقتي».

تأفف خلفان ثم رد بضيق: «نعم فعلت، ذهبت إلى دار مولانا عبد القدوس وأخبرته بجدية طلبي في الزواج من دليلة».

جحظت عينا ذياب وهو يتمتم: «أجننت ألم أتفق معك ألا تعاود الطلب؟».

نزع ذراعه من أصابع أخيه ليرد عليه بصلف: «لماذا تتهمني بالجنون؟ دوماً تتخيل نفسك أكثر دهاء منا، حسن يا ذياب أنا أيضا أجيد التفكير والتصرف، أنا الأحق بها، أأدعها لصفوان الذي نكرهه أم أدعها لمن اغتصب حقنا بالمشيخة ليغتصب حقنا في نسائنا أيضاً؟».

ضرب ذياب كفاً بكف وهو يقول يائساً: «رباه أدعو الله أن لا تصاب تلك الحقيرة بالجنون أيضا وتقبل بك».

عاد خلفان للتأفف بينما ذياب يضيف بعد لحظات تفكير: «لكن لا أظن، هي ليست غبية، لن تختار أرعناً مثلك».

أطلق خلفان صوتاً مزمجراً دلالة ضيقه من توبيخ أخيه، بينما ذياب يغرق بأفكاره التي تتضارب، فيجمعها كخيوط لينسج منها ما يرضيه وتصل به إلى مبتغاه الذي ينشده، أخذ يتكلم مع نفسه بصوت مسموع دون أن يشعر قائلاً:

«إن اختارت حمدان بحجة اللجوء إلى شيخ العشيرة كي يسترها، فعندها نكون تخلصنا منها، وإن كنا محظوظين وجاءت ردة فعل صفوان كما نتوقع وذبح (الشيخ حمدان)، فعندها سيغنينا عن الكثير بتخلصنا منهما معاً».

شاركه خلفان أفكاره وهو يسأل: «وإن اختارت صفوان؟».

رفع ذياب كفه إلى وجهه، يمرر سبابته وإبهامه فوق لحيته وهو ما زال ينسج قائلاً: «إن اختارت صفوان، فستثبت تهمة الفجور عليها وعليه، وما سيهمني هنا، هو تشويه سمعة صفوان الذي سينزل من مقامه وقيمته أمام عشيرة الضاري وباقي العشائر، فلينسَ عندها أي أمل له بالمشيخة».

عقد خلفان حاجبيه وهو يتساءل: «أتظنه طامعاً حقاً بالمشيخة؟».

رد ذياب بما هو مقتنع به: «مؤكد طامع، وحمدان لن يستمر طويلاً والناس من عشيرة الضاري باتوا يكرهونه كل يوم أكثر من اليوم الذي قبله، ناهيك عن كره باقي العشائر له، خاصة عشيرة الجبلي».

ابتسامة خبث جانبية من خلفان ناحية شقيقه الأكبر وهو يقول: «وأنت لم تدخر جهداً كي تؤلب الناس عليه في الخفاء».

عندها قال ذياب بدهاء: «أنا لا أفعل أكثر من تأجيج

نقمتهم من أفعاله المشينة وبخله عليهم وصفاقته في تعامله معهم، يكفي أن أولادهم من خيرة شباب عشيرة الضاري ماتوا في نزاع العشائر الذي أشعله بيديه، أو هذا ما يظنون»».

ثم صمت للحظة ليضيف بغيظ: «فقط صفوان استعصى عليَّ ذاك المسخ القبيح بعودته المفاجئة وسعيه للسلام قد رفعه إلى أعلى مكانة بين الناس، ثم بات منيعاً أكثر بحسن أفعاله الظاهرة مع كل أهل العشيرة، صغيرهم وكبيرهم، الشبعان المستكفي والفقير المحتاج، اكتسب قلوبهم خلال بضعة أشهر حتى باتوا لا يرتضون أي كلمة إساءة بحقه»».

ثم التمعت عينا ذياب وأكمل بأمل ورضا: «لكن كل ادعاءات الطيبة والنخوة التي فعلها ستذهب هباء، أهل القرية مصدومون منه وقد فضح نفسه مع دليلة ووقع في الفخ»».

قال خلفان فجأة وهو يشير بكفه ناحية دار أخيه مروان الضاري: «لقد وصل مولانا عبد القدوس»».

***

جلس الحاج عبد القدوس على الأريكة في غرفة الجلوس الخاصة بدار مروان الضاري، أصوات الحصى والحجارة عاد مجدداً، لقد توقف الغلمان والفتيات تهيباً من وصوله، لكن النسوة المتجمهرات كنّ على أتم الاستعداد وليس لديه شك أنهن بانتظار خروج دليلة من

الدار ليرجموها بالحجر والحصى، حتى لو كان هو (الحاج عبد القدوس) برفقتها، لقد لمح زوجة ذياب الضاري بينهن، يعرفها مُذ كانت طفلة بليدة، تحضر دروس القرآن عنده، لم يستغرب الأمر، إنه يفهم ذياب جيداً، ربما لا يعرف مخططاته على وجه الدقة واليقين لكن يفهم غاياته ومقاصده وأهدافه، ولا يستغرب الحاج عبد القدوس أن يكون ذياب متخفياً في مكان ليس ببعيد عن هنا، كي يراقب بنفسه ما خطط له اليوم، وما ستؤول إليه تلك الخطط الشيطانية، جلست دليلة في الأريكة قبالته وحقيبة ملابسها جوارها مع صندوق أغراض، يراقبها الحاج عبد القدوس وفي صدره يتنازع الإشفاق مع الغضب ليتها تعود طفلة اللحظة ليمارس سلطته عليها كي تتعقل، إنه خائف عليها، وخائف مما سيجره هذا الأمر وبالاً على القرية، الظلم لعنة، ورمي المحصنات لعنات لا يخطو امرئ خطوة في هذا الدرب، إلا وأصابته مصيبة في أعز ما لديه، تمتم الحاج عبد القدوس مع نفسه: «عافانا الله ورحمنا من غضبه وسخطه علينا».

سألته دليلة بتعابيرها الهادئة الشامخة: «هل قلتَ شيئاً يا مولانا؟».

رد بسؤال مباشر: «ماذا اخترتِ يا ابنتي؟».

تقلقاه عيناها كانتا مظلمتين، نور تلك الطفلة البهية قد انطفأ فيهما، قالت وهي تنظر إليه دون أن يرف جفناها: «تقصد (من) اخترت يا مولانا».

قال بصبر: «كما تشائين بصيغة السؤال، المهم هو الرد».

أخذت تلامس أطراف وشاحها الأسود، ثم سألت: «لماذا لم يدخل صفوان؟».

يضيّق عينيه وهو يرد سؤالها بسؤال: «ولماذا لا تسألين عن دخول حمدان وخلفان؟».

ابتسمت ابتسامة تقطر سخرية وهي تقول بنبرة متلاعبة: «لأني أعلم أن لا أحد منهما سيجرؤ على الحضور».

ثم اتسعت ابتسامتها على نحو أزعج الحاج وهي تضيف: «صفوان فقط من يجرؤ، لكنه ينتظر الإذن منك».

يعقد الحاج حاجبيه ليقول بغضب: «دليلة كفاك تلاعباً، الأمر خطير في الخارج».

تلاشت ابتسامتها وشعّت عيناها بنار مخيفة وهي ترد عليه: «أجل يا مولانا خطير، سيرجمون الفاجرة حتى الموت، فكيف ستوقفهم؟ حتى مولانا لا يستطيع ردع الجاهلين عن (إقامة حدود الله) كما يزعمون».

عاد الصراع بين الإشفاق والغضب لكنه أخفاهما جيداً ليقول باختصار: «إذن اختاري، لأزوّجك خلال ربع ساعة، وزوجك هذا (أيّاً تكن هويته) هو المتكفل بمن ينتظرونك في الخارج».

عادت إلى واجهة الشموخ، فشعر الحاج عبد القدوس على نحو غير مؤكد أنها تختفي بالشموخ من إحساس

الخوف، قالت أخيراً والإصرار يشع من كلماتها: «أريد قولها أمامه»».

خمّن الحاج (المقصود) فقال اسمه: «صفوان»».

لم ترد بأكثر من: «اتصل به يا مولانا، ما دام لن يدخل حتى يعرف الإجابة»».

***

منذ أولى بوادر نضوجه لم يشعر صفوان يوماً برغبة لقتال أو حرب، لم تساوره الفكرة ولم تداعب حتى مخيلته، هو رجل السلام (الذي يعرف)، ابن (سدرة المنتهى)، الغريبة الصامتة، فكان رحيلها أشبه بصمتها، غير مسموع لم يحزن عليها قلب ولم تترك غير ولد مفجوع، فماذا حصل؟ من هذا الغريب المُحتل الذي اتخذ من روحه مرتَع قتال وأرض حرب، من هذا العنيف الذي يغلي وسلاح القتل أقرب اختياراته، عينا صفوان لا تفارقان جموع الجهلاء والمدسوسين المتجمهرين حول بوابة دار مروان الضاري، يراقبهم ويرقب فيهم نية إيذاء دلال حال خروجها، تتشنج أصابعه حول المقود ويشعر برحيل (السلام) مودّعاً بلا عودة

(من ستحاربك ستعطيك وقودك، وستعجب مما سيفعله بك ذاك الوقود)

صدقت عجمية بما قالته دلال هي من قتلت فيه (السلام)، وحوّلته بين ليلة وضحاها إلى رجل حرب،

لا وقود له إلا إياها، رنّ هاتفه، فسارع للرد وهو يكاد يرتجف أتاه صوت الحاج عبد القدوس هادئاً وكلماته مختصرة وهو يعلن عن رغبة دليلة بمكالمته، وحالما أتى صوتها بغنج ساخر: «مرحباً صفوان».

حتى صدحت في عقله كلمات أخر من العجوز عجمية **(احذر من غفلة ينسجها قلبك فيوقع عقلك في الفخ، فغفلة الغازلة نسجها الظلم وفيها الشيطان قد نفخ)**

كيف يقاوم الفخ؟ إنه يعلم ما تفعله ولا يقاومه ابتلع ريقه وقال بصوت أجش: «مرحباً دليلة، أم أناديكِ.. دلال؟».

ساد صمت وقلب صفوان ما بين موت وحياة، أتكون (دليلة) وتختار حثالة الرجال انتقاماً؟ أم تكون (دلال) وتختاره هو؟ فإما قاتلاً في الأولى، وإما مقتولاً في الثانية، فقتلته وهي تقول بخفوت: «هي (دلال الحسن) يا صفوان».

حرارة تشع من كل جسده كأن حمى أصابته على حين غرّة، كاد يهذي وقد تشوش للحظات من تأثير ردها عليه، وكأنها تعلم ما يحصل له لتتحول نبرتها إلى سخرية رقيقة وهي تسأل: «هل تعلم لماذا وافقت على الزواج منك وليس من غيرك؟».

أصابعه تئن بالوجع وهو يعتصرها عصراً حول المقود ليرد بالجواب الوحيد الذي يعرفه: «لأنك تعلمين أني جاد بذبح

من سيتجرأ».

نبرة السخرية الرقيقة بطريقة ما تخللتها قسوة وهي تقول: «كان سيؤلمك إن تزوجت برجل آخر أمام ناظريك، أليس كذلك؟».

يقع بالفخ أكثر وهو يرد معترفاً، لاهثاً من شدة الوجع: «نعم، حتى وهو لن يحدث، سيؤلمني إن قلتها».

فأظلمت نبرة صوتها بقساوة تذبح وهي تقول: «وأنا اخترتك انت، كي أؤلمك أضعافاً».

لم تكن تعلم أنها تؤذيه أضعافاً بالفعل، هذا الكره ورغبة الانتقام الصادرة منها، لهو عذاب الدنيا بالنسبة إليه، اكتفى بالقول راضياً بقدره، الماضي والحاضر والمستقبل: «سأحضر الشهود».

أوقفته وهي تقول بنبرة تدلل: «قبل الشهود، تأتي الشروط».

جاء صوت الحاج عبد القدوس وقد فقد صبره: «دليلة هل نتلاعبين في هذا الوقت العصيب؟ القرية ستشتعل بالخارج».

عندها هدر صوتها وكأنها تصرخ من وجع ظليمتها: «فلتشتعل وتذهب إلى نار جهنم».

عينا صفوان عادتا لتراقبا جمهرة الناس وقد أيقظه صوت الحاج عبد القدوس من تأثير دلال عليه ليركز فيما حوله

مجدداً، صوت الحاج عبد القدوس كان حازماً وهو يرد على (صرختها): «تعقلي واتقِ الله ليس جميعهم هكذا، الجاهل نصبر عليه والمعتدي نردعه بحد الله».

في لحظات عادت دليلة لأسلوب التدلل المستفز فترد: «لا تغضب يا مولانا، لأجلك فقط سأطلب الشرط الأول فقط، والباقي يتعهد صفوان أمامك بتنفيذها».

سارع صفوان للقول وهو يلمح (زوجة ذياب) بين الجمهرة: «اطلبي، ولك عهد مني أمام الله بتنفيذها، ومولانا شاهد».

قالت دليلة دون لحظة تردد: «شرطي هو، دارك، تسجلها باسمي».

رد ببساطة: «حصل».

تخللت الحيرة صوتها مع بعض الشك وهي تسأل: «ما الذي حصل؟».

أعلنها بوضوح: «داري باسمك منذ الأمس».

لم ترد دليلة، ولا يعلم صفوان أكانت صدمة منها أم عدم تصديق، لكن الحاج عبد القدوس أنهى الأمر حين قال: «أحضر مأذون القرية والشهود يا صفوان، أنا وكيل دليلة اليوم».

***

تباطأ حركة حصانه تلقائياً وهو يسحب لجامه بمهارة،

عيناه اللتان كانتا مشدودتين إلى جمهرة بعض نساء القرية وأطفالها، حادتا جانباً ناحية إحدى اشجار النخيل حالما لمح رداء الممرضات الأبيض والضفيرة الداكنة الطويلة تتدلى من تحت الوشاح، يرى وقفتها من الخلف ويقرأ لغة جسدها التي تأرجحت بين توتر وغضب، يدها تستند إلى جذع النخلة بتحفز، كأنها توشك على رمي القوم بنفس الحجر والحصى الذي يرمونه على بوابة دار مروان الضاري، يكمل ضرغام في مخيلته تصور تعابير وجهها المتجهمة الثائرة وزرقة عينيها المحتدة، أرخى أجفانه وهو يشعر فجأة بجفاف في ريقه، يقترب أكثر حتى وقف على بعد مترين ثم ترجل بمهارة الفرسان قبل أن يقول: «ماذا تفعلين هنا؟».

التفتت إليه فكانت تعابير وجهها كما تخيلها بالضبط، لكن تلك الزرقة أصابته بسهامها، فادّعي كذباً وزوراً أن السهام الزرق مرت به ولم تلمس حتى جلده، شغل نفسه بلجام الحصان بينما يسمع ردها الثائر الغاضب: «جئت لأرى ماذا سيفعلون بالمسكينة».

تنهد وهو يفكر كم هي امرأة تسعى للمشاكل بيديها وقدميها، ما زال يشغل نفسه باللجام دون حاجة فعلية بينما يرد عليها: «الأفضل أن تغادري المكان، لا أحد يعلم ماذا سيحصل».

شعر بحركتها وهي تقترب منه فتوتر، ثم تصاعد توتره وهي تسأله بحرقة قلب حقيقية: «هل سيؤذونها؟».

لم يستطع منع نفسه من الالتفات إليها فيرى انعكاس تلك الحرقة في عينيها، ودّ لو.. أوقف مسار رغباته ليكتفي بالقول بصوت أجش: «لا أعلم».

ارتجفت شفتاها وعبست في وجهه كأنها توبخه وهي تقول: «وهل ستسكت؟ ألن تدافع عنها؟»».

أدار ضرغام وجهه ناحية جمهرة القوم ورفع كفه عفوياً إلى عنق حصانه يربت فوقه ويقول واقع الحال: «إنه أمر يخص عشيرة الضاري، تدخلي أو تدخل غيري من أبناء العشائر الأخرى سيُعتبر إهانة لهم، التصرف الصحيح يجب أن يأتي من شيخ عشيرة الضاري»».

اعترضت سُلافة بالقول: «لكنك ساعدتني وحميتني»».

ضيّق ضرغام عينيه عندما لمح سيارة مظللة بالسواد مختبئة خلف جدار زريبة، وقد عرفها، سيارة ذياب الضاري، فكر في نفسه (إذن الأخوة الضاري هم بالفعل وراء الشائعات التي أثارت القرية، لقد مكروا ودبروا)، فسّر ضرغام لسلافة وعقله مشغول بتوقع القادم: «أنت غريبة علينا، والغرباء لهم وضع آخر»».

أجفل للحظة عندما ضربت سُلافة بقدمها الأرض في عنف أنثوي ملفت وهي تتأفف وتقول: «قسماً بالله سأثير لكم فضيحة هنا، وسط قرية ذئاب الجبل هذه، إن لم يتحرك رجل منكم لحمايتها»».

لم يستطع ضرغام أن يمنع نفسه وهو يسمع تعبير (قرية

ذئاب الجبل)، غرق بالضحك، ولكنه حاول جهده إخفاء ضحكاته حتى لا يثير انتباه الناس، غضبت سُلافة أكثر فكزت على أسنانها وهتفت به: «لماذا تضحك؟».

أدار وجهه لينظر إليها مباشرة، اقتلع نبضة من قلبها حرفياً عينا (التدفئة المركزية) كانت تضحكان في وجهها، وشيء آخر فيهما جعلها تشعر أنها (أنثى) من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، فجأة تحركت عيناه لما خلفها ليقول بهدوء رقيق: «لا تخافي عليها هكذا، فقد وصل من سيحميها».

التفتت سُلافة من فورها وكلها فضول لتعرف المقصود، رأت سيارة رباعية تركن قريباً من بوابة الدار وترجل منها رجل شديد الضخامة، داكن البشرة وعيناه مخيفتان بلون مشع تكاد تميز خضرتهما من تلك المسافة، تمتمت سُلافة بانبهار من هيئته الملفتة: «من هذا الرجل المهول؟ أهو صفوان الضاري؟».

رد ضرغام بهدوء: «أجل، هو، وما دمتِ عرفتِ اسمه فمؤكد تعرفين كل الحكاية».

التفتت إليه وسألت بانتصار عجيب: «كنت تعرف أنه قادم».

أرخى أجفانه وأمسك اللجام باستعداد ليركب حصانه ثم قال بنبرة شبه آمرة: «غادري الآن، ولا تقلقي بشأن دليلة الضاري».

تلاحقه بمزيد من التخمينات (المنتصرة): «رغم

أنك كنت متأكدا من حضوره، لكنك أتيت لتتأكد بنفسك»».

لم يرد فقط تحرك ليركب الحصان بنفس الرشاقة التي ترجل منها، تراقبه سُلافة بعينين مفتوحتين انبهاراً وتصر على إضافة المزيد: «مهما أنكرت، فروءتك تغلب أعراف العشائر، كنت ستتدخل لحمايتها لو لم يأت صفوان الضاري»».

رمقها مطولاً بتعابيره المبهمة وهو على صهوة الحصان ليقول آمراً بشكل واضح هذه المرة: «اذهبي إلى عملك يا أم الليث، ما زال الأمر لم ينتهِ بعد، سترين مشاهد كريهة بلا ريب حتى يتم المطلوب وتنفض جمهرة الجهلاء والانذال»».

كان سيتحرك عندما فاجأته بإمساك مقدمة رأس حصانه بكلتيّ يديها وهي تسأله: «أنت غاضب مني؟»».

هي لم تقصد أنه غاضب منها لأجل حضورها اليوم إلى هنا، وهو فهم المقصد، لكنه تجاهل وغض البصر والفكر وهو يسحب لجام الفرس جانباً ليخلص رأس حصانه من بين كفيها ثم قال بصوت أجش: «أنت امرأة صعبة»».

ودون أن يمنحها فرصة الكلام، حرك الحصان برشاقة وانطلق به.

***

بعد نصف ساعة

فُتحت بوابة دار مروان الضاري، ليخرج أولاً الشاهدان مُغادرين على عجل، يلحق بهما مأذون القرية وصفوان الضاري الذي حمل متاع دليلة إلى السيارة التي جاء بها الحاج عبد القدوس، فقد تم الاتفاق بعد عقد القران أن تقضي الليلة في دار أخت الحاج عبد القدوس حتى يأتي (زوجها) صباح الغد ويأخذها إلى داره، الحاج عبد القدوس أصر على هذا كي يأخذ خبر الزواج وقته وإشهاره دون تسرع، الهمس علا بين جمهرة الناس وهم يراقبون ما يحصل حتى بدأ المشهد الذي ينتظرونه، خروج مهيب لدليلة الضاري اجتذب كل الأنظار، تتقدم الحاج عبد القدوس بخطوات ثابتة شجاعة، تأبى التخفي خلفه، شامخة لا تبالي برجم شرفها بالباطل على عيون أراذل الأشهاد.

غادر المأذون وهو يهز رأسه بأسف على ما يحصل، بينما ارتفعت الأذرع بتحفز واستعداد، والحجر في يد الكبير قبل الصغير، لكن ذراع الحاج عبد القدوس ارتفع أعلى حاملاً المصحف الكريم حتى يكاد يطال به عنان السماء، ارتبكت قسوة التعابير على الوجوه والأعين تحدّق معلقة بالمصحف، ترددت النيّات في الصدور لكن أذرعهم ما زال الشيطان يرفعها عالية، فلا تميل الأكف للتراجع عن الرمي حتى اللحظة، يتصدر صفوان الضاري الواجهة بعد أن وضع الأغراض في صندوق السيارة، فانقلبت الوجوه مكفهرة الآن، والأعين ترمي بالرصاص لا الحجر تحفزت

النيات والأهواء مجدداً، والشيطان يروي فيها عطشه إلى المزيد من ذنوب البشر، حتى ارتفع صوت الحاج عبد القدوس جهورياً يزلزل القلوب: «حدّ الله في رمي المحصنات الغافلات دون دليل بأربعة شهود، رأوا بأعينهم ويشهدون، دليلة الضاري طاهر ثوبها يا أهل قرية الشيوخ، وقد باتت شرعاً في عهدة زوجها، صفوان الضاري، حدّ الله بينها وبينكم، اتقوا يوماً لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم».

ينظر الحاج بمهابته المؤثرة في عيون الناس ثم يمرر نظراته إلى أكفهم المرفوعة بالحجر والحصى، ليضيف بصوت أشد تأثيراً وقوة ووعيداً: «اتقوا ناراً وقودها الناس والحجارة».

سقطت عدة أذرع وتدحرج من أكفها الحجر للأرض كأنها لسعتهم بالنار بعض الأفواه تستغفر ويستعيذون بالله من نار جهنم؛ لكن **ليس كل الأنفس بالروادع سواء، فما زال هناك من يجد في الرمي بالباطل لذةً وإغواء ربما جهل وتضليل، وربما حسد ورغبة تنكيل، ولكل ابن آدم أهواء.**

يقرؤهم صفوان كما قرأهم الحاج عبد القدوس، فيشير للحاج بصمت أن يأخذ دليلة إلى السيارة وعيناه تراقبان الحشد بانتظار حجارة بهتان وغدر، فأتت (الحجارة) من امرأة ذياب التي اغتاظت وبرغبة التنكيل حامت، تقدمت خطوتين وبكل غل وغيظ رمت حجارتها، كان صفوان لحجارتها بالمرصاد فتحرك مع تحركها ليصد، فأصابت حجارة الغل جبهته وفي لحظات كان دمه يسيل على جانب

وجهه، شهقت النسوة وارتعدت زوجة ذياب من هول فعلتها، وارتجف الأطفال فزعين من رؤية (الوحش) ملطخاً بدمائه، انكمشت النسوة خطوة للخلف وهي يتهامسن بصدمة («لقد أصابت ابن الشيوخ» لقد أسالت دمه «سيقتلها» «ستُعاقب»).

جمل تتراشق همساً بينهن وزوجة ذياب تشحب أكثر وأكثر وهي تتطلع إلى صفوان الضاري الذي أرخى أجفانه ولم يحاول حتى مسح الدم الذي يتقاطر على جلبابه وعباءته، وفي لحظة غباء وتهور أرادت أن تخلص نفسها وتدير مواقع الاتهام لتهدر برعونة: «إنه فاجر مثلها يستحق الرجم، هذا الزاني، الخائن، كما تستحقها شريكته دليلة، حتى لو كان ابن الشيوخ فحدُّ الله فوق كل الحدود».

شهقات النساء علت لجرأتها في الكلام، ورغم رغبتهن التي تحفزت للمشاركة برمي الأعراض دون بينة أو دليل إلا أنهن لم يجرؤن لفعلها علناً بوجود صفوان الضاري الذي لم يبدِ حتى اللحظة أي ردة فعل واضحة لإصابته في جبهته، دليلة مع الحاج عبد القدوس ما زالا لم يركبا السيارة بعد، الحاج مذهول مما حصل ويفكر بما لا تحمد عقباه ويدفع صفوان الثمن، أما دليلة فلم تهتم إلا بالنظر إلى صفوان لم تحضر عقد القران وقد وكلت الحاج عبد القدوس لتزويجها، كانت تريد أن تراه ملء عينيها وتقرأ كل ما يدور في خلده، اللحظة وهي تراه هكذا، تستلذ برضا لا يقابله رضا آخر في هذه الدنيا القذرة التي لم تر

منها إلا القهر والخذلان، وكأن صفوان بات رمزاً لذاك الظلم ورغبة مجنونة داخلها تجعلها تلهث كي تلتقط حجارة وترميه هي الأخرى ليتها تصيب قلبه بتلك الحجارة لينزف حتى الموت، كما نزفت هي طوال عشر سنوات حتى ماتت، فجأة أخذ جسد صفوان الضخم المخيف، يرعد، وفي لحظة كان يفتح عينيه تشتعل خضرتهما غضباً مهولاً فيزأر كوحوش الصحراء الضارية عندما تهتاج، أصابت رعدة الخوف والصدمة كل من كان ينظر إليه فقد تعودوا منه الترفق والسلام، فجعلهم يتقبلون هيئته المخيفة؛ لكن اللحظة وهم يرونه بهذه الصورة، يزأر كوحش سيهاجمهم ويقطعهم إرباً، جعل النسوة تصرخ فزعاً، والأطفال، غلماناً وصبايا، يهربون بقلوب راجفة ومخيلتهم تختزن لكوابيس سيحلمون بها الليلة عن (الوحش الفاجر)، كاد صفوان يفقد صوابه بالفعل؛ لكن الحاج عبد القدوس هبّ لينصره على غضبه، أمسكه الحاج من ذراعه وقال بصوته المؤثر: «اذكر الله يا صفوان، استعذ بالله من الشيطان الرجيم».

صرخ صفوان: «بأي حق يرموننا في أعراضنا».

التفت الحاج عبد القدوس لامرأة ذياب وسألها بنبرة صارمة: «لقد رميتِ مسلماً ومسلمة في عرضهما، واتهمتِ كلاهما بالفجر والزنا، وأمام الملأ، هل لديك أربعة شهود عدول؟».

ارتبكت زوجة ذياب وهي تتطلع حولها وتقول بافتراء:

«الكل.. يعرف، الكل قال أنهما..».

قاطعها الحاج وصوته يعلو فوق كل صوت في تلك اللحظة العصيبة: «لا يوجد في حد الله (الكل يعرف، الكل قال) إن لم يكن لديك أربعة شهود رأوا بأم أعينهم فعل الفاحشة، فأنتِ من سيقام عليك الحد لرمي المحصنات».

شهقت زوجة ذياب وأخذت تتراجع للخلف وهي تحاول أن تنفذ بجلدها قائلة: «أنا.. لا أعرف أنا سمعت الناس.. يقولون، هم قالوا.. أنا فقط».

هتف بها الحاج عبد القدوس: «ارجعي إلى دارك أصلحك الله، وصوني بناتك، فما ترمينه اليوم سيُرمى عليك فيهن غداً».

أخذت زوجة ذياب تولول وهي تهرول هاربة من الموقف، فأخذ الحاج عبد القدوس يوجه كلماته للباقين قائلاً بزجر: «إن هي إلا كلمة (زانية)، العين لم تشهدها، لكن الفم يقولها، والأذن تصدقها، ونار جهنم ستحرق (راميها) يوم الوقفة الكبرى عند المولى».

ثم هتف بهم: «ارحلوا إلى بيوتكم أصلحكم الله جميعاً وهدانا وإياكم».

رحل الجميع ما بين مطأطئ مُستغفر، وممتعض يفكر أن الحاج عبد القدوس لا يريد إلا ستر (الزاني والزانية)، وجاهل قلب وبصيرة يودّ معرفة المزيد عن أصل الحكاية، أي حكاية، لا يهم صحة التفاصيل، بل يهم متعة الاستماع

إليها والمشاركة فيها، ربّت الحاج عبد القدوس على ذراع صفوان وقال: «امسح دمك ونظف جرحك».

أطرق صفوان قائلاً بعنفوان: «جرح الجسد يلتئم يا مولانا، والدم الذي سال مني سيجف، لكن رمي في عرضي جرح لا يلتئم أبد الدهر، ونزيفه نهر لا يجف».

لم ير كلاهما تلك الابتسامة على فم دليلة ولم يسمعا قولها الخافت وهي تفتح الباب لتركب السيارة: «تذوق يا صفوان، تذوق فسوف تشرب الكؤوس كلها وحتى آخرها».

عيناه أتت في عينيها في اللحظة التي جلست فيها في المقعد الخلفي، فقرأ وتوجع وجاشت في صدره الجيوش أغلقت الباب واحتجبت عنه، فزادت في قلبه لوعه و.. غفلة.

***

مع مغيب الشمس

عند باب مخدع عجمية تقف نسرين قلقة بعض الشيء وهي تنظر إلى حماتها التي لا تفارق سجادة الصلاة منذ ثلاثة أيام، وقد اتخذت طريق الصيام عن الطعام والكلام، أتت الخادمة من خلف سيدتها وسألت: «هل أفطرت العمّة عجمية».

تهز نسرين رأسها بـ(نعم) وعيناها لا تفارقان جسد حماتها المتربعة فوق السجادة ورأسها المطرق كأنها تتذلل تمتمت

نسرين وكأنها تكلم نفسها: «لم أرها يوماً بهذه الحالة، كأنها حزينة أو كأنها.. محبطة».

سألت الخادمة: «هل أرفع صينية الطعام سيدتي؟».

تحركت نسرين منحنية قليلاً كي تغلق باب المخدع وتقول: «لا.. لا تزعجيها، أشعر أنها تنشد الاعتكاف والعزلة في رحاب الله».

في ملكوت آخر كانت عجمية، كل حواسها مرهفة حتى تكاد تسمع دبيب نملة مرت قربها، كل ما يحصل حولها شديد الوضوح والاتساق وهي تجول فيه تبحث عمّن حكم عليه بالفراق، أخذت تنود برأسها وتهمس بكلمات غلب عليها توسل الأَمَة لخالقها الأوحد: «**يا قاهر الفجّار، يا عظيم يا جبار، يا من منحتني نعمة الإبصار، أصوم منذ أيام، أنشد رضاك، ونذرت النذور، سُؤْلاً لعطاياك، لم أطلب منك يوماً رؤية منعتها عني؛ لكني اليوم أتذلل لك بالطلب فتقبله مني، سأظل واقفة على باب كنوزك، افتحها لي يا سيد الأكوان، وتفضل عليّ بقبولك**».

ظلت عجمية على هذا الحال من التوسل والطلب لساعة أخرى أو تزيد، ثم أكثرت من قول: «اللهم صل على محمد وآل محمد، يا عظيم يا عظيم بحق اسمك الأعظم، أرني قبر المذبوحة ابنة طحنون».

وما زالت على هذا حتى أتاها إحساس الطوف فوق محيطها المادي، فرفعت وجهها بلهفة وعيناها تتوهجان وهما

تحدقان في السماء عبر الشباك أمامها، تجول وتجول فوق بساتين القرية، تهب ريح أخر تحمل بصيرتها لما هو أبعد، تلهث وهي تكرر: «اللهم صل على محمد وآل محمد، **يا قاهر عباده بالفناء، اكشف لي ما تخبئه رمال الصحراء**».

تعاظمت الريح حتى لم تعد تميز إلى أي جهة من الصحراء تحمل بصيرتها، وفجأة رأتها، لم تكن إلا خرقة.. خرقة خضراء تلتف حول معصم المذبوحة، رمال كثيرة، كثيرة جدا تغمرها، ثم مطر.. مطر شديد يقارع الرمال في تحدٍّ أن يعرّيها.

وكما ظهرت فجأة اختفت فجأة، وحلّ ظلام أسود دامس عبست عجمية وهي تهتف: «أين الخرقة؟ لم أصل للمذبوحة بعد»».

تداخلت الرؤى مع هبوب ريح غريبة تحمل رائحة النجس شعرت عجمية بالقرف والغثيان والريح السوداء حجبت ما عداها من الرؤى، لا لم تكن ريحاً وعجمية تتبينها الآن، بل روح سوداء تقترب من القرية تتخفى بالمطر الذي بدأ يهطل بغزارة، ثم أخذت تتجسد بثوب أحمر وتحمل في يدها خنجراً ملطخاً بالسخام وقبضته محروقة، يتقاطر منه الدم، تمتمت عجمية ووهج عينيها يشع بالقوة: «دنانير الغجرية»».

ثم تعلقت بصيرتها بذاك الخنجر مطوّلاً فقالت بتمتمة خافتة: «هل نسته الغجرية أم أنساها الشيطان؟ أم هي

تدابير مالك الأكوان؟»».

وعلى حين غرّة أبصرت عجمية كلباً.

***

كلب يقترب من بقايا دار دنانير المحروق، يبحث بين الأكوام عن شيء يقتات عليه، المطر غزير لكن الجوع يفتك بالحيوان، في زاوية جدار محروق مُهدّم، لمح الكلب جسداً بشرياً ممدّداً على الأرض العارية، اقترب منه ثم أخذ يتشمم فيه، جسد رجل بشعر طويل منكوش ولحية كثيفة تملؤها القاذورات وبعض بقايا الدم، أخذ الكلب يلطع فيه وفي اللحظة التالية كان يطلق أنينَ وجعٍ عندما انغرز في رقبته بغتةً، خنجر بقبضة محروقة، يتلوى الكلب والدم الغزير ينزف منه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، نهض الرجل وهو يرمق الكلب بنظرات مجنونة بينما المطر الغزير يختلط بالدماء، تمتم مروان بصوت لم يعد هو ذات صوته المعهود: «وبشِّر القاتل بالقتل»».

***

دار شيخ الشيوخ.. عبد الجبار الشيخ

في جنح الظلام وتحت غزارة الأمطار يتحرك الشيخ عبد الجبار بصحبة أحد رجاله الذي حمل له المظلة كي تقي شيخ الشيوخ من غزارة الأمطار وهما يتجهان إلى بوابة الدار، سأل الشيخ بتعابيره الخشنة المتجهمة: «ألم تقلْ لك ما الذي تريده مني؟»».

رد الرجل: «لا يا شيخ، فقط قالت إنها تطلبك في أمر عاجل ومُلح، حياة أو موت».

هزّ الشيخ عبد الجبار رأسه حتى وصل البوابة وقد وقف الحرس احتراماً له، وهناك رآها بثوبها الأحمر ولا تحتمي بأي مظلة، فقط عباءتها التي تنافس ثوبها حمرة، بادرت هي لألقاء التحية ببعض التذلل والمداهنة: «أسعدك الله أيامك بالخير يا شيخ الشيوخ، فضلك لن أنساه أنكَ رضيت الكلام معي في هذا الوقت واستجبت لمناشدتي».

لم يتأثر الشيخ عبد الجبار بمحاولتها ليسأل باختصار: «المطر شديد، فقولي ما عندك».

ردت دنانير وهي تطرق ببعض المسكنة وادعاء الخوف والضعف: «جئتك يا شيخ الشيوخ ألتمس عدلك وحمايتك، جئتك مُستجيرة».

سألها وكأنه يقول أمراً واقعاً: «أنت دنانير الغجرية، أليس كذلك؟».

رفعت دنانير وجهها عالياً، هذه اللحظة التي انتظرتها طويلاً كي تعلنها على الملأ، قالت بفخر: «أنا زوجة مروان الضاري».

ثم ربتت على مكان بطنها لترفع صوتها أكثر وتضيف: «وأم ولده القادم».

***

الغزل التاسع

(خيط الطمع، خبيث غدّار، يُخادع بلمعة كالذهب، ثم يقطع كسيفٍ بتّار).

وسط مجلسه الفارغ يجلس الشيخ عبد الجبار بتجهمه الطبيعي المألوف، يدخل عليه أحد رجاله فيبادره الشيخ بالسؤال: «هل أوصلتها إلى دار المضيف الغربي كما أوصيتك؟».

رد الرجل: «أجل يا شيخ، هي ومعها أخوها حبّاس».

التمعت عينا الشيخ بالتساؤل قائلا: «أهو أخوها بالفعل؟ ذكّرني بالحكاية».

رد الرجل موضحاً: «هذا ما أخبرتنا به الغجرية وأشاعته بين الناس منذ وصولها إلى قريتنا قبل سنوات، قالت إن أمها وجدته رضيعاً، فأخذته وأرضعته واعتنت به كولد لها بدلاً عن ولدها الذي مات من الحمى، والله أعلم».

تمتم الشيخ عبد الجبار: «والله أعلم».

ثم أشار للرجل يأمره بالقول: «اذهب إلى دار ولدي ناصر وأخبره أن يأتيني في التو واللحظة».

رد الرجل: «أمرك يا شيخ».

***

بعد ساعة أو تزيد..

بحاجبين معقودين كان ناصر يستمع لأبيه بتركيز، وعندما انتهى كلام الشيخ علّق ناصر بتساؤل: «ماذا تنوي أن تفعل يا أبي؟».

رد الشيخ عبد الجبار: «الأمر يحتاج للتفكر بتأنٍ».

تنهد ناصر وهو يقول بضيق لحساسية الموقف: «لماذا رضيت أن تستضيفها يا شيخ؟ لا نريد المشاكل مع عشيرة الضاري، حمدان صغير العقل، وستصور له نفسه المغرورة أنك تنزل لمقامه وتتحداه وتقلل شأنه أمام عشيرته».

رد الشيخ عبد الجبار باختصار: «إنها مستجيرة، وهذه أعرافنا».

سرح الشيخ ببعض التفكير فيسأله ولده البكر قائلاً: «ماذا يدور في خلدك يا أبي؟».

رد الشيخ عبد الجبار: «علينا أن نتصرف بحكمة في هذا الأمر، فهذه المرأة أتت وفي يدها كرة نار، قد ترميها في وجوهنا في أية لحظة».

عندها سأل ناصر: «هل رأيت عقد الزواج؟».

هزّ الشيخ رأسه بـ(نعم) ثم قال: «ليس عقداً نظامياً، لكنه يبقى عقد زواج وبشاهدين، ونسختين».

عندها تعجب ناصر وهو يتساءل: «نسختين؟ ألا يفترض أن تكون نسخة واحدة عندها والأخرى عند مروان؟».

رد الشيخ وهو يقلّب الأمور في رأسه على كل الأوجه:

«قالت إن (زوجها مروان) طلب منها الاحتفاظ بنسخته، فلم يُرد أحد أفي القرية أن يعلم بالأمر، وأنه كان يخشى غضب والد زوجته (شهلة) تحديداً».

يقول الشيخ قوله هذا وفي سره تدور الشكوك (هذا أن كان زوجها بالفعل)، يتساءل ناصر: «لكن لماذا اختارتك أنت؟ لماذا لم تذهب إلى شيخ عشيرة زوجها أن كانت تنشد الحماية كما تجري الأعراف؟».

عينا الشيخ عبد الجبار التمعتا بفطنة أهل البدو وهو يفسّر: «لعدة أسباب، أولها أن هذه المرأة داهية، وهي تعرف أن شيخ عشيرة الضاري ضعيف ولن يحميها من بطش ذياب وخلفان، وثانيها، تريده إعلاناً على الملأ لكل العشائر وليس عشيرة الضاري وحسب».

عبس ناصر ليقول بتوجس: «أشعر أن المرأة تخطط لما هو أكبر من مجرد الاعتراف بها زوجة لمروان الضاري والبنوة لولدها منه كما تدّعي وتظهر، سعيها للإعلان بهذه الطريقة وكأنها تريد أكثر مما تظهر بكثير».

سأل الشيخ ولده: «أخبرني ما تعرفه عن حكايتها مع مروان الضاري».

ردّ ناصر: «ما أعرفه هو ما يعرفه معظم أهل القرية، إن مروان الضاري كان يذهب إليها باستمرار، وهناك كانت تسقيه من أسحارها وأعمالها السوداء كما يشاع عنها، البعض كان يقول إنه عشقها وبات متيّماً مسحوراً بها، والبعض

قال إنه كان يريد الحصول على طفل بعد فشل محاولاته بتعدد الزيجات دون إنجاب».

حثّه الشيخ كي يكمل: «وبعد؟».

فأكمل ناصر بالقول: «مروان قبل أن يفقد عقله تماماً بدى في وضع عجيب وسط الناس، يترنح دون خمر، تائهاً غائباً يسير على غير هدى في طرقات القرية، ينفعل ويغضب ويصرخ في المارّة على حين غرة، وهناك من رآه.. عفواً يا شيخ فيما سأقوله، هناك من رآه يقبّل زوجته دليلة عنوة وبعنف مجنون داخل سيارته على قارعة الطريق، وأمام أعين الناس المذهولين».

يعقد الشيخ عبد الجبار حاجبيه بشدة وهو يقول بامتعاض: «قبّحه الله من رجل بلا كرامة ولا يعرف معنى الحرمة، أنا لم أسمع بهذه القصة، أتُراها مُختلقة من بعض الناس؟».

لكن ناصر أكدها له بالقول: «لقد حصل بالفعل، بعض رجالنا رأوه أيضاً وأخبروني أن مروان وزوجته كانا على مقربة من دار الحاج عبد القدوس ساعتها».

تأفف الشيخ عبد الجبار ثم سأل: «ماذا عن علاقته بدنانير الغجرية؟ وكيف انتهى معها قبل أن يجن بالكامل؟».

أخبره ناصر بما شهده بأم عينيه: «في صباح باكر أنا رأيته بنفسي وهو يترجل من سيارته وسط الطريق ويتركها دون

حتى أن يغلق بابها مشعّث الشعر، دون عقال أو كوفية، وسخ الهندام ورائحته منفرة من على بعد مترين، في حال عجيب حتى كدتُ لا أتعرف إليه ثم أكمل الطريق إلى داره راجلاً على قدميه، مترنح الخطوات، وقد كان يهذي عن قضائه الليلة في دار دنانير أمام أسماع المارة وأنا منهم، بعدها شاع خبر انهياره ودخوله المستشفى بعد أن أخذ يقذف من جوفه، كتلاً دموية غريبة».

تمتم الشيخ عبد الجبار ببعض السخط: «لم يعد ينقصنا إلا أن نسأل عن حكايات الدجالين والمشعوذات ما هذه البلوة رجل وله شارب نتلاعب به الغجرية كما نتلاعب بعقول النسوة الساذجات».

ثم نظر الشيخ إلى ولده البكر وأضاف بسؤال: «هل تعلم ما هو مهر دنانير في العقد؟».

رد ناصر مخمّناً: «دار مروان الضاري».

فهز الشيخ رأسه وقال: «أحسنت التخمين».

علّق ناصر بالقول: «هذه المرأة أراها محتالة، الأمر كله لا يريحني على الإطلاق يا أبي».

فقال الشيخ عبد الجبار مُعقّباً: «ولا أنا، لكننا سنتصرف بحذر، ويجب أن نضع بنصب أعيننا أن مروان الضاري قد يكون فعلها وتزوج الغجرية بالفعل».

لكن ناصر أصرّ بالقول: «لكنه لا ينجب منذ عشر

سنوات تزوج أكثر من امرأة ولم يحظ بطفل واحد».

فرد الشيخ: «الله أعلم، لم يثبت هذا بدليل».

قال ناصر وكأنه يكلم نفسه عن مخاوفه: «أخشى ما أخشاه أن تتخذه عشيرة الضاري سبباً لتظهر عداءها لنا».

وقف الشيخ عبد الجبار على قدميه وهو يعدل من عباءته الصوفية فوق كتفيه ليقف ولده معه بينما يقول الشيخ بنبرة آمرة: «أريد منك منذ الصباح الباكر أن تستقصي لي كل التفاصيل عمّا حصل قبل أسابيع، منذ قرابة الشهرين تقريباً، تحديدا منذ حادثة حرق دار دنانير واختفائها الغامض والأيام القليلة التي سبقت هذا الحدث».

***

ظهر اليوم التالي

يقود صفوان سيارته على مهل وهو يتطلع بتفكر إلى وجوه أهل القرية المراقبة، لكن اليوم أعينهم لا تحمل ما حملته بالأمس، دلال إلى جواره شامخة وهي تبادلهم النظر بترفع ساخر، كأنها تتشفى بهم وهم لا يعرفون على من يلقون التهم، خبر عودة دنانير الغجرية واستجارتها بشيخ الشيوخ انتشر في القرية بأسرها، كشعلة نار صغيرة تطايرت في ليلة عاصفة من جوف تنور طيني مشتعل بالحطب، فطالت النيران كل البيوت، انشغل الناس بحكاية اليوم عن حكاية الأمس القريب، ولم يكن الخبر عادياً، فشاعت الأقاويل وكثرت الحكايات، وشهقت الأنفاس في الصدور ولطمت

أكف النسوة على الخدود، لقد عادت الغجرية وهي تحمل في جيبها عقد زواج من ابن الشيوخ (مروان الضاري)، ومهرها لم تحصل عليه أيّاً من زوجاته السابقات، (دار مروان الضاري).

كانت مفارقة عجيبة والبارحة فقط قد غادرت تلك الدار مطلقته (دليلة الضاري)، مطرودة، مرجومة في شرفها، معقود قرانها على الرجل الذي حمل معها أثر الرجم في شرفه، فبات الناس في حيرة وتخبط وظنون وتكهنات، ثم مخاوف وتوجس من ردة فعل الأخوة الضاري وقد استجارت الغجرية بحماية شيخ الشيوخ وكأنها تهين عشيرة الضاري برمتها وعلى رأسهم شيخها، حمدان الضاري، والأدهى من هذا وذاك أن الغجرية أعلنت حملها بالولد، (الابن) الذي لم يحظَ به مروان الضاري طيلة عشرة أعوام، فعدّد بالزوجات ولم يحصل على النيّات، ووسط كل هذا اللغط والمخاوف والنظرات المراقبة من الناس، فإن قلبه لم يطاوعه كي يتجلّد رغم الوصيّة.

منذ الفجر وصفوان يكلم قلبه ويتحايل عليه بالإقناع، (اصبر يا قلب ابن سدرة، وتجلّد، لا تضعف، لا تفضح، لا تغفل).

فيرد القلب، **الجلَد في حكم العاشقين باطل، والضعف للمتيّمين عادة والفضيحة سعادة، الغفلة في الهوى براح المشتاقين، والعقل زنزانة المُدركين.**

تمتم صفوان في سره وعيناه تمتدان بالبصر إلى كفها الأبيض: «قلبك معها كطفل لا يدرك، ولا يفقه حديث العقلاء».

تتردد جملة عجمية العنيدة مجدداً في عقله (**احذر من غفلة ينسجها قلبك**) فيتنهد وهو يوقف سيارته أمام بوابة داره ويترجل متوجهاً إلى تلك البوابة كي يفتحها، بينما تستمر تلك الكلمة تضرب عقله علّها تجد منفذاً لقلبه (**احذر.. احذر.. احذر**).

عندما تحرك كي يعود إلى سيارته لم يستطع منع نفسه من النظر إلى دلال وهي جالسة في مقعدها، تخيل أنه سيراها تمعن النظر في الدار التي باتت دارها منذ يومين، لكنها لم تكن تنظر إلا إليه، تسمرت قدماه منتصف طريق العودة، (دلال الحسن) اكتسحت وأغلقت كل منافذ القلب، وهل كان للقلب يوماً إلا منفذاً واحداً، ومفتاحه في راحة كفها، ابتسمت وكأنها تقرأ (مصيبته فيها) فابتلع ريقه وأطرق، ثم عاد إلى مقعده ليشغل السيارة ويدخل بها إلى باحة الدار، يتقدمها الدخول إلى الدار الفارغة وهو يحمل أغراضها بصمت، ووسط الباحة الداخلية للدار وعند مقدمة السلم وقف ليسألها وهو يكاد يلطم قلبه بكفه كي يوقف ارتجاف خفقاته: «أين أضع أغراضك يا دلال؟ هل تريدين التعرف على دارك أولاً؟».

تحركت لتتجاوزه وهي تتطلع حولها في الدار، شمخت بذقنها ثم رفعت كفيها لتزيح الوشاح عن رأسها، شعرها

الداكن الكثيف تحرر منهمراً على ظهرها كأنه أبيات شعر بدوية تغزلها الصحراء من ظلام لياليها المقمرة، لينير القمر بدراً متجسداً في استدارة وجهها وهي تلتفت إليه، تحطم احتماله بقبضة عينيها وهي تقول باسمة الثغر: «أين غرفتي؟»».

كان صفوان مصدوماً من نفسه وهو يقف كالصنم هكذا عاجزاً عن الإتيان بقول أو فعل، تلك لحظة عجيبة من حياته، يسيطر على حواسه الانشداه، فيحرك رأسه ببطء كي ينفضه فلا تأتي محاولاته بأي نجاح يذكر، نظرة الانتصار الأسود في عينيها لا توقظه واللحظة لم يهتم بالاستيقاظ، دلال الحسن، على أية صورة أو تسمية تختارها، باتت زوجته، في عصمته، وعلى اسمه، تغطيها عباءة حمايته، يجمعهما دار، كأنه اجتهد طوال الأشهر الماضية كي يجدّدها ويرمّمها لأجلها هي دون أن يعرف فسبحان من له التدابير، أرخى نظراته عنها مُجبراً، وللمرة الأولى في حياته يشعر بسنيّ عمره وقد بلغ منتصف الثلاثين، وكأن عمره توقف برحيله عن دلال، تركه خلفه في قرية الشيوخ ليلة هروبه، تقدم خطوة دون شعوره وهو يقول بصوت أجش: «علينا التحدث»».

طاقات من غضب شعّت منها كبّلت قدميه وأوقفته في موضعه قبل أن تستدير بحركة حادة توليه ظهرها وهي تقول بقسوة: «سأبحث عن غرفتي بنفسي»».

تقبضت يداه لكن احتمل رفضها، يراها ترتقي درجات

السلم ترفع طارف عباءتها السوداء الثقيلة، سواد شديد يليق بروح من ترتديه، أخذ نفساً عميقاً وهو يرتقي الدرجات خلفها يلحق بظلها الأسود، تركها تتفحص الغرف الواحدة تلو الأخرى والصمت رفيقهما، حتى أطالت البقاء بإحدى الغرف، لم تكن أكبرها ولا أصغرها، كل ما يميزها إنها الغرفة الوحيدة المسكونة في هذه الدار وأولى ملامح السكن كانت في رائحة العود الطاغية، ثم نظرة للزاوية حيث العباءة الرجولية الفاخرة المعلقة على مشذب خشبي أنيق، تقدمت دليلة من منضدة زينة ذكورية التصميم تميل للبساطة الشديدة كباقي أثاث الغرفة بلون الخشب الداكن، فتمد يدها لتلامس مشطاً بنياً بأسنان كبيرة متفرقة، تبسمت هازئة من الماضي، ألم تكن هي من اقترحت عليه شراء هذا المشط؟ شعره الأجعد كان معضلة بالنسبة إليه، جاءها صوته مفضوحاً برعشة يحاول بشق الأنفس إخفاءها: «هذه.. غرفتي».

لا تعلم لماذا استفز غضبها بلفظ التملك في الكلمة، وطغى سعيها كي تسلب منه كل شيء، فدفعها للقول بقرار: «باتت غرفتي».

قالتها بهدوء شديد ثم حملت المشط تتلاعب به بين أناملها وهي تستدير لتواجه وقفته الثابتة عند باب الغرفة، لا تعلم ما الذي دفعها إلى طرح السؤال: «هل تزوجت في غربتك يا صفوان؟».

رد وعيناه في عينيها: «لم أفعل».

هل هذه تنهيدة راحة توشك أن تغادر رئتيها؟ ما الذي يريحها بالضبط؟ إنه محروم من النساء وسيعذبه أكثر ما تنوي فعله معه؟ أم لأنه لم يتزوج غيرها ولم يعرف سواها؟ هي، دلال الحسن، شيطان نفخ في أذنها بوسوسة، (وهل هذا يمنع أن يعرف النساء ويحبهن ويعاشرهن؟ بلاد الغربة تفعل الكثير بالرجال، والمحظورات تباح)

طفح سوادها لتسأل ببرود: «أمستعد لسماع الشروط؟».

انحنى ليضع أغراضها جانباً داخل الغرفة وهو يرد: «مُجابة قبل سماعها».

للمرة الأولى تمعن النظر في جسده، بات أكثر امتلاء وضخامة، فتتساءل كم من التغيرات الأخرى طرأت عليه، قلباً وقالباً، ضحكت ضحكة قصيرة ساخرة قبل أن تقول: «ربما ستغير رأيك وتتراجع».

يعدل من عباءته الصوفية فوق كتفيه لينظر إليها مُطولاً قبل أن يقول بصبر: «لقد قطعت عهداً أمام مولانا عبد القدوس».

صفعت رجولته بالقول: «لحسن حظي أن عهدك هذا شهد عليه مولانا، فعهد دون شهود كزواج دون عقود، كلاهما باطل».

مواجهة، العين بالعين والقلب يقارع القلب والغازلة لا تخلى عن إتمام غزلها، الذاكرة لعن الله ذاكرة نعتاش عليها

لسنوات، ثم نكتشف بغتة أنها لم تقدم لنا إلا إحساس الوهم وعاطفة سراب.

(لقد بدأت أيأس يا دلال، لن أحتمل أن أصحو يوماً على خبر خطبتك لرجل آخر) (إياك أن تتخلى عني يا صفوان) (أموت ولا أفعلها).

(أموت ولا أفعلها)، كم مرة قالها لها هذا الخائن الغدّار وقد صدّقته، آمنت أن الموت هو من فعلها وأخذه منها، فماتت معه، قاطع صفوان (الذكريات الملعونة) بصوت أجش: «ما هي شروطك يا دلال؟».

تحركت مستديرة بكل جسدها لتقف ساكنة للحظات، روحها من العمق تهتز بعنف، روحها تصرخ حتى ترجّ أركان ثباتها بذاك الصراخ، أغمضت عينيها تحتمل هذا الصراخ المدوي، ثم تستعيد تركيزها وهي تفتح عينيها أخيرا على وسعهما، وتعود نظراتها لتغرقا في الظلمة، **يدور المغزل، وبمقصده لا يهزل.**

رفعت أصابعها لتفك ازرار عباءتها وعيناها مثبتتان على السرير المزدوج الضخم، ينفخ الشيطان بالمزيد فيتخايل إليها صفوان مستلقٍ عليه برفقة (زوجة)، إحدى الصبايا الملاح اللواتي كانت تعلمهن الغزل، رمت مشطه أرضاً، ثم نزعت عن جسدها العباءة بعنف مكبوت فتكشف عن ثوب أبيض مبهر، مذهب الحواف، تفاصيل خطوطه ترسم جسدها، وفتحة صدر كشق طويل يكشف نحرها

الأبيض في مواراة، لقد كان أقرب لثوب عروس، لم تلتفت إليه لكن لهاث أنفاسه المسموع يفضحه، تعاظم داخلها إحساس الرضا وهي تتقدم بثبات ناحية السرير لترمي على حافته عباءتها ووشاحها، ثم تتحرك إلى الجانب وتتسلق السرير الضخم لتجلس عليه، تطوي ساقيها تحتها بأنوثة عارمة ثم تمد كفيها للخلف تجمع شعرها الكثيف لتضعه فوق كتفها الأيمن، وعندها فقط نظرت إليه، ابتسمت وهي ترى عذابه في عينيه، لتقولها بنبرة مسيطرة: «شرطي الأول، أنت لن تقربني حتى أقول (نعم)». أبعد عينيه على الفور ليحدق في جدار وهو يبتلع ريقه أمام ناظريها المتلذذين، فتزيد بالقول: «وقد.. لا أقولها أبداً».

تمتم بخفوت خشن وهو ما زال يحدق في الجدار: «شرطك مُجاب».

أرادت أن تنطق شرطها الثاني لكنها توجعت دون أن تشعر كفها هبط إلى بطنها، ومن قلب وجعها وجدت القوة والعناد كي تقولها: «وإن حصل وقلتها يوماً، فلن يكون هناك أطفال».

عندها التفت إليها ملهوفاً قلقاً يسألها: «ماذا تقصدين؟ ألديك مشكلة؟ نستطيع أن..». قاطعته بالقول الخشن: «ليس لدي أي مشكلة، لكني لا أريد أطفالاً».

يعقد حاجبيه وهو لا يفهم ثم يسألها بحيرة ودهشة: «لكن، لماذا تريدين حرمان نفسك من فرصة الإنجاب؟».

بشراسة تفسّر ووجعها يشتد ضراوة: «أنا أحرمك أنت، أريدك أن تذوق ما ذقته أنا لعشر سنوات».

جحظت عيناه وهو يتمتم: «دلال».

هدرت فيه وهي تميل بجذعها للأمام كأنها تهاجمه: «وليتني أستطيع أن أفعلها وأذيقك كل المرار والظلم».

تقدم خطوة وهو يقول: «أنا لم أتخل عنك».

نظرات عينيها كانت رهيبة مخيفة ومظلمة تشع بالقسوة، قالت تسأله: «هل كنت ميتاً وأحياك الله كأصحاب الكهف؟».

إنها لن تصدقه مهما قال لن تفعل، يرى في عينيها كل هذا بينما يرد باختصار: «لا».

وكأن عجزه عن التفسير مطلبها كترياق يجعلها تلفظ الأوجاع من جوفها كما يُلفظ السمُّ الزُعاف، بدت فجأة متعبة شاحبة وهي تتمتم: «إذن لا شيء تقوله».

ثم تحركت لتميل بجسدها حتى تضطجع قائلة: «دعني أنم.. لم أتذوق هناء النوم منذ اثني عشر عاماً».

سكنت الأنوثة الثائرة، فوق فرشته، وليل شعرها على الوسادة، مهجعة، يقف المتيّم في حضرة (دلال الحسن) للدنيا مُعتكفاً، ومهابة لمس حسنها تقهره، فيترك لعينيه عذاب اللمس بالنظر، والقلب من الغيرة انفجر أيا شوق الصبا، كيف بات عظيمُ الأوجاع تمنعه.

جاءه صوتها خافتاً وكأنها على أبواب حلم أو ربما كابوس: «كيف نسيت شرطي الأخير؟».

عيناه تداعبان بالنظر قدميها وخلخال ذهبي رقيق يلتف حول كاحليها بينما يرد بنفس الخفوت: «مُجاب».

تمتمت: «لا زوجة ثانية».

أشفق عليها أكثر من إشفاقه على نفسه، يمر بناظريه فوق جسدها الحبيب فلن يحرم نفسه من هذا وقد باتت (حلاله)، ولتحرّم هي عليه الباقي إلى ما شاء الله، فلتحرّم وتنتقم، وتبني معاقلاً للظلم، فمصيرها تنهدم، قال وهو يتراجع مغادراً: «نوماً هنيئاً يا دلال، تدثري بغطائي سيقيك البرد».

***

(دار المضيف الغربي)

تتحرك دنانير في أرجاء الدار الصغيرة وحباس يلاحقها كظلها، تلامس الجدران والأبواب، تمر بأناملها فوق قطع الأثاث المستعمل فتبدي تعابير وجهها الامتعاض من (مقام الدار) الذي وفّره لها الشيخ عبد الجبار، عين الطمع لا ترتضي ما تراه، ولا بديل سيرضيها إلا حين تخطو بقدميها دار شيوخ الضاري وولدها (الحُر) يسدُّ عين الشمس ليكون شيخ شيوخ العشائر، وقفت مطوّلاً أمام صقرٍ محنّط، توهجت عيناها وهي تفكر باختيارها لاسم ولدها، (الحُر): من أسماء الصقور، وسيكون صقراً ضارياً

ينهش كل من يقف أمامه، اشتدت نظراتها توهجاً وعقلها يأخذها لمنطقة خطرة، تلك المنطقة التي لا تهاب دخولها، ولا تخشاها، هي دنانير، ربيبة الغجر، منذ الثامنة أخذتها أمها من يدها إلى أول رجل لامس جسدها كبضاعة، تتذكر ارتجاف جسدها خوفاً منه وأصابعه تغور عميقاً في لحمها الطري كلحم طير، وقد أمتعه ذاك الارتجاف منها، فأخذ يضحك اليوم وهي تتذكر ذاك الرجل الضخم الذي اغتصبها فيما بعد في إحدى خيم الغجر، تكاد تضحك كضحكاته من سذاجة تلك (الطفلة).

حسن، لم يكن اغتصاباً، ولم يكن حدثاً صادماً، كانت فقط بعض الممانعة لتجربة أولى حملت أذى جسدي أكثر منه معنوي، فأمها أتقنت تحضيرها للحظة كهذه، كانت دروساً مهمة وهي تشرح لها ما يعجب الرجال وكيف تدعهم يلمسون ما يشاؤون وكيفما يرغبون، وقد كانت طفلة نجيبة، تعلمت الدروس ومرت بالتجربة الأولى، وإن كان هناك أمراً واحداً كرهته في تلك التجربة، فهي فكرة ألا يكون لها السلطة العليا وأن يتحكم بها جسد رجل، فقررت أن تكون هي المتحكمة وقد فعلت، كرّرت التجارب، الواحدة تلو الأخرى، حتى تحكمت وسيطرت وأمرت ونهت، ثم استهواها التحكم أكثر فطمعت بالمزيد وهي تتعلم خدع الغجر، التلاعب بالعقول أمتع بكثير من التلاعب بغرائز الجسد، وفي ليلة ظلماء غادرت مخيم الغجر تاركة خلفها أمها المريضة تعاني سكرات الموت بمفردها،

رحلت لتشق الطريق لا يصحبها إلا خادمها المطيع كعبد ذليل (حبّاس)، شعرت بحباس خلفها يجفل من أصوات في الخارج فزجرته بالقول الممتعض: «كفاك».

تمتم حبّاس وهو يبدو مرتعباً: «أنا خائف سيدتي، ماذا لو جاءنا ذياب الضاري وقتلنا ها هنا ولن يكون لدمنا مُطالب».

أخذت أصابع دنانير تمسد فوق ريش الصقر الناعم وهي ترد عليه بالقول: «لن يجرؤ على تحدي شيخ الشيوخ، إنه جبان».

سألها حبّاس بفضول وعيناه تعلقان بالنظر على أصابعها التي تمسد للطير: «هل تظنين قد نتسبب بنزاع عشائري جديد؟».

ردّت وهي تنظر في عيني الصقر المحنّط: «لا أظن، فما زالت دماء موتاهم حارة منذ النزاع الأخير».

التمع شر متأصل في عينيها وهي تضيف بصوت مبحوح: «ومع هذا إن لم يعطوني حقي أو حاولوا التهجّم علي، فسأفضحهم حتى يثور (نزاع) في كل دار في قرية الشيوخ».

تركت ملامسة الطير لتستدير إلى حبّاس وهي تتساءل ساخرة: «ألم تقل إنهم بالأمس كانوا متجمهرين أمام دار مروان ليرجموا مُطلقته دليلة بالحجر؟».

رد حبّاس وهو لا يفهم المقصد: «نعم، هذا كان حديث الناس في السوق وأنا ادور بينهم اليوم، أنصت متخفياً».

بابتسامة جانبية قالت دنانير: «دُعاة حُماة الأعراض والشرف فليتحققوا في وجوه أولادهم، لعلهم يحزرون إن كانوا من أصلابهم أو.. من صلبك أنت».

شحب وجه حبّاس وهو يرى ما ترمي إليه لتستمتع دنانير برعبه فتضيف بتساؤل خبيث: «ذكرني يا حبّاس، هل كنّ أربع نساء أو خمسة من جعلتهن يحملن بذرتك؟».

هذه المرة كان حبّاس يرتجف كارتجافها وهي طفلة في الثامنة؛ لكن الشر في عينيه شعّ وهو يسألها: «هل.. ستفضحينني».

ردّت بمكر: «لا تخشَ على نفسك هكذا يا حبّاس، هذه ورقتي الأخيرة إن غدروا بنا ولم يعطوننا ما جئنا وخططنا لأجله، سنفعلها انتقاماً قبل أن نهجر القرية وما فيها».

اطمأنت مخاوف حبّاس قليلاً، وفكر أن مؤكد هي لن تستغني عنه، وما زال لديه أمل أن تنظر إليه يوماً بعينٍ أخرى، سألها وهو يعود إلى الموضوع الأهم: «ماذا تظنين شيخ الشيوخ سيفعل؟ الناس تتساءل ولا يعرفون كيف سيعالج الأمر».

ردت دنانير بثقة: «سيتحقق ويسأل، وسيصل للنتيجة ذاتها، لا أحد يستطيع إنكار قضاء مروان الضاري ليلة عندي، وهوسه بي حتى قبل حرق داري».

صمتت للحظة عندما طرأ ببالها أمر فأضافت في نبرة أمر: «منذ اليوم أريدك أن تبحث في كل مكان عن مروان».

تذمر حبّاس وكأنه يغار قائلاً: «ما لنا وماله؟ ثم إذا كان أخوته الذين يعرفونه جيداً لم يجدوه، فكيف سأجده أنا».

ردت عليه بحزم: «ستجده، أنا سأخبرك أين يختبئ منهم».

ثم ابتسمت وعيناها تلمعان بروح الشر الأصيل: «هم يعرفون مروان القديم، أمّا الجديد، فلا يعرفه أحد سواي».

تحركت ليعاود حبّاس ملاحقتها كظلها والغيرة تستولي عليه وهو يمنع يده بالقوة من أن يمدها ليلمس جسد دنانير قال أخيراً يحاول جعلها أن تنس أمر مروان: «ربما مات أو تاه في الصحراء كما يشيعون عنه».

فردت وهي تصل غرفتها: «لا ضير أن نبحث، قد احتاجه».

ثم أغلقت الباب في وجهه لتتركه هناك كالكلب المنبوذ يشمّ ما تبقى من عطرها العالق في الهواء.

***

مجلس الشيخ حمدان الضاري

ذياب في قمة الغضب ولم يكن قد تجاوز صدمته بعد وهو يرفع قبضته ويقول بأسلوبه التحريضي الخبيث: «أترضى

بها لنا يا شيخنا؟ صرنا مسخرة العشائر شيخ الشيوخ يأوي امرأة رخيصة تدّعي زوراً حمل نسل الضاري في أحشائها».

شعر حمدان ببعض التسلية وسط وجع الرأس هذا فقال باستفزاز وهو ينقل نظراته بين ذياب الغاضب وخلفان العابس: «ومن قال إنه زوراً ألم يكن شقيقكما يلازمها نهاراً وينام عندها ليلاً؟ ألم يقلها بنفسه أمام الناس وهو يترنح».

تقبضت يدا خلفان وهو يتطلع للشيخ بكره، بينما يغير ذياب طريقته في الكلام فيتجاهل استفزاز حمدان الساخر منهما قائلاً: «إذن فليعطنا الشيخ عبد الجبار تلك المرأة ونحن نتكفل بالتحقق منها ومما تدعيه علينا».

تأفف الشيخ حمدان وهو يشعر بالانزعاج مجدداً ليقول بنزق: «وماذا تريدني أن أفعل وكيف سنتحقق بالله عليك لتدحض كلامها؟ ثم إني سمعت أن لديها عقد زواج صريح وموقّع من شقيقكما المجنون قبل أن يفقد ما تبقى من عقله؟».

هبّ خلفان على قدميه هادراً: «كفاك كلاماً مسيئاً عن أخي، لم أعد أحتمل استهانتك بنا وسخريتك منا».

زجره ذياب وهو يحاول سحبه من ذراعه ليعاود الجلوس: «صه يا خلفان».

لكن خلفان أبى وهو يتحرك مغادراً: «أنا مغادر، جد أنت الحل يا ذياب، لقد سئمت من حديث الناس بنا في

كل مكان».

يراقب الشيخ حمدان مغادرة خلفان وهو يقول بترفع أجوف: «شقيقك هذا متهور، سيوقع نفسه في التهلكة يوماً ما».

فرد ذياب وهو يحابي حمدان ويمثل دور الضحية عليه: «اعذره يا شيخ، صحيح أن خلفان من سنك لكنك ما شاء الله، رمز الحكمة والرزانة، هو فقط مقهور مما يحصل، الكل بات يلوك بسمعة مروان بعد ما جرى عليه من جور وضيم وكيد نساء».

ثم أخذ ذياب يدّعي التنهد وهو يراقب الشيخ حمدان بطارف عينه مضيفاً: «البارحة مطلقته الخائنة الفاجرة، واليوم الدجالة الغجرية».

تمتم الشيخ حمدان بحسرة: «يا خسارة وقد اختارت القبيح الذميم».

لم يسمعه ذياب فسأله: «ماذا قلت يا شيخ؟».

رد الشيخ حمدان بتلاعب: «لا شيء، فقط أفكر أن الحاج عبد القدوس البارحة خلصنا من إحراج الموقف».

فيعود ذياب لنفس الموضوع قائلاً: «لكنه لن يخلصنا من إحراج اليوم يا شيخ عشيرة الضاري».

تأفف الشيخ حمدان مجدداً وهو لا يعرف كيف يتهرب من هذه المواجهة فيسأل دون نية حقيقية للتنفيذ: «ماذا

تريدني أن أفعل؟».

يرد ذياب: «أن تذهب إلى الشيخ عبد الجبار وتطالبه بتسليمنا الغجرية المحتالة».

قال الشيخ حمدان على مضض: «أنت تعرف أنه لن يستجيب، فلماذا أزعزع هيبتي أمام الناس وأهل عشيرتي».

فينغزه ذياب بالقول: «ألم تزعزعها بالأمس يا شيخ وأنت تلتزم الصمت والتجاهل؟».

نفخ الشيخ حمدان ريشه وادّعى غير ما فعل قائلاً: «كنت أعرف أن الحاج عبد القدوس سيتصرف، لقد كلّمته بنفسي قبل يومين لحماية ابنة خالكم».

فاستغلها ذياب فرصة ليقول: «إذن تكلم إلى الحاج عبد القدوس، فهو له مقام كبير عند الشيخ عبد الجبار، قل له إن..».

لكن الشيخ حمدان قاطعه وهو يرفض بالقول: «لن أتدخل في هذا، ولن أطلبه من أحد، هيبتي كشيخ تمنعني طلب وساطة لأجل أمور تافهة كهذه، خاصة مع الشيخ عبد الجبار».

يبتلع ذياب مرارة الإهانة على مضض وقد شعر بقلة القيمة أمام استهانة الشيخ حمدان، قال وهو يحاول مجدداً معه: «ألن تقف معنا يا شيخ عشيرة الضاري؟ هذه المرأة

تلوث شرف العشيرة بأسرها».

صوت صفوان كان الأعلى والأقوى وهو يدخل المجلس ملقياً تحية جوفاء ثم قال: «بل شرفك أنت وشقيقيك فقط، شرف عشيرة الضاري محفوظ».

لم يجلس صفوان وقد انكمش الشيخ حمدان ببعض التوجس من صفوان، فلا يعلم هل أخبره الحاج عبد القدوس البارحة، بعرضه الزواج من دليلة، أمّا ذياب فقد عبس وهو يدافع عن مكانته قائلاً: «ألسنا أبناء عشيرة الضاري؟ ألا يمتد نسبنا لشيوخها؟».

يشير صفوان بسبابته نحو ذياب وعيناه تحكيان القصة دون أن يفصّلها اللسان، فاكتفى بالقول: «هذه علّتك يا ذياب، نسب شيوخ الضاري».

هبّ ذياب مدعياً الحنق وهو يرد: «حدّد مقاصدك يا صفوان ولا تحاول زرع شوك الظنون بيننا وبين الشيخ حمدان».

ساد الصمت والشيخ حمدان دون شعوره يقف على قدميه فيتواجه الرجال الوقفة، عينا صفوان حملتا الكثير لكنه يكتفي بالقول الذي عرّاهما معاً: «المقاصد معلومة لنا نحن الثلاثة، إن هي إلا لعبة الاختباء التي كنت نلعبها قديماً ونحن صبية جُهلاء».

ارتبك الشيخ حمدان فيسارع برسم الابتسامة وهو يفتح ذراعيه معانقاً، مباركاً بالقول الذي فاض بالرياء: «مبارك

يا ابن عمي وأخي، مبارك زواجك».

يحتضن الشيخ حمدان ابن عمه ومن يتخذه نصيراً على أعدى أعدائه، لكن صفوان لا يستجيب ولا يبادله العناق، بل يقول بنفس النبرة: «مباركتك وصلت يا ابن عمنا الشيخ محمد الضاري».

ابتعد الشيخ حمدان ببطء عن جسد ابن عمه الضخم، ثم ابتعد خطوة للخلف ليقف جوار ذياب وكلاهما متهيبان من صفوان، كلاهما بات يدرك أن لعبة (الاختباء) باتت مكشوفة أكثر من القدرة على الإنكار، قال صفوان والنار الخضراء تشتعل في عينيه: «جئت لأشهدك يا شيخ عشيرة الضاري أن سمعت من يخوض بسمعة امرأتي بكلمة، قطعت له عنقه، فلن يكفيني قطع لسانه».

حاول ذياب الدفاع عن نفسه بالقول: «الناس هي من تكلمت وتجهرت بالأمس». تلكأ قليلاً وعينا صفوان لا تحيدان عنه ليضيف ذياب مبرراً: «زوجتي بسيطة العقل، حسنة النيّة، وقد تلاعبت النساء بعقلها وجروها معهن بغية نصرة الحق».

اهتاجت النيران في عيني صفوان فسارع ذياب ليصحّح: «أقصد ما ظنّت أنه الحق».

ثم يتبسم وهو ينظر لأثر الجرح في جبهة صفوان مضيفاً المزيد: «هي أختك ولم تقصد إصابتك يا ابن عمومتنا».

لم يتغير تعبير وجه صفوان على الإطلاق، بل اكتفى

بالقول: «لن تعتبر حتى آخر عمرك يا ذياب المولى يرسل لك الرسائل وأنت لا تعتبر، وما بين البارحة واليوم رسائل لا تنتهي، لكن أعمى البصيرة لا يقرأ، وعن فعل الحماقة لا يفتأ».

ثم لملم عباءته حوله وتحرك كي يغادر والرجلان يحدقان في إثره، أحد هما غيور حسود والثاني خبيث حقود.

***

سلة الخوص وقعت من يد غنيمة وتدحرجت، تناثرت حبات الخضار على الأرض والسكون يعم الطريق بين البساتين، تتراجع للخلف تهرب من بين كفيه التي تطاولت كي تمسك خصرها من الجانبين بجرأة، لكنه لا يعتقها وهو يشد جسدها الغض إليه وعيناه تدوران في المكان ليتأكد من خلوه وهي تقاوم، صوتها يخذلها فلا يخرج إلا بحشرجة الرعب: «سيدي خلفان، دعني اذهب، أستحلفك بالله.. دعني».

لكنه لا يستجيب وقد التمعت بقوة رغبته فيها فيرد بلهاث: «كيف ادعك؟ لقد وجدتك في الوقت المناسب، أنا في مزاج سيء للغاية».

يميل لينتهك حرمة جيدها بالقبلات فتسيل دموع العفة وهي تدفعه بارتعاد وتواصل التوسل: «بالله عليك سيدي أرحم أبي، لم يفعل لكم إلا الخير وخدمكم بإخلاص».

يدفعها بجسده وقد لمح بوابة أحد البساتين مفتوحة

قائلا بارتعاش الشهوة: «عبد الواحد لن يعود قبل مغيب الشمس وأمك مشغولة في بستان أخي».

تحاول مقاومته لكن جسده أقوى فلا تملك إلا التوسل: «أرجوك سيدي.. أرجوك لا تفعل هذا.. لا تفضحني وتسيء لأبي».

يزيح الوشاح عن رأسها ويرميه أرضاً وهو يهمس بمحاولة إقناع كي لا تقاومه: «لن يعلم أحد، نحن بعيدان عن بستان أخي ذياب».

كاد أن يصل بها إلى بوابة البستان وقد فقد خلفان رشده، الطمع بعفة الفتاة أعماه، فلم يعد يفكر فيما يفعله ويجازف به، رعونته غلبت، وغروره يغذي قناعته أن الفتاة تتمنى أن يفعل كل ما يشتهي أن يفعل معها، هي فقط (تدلل)، عبر بها البوابة وقد بدأت تضربه على كتفيه وتقاوم بقوة أكبر: «أنا فتاة شريفة، لن أفعل هذا ولن أدعك تفعل».

فنفذ صبره ليرفعها كلها من خصرها ويقول بنزق لاهثاً: «تعالي، لن أصبر عليك أكثر وقد واتتني الفرصة».

صرخت كذبيحة: «لاا».

***

يتمدد قحطان الجبلي على ظهره تحت ظلال نخلة، يرخي أجفانه بكسل وابتسامة تتلاعب بثغره، تمتم بشقاوة وهو

يقلد صوت أنثى شديد النعومة لا يتناسب على الإطلاق مع الجدية التي تحاول مواجهة تحرشه غير الصريح بها: «صباح الخير أستاذ قحطان، هل تحتاج لوصفة دواء؟».

فجأة سمع صوت جلبة من عند البوابة وكأنه صوت فتاة تقول (لاا)، نهض قحطان يحاول الإنصات بتركيز وقد كان في أقصى البستان والبوابة بعيدة نسبياً، ثم يعقد حاجبيه والأصوات تقترب وباتت أشد وضوحاً والفتاة تتوسل باكية: «لا.. أتوسل إليك سيدي».

هبّ قحطان على قدميه وهو يسمع صوت رجل يرد بلهاث وبعض الغضب: «تعالي قلت لك، تعالي لا تتعبيني».

أخرج قحطان سلاحه من جرابه الجلدي وأطلق رصاصة في الهواء كي يمنح الفتاة فرصة الهرب دون أن يحرجها بكشف هويتها، ساد الصمت لحظات ثم سمع صوت خطوات هاربة فصرخ قحطان عندها: «من هنا؟».

وهو يهرول فربما يلحق بالحقير، ويعرف هويته، تفاجأ قحطان برؤية خلفان الضاري يقف شامخاً مغروراً وكأنه لا يهتم لكشف ما كان يفعله مع إحدى الفتيات، منحه قحطان ابتسامة هازئة وهو يعيد سلاحه إلى جرابه ويسأل: «ماذا تفعل هنا يا خلفان الضاري؟ ومن كان معك؟».

رد خلفان وهو ينظر إلى قحطان بترفع ووقاحة: «كنت بمفردي، سمعت أصواتاً غريبة فدخلت استقصي».

بابتسامة ساخرة ونظرة جليدية عكست تهديداً صريحاً يمثل العداء السافر بين العشيرتين قال: «هذه بساتين شيخ عشيرة الجبلي، وليس لك أن تستقصي فيها».

عندها قال خلفان في محاولة ساذجة لقلب الأدوار: «هل كانت برفقتك امرأة وتخشى أن يعلم ابن عمك الشيخ طالب».

يرفع قحطان حاجبيه عالياً ثم يقول بابتسامة واسعة: «وكيف علمت أن هناك امرأة؟ هل تقرأ الطالع وتضرب الرمل كما تفعل.. الغجريات».

غلا الحقد في عيني خلفان ليزيد قحطان في استفزازه وهو يشير بحركة من رأسه ونظرة عينيه إلى مقدمة جلباب خلفان مضيفاً بتشدق: «جلبابك مقطوع من الأعلى يا ابن الضاري، اذهب لأخيك ذياب كي يخيطه لك».

زمجر خلفان وتقبضت يداه وهو يتحرك نصف خطوة لتوقفه نظرة تهديد من قحطان وكفه التي تحركت نحو جراب مسدسه، تسمّر خلفان صاغراً خاصة وهو لا يحمل أي سلاح، أخذ يشتم غنيمة وما فعلته به اليوم، وواعد نفسه أن سيعلّم تلك الفتاة معنى أن تطيع أسيادها، وتلبي رغباتهم صاغرة رغماً عن أنف أبيها، شمخ خلفان ليتراجع وهو يقول بتعابير استهانة: «ليس لدي وقت أضيعه معك».

فيرد قحطان وهو يمنحه ابتسامته المستفزة المميزة: «مؤكد، فدعني لوقتي الضائع». فتحرك خلفان ليغادر وقحطان

يلاحقه بالقول الساخر: «ولن أخبر ابن عمي طالب بمشاعر النخوة التي داهمتك اليوم على غير عادة».

تكتف قحطان وهو يضحك بخفة ثم تحرك ليعود إلى نخلته، واستلقى هناك مجدداً على ظهره، يطوي ذراعيه تحت رأسه ثم ينظر إلى السعف وشمس العصر تتخللها، ومع نعومة ضوء الشمس يبتسم باسترخاء لذيذ ثم يقول: «اممم.. أين كنا يا دكتورة لولو؟».

تلتمع عيناه ويخفق قلبه هامساً بمشاكسة: «تذكرت، كنا عند الوصفة».

***

تخنقها العبرة ولم تعد تحتمل، تسير في الرواق بينما يلحقها الممرض غانم يسألها باهتمام أخوي: «ما بك اليوم يا أم الليث؟».

التفتت إليه تخفي الدموع بشق الأنفس وهي تقول بخفوت: «أنا سآخذ استراحة لساعة».

استغرب غانم وهو يقول: «لكن..».

ردت وهو تشوح بيدها وتحث خطاها كي تغادر المستشفى: «أرجوك يا غانم، حاول التغطية مكاني».

***

تسير بين الأشجار ولا تعلم إلى أين تتجه، تسيل دموعها وتشهق بالبكاء وقدماها تحملانها على غير هدى، فجأة

شعرت بمن خلفها وظنّت للحظة أنه غانم جاء خلفها فاستدارت غاضبة وهي تمسح دموعها لتتسمر مكانها ثم فاضت لهفة غريبة ملأتها بمزيد من الحزن والشجن وعيناها في عيني ضرغام الأسدي، بدى مهيباً حزيناً مثلها بجلباب كحلي ثقيل، الريح الباردة تتلاعب بكوفيته فودت لو تسمع صوته حتى لا تظن أنها تتخيل وجوده، تبسّم بطريقة غريبة ثم قال: «ما الذي يثير الدمع في عينيك يا أم الليث، دمعك عزيز كما أحسبه».

أخذ دمعها يسيل مدراراً مجدداً وهي تشعر بالانهيار لتتكئ على شجرة نخلة خلفها وتقول بحرقة قلب: «هو عزيز، ولا ينزل إلا للعزيز».

توهجت عيناه كما حصل يوم رآها مع غانم في المستشفى ليسأل بصوت أجش: «هل اشتقتِ للديار؟ أتحنين للعاصمة؟».

ردت وهي تكاد تنهار بشعور الشوق: «بل اشتقت إليه هو فقط، أسدي، ليثي، أريد شمّه وتقبيل وجهه ولثم كفه، عيد ميلاده سيصادف بعد يومين».

هدأ توهج عينيه وبات ضياءً رقيقاً يعزلها عما حولها ليقول بترقق: «لم تخبريه حتى اللحظة، أليس كذلك؟».

قالت وهي ترفع كفيها تعدل وشاحها باضطراب يعكس اضطراب أفكارها: «أنت قل لي، ألستُ محقة؟ كيف أسمعه حواراً بشعاً كهذا بين والديه».

رد مؤيداً: «أنت على حق».

أخذت تبكي بحرقة شديدة وهي تغمر وجهها بين كفيها، تشعر به قريب منها وكأنه يصدّ ريح الشتاء عنها، فجأة رفعت وجهها الباكي وهي تخرج منديلاً ورقياً من جيبها وتسأله: «ما الذي تفعله هنا؟ كيف وجدتني؟».

كأنت تمسح وجهها وتنظف أنفها وهو يرد: «كنت في طريقي للمستشفى عندما لمحتك تسيرين بين الأشجار وبدوتِ..».

توقف قليلاً وهو يمعن فيها النظر مضيفاً بخفوت: «كما أراكِ الآن».

سألته وهي غافلة عن نظراته تضع المناديل المتسخة في جيبها: «لماذا كنت ذاهباً للمستشفى؟ هل أنت بخير؟».

طال صمته فرفعت عينيها إليه ولم تعرف ماذا جرى لها بعدها هل اقتلع البارحة من قلبها (نبضة)؟ اللحظة هو يحصد النبض حصداً، تحركت شفتاه قائلاً بخفوت حتى شكّت أنه يتكلم: «علّة، حين يكون العقل حائراً، فالقلب لا يرحب به مقيماً أو زائراً».

كالهبلاء تنطق اسمه: «ضرغام».

أي حمق يجعلها تقف كمراهقة هكذا أمامه وهو يمسك (المنجل) بعينيه العجيبتين هاتين ويحصد في نبض القلب كيفما يشاء، ما زال لا يحرّر عينيها وهو يضيف: «لا تبقي

كثيراً بمفردك هنا، الطمع غريزة في البشر، لا تُبقي من النخوة ولا تذر».

لم تدعه يفلت وقد أثار غيظها لأنه يؤثر فيها هكذا لتقول له: «أنا لا أفهم ألغازك أحياناً، بدأت أشعر أني ولدت بعاهة غباء لغوي».

ضحك، وأشرق الشتاء من حولها كأن الربيع حلّ فجأة ثم قال: «ألا تفهمين كلامنا؟».

ابتلعت ريقها وعقدت حاجبيها وهي ترد عليه دون تفكير: «لهجتكم القروية الثقيلة اعتدت عليها، لكنك مختلف عن الآخرين هنا».

ما زال باب الربيع مفتوحاً فتتقدم بجرأة لتسأل بجرأة أكبر: «لماذا أشعر أني أعرفك جداً وأنت غريب عني جدا وأعجز عن فهمك أحياناً، جداً جداً».

عيناه انحدرتا من عينيها إلى كتفها الأيمن ليقول بصوت مبحوح: «ألا يمكن لتلك الضفيرة البنية أن تجد مكاناً كي تختبئ؟».

اقشعر جلدها وهي تنظر للأسفل نحو ضفيرتها المتدلية من تحت الوشاح وقد استقرت بطريقة ما على كتفها، وقبل أن تفعل أو تقول شيئاً أجفلت بقوة على صوت غاضب لامرأة عجوز: «هل تعلم ما يكلفني الخروج كي أبحث عنك».

رفعت سُلافة وجهها فتفاجأت من وجود امرأة عجوز بعينين زرقاوين متوهجتين كالجواهر، ضئيلة الجسد، منحنية الظهر، وتتكئ على عصا، تتخذها كعكاز، بدت المرأة عجيبة حقاً ووجودها هنا على غفلة هو الأعجب على الإطلاق، ولم تكن تنظر إلى سلافة، بل توجه كل نظراتها الغاضبة نحو ضرغام، التفتت سُلافة إلى ضرغام كي تسأله: «من هذه المرأة؟».

صدمها ضرغام، كان شاحباً بشكل مخيف، يحدق في العجوز وكأن مقتله فيها، شعرت سُلافة أن كلاهما انعزل عنها، ضرغام والعجوز، وكأنهما باتا داخل فقاعة خارج الزمن والمكان، أخذت العجوز تقول على عجل واضطراب: «الحرقة الخضراء يا أسدي».

فتتسع عينا ضرغام كأنه يرى الموت أمامه وهو يتمتم في ألم لا يوصف: «الحرقة الخضراء».

أخذت العجوز تؤكد: «أجل، إنها في معصمها لم تغادره، المطر سيكشفها لك في الصحراء، إنها دالّتك».

شعرت سُلافة وكأن صوتها لا يخرج وهي تصر على طرح السؤال الباهت: «من هذه المرأة يا ضرغام».

ثم ارتعدت والعجوز ترفع كفها النحيل مفروداً، لتضعه في وجه سُلافة كأنها تدفعها عن بعد، انعقد لسان سُلافة والعجوز تقول بنبرة قوية مؤثرة لم تشهد لها مثيلاً من قبل: **«ابتعدي خطوة ولا تؤلميه، دعيه يجد طريقه فالله مُبتليه».**

قالت العجوز لضرغام المتسمر في جمود أمامها: «يا أسديّ قد فعلتُ ما استطعت، وبذلت الكثير كي أبصر ما أبصرت، ستجد المراد وتُنهي البعاد، ستنصر المذبوحة بشاهد، وتقيم على روحها الموائد، ستعزف الناي في وصلها، وتنثر الرمل كما يليق بدفنها».

ثم تحركت العجوز لتغادر وهي تنشد مواويل حزينة كأنها في عزاء، اشتدت ريح الشتاء الباردة لتغلق كل باب للربيع انفتح، ولم تعد سُلافة تدري ما الذي يحصل هنا، حاوطت جسدها بذراعيها تطلب الدفء من السترة الصوفية البيضاء التي ترتديها فوق زي الممرضات، أوشكت أن تبكي مجدداً دون أن تعرف السبب، صوتها يرتجف وهي تسأل بإلحاح: «من هذه»،

أطرق ضرغام وكأنه احتجب ليقول بصوت لا تعرفه: «عن إذنك يا أم الليث».

ثم تركها واستدار وصوتها يرتجف بالنداء: «ضرغام».

***

الغزل العاشر

(العجز، خيط نتبرأ منه المغازل كقتال خاسر دون مُنازل).

ترتجف غنيمة وهي تختبئ خلف الدار، تناديها أمها: «غنيمة.. غنيمة..».

ما زال جسدها يرتعد ودموعها تنحدر دون توقف على خديها الأسمرين، تمرر يداً مرتجفة على طول رقبتها ونحرها اللذين انتُهِكا بقبلات (ابن الشيوخ)، فتشعر وكأن كل جسدها قد تلطخ بالوحل، لا، ليس الوحل، بل أقذر وأنجس، ولولا ذاك الرجل المجهول الذي أطلق النار في الهواء ومنحها فرصة الهرب، لكان شرفها الآن قد تمرّغ في وحل النجاسة الذي لا طهارة منه إلا بالدم، ويا ليت الأمر انتهى.

ابن الشيوخ، الذي لا يحمل في دمه شيئاً من نخوة الشيوخ التي نشأت وكبرت على الأيمان بها، لن يدعها في سلام، فماذا هي فاعلة؟ ولمن تشتكي؟ ألأبيها تبوح وقد يجن جنونه ويتشاجر مع خلفان الضاري وعندها لن يتورعوا عن قتله، أم تخبر أمها التي لا تستطيع فعل شيء، بل ستلطم على الخدين وقد تخبر أباها وعندها ستصل إلى نفس النهاية السوداء، ليت الشيخ محمد الضاري لا زال حياً، لكانت ذهبت إليه كي ينصفها ويمنع عنها الخسيس، فيا حسرة اليوم على حال عشيرة الضاري، فشيخها حمدان

لا ينصر ضعيفاً ولا يجيب للحق مطلباً.

قتلها شعور العجز وقلة الحيلة، رفعت عينيها الباكيتين للسماء تهمس في تضرع: «ليس لي غيرك يا الله، استرني يا ستار، أنا خائفة، فاستر عرضي وعرض أبي».

ثم غمرت وجهها في كفيها تبكي وهي تكتم صوت نشيجها كي لا تسمعها أمها، قلبها مقبوض وتشعر أن أمراً سيئاً سيحصل لها، عاد نداء أمها مع نبرة قلق اختلطت بالحنق: «غنيمة.. أين أنت يا بنت؟ غنيمة.. غنيمة».

وقفت غنيمة على قدميها لتبتعد أكثر خلف الدار ثم رفعت صوتها وهي ترد: «قادمة.. أمي، كنت أبحث عن بعض الدجاجات التي هربت».

هتفت الأم: «دعيها لا خوف عليها، تعالي وأشعلي التنور، والدك سيعود ولم أخبز بعد».

أغمضت عينيها وهي تفكر بأبيها، ردت بنبرة مختنقة وإحساس أشد سوءاً: «حاضر».

***

الباحة الخارجية لدار الشيخ الأسدي

يطلبها ضرغام وعيناه غارقتان في المجهول والمحجوب: «امنحني السماح يا شيخ في استخدام السيارة والغياب لأيام، قد تطول أو تقصر».

يعقد الشيخ عبد الهادي حاجبيه وهو يلملم عباءته

الصوفية حول جسده بينما يسأل بإلحاح: «ماذا هناك يا ضرغام؟ أجبني بالله عليك يا صاحبي، وجهك شديد الشحوب وحالك كله غريب ويقلقني».

عن بعد مترين تقف رغد العيش وترى في ضرغام أبعد مما يراه زوجها الشيخ، بينما ضرغام يرد على الشيخ عبد الهادي بالقول: **«يا شيخ لا تطلب ما لا يُجاب، وأمرك عندي فوق المُجاب»**.

لكن الشيخ لم ينثنِ عن عزمه للمعرفة ليقول وهو يشير نحو بضعة أغراض وضعها ضرغام على أرض الباحة جوار السيارة: «أنت ذاهب للصحراء، أراها في عينيك وألمحها في عدتك التي اعتدتها، أخبرني ماذا قلب حالك وقد خرجت قبل ساعة بحال آخر ذهبت للمستشفى العام أليس كذلك؟ ماذا حصل هناك».

الشيخ لا يفكر إلا بالممرضة سُلافة، بينما يزداد شحوب ضرغام وتتجمد عيناه بنظرة كأنه يعيش حدثاً آخر بعيداً عن الزمان والمكان الحاليين، صوت رغد العيش أقترب مع اقتراب خطواتها من الرجلين لتقول بتأثر شديد: «دعه يا عبد الهادي ولا تحمله فوق حمله».

عيناها دامعتان وهي تنظر إلى ضرغام الذي أطرق في احترام تلقائي فلا تطرف عيناه إلى امرأة الشيخ؛ لكن قولها الصادق مسّ عمق وجدانه وصميم امتنانه وهي تضيف بحشرجة أشبه بحشرجة حزن: **«لا أعلم ما يوجعك**

هكذا فيوجعني وأنا له أجهل، رب الخلائق ينصرك وهو عن كل مجهول لا يجهل».

الألم يشتد فيتحامل عليه ضرغام وهو يتمتم بجزيل الامتنان: «سلمتِ يا شيخة».

يصمت الشيخ بينما ينسحب ضرغام مضيفاً دون أن يرفع نظراته: «استودعكما الله».

***

مجلس شيخ الشيوخ.. الشيخ عبد الجبار

في اجتماع ضم ثلاثة رجال لا غير، قال الحاج عبد القدوس ليفصل في الأمر: «الولد شرعاً للفراش، وأمه معها عقد زواج، وقد ثبت بالشهود وباعتراف الأب قبل فقده لعقله أنه بات ليلة عندها».

عبس ناصر، بِكْر الشيخ عبد الجبار، ومن سيحلُّ بعده شيخ شيوخ العشائر، ثم قال باعتراض: «لكنها يا مولانا غجرية، سحّارة مشعوذة، كيف نأخذ بكلامها؟»».

ردّ الحاج عبد القدوس: «ذاك أمر وهذا أمر آخر يا ناصر، إنه زواج ونسب وعرض، لديها الحجة، ولا حجة لنا عليها».

الشيخ عبد الجبار صامت وهو يتفكر بعمق كأنه أمام معضلة شديدة التعقيد، بينما يقول ناصر بنفس العبوس والتجهم: «كيف نتعامل مع امرأة مثلها لا نستطيع

الوصول إلى أصلها وفصلها وجذرها»».

بنبرة الأمر الواقع ردّ الحاج عبد القدوس قائلاً: «هذا دَيْدَن الغجر، لا يسجلون أسماءهم بأي أوراق ثبوتية حكومية، ويتخفون بعيداً عن الأعين قدر المستطاع»».

تكلم الشيخ عبد الجبار أخيراً فيقول: «الآن ستسجل تلك الغجرية، ستمد لولدها جذراً في عشيرة الضاري، ستزرعه وسطنا، وتزرع نفسها معه، ولا أحد يدري ما يحمله المستقبل»».

التفت ناصر إلى أبيه قائلاً: «إذن دعنا يا أبي نسلمها إلى الشيخ حمدان الضاري وهو يتكفل بها وبمشاكلها مع إخوة مروان، فليتأكدوا من صحّة توقيع ولدهم على العقد أن شاءوا»».

رد الشيخ عبد الجبار على ولده: «إنه صحيح، الثقة التي قدمت بها تلك الغجرية العقد لي، لا تعطي مجالاً للشك، لكني أرى أموراً أخرى أقرب لليقين، دون أن أستطيع تحديدها، تفوح منها رائحة الخبث والعبث والمكيدة»».

يُلفت الحاج عبد القدوس نظر صاحبه شيخ الشيوخ قائلاً: «الدليل يا عبد الجبار، لا نأخذ إلا بالدليل، الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام كان يعلم من هم المنافقون، ولم يخبر عنهم دون دليل يراه العامّة، كي يتعلموا أن لا يحكموا بالظن حتى إن غلبت الفراسة والحكمة على الظن، فهذا ليس بدليل يؤخذ به»».

فرد الشيخ عبد الجبار على صاحبه بالقول: «لهذا طلبتك اليوم يا عبد القدوس، بعدما حصل بالأمس لا أريد أن تهتاج القرية أكثر ليخوضوا في الأعراض، أعراضنا خط أحمر، ويجب أن تصان ولا تكون عرضة لرمي الأفواه الجاهلة».

يهزّ الحاج عبد القدوس رأسه موافقاً بينما يضيف الشيخ عبد الجبار: «بماذا تنصح يا عبد القدوس؟».

تفكّر الحاج عبد القدوس للحظات وهو يقلّب الأمور في رأسه، ثم نصح بالقول آخذا بالاعتبار أعراف العشائر: «اعقد جلسة للشيوخ، فالمرأة استجارت بك ووضعتك في موقف صعب، أشهد شيوخ العشائر على كل شيء، ودع شيخ عشيرة الضاري يتحمل مسؤولياته نحو أبناء عشيرته، خاصة أنه ومروان الضاري أولاد عمومة، والأمر بات يمس شيوخ الضاري في عقر دارهم».

تساءل ناصر فجأة وكأن الفكرة طرأت في رأسه للتو: «هل تظن يا أبي أن ذياب وخلفان قد يقدمان على قتل الغجرية كي لا تستولي على أموال شقيقهما مروان؟».

ردّ الشيخ عبد الجبار بفطنة: «خلفان قد يفعلها، متهور أرعن، لكن ذياب سيحسب ألف حساب، المشيخة ثمنها غالٍ وطعنه في عرض أخيه والتشكيك دون دليل بنسب الولد في بطن أمه سيسيئ إليه دون ريب أمام كل العشائر وليس عشيرته فحسب، ولن يحظى بالاحترام المطلوب

الذي ينشده لبلوغ مسعاه».

ثم صمت الشيخ صمتاً بليغاً، وكأن أمراً عظيماً يقلقه، فتساءل ناصر: «تبدو قلقاً يا أبي، لكن الحل الذي اقترحه مولانا عبد القدوس سيخلي مسؤوليتك ويرضي كل الأطراف، سلم الغجرية لهم بعد أن يتعهدوا أمام شيوخ العشائر أنهم لن يهدروا دمها دون دليل دامغ وإقامة لشرع الله وتطبيقاً للعرف».

يتجهم وجه الشيخ عبد الجبار أكثر من تجهمه المألوف ليرد على ولده بالقول: «تقلقني هي، دنانير الغجرية، منبت كل سوء كزرع شيطاني آويناه لينبت على أرضنا دون مراقب فغفلنا عن سمومه».

ثم عاد لصمته يتفكر بأمر ما.

***

أواخر العصر.. دار المضيف الغربي

دخل حبّاس إلى دار متذمراً، ثم تقدم إلى غرفة الجلوس كي يلجأ إلى المدفئة هناك وجسده يرتجف برداً، خرجت دنانير من غرفتها فرفع حباس نظراته إليها بينما هي تبادر للسؤال: «هل وجدته؟».

كان مستاءً وهو يرد عليها دون أن يجيب سؤالها: «الريح شديدة الليلة، وصلت إليه بعد عناء، كنت محظوظاً أن الغيوم ما زالت تتجمع فلم تمطر فوق رأسي في هذا البرد».

لم تهتم بمعاناته، بل اختصرت بإعادة السؤال بصيغة التأكيد: «وجدته حيث أخبرتك، أليس كذلك؟».

رد والعجب يملأ محياه اللحظة: «كيف عرفتِ أنه سيكون هناك؟ لأكن صريحاً نفذت أمرك وأنا غير مقتنع، ولم أفهم حتى اللحظة كيف خمنتِ وجوده في دارك القديم المحروق، المهدّم لا أحد سيخطر بباله ذهابه إلى هناك في بقعة نائية بعيدة عن دور أهل القرية».

ابتسامة مستهينة ارتسمت على محياها الغجري بينما ردت: «إنه ينتظر (الوعاء) هو الشيء الثابت الوحيد فيما تبقى من عقلها لأغبياء ظنوا أنهم محوا ذكري، ولم يعرفوا أني حيّة وولدهم يعيش كعبد في محرابي».

صمتت للحظة قبل أن تضيف وعيناها تلمعان بالرضا: «إنه بانتظاري وقد أحسن اختيار مكان الانتظار».

حبّاس ينظر إليها ولا يعلم ما يدور بخلدها وهذا بات يغضبه، سألته: «كيف بدى؟».

رد بنبرة اشمئزاز: «في حال يقرف منه الكلب الأجرب لم أكن سأتعرف عليه، لم يعد يشبه مروان الضاري الذي عرفناه».

تصنعت الحسرة بتعابيرها ثم قالت ساخرة: «خسارة كان شديد الوسامة والتأثير، لكن لا بأس، سنرى هذا الأمر ونقرر بشأنه فيما بعد، وعلى حسب احتياجنا له».

يعقد حباس حاجبيه فبدى منفراً وهو يقول باعتراض: «احتياجنا له؟ كيف سنحتاج هذا المخبول الأجرب؟».

تجاوزت دنانير عن (غيرته) المضحكة بينما تحرك لتجلس على أحد المقاعد المنجدة بارتياح ثم تضع ساقاً فوق ساق وهي تقول بدهاء خبيث: «سنعد العدّة لحدث غير مسبوق في قرية الشيوخ، سأريهم كيد الغجر كيف يكون».

سألها وهو يتقدم ناحيتها: «ألن تنتظري الشيخ عبد الجبار؟».

شع الحقد من عينيها وهي تدرك الواقع حولها: «شيخ الشيوخ يتجاهلني حتى وإن أعطاني هذه الدار الخربة، إنه لن يعطيني حصانة كافية، أظنه يحاول إيجاد مخرج كي يرميني لقمة سائغة إلى عشيرة الضاري، أنه غير متعاطف وغير مصدّق».

تساءل بقلق وقد عاد إلى نبرة (الخادم): «ماذا تنوين بالضبط سيدتي؟ ومتى؟».

ردّت بقرار: «موعدنا غداً صباحاً، يجب أن أسبق أنا قبل أن يسبقني الشيوخ، الوقت يداهمنا ولن يخدعني شيخ الشيوخ بالأمان الزائف الذي منحني إياه».

بدى حباس تائها ولم يحزر ماذا يدور بعقل دنانير، رفعت سبابتها لتحركه في دعوة وهي تقول له: «اقترب وانصت، التوقيت مهم للغاية يا حبّاس».

استجاب حباس فاقترب وهو يقول: «رهن إشارتك سيدتي».

تشتد ضراوة اللؤم في عينيها وهي تتمتم: «سأريهم من تكون دنانير، أنا.. لعنة الغجر».

***

في التوقيت نفسه.. دار صفوان الضاري

فتح صفوان باب داره ويده ترتعش، ولا يدري أهي رعشة وجود دلال الحسن في داره أم رعشة الخوف من رحيلها، منذ تركها لتنام ساعة الظهيرة والفكرة تراوده، تقاتله، يقاومها وتقاومه، لم يكفّ عن تخيل دلال تغادر الدار كي تنتقم منه بالرحيل والهجران، ألم تقل (وليتني أستطيع أن أفعلها وأذيقك كل المرار والظلم)، ألا تؤمن أنه ظلمها عندما تخلى عنها قبل اثنتي عشرة عاماً ورحل؟ ومعها حق ربما لم يتخلَ عنها بإرادته؛ لكنه رحل، هجر، تركها تواجه مصيرها لوحدها لأنه لم يستطع مواجهتها بعد أن ظن، بغباء، إنه قتل أخاها جابر بالخطأ، يغلق باب الدار خلفه ثم أنصت، أهذا قلبه من يفعل كل هذا الضجيج في الدار فيبدد وحشته التي كانت بالأمس.

رفع عينيه إلى درجات السلم فيتقدم خطوة ويؤخر أخرى، إنه لا يهاب مواجهة أهل القرية مجتمعين، لكنه يهاب درجة سلم تأخذها إليها.

***

نقرة على الباب وأتبعها بأخرى، قبل أن يمسك المقبض ليفتح، وحالما خطا، سمّى دون شعوره (بسم الله، تبارك المولى) وكأنه يدخل عتبة جنة أُهديت له على الأرض، وكيف لا تكون وأولى روائح جنته، عطر دلال مختلطاً بعطر العود.

تشنج جسده في جوع إلى وصال، وتلوّت روحه شوقاً إلى حبيبٍ صعب المنال.

ساح قلبه في صدره وهو يتقدم ليراها، ما زالت (هانئة) بنومها على سريره، لكنها لم تتخلف بغطائه، **لقد أبت وبقسوة الثأر تلحفت**، دون أن تصدر خطواته صوتاً كانت توصله إليها، فيقف جوار السرير الضخم وقد احتلت دلال جانباً منه، يده الضخمة امتدت، يودُّ لمس حسن وجهها، فترتقق النظرة في عينيه وأصابعه شديدة السمرة تبدو على النقيض تماما من بياض بشرتها الناصع، وجهها منير في رحاب غفوة آمنة كاستراحة محاربة، تحرّر حسنها لتبدو كما عرفها دوماً وعاشت في وجدانه وزارت أحلامه لسنوات، وبدلاً من لمسة للخد، يستعيض عنها بتمرير تلك الأصابع الغليظة فوق ليل شعرها، فتضرب رعدة جسده، ولم يقاوم وهو يرفع بارتجاف خصلة من ذاك الليل البهيم ويميل بوجهه يلثمه بعذاب لا يوصف.

«دع شعري يا صفوان»،

شعر بإجفالها قبل أن يسمع صوتها، دون أن ينظر إليها

كان يفلت خصلة شعرها لتتسرب الشعرات المظلمات كالرمال الناعمة من بين أصابعه، ثم رفع نظراته إلى وجهها الحبيب فلا يصدق حتى اللحظة إنها (هنا) ابتلع ريقه ثم تساءل بصوت أجش: «جائعة؟».

أوشك أن يتأوه وقساوة عينيها تذبحه وهي ترد عليه بخشونة: «هل تريد (الزوجة) أن تطبخ الطعام؟».

تمتم: «زوجة».

ثم مرّت عيناه على طول جسدها فتهتز دليلة بالغضب وهي تنهض بجذعها وتقول بقساوة أشد: «أمسك نظراتك عني، فما تشتهيه قد لا تناله لآخر عمرك».

ثم تحركت إلى الجانب الآخر من السرير، وللحظة قلبه الخافق كان يضحك، دلال الحسن هي ذات الصبية البريئة التي عرفها لم يكن يوماً رجلاً مُغازلاً، كانت هي الأقوى بالكلام، الأفصح بالتعبير، ومع هذا كانت ترتعش، كما الآن، من نظرة يتيمة تغلبه لنيل التبحر في حسنها، غادرت السرير وهي تلملم شعرها وتضيف بخشونة وبعض الوقاحة: «غادر غرفتي، إياك ثم إياك أن تتجرأ على دخولها مرة أخرى دون أن أمنحك الإذن والقبول».

كان يراها تنتفض والثورة داخلها تتخبط في دوامات تشتعل بالغضب، رد بهدوء: «كنتِ دوماً قوية التعبير، لكنك لم تكوني يوماً وقحة، سليطة اللسان».

استدارت إليه تواجهه بعنف: «أنت اخترت أن ترضى».

فقال ببساطة: «أنا رضيت تنفيذ الشروط، لا تجاوز أحمر الخطوط، وقد اتفقنا عن ماهيتها وقلتُ (مُجاب)، ولم يكن ضمنها أن تقللي من احترامي يا دلال».

وكأنه ضغط، دون أن يدري، على موطن الجرح، فبات يزف قيحاً لا دماً، اتسعت عيناها في نظرة رهيبة صارخة وهي تهدر: «احترامك.. نتكلم عن تقليلي لاحترامك؟ وماذا عما فعلته بي أنت؟ لا أصدق أنك تملك من الجرأة لتنظر في عيني حتى».

بصبر اقترب منها وهو يقول: «احكي لي ما حصل وأنا أيضاً سأحكي».

كانت كلها تهتز ونظرات عينيها لا تتغير وهي ترد عليه: «أهذا ما تخطط له؟ (احكي يا دلال وأنا أحكي)، ثم نتصافى.. حبيبين».

تسمرت قدماه مكانه لتتقدم هي نحوه وطاقة الظلام تشع منها، أضافت بنبرة صوت موجعة: «هل تعرف كيف تبدأ الحكاية؟ تبدأ عندما متّأجل يا صفوان، أنت متّ بين ليلة وضحاها، وأنا أقمت لك العزاء لسنوات، وقبرت روحي لتدفن تحت التراب إلى جوارك».

تماسك صفوان وحاول مُجدداً: «دلال، دعيني أفسر ما حصل».

نفرت بقوة وهي تتراجع للخلف برفض شرس قائلة:

«تفسر أتريد أن تريح ضميرك بتفسير».

حاول فتح فمه لتسبقه هي في ثورتها: «هل ستفسر لي اثنتيّ عشرة عاماً من حياتي؟».

عيناه كانتا تنطقان بسؤال واحد لا غير (ماذا فعلوا بكِ؟!).

تجسد الظلم في كل تفصيل منها، روحاً وجسداً كانت تهتز، قالت والثأر مطلبها: «أو تعلم، فكرت أن أُوجعك وأصف لك ليلة زواجي من مروان كليلة عرس تتحاكى عنها قصص البدو ونتغنى بها الأشعار، لكني أعرف أنك ما زلت كما الأمس البعيد، تتوجع بوجعي أكثر».

يتشنج جسده بوجع يجهله لتفسره له دلال فتضربه بمقتل: «لقد اغتصبني، منذ أول ليلة، ثم ليلة بعد ليلة، بعد ليلة ليالٍ بدت وكأنها لا تنتهي».

كانت تنخر قلبه نخراً بوجع لم يشعر مثيله إلا يوم موت أمه، والغازلة لا تشبع مغزلها لا يهجع، يدور مغزل الثأر وخيوطه تلتف حول صفوان لتعصره وتمزق جلده: «هل تعرف كيف كان يجعلني أتوقف عن المقاومة لينال ما يريد؟ كان يصفعني ويضربني دون توقف، حتى يستنزف طاقة جسدي بالكامل ثم يغتصب».

حشرجة ألم فظيع وصفوان يهمس: «أتوسل إليك، كفى».

وكأنه منحها كل الرضا الذي تنشده فتغزل المزيد: «تخيل، حتى عندما كان يتوسل الرضا مني كان يتوسل بالصفعات وهكذا كان له ما أراد، انتهك جسدي لعشرات المرات ومزق ثيابي في كل مرة، وقتل روحي ألف ألف مرة».

أخذ جسده الضخم يهتز غضباً وعجزاً، ألماً وعذاباً، فتجمعت دموعٌ في عينيها المظلمتين وهي تشهد عذابه، فليذوق معنى (العجز) كما عاشته هي إنه عاجز عن فعل شيء لتغيير كل ما مرت به بسببه، ولن يستطيع محوه، قالت أخيراً وهي تقاوم دموعها بضراوة: «هل يؤلمك ما قلته؟ تبدو شفتاك شديدتيّ الشحوب وكأنك على وشك الموت».

همس بخشونة: «كفى دلال».

لكنها لا تكتفي فقالت: «أنت لم تعرف كل شيء بعد، نخذ هذه يا ابن سدرة المنتهى، أنا لم أمنح الإذن لأبي كي يزوجني، أبي كذب على مولانا عبد القدوس».

سكن كل شيء وعينا صفوان تجمدتا بينما تكمل دليلة والغضب القاتل يتأجج بظلامه من جديد: «كان زواجاً باطلاً لعشر سنوات تحت سمع ونظر كل هؤلاء الذين يدّعون الشرف ووقفوا على باب دار مروان بالأمس، يريدون رجمي بالحجارة».

ثم يعلو صوتها بالصراخ: «وأين كنت أنت؟ تسرح سواحاً

في أرض الغربة، لأنك جبان وهربت»».

دون شعورها تتقدم منه لتضرب بقبضتيها عشوائيا على صدره ووجهه وهي تواصل الصراخ: «أكرهك، رباه كم أكرهك، لو شققت صدري اللحظة لوجدت قلبي ينبض نبضاً بكرهك يا صفوان كما لم أكره مخلوقاً في حياتي»».

لم يعد يشعر بشيء، صفعاتها، لكماتها إلى صدره، صراخها المدوي، كان الألم مما عرفه يفوق أي ألم أو إحساس، يفوق حتى العشق الذي لم يعرف غيره في حياته، لم يشعر بخطواتها وهي تسحب عباءتها ووشاحها ثم تترك له الغرفة، ولم يشعر بخروجها الناري من الدار والغضب يعمي بصيرتها، لم يشعر إلا حين أجفل على صوت حصانه الأشهب وهو يصهل عالياً.

***

في عمق الصحراء

تشتد الريح لتحمل السحاب الثقال بينما تتراجع الشمس للأفول كأنها تمنح العزاء بظلام مبكر، يقف ضرغام وحيداً وسط الصحراء، بجسد أنهكه التعب وقد قضى الساعات يبحث عن خرقة خضراء تنبت من الأرض، عقاله وكوفيته سقطا أرضاً ووجهه مرفوعاً عالياً للسماء التي زحف إليها الظلام، يتطلع نحوها بعينين متضرعتين لفرج قريب، وقد كان الفرج وأولى القطرات تهطل لتلامس وجهه، تمتمت شفتاه الجافتان من صيام لا يعرف موعداً

لإفطاره: **«يا مزنة، كفاك جفاءً، يا مزيونة كفاء اختباءً»**.

الحرقة الخضراء، أيا وجعاً كيف أقتلك وممن انتقم فيه منك؟! يغمض عينيه وصوت انهمار المطر في أذنيه يطرق باباً في الذاكرة لحديث عمره خمسة عشرة عاماً أو تزيد، (لا تضحك والا سأخاصمك) (فقط قولي لي من أدخل في عقلك أن الحرقة الخضراء حجاب سيحميك؟) (أهدتها لي إحدى النسوة بالقرية، كانت تلف بها حبات الحلوى الملونة احتفالاً بمولودها الجديد، فتوزعها في القرية على كل من تراه) (إذن هي لفائف الاحتفال بالمواليد، ليس هناك أمراً خاصاً بك) (لا، لقد قالت لي إنني محظوظة، هذه اللفافة الوحيدة باللون الأخضر وقد كانت من نصيبي، إنها فأل خير أليس كذلك) (لا تضحك غداً ستعرف أني محقة واللفافة فأل خير وحماية).

يستمع لصوتها الحبيب المُعاتب، فتكاد الدموع تقهر أجفانه، لقد آمنت بخرقة لحلوى المواليد، فشدتها حول معصمها بإصرار تنشد الحماية، فخذلتها الحرقة كما خذلها هو، مطر.. مطر غزير يغمر وجهه، يفتح عينيه ووسط المطر المتساقط تجول نظراته في الرمال فيكاد لا يرى شيئاً وقد أوشك أن يعمّ الظلام، توجعه القطرات وما زالت لا تكشف المخفي، يناجيها ويناجي خالقها: **«أيا رب المطر زد عليّ ولا تمنع، أكرمني في لقياها والعشق الحلال يشفع»**.

وكأن رب السماوات يرد ويستجيب، فينهمر المطر كما لم يعرف انهماراً في هذه الصحراء من قبل، انحنى ضرغام

يرفع عقال وكوفيته ولم يُعدْهما فوق رأسه المبلل، بل رجع إلى السيارة كي يقضي ليلته فيها وهو يتمتم بوعد: «فوالله ثم والله، لن ألبس كوفية وعقال البدوي حتى أرى الحرقة في معصم المزيونة».

***

حلَّ الغروب باكراً في شتاء كان بارداً عاصفاً الليلة، يجن صفوان وهو يبحث عنها منذ ساعة، لا يصدق أنها امتطت حصانه الأشهب وانطلقت به إلى حيث لا يدري، أعين الناس تلاحقه في دروب القرية، ودون حاجة لذكاء شديد، أدرك أنهم لا بد قد رأوها، أيلومهم وهم يرون العجب العجاب من امرأة بالأمس فقط كانوا على وشك رجمها بالحجارة فيرونها اليوم تمتطي حصاناً بينهم كما يفعل الرجال، إنها تسيء لنفسها أكثر من إساءتها له، تظن أنها تنتقم من الجميع بمن فيهم هو، وقف بسيارته يائساً على أطراف القرية، امتدت أمام ناظريه الصحراء وقت الغروب فبدت غاضبة مشتعلة بالحمرة، ظلال داكنة من السحب الثقيلة كانت تتجمع بفعل الريح وتكاد تطفئ لهيب الغروب قبل مغيب قرص الشمس كاملاً، تمتم بحاجبين معقودين: «أتراكِ جننتِ بما يكفي لتشقي الصحراء في هذا الوقت والطقس مع حصان ضخم كالأشهب؟ ماذا أفعل بك»،

لم يعد أمامه إلا أن يبحث عنها في الصحراء، مهما بلغ جنونها اللحظة فلن تبتعد في عمق الرمال المظلمة والامطار

الغزيرة وشيكة، يحرك السيارة من جديد وكلماتها الأخيرة ترن في أذنيه، ممن ينتقم لها ولما جرى عليها؟ لو كان مروان موجوداً وبكامل عقله لكان قتله دون لحظة تفكير أو تردد أينتقم لها من أبيها الذي سلمها بيديه إلى رجل يغتصبها لسنوات وبعقد زواج باطل؟ ممن ينتقم لها؟ ربما الأجدى أن ينتقم من نفسه إنها محقة إذا نعته بالجبن، لقد جَبن أن يواجهها بفعلته فأنقذ نفسه وتركها لمن ينهش فيها جسداً وروحاً، العرق بات يتصبب منه رغم برد الشتاء، إنه عاجز وآه من العجز.. قتّال الرجال.

***

كانت تدرك أنها غير مؤهلة للسيطرة على حصان ضخم كالأشهب، كما أنها لم تمتطِ الخيل منذ سنوات طوال، منذ رحيل صفوان ألم يكن هو معلمها السريّ ومنحها تلك المتعة المحظورة لفتيات القرية؟! اشتد اشتعال الغضب في عينيها وهي تقول بسخرية تقطر مراراً: «محظورة حتى لو أوقعني الأشهب اللحظة ومتّ تحت حوافره، فيكفيني أن رأيت عيون أهل القرية المصدومة، تكاد تخرج من محاجرها، أنذال.. أنذال».

أخذت تصرخ بالكلمة مع أولى قطرات المطر: «أنذال.. كلهم أنذال».

وما زال صراخها حتى علا صراخ السحب برعد عظيم، فأجفل الأشهب ليرفع مقدمة جسده الضخم ويرفس

في الهواء بقائمتيه الأماميتين وهو يصهل مع صوت الرعد المخيف ومزاج فارسته الثائر، فقدت دليلة السيطرة فوقعت عن ظهره فوق الرمال لتظلم الدنيا وغزارة المطر تغرق وجهها، لم تشعر بعدها إلا حين طوقتها ذراعان صلبتان وصوت صفوان يرتجف رغم صراخه العالي: «دلال، أفيقي، دلال ردي عليّ».

كان شعوراً لا يضاهيه أي شعور، تفتح عينيها لتنظر إلى وجه صفوان القريب والمطر يبلله، وببعض التركيز أدركت أن الظلام الدامس حل وضوء إنارة السيارة هو من يكشف لها وجوده، صوت الرعد الغاضب كان يدوي في صدرها وبإحساس غريب تشعر كأنه صوت غضبها هي من يدوي في السماء المظلمة، شعرت للمرة الأولى أن الجميع مجبر على سماع صراخها دون أن يملكوا تجاهله، سنوات وذاك الصراخ حبيس الجدران وها قد تحرر، لا تعرف لماذا تبسّمت ووجدت الأمر فكاهياً ولو بطريقة سوداء ثم قالت لصفوان: «هل تظن أني قد أموت الآن؟ كم أنت واهم سأدعو الله ليل نهار كي يطيل بعمري وأطيل عذابك».

حدقت في خضرة عينيه دون أن تهاب تأثير ماضيهما عليها، لقد مات صفوان.. مات.. تكرر هذا في ظلام روحها عندما ضمها صفوان فجأة إلى صدره وتأوهاته تخترق أذنها، لحظة غريبة صادمة، كان يعتصرها وكفاه تضغطان على ظهرها من الخلف لتلصق كل جسدها فيه،

خيط رفيع من حزن، حزن رفضته تلقائياً لتنتقم بالقول الساخر: «هل ضمي إلى حضنك يمنحك بعض السلوى؟!».

هتف بها وشفتاه حطتا عند أعلى عنقها: «فقط اخرسي».

أغمضت عينيها والمطر يجري بين جفنيها، اختلطت قبلاته لبشرتها مع مياه المطر، كأنها تسقيه وتطبطب عليه من جفاء وقسوة دلال عليه، يرتجف وهو لا يصدق بعد هذه السنوات أنه يلمسها هكذا، كان يغرق في غفلة العاشق ويترنح بالهوى ليتذوق الحلال الطيب ولا يملك السيطرة على ارتجاف جسده، حتى قالت دليلة بنبرة خافتة ساخرة: «أنت ترتجف».

رفع وجهه قليلاً فينظر إلى وجهها المبلل، عيناه تنظران إلى شفتيها بجوع قاتل فيهمس بحشرجة: «وأنت جبارة لا تظهرين الارتجاف».

لم يعد يحتمل فغرق في (مصيبته) لينهل من شفتيها فتُفتح كل أبواب الجنة على الرمال المبللة الباردة، كلاهما لا يشعر بالبرد، حتى وإن اختلفت الأسباب، يكاد يفقد كل سيطرته، يهذي باسمها وهي صامتة، تذيقه (البعض) لدقائق حتى قررت منع (الكل) في آخر دقيقة ألم يصفها بالـ(جبارة)؟ وقد كانت وهي تقولها بهمس بارد: «لم أقل (نعم) يا ابن الشيوخ».

رفع وجهه يلهث وهو ينظر إلى وجهها، جسدها بأكمله مستلقٍ على الرمال في استرخاء كامل أسير جسده

الضخم، صدره يعلو ويهبط وقلبه سيتفجر ويتمزق أشلاء في صدره، بينما (الغازلة القاسية) ترفع كفها لتلامس موضع قلبه وتضيف بعينين مظلمتين: «هل ستخلف أولى عهودك في عقد زواجنا؟ أم ستجد الذرائع والأسباب كي تتملص من تنفيذها كما فعلت قبل اثنتي عشرة عاماً».

كان الألم يشع من كل جلده اللحظة وهو يرد عليها بحشرجة الألم: «لاثنتي عشرة عاماً كنت أدعو لك بالسعادة».

تزداد الظلمة في داخلها لتشع من عينيها أكثر وهي ترد عليه: «ورب العزة لم يستجب لك، وكأنك مع كل دعوة كنت تزيدني شقاء وموتاً أما زال عندك الأمل لتحاول بعث من في القبور؟».

ينظر إليها بوجهه المبلل وعينيه اللتين توهجتا بخضرتهما، كانت تشعر به كسجين فأضافت مزيداً من القضبان وهي تسأل بهدوء: «هل ما زلت تريد التفسير؟».

لم يكن سؤالاً منها، بل حقيقة تجعله يدركها، فسأل صفوان والبرد يزحف بينهما كالصقيع: «وهل ستصدقين؟».

ردت دون لحظة تردد أو شك: «لا».

عندها قال وهو يرفع جسده عنها: «وهذا ما ظننته، فدعي للأيام تفسيراتها».

سألته بقلق مفاجئ: «أين الأشهب؟».

رد بغمغمة: «لا تقلقي عليه، يعرف طريق العودة للدار».

مدّ كفيه ليرفع جسدها المبلل دون أن تمنعه أي محاولة اعتراض منها، ضمها إلى جسده المبلل المتسخ بالرمال كجسدها، ثم تحرك بها إلى السيارة وسط المطر المنهمر والصمت يغلق الأفواه، هي امرأته وكفى، فليدع للأيام تفسيراتها وللأقدار تصريفاتها.

***

بعد أذان الظهر.. المستشفى

تخرج سُلافة من بوابة المستشفى والهاتف على أذنها، حقيبة صغيرة معلّقة فوق كتفها، كانت قد أعدتها معها قبل خروجها صباحاً، ترفع رأسها للسماء الصافية فتحمد الله، لا تريد الموت على الطريق هذا اليوم بسبب سوء الأحوال الجوية، ليلة الأمس أمطرت ما يكفي الصحراء لشهر، جاءها صوت ابنة خالتها نرمين خافتاً وهي تحذرها بالقول: «لا تتهوري يا سلافة ماذا جرى لك؟».

تشبثت سُلافة بحقيبتها في عناد ووجهها المرهق يشع بالصلابة وهي ترد: «أنا قادمة إلى العاصمة، عيد مولد ولدي غداً وسأكون قريبة منه».

تنهدت نرمين وهي تقول بنفس النبرة الخافتة: «أنت لا تبدين طبيعية، أرجوك أفهميني لِمَ هذا الإصرار؟ لا

أستطيع التحدث بحرية في العمل».

ماذا حدث؟ ماذا تقول لابنة خالتها عمّا حدث إذا كانت هي (سلافة) لا تعرف ما الذي حدث بالأمس نسمة هواء بارد جعلتها ترتعش فتغمض عينيها وتفكر دون شعورها: «أحتاج لعيني (التدفئة المركزية)».

ابتلعت ريقها ونبض قلبها يوجعها بينما ترد على نرمين بحشرجة: «لا تقلقي، كل ما في الأمر أني لم أنم جيداً ليلة الأمس، كانت ليلة عاصفة ومطر غزير كما لم أشهد له مثيلاً في حياتي».

حاولت نرمين إقناعها بالعدول عن المجيء وهي تقول لها: «لماذا لا تعودين إلى بيتك إذن وتنالين قسطاً من النوم، ثم أعيدي التفكير بمجيئك».

فتحت سُلافة عينيها وهي ترد بعصبية: «قلت لك أنا قادمة، سيارة الأجرة على وشك الوصول، فماذا أقول للسائق؟ دعني أنم ساعة ثم أقرر».

سألتها نرمين بعجب: «لماذا أنت عصبية هكذا؟».

تزفر سُلافة أنفاساً مرتجفة وهي تكلم نفسها في سرها: «لن أسامحك يا ضرغام، أنا لا أعلم على ماذا لن أسامحك بالضبط، لكني لن أفعل مهما توسلت الصفح مني».

التمعت عيناها وهي تفكر بتلك العجوز المخيفة التي ظهرت من العدم، وكيف دفعتها خطوة للخلف دون أن تلمسها

حتى وضرغام الخائن الغدار تركها ومضى، صدمها تفكيرها ووصفها لضرغام بـ(الخائن الغدار) تمتمت: «رباهما الذي أقوله؟».

نادتها نرمين بفكاهة: «أيها الشخص الغامض المجهول على الجانب الآخر من الهاتف، هلا شرحتَ لي ما يجري مع ابنة خالتي».

شعرت سُلافة أن العبرة تخنقها، هي ذات العبرة التي لازمتها مذ تركها ضرغام بالأمس، ثم رافقتها ليلاً كضيفة ثقيلة على روحها ولم تدعها وشأنها حتى اتخذت سُلافة قراراً متسرعاً مفاجئا إنها ستعود إلى العاصمة كي ترى ولدها في عيد ميلاده مهما كانت النتائج، قالت أخيراً وهي تشعر بالعجز عن فهم ما يحصل لها: «لماذا تصعبين الأمور علي يا نرمين؟ أنت تتعبينني».

ردت نرمين ببعض الترفق: «فيكِ شيء مختلف لا أفهمه، قولي لي ما هو وسأتوقف عن إزعاجك».

تتنهد وكلماته تؤرق أنوثتها (ألا يمكن لتلك الضفيرة البنية أن تجد مكاناً كي تختبئ؟!).

تشعر بحرارة في خديها، فترفع كفها الحر وتدفع به بعض الهواء البارد نحو وجهها، عسى أن يُطفئ بشرتها الحامية، قالت أخيراً تعترف بعفوية: «أنا أشعر بالوحدة، لا أطيق البقاء هنا».

فتساءلت نرمين بتشكك: «أهذا كل شيء؟».

هل هذا كل شيء؟ تتساءل سلافة، نعم هي تشعر بالوحدة، ولسبب مقلق مخيف، تباعد ضرغام عنها البارحة بعد كلمات العجوز المخيفة، جعلها تشعر بوحدة مضاعفة، ما الذي يحدث لها؟ أيعقل أن تقع في.. غرامه، زادت الحرارة في خديها فتتسارع حركة كفها تلقائياً بينما نبض قلبها يدوي كأنه في مهرجان ما أغبى القلوب التي تحضر مهرجانات كهذه، قالت على عجل كي تتهرب من ابنة خالتها: «نعم هذا كل شيء، واذهبي إلى طبيبك الصامت ودعيني لشأني».

ثم تنفست الصعداء وسيارة الأجرة المخصوص قد وصلت لتغلق الهاتف وتتقدم لتفتح باب السيارة وتقفز للمقعد الخلفي، وما زالت يدها تحرك أمام خديها المحمرين، كمروحة يدوية.

***

الصحراء

تعب استنزف قوة جسده لكن روحه لا تعرف التعب، شمس الظهيرة تضرب رأسه وهو يجلس متربعاً على الرمال، مغمض العينين يعيد حساباته في البحث، منذ أول إشراق للشمس وهو يجول الصحراء في محيط القرية، ساعات تمر وعيناه شديدتا الملاحظة تبحثان وتنقبان، لم يلمح أي أثر لحرقة خضراء، ريح باردة خفيفة تحرك بضع خصلات مجعدة من شعره، ينصت لأفكاره ويداه

مغمورتان في الرمال، لا زالت الرمال باردة رطبة من أثر غزارة الأمطار طيلة ليلة الأمس، ثم جاء الإشراق في دعوة للبدء، كان هو أكثر لهفة في تلبيتها، عاد بأفكاره إلى ذاك اليوم قبل خمسة عشرة عاماً، وهو في طريقه إلى دار مزنة، وشاحها المورد عالق بشجرة نخلة، الألم.. الألم شديد، رباه، لا يُحتمل.

تمتم مُحدثاً نفسه: «ركّز ضرغام، لا تدع ألم الفجيعة يشوشك».

بجَلَد يغض الطرف عن مشاعره، عقله البدوي يحسب حساباته، بوصلته المتوارثة للاستدلال لا تخطئ بالعادة، يعاود حثّ نفسه: «ركّز يا ضرغام».

من دار طحنون خط مستقيم يمتد بزاوية مائلة، ليمر بتلك النخلة التي رفرف جذعها بالوشاح المورد، يكاد يسمع صوت مزنة الباكي فتدمع عيناه المغمضتين وتنقبض يداه داخل الرمال، لكن بوصلته مستمرة في الامتداد بخطوطها، يلاحق صوت مزنة وعقله يطفو فوق الألم، صفاء ذهني لا يوصف كان يمحو الشوائب المضللة، يسير مع الخط حتى امتد خارج القرية ليصل الصحراء، ففتح عينيه على وسعهما ثم نهض مهرولاً ومقصده مُحدد، أمضى ساعتين أُخر أشد إنهاكاً من سابقتيها وهو يبحث في تلك المنطقة التي حدّدتها بوصلته، صائم عن الزاد وقد تمكن منه الإعياء، جثا على ركبتيه ويكاد العجز يقتله، شفتاه جافتان وهو يحني برأسه، تقبضت يداه ثم أخذ يلكم الرمال

بقهر وهو يهدر: «**لا تسكتي الآن يا مزنة أتظلين تبكين في قلبي لأعوام، وتلاحقين بوشاحك المورد الأحلام، ثم آتيك ناذرا فلا أجد إلا رمالاً كأوهام**».

يعاود لكم الرمال ونثرها ويعيد النداء: «**لا تسكتي الآن يا مزنة فعجزي يسقيني مرَّ الأسقام**».

كان ينهت وهو ينهض مترنحاً، تدور به الصحراء فلا يقوى حتى على السير إلى سيارته التي تبعد بضعة أمتار، لكنه يجرجر خطاه فقد احتاج الماء بعد طول عطش، لم ييأس رغم إحساسه الفظيع بالعجز، كلمات العجوز عجمية تمنحه الأمل، وكأن المولى أرسلها إشارة لرحمته، وإن لكل شيء ميعاد، فهل حقاً آن أوان الميعاد؟ أم أنه امتحان عسير من المولى، **ليراه، هل صبر وبالأجر ظفر، أم جزع وبالاعتراض كفر.**

يرفع عينيه للسماء ويهتف: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، آمنتُ بما شِئتَ لي وأردت، وارتضيتُ بما أوقعتَه علي وقدّرت»».

ثم أطرق ينظر للرمال وما زال فمه الجاف يردد شهادة التوحيد والإيمان، حتى أوشك أن يصل سيارته عندما التقطت عيناه عفوياً فأر الصحراء يمر قريباً من خطواته البطيئة، الحيوان الصغير كان يركض حاملاً غنيمته من الطعام عائداً إلى جحره بين بضعة صخور تراكمت جنب بعض وسط الرمال، عاود ضرغام النظر إلى سيارته لبضع

لحظات، ثم فجأة تسمرت قدماه والتفت رأسه بحدة نحو صخرة صغيرة وحيدة، على بعد مترين من جحر الفأر، عيناه متسعتان غير مصدقتين، وقلبه يرعد بالنبض في صدره، أيخشى التصديق؟ أيخشاه؟

إنها خرقة.. خرقة خضراء يظهر طرفها على استحياء من تحت الصخرة.

***

سوق القرية

كان مشهداً صادماً أمام أهل القرية جمعاء، دنانير الغجرية تخلت عن هيئة الغجر أظهرت وجهها دون أي تبرج، وقد تخلت عن الحلق الطويل الذي تلبسه على الدوام ممتداً ما بين أذنها وأنفها، واكتفت بتخفيف أثر الندبة في خدها بطبقة من مسحوق يلائم لون بشرتها، ولم يشمل التغيير وجهها فحسب، بل خلعت رداء (السحّارة) الأحمر لتستعيض عنه بثوب مهيب الطلّة، شديد السواد، محتشم فضفاض بعض الشيء، مع قلنسوة بنفس اللون فوق رأسها وتخفي كل شعرها، وسط طريق يعجّ بالمارة من أهل القرية في هذا الوقت من النهار، تسير دنانير تستعرض نفسها شامخة، مرفوعة الرأس، مع تعابير شجن حزين مفتعلة، اجتذبت الأنظار وحفّزت الأفواه للهمس والحناجر لإطلاق الشهقات، على الجانب الآخر من الطريق كان حبّاس يسير على عجل ويشدّ معه (رجلاً

مخبولاً) بملابس قذرة وشعر منكوش ولحية كثيفة شديدة القذارة، يهمس في أذنه كأنه يحثّه على السير وعينا (المخبول) تتوهجان أكثر وأكثر حتى كان اللقاء المنشود، المُدّبر، وقفت دنانير وسط الطريق وهي ترفع كفيها وتفرد أصابعها العشر لتحاوط بهم بطنها، تظهر تكورها بوضوح، الكل يراقب في صمت وذهول بينما يتقدم (المخبول) منها وعيناه المتوهجتان جاحظتان، تحدقان في بطنها وهو يتمتم بكلام غير مفهوم، أطلق حباس همساً خافتاً بينهم كفحيح الأفاعي (هذا مروان الضاري) فتعالت الشهقات وهمسة حبّاس تتناقلها الأفواه، بينما يصل مروان إلى حيث دنانير تقف بانتظاره، جثا على ركبتيه منهاراً ودنانير ترخي أجفانها تدّعي التأثر، ثم مدّ ذراعيه ليلفهما حول جذعها ويغمر وجهه في بطنها يتشمم (عطر دليلة) ثم يصرخ فجأة باكياً: «ولدي».

التمعت عينا دنانير بالنصر خلف أجفانها المرخية، لقد كان مشهداً بألف مشهد، لن يجرؤ أحد بعد الآن على التشكيك بنسب طفلها (الحرُ مروان الضاري).

***

الغزل الحادي عشر

(خيط الوحدة تنسجه العناكب بيوتاً، فتملأ أركان الدار، وتزيد الوحشة وسط الديار)

يده ترتجف بقوة وهو يزيح الرمال عما حول الخرقة الخضراء في حرص شديد، ليرتعد جسده عندما ظهرت عظام المعصم جلية وقد التفت الخرقة حولها، أجهش بالبكاء دون أن يملك منع نفسه، دموعه السخية أغرقت وجهه وبللت لحيته وهو يناجيها بالغزل والبكاء يقطع كلماته: «**مزيونة تحت الثرى يا أجمل الصبايا الملاح، ردّي النداء فالبعد انتهى، إن الشوق ذبّاح، أعجزت لسنوات أن أشمّك، وعطر قبرك فوّاح**».

ثم حمل بكفه حفنة رمال وأخذ ينثرها فوق ما ظهر من عظام المعصم الرقيق ليدفنها مجدداً، مُبقياً فقط على الخرقة الخضراء كأنها شاهد لقبرها ولو إلى حين، تمتم وعيناه الباكيتان لا تفارقان تلك الخرقة: «انتهى البعاد يا مزيونة، انتهى البعاد وحلّت في روحي الوحشة، **وقد صدّقت للتو فقط، أنك لن تردّي، وبضحكاتك البريئة لن تهلّي**».

ثم رفع وجهه الباكي للسماء وهتف بحرقة قلب: «رحماك يا رب، وإذا الموءودة سُئلت بأي ذنب قتلت»،

***

دخل صفوان عليها غرفتها دون حتى أن يقرع الباب،

بعدما حصل بينهما البارحة لن يمنحها سكيناً لتذبحه فلا تنجح إلا بذبح نفسها، رحلة عودتهما ليلة الأمس كانت صامتة وقد خيّمت الظلمة وغزارة الأمطار على مشاعرهما الثائرة المتخبطة، وعند وصولهما الدار حملها بين ذراعيه وأدخلها ثم سار بها قاطعاً درجات السلم ثم إلى غرفته التي اتخذتها هي غرفة لها، وضعها على السرير وهو يأمرها بأخذ حمام ساخن ريثما يجلب لها بعض الطعام الذي اشتراه منذ الظهيرة، وعندما عاد إليها بصينية الطعام وجدها في السرير بانتظاره، تنظر إليه كما تنظر اللحظة، نظرة انتصار وتشفٍ، وبينما كانت نصف مستلقية ليلة الأمس وهو يضع لها الصينية ويغادر، فالآن هي متربعة على الأرضية المفروشة بالسجاد، كاشفة عن ساقيها البيضاوين بإسراف وهي تغزل، **يطبق صفوان فكيه وعيناه تمليان النظر في حسنها المكشوف، وانضباط مشاعره بالخطر محفوف، تعض طارف شفتها السفلى تذكّره، فيجتاحه الظمأ كقدر عاجل يداهمه،** عقله مُدرك أن ما يراه مُخطط له، لكنه رجل، وهي ليست كأي امرأة إنها دلال الحسن، لم يطرق بنظراته يتحدى نفسه قبل أن يتحداها، دلال تشحذه ليقاتلها كما تقاتله، وبينما هي تسعى لقتله هو يسعى لإحيائها من جديد، قال بهدوء: «هناك فتاة صبية ستأتي لتعيش هنا».

أوقفت الغزل ووقع المغزل، شيء في نظرات عينيها هاله رؤيته دلال قادرة على قتله بالفعل هذه اللحظة، لم يكن له أدنى شك بهذا، كما لم يكن له أدنى فكرة عما أثارها بعنف

هكذا، تمتمت بخفوت: «بأيّ صفة؟»،

يعقد صفوان حاجبيه وهو لا يفهم السؤال ليقول: «ماذا تقصدين بأي صفة؟ إنها..». قاطعته بعنف السؤال: « كم عمرها؟».

للحظات لا يستوعب بينما يرد: «اثنتا عشرة، وستأتي لتنظف وتطبخ».

بدت دلال للحظة غير مصدقة وحقد غريب أقرب لكره يطلّ من عينيها، يحاول صفوان سبر أغوار كرهها له وهو يضيف موضحاً: «ستعيش هنا، أبوها فلاح فقير مات بطلقة طائشة في النزاع العشائري، وزوجة أبيها لا تحسن معاملتها ولم تعد تطيق بقاءها معها».

هدأت عاصفة الكره في عينيها، لتهب ريح سخرية وهي تقول له: «رقيق القلب دوماً يا صفوان، نصير المظلومين وحامل هموم المحرومين».

لم يلتفت لمحاولاتها استفزازه فاكتفى بالقول وهو يعدل عباءته فوق كتفيه: «لن تخرجي مرة أخرى دون إذني يا دلال».

ترفع حاجبيه ببعض العجب الساخر وهي تسأل: «أتحبسني».

رد بنفس الهدوء: «بل أحميكِ من نفسك».

ضحكت وهي تمسك بمغزلها مجدداً وتجعله يدور

بينما تسأل بجرأة: «هل حقاً لم تعاشر امرأة طيلة مدة غربتك؟».

فاجأته بالسؤال فرفعت عينيها إليه لتضيف بنظرة غريبة: «ألهذا كنت ترسل أم إسماعيل لتبحث لك عن عروس صبية؟ تشتهي الصغيرات ليعوضنك ما فات».

يعبس صفوان وهو يتقدم خطوة قائلاً باستياء: «أشتهي الصغيرات؟! من أوصل لك هذه الفكرة؟ أهي أم اسماعيل؟».

عادت لتنظر إلى مغزلها وهي ترد بنبرة غير مفهومة له: «المرأة الثرثارة لم تفعل إلا ما طلبتَه أنت منها، فلماذا تغضب؟».

يهز رأسه بحيرة وهو يرد: «طلبتُ منها؟ أنا لا أفهمك؟ ما علاقتك أنت بما طلبته منها».

المغزل يدور والصمت أطبق، حتى قالت دلال بنفس النبرة التي لا يفهمها: «هل تنكر أنك أرسلتها لتبحث لك عن عروس؟».

رد صادقاً: «لا.. لا أنكر، ولن أدافع عن احتياجي ليكون لي عائلة وقد بلغتُ منتصف الثلاثين».

ارتفعت عيناها كسيفين مُشهّرين في وجهه، لتوقف المغزل بكفها تعتصره بينما تقول بخفوت حاد: «إذن تعترف بإرسالها إلى في عقر داري كي اختار لك من

الفتيات الصبايا اللواتي كنت أعلمهن الغزل ما الذي كنت تبغيه يا صفوان؟ أن أرسل لك نسخة عني ترضيك».

سمع كلماتها وحتى اللحظة لم يستوعب ما قالته أخذ يتمتم: «أم إسماعيل أتت إليك؟ تطلب منك عروساً لي تختارينها من فتياتك؟».

كانت ستكسر المغزل بين أصابعها بينما تهدر فيه: «أنت من طلبت منها، لم تأتِ من نفسها».

رفع كفه كأنه يُقسم وهو يقول: «هذا لم يحصل ورب العزة يشهد».

تحدّق في عينيه والشكُّ يتسلل لنظراتها الموجهة بالسيوف نحوه، فتقاوم الشك وهي ترفض تصديقه: «أنت كاذب».

يرد بتجهم: «ولماذا أكذب في هذا؟ أخبرتك أن (نعم) أعطيت الضوء الأخضر لأم إسماعيل كي تبحث لي عن عروس، وقد رشّحت بعضهن بالفعل، لكن أبداً لم أرسلها لك، وأبدأ لم يرد ذكركِ في هذا الأمر».

عيناها في عينيه وحتى اللحظة ترفض تصديقه، وفي هذا صفوان نفسه لم يكن يلومها، دلال لا تكذب، إذن ما الذي دفع أم إسماعيل لاختلاق كذبة والذهاب إلى دار دلال كي تبثّها في عقلها؟! رنّ هاتف صفوان فقطع المجابهة المحتدمة بينهما فيخرج صفوان هاتفه من جيب جلبابه الشتوي ثم يفتح الخط ويرد على ابن عمه الشيخ حمدان: «وعليكم السلام ورحمة الله».

أطرقت دليلة وهي تنظر للمغزل المعصور بأصابعها، لم تعد تسمع ما يقوله صفوان عبر الهاتف، عقلها تشوش للحظات وهي تستعيد ذاك اليوم عندما أتتها خاطبة القرية تسألها ترشيح عروس لصفوان بناء على طلبه، لا يمكن أنها أساءت الفهم لقد قالتها صريحة (ابن عمومتك صفوان أرسلني إليك لتختاري صبية من الصبايا اللواتي تعلمينهن الغزل).

رفعت دليلة نظراتها إلى صفوان وهو مشغول بالمكالمة ويبدو قلقاً مستاء بوضوح، إنها تقرؤه كما تقرأ نفسها هو لم يكذب، لكن لماذا تكذب أم اسماعيل؟ ما مصلحتها؟!

صَدْع.. إن هو إلا صَدْع ضئيل في جدار صلب، فتشمخ دليلة ترفض الإقرار بوجوده، حتى، وهي تراه بأُم عينيها، قال صفوان بوجهه المتجهم: «لن أتأخر، سأخرج اللحظة لألحق بالشيوخ في مجلس الشيخ عبد الجبار».

أغلق الهاتف ثم أخذ ينظر إليها بقلق فسألته تلقائياً: «ماذا هناك؟ لماذا تنظر إلي بقلق هكذا؟»».

رد صفوان يختصر طويل الشرح والكلام: «الغجرية ضربت ضربتها وأثبتت باليقين نسب جنينها إلى مروان»».

ارتفع حاجبا دليلة بينما يضيف صفوان بقلق أشد: «مروان عاد بهيئة المجانين وأعلن أن ما تحمله الغجرية هو من صلبه، القرية كلها تغلي بالأقاويل ولا أحد يعلم ما سيحصل»».

تحرك عائداً ناحية الباب وهو يوصيها بتشدد: «إياكِ أن تغادري الدار مهما حصل يا دلال.. إياكِ».

ثم تركها ومضى على عجل ودليلة تضع كفها على بطنها بوجه شاحب أَيَنعم مروان بالذرية بعد هذه السنوات؟ أتراها هي التي.. عاقر؟! الصَدْع يكبر ويتسع ودليلة غافلة.

***

مجلس شيخ الشيوخ

بعد أن أنهى الشيخ عبد الجبار كلامه تبعه الشيخ عمران الأسدي بالقول: «أظن يا شيخ عبد الجبار بعدما وصلنا مما حصل في سوق القرية اليوم، لم يعد بقاء دنانير الغجرية بهذا الوضع صحيحاً».

أطرق الشيخ عبد الهادي ولم يعقّب بينما قال الشيخ طالب الجبلي بامتعاض واضح: «لا أدري ما الذي نتباحث حوله اللحظة، ما دخل الشيخ عبد الجبار بهذا الأمر ليحمل همه ويبحث عن حلّه، وما دخلنا نحن باقي العشائر؟ ألا يفترض أن يتكفل شيخ عشيرة الضاري بأمر كهذا؟».

علت الأصوات وساد الهرج بين الرجال وشيخ الشيوخ صامت، الشيخ حمدان الضاري كان منفعلاً وهو يرد على كلام الشيخ طالب الجبلي: «الغجرية هي من ذهبت إلى الشيخ عبد الجبار وأقحمته بالأمر، لو جاءت إليَّ لكنت

تصرفت».

فالتفت الشيخ طالب الجبلي نصف التفاتة إلى الشيخ حمدان ثم قال شبه ساخر: «إذن تصرف يا.. شيخ، وأرحنا».

زمجر الشيخ حمدان من استفزاز الشيخ الجبلي له وأوشك أن يخرج عن طوره عندما تدخل الشيخ عبد الهادي الأسدي بنبرة صوته المميزة الهادئة: «يا شيخ طالب، أظن الشيخ عبد الجبار جمعنا اليوم لما هو أخطر، هذه المرأة ليست بالهينة، وعلينا أن نستقصي أكثر عمّا تدعيه».

لكن الشيخ الجبلي لم يقتنع ليقول عابساً حانقاً: «كل الاحترام لك يا شيخ عبد الهادي ولشيخ شيوخنا، الشيخ عبد الجبار، لكن أظن الأمر لا يستحق كل هذا القلق، وأصر على القول، ما دخلنا نحن بما فعله مروان الضاري مع الغجرية دنانير؟ إلا يكفي ما فعلته المُخزية قبل ساعة وسط الناس؟ سنصبح مُضغة بأفواه العشائر خارج القرية، أم يفعلها المجانين ويبتلي بها العقلاء».

هبّ خلفان الضاري كعادته النزقة ليقف على قدميه هادراً: «أمسك لسانك وتأدب وأنت تتكلم عن أخي».

ارتبك ذياب والعيون تكاد تخرج من محاجرها غضباً لقلة تأدب خلفان مع شيخ عشيرة الجبلي، فسارع إلى زجر أخيه ليسبق أي ردة فعل غير محسوبة من أخويّ الشيخ الجبلي وابن عمه الذين حضروا الجلسة أيضاً، فقال:

«اجلس خلفان ولا تزد ولا تتدخل بكلام الشيوخ مُجدداً».

كان ذياب يجر خلفان من طارف عباءته كي يعاود الجلوس لكن خلفان يأبى في إصرار أحمق ليتدخل قحطان الجبلي ابن عم الشيخ قائلاً بنبرة تهديد: «استمع لقول أخيك الأكبر يا خلفان، فإن اعتبار الشيوخ ومجلس شيخ شيوخها هو ما يمنعنا، نحن أبناء الجبلي من الرد عليك كما تستحق».

نظرات الشيخ عبد الجبار كانت كالصاعقة فانكمش خلفان رغماً عنه رغم أنه يغلي بالحقد، لم يرد، لكنه أبى الطاعة، فغادر المجلس دون أن يستأذن أو يلقي السلام.

بارتباك شديد قال ذياب: «أعتذر منكم يا شيوخ».

فرد الشيخ عبد الجبار: «وعذرك غير مقبول، أخوك بات يتجاوز كل الخطوط الحمراء يا ذياب».

حاول ذياب امتصاص نقمة الشيوخ قائلاً بتبرير واهٍ: «امسحها بلحيتي أنا يا شيخ الشيوخ، إنه طائش مندفع لكنه لا يقصد التجاوز على مقام الشيوخ».

فرد الشيخ عبد الجبار بتلك الهيبة والقوة التي يملكها: «هذه المرة فقط يا ذياب، هذه المرة وحسب، إن تكررت فليس له عندي إلا الجلد».

طأطأ ذياب رأسه وهو يشعر بالمهانة فيستعر غضباً في

داخله، يسحق أسنانه وهو ينظر بطرف خفي إلى (شيخ عشيرة الضاري) وكيف يجلس منتفش الريش ليترك للشيخ عبد الجبار إهانة أولاد الضاري هكذا، لم يقطع الصمت المتوتر إلا صوت صفوان الضاري الذي تكلم للمرة الأولى منذ دخوله المجلس ليقول: «اسمحوا لي بالكلام، أرى أن الغجرية تأخذ حقها كزوجة لمروان الضاري وأم ولده، بعد التأكد من صحة توقيع مروان على العقدين».

ارتد رأس ذياب للخلف بحدّة هاتفاً بغضب: «ماذا تقول يا صفوان؟».

فيرد عليه صفوان بهدوء وتعقل: «فكّر بالأمر ملياً يا ذياب، وأعد حساباتك وستجد ما أقول هو عين الصواب، ليس لأجلك فحسب، بل لأجل عشيرة الضاري، فنقمع الفتنة قبل أن تكبر».

فيردد ذياب وأعصابه تفلت منه: «لكن هذا لا يعقل لا يعقل، حتى إن صحّ التوقيع، أتلوي ذراعنا تلك الغجرية بمجرد ورقة لا يعلم إلا الله كيف كانت حالة أخي مروان حين وقّعها، هذا إن كان يعلم من الأصل على ماذا وقّع».

رد صفوان بمنطقية: «لكن أخاك قالها أمام الجميع، قال إن ما تحمله الغجرية هو ولده، بات واقع الحال يا ذياب، لا نستطيع المساس بها أو منعها من أخذ حقوقها، خاصة بعد ما فعلته اليوم، إنها عيبة كبيرة في حق عشيرة الضاري إن تركناها في دار ضيافة شيخ الشيوخ».

شيخ الشيوخ يراقب ما يجري بين أبناء الضاري وهو يعرف كل ما جرى بينهم الأيام الماضية، فلا يملك إلا أن يعجب بقدرة صفوان على ضبط نفسه فيتصرف لمصلحة عشيرته، وقد تخلّى من يسمّي نفسه (شيخ) عن مهامه ومسؤولياته، أيّد شيخ عشيرة الجبلي كلام صفوان بالقول: «أجل، عيبة كبيرة، انتهى يا ذياب، ودَعها تأخذ حقها في مال زوجها ووالد طفلها».

ثم وقف على قدميه مُضيفاً: «سمعتكم على المحك يا ذياب، وقد طالما الكثير مؤخراً».

قال قوله هذا ثم استأذن من الشيخ عبد الجبار بالانصراف فأذن لهم.

شعر ذياب بالاختناق وكأنه وقع في فخ، أخذ جبينه يتصبب عرقاً في هذا البرد بينما يقف الشيخ عبد الهادي قائلاً باحترام: «عن إذنكم يا شيوخ، نستأذنك بالانصراف يا شيخ عبد الجبار، لم يعد لوجودنا داعٍ، فالأمر يخص عشيرة الضاري فقط».

وبينما يساعد الشيخ عبد الهادي أباه عمران ليقف، كان الباقون يلحقون بهم وهم يتمتمون: «ونحن من هذا الرأي، ننسحب بعد إذن الشيخ عبد الجبار».

تلفّت الشيخ حمدان الضاري يميناً ويساراً وكأنه لا يدري ما يجب أن يفعله ففضل فعل المثل وكأن الأمر لا يعنيه ليقف على قدميه ويقول متباهياً بما لا يملكه: «أنا أيضاً

مُغادر، لدي أمور أهم أفعلها لعشيرة الضاري والناس تعتمد عليّ كي أحلها».

مع انسحاب الجمع لم يبق بالمجلس إلا شيخ الشيوخ وولده البكر ناصر بالإضافة إلى صفوان وذياب، كانت يدا ذياب متقبضتين وهو يحني رأسه، يشعر أنه وحيد، لا عزوة الضاري ولا عزوة أخويه، يتمتم في سره بافتقاد: «يا خسارتك يا مروان، يا خسارتك وقد تلاعب بك كيد النساء».

قال أخيراً وشعور الوحدة وافتقاد السند يثقل عليه: «إذن تخليتم عنا».

سأله الشيخ عبد الجبار بهدوء: «هل لديك اقتراح آخر يا ذياب؟ قل وأنا أستمع إليك».

رفع رأسه ليقول بإحساس الخذلان: «كنتُ أنتظر إنصافك يا شيخ الشيوخ».

رد الشيخ عبد الجبار بما هو واقع وليس اقتناع: «للإنصاف قواعده واليوم هي من تبحث عن الإنصاف، هي الطرف الأضعف، زوجة حامل وزوجها فقد عقله ولا تريد إلا المأوى».

فيهدر ذياب بغضب: «إنها كاذبة وأرى في عينيك يا شيخ أنك لا تصدقها، كما لا يصدقها كل رجل جلس في مجلسك الساعة، فكيف تريد مني أنا أن أصدق؟».

عندها قال شيخ الشيوخ بدهاء ومكر البدو: «إذن أثبت كذبها وسيكون لنا التصرف».

شعر ذياب بالحيرة وهو يتساءل: «كيف أثبته؟».

تبادل الشيخ عبد الجبار النظر مع صفوان ثم قال: «قل له أنت يا صفوان».

فهزّ صفوان رأسه ونحى جانباً كل ما حصل بينه وبين ذياب وأخوته ليقول: «اعطها المال والدار يا ذياب وأبقها تحت ناظريك، فلا أظنها (طامعة مال) فقط».

التفت ذياب لصفوان يسأله بتشكك وحيرة أكبر: «ماذا تقصد؟».

رد صفوان بتفكر: «أظنها (طامعة نسب)، نسب شيوخ الضاري».

التمعت عينا الشيخ عبد الجبار إعجاباً متزايداً ليقول: «ما مات من أنجبك يا صفوان والله إنك محق فيما قلت، وقد رأيت في عينيّ الغجرية حلم المشيخة لولدها».

جحظت عينا ذياب مصدوماً وهو يعيد حساباته وبينما يستغرق في أفكاره قال صفوان للشيخ عبد الجبار: «إن سمحت لي يا شيخ، أفكر في أمر ولا أعلم كيف سيكون رأيكم حوله، أحتاج مشورتك فيها».

رد الشيخ عبد الجبار: «قل يا ابن أكرم الناس خلقاً وأكثرهم طيبة».

تبسّم صفوان شاكراً ثم قال بجدية: «هناك فحوص خاصة لكشف النسب، أقصد تحليل جيني، لا أدري أن سمعت عنه، عندما يولد الطفل نستطيع أن نجريه في مختبرات خاصة في العاصمة لتأكيد نسبه إلى مروان».

تجهم وجه الشيخ عبد الجبار في رفض فوري وهو يقول: «هذه الأمور لا تدخل قريتنا يا صفوان، إنها عيبة ما بعدها عيبة، أن يطلع الغرباء على أعراضنا وأنسابنا وأصلابنا».

صمت صفوان بينما يضيف الشيخ بما يشبه العتب: «لا تدع سنين الغربة تنسيك أعرافنا وطبيعتنا وأصولنا».

رد صفوان موضحاً: «لم أنس والله يا شيخ، لكني أحاول إيجاد مخرج وأعلم أن الحياة تتغير حتى في قرية الشيوخ، فقلت ربما الأعراف باتت تسمح بعد هذه السنوات».

أشار الشيخ عبد الجبار إلى ذياب وقد رأى بعض الأمل على وجهه حالما نطق صفوان بفكرته ليقول الشيخ: «اسأل ذياب إن كان يجرؤ على فعلها».

ثم التفت لذياب بنظرة ذات معنى وأضاف: «أليس كذلك يا ذياب؟ لن تُظهر نفسك أمام أهل عشيرتك كرجل يشكك في نسب ابن أخيه، خاصة وأخوه اعترف أمام عيون الأشهاد أن الولد (ولده)».

أدرك ذياب أن هذا الحل مستبعدٌ للغاية، هو لم يخسر بعد فرصة المشيخة، صحيح ما أوقعه على سمعة صفوان قد

وقع على سمعتهم، لكن هو أقرب لفهم الناس وأعراف القرية من صفوان، لذلك أيّد شيخ الشيوخ بمبالغة: «مؤكد يا شيخ، لم يخطر هذا ببالي، صفوان بات غريباً عنا ولم يعد يفهمنا».

ثم التفت إلى صفوان يدّعي الاعتذار: «عذراً منك يا ابن عمومتنا، أنا أقول الحق فقط».

فلم يرد صفوان بشيء، بل اكتفى بمنحه نظرة ساخرة، بعدها ركّز ذياب مع الشيخ عبد الجبار ليقول: «إذن أنت تؤيد اقتراح صفوان الأول، بماذا تنصحني بعد يا شيخ الشيوخ؟».

رد الشيخ عبد الجبار والدهاء يلتمع في عينيه: «أظهر الرضا والاستسلام للغجرية، دعها تطمئن وتشعر بانتصارها عليك، الغرور يفتح أبواب الخطأ ونحن لذاك الخطأ لصيادون».

***

دار صفوان الضاري.. قبيل الغروب

كانت تقف أعلى السلم وهو يرتقي الدرجات، لم ينظر إليها بل رمى السلام وبدى كأنه يحمل الهموم، لم يسمعها صفوان ترد عليه فرفع عينيه إليها ليراها تنظر إليه بذاك الصمت وقد بدت بحالة مختلفة، كتم تنهيدة تعب واستنزاف لكنه حين وصوله إليها سأل بخفوت: «هل ارتحتِ لوجود حنّة؟ إنها طيبة ومطيعة».

يقفان جوار بعض أعلى السلم وكأنهما غريبين يتشاركان العيش بين هذه الجدران، تثقل عليه الوحدة ولأول مرة يشعر برغبة في الابتعاد عن دلال وحدته بوجودها لا قِبَل له على تحملها، ردّت عليه وهو يوشك على التحرك مُجدداً: «هي طيبة وقليلة كلام، نظفت الدار وأعدت الطعام دون أن أطلب منها».

فقال وهو يأبى النظر إلى وجه دلال عن قرب: «هذا جيد، أنا أخبرتها أن تنام في الغرفة الغربية في الطابق العلوي، إنها طفلة ولا أريدها أن تنام بمفردها في الطابق الأرضي في دار غريب عنها لم تعتد عليه».

صمتت دليلة ولم تعقب بشيء، فتحرك صفوان ليتركها حيث هي ويذهب إلى الغرفة التي اتخذها غرفة له، تفاجأ أنه حالما دخل غرفته كانت دلال في أعقابه التفت وسط الغرفة فينظر إليها باستغراب واستفهام صامت، (حالتها المختلفة) وتّرته تلقائياً وقبل أن يفتح فمه ليتساءل تقدمت دليلة نحوه وهي تسأل باضطراب خفيّ: «هل حقاً تلك الغجرية، حامل من مروان؟».

ابتلع ريقه ثم تحرك قليلاً ليخلع عباءته قائلاً بصوت خافت: «هذا ما تقوله وتثبته».

شقّ صدره رجفة في صوتها وهي تقول بألم مفضوح: «لكن.. مروان تزوّج كثيراً ولم ينجب».

التفت ينظر إليها مُجدداً، تقبضت يداه وهو يلمح قناديل

الحنين تضيء ظلمة مواجعها وكهوف انتقامها، تحامل على ما أثارته فيه ليخلع كوفيته وعقاله وهو يقول بصوت أجش: «هل سنتكلم عن مروان الليلة أيضاً؟».

لا يصدق أنه اللحظة يشعر بالغيرة وسط كل ما يحصل من حوله وداخله إلا أن الغيرة هاجمته لتطعن فيه طعناً، نظرا في عيني بعضهما، بدى جدار الانتقام متصدعاً أكثر وهي تنظر إليه للحظة مسروقة من ماضٍ ربطهما برباط أقوى من رابطة الدم، تقدم نحوها يهمس اسمها بلوعة: «دلال».

فتستدير هي توليه ظهرها دون أن تبتعد، وقف خلفها مباشرة، كفاه ترتجفان وهما ترتفعان لتلامسا أعلى ذراعيها المتشنجين، تذكرها ليلة الأمس بين ذراعيه على الرمال المبللة، غلبه شعوره ليهمس بخشونة: «ابقيّ».

(ابقيّ)؟ فقط كلمة وبّخ نفسه عشرات المرات، هو ابن البدو الذين يمتازون بطلاقة اللسان، لم يحمل من جيناتهم تلك، فيقف عاجزاً عن التعبير ليس أمام دلال وحسب، بل حتى وأمام نفسه، يتنهد بعمق وَجْدٍ في حشاه يحمله، ويميل إلى موضع عطرها أسفل عنقها يتشممه، يقاوم، والروح تعلن استسلامها، يقاتل، والسيوف في أغمادها، جسده يرتجف وذراعاه تلتفان حولها تضمان دلال حتى التصق ظهرها بصدره، فيكاد، فقط يكاد، يشعر برعشة تخونها، لسانه يطلبها مجدداً بنبرة لاهثة: «ابقيّ».

يرتعد وهو يطلبها ليتشنج جسدها وهي ترفضها: «الجواب ما زال، لا».

لم يستطع إفلاتها بسهولة وشفتاه عند بشرة عنقها تعترفان بضراوة ما يعانيه: «الوحدة تقتلني، ظننت وجودكِ وحده كافٍ كي أحتمل، لكنه على العكس، يزيدني شقاءً وعذاباً».

حاولت إبعاد ذراعيه اللتين تحاوطانها وهي تهمس بحدة وارتجاف: «دعني صفوان».

يتأوه وهو يلامس بشفتيه أعلى عنقها ثم خدها هامساً بحشرجة: «تدّعين إغرائي لتعذيبي، لكنك نسيتِ أني (صفوان)أعرفك كما تعرفينني يا دلال».

أخذت تتخبط بين ذراعيه في مقاومة واهية وصوتها أشد ضعفاً: «كفى.. كفى».

يديرها بخشونة بين ذراعيه لينظر إليها وهي تتهرب بوجهها، يقترب يحاول تقبيل شفتيها يفصح عن المزيد، بل يفضح المزيد منها ومنه: «أنت تحنين إليّ، أراه جلياً في عينيكِ، فيما مضى كنتِ صبية جاهلة، تحنين ببراءة تفتت القلب، لكنكِ اليوم امرأة، امرأة كاملة تفور بالأنوثة، امرأة تحن إلى رجلها الذي لا تعرف غيره، حنينك هذا، يقتلني يا دلال الحسن، أكثر من انتقامك».

أيشفق عليها وهي تتخبط، أم يشفق على نفسه وهي تتمرغ بالعذاب والوحدة؟ يضيف والكلمات تخرج عفوية من

بين شفتيه: «تشعرين بالوحدة مثلي، بل وأكثر مني». يحرك كفه الأيمن من خلف ظهرها ليلامس بطنها ويضيف بحرارة: «تودين ملء أحشائك بطفل مني، أجل يا دلال، هل تذكرين الطفل الأسمر الذي تمنيته، وبعينين خضراوين؟ أراه في عينيك اللحظة».

رفعت وجهها إليه، عيناها تشتعلان وهو يعري دواخلها هكذا لتهدر فيه: «سأقتلك لا تذكر كل هذا».

تتلوى كي تفلت من ذراعه لكنه يميل إليها ليقبل شفتيها عنوة، قاومت لحظة.. ربما لحظات حتى أشعلت هيامه وهي تبادله القبل لم يشعر بقوة احتضانه لها حتى ارتفعت قدماها عن مستوى الأرض، فجأة شعر بدموعها تبلل وجهه، ابتعد لاهثاً وهو لا يزال يحتضنها هكذا ليقول بانفعال شديد وارتجاف أشد وهو يقبل دموع خديها: «قسماً بذي الجلال والإكرام، قسماً بخالق الأكوان، أنا لم أتخل عنك، لم أتخل يا دلال الحسن، لكني جبنت أمامك، جبنت عن مواجهتك بفعلة حمقاء ظننتها أثم عظيم لن تسامحيني عليه لآخر العمر».

أخذت تضربه على كتفيه وتهمس بلهاث شديد: «كفى، دعني، أنزلني».

ليرتكب الخطيئة عندما ذكر شقيقها بذاك الانفعال المنفلت منه: «ليتّ جابر ما زال حياً كي يخبرك».

جنّ جنونها، تحولت في لحظة إلى جسد بارد تحجرت

وتجمدت كل حواسه صرخت بغل وحقد: «لا تذكر اسمي أخي على لسانك لا تقلقه في قبره بالأكاذيب وهو لا يملك ردها، جبان أنت صفوان كي تختار جابر شماعة تعلق عليها نقضك العهود».

ثم أخذت تقاوم بشراسة، وهذه المرة كانت تقاوم بروحها وجسدها رفضاً عنيفاً لصفوان، فأفلتها مُحرراً إياها، لتترنح من فرط الانفعال وهي تغادر غرفته، عيناه مفتوحتان وخضرتهما تموجان بالغضب فيتمتم: «ليتني أملك من قلة النخوة كي أقتلك بيدي يا مروان.. ليتني خسيساً اللحظة لأنتقم من رجل مجنون».

***

مع انحسار ضوء الشمس.. دار مروان الضاري

تبتسم دنانير هازئة وهي تخطو عبر بوابة دار مروان، مروان الضاري الذي تمسكه من كفه لا تفلته، خلفها يسير حباس عابساً بينما يتقدمهم جميعاً ذياب الضاري، كانت أغراضها قد سبق وأرسلها الشيخ عبد الجبار مع أحد رجاله لتسبق حضورهم للدار، اتسعت ابتسامتها وهي تفكر أن ذياب يشعر بالخزي من استسلامه أمام مكرها، فتركها حتى غابت الشمس ليحضرها إلى هنا في صمت والظلمة تخفيهم، فتح لها باب الدار الداخلية وللحظة عبّرت عيناه عن الحسرة وهما تجولان داخل دار شقيقه، فبالأمس القريب أخرج دليلة في وضح النهار بفضيحة،

واليوم يُدخِل إلى الدار (الفضيحة ذاتها)، وبيديه، فضيحة أن دارتها الظلمة فسيأتي النهار ويكشفها، إن هو إلا خيار العاجز عن تأجيل المحتوم، عينا ذياب رمقتا شقيقه مروان للحظات فقط، لحظات أكثر من كافية كي لا ينظر مُجدداً، لخال شقيقه توجعه أشد الوجع، وتشعره أكثر أن ظهره مكشوف وقد تأتيه الطعنة في أي لحظة، ولا من نصير.

كان مروان بحاله المثير للشفقة والقرف يحدق فيما حوله بنظرة ارتياب مجنون فيتشبث بيد دنانير كأنها قشته، قال ذياب بتجهم واقتضاب: «سلمتك دارك وسيصلك كل شهر راتب شهري لأعالتك».

تحركت دنانير وسط الباحة الداخلية، تنظر بإعجاب فيما حولها بينما ترد على ذياب بالقول: «ترتيب يناسبني، وبعد ولادتي لطفلي..».

توقفت قليلاً لتلتفت وتنظر في عيني ذياب بابتسامة وقّحة قائلة: «ستتغير كل الأمور، والحقوق ستؤول كلها لأصحابها».

للحظة شعر ذياب بالأذى الشديد وهو ينظر إلى مروان ويكاد لا يعرفه، بل إنه بالفعل لا يعرفه لكنه قال: «مروان.. دعيه معي».

صدم ذياب من ثورة جنون هبّت في عيني مروان، بل تراجع للخلف خطوتين مرتعبتين بينما يهمّ مروان بمهاجمته،

ثم.. وكالسحر لجمته السحّارة الغجرية وهي تشدد من إمساك كفه وتمد يدها الأخرى كي تمسك بكف مروان الحر وتضعه فوق بطنها ثم تهمس له قرب أذنه: «اهدئ.. اهدئ.. الولد، ألمس الولد، إنه ولدك الذي انتظرته لسنوات»».

فهدأ مروان في لحظة وأخذ يتمتم بعينين جاحظتين كالمهبول: «ولدي.. ولدي»».

تسمّر ذياب يتمتم: «يا إلهي»».

بينما يتذكر المهبول (طحنون)، وكم سخرا منه هو وشقيقه مروان، فيهمس ذياب في سرّه بحسرة: «الآن تدور دائرتك يا دنيا لأرى شقيقي كحال طحنون»».

قالت دنانير بثقة أقرب للغرور: «أظن الإجابة وصلتك»».

ما زال ذياب مشدوهاً مما رآه بينما تضيف دنانير بما يشبه الطرد الساخر: «أعلم أن وقت رحيلك أزف، لكن، ألن تسلم على.. شقيقك؟»».

يهزّ ذياب رأسه رفضاً وهو يتمتم بقهر وغضب: «هذا ليس بمروان إنه رجل آخر لا أعرفه، رجل مسحور أنت سلبتِ أخي عقله وحياته، أنظري إليه، أهذا هو مروان؟»».

دون أن تقرف، بل بكل وقاحة وجرأة تميل دنانير إلى مروان لتقبل لحيته القذرة قائلة بمكر النساء: «لا تقلق سأعتني به، أنظفه وأعيد لوسامته الأولى»».

شعر ذياب بالغثيان فابتعد أكثر وهو يقول بتجهم: «هذا شأنك».

ثم تحرك مغادراً وداخله يغلي، منذ الليلة شقيقه مروان مات بالفعل، وهذه السحّارة من قتلته وسينتقم، يقسم برب السماوات والأرض سينتقم لشقيقه.

بعد مغادرة ذياب قال حبّاس ببعض الارتياب والتشكك: «ألا ترين قبوله غريب؟».

ردّت دنانير بتشدق: «تقصد ذياب؟ لا، ليس غريباً، الشيوخ أجبروه على الرضوخ وهو يطمع بمشيخة الضاري فيسعى لرضاهم كيّ يدعموه، ولا يبالي اللحظة بخسارة كل أموال مروان على أن لا يخسر فرصة المشيخة».

أخذت تتحرك ناحية السلم وتسحب خلفها مروان الذي عادت لتمتمته: «وبشّر القاتل بالقتل».

لم تلقَ دنانير بالاً لما يقول، بل قالت له بابتسامة عريضة: «تعال، تبدو متعباً للغاية، سأعتني بك».

تتسلق معه درجات السلم وهي تأخذ كفه لتضعه مرة أخرى فوق بطنها، تبثّه الأوهام التي ترضي عقله المريض: «سنعيش هنا أنا وأنت والولد».

فيرد عليها مروان بلهفة: «ولدي.. ولدي».

فتؤكدها له دنانير قائلة: «أجل ولدك، ستدافع عنه وتقتل كل من يحاول إيذاءه».

يهزّ رأسه وهو يردد بنظراته المجنونة: «أجل.. أجل».

لحق بهما حبّاس عند اولى الدرجات وهو يعرض بغيظ: «هل أساعدك بتنظيفه؟».

دون أن تلتفت إلى حبّاس قالت تصدر أوامرها بنبرة صارمة: «لا تتدخل أنت، إنه زوجي ووالد طفلي، وأنا المعنية فقط بالاهتمام به، اذهب أنت واختر غرفة بالطابق الأرضي، لقد أوصيت الرجل الذي أوصل أغراضنا أن يضع ما يخصك في المطبخ، ومنذ اليوم، إياك ثم إياك أن تصعد هذا السلم ولو بدرجة».

حاول حبّاس الاعتراض: «لكن سيدتي..».

فالتفتت برأسها إليه، ترميه بنظرة جعلته يطأطئ رأسه في طاعة فورية وتتراجع خطواته عن السلم، يُظهر الاعتذار والخنوع، لكن نظرات عينيه المخفيتين تموجان بالغضب والغيرة، الشيطان يجد فيه رفيقاً مثالياً ليبثه المزيد.

***

بعد ساعة.. في الحجرة الأفضل في الدار

الغرفة دافئة وقد أشعلت دنانير المدفئة أول دخولها مع مروان، لم تختر هذه الحجرة لأنها الأكبر والأجمل فقط، بل لأنها شمّت فيها رائحة الغازلة دليلة، ولحسن الحظ كانت فيها رفاهية حمام ملحق لم تستخدم مثيلاً له من قبل، وبعد الحمام الطويل الساخن الذي تشاركته مع مروان، لم

تغطِ جسدها بأكثر من ثوب خفيف شبه شفاف، وقد حرصت على فرد شعرها الطويل فتخلت نهائياً عن تسريحتها كغجرية، كما تعطّرت بإسراف بعطر دليلة المؤثر، أجلست مروان شبه عارٍ على السرير، تنظر إليه بعينين التمعت فيهما شهوة أنثى متمرسة بالبغاء، تلامس بأناملها وجهه الرطب الذي استعاد وسامته، بعد أن نظفته وشذبت لحيته وشعر رأسه، وبذلت جهداً مُضنياً لتنظف جسده حتى وصلت إلى هذه النتيجة المرضية، بل أكثر من مرضية، لقد بدى أكثر وسامة مع آثار الجروح والقذارة في الشقوق العميقة من جلده التي لم تستطع تنظيفها بالكامل، تمتمت كأنها تحدث نفسها وهي ترفع المنشفة كي تجفف على مهل صدره العريض الرطب: «تبدو كغجري حقيقي، خالط عرقه دم الشيوخ».

مروان كان مشدوه النظرات، شبه مغيب بتأثير عقار سقته له كي يكون طوع بنانها، وستنال منه الليلة ما تشتهيه منه العقار كافٍ كي تحصل على المطلوب، رمّت المنشفة على الأرضية وقد فقدت قدرتها على الصبر أكثر، ساعة كاملة معه في الحمام، الآن تحتاج لمكافأة سخية على جهودها، بأنفاس لاهثة شوقاً للقادم، مالت بجسدها فوق جسده على السرير العريض، سرير لو نطق لحكى عن أيام الغازلة كيف كانت، وكيف شهد على انتهاك مروان لها جسداً وروحاً منذ ليلة الزفاف، فلم توقفه نخوة ولم تردعه رحمة، همست دنانير بفحيح شيطاني منفر وهي تقترب

بفمها من فم مروان: «اشتقت إليك يا غجري الشيوخ منذ تلك الليلة الأولى بيننا، أنت ملك يميني اليوم، عبدي أملك منك روحك وجسدك، أنت وأموالك ونسبك طوع يدي»».

ثم غرقت معه تأخذ منه كل ما تشتهيه ويرضيها، تمنحه الوهم فيتجرعه سمّاً في روحه قبل جسده، يتوه أكثر في دهاليز خداع الغجرية وترويضها لجنون عقله، غفلت دنانير في خضم رغبتها الشديدة بمعاشرة جسد مروان، عن باب الغرفة، نسيت أن تقفله بالمفتاح فلعب الشيطان لعبته، ومن أظهر الطاعة والخنوع قد منحه الشيطان مفتاح التمرد، لم تسمع دنانير صوت تكة الباب يُفتح، وعينا حبّاس تراقبان ما يحصل بين الجسدين على السرير، بحقد يكبته كبتاً، يتمتم في سره: «سنرى، وكله بأوان»».

***

دار الحاج عبد القدوس.. بعد منتصف الليل

أطرق الحاج عبد القدوس وهو يحوقل بعد سماعه لكل الحكاية، يندهش ويتفكر في تلك البنت المسكينة، مزنة بنت طحنون، ماتت في ريعان الصبا ظلماً، وقد ظنّ طوال هذه السنوات لم يكن أحد يهتم لرحيلها المؤلم، تقدم صحيفة تظلمها عند الذي لا يظلم عنده أحد، وها قد وضع الله سره في عبد من عباده، ضرغام الأسدي، وتُعِنه العجوز عجمية التي ملكت البصيرة لغاية لا يعلمها إلا هو سبحانه،

وأتى اليوم الذي تُكْرَم فيه الموءودة المذبوحة لتدفن كما يليق بكل البشر، لا استثناء على الإطلاق في تكريم الموتى والإحسان إليهم بحسن الدفن والذكر، رفع عينيه لينظر إلى ضرغام وقد بدى الرجل منهكاً والحزن يفيض منه ويستفيض بالتعبير عن نفسه، وجهه كالح مغبر، عيناه غائرتان ولحيته متربة كملابسه، أشفق الحاج عبد القدوس عليه وقد عرفه صبياً نجيباً في حلقات الدراسة عنده، كان نبهاً متفكراً بالفطرة، صبوراً قليل الكلام كثير الإنصات، وقد شاء له الله أن يحمل على كاهليه هذا الثقل الذي قصم ظهره لسنوات دون أن يشتكي لأحد، سأل ضرغام بإرهاق وقد طال صمت الحاج عبد القدوس: «أنتظر رأيك الشرعي يا مولانا، فلا ثقة لي بغيرك».

رد الحاج عبد القدوس: «يقول الإمام النووي في نبش قبر الميت: «نبشه بعد دفنه للنقل وغيره حرام، إلا لضرورة، بأن دفن بلا غسل، أو في أرض أو ثوب مغصوبين، أو وقع فيه مال أو دفن إلا لغير القبلة» وقد وقع كل هذا على المسكينة مُزنة، غفر الله لأبيها فعلته لم يدفنها حتى بالعمق الصحيح، فطافت عظامها فوق الرمال، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

الألم يعتصر وجه ضرغام وهو يسأل: «كيف نصحح الأمور؟ كيف ننقل.. رفاتها دون أن.. نؤذيها؟»

فرد الحاج عبد القدوس وهو يرفع كفه ليربت على كتف ضرغام يواسيه: «لا تقلق سأساعدك، وليكتب لها

الله الرحمة والراحة، ولك الأجر والثواب».

وقف ضرغام على قدميه وهو يتمتم بالشكر ويقول: «إذن هل آتيك بعد صلاة الفجر؟».

رد الحاج وهو يقف على قدميه: «نعم يا ولدي، وإن شئت المبيت هنا في مجلسي فلا أمانع، لم يتبق الكثير على صلاة الفجر، فنصلي ثم نبدأ بإذن الله».

لكن ضرغام رفض قائلاً: «سلمتَ يا مولانا، لكني سأقضي ما تبقى من الساعات هناك، إلى جوار قبرها، أخشى أن تتلاعب الذئاب والثعالب بما ظهر منها».

يهز الحاج عبد القدوس رأسه بأسف بينما يودعه ضرغام ليغادر مواجهاً برد الشتاء، صابراً مُحتملاً.

***

بعد يومين.. مقابر القرية.. الصباح الباكر

يرتدي السواد حتى في كوفيته وقد أعلن الحداد على روحها ونصب موائد الطعام للفقراء كثواب مُهدى إليها، أثار حديث قليل من الأفواه وحيرة نفر من أهل القرية، وحتى هؤلاء لم يهتموا كثيراً، فمزنة، الفلاحة الفقيرة، لا يذكرها أحد، وما زاد قلة اهتمامهم هي حكاية الغجرية زوجة مروان الضاري والفضائح التي طالت آل الضاري، كل هذا وضرغام لا يهتم، فإكرام مزنة هو ما شغله، يسير ضرغام بين القبور حاملاً فسيلة نخلة، حتى وصل إلى

قبرها لجثا على ركبتيه جوار الشاهد الحجري الأبيض، شاهد كتب عليه بخط يده وبالحبر الأخضر (قبر الطاهرة مزنة ابنة طحنون، كُلْ التمر حلالاً طيباً من نخلتها واقرأ الفاتحة على روحها).

أخذ يحفر التراب وهو يكلم صاحبة القبر: «جئتك برفقة، أعلم أننا منتصف الشتاء وزرع فسيلة النخلة غير مناسب الآن، لكن لا تقلقي يا مزيونة إن ماتت، سأزرع لك غيرها كي تظل حية وتطرح التمر، يأكله المارة ويترحمون لك».

أدى مهمته فجلس مستريحاً وهو يطوي ساقاً تحته، مدّ يده يلامس اسم (مزنة) على الشاهد وهو يسألها بخفوت: «أسعيدة الآن يا صبية؟».

يكاد يسمع صوت ضحكتها فيتبسم، وبعض الابتسام وجع وهواء المقابر يملأ صدره بالوحشة.

***

العاصمة.. ظهراً

كما فعلت بالأمس تفعل اليوم، تعض سُلافة راحة يدها كي تمنع نفسها مناداته إذا خرج، أو الإجهاش بالبكاء في الشارع، تلف الوشاح حول رأسها وتلبس نظارة شمسية لتخفي هويتها بينما تختبئ خلف جذع شجرة ضخمة على بعد عشرة أمتار من بوابة المدرسة، لم تستطع العودة إلى القرية دون أن تودّعه، وها هي تودعه دون أن يراها،

كما حضرت حفلة عيد ميلاده بالأمس التي أعدها له أصحابه في النادي، دون أن يراها، منذ يومين هي بالعاصمة استأجرت غرفة في فندق رخيص، وقضت وقتها بالتقصي من نرمين عن مكان وجود ولدها وتحركاته، وحالما تجده، تختبئ متخفية وتنظر إليه عن بعد، تكلمه عن بعد، تتخيل شم رائحته، تتخيل ضمه إلى صدرها حتى يغفو كما كان يفعل طفلاً، ها هو يخرج أخيراً مع رفاقه باسماً، تعض راحتها أكثر حتى توشك أن تدميها، تمتمت باختناق: «تبدو بخير يا ليثي، تبدو أفضل بكثير، خالتي نوال تحسن رعايتك».

يزداد اختناقها وهي تضيف: «أنا فقط من لستُ بخير أنا أموت وحدة بدونك يا أسدي، الدنيا فارغة، موحشة».

ثم أخذت تلوّح بيدها للحافلة المدرسية التي ركبها مع أصحابه، كما كانت تلوح له مودعة وهو يركب حافلته طفلاً، ليتركها لوحدتها وقلبها يقطر ألماً ووحشة.

***

مع حلول الظلام.. القرية

ترجّلت سُلافة من سيارة الأجرة، مُستنزفة القوى والمشاعر، نقّدت السائق أجرته قبل أن يتركها أمام دارها في القرية ويرحل، شعرت بالبرد، البرد الشديد وهي تقف بمفردها وسط هذه الظلمة، وكأنها في قبر لا يزوره أحد.

«أين كنتِ؟».

قفزت مجفلة وهي تضع يدها على صدرها لتعبس في وجهه قائلة بنبرة توبيخ: «ضرغام أجفلتني يا رجل، هل تسعى لتصيبني بنوبة قلبية؟».

لم يقل كلمة وهو يقف على بعد مترين يحدق فيه بنظرة غريبة للغاية تنبهت لكوفيته فتضيف سؤالاً بثرثرة: «ثم ما هذا السواد الذي يغطيك؟».

أعادها إلى سؤاله الأول الذي أجفلها، ليكرره بنبرة تلاعبت بعدّاد نبضها: «أين كنتِ منذ ثلاث ليالٍ؟».

ردّت وهي تمسح جبينها بكفها: «كنتُ في العاصمة ألاحق ولدي كمترصدة مهووسة، أتخفى كي لا يتعرف عليّ».

ترتجف بتأثر، ولا تعرف أهو السبب أو ما مرت به خلال اليومين الماضيين؟ فلجأت لحيلتها المعتادة كي تشغل نفسها عن (التأثر) فتثرثر بكل ما في داخلها دفعة واحدة: «أول يوم رأيته عبر الشباك فقط، نرمين تشغله بالكلام وهي تجبره الوقوف هناك كي أراه من الشارع، والبارحة احتفل بعيد ميلاده الرابع عشر مع أصحابه في النادي، كان الأمر أسهل بالتأكيد كي أراه عن بعد دون أن أبدو مختلة في الشارع ليلاً تراقب مبنى سكني».

تنهدت تنهيدة عميقة ثم أضافت: «بدى جيداً، أظن أنه أفضل بكثير، ورغم سعادتي كأم إلا أني..».

خنقتها العبرة وهي ترفع وجهها لتحدق في وجه ضرغام وتكمل: «أنا لستُ بخير، أنا أنانية، صح؟».

نظر إليها ضرغام مطوّلاً قبل أن يسأل بنبرة لم تفهمها: «وهل رأيته؟».

زفرت بحنق وهي ترد عليه: «ماذا جرى لك يا ضرغام؟ أقول لك ليومين وأنا ألاحقه إلى أي مكان يذهب إليه، مؤكد رأيته».

فقال ضرغام وهو يقترب خطوة وسط الظلام: «لم أقصد الليث، بل والده».

لم تتنبه لطبيعة سؤاله فردت بعفوية: «لحسن حظ ذكر الخنفساء، أني لم أره».

ثم خنقتها العبرات وهي تقول باختناق: «أنا أشعر بالوحدة، بوحدة قاتلة».

يزداد اختناقها وهي تنظر إلى ضرغام الصامت بسواده الحزين كأنه يواسي حزنها، تهمس في حيرة مفاجئة سيطرت عليها: «ما الذي أفعله هنا؟ كيف ستكون باقي حياتي؟».

تقدم ضرغام خطوة أخرى ليصبح قريباً للغاية وهو يقول بصوت أجش خافت: **«وأنا أشعر بالوحشة، لا الصحراء تبدّدها ولا صحبة الأهل تمليها».**

تبدد الاختناق وبغتة شعرت بنبضها في أذنيها وهي تنظر

إليه ببلاهة لتفغر فاهها وهو يضيف: «ثم وجدت قدماي تحضراني إليك».

ارتفع مستوى النبض حتى احتارت كيف تخفيه وهي تمسك ضفيرتها الملقاة على كتفها كأنها طوق نجاة ثم فمها اللعين قال ما يجول بخاطرها منذ مدة: «ماذا تريد مني يا ضرغام؟».

لحظة غريبة وبرد الشتاء القارص يستثني تلك اللحظة من حساباته، فتشتعل اشتعالاً، عيناه تكادان تنيران القرية بأسرها وهو يحدق بضفيرتها من تحت الوشاح ثم قال كلمة واحدة بهمس خشن: «الحلال».

***

الغزل الثاني عشر

(لو كان الجوع خيطاً لقطعته، لو كان للجوع مغزلاً لكسرته).

« ماذا تريد مني يا ضرغام؟».

لحظة غريبة وبرد الشتاء القارص يستثني تلك اللحظة من حساباته، فتشتعل اشتعالاً، عيناه تكادان تنيران القرية بأسرها وهو يحدق بضفيرتها من تحت الوشاح ثم قال كلمة واحدة بهمس خشن: «الحلال».

كان قريباً للغاية كقرب نبضها المجنون في صدرها ويصمّ بِدويه أذنيها، شعرت أنها صغيرة، صغيرة جدا أمام عملقته أجل، اللحظة تراه كعملاق، كمارد، والمارد خرج من القمقم، بعيداً عن أفكارها العجيبة حول (عملقة ضرغام) الصادمة وجدت نفسها تسأل بكل بلاهة: «هل أنت جاد؟».

رد بنفس النبرة وعيناه تخيفانها وتبعثران نبض قلبها أكثر: «نعم جاد».

فتتمادى في البلاهة لتسأل وصوتها يكاد يتلاشى: «هل قلت للتو (نعم جاد)؟».

ارتفع حاجباه قليلاً ثم يعاود النظر إلى تلك الضفيرة التي تشغله فيرد بخفوت: «أجل، قلت».

وقع الوشاح عن شعرها وهي تهز رأسها كأنها في معضلة:

«لكن لا يعقل أن تكون جاداً».

عيناه تطوفان بشعرها ليسأل بصوت مبحوح: «هو لون شعرك الحقيقي، أليس كذلك؟».

تشعر بارتجاف جسدها المفضوح وهي ترد بثرثرة دون تفكير: «نعم، بني بدرجة متوسطة، كلون شعر أبي، وورثه عنّا ولدي».

يلمع نخر كبرق يسطع في ظلام عينيه، يتضاعف ارتجافها فتشابك كفيها ببعض كأنها تحاول إيقاف ما يحصل لجسدها، ثم يحشرج صوتها وهي تتوسل إليه: «بالله عليك.. توقف عمّا تفعله ولا تنظر إليّ هكذا وإلا ستضطر لتحمل العواقب إذا وقعت مغشياً عليّ».

رد بخفوت: «هذه المرة لن أجرؤ على حملك، ليس قبل الحلال».

تمدّ ذراعها جانباً في استنجاد غريزي كي تستند لشيء، فتتحرك نصف خطوة عفوية حتى استندت لجذع نخلة، يتحرك ضرغام معها وكأنه يأبى منح المسافات بينهما فرصة لتزيد تمتمت باعتراض واهن: «ضرغام».

بنبرة قوية نهاها: «لا تناديني باسمي يا صاحبة التاء».

تمتمت وهي تذوب على الجذع أمامه بلا حول على منعه ولا قوة على رده: «ماذا تعني؟ ومن.. صاحبة.. التاء».

كان الظلام دامساً حولها، وقد التحم ظلام الليل بظلام

هندامه، حتى عيناه أظلمت وخشونة صوته شقّت الظلمة حتى اقتحمت موطن نبضها: «**سُلافُ، أصل الاسم، وتزيدُه تأنيثاً التاءُ، ذاك قول لغة الضاد، فلتقل هي ما تشاءُ، وأما قولي أنا، سُلافة هي الأصل في كل تأنيث، وتشهد معي التاءُ**».

أصابعها دون شعورها تربّت بارتجاف شديد على جذع النخلة خلفها وهي تهذر شبه محمومة: «كيف.. كيف تستطيع أن..»».

لم تستطع إتمام جملتها، وكيف تجد ما تتم به المكتمل؟ لقد كان شعور الاكتمال يلفها من كل جانب بسحر غامض يقهر كل فصول السنة ليكون فصلاً خامساً لوحده، حتى الربيع يغار منه، ما زال يهاجمها في تلك الظلمة، فلا تتبين تعابيره كما لا تتبين ما تستجيب هي به: «**لا تناديني، بعد اليوم، باسمي، فلن أرد إلا بكلمة (الحلال)، هي مفتاح الفرج ولا تسأليني أكثر فللصبر أنشد موّال**».

أصابعها باتت تضرب بعنف على الجذع وهي تحدق فيه وتهمس تكلم نفسها: «ستستيقظين من الحلم خلال لحظات، فقط اصمدي، هذا البدويّ وجد طريقة ليقتحم منامك و.. يدوي بصوته الخشن بكلمات لم تسمعي نظيراً ولا شبيها لها في حياتك بل لم تسمعها لا أمك ولا جدتك ولا سلالة (تاء التأنيث) كلها».

أبتعد فجأة ليسمح لدورة الفصول أخذ مكانها مجدداً فتهب ريح الشتاء الباردة: «ادخلي الدار، وسامحي من أطال وقوفك في هذه الساعة، لكنكِ أطلتِ الغياب، فتحملي».

رغماً عنها أطلقت تنهيدة راحة لفكِّ أسر الفصول هذا ثم تحركت مترنحة الخطوات تتجاوزه وهي تتمتم بخفوت: «أخيراً قلتَ كلاماً كبقية البشر ويكاد يقترب من كلامهم».

يدها ترتجف بقوة وهي تخرج المفتاح من حقيبتها لتفتح الباب أخيراً بعد أكثر من محاولة فاشلة، لكنها لم تقاوم أن تستدير للخلف قبل أن تخطو للداخل، فرأته هناك عند جذع النخلة كأنه ينتظر دخولها، عاودها الارتجاف وهي تدخل سريعاً وتهذر بالكلمات الخافتة: «إنه حلم، فقط حلم، غداً تبزغ الشمس ليوم شتوي جديد حيث لا تاء ولا هاء ولا حاء».

أغلقت الباب خلفها وضرغام ينظر من بعيد، يكلم نفسه وهو يسير عائداً إلى داره: «ما هذا الجوع للحلال يا رجل؟ بل أنت نتضور جوعاً».

بين الظلام يعرف طريقه، قدماه تأخذانه إلى داره دون تفكير، رفع عينيه للسماء وهمس: «يا مولاي، إن هي إلا مشيئتك لتنير الفوانيس بهذه، فأبصر منه قبر تلك قد كانت الإشارة، فسبحان مُحيي الأفئدة التي في الصدور».

***

صباح اليوم التالي.. دار صفوان الضاري

«أجل هكذا تغزلين بشكل صحيح، داومي على هذا يا حنّة».

تحدق دليلة في المغزل الدائر بين كفيّ حنّة، تشعر بالغرابة والنأي بنفسها عن ذاك المغزل، كأنه بات غريباً عنها وهو من رافقها العمر كلّه، لكنها في ذات الوقت تأبى مفارقته، تأبى قطع صلته، ما زال شعرها الطويل رطباً من الحمام الساخن الذي أخذته قبل قليل، تشعر بالبرد رغم الجلباب البني الدافئ الذي تلبسه، فتتدثر بشال صوفي رمادي حول كتفيها وهي جالسة متربعة على السجادة، **انتاب جسدها رعشة قوية فيجوع ذاك الجسد إلى دفء مفقود، أو ربما تتكره وهو من حولها موجود،** منذ يومين وهي في ثورات غضب لا تنطفئ، وكلما رأت أمامها صفوان أمامها أو في طريقها، تنفجر فيه صارخة بكلمات هي نفسها لا تفقه منها شيئاً، وهو كان يحتمل، ينظر إليها ويستمع لصراخها المتواصل في وجهه حتى ينهك حنجرتها الصراخ فتعجز عن النطق بحرف وعندها يغادر، لكنه لا ينسى أبداً أن يوصيها قبل مغادرته كي تتناول الطعام ولا تغادر الدار، حتى ليلة الأمس، عاد بوجه مكفهر ولم ينظر نحوها وهي تنزل الدرجات، اكتفى أن ألقى السلام خافتاً مرهقاً غاضباً لكنها بحدسها أدركت أن أمراً حصل بالخارج وأزعجه، ثم جاء التفسير من الصبية حنّة وهي

تخبرها بما سمعته اليوم في السوق، أحد الصبيان تجرأ على رمي صفوان بكرة طين ونعته بـ(الوحش الفاجر) ثم ركض هارباً وما زاد الأمر سوءا ما تكلم عنه الناس عندما رفض أحد الفلاحين مساعدته الشهرية وقد لمّح أن لديه بنات ولا يريد سوء السمعة أن يمسهم ولو من بعيد، كلمات حنّة وثرثرتها المتواصلة عما يحصل مع صفوان لم يجعل دليلة تحسن لم ترو إحساس الانتقام المعهود، بل شعرت بالانفصال عن كل شيء، عن صفوان.. عن الانتقام.. عن الكره.. عن مغزلها.

ثم جاء النوم، ولا تعلم أي شيطان أثار في مخيلتها ذكرى ليلة محددة من لياليها القاتمة مع مروان تلك المرة التي اغتصبها فيها وهو يشدّ ذراعيها إلى عمودين في السرير، كانت قد خربشته بأظافر أطالتها خصيصاً كي تستخدمها في الدفاع عن نفسها، ثم، جلدها بعقاله وصراخها يرجّ جدران الغرفة، بعدها همدت مقاومة الجسد والألم لا يحتمل لتختبر ألما من نوع آخر ومروان يمزق ثوبها ثم يعاشرها وهي أقرب لجثة، كلماته عند أذنها يقشعر لها البدن والروح: «قاومي لعشرات من السنوات القادمة يا دليلة، لا أحد سينجدك، ولا شيء سيوقفني لأنالك هكذا، رغماً عن إرادتك، فأريني كم سنة أخرى ستقاومين؟».

أكان حلماً وصوت مروان يدوي في أذنيها كأنها عادت إلى تلك اللحظة؟ لا.. لم يكن حلماً، بل كان الحلم يلعب دور (الراوي) فيروي لذهنها الغائب في سبات النوم كل

التفاصيل الدقيقة، يذيقها ما لا تستطيع حتى أن تصفه لنفسها، وهل يوصف ألم من يشتهي الموت والموت لا يشتهيه؟

«دلال» رفعت وجهها مجفلة لصوت صفوان من عند الباب ليخرجها من الذكرى، من الحلم، كما أخرجها عنوة فجر اليوم، كان هو من أيقظها من ذاك الكابوس، ليقتل (الراوي) قبل أن يتم الحكاية، ويبدو أنها كانت من أيقظ صفوان من نومه بصراخها، أو ربما كان مستيقظاً لصلاة الفجر، كل ما تعرفه أنها استيقظت تختض لهول ما رأته في منامها وقاسته في واقعها، أخذت تهذر وكلمات (الراوي) تتدفق على لسانها لقد أخبرت صفوان دون وعيها حتى بكل تفاصيل الحلم، ثم همدت وهي تلقي نفسها على صدره وللمرة الأولى منذ سنوات طويلة، طويلة جداً، تجد مأوى لتبكي المظالم التي لم ينظر في صفحاتها أحد، عند الباب يقف صفوان ينظر إلى دلال فيشعر ببعض الارتياح وقد خفّ شحوبها عن الفجر، عندما هرع إلى غرفتها مستجيباً لصراخها لم يكن يتصور على الإطلاق أنه سيستمع لأفظع ما استمع إليه في حياته.

كانت تهذر وهي شبه فاقدة للوعي والإدراك، محمومة بالألم المبرح، ثم انهارت على صدره تبكي كما لم يسمعها يوماً تبكي، لم تكن هذه (دلال الحسن)، هذه القتيلة التي لجأت إلى صدره صباح اليوم لم تكن هي ذاتها من شاركته سنيّ طفولته وصباه؛ لكنه لم ييأس، كلما ارتفع

صوت نحيبها كان يشدها أكثر لصدره، حتى كادت تلتحم به، ويا ليته فعل فربما حمل عنها ما تحمله، وظلا هكذا ملتحمين حتى نامت على صدره وأصابعها تتعلق بمقدمة جلبابه البيتي، فمال بجسدها على السرير ليناما معاً لا يفصم التحامهما حتى سلطان النوم، كلاهما كان جائعاً لهذا، وما زالا جائعين، أطرق مهموماً، وهو يتذكر انسحابه من فرشتها قبل أن تستيقظ، يهمس في سره: «أثقلتكَ الهموم يا ابن سدرة».

«أخارج أنت؟».

رفع عينيه مجدداً لينظر إليها، بدت هادئة لكنها باردة، بل وكأنها بلا حياة، رد: «سأذهب لأمتطي الأشهب في الصحراء ثم أعود، وبعدها لدي بعض الأعمال لأنجزها».

تهز رأسها، وكم بدت خاوية، مطفأة، لم يحتمل أكثر وهو يلم طرفي عباءته ليستدير مغادراً وهو يوصي حنّة بمراعاة دلال في غيابه.

***

المستشفى

تستند بظهرها للحائط وعيناها شاردتان بعيداً عن محيطها، العبوس يملأ محياها ليشيَ بجدية ما هي مستغرقة بالتفكير فيه، يقترب منها غانم وهو يتساءل مُحتاراً: «ماذا هناك يا أم الليث؟ أكانت زيارتك للعاصمة سيئة؟».

تطلعت سُلافة جانباً إليه وكأنها تتفحصه ثم سألته فجأة ودون مقدمات: «غانم أخبرني، من هي مزنة ابنة طحنون؟».

بدت الدهشة على وجهه وهو يرد: «تقصدين المذبوحة التي وجدوا قبرها؟».

بتركيز وتلهف قالت: «أجل هي، ماذا تعرف عنها؟».

يهز كتفيه وهو يوضح: «لا أذكرها جيداً، كانت فلاحة فقيرة، لكني أذكر ما حصل وقتها، أبوها ذبحها بعد أن اغتصبها تاجر متنقل بين القرى».

شعرت بالإحباط وهي تقول: «أعرف هذه الحكاية، لكن..».

لم تكمل جملتها لتعاود الاستناد إلى الحائط بظهرها، تغرق عيناها بالمجهول زادت حيرة غانم ليسأل: «ما بك يا أم الليث؟».

تضيق سُلافة عينيها كأنها تحاول حل لغز لتسأل دون أن تنظر إلى غانم: «ألم يكن لها خطيب؟ أو.. ربما زوج؟».

يهز كتفيه مجددًا وهو يقول ببعض الملل: «لا أظنها كانت متزوجة، ولا أعرف إن كان أحد هم خاطباً لها، لقد مضى زمن طويل يا أم الليث، ولا أحد يهتم بتلك الفلاحة».

تبتلع ريقها والتمعت عيناها وهي تسأل: «ومن وجد..

مكان دفنها؟ أصحيح نقلوا رفاتها إلى مقابر القرية؟».

عندها بدا غانم متحمساً بعض الشيء ليقول لها: «أجل صحيح، الكل كان منشغلاً بما يحصل مع عشيرة الضاري وحكاية الغجرية دنانير، فلم نهتم بحكاية مزنة ابنة طحنون، هل أخبرك عما فعلته الغجرية في السوق؟».

تأففت سُلافة وهي تقول بغيظ: «لا تهمني الغجرية، فقط أجبني عمّا سألتك عنه».

رد وهو ينظر إليها بفضول: «لا أعلم لماذا يهمك الأمر لكني سأخبرك ما سمعته، يقال إن ضرغام الأسدي من وجد رفاتها صدفة وهو يجول الصحراء، لكن لا أعرف كيف ميّزه، البعض حكى عن خرقة خضراء أو ما شابه، كانت كإشارة لها».

تجمدت سُلافة للحظات وهي تتذكر كلام العجوز المخيفة ثم تمتمت: «خرقة خضراء حول معصمها».

وجد غانم بعض التسلية والحماسة بتبادل الحكاية مع سُلافة فقال: «أسمعتِ بهذه الحكاية أيضاً يا أم الليث؟ أتصدقينها؟».

لعجبه لم ترد سُلافة عليه، بل ظلت صامتة وبدت كأنها مصدومة، شعر بمزيد من الفضول لاهتمامها فيسأل: «هل ستسألين ضرغام الأسدي عن الحكاية؟ أنت تعرفينه وتعرفين شيوخ الأسدي عن قرب أليس كذلك؟ يقال إنه من دفع المال لنصب موائد الثواب على روحها، لكن

بعض الناس تنفي، يقولون إن الحاج عبد القدوس هو من دفع من أموال الصدقات، وما ضرغام إلا من تكفل بالتنفيذ».

قدحت الزرقة في عينيها لتعتدل منتصبة بوقفتها وتقول بغيظ: «نعم سأسأله، فيبدو أن هناك تاء أخرى تحتاج لفكِّ أحجيتها».

تحركت تاركة غانم خلفها لا يفقه شيئاً بينما هي تكز بأسنانها وتتمتم: «سنرى حروفك يا ضرغام الأسدي».

***

في أحد دروب القرية.. عند الظهيرة

رجال الشيخ حمدان الضاري يرمون أغراض دار فقيرة إلى خارجها بعد أن طردوا ساكنيها بالقوة ودون أدنى رأفة أو رحمة، يتصارخ الأطفال هلعاً، وتتباكى النسوة العُزّل من رجال يحمونهن ويتصدون للظلم ذوْداً عنهن فلا مدافع ولا حامي إلا عجوز ضريرة يتجمع بعض أحفادها الصغار حولها فيجدون بالتشبث بطارف جلبابها الأسود بعض الأمان والحماية وهم لا يفقهون هول ما يحدث وأنهم باتوا دون سقف يسترهم، ترفع العجوز رأسها للسماء وتدعو بدموع العجز والقهر: «اللّهم نشكو إليك ضعف حالنا وقلة حيلتنا وهواننا على من لا يرحم».

صرخ بها أحد الرجال الثلاثة: «أتدعين بالشر على الشيخ حمدان الضاري خذي هذا يا جاحدة».

وما كانت إلا رفسة قدم منه ليوقع العجوز أرضاً ويكسر شوكتها فيصرخ بلوعة كل من تعلقت أكفهم بجلباب حمايتها، شهق الناس الذين تجمعوا من المارة وهم يراقبون ما يحصل لعائلة العجوز، فتقدم من بينهم فلاح فقير أخذته الحميّة فيحاول التدخل: «على رسلك يا رجل، إنها عجوز ضريرة ألا تملك بعض النخوة؟»».

فصرخ رجل الشيخ وهمّ أن يهاجم الفلاح عندما علا صوت محذر جهوري غاضب: «قف عندك يا نذل»».

فالتفت الجمع ليروا صفوان الضاري بضخامته المهولة يعدو فوق صهوة حصانه الأشهب الذي ناسب ضخامته، بدا كقضاء من الله أتى ليمحق ظلمهم وظلم من أرسلهم، تجمد رجال الشيخ الثلاثة وأوقفوا ما يفعلونه برمي أغراض الدار خارجاً، انحنت رؤوسهم في احترام لمقام صفوان الذي وصل إليهم وترجل عن حصانه وهو يدفع عباءته لتسقط أرضاً وخطا بخطوات واسعة تنهب الأرض نهباً وغضبه يسبقه كإعصار هادر، وحالما وصل إليهم ودون سابق إنذار كان يرفس رجل الشيخ رفسة أوقعته أرضاً، ليتمرغ بالتراب كما فعل بالعجوز الضريرة، علت زغاريد من حيث لا يدري، زغاريد فرح لانتصار اختلطت ببكاء العاجز المقهور، وغصة مظلوم، حقه مهدور، بصق صفوان على الرجل وهو يهينه بالقول: «لو كنت رجلاً فواجهني كالرجال، أم أنك نسيت معنى الرجولة لتواجه بالاعتداء والضرب بضعة نسوة وأطفال»».

الرجل يقف على قدميه، يعدل عقاله وكوفيته ثم ينفض التراب على جلبابه بخزي وهو يتمتم: «عفوك يا سيدي، كانت أوامر الشيخ حمدان ونحن ننفذها».

الناس تراقب ما يحصل بانشداه وترقب، كانت مواجهة شبه مباشرة بين صفوان الضاري ومقام الشيخ حمدان الضاري، اشتد البؤس وعبست الوجوه وهم يأملون المزيد من رد الظلم الذي يطول كل يوم أبناء عشيرة الضاري من شيخها.

تقدم صفوان نحو العجوز الضريرة وقد ساعدتها النسوة معه لتقف، فيميل ليلثم قمة رأسها ويقول بأسف يليق بتواضع الشيوخ: «حقك فوق رأسي يا أماه، ولن تخرجي من دارك وأنا حي».

تمدّ العجوز الضريرة يدها تبحث عن كفه حتى وجدته، وفي غفلة منه تميل إليه لتقبل ظاهر يده وهي تدعو له بدموع جارية: «نصرك المولى وأدامك لنا».

سحب صفوان يده سريعاً وهو يميل ليفعل المثل بكفها أمام أعين الناس التي اتسعت في ذهول، فلم يروا شيخاً أو ابن شيوخ يفعلها، تحرك صفوان نحو الرجال الثلاثة المرتبكين العابسين في غير رضا ليأمرهم بالقول: «أعيدوا كل الأغراض كما كانت».

لم يتكلم الرجل الذي رفسه صفوان بقدمه، بل تكلم الآخر قائلاً: «يا سيدي مقامك عالٍ عندنا، لكنها أوامر

الشيخ حمدان هم لم يدفعوا ما عليهم، وقد أمرنا إخلاء الدار، وما نحن إلا منفذين لمشيئته».

لم يشعر صفوان بتقدم أصغر الأطفال منه وقد ترك التعلق بجلباب جدته لينشد التعلق بجلباب هذا الرجل الضخم المخيف، فيرى فيه ما لا يراه ضعاف البصيرة، رد صفوان بهيبة فطرية: «خذ صاحبيك وارحلوا، ولا يقربنّ أحد منكم هذه الدار، وما يدينون به للشيخ حمدان عندي أنا».

نظر الرجال لبعضهم ولم يعرفوا كيف التصرف، فيضيف صفوان بنفس النبرة: «قولوا للشيخ حمدان إن صفوان كفيلهم».

انسحب الرجال الثلاثة مخذولين فأخذت النسوة تزغرد بمزيد من البكاء وشعور النصر ورد الحقوق، بينما يلتف مزيداً من الأطفال حوله يتعلقون بجلبابه، تنبه صفوان للأطفال فشعر بالخجل وبدا مرتبكاً للحظة لا يعرف كيف يتصرف معهم، دون أن يخطط ودون أن يدرك حتى، كان يستعيد مكانة حتى أكبر من مكانته قبل أن تتلوث سمعته بالأقاويل، من بين الجمع المُراقب كانت غنيمة، تنظر إليه ويعتريها الأمل أن يكون صفوان الضاري منقذها، انتظرت انشغال الناس بمساعدة عائلة العجوز الضريرة وعودة صفوان نحو حصانه لتلحق به على عجل، التقطت له عباءته من الأرض قبل أن ينحني هو لالتقاطها، قدمتها له وهي تقول بارتجاف: «سيدي صفوان لي حاجة عندك».

أخذ صفوان العباءة منها ينفضها ثم يضعها على كتفيه وهو يرد بالقول: «مُجابة بإذن الله، قولي ما عندك».

رده جعل الدموع تتجمع في عينيها وهي تقول بحشرجة: «بالله عليك يا سيدي استر عرضي وعرض أبي، لا أحد غيرك يستطيع فعلها».

يعبس صفوان وهو يسأل بحمية: «ومن يريد المساس بهما؟».

تهطل بضع دموع وهي تقول بارتجاف: «أنا غنيمة ابنة الفلاح عبد الواحد، نعيش ونعمل في بستان سيدي ذياب».

صمت صفوان لكن عبوسه يزداد والصبية تتكلم بحرقة يمنعها الحياء من صريح الإفصاح: «أتوسل إليك سيدي أنقذ شرفي ممن لا يخاف الله، أستحلفك بكل غال عندك أن تحميني ممن لا أستطيع..».

فجأة خرست غنيمة وشحب وجهها للغاية وعيناها تتسعان برعب وهما تحدقان بمن ظهر خلف صفوان الضاري على مسافة أمتار قليلة، عيناها اصطدمتا بعيني خلفان الغاضبتين وهو جالس بعنجهية في سيارته، عيناه توصلان الوعيد والتهديد وكأنه أدرك ما تقوله لصفوان، ترتجف غنيمة وصفوان يتساءل وهو يلتفت إلى الخلف: «ماذا بك يا غنيمة؟».

عينا صفوان تلاقتا بعيني خلفان، لكنّ المواجهة لم تدم إلا لحظات قبل أن يتحرك ذياب بسيارته تاركاً المكان، يعاود صفوان النظر ناحية الصبية وهو يسأل: ماذا..». لكنه لم يتم جملته وقد اختفت غنيمة من أمامه فيبحث بعينيه ليراها تهرول هاربة في أحد الاتجاهات، يعقد حاجبيه بتفكر ثم يتقدم من حصانه ليمتطيه وهو يتمتم: «زيارة بستان ذياب باتت واجبة، لكن سأنتظر للغد».

يتحرك صفوان ليعدو بحصانه وعينان تراقبانه بإعجاب، قحطان الجبلي كان على مقربة يراقب بصمت كل ما يحدث، لم يتدخل بما يفعله رجال الشيخ حمدان الضاري، فتدخله كان سيزيد الأمر سوءا بين عشيرتيّ الجبلي والضاري، ففضل الانتظار متخفياً عن الانظار بين الاشجار ليرى ما ستؤول إليه الأمور، خرج من موضع تخفيه فيبتسم بحنين من سيفارق لمدة قد تطول، فيملي عينيه من رؤية أهل القرية يساعدون بعضهم بعضاً، وجوههم متهللة وقد انتصروا اليوم في لعبة (الظالم والمظلوم)، رفع معصمه لينظر إلى ساعته الأنيقة وقال يكلم نفسه: «أظن سأنطلق إلى العاصمة خلال ساعة».

ثم أخذ يسير على قدميه يناظر بعض البساتين ويفكر بكلام تلك الصبية غنيمة، وما مدى علاقة (خلفان الضاري) بالأمر وقد أثار رعبها هكذا لكن قحطان مطمئن، ما دام صفوان الضاري علم بالأمر فسيحسن التصرف.

رنّ هاتف قحطان فيخرجه من جيب جلبابه ويفتح الخط، يرد بلهجة أهل العاصمة: «أنا قادم اليوم، انتهت عطلتي في القرية، سأشرف بنفسي على تنظيم البزار الذي سيُقام في الفندق».

ثم انشغل بعدها في حوار عملي مُركّز مع مساعده، تخللته بعض العبارات باللغة الإنجليزية، فيبدو لمن يراه ويسمعه حالة من التناقض.

***

دار حمدان الضاري

في باحة الدار الخارجية يقف الرجال الثلاثة منكسي الرؤوس، متوتري الهيئة، وقد حكى أحد هم للتو ما جرى أمام الشيخ حمدان الضاري، لم يحتمل الشيخ حمدان قهره بعد سماعه لما رواه رجاله له اللحظة، فأخرج سلاحه وبعثر رجاله الثلاثة وهو يطلق الرصاصات الحيّة عند أقدامهم صارخاً: «اغربوا عن وجهي».

أخذ دمه يغلي ثأراً لكرامته التي اهدرت، ثم ارتفع صوته وهو يسبّ ويشتم، نظرات عينيه تفيضان بالحقد بينما أخذ يتمتم: «لقد تجاوزت كل حدودك يا ابن عمي، وما حصل سأجد طريقة وأرد عليه، وبقوة».

***

دار الشيخ الأسدي

غادرت السيارة الرباعية عبر البوابة يقودها الشيخ عبد الهادي بنفسه وإلى جواره ضرغام، فيرمقه الشيخ عبد الهادي بنظرة جانبية متفحصة ليسأله: «ألم تكتفي من الحداد يا ضرغام؟».

رد ضرغام بهدوء: «اليوم هو الثالث ونكتفي».

تساءل الشيخ ببعض الحيرة: «أما زلت تعشقها؟».

وكأن ضرغام يسمع صوت مزنة تضحك فيملأ قلبه الحنين لتلك الصبية، تمتلئ نظراته بالشجن وهو يرد بصدق: «أنا أكرمها يا شيخ».

فيزيد الشيخ بالسؤال: «والممرضة؟».

يكاد ضرغام يسمع زئير الجوع في روحه ليرد بصوت أجش: «أنتظر ردها».

تفاجأ الشيخ ليلتفت لحظة إلى صاحبه ويسأل: «ردها على أي شيء؟».

يرخي ضرغام أجفانه وهو يقول: «طلبتها للحلال ليلة الأمس يا شيخ».

طال صمت الشيخ فرفع ضرغام نظراته إليه ليرى جانب وجهه، بدا الشيخ عبد الهادي مُحتاراً للغاية فيسأله ضرغام: «أطال عمرك يا شيخ، ما سبب حيرتك؟».

فقالها الشيخ صريحة: «أيهما تعشق يا ضرغام، أنا احترت فيك».

رد ضرغام وهو يدرك تماماً ما يشعر به ليقولها للشيخ: «كذب من قال إن المقتولَ ميتٌ أبد الدهر يا شيخ، فمالك الأفئدة إن شاء يحييه بكلمة (كُن) فيكون».

فجأة تبسّم الشيخ وهو يتطلع إلى جانب الطريق على بعد بضع أمتار أمامه فيخفف سرعته قائلاً: «يبدو أن الرد يقف لنا على قارعة الطريق».

***

عندما وقفت سيارة الشيخ جوارها كانت تخصر بذراع واحدة عاقدة الحاجبين وعيناها الزرقاوان تقدحان شرراً، ترجل ضرغام من السيارة ما بين حيرة ودهشة وقد كان جهة مقعده الأقرب لها، وقبل أن يسأل تجاهلته سُلافة وهي تكلم الشيخ: «عذراً منك يا شيخ لكن هذا الرجل تقدم لخطبتي ما إن خطت قدماي أرض القرية ليلة الأمس».

ارتفع حاجبا ضرغام قليلاً لكنه لم يقل شيئاً، بل أسبل أجفانه بينما الشيخ عبد الهادي يرد بسلاسة: «أجل أخبرني».

التزم ضرغام الصمت ولا يظهر أي تعبير على وجهه بينما تقول سُلافة وقد بدت منفعلة متحفزة: «جيد أنه أخبرك، فحتى الصباح كنت أظنها مجرد هلوسات مني بعد تعب طريق سفر مزعج من العاصمة إلى القرية».

نظرة يلقيها الشيخ ناحية صاحبه الصامت ثم يتبسم ليقول: «ضرغام متعجل على ما يبدو فلم ينتظر للصباح، فهل نال الرضا؟».

عندها فقط رفع ضرغام أجفانه ولم يوجه نظراته إلا لسلافة، فتبادله النظر بقوة وتهتف بانفعال: «أنا أسألك وأمام الشيخ عبد الهادي الأسدي، فيبدو أن كل الأمور هنا تجري بهذه الطريقة من مزنة ابنة طحنون».

لم يرد مباشرة، بل التفت للشيخ معتذراً عن إقحامه بالأمر: «عفواً منك يا شيخ».

لكن الشيخ بدا مُصراً على البقاء أكثر من سُلافة نفسها فيقول بابتسامة مكتومة: «ردَّ عليها، أنا لا أمانع السماع».

أشارت سُلافة بكفها ناحية الشيخ وهي تقول لضرغام بضراوة: «الشيخ قال (ردّ عليها)، فإن تكرمت ردّ (عليها) في الحال».

كان شديد الهدوء والسكينة وهو يرد بأسلوبه: «أنت تعرفين حكايتها، سبق وأخبرتك».

عضّت شفتها السفلى غيظاً فتنحدر نظراته لحركتها تلك فتضيف سؤالاً آخر أكثر تحديداً: «ما علاقتك أنت بها؟».

عيناه.. آه من عينيه.. ألا ينظر هذا الرجل لنفسه في المرآة؟ ألم تخبره امرأة من قبل أن عينيه خطر، عاود النظر لعينيها وبنفس السكينة المستفزة لها يرد بشكل موجز:

«كنت سأتزوجها، سافرت ليومين وعندما عدت كان والدها قد دفنها للتو».

كانت تشتاط غضباً اللحظة أنفاسها تتسارع وصدرها يعلو ويهبط كأنها تسابق الخيول الجامحة في البراري، أضاف أخيراً: «أهناك أسئلة أخرى؟».

يراقب الشيخ ما يحدث بين الاثنين وهو يلتزم الصمت بينما تفاجئه سُلافة عندما طرحت على ضرغام سؤالاً صريحاً يختصر كل معضلتها: «أتدفنها من هنا وتأتيني خاطباً من هنا؟».

أسبل ضرغام أجفانه لبضع لحظات ثم التفت للشيخ قائلاً: «أتسمح لي يا شيخ؟ سألحق بك، لن أتأخر».

لكن الشيخ رفع حاجبيه وهزّ رأسه قائلاً: «لست على عجلة من أمري».

هتفت سُلافة عندها وهي تغلي: «أجل، ليس على عجلة، فليشهد معي ما أمر به اللحظة قبل أن أفقد عقلي».

عاود ضرغام النظر إليها وأمال رأسه قليلاً ويسأل ببراءة كادت تقضي على أعصابها، أو ما تبقى منها: «ما الذي يزعجك؟».

عندها تدخل الشيخ عبد الهادي قائلاً: «لا أظنها منزعجة يا ضرغام، إنها تنتظر توضيحاً يرضيها».

رفعت سُلافة وجهها عالياً تطالع السماء وتقول: «أخيراً

يا رب وجدت من يفهمني».

تنهد ضرغام تنهيدة خافتة قبل أن يقول بصبر: «ما الذي يرضيك؟ أن أنفي بحثي عمن ليس لها غيري ليكرمها؟ كانت أمانة أديتها وعهداً صنته».

تنظر إليه اللحظة ولا تعرف ماذا تفعل معه لتقول: «ألا يمكنك لمرة واحدة أن ترد على كلامي دون أن تجعلني أدور حول نفسي؟».

كان حازماً برقة، واضحاً وهو عين الغموض قائلاً: «عودي لعملك يا أم الليث، وعندما تقرّرين الرد اسأليني وقتها المزيد، ودون أن نزعج الشيخ عبد الهادي».

زمّت شفتيها وهي تشعر بالانهزام لكنها لم تستسلم تماماً وهي تقول له بإصرار: «أنت هو المنزعج لا الشيخ.. منزعج لأني أتيت بنفسي وأكلمك صراحة أمامه، أنا امرأة واضحة ولا أحب الغموض، وكلامنا لم ينتهِ بعد يا ضرغام».

توهجت عيناه بتذكير خاص بينما يرد بخفوت على نطقها اسمه بما وعدها به ليلة الأمس: «الحلال».

ابتلعت ريقها وقصف قلبها العشوائي يبدأ لكنها عبست بعناد وهي تلتفت للشيخ قائلة: «اشهد هذا يا شيخ، كلامي معه لم ينتهِ».

استدارت توليهما ظهرها لتعود من حيث أتت، فيناديها الشيخ يدعوها للركوب: «تعالي يا أم الليث، الطريق طويل

للمستشفى، نوصلك إلى حيث تشائين».

فتعدل من وشاحها وتلك (الضفيرة اللعينة) تتأرجح أمام عينيّ ضرغام الغيورتين بينما ترد سُلافة بعناد: «المشي يساعد على حرق الغضب يا شيخ».

يضحك الشيخ مقهقهاً وضرغام واقف مكانه جوار السيارة يراقب مسيرها الغاضب أمام ناظريه ليتمتم وهو يعاود الصعود إلى مقعده جوار الشيخ: «امرأة صعبة».

***

صباح اليوم التالي.. دار مروان الضاري

تتمدد دنانير على السرير الواسع وهي تشعر بالامتلاء لا تبالي بمروان اللحظة وهو يضطجع، منكمشاً على نفسه، يغفو مفترشاً الأرضية المفروشة بالسجاد، تمسد فوق بطنها وهي تكلم طفلها: «هل تعلم يا الحُر، لا أروع من معاشرتي لرجل كمروان الضاري، يمنحني كل ما أشتهيه من جسده كعبد مطيع، كم من السهل إثارته لأحصل عليه هكذا فأنتشي بقدرتي عليه».

تلمع عيناها بظلمة شيطانية وهي تضيف بصوت مبحوح: «جسد ابن الشيوخ ملك لي، كما بات عقله ملك لي أيضاً، الآن فقط أشعر بقدرة الرجال وإحساسهم بالتفوق وهم يفرضون أجسادهم على أجساد الإناث، فلا يعتقون حتى الأطفال».

تتعمق تلك الظلمة أكثر وأكثر، كأنها هاوية جائعة لا نهاية تُشبعها، همست بغرور ساخر وإحساس بالتفوق: «على الأقل أنا لا أستخدم القوة وأمنحه السعادة ولو بأوهامه، وسيظل هكذا حتى أملّ منه فأرميه كخرقة بالية متى ما أشاء».

لا تعلم لماذا تذكرت اللحظة تجربتها الأولى مع الرجال وإحساس الألم الجسدي وهي بعمر الثامنة، ثم نظرة أمها الراضية اللامعة وهي تقبض ثمن ذاك (الألم).

تمسد فوق بطنها وهي تهمس لطفلها: «الرجال أيضاً يتألمون يا الحُر، فسيطرة الجسد لا تعني سيطرة الروح، عليك أن ترى مروان وهو يتلوى من الألم بحثاً عن رضا الغازلة، يخدّر ذاك الألم بالوهم حتى وهو فاقد للعقل يتألم بها، يعاشرني بخشونة يظنني هي، فأشعر بكل جسده يعاقب روح الغازلة على رفضها له، في عمق الجنون.. مروان هو ذات الرجل، رجل لا يختلف عني بشيء يأخذ ما يريد ويشتهي مهما كان الثمن، لكنه غبي ولا يجيد اللعبة كما أجيدها».

التفتت بوجهها جانباً ويدها ما زالت تمسد فوق بطنها، تنظر للأرضية الخالية، تتراءى لها هيئة الغازلة مع مغزلها الدائر، فتثير فضولها وتتساءل أي نوع من النساء هي لتجعل مروان الضاري مهووساً بامتلاك روحها هكذا؟ هو الهوس، وليس العشق، تثرثر دنانير مع جنينها بالمزيد: «صدقني يا الحُر، أمك خبيرة في هذا، أستطيع تمييزه في

البشر، أراه في لغة أجسادهم وأسمعه في نبرة أصواتهم وأشمّه في عرق جلودهم، فلكل عاطفة رائحة عرق خاصة».

ثم تبسمت وهي تلتفت برأسها إلى الناحية الأخرى حيث باب الغرفة لتضيف ساخرة: «هوس مروان بدليلة الضاري كهوس حبّاس بي، كلاهما مريض ويحتاج للعلاج بذكاء».

أطالت النظر إلى تلك الباب، فتتخيل أنها ليست مغلقة تماماً، بل مواربة، وحبّاس يقف هناك، ينظر إليها كلما كانت تعاشر مروان على مدى الأيام الماضية، فتفتك الغيرة به فتكاً، تضيّق عينيها وهي تحسب الأيام لتقول بتفكر: «مضت أيام وأنا لا أشعر بمرورها، فالغجري ابن الشيوخ كان متعة لا تضاهى أنستني ما حولي، لكن أظن حان الوقت لأعتني قليلاً بحبّاس، فهدوءه وطول استكانته لا تعجبني».

تنزل عن السرير لتلبس خفيها بدلال كسول، تتحرك وهي تنفض شعرها الطويل بأصابعها، وأخيراً تمد يدها لتلقط عباءة صوفية فاخرة تضعها فوق ثوبها الخفيف، ينتفض جسد مروان بارتعاشات متتالية وهو نائم بينما دنانير ترفع ساقها لتعبر فوقه دون أن تبالي بحالته اللحظة.

***

غرفة حبّاس

يتطلع حبّاس للخنجر ذي القبضة المحروقة، لقد أخذه من يد مروان عندما وجده في دار دنانير المهدّم، ولم يكن صعباً إقناعه، فحالما همس له بالجملة السحرية (سآخذك للوعاء) كان مروان طوع أمره، لا يعلم حبّاس ما الذي دفعه بالضبط للاحتفاظ بهذا الخنجر، ولا يعلم حتى اللحظة كيف سينفذ ما يريده ليحصل على بغيته، حركة أو صوت ربما من خارج شباك غرفته المفتوح قليلاً، جذب انتباهه، فتحرك كي يستطلع، فيقف عند الشباك ويمعن النظر فيما حوله من باحة الدار وجزء من حديقته الواسعة، فلا يجد إلا بضع أرانب تنطنط ودجاجات تحوم في المكان بحثاً عن قوتها.

«لماذا تقف في الشباك يا حباس؟» أوقع الخنجر خارج حافة الشباك دون أن تفطن إليه دنانير ثم التفت إليها ليرد بخنوعه المتصنع: «ظننت الخادمة تدق بوابة الدار سيدتي، لكنها لم تكن إلا الأرانب».

تنظر إلى وجهه مباشرة فيبتلع حبّاس ريقه وهي تقول له بابتسامة: «هذا ليس يومها، فقد أتت بالأمس، لكن، أتعجبك الخادمة العوراء فتتحين وصولها هكذا؟»،

يهز رأسه وعيناه لا تفارقان النظر إلى دنانير: «لا سيدتي».

اقتربت منه ضاحكة فأخذ قلبه يخفق بقوة، تشوش ذهنه من تقربها إليه اليوم وتسارعت أنفاسه وجوع الهوس يلغي

أدهى العقول وأمكرها، قالت بخفوت وهي تقف قريبة منه: «أعترف أني أغيظك فقط، فتلك العجوز القبيحة مؤكد ليست امرأة ترضيك».

وسط الغرفة الصغيرة يقفان قريبين هكذا، عيناه تسألان بذاك الجوع الذي يمزق أحشاءه وعيناها تراوغان بمكر الأنثى فتزيد جوعه وتحكم تغييب عقله، همست بإغواء بطيء صبور على إيقاع الفريسة: «أنت تغار يا حبّاس أليس كذلك؟».

كان يلهث اللحظة وهو يسأل بصوت خشن: «مِمّن يا سيدتي؟».

تقترب على نحو حميمي للغاية وهي تهمس له: «من والد طفلي، مروان الضاري».

قالتها وهي تضع يدها عن عمد فوق بطنها فتثيره أكثر ليهدر بغضب « أنه ليس..»

أوقفته وهي ترفع سبابتها أمام وجهه بتحذير ساخر: «حاذر يا حبّاس، فربما للجدران بعض الآذان».

أخذ يهز رأسه بعنف وقد بلغ أقصاه وهو يقول بنبرة أقرب للتوسل: «إنها جدران سيدتي من الطوب المتين لا تسمع ولا ترى، والسور من حول الدار عالٍ ومن طوب أمتن، فلا يجرؤ أحد على تجاوزها».

لم يقلها بكلمات صريحة، بل توسل بنبرة صوته طلباً

ضارياً ينهش فيه، عاد بلهاثه وهو يميل برأسه يشم عطرها مضيفاً بارتجاف: «إننا هنا بمفردنا، ليس هناك إلا أنا وأنت و.. مروان الذي يكاد لا يغادر غرفتك، ينعم بقربك ويرافقك في سريرك».

إذن صدق حدسها، وحبّاس تدفعه الغيرة ليخالف أوامرها ويصعد للطابق العلوي يتجسس عليها وهي بصحبة مروان، لم تلمسه، ولم يتجرأ هو بعد كي يكسر الطوق ويلمسها، بينما تتلاعب بصبره أكثر وهي تسأل بتشدق: «أهذا رأيك؟».

رد بارتجاف وتوسل النبرة يصل أقصاه: «نعم».

ردت بشعور التفوق على الجميع بمن فيهم حبّاس نفسه: «وأنا أؤيد ما تقول، ويعجبني شعوري بانتصارنا عليهم جميعاً».

تأوه وهو يمد كفيه المرتعشين ليلمسها فتبتعد دنانير خطوة للخلف وهي تضيف: «مع هذا، اغلق ضرفتي الشباك وارجع إليّ، الجو بارد».

يهرول بخطى متعثرة لينفذ ما طلبت ثم يعود إليها فيجدها تقف عند سريره المنفرد لتوقع عباءتها عن كتفيها أمام ناظريه فيهتف بضراوة وهو يتقدم إليها: «سيدتي».

تستلقي على سريره وتغمض عينيها وتقول بنبرة أمر السيدة المُطاع: «تعال حبّاس لتنال ما تلهث خلفه ككلب منذ أشهر».

تركته يفعل معها كيفما يشاء وقد بدأت تشعر بجوعها الشيطاني يتسع ويتسع وهاويتها تبتلع وتسأل المزيد، إنه الجوع الذي لا يعرف الشبع، وكلما أطعمته يغريه الغرور ويوقعه بالفخ الجشع.

غارقان في الرذيلة على فراش حبّاس الضيق بينما تتحرك إحدى ضرفتيّ الشباك بحذر شديد، ثم تُحشَر يد رجل تحمل هاتفاً نقّالاً، وعبر عدسة الكاميرا الصغيرة في الجهاز يتم تصوير كل ما يحصل في غرفة حبّاس، بالصوت والصورة.

***

بستان ذياب الضاري

على سريرها في جانب من الدار الطينية الصغيرة تتقلب غنيمة في فرشتها وهي تنادي أمها، لكن لا رد للنداء، فتحت عينيها بتعب، ما زالت تئن بالألم من أثر الحمى التي هدّت جسدها طوال الليل، لم تكن تشعر إلا بيد أمها ساعة تخفض حرارتها بالكمادات الباردة وساعة تدهن جسدها بالزيوت كي تخفف عنها وتقرأ عليها ما تحفظه من الذكر، لا تعلم من أين أتتها تلك الحمى، أتراه الخوف من فعلتها يوم الأمس؟!

رمشت غنيمة بعينيها وهي تنهض بجذعها وتتطلع فيما حولها، شعرت بالوحشة تقبض قلبها من خلو الدار أبعدت الغطاء عنها وهي تنادي بوهن: «أماه.. أماه».

لكن لا مجيب إلا صوت الطيور المغردة الآمنة في البستان، فتحركت من سريرها وخطت على مهل كي تقترب من زير الماء تبغي أن تروي عطشها، كانت للتو ستشرب عندما أجفلت من صوت قرب الباب فأوقعت القدح المعدني أرضاً وهي تهمس بتوجس: «من هنا؟»،

ثم اتسعت أجفانها وجحظت عيناها والباب يُفتح عنوة لترى هيئة رجل يسد ضياء الشمس من خلفه، لم يطاوعها لسانها بينما يقول الرجل بهمس ساخر: «لا تخافي هكذا، إنه أنا يا.. غنمة»،

تستند للزير الفخاري وهي تتمتم بفزع: «سيدي خلفان»،

بوقاحة من لا يعرف الحرمات وخسة من يطمع بالمحرمات، كان يدخل وسط الدار وهو يقول بعنجهية: «أحب كلمة سيدي من فمك الحلو هذا»،

يرتجف صوتها كارتجاف كل شيء فيها وهي تهمس باختناق: «كيف دخلت؟! أبي لا يخرج إلا ويقفل البوابة خلفه»،

رد وهو يقترب منها وعيناه تلمعان بجوع الضباع كي تنهش من لا حارس له: «يبدو أنكِ نسيت أنه بستان أخي ذياب»،

لا تعرف كيف تحركت بعنف لتوقع الزير فيتهشم وتنسكب منه المياه النقية مهدورة على الأرض، فيلحق

بها خلفان وبسهولة شديدة كان يأسرها كطريدة ضعيفة بين ذراعيه ثم يميل إلى أذنها بينما جسدها الواهن يقاومه: «ماذا كنت تقولين لذاك القبيح القميء بالأمس؟».

تناضل وهي تحاول الإفلات فتنحدر دموعها وهي ترد عليه برعب: «لا شيء، أرجوك.. لم أقل له شيئاً».

فرد بصوت حاد ونيّة واضحة: «لا يهم، لم يعد يهمني».

صرخت وهو يميل ليحملها بين ذراعيه ويقول ما يجعلها تيأس من الإنقاذ: «هذه المرة لن تفلتي كسابقاتها، لقد رأيت والديّك يغادران معاً قبل قليل إلى السوق وأعلم أنهما يطيلان البقاء هناك في العادة، لن يقاطعنا أحد على الإطلاق».

وقع عقاله وكوفيته عندما رماها على السرير وهي تقاوم بضعف المرض وتتوسل إليه: «أسألك الرحمة بالله عليك، ستر الله عرضك يا ابن الشيوخ لا تهتك عرضي».

لم يستمع، لم يمهلها حتى وهو يمسك بمقدمة جلبابها بكلتا كفيه، فيمزق القماش الزهيد بثمنه، الغالي بعفته، فصدحت صرخة غنيمة حتى طارت الطيور من أعشاشها.

***

عربة خشبية يجرها حمار، يجلس عبد الواحد في مقدمتها ممسكاً بلجام حماره يحثه على المسير، زوجته إلى جواره وهي تحادثه بهم وغم: «أشعر بالقلق على غنيمة، لم يكن

يجب أن أتركها وحيدة في الدار، لم تمرض يوماً هكذا».

فيرد زوجها وهو يشير بحركة من رأسه للخلف: «وماذا نفعل بهذه الخضار؟ ستفسد إذا لم تبيعيها اليوم يا أم غنيمة، وأنا لدي عمل كثير لأنجزه في السوق، إنه رزقنا، ودونه سنموت جوعاً».

أطرقت أم غنيمة متنهدة ثم صمتت، فزوجها مُحق، هذه معيشتهم، خاصة أن ذياب الضاري رجل بخيل ولا يدفع الأجور إلا بشق الأنفس، صوت اقتراب حوافر حصان جعل أم غنيمة ترفع رأسها فترى القادم، ولم يكن إلا صفوان الضاري، سحب عبد الواحد لجام الحمار كي يوقف العربة حالما أوقف صفوان الضاري حصانه قريباً منهما، فسبق ابن الشيوخ التحية قائلاً: «السلام عليك يا عبد الواحد». فيرد عبد الواحد ببشاشة المحبة والتوقير: «وعليكم السلام ورحمة الله، كيف حالك سيدي».

رد صفوان وهو ما زال على صهوة حصانه الأشهب: «الحمد لله، وكيف حالك أنت أيها الرجل الطيب؟».

فقال عبد الواحد وعيناه تشعان بالمحبة أكثر: «نحمد الله على نعمه، رحم الله أباك وعمك، كانا نعم الرجال».

يومئ صفوان برأسه وهو يضع كفه على صدره بحركة امتنان وشكر ثم قال مستذكراً: «كنت تعمل أنت ووالدك رحمه الله في بستان أبي أليس كذلك، أم خانتني الذاكرة؟».

رد عبد الواحد مؤكداً: «صدقت ذاكرتك يا ابن الشيوخ، لكني أعمل الآن في بستان سيدي ذياب الضاري».

يهزّ صفوان رأسه قائلاً بنبرة غامضة: «أجل علمت بهذا».

ثم أضاف متسائلاً وهو يشير للعربة وما تحمله من خضار: «أذاهب مع زوجتك للسوق؟».

ففسّر عبد الواحد: «سأوصلها إلى هناك كي تبيع الخضار، أما أنا فسأشتري بعض اللوازم للفِلاحة».

أطرق صفوان للحظة ثم قال وهو يسحب لجام حصانه: «حسناً.. إذن نؤجل القهوة التي رغبت بشربها عندك إلى وقت آخر، توكلوا لمسعاكم في أمان الله».

***

الغزل الثالث عشر

(للشوق آهة وللألم آهة، وللآهات مغازل لا تحصى، فسبحان من سواها).

«حسناً.. إذن نؤجل القهوة التي رغبت بشربها عندك إلى وقت آخر، توكلوا لمسعاكم في أمان الله».

هتف عبد الواحد معترضاً: «لا والله لن تذهب، أتأتيني زائرا يا ابن أكرم الناس وأردّك؟ والدك كان مضيافاً سخياً، لا تغلق باب داره أمام أحد، الغريب قبل القريب، ولا يرد سائل حاجة ولو طلب عباءته التي يلبسها فوق كتفيه، رحمة الله عليه».

تمتم صفوان بالرحمة لوالديه ولجميع الأموات بينما يسحب عبد الواحد لجام حمار جانباً ليدور به وبالعربة إلى الاتجاه المعاكس كي يعود إلى البستان وهو يضيف: «ابنتي في الدار، لا أعلم ماذا حلّ بها وباتت تشكو من العلل والحمى فجأة».

يرد صفوان وهو يغرق بالتفكير حول تلك الصبية المسكينة: «عافاها الله».

لم يأخذ طريق العودة وقتاً طويلاً وقد قضاها الفلاح عبد الواحد بالثرثرة حول الماضي وعهد شيوخ الضاري المجيد، وعندما باتوا على مقربة من بوابة البستان عبس عبد الواحد وهو يتمتم يسأل زوجته بدهشة: «البوابة مفتوحة ألم

نغلقها بالسلسلة يا أم غنيمة؟».

يتنبه حدس صفوان بينما أم غنيمة ترد على زوجها بعجب: «بل قفلته أمامي و...». قطعت أم غنيمة جملتها شاهقة، مجفلة، مع صوت صرخة فيلتفت صفوان بحدة لينظر عالياً إلى الطيور فوق البستان التي فزعت هاجرة الأعشاش في الأشجار، لطمت أم غنيمة على صدرها بهلع الأم: «ابنتي».

بينما يلكز صفوان حصانه الأشهب وينطلق مقتحماً البستان عبر البوابة المفتوحة.

***

من أول الطريق يقود ذياب سيارته على مهل وهو يستمع لأحد رجاله المؤتمنين وأكثرهم خفة بالحركة، (ناطق)، الذي كان يخبره لاهثاً مصدوماً: «لن تصدق يا سيدي ما صورته للتو، هذه الغجرية قذرة أكثر مما تتخيل يا رب السماوات، أفعالها يهتز لها عرش الرحمن وستكون فضيحة لم تشهدها قرية الشيوخ من قبل، لا أدري كيف ستتعامل مع الأمر يا سيدي، أعانك الله».

يعبس ذياب وهو يحاول تخمين الأسوأ ثم يسأل بتوتر: «هل شعر أحد بوجودك؟ هل كنت حذراً كما أخبرتك؟».

رد ناطق مؤكداً: «لا تقلق سيدي، لم يرني أحد ولم يشعروا بوجودي، أنت تعرفني خفيف الخطوات وحريص

الأفعال، وكما في كل مرة خرجت بهدوء كما دخلت، متسلقاً الجدار من نفس تلك الزاوية الغربية المهدّمة التي أخبرتني عنها»».

قال ذياب بتحذير شديد اللهجة: «أكتم الأمر مهما كان، تعال إليّ مباشرة في بستاني الشمالي، لن يكون فيه أحد، عبد الواحد وزوجته وابنته يخرجون للسوق في العادة اليوم، سنتكلم بمفردنا هناك وتريني ما صورت وتخبرني بكل ما سمعت»».

أغلق ذياب الهاتف وتوجه مباشرة ناحية البستان، عاقد الحاجبين وهو يفكر بكلام ناطق فيشعر بالقلق والاضطراب، لم يكن يريد إلا دليلاً على أن زواج الغجرية من شقيقه مروان باطلاً، أو على الأقل أن الطفل في أحشائها ليس من صلبه، لذلك بعث ناطق كي يتجسس بالخفاء عليهم ويتصيد حواراتهم وأفعالهم؛ لكن ما قاله ناطق للتو لا يطمئن، نعم، ذياب يريد الفضيحة لدنانير الغجرية، لكن دون أن تمسّ الفضيحة عباءته هو.

***

تصرخ بأنين موجع كذبيحة تُجَزُّ عنقها بسكين ثلمة، الحسيس يمزق ثوبها الداخلي الخفيف وهي تعاود الصراخ الجريح فيلطمها على خدها لتسيل دموعها الساخنة وينزف من فمها الدم، وانهالت الصفعات منه بكل ما يملكه من قوة حتى يخضعها عنوة، فلم تعد تشعر بقوة في ذراعيها

كي تدفعه، ولا طاقة في جسدها كي تقاومه، تسمع لهاثه وتشعر بكفه يلمس مفاتنها فلا تجد إلا الاستنجاد بصرخة عذاب وانتهاك (يا الله).

دخل صفوان الضاري دار عبد الواحد كعاصفة الصحراء الغاضبة فتمتد ذراعاه تسبقان خطوات قدميه حتى وصل خلفان فيرفع جسده من فوق جسد غنيمة المسجى كالقتيلة على فرشتها، يزمجر صفوان بصوت غاضب ثائر مهول ويخرج بالخسيس ليلقيه خارج الدار، يتمرغ خلفان بالتراب والخزي وهو يلهث بينما يصل عبد الواحد وامرأته وكلاهما يترنحان من الفجيعة التي تنتظرهما، سارع صفوان ليخلع عقاله ويمسك بخلفان ليربط معصميه عنوة خلف ظهره وكلما حاول خلفان المقاومة لكمه صفوان لكمة تجعله يكاد يفقد وعيه، وبعد أن أتم صفوان ربطه يستعر صدره بغضب مهول فلا يشعر بقبضته التي أخذت تنهال باللكمات على وجه خلفان وهو يصرخ فيه: «سلسال نجس.. نجس».

عبد الواحد بجسده المرتجف يستند إلى جذع نخلة وقد بدا مصعوقاً بعينين جاحظتين يحاول استيعاب ما يراه، بينما أم غنيمة تولول وتلطم على الخدين، فاستعاد صفوان عقله يحتكم إليه ليعين هؤلاء المساكين في مصيبتهم، علا صوته ليطلب من أم غنيمة بكلمات موجزة مفهومة المقصد: «اذهبي لابنتك يا أم غنيمة، اذهبي وتأكدي، نحن هنا بانتظارك».

تهرول المسكينة وهي تضرب على رأسها فدخلت الدار وأغلقت خلفها الباب، يميل صفوان إلى وجه خلفان الذي تورم والدماء تسيل منه: «قسماً بمن خلق السماوات العلا، لو خرجت أم غنيمة بوجه يحمل المصيبة، لأشقَنَّ صدرك بكفّي المجردين وانتزعَنَّ قلبك من بين أضلعك وأرمينَّه لضباع الصحراء تنهشها»،

ثم يدفعه ليقع خلفان على جانبه وهو يئن ويتوجع، بصق صفوان على وجهه وقال: «خسيس، معدوم الشرف».

في تلك اللحظة وصل ذياب فتتجمد خطواته صدمة وهو يحدق في ظهر أخيه المرمي على الأرض ويداه موثقتان، لقد عرفه، من النظرة الأولى ميّزه، يدور ذياب بنظراته في ذهول ما بين صفوان بهيئته المخيفة وعبد الواحد المنهار ليحاول قراءة ما يحصل، تجرأ على السؤال بحذر: «ماذا حصل؟ من شدّ وثاق أخي خلفان؟»،

ردّ صفوان بصوت مُزلزل يهز القلوب: «أنا شددت وثاقه، وحاول فكّه يا ذياب وسأشد وثاقك بعقالك».

علت زغرودة باكية وأم غنيمة تخرج من الدار تبكي وتهلل: «ابنتك عفيفة يا عبد الواحد، ارفع رأسك، ابنتك لم تتنجس».

انهار عبد الواحد جاثياً على ركبتيه وهو يجهش بالبكاء ويتمتم: «الحمد لله، الحمد لله، أحمدك وأشكر فضل سترك عليّ يا رب».

فارتفع صوت ذياب بتبجح قائلاً: «افتح وثاق أخي، إنه بريء مما تريدون إلصاقه به»».

عندها زجر عبد الواحد مهتاجاً وقد وجد قوته، ليهبّ على قدميه ويهاجم خلفان المرمي على الأرض فيكيل له الضربات، أخرج ذياب سلاحه من جرابه الجلدي ليتقدم بخطوات متسارعة وهو يهدد عبد الواحد بجدية قائلاً: «ابتعد عن أخي، ابتعد أيها البائس الحقير وألا أفرغت فيك كل الرصاصات في مسدسي»».

صوت تكة زناد مسدس آخر كان عند رأس ذياب وصفوان يهدده بالمقابل: «أبعد مسدسك يا ذياب»».

لكن ذياب لم يفعل وهو ينقل نظراته بين أخيه المتهالك على الأرض ويمسك بخناقه عبد الواحد، وبين صفوان وتهديده الصريح ليقول موجهاً كلامه للأضعف: «امرأتك قالت إن ابنتك لم تمس عفتها يا عبد الواحد، فدع الأمور عند هذا الحد، لا أحد سيعلم، أتريد أن تتكلم القرية بعرض ابنتك؟»».

رفع عبد الواحد عيناه إلى ذياب وقال بقهر الرجال: «أترضى بها لأهل بيتك يا ابن شيوخ الضاري؟»».

ما زال ذياب يدرس الوجوه حوله، لا يفكر إلا بتخليص أخيه من موت قريب وتخليص نفسه من فضيحة جديدة مدوية ستقضي على كل شيء، قال وهو ينظر إلى عبد الواحد يحاول إثارة طمعه: «سأعوّض عليك بما تشاء»».

ما زال مسدس ذياب موجهاً ناحية عبد الواحد ومسدس صفوان مصوب إلى رأس ذياب ليدير عبد الواحد وجهه إلى صفوان وسأله والقهر يكسره: «أترضى بها يا ابن أكرم الناس؟ أتُرضي أبوك وعمك الشيخ محمد رحمهما الله؟».

عينا صفوان تشعان، فله ثأرٌ كثأر عبد الواحد، بل ويزيد أن كانت غنيمة نجت فدلال لم تنجُ، لعشر سنوات ومروان يغتصبها من شدة ما يعانيه اللحظة ترتجف يده بالمسدس الذي يحمله، وكلمات دلال محفورة في رأسه تعذبه، هل يمكن أن ينسى يوماً ما قالته؟ كيف.. شدّها مروان لعمودين في السرير وجلدها بعقاله، لم يشعر بنفسه إلا وهو يرفس خلفان رفسة فانطلقت منه صرخة وجع أعلى من صرخة غنيمة وهو ينتهك حرمتها، ثم قاوم نار ثأره ليمنح هذا الرجل الضعيف الطيب بعض القوة فيقول رداً على كلامه: «لا يرضيني ولا يرضيهما، وليت لي الحكم بما كان سيحكم عمي، لكنت جلدت الخسيس على أعين الأشهاد، وتركته وسط الصحراء للطيور الجارحة تنهش فيه كما ينهش هو بأعراض النساء، قسماً بالله كنتُ سأفعلها به وبكل من تسوّل له نفسه انتهاك الأعراض، ولو كان ولدي من صلبي».

ارتبك ذياب فجأة وتشتت عن الكلام وعقله يقرع أجراس الخطر مذكّراً إياه بمجيء (ناطق) الوشيك إلى هنا، فقال على عجل دون تفكير: «البستان هذا لك، خذه يا عبد

الواحد، هو عوضك عما لحق بك»».

وقف عبد الواحد على قدميه، عيناه في عيني ذياب تلتمع فيهما دموع القهر وتسكنهما نيّة غير مطمئنة ليقول: «لا أريد عوضك يا.. ذياب»».

اتسعت عينا ذياب بغضب مكتوم والفلاح يناديه باسمه مجرداً هكذا، ليضيف عبد الواحد: «وحق ابنتي سيعود، فلا تظننّ أني أهاب الموت»».

لم يهتم ذياب اللحظة إلا أن يفض التجمع ليقول لأم غنيمة بمداهنة: « كلّمي زوجك يا أم غنيمة، دعيه يتعقل، أنت امرأة عاقلة ولا تريدين الفضيحة أو المساس بسمعة ابنتك»».

ترمقه أم غنيمة بقهر كقهر زوجها لكنها تلتزم الصمت بينما يومئ لها زوجها قائلاً: «اجمعي أغراضنا، وانتظريني مع ابنتك سنغادر بعد مغادرة الجميع»».

سارت عائدة إلى الدار بوجه لا تعابير تخط ملامحه، بل كلاهما باتا لا يمكن التكهن بما يضمرانه، أرخى ذياب يده بالمسدس يعيده إلى الجراب في مبادرة سلام بينما صفوان بوجهه المتجهم لم يفعل المثل، بل سلاحه متأهب لحركة غدر من ذياب، ثم يقول لعبد الواحد: «مكانك عندي يا طيب، دار أبي مفتوحة لك ولأهل بيتك»».

للحظة ارتعشت شفتا عبد الواحد ثم أطرق يخفي دموعه، يهزّ رأسه ثم سارت به قدماه ناحية الدار الذي سيهجره

ليلحق بزوجته، عندها فقط، أخفض صفوان ذراعه دون أن يعيد سلاحه للجراب ثم قال: «لولا أن الثأر ثأره لاقتصصت لها بيدي». نتوجس نظرات ذياب وهو يرد عليه: «لكنه ليس ثأرك، وصاحب الحق تنازل، فارجع خطوة يا صفوان وكفى ما فعلته اليوم».

يحدق ذياب في عيني صفوان باضطراب يكتمه، يقلقه ذاك الغضب الذي يراه فيهما أكثر من قلقه من عبد الواحد، منذ مدة، بل منذ زواج صفوان من تلك الحقيرة دليلة وهو يتوجس من أي فعل قد يصدر عنه، أتراهما تكلما عما حصل قبل اثنتي عشر عاماً؟ أتراه يفكر مجدداً بحادثة جابر وخدعة موته التي دفعته بصفوان للهرب؟ قال صفوان أخيراً بنبرة عجيبة: «وماذا إن لم أعد خطوة للخلف يا ذياب؟».

لم يكن سؤالاً عادياً منه، فتراجع ذياب هو خطوة وقال يخفي إحساسه بالقلق من صفوان: «أتريد أن تفضح ابنته إذن؟ إن حاولت فعل شيء فلن ينال عبد الواحد إلا الفضيحة وسواد الوجه».

وكأن ذياب يصبّ الزيت على النار دون أن يعلم فتشتعل خضرة عيني صفوان ليقول: «هذا ديدنكم يا إخوة العار، سلسال نجس شقيقاك يغتصبان النساء وأنت تغتصب الحقوق، لكن الأمر لن يستمر يا ذياب، وحسابك القديم والجديد قد وَجب تسديده».

يبتلع ذياب ريقه وهو ينظر في عيني صفوان ويقرأ فيهما مقتل كل أحلامه ومساعيه، ثم تنبه على صوت ناطق: «سيدي ماذا حصل؟ أهذا سيدي خلفان؟».

التفت ذياب لناطق فيرى نظراته الذاهلة لحال (خلفان الضاري) المربوط على الأرض، فيصرخ به ذياب: «فكَّ وثاقه معي، وإن سألت أو تكلمت مع أحد بما تراه اللحظة، قطعت لسانك».

خلال دقيقة واحدة كان ذياب وناطق يحملان خلفان للخارج على عجل، ثم غادر بعدها بدقائق، صفوان على صهوة جواده يرافق عربة عبد الواحد مع زوجته تحتضن ابنتهما الملفوفة بعباءة سوداء، لا يحملون معهم إلا بضع أغراض خفيفة، وثأر.. ثأر ثقيل.

***

دار صفوان الضاري.. غرفة دليلة

تتطلع دليلة من شباك غرفتها إلى الباحة الأمامية للدار، لقد سمعت أصواتاً كأن البوابة الكبيرة للدار تفتح على مصراعيها مما جعلها تقترب لترى من القادم، عقدت حاجبيها قليلاً وهي ترى صفوان يمسك بلجام حصانه الأشهب ويقف جانباً قرب البوابة المفتوحة ليسمح لعربة يجرها حمار بالدخول، كانت عربة خشبية مسطحة مما يستخدمه الناس البسطاء في القرية لنقل حاجياتهم، فتتساءل دليلة وهي تتطلع إلى وجه الرجل الذي يقودها

ويبدو مألوفا لها: «من هذا الرجل؟ ومن يصاحبه؟ وما هذه الأغراض التي يحملها؟».

عاود صفوان إغلاق البوابة بعد دخول العربة فتتركز عينا دليلة الآن على المرأة الفلاحة الجالسة في العربة وتبدو وكأنها زوجة الرجل، والفلاحة كانت تضم إلى صدرها امرأة أخرى، أم ربما فتاة، ملحّفة بعباءة سوداء تغطيها بالكامل حتى أخفت وجهها.

تعجبت دليلة مما تراه، حالهم بدا غريباً، وحال صفوان أغرب، كأن مصيبة وقعت على رؤوسهم جميعاً، لا تعرف دليلة لماذا عيناها لم تفارقا الفتاة، لقد أحسّت أنها فتاة صغيرة شابة وليس امرأة ناضجة، تلحُفُها بالسواد أوجع دليلة بطريقة لا تفهمها، وكأن الفتاة تشعر بالخزي، بالعار، انقبض قلب دليلة فتشيح بنظراتها بعيدا عن الفتاة لتنظر إلى صفوان تلتقط شحنات غير عادية منه فتهمس بالأسئلة: «من هذه يا صفوان؟ لماذا أحضرتها هنا».

رأته يشير بذراعه إلى الناحية الخلفية من الدار حيث بيت المضيف القديم الذي كان لوالده، ثم تتوجع أكثر وهي ترى الفلاح ينحني فجأة ليحاول تقبيل كف صفوان، فيسارع صفوان لسحب كفه ويربت بكفه الأخرى على كتف الفلاح وكأنه يواسيه، همست دليلة فجأة وذاكرتها ترد عليها: «هذا عبد الواحد تذكرت وجهه، كان يعمل في بستان والد صفوان عندما كان صبياً».

لم تفهم ما يجري لكن حدسها يخبرها أن أمراً خطيراً يحصل، ومصدر ذاك الحدس لم يكن إلا صفوان ذاته، أمالت رأسها قليلاً لتستند به على زجاج الشباك تنظر إلى صفوان وتفكر بذاك الماضي الجميل بينهما وكم بات مشوهاً موجعاً حزيناً.. حزيناً للغاية، رفعت كفها إلى صدرها وهي تهمس باختناق: «ليتني أعود كما كنت صبية، ليته كان بيدي أن أمحو ذاكرتي كما تمحو الرياح آثار الأقدام من فوق الرمال في الصحراء، بل ليتني أصاب بالجنون كمروان فلا أدري ولا أغضب ولا أتألم ولا يقتل روحي هذا الحزن».

أخذت تضرب بقبضتها على صدرها وتردد بحرقة: «ماذا فعلت بي يا صفوان لتستبدل الغضب بالحزن؟ كيف فعلتها؟ أعد إليّ غضبي، أحترق فيه وأحرقك معه، بدل هذا الحزن الذي يقبض أنفاسي دون أن يقبض روحي».

تحركت من عند الشباك وهي تشعر بالإرهاق، تنظر فيما حولها من الغرفة وتشعر بمزيد من الثقل في صدرها، عيناها وقعتا على المغزل المُلقى على السجادة، فضاقت أنفاسها أكثر، تقدمت نحوه لتجلس جواره لكنها لم تلمسه منذ يومين تتركه لحنّة تغزل فيه، ما زالت روحها تنأى عنه، لا تعرف ما جرى لها.

مضى وقت وهي تحدق في المغزل هكذا حتى سمعت صوت خطوات صفوان تمر ببابها، همست اسمه دون وعيها: «صفوان».

لم يتلكأ في مسيره حتى بل واصل طريقه إلى حيث غرفته، حتى خطواته تستطيع قراءتها دون أن تراها، كدرس حفظته عن غيب في الطفولة فلا تنساه مهما مر بها العمر، وقفت على قدميها ثم أخذتها خطوات ناحية باب غرفتها المغلق، فتحته وهي لا تعرف ما الذي يدفعها اللحظة للحاق بصفوان، تسير في الممر فيبدو لها طويلاً وخطاها فيه ثقيلة، وعندما وصلت غرفته كان بابها مفتوحاً، وقفت على عتبته تتسع عيناها في دهشة عفوية وهي تنظر إلى حالة صفوان، يتحرك في محيط الغرفة الخالي حول سريره بخطوات تشتعل بغضب مهول، قبضة يده اليمنى عند فمه ترتجف وكأن ما يعتريه يفوق طاقة جسده على التحمل، كل جسده يشع بطاقات غضب وهو يواصل نهب أرضية الغرفة بقدميه.

نادته وقدماها تعبران تلك العتبة: «صفوان».

لكنه صدمها وهو يمد كفه مفروداً ناحيتها كأنه يصد اقترابها هادراً: «ليس الآن يا دلال، ليس الآن بالله عليك».

لم يكن ينظر ناحيتها حتى وهو يفرد كفه هكذا في وجه تقدمها، وكأن صدّه هذا جرحها في موضع ما.. موضع منسي في مكان قصيّ، آهة ألم ليست ككل الآهات التي اختبرتها طيلة اثنتي عشر سنة، آهة تصعق الحزن فيعلو صوت صفوان من ذاكرتها وهو شاب يافع عشريني

يغازلها بالقول (دلال الحُسن، لا حُسن قبله ولا بعده).

قدماها تقدمتا بعناد مباغت، بل وكفها دفع الباب لينغلق خلفها وهي تقول بإصرار: «بل الآن، لم أرك يوماً في حياتي هكذا».

أخفض كفه بحركة حادة وعيناه تقدحان شرراً ليرد عليها: «لم ترني هكذا يوماً؟ أنا أيضا لم أرك هكذا يوماً يا دلال».

تنظر في عينيه ولا تشيح بعيداً وهي تقول بصمود: «الكلام عنك اللحظة.. لا عني أنا».

كتمت شهقة وهو يتقدم بحركة مباغتة ليمسكها من أعلى ذراعيها هادراً بانفجار: «الكلام كله عنك أنتِ، كل شيء في حياتي متعلق بك أنت».

يهزها دون شعوره وهو يضيف بنفس الانفجار: «ضاعت سنوات عمري لأنك الشخص الوحيد في الدنيا الذي لا أملك مواجهته بذنبي، لا أملك يا دلال.. لا أملك نفسي منك».

يجرها إليه بخشونة، يعتصرها بين قوة ذراعيه يغرق وجهه في شعرها ويهدر برعدة عشق تصعقه: «لا أملك نفسي منك يا دلال، أنا أتألم بكِ وأشتاق الموت فيكِ».

كان جسدها ينكمش غريزياً ولا تعرف سر ردة فعلها غير المحسوبة هذه، بينما يعتصرها أكثر حتى يوجع عظامها

ويبعثر بقبلاته خصل شعرها، كان يتألم بقوة فتشعر فجأة بقلبها يدوي في صدرها، تهمس بارتجاف وهي تغمض عينيها: «أخبرني.. ماذا حصل اليوم؟ من.. تلك الفتاة؟».

لم يبتعد، بل يزيد في قبلاته لعنقها ويرتجف جسده الضخم تأثراً وهو يهمس بوجيعة: «لا أريد أن أقول شيئاً اللحظة.. ليس الآن.. لا تبتعدي يا دلال الحسن، أبقي..».

يتأوه من إحساسه بارتجافها ونبض قلبها المتسارع فيهمس بخشونة وهو ينحني ليحملها: «دلال الحسن، لا حسن قبله ولا بعده».

انتشت روحها حالما قالها، وكأنه سمع حنين أفكارها قبل لحظات وهي تتذكرها، وما بين انتشاء الروح وارتجافها كانت أصابعها تتعلق به دون إرادتها، وضعها على سريره لينضم إليها وهو يأسرها بين ذراعيه، تنظر إلى وجهه شديد السُمرة وعينيه الخضراوين المتوهجتين بما يفوق العشق والهوى، يرتفع وجيب القلب فتتألم بقوة وهي تهمس برجفة: «لا أستطيع، ليس الآن..».

يميل إليها هامساً بخفوت أكثر وجعاً: «إذن فهذا موتي الساعة أحتاجك دلال.. أحتاجك، لا تعرفين ما مررت به اليوم، لا تعرفين».

تخنقها غصة لأجله دون إرادتها فتهمس: «أخبرني».

فيرفض بعنف وهو يأبى فك أسرها منه: «لا.. لا أريد

اللحظة».

كان سخيّاً في عطائه ومُراعياً في أخذه، مؤثراً فيها بجنون ومتأثراً بها كمجنون يكاد وجعه ينحر قلبه وهو يهدر: **«لعن الله من لمسك بالإجبار وقهر حقك بالإنكار وكسر كرامتك بالإهدار».**

أخذت دموعها تسيل وهي تهمس بشهقات أقرب للأنين: «لا تقل المزيد، بالله عليك».

لكنه لا يتوقف وقد فقد السيطرة على كل شيء، ثورة تعمّ كل حواسه ولا يملك أن يقمعها، أصابعه تفك أزرار جلباب دلال بخشونة فتتقطع بعضها رغماً عنه، تتنهد دلال عالياً وهو يواصل هدير لعناته على كل من ظلمهما: **«لعن الله من حرمني منكِ وحرّم الحياة عليّ، لعن الله من سرق روحي مني ولا يردّها إليّ».**

كانت دموعها تنحدر دون توقف، ثم فقدت السيطرة هي الأخرى ليتأجج داخلها انتقام من نوع آخر، تبادل صفوان ثورته لتنال حقها كما ينال حقه، تنتقم من كل من حرمها منه، صفوان لها وليشبع قهراً الظالمون.

***

بيت المضيف لدار صفوان الضاري

يسير عبد الواحد في البيت الصغير المُعدّ كمَضيف للنازلين على أهل دار إبراهيم الضاري، ذاك الرجل الطيب الذي

مات باكراً لكنه ترك أثراً ممتداً في ولده صفوان، يقف قليلاً يراقب امرأته (أم غنيمة) تكنس وتنظف في صمت، ثم يكمل خطاه إلى تلك الحجرة الصغيرة التي التجأت إليها ابنته، وقف عند الباب وهو يراها كما هي، تضطجع على السرير منكمشة على نفسها، تأبى فكّ أسوار العباءة السوداء من حولها، أتختزي من نفسها وقد كشف خِدْرها الخسيس أم تختزي من أبيها وقد عجز عن أخذ حقها؟!

تراجع عبد الواحد بخطواته ثم تحرك ليتخذ من إحدى زوايا المضيف معتكفاً له، انحني ليجلس على الأرضية العارية الباردة، زوجته تنفض التراب عن السجاجيد في الخارج وكأنها تبعث الحياة في روح مضيف مضياف طال غلقه فاكتفى من طول قطع رزق النازلين فيه، إبراهيم الضاري عائد وابنه صفوان يرفع رايته، يسرح عبد الواحد وملامح وجهه متحجرة، تدور عيناه فيما حوله يحدق بوجوم، ريح الشتاء خفيفة اللحظة لكنها باردة، تتخلل ثيابه الرثة لكنها لا تجرؤ على إطفاء ناره، حتى الريح تدرك حرمة الثأر، والخدور المستباحة تنتظر الإنصاف من القهر.

فجأة تسمّرت عينا عبد الواحد على أحد الجدران، حيث عُلّقت عليه كل ما يعكس طبيعة البدو ومصدر فخرهم، بزئير الثأر ينشد موّالاً بخفوت: «يا خُدُور العفيفات ذواتِ الضفائر، أنا لثأرِكِ بعون الله سائر، فترقبي عودتي حاملاً راية البشائر».

***

يتعاون ذياب مع ناطق على حمل خلفان إلى الداخل، ثم ارتقاء درجات السلم بصعوبة فيتمتم ناطق وهو ينهت: «سيدي خلفان ثقيل.. جداً».

فيزجره ذياب وهو يشتم وينهت مثله: «صه، لا أسمع حرفاً».

صمت ناطق على مضض وسار مع سيده ذياب حتى وصلا بخلفان إلى غرفته فيضعانه أخيراً على السرير، يطالع ذياب وجه أخيه المتورم بشكل مخيف، والدماء ما زالت تسيل قليلاً من شفته وأنفه، يغلي دمه في العروق، ولا يدري أيغضب من هذا الأرعن أكثر أم من الحقير صفوان وما فعله اليوم، سأل ناطق: «أنحضر الطبيب يا سيدي؟».

كان خلفان يتأوه ويهذر بالشتائم بينما ذياب يقول: «أنا سأتصرف، أترك الأمر لي، تعالي معي للأسفل كي نتكلم».

يطيع ناطق ليلحق بخطوات سيده ذياب المغادرة، وفي الباحة الداخلية للطابق السفلي غلب الفضول ناطق ليسأل: «ماذا جرى لسيدي خلفان؟ هل تشاجر مع سيدي صفوان؟».

صرخ به ذياب: «اخرس ولا تكثر الكلام».

فنكّس ناطق رأسه وهو يعتذر قائلاً: «عفوك سيدي».

بوجه مكفهر يمد ذياب كفه إلى ناطق يأمره بالقول: «اعطني هاتفك، لكن افتح التسجيل الذي صورته أولاً».

يتمتم ناطق وهو ينفذ: «حاضر.. حاضر».

وبعد أن فتح الجهاز وشغل التسجيل أخذه ذياب وهو يقول كأنه يكلم نفسه: «أقسم بالله أشعر أني قادر على قتل أحدهم اللحظة».

يطرق ناطق بنظراته احتراماً وخوفاً من ردة فعل سيده وهو في هذه الحالة الصعبة، حتى سمع ذياب يتمتم: «رباه».

ثم رفع ناطق نظراته إلى سيده ذياب الذي شحب وجهه وهو يهدر باشمئزاز وقرف: «الله أكبر أتعاشر.. أخاها بنت الغجر هذه؟ تباً لها.. تباً لرحم أنجب قذارتها».

تجرأ ناطق على السؤال: «هل ستفضحها سيدي؟».

هتف به ذياب زجراً: «صه».

فصمت ناطق بينما يرى سيده ذياب يضع جهاز الهاتف في جيبه ويقول آمراً: «اشتري لك جهازاً آخر».

فيرد ناطق بنبرة فيها بعض الأسف لخسارة هاتفه: «على أمرك سيدي».

ذياب بوجه متجهم يغرق في التفكير ويكلم نفسه: «يجب أن أفكر ملياً، يجب أن أعيد كل الحسابات».

ثم تحرك ليغادر وناطق يتبعه، وعند السيارة في الخارج قال مُهدداً دون مقدمات: «لو سمعت كلمة واحدة في القرية عن هذا سأقتلك أنت يا ناطق، ودون حتى أن أسألك إن كنت من أفشيته».

يهزّ ناطق رأسه مرتعباً وهو يدرك جدية التهديد بينما يضيف ذياب وهو يصعد إلى سيارته: «وما حصل اليوم في البستان كذلك، لا أريد لمخلوق أن يعرف بشيء».

ثم شغل محرك سيارته وقال أخيراً: «عد بسيارتك إلى البستان وتدبر من يساعدك لتعيدا سيارة أخي خلفان إلى هنا، وغيّر أقفال بوابة البستان، فلا أريد لذاك الحقير عبد الواحد أن يعود لأي سبب ويدخل البستان مجدداً».

انطلق ذياب بعدها وناطق يقف مكانه متعجباً يفكر أنه عندما وصل البستان لم ير عبد الواحد ولا زوجته ولا ابنته رغم وجود عربة الحمار التي يعرفها يتمتم ناطق: «ترا ماذا حصل؟ ولماذا سيدي ذياب يطرد عبد الواحد وعائلته من البستان؟».

***

غرفة صفوان

انتهت ثورة الغضب والانتقام، ثورة الوجيعة والغرام، انتهت وما هي إلا معركة انتهت، فالحرب مستمرة، صفوان بأنفاس ثائرة لا تهدأ يغمر وجهه في شعرها، كفاه يمران على جانبي جسدها، يلمسه لا ببهجة تملكه،

بل بألم التقاعس عن حماية حرمته، يطبق أجفانه بقوة وصورة غنيمة المنتهكة تتجسد أمامه، لم تكن إلا لمحة خاطفة وهو يرفع عنها الحسيس خلفان، لكنها لمحة تحفر في الحجر الصوّان، وها هي غنيمة بوجه دلال وثيابها الممزقة قد عرّتها، وها هو خلفان بجسد شقيقه مروان الذي ينتزع العرض والشرف عنوة، دون شعور يرفع يده المتقبضة بالغضب ولَكَمَ الفراش حتى اهتز بهما كأنه يتزلزل بوجعهما، ثم يسمع صفوان صوت بكائها المكتوم فيحترق هادراً وهو ما زال يغمر وجهه بين خصل شعرها: **«أأنقذ غنيمة من براثن أنجس الأنذال، وغفلت عن عرضك أنت يا دلال ليتني متُّ ألف مرة بذنبي القديم أمامك، ولم أعش يوماً لأشهد فيه على الناس هوانك».**

يعاود لَكْمَ الفراش مرات متتالية، وذراعا دليلة تلتفان حوله تتشبث بقشة لعلّها المنجية ثم يرتفع صوت نحيبها كدعاء، فيصل السماوات السبع دون مشقة أو عناء، فسبحان من يرفع دعاء المظلومين درجات، وويل للظالمين من القصاص بعد الممات.

طرق على الباب أجفل (ثورتهما) وصوت الصبية حنّة تنادي: «يا سيدي صفوان، العم عبد الواحد يطلبك ليستأذنك باستخدام الحظيرة».

يرفع صفوان جسده قليلاً ليدير وجهه ناحية باب الغرفة ويرد عليها بالقول: «سأنزل بعد قليل يا حنّة».

تبتعد خطوات حنّة بينما يعود صفوان بنظراته إلى وجه دلال الحسن فيزأر قلبه في صدره، وجهها الباكي محمر وشفتاها ترتعشان وهي تهمس بخفر: «اذهب.. إليه».

تحرك ليترك لها السرير فتشيح بعينيها عن جسده الاسمر وكأنها لا تقوَ على مواجهة حقيقة ما حصل بينهما، غاب في الحمام كي يغتسل، وعندما عاد وجدها تقف بارتباك عند السرير شعرها الفاتن الكثيف مشعث ومبعثر بإثارة حول وجهها وكتفيها، كانت قد ارتدت جلبابها لكنها لم تزرر مقدمته فتوهج بياض نحرها لتهبط عيناه عفوياً تحدقان فيه، رفعت يدها لتلملم طرفي فتحة الجلباب وهي تهمس بعصبية: «الأزرار.. تقطعت».

يبتلع ريقه بصعوبة ثم يرد بشعور ذنب رقيق: «آسف.. ولستُ بآسف».

رمته بنظرة ثائرة، لكن ثورتها اليوم ذكرته بتلك الصبية التي عشقها قبل أن يبلغ الحلم، تقدم منها وكفّه الأيسر يحمل زجاجة عطر العود.. زجاجتها هي، وقف قبالتها وهو يسألها بصوت أجش: «تنتظرين أن أشغل حنّة عنك، أليس كذلك؟ لم تستطيعي مغادرة غرفتي خشية أن تراكِ هكذا».

لم ترد، بل تشيح بنظراتها بعيداً عنه، يرفع كفه الأيمن ليمر به فوق جانب وجهها وقبل أن تقاوم لمسته قال بصوت جدي: «هناك أمر حصل يجب أن تعرفيه لتكوني

معي فيه، فهذه الدار.. دارك».

قالت بتخمين وهي ما زالت لا تنظر إليه: «لا أمانع لبقاء عبد الواحد وعائلته هنا».

أمسك ذقنها بين أصابعه ليجعلها تنظر في عينيه، ففعلت، قرأ في ثورة عينيها تشتتاً وتشوشاً، فُلولاً لانتقام تطاردها هي قبل أن تطارده هو، بحدس عفوي شعر بحاجتها الشديدة للاختلاء بنفسها بعدما حصل بينهما، لكن، يجب أن تعرف الآن، قال وتعابير وجهه تتجهم: «غنيمة ابنة عبد الواحد».

تتسع عيناها وهي تنطق الاسم كأنها تتوقع القادم: «غنيمة»؟

فيهز رأسه يؤكد لها ما توقعته وهو يكشف هوية الفاعل: «أوشك النجس خلفان أن..».

لم يستطع أن يؤذيها أكثر، انكمشت كلها لتتشبث بحافة السرير خلفها وهي تهمس الكلمة: «أوشك؟».

ثم تتأجج نار في جوفها وتنعكس في عينيها لتكرر قولها بثورة لا يئدها أي انتقام: «أوشك.. أوشك».

قال بصبر وهو يربط على قلبه: «غنيمة بحاجتك يا دلال، لن يفهم ما مرّت به أحد مثلما ستفهمينها أنت».

لم تهدأ، بل تنظر في عينيه ثم تهتف بغلّ وكره: «لعنهم الله جميعاً.. لعن الله كل الأنجاس».

أرخى كفه عنها، فهناك من يحتاجه الآن ربما أكثر من دلال، تراجع للخلف خطوة ثم تحرك للجانب خطوة أخرى، فتح كفه الأيسر فظهرت الزجاجة الصغيرة في وسط راحته الضخمة، ودون أي كلمة وضعها على المنضدة الجانبية جوار السرير، ثم استدار صفوان ليخطو مغادراً الغرفة تاركاً لدلال أن تجد (بعض) السلوى والثبات من ماضٍ كان له (كل) السلوى والثبات، ولاثنتي عشرة عاماً.

***

المستشفى.. إحدى المرات

تستند بظهرها لأحد الجدران كعادتها بينما تشرب القهوة المرّة دون أن تستسيغها، لم يكن أمامها حل آخر وقد اختفى السكر فجأة من غرفة الاستراحة، أو أن تلك الممرضة التافهة ميادة أخفته عن عمد ومشاكسة معها، وإن لم تكن ميادة فهي صاحبتها وشريكتها زبيبة، الاثنتان صديقتان حميمتان، تتوليان، بنشاط (مبهر)، مهمة نشر الأقاويل في المستشفى وإشاعة البغض والعداوات بين العاملين فيها، وهذه الأيام تركيز (برجيّ الإشاعات) كان موجهاً نحو سلافة، بطارف عينها تلمح سُلافة وقفة (البرجين) على بعد بضع أمتار عنها، تتضاحكان بتشفٍ واضح للأعمى فتغيظهما سُلافة وهي ترفع كوب القهوة كي ترتشف منه بتلذذ متصنع وهي تطلق الأصوات بحركة لسانها داخل فمها، ترفع سُلافة حاجباً واحداً وهي تقول

في سرها: «لم أكن أعلم أن لديك هذه الشعبية يا ضرغام يا أسديّ كيف استطعت الإفلات من كل تلك الأبراج في القرية؟».

رفعت يدها الحرة وأخذت تدلك صدغها الأيسر والصداع يشتد، بغيظ أضافت بصوت مسموع: «مالي أنا ومالِ الأرق؟ أنا شخص يعشق الوسادة، حالما أضع رأسي فوقها أغطّ بالنوم العميق».

صوت ميادة أقترب منها وهي تقول ساخرة: «عيناك حمراوان وأجفانك ذابلة اليوم، السهر لا يليق بك يا أم الليث أم أن الهوى غلّاب؟».

تحاملت سُلافة على وجع رأسها لترسم ابتسامة واسعة للغاية على وجهها وهي تلتفت إلى ميادة وصاحبتها لترد بلؤم: «مؤكد أنا أفضل من غيري، أشفق على من تتقلب في سريرها على شوك الحقد والغيرة، آه من القهر.. غلّاب».

تشتعل عينا ميادة لترد عليها بانفعال منفلت: «من التي تحقد وتغار يا ربيبة العاصمة؟ قهرك الله في أعز من تحبين».

تشتعل عينا سُلافة الزرقاوين بتهديد صريح وغمازات ابتسامتها الواسعة لا تغيب ثم تقول: «احمدي ربك أن لدي صداعاً ولستُ في مزاج لأفجع فيكِ (أعزّ من تحبين)».

شهقت ميادة بينما تنفعل صاحبتها زبيبة لترد على سُلافة بعنف ووقاحة: «اخرسي أيتها الدخيلة علينا، كبثرة كريهة تظهر على حين غرة في الوجه».

ترفع سُلافة حاجبيها عالياً باستفزاز صريح وهي تقول بنعومة أكثر استفزازاً: «هل تعلمين يا زبيبة، أنا لدي هوس بمعرفة معاني الأسماء، وكلما مرّ عليّ اسم جديد رحت أبحث عن معناه، فعل تعرفين معنى اسمك؟».

ثم تمد يدها للخلف كي تسحب ضفيرتها فوق كتفها الأيمن تلامسها بحركة دلال وهي ترخي نظراتها بابتسامة أشد لؤماً وتضيف: «معناه، قَرحة تخرج في اليد».

تحترق زبيبة من الغضب وبدت كبلهاء والسؤال يطلّ من عينيها (هل حقا هذا معنى اسمي؟!) ثم زمجرت: «أيتها الحقيرة».

وهذه المرة هي من أرادت مهاجمة سُلافة وصاحبتها ميادة تمسكها كي لا تفعل، حتى أتى صوته لينهي الشجار اللفظي: «السلام عليكم».

شمتت سُلافة في سرها وقد أوشك كوب القهوة أن يقع من يدها حالما أتاها صوت رفيق أفكارها ليلة الأمس وسبب أرقها النادر، نظرت نحوه بعبوس عفوي وهو يرخي نظراته للأرض ويضيف: «عفواً منك يا أم الليث، هل متفرغة لبعض الوقت؟ أحتاج لسؤالك في أمر خاص وعاجل».

أخذت الممرضتان تتمتمان بكلمات حانقة قبل أن تنسحبا مبتعدتين والحقد يطل من عينيهما، لم تهتم لهما سُلافة وهي تحدق في ضرغام وما زالت نظراته للأرض، كزّت على أسنانها غيظاً منه ومن نبض قلبها المتسارع، تكلم نفسها في سرّها: «ماذا اتفقنا أيتها الحمقاء فجر اليوم؟ أفعليها ولا تكوني.. جبانة».

رفعت كوب القهوة لتشرب منه فتتجرع مرارته وهي تقول بغيظ لا تستطيع ولا تريد إخفاءه: «الحمد لله أنهيت الحداد ونزعت السواد».

كانت تشير بالطبع لكوفيته البيضاء، ثم تنبهت للكلمات التي قالتها وضحكته الخافتة لتضيف ساخرة من نفسها: «أصبحت أقول كلام السجع، هنيئاً لي».

رفع عينيه لها أخيراً وهذه المرة لم تحتمل رجفة كوب القهوة في يدها لتميل جانباً وترميه في سلة المهملات القريبة بينما يسألها ضرغام: «لماذا تتشاجرين؟».

ترفض ارتباكها كمراهقة أمامه فتنظر في عينيه وتتحدى نبض قلبها وهي ترد على ضرغام بالقول: «إذن لا تحب المرأة كثيرة الشجار؟ امممم.. هل لديك توجيهات أخرى يا.. أسديّ؟».

نادته باسم عشيرته وهي تمنحه ابتسامة واسعة شجاعة فيتمتم ضرغام وعيناه تتعلقان بخديها: «فوانيس العيد».

أحست بالغباء والحرارة معاً بينما تسأل: «ما دخل

فوانيس العيد؟ هل هي ضمن التوجيهات السرية التي تطلبها؟».

أطال النظر لعينيها فشعرت بركبتيها تتخبطان ببعض بينما يضيف وقد ثقلت نبرته البدوية القروية: «سيكون في حينها يا أم الليث».

صدرها يعلو ويهبط وهي تستند بظهرها للجدار بينما يضيف ضرغام بنفس النبرة: «مع من يجب أن أتحدث؟».

فتهمس بسؤال غبي: «في أي شيء؟».

يرد بنبرة خافتة: «في الحلال».

تبتلع ريقها وأصابعها تربت على الجدار خلفها كما حصل سابقاً عند الشجرة، ثم تجد الشجاعة لتقول بما يشبه الفكاهة رغم ارتجاف صوتها الفاضح: «أنا ليس لدي عشيرة لتخطبني منهم، ليس هناك إلا خالتي نوال وابنتها نرمين، هل ينفع؟».

عيناه هذه المرة انحدرتا لضفيرتها وهو يسأل بنبرة أشد تأثيراً: «هل هذا رد؟». بانفعال عاطفي يرتجف صوتها وهي ترد عليه بنفس الطريقة الفكاهية: «وهل كنت سأحاورك على مرأى ومسمع أبراج المراقبة لو لم يكن هذا رد».

لحظات مرت وهو لا يرفع عينيه عن تلك الضفيرة، وهي تقف كبلهاء متيمة وكأنها لا تتعد الخامسة عشرة

وشاب مخيف مؤثر بكوفية وجلباب يصارحها بعشق ملتهب، كل هذا من نظرة فقط من عينيّه إلى ضفيرتها، قال أخيراً يتغزل بلون شعرها البنيّ: «**داري الشُعور البنية لكن، بالله عليك، تمهلي، فالعين لا تشبع من النظرة الاولى، فلا تتعجلي**».

ترفع يدها المرتجفة إلى ضفيرتها في حركة تلقائية وهي ترد بخفوت: «ترفّق أنت أقسم بالله هي ضفيرتي منذ كنت في السادسة ولم تثر اهتمام أحد، حتى أمي التي أنجبتني».

لا تعلم من أين أتتها قدرة المزاح وهي في هذا الموقف العصيب لكنه لا يرحم وهو يضيف المزيد من كلامه البدوي العجيب وكأنه يعاني أكثر من معاناتها هي: «**كجناح طائر النُغير مغردا فوق كتفي حط، وكلما مددتُ إليه كفي قال، لا تلمسني قط**».

توشك أن تصفعه من شدة الانفعال عاطفتها لم تعد تحتمل، وبهذا الانفعال المفرط ردت عليه بنوع من الشراسة كدفاع عن النفس ضد هجومه الضاري: «مؤكدا لن تلمس ضفيرتي قط حتى.. يحين الحلال».

أرخى نظراته قليلاً وكأنه يعتذر بمجرد حركة بسيطة كهذه رجل عجيب يستطيع تطويع حتى لغة جسده مع لغة لسانه، تمتم يؤيدها بخفوت: «حتى يحين الحلال».

ثم أضاف مباشرة دون مقدمات: «ألن تسأليني عن المزيونة؟».

تنفست بعمق وكأنها كانت تحبس أنفاسها طوال الدقائق الماضية، ثم قالت بصدق: «طوال الليل تدور في رأسي الفكرة».

يرفع عينيه إليها باهتمام متسائلاً: «أي فكرة؟».

يتبادلان النظر وهي ترد عليه لتفسر له: «فكرة جعلتني أسهر طوال الليل وحتى الفجر، ووصلت لنتيجة واحدة، لا يمكن لرجل أن يقول كلامك ويفعل مع امرأة أفعالك ويُسأل عن ماضيه مع امرأة أخرى».

توهجت عيناه وهو يقول بصوت أجش: «أظنها فكرة صائبة».

جف فمها لكنها ملكت القوة والشجاعة لتقول له على طريقتها الخاصة: «إذن على بركة الله يا أسديّ، غداً أخبرك رد (عشيرتي)».

تمتم وهو يحني رأسه: «على بركة الله».

ثم استدار منسحباً بخفة وخطواته لا تصدر أي صوت.

***

عصراً.. مجلس شيخ الشيخ عبد الجبار

ألقى الشيخ عبد الجبار بجهاز الهاتف بعيداً عنه وهو يقول بتجهم شديد: «أعوذ بالله، قبّحهما الله».

التقط ذياب الجهاز ليعيده إلى جيبه ويقول بتركيز: «لهذا

أتيتك يا شيخ، لن آمن هذا السر إلا إليك، ولن أثق إلا بحكمتك في هذه الأمور، فدلّني ماذا أفعل؟».

يمعن الشيخ عبد الجبار بالنظر إلى وجه ذياب الضاري ويقرأ ما خلف تعابيره الظاهرة، هذا الرجل أتاه بالخصوص ليحصل على (المباركة والتأييد) في كل خطوة يخطوها، ما زال الطمع بالمشيخة يسيطر عليه، وتخاذل حمدان الضاري مع أبناء عشيرته يأذن بقرب إزاحته عن المشيخة، وحتى اللحظة ليس هناك إلا اثنين قد يحصلان على الدعم، أحد هما طامع والآخر زاهد فيها، قال الشيخ عبد الجبار بنوع من التحذير المبطن ليقطع على ذياب أي فعل ينافي الأعراف: «أتريد فضح أعراضكم يا ذياب أمام عامة الناس؟ الغجرية لعبت وتلاعبت بالأنساب».

وقد وصل التحذير لذياب ليقول لشيخ الشيوخ مدّعياً اليأس في إيجاد الحل البديل: «إذن ما العمل؟ أأتركها تفعل ما تشاء وتنجو بفعلتها؟ إن مات أخي مروان هي وابنها سيرثان كل شيء».

سأل الشيخ عبد الجبار ليلفت انتباه ذياب: «هل سمعت الحوار بتمعن؟».

رد ذياب: «نعم.. سمعته عشر مرات وأكثر».

فقال الشيخ: «هل أنصت جيداً؟ ذاك القذر حباس يغار».

يعقد ذياب حاجبيه وهو لا يفهم مقصد شيخ الشيوخ

ليتساءل: «والمعنى؟»».

ففسر الشيخ عبد الجبار بمعنى شامل دون أن يفطن ذياب لمقصد يخصه هو أيضاً: «وهل سأعلمك أنا يا ذياب؟ فرّق.. تسد، بأسهم بينهم شديد»».

اتسعت عينا ذياب قليلاً وكأنه التقط مقصد شيخ الشيوخ ثم تساءل ليستزيد من مقاصده: «والطفل؟ لم تذكره الغجرية بوضوح»».

أشار الشيخ عبد الجبار بذكاء فطري: «أعد التسجيل من أوله لنسمع الحوار فقط»».

فأخرج ذياب الهاتف مجدداً ليعيد تشغيل التسجيل وفي جملة محددة أشار الشيخ بسبابته قائلاً: «(إنه ليس..) هل سمعت قول الحقير؟»».

فيوقف ذياب التسجيل وهو يقول بحيرة: «سمعته، ولم أفهم بالضبط واحترت، ظننت أن مقصد حباس من النفي أن مروان ليس بزوجها»».

في سره يفكر شيخ الشيوخ أن ذياب لا يتمتع بالذكاء الكافي، لكن لديه ما يكفي من المكر الخبيث، مشكلته في أطماعه التي تحجب عنه الكثير، في كل الأحوال هو لا يساعد ذياب في تلك الأطماع، بل يحفظ كيان العشائر كلها بالأسس التي تقوم عليها، ويراقب من بعيد ما يحصل مع عشيرة الضاري ويخفي (ولو إلى حين) ما يتمناه لتلك العشيرة العريقة من شيخ يصونها ويعيد إليها مكانتها، قال

شيخ الشيوخ أخيراً وهو يلفت نظر ذياب لما فاته: «لكن الغجرية قالت (زوجي)، وليس (والد طفلي)».

اتسعت عينا ذياب أكثر وقد فهم المقصد فيتمتم: «أتعني أنها..».

ثم يصمت لحظة وعيناه تبرقان بالانتصار: «الجنين ابن سفاح».

شعر الشيخ عبد الجبار بالنفور من تلك النظرة، أيفرح هذا الناقص بمصيبة أخيه في عرضه وطفل سفاح يُنسب إليه؟ أسرّها الشيخ في نفسه واكتفى بالقول: «هذا الدليل احفظه عندك للضرورة القصوى، تجنب سلك دروب الفضيحة ما استطعت يا ذياب واستر عرض أخيك، حتى لو كان فاقداً للعقل، عرض أخيك هو عرضك أنت وعرض عشيرة الضاري».

يهز ذياب رأسه موافقاً بينما يضيف الشيخ: «علمت الآن أن الغجرية مخادعة بنسب الطفل لمروان، لكن ما زال عقد الزواج موجوداً، فاتبع طريقتها وامكر بها في الخفاء».

يبتسم ذياب بخبث وهو يفكر بالقذر حباس ثم يتمتم: «بأسهم بينهم شديد».

***

مع غروب الشمس

كانت نرمين منفعلة جداً عبر الهاتف وهي تقول لابنة

خالتها ببعض الصدمة: «هل جننتِ يا سلافة؟ تتزوجين قروياً لم تعرفيه إلا من بضعة أشهر؟ وماذا عن ليث؟». ردت سُلافة بعناد: «أنا أفعل هذا لأجله».

فبدت نرمين حانقة للغاية وهي ترد عليها: «أنا لم أعد أفهمك».

بيدها الحرة تمسك سُلافة بضفيرتها وهي تشعر بالضيق من ردة فعل نرمين، ثم يأتيها صوت خالتها نوال وهي تقول لابنتها: «أعطني إياها يا نرمين».

شعرت سُلافة بقلبها ينكمش في صدرها، تعترف أنها كانت تتهرب من خالتها، وفضلت أن تخبر نرمين أولاً، ولم تكلمها إلا حين أكدت لها نرمين أن ليث خرج مع أصحابه ليلعبوا كرة القدم، جاءها صوت خالتها الحلو معاتباً: «أتخبرين نرمين قبلي؟ ماذا تفهم هذه الطفلة لتستشريها بأمرٍ مهمٍ كهذا؟».

ضحكت سُلافة رغماً عنها وهي تسمع صوت نرمين المعترض على وصفها بـ(طفلة) ثم دمعت عينا سُلافة وهي تهمس: «خالتي».

كانت كلمة واحدة بنبرة خاصة للغاية جعلت خالتها تشعر وتفهم الكثير، فسألتها بحزم يغلفه حنان فطري: «هل هو رجل جيد؟».

التقطت سُلافة أي كتاب لتحركه أمام وجهها كمروحة يدوية تخفف من الحرارة المتوهجة فيها ثم تمتمت بالرد:

«نعم».

سألتها خالتها بخفوت خاص: «هل أنت ميّالة له؟».

ابتلعت سُلافة ريقها وهي تقول (ببعض الصدق): «أنا أفعل هذا لأجل ليث».

فتجاريها خالتها بالسؤال: « كي يصدّق براءتك؟».

فردت سُلافة تؤكدها: «أجل خالتي، نرمين لا تفهمني».

ثم تُوقف سُلافة حركة الكتّاب لتعتصره بين أصابعها وهي تضيف بقناعة وفكرة سيطرت عليها: «ليث أن علم أن رجلاً بدوياً قروياً مثل ضرغام، علم بكل ظروفي لكنه صدقني أنا، وطلبني للزواج، سيصدق ولدي عندها أني بريئة من كل الافتراءات التي وقعت عليّ».

صمتت خالتها للحظات قبل أن تقول: « كل هذا جميل ومنطقي، لكن ماذا عنك أنت؟».

ردت سُلافة بعاطفة واندفاع أمومي: «ماذا عني؟ وهل هناك ما انتظره في حياتي أكثر من براءتي أمام ولدي؟ أن يعود لأحضاني و...».

قاطعتها الخالة نوال وهي تقول لها بمنطق مختلف فاجأ سُلافة: «ليث لم يعد طفلاً ليعود إلى أحضانك يا سلافة، بضع سنوات أخر وسيصبح شاباً، ثم تدريجيا ينفصل عنك لتكون له حياته الخاصة وعائلته».

توجع قلب سلافة، هل كبر طفلها هكذا؟ هل خسرت

سنوات طفولته بعيدا عنها؟ قالت بحرقة قلب: «ماذا تريدين القول يا خالتي؟ إن ما أفعله لا فائدة مرجوة منه؟»».

فوضحت الخالة نوال مقصدها بالقول: «ما أريد قوله لا تندفعي لتحقيق هدف واحد باستعادة ثقة ولدك بك وتصديقه لبراءتك، فكّري أيضاً بنفسك يا سلافة، أنت شابة مطلّقة في السادسة والثلاثين ولك احتياجات عاطفية ونفسية فلا تنكريها على نفسك، اختاري من يصونك ويحميك ويكون لك سنداً في هذه الحياة»».

نبض قلب سُلافة بات في أقصاه والحرارة المشعة من وجهها لا يطفئها شيء لتقول بصوت مبحوح: «إنه ضرغام بالفعل، هو كل هذا وأكثر»».

فتواجهها خالتها بالقول: «إذن اعترفي لنفسك أنك تقبلين الزواج به لأجل نفسك أيضاً»».

صمتت سُلافة وهي لا تعرف ما تقول بينما تضيف خالتها وكأنها تشعر بها: «لا عار ولا عيب ولا خزي في هذا يا ابنتي، أنا ترملت باكراً لكني على الأقل عشت على ذكرى زوجي رحمه الله، كان نعم الرجل، وما منحني إياه استكفيت به لباقي عمري، لكن أنت وضعك مختلف تماماً»».

تمتمت سُلافة بعجز: «أنا...»».

لتسألها خالتها مجدداً كي تحسم الأمر: «أنت ميالة له؟»».

ماذا تقول لخالتها؟ (ميّالة) وصف لا يليق على الإطلاق إنها تنجرف انجرافاً، تشعر أنها كائن متفرد مع هذا الرجل البدوي، في حياتها كلها لم تشعر هكذا، ربما فقط والدها منحها بعضاً من هذا التفرد، لكن ضرغام.. عالم آخر.

سألتها خالتها ببعض القلق: «لماذا تصمتين يا ابنتي؟ ردّي على سؤالي»؟

فتتنحنح سُلافة قبل أن تعترف بالقول: «لم أشعر هكذا نحو رجل من قبل، بل لم أر مثله قط وآه من كلمة (قط) خالتي تُكتب فيها قصة بل مجلدات لا أدري كيف يعطي لكل كلمة يقولها خصوصية، ليتني أخبرك بكل يقوله ويفعله، لكني أشعر أني سأبخسه حقه»؟

قالت الخالة نوال بفضول وبعض العجب: «شوقتني لألتقيه»؟

تحمر سُلافة ولا تصدق ما يجري لها، وكيف ثرثرت هكذا مع خالتها نوال، حتى ذكر الخنفساء عندما ضربتها شمس الظهيرة ووقعت في غرامه يوماً لم تستطع الكلام عنه هكذا مع أحد، بل لم تشعر هكذا لتتكلم فيه، سألتها الخالة نوال وكأنها تنبهها لأمر مهم: «لكن هل حسّبتِ حساباً أنك ستسكنين القرية لآخر حياتك؟»؟

ردت سُلافة بصدق: «لم أفكر كثيراً، ربما لأني لا أشعر بالضيق هنا، أنا مشتتة في هذا، أريد أن أفعلها لأجل ليث، ولأجل...»؟

شعرت بالخجل الشديد والكآب يقع منها أرضاً بينما الخالة نوال تكمل الجملة عنها: «ولأجل نفسك.. قوليها يا ابنتي ولا تخجلي منها، هذا الرجل تريدينه كما يريدك».

آهة مكتومة، آهة أنثى، فتعترف وقلبها يخفق في اشتياق عجيب لهذا البدوي الذي يؤرقها: «الوحدة تقتلني خالتي، وهو.. مثلي».

قالت الخالة نوال أخيراً: «أريد أن أراه».

***

الغزل الرابع عشر

(أتغزل من نهر الفرات صوماً؟ أتمنع آهة العطشى، وتزيد فوق المنع لوماً!)

بيت المضيف.. غرفة غنيمة

تنظر دليلة إلى غنيمة الملتحفة بسواد خزيها ولا تعرف ماذا تفعل هنا وهي جالسة إلى جوار الصبية بهذا الصمت المطبق، منذ نصف ساعة ودليلة تجلس هكذا بعد أن سمحت لها أم غنيمة بالدخول على ابنتها والبقاء معها، بل عرّفتها بها في جملة موجزة قبل أن تغادر: (إنها سيدتنا دليلة زوجة سيدنا صفوان، أتت لرؤيتك يا ابنتي).

التفاتة من دليلة ناحية الشباك لتراقب أم غنيمة وهي تكسر بفأس صغير بعض جذوع الأشجار اليابسة المتروكة لتستخدمها كحطب، فهذا ما أخبرتها به تلك المرأة الصابرة قبل أن تتركها برفقة ابنتها غنيمة، ما زالت عينا دليلة تتبعان حركة المرأة وهي تكسر الجذوع بهمّة الرجال، بل إن دليلة تتحين الفرص كي تمعن النظر في وجه الفلاحة السمراء وتقرأ تعابيره، فترى ما خلف ذاك الصمت والصبر من صمود وقوة، تنقبض يدا دليلة وتتسارع أنفاسها من شدة التأثر لما تراه وتقرأه، تكلم دليلة نفسها في سرها: «يا لها من امرأة تنظف وتطبخ وتكسر جذوع الأشجار لتخبز وهي تواجه كل ما يحدث بحياتها وحياة عائلتها بصمود وصبر، أقسوة المعيشة وضيق الحال يعلّمان الصلابة

هكذا أم هي نعمة لا يحظى بها كل البشر؟ من أين لها هذا الثبات؟ من أين؟».

وجدت دليلة تكلم نفسها في غنيمة دون أن تشعر وعيناها لا تفارقان النظر إلى أم غنيمة عبر الشباك: «انظري لأمك يا غنيمة واستمدي منها القوة ما استطعتِ، إنها عطيّة من الله لتكون معك وتستر جرحك وتلمك إلى صدرها في ضعفك».

دمعت عينا دليلة دون أن تشعر وهي تضيف بحرقة: «أنت لستِ وحدك، فهناك من يطلب ثأرك من معدوم النخوة والغيرة، هناك من يسند ظهرك مهما كان ضعيف الحيلة، أنت.. لستِ.. وحدك».

سالت دمعة على خد دليلة، تتذكر ليلة زفافها على مروان، كانت.. لوحدها وحدها تماماً، سلمها أبوها بيده إلى مغتصبها على صوت طبول العرس، أمها تزغرد مع النسوة لتغطي على صرخاتها وهي تُذبح على فرشة مروان، ثم علت الزغاريد ومروان يخرج إليهم بخرقة عفّتها التي انتهكها، كانت.. لوحدها، تقاوم، لعشر سنوات رفضت بشراسة أن يدسّوا في رأسها عنوة إنها (زوجة مروان)، كانت تقاوم الفكرة حتى دون أن يدسوها لا أحد يعلم أكثر منها كم أن الاعتياد يخدع النفس بالقبول ثم يستدرجه لخدر الرضا، فكانت وحدها وهي تمعن برفض مروان كي لا تنسى أنه (ليس بزوجها)، إنها لم تقل (نعم)، إنها ماتت مع موت صفوان (المُفترض) فلن يستطيعوا انتزاع المزيد منها،

كانت.. لوحدها، وحدها تماماً.. صائمة عن الدنيا بكل من فيها.

«ربما لم يهتك عرضي لكنه هتك ستري، كسر ظهر أبي، وفجع نحر أمي»».

تنبهت دليلة من شرودها على صوت غنيمة المجروح، رفعت يدها لتمسح دمعتها وهي تقول لغنيمة: «ظهر أبيك بقوتكِ يتجبّر، ونحر أمك بشموخكِ يتصبّر، من هتك سترك لم ينتصر، فإرادة الله كانت فوق إرادته»».

أجهشت غنيمة بالبكاء، لكنها لم تكشف وجهها حتى اللحظة، رفعت دليلة يدها لتضعها فوق رأس غنيمة ثم أخذت تقرأ عليها ما تحفظه من القرآن حتى غفت الفتاة، عيناها لمحتا صفوان من شباك الغرفة يمر بأم غنيمة وهو يلقي السلام ثم يكمل الطريق باتجاه الحظيرة الخلفية، شعاع المغيب يلفه بالقوة وراية الثأر من الظلم، فأتاها إحساس غريب أنهم جميعاً أقوياء به هي وعبد الواحد وأم غنيمة وحتى غنيمة، شرد ذهن دليلة نحو زجاجة عطر العود، زجاجة صغيرة لا يتعد طولها سلاميتيّ إصبع ما زالت في جيب صفوان بعد كل هذه السنوات، مجرد زجاجة أصابتها بمقت لشوشتها أكثر بعد ما حصل بينها وبين صفوان، فورة وثورة جاشت في جسدها اللحظة وهي تتذكر تفاصيل صفوان معها، منذ عرفته طفلاً وحتى انتهت بين ذراعيه يتبادلان بعطش أحر الغرام، رحلة طويلة انتهت وبدأت من جديد على فرشته، كيف تآلفت هكذا مع

جسده وكأنها تعرفه أيكون الوصال الروحي بينهما شفافاً وقوياً لهذه الدرجة؟ أيمكن للجسد أن يترجم الوصال بسلاسة ودقة يعجز عن وصفها الحكماء؟!

رفعت يدا مرتعشة لتلمس عنقها، اغمضت عينيها وذكرى أنفاس صفوان اللاهثة ما زالت عالقة هناك، غزل حميمي للغاية لم تسمعه منه قط، غزل اعتصر قلبها ليتدفق النبض منه كشلال هادر، كانت المرة الأولى على الإطلاق التي تتشارك فيها مشاعر جسد، عندما انهارا معاً لم تكن تفكر، بل تشعر فقط، مشاعر لا تحصى كانت بمنتهى القوة لتُقصي العقل عن التفسير والتفكير، لكن بعد دخول صفوان الحمام وتراجع مشاعر الغضب والانتقام، شعرت دليلة بالتشوش بوصلة جسدها كانت لا تستقر على اتجاه لتهتدي، وكيف لا تتشوش وهي سلمت نفسها لصفوان، **امرأة.. عذراء.. وبجسد منتهك.**

تطبق أجفانها بقوة وكأنها تقاوم، لكنها لا تعرف ما تقاومه بالضبط إنها فقط مشوشة والرؤية غير واضحة، كانت نصف عمياء وأصابعها دون إرادتها تتشبث بعباءة صفوان.

***

حظيرة دار إبراهيم الضاري

يجلس عبد الواحد فوق القش وعيناه جامدتان، غارق في التفكير وملامح وجهه كأنها قُدّت من الصخر، سأله

صفوان وهو يلملم عباءته حوله: «أما زلت في الحظيرة؟ لقد غابت الشمس والجو بارد هنا».

رد عبد الواحد وهو على نفس النظرة: «البرد أتحمله يا سيدي، لكني لا أتحمل النظر لكسرة ابنتي».

اقترب صفوان منه وقال بترقق: «ولم يدخل الزاد جوفك طوال اليوم أيها الرجل الطيب».

الضيم خط تعابير وجه عبد الواحد وهو يرد: «زادي هو القصاص العادل».

ثم نظر لصفوان وأضاف بقهر: «إن حصل لي شيء فابنتي أمانة بعنقك، بتّ لا آأمن عليها وأنا معها وبين أهلي وناسي».

لم يحتمل صفوان لتتقبض يده ويرفعها بانفعال هادراً: «أعطني الإذن وأنا بأمر الله وبيدي هذه سأقتص لك ولها».

نظرة غريبة انبعثت من عيني عبد الواحد نحو صفوان ثم قال: «لا تستطيع يا ابن سيدي، لأن الحكم ليس بيدك».

اتسعت عينا صفوان قليلاً وهو يستوعب مقصد عبد الواحد الذي أضاف: «كل ما تستطيع فعله أنك حميتنا بين جدران دار أبيك، لكن ماذا ستفعل لباقي عشيرة الضاري؟ هل ستأويهم كلهم عندك هنا؟ هل ستنفق كل مالك وحلالك على الفقراء؟ وماذا بعدها؟ سينفد المال

ويعربد السلطان ويطالك الظلم مثلنا أو يزيد».

فار الدم في عروق صفوان ليقول: «سأكلم الشيخ حمدان بنفسي وأطلب منه..». قاطعه عبد الواحد ليقول بنفس النظرة: «الشيخ حمدان لا يأبه بأحد ولن يحكم بالحق ولن يأخذ القصاص من الحسيس، وما هي إلا أيام أو أسابيع وسينتزعها منه ذياب».

يعقد صفوان حاجبيه وهو يتساءل: «ينتزع ماذا؟».

وقف عبد الواحد على قدميه ليفسر مقصده بصراحة صادمة: «ينتزع مشيخة الضاري كما انتزعها الشيخ حمدان من أخيه الأكبر حامد رحمة الله عليه».

كانت مفاجأة لصفوان وهو يسمع هذا الكلام الخطير من فم عبد الواحد، وبينما هو يفكر بما حصل بين ابنيّ عمه في غيابه أضاف عبد الواحد: «وكما انتزع جده المشيخة من جد ذياب، إنه ثأرهم القديم، وما قام النزاع العشائري قبل أشهر إلا بمؤامرات حاكوها في الخفاء ذياب وأخويه مع خونة وأنجاس مثلهم من عشيرة الأسدي».

تحولت مفاجأة صفوان اللحظة إلى صدمة، لم تكن صدمة مما يسمع تحديداً لكنها الصدمة أن يعرفها البسطاء في القرية أيضاً، قال عبد الواحد عندها: «لا تنصدم هكذا يا ابن سيدي، قد نكون بسطاء ولا نتدخل في أموركم لكننا نرفع أعيننا إليكم نراقب أحوالكم ونترقب الحاكم العادل منكم، وقد طال حكم الظالم حتى شاع الظلم في كل دار

من عشيرة الضاري، وبات الناس يأكلون بعضهم بعضاً، فأهلُ الدار على ملّة ربهم، إلا من رحم ربُّ العالمين».

خرس لسان صفوان، وماذا يرد؟ لقد صدق الرجل، اجتمعت تعابير القهر على وجه عبد الواحد وهو يقول: «خذها من فم رجل فلاح بسيط مثلي لا يقرأ ولا يكتب، إن واتتك الفرصة فانتصر للمظلومين بـ(حاكم عادل)».

ثم تحرك نحو حماره المربوط ليضيف: «إن لم تفعل يا ابن سيدي سيجرفنا الهلاك ولن تقوم لعشيرة الضاري قائمة».

تجهم وجه صفوان والقلق على عشيرته وحقوق الناس يشغله حتى عن نفسه، ثم قرر الذهاب إلى شيخ الشيوخ في التو واللحظة، وقبل أن يستدير ليغادر أنذره عبد الواحد بالقول: «واحذر بالله عليك، احذر ولا تغفل، الكل يتربص بك وأنت وحيد دون عزوة رجال يتبعونك ويأتمرون بأمرك».

ليقول صفوان بثقة: «عزوتي رب الخلق أجمعين».

لكن عبد الواحد رد عليه بالقول: «ونعم بالله، لكن المولى قال اسعوا في الأسباب».

***

دار مروان الضاري

ترتقي دنانير درجات السلم بخفة وهي تحمل صينية طعام أعدتها بنفسها، تبتسم وتسرح بخيالها في ليلة مميزة تنوي

قضاءها مع الغجري ابن الشيوخ الذي ملكته، ترتعش إثارة، حباس جيد في السرير والمعاشرة، لكن مروان مختلف، يعجبها أكثر كرجل وشعورها بالسيطرة الكاملة عليه يزيد من تلك الإثارة، دون أن تشعر وجدت نفسها قد وصلت باب غرفتها مع مروان، فترتعش ابتسامتها ويخفق قلبها وهي تشعر بإحساس متجدد لا يضاهى وشوق موجع لذيذ كي تفترس رجولته الثرية.

حالما فتحت باب الغرفة شعرت بكف غيور يحط على خصرها، استدارت عابسة وهي تنظر إلى حباس خلفها تقول له: «أجفلتني ماذا تفعل خلفي دون أن أشعر بخطواتك؟».

عيناه تشتعلان بالغيرة وهو يسأل بنبرة لم تسمعها في صوته من قبل: «هل ستنامين الآن؟».

كانت ثابتة وهي تبادله النظر، تدرسه عن كثب وتحسب حساباتها، نبرة صوته ونظرة عينيه فيها شيء يقلقها، قالت بنبرة صارمة: «لقد أمرتك ألا تصعد إلى هنا». بدا معذباً أمامها وهو يهمس باعتراض: «لكن..».

قاطعته وعيناها تبرقان بالغضب: «ليس هناك (لكن)».

كفه لم يترك خصرها، بل يضغط أكثر وهو يقول بنبرة توسل وتظلم: «ظننت أن..». قاطعته مجدداً وهي تبعد كفه عن خصرها بيدها الحرة: «عد إلى غرفتك في الأسفل ولا تعيد الكرّة».

قاوم للحظات إفلاتها لكنه خضع فتراجعت دنانير للخلف كي تدخل الغرفة وتترك حباس عند عتبة الباب، بحقد مسموم تطلع حباس إلى مروان المستلقي على السرير وعيناه تحدقان في السقف، كان يثرثر بخفوت مع نفسه ويضحك أحياناً، سأل حباس وهو يشير برأسه ناحية مروان: «أستطعمينه بنفسك؟»».

بمراوغة ذكية ردت دنانير وهي تتحرك لتضع الصينية على منضدة جوار السرير: «لأني لا أريده أن يموت الآن، الوقت مبكر لهذا وقد أحتاج وجوده حيّاً».

لكن حباس اللحظة لم يكن يهتم لتبريرات وخطط دنانير ليهتف بثورة: «إنه فاقد للعقل ولا يشعر كرجل».

بنبرة خاصة تستخدمها كي تخضعه، ردت بوقاحة: «أنا الحكم هنا، لا أنت يا حباس، أليس كذلك؟»».

نبرتها كان لها بعض التأثير القديم المعتاد عليه ليقول بتظلم الضعيف: «ماذا لديه هذا المجنون لترغبي فيه أكثر مني؟»».

خطت نحوه وهي تنظر في عينيه، تكاد تشعر بلهاثه لهذا الاقتراب، وقفت عند الباب وقالت له بصوت مغوٍ تتصنع التأثر هي الأخرى كي تخدعه: «سآتيك في الصباح، أرهقتني كثيراً اليوم»».

لهث بمناداتها: «سيدتي..»».

لهاث أنفاسه على وجهها أزعجها لكنها لم تظهر النفور

وهي ترفع يدها لتلامس خده وتقول بخفوت: «أجل هكذا، أحبك دوماً أن تتذكر أني (سيدتك)».

يلثم باطن كفها بهوس وهو يردد: «سيدتي.. دوماً سيدتي».

تركته يفعل بكفها ما يشاء، ككلب يلطع مالكه ينشد رضاه، ثم سحبت كفها بنعومة وهي تتمتم: «يكفي الآن، دعني أنم لأستعيد طاقتي من أجلك، أراك صباحاً يا حبّاس».

يهز رأسه موافقاً وهو يتمتم قبل أن تغلق الباب في وجهه: «سأنتظر الصباح بفارغ الصبر».

حالما أغلقت دنانير الباب بالمفتاح تجهم وجهها بالضيق والنفور، إنها لا تمانع إعطاء حباس المزيد من متعة الجسد لكن لا تحب الشعور أنها باتت مجبرة لاسترضائه والسيطرة على غيرته، وقعت عيناها على مروان فعاودها شعور اللهفة لتنال منه ما تنال، نسيت حبّاس تماماً اللحظة وهي تخلع رداءها الثقيل وتبقي على الثوب الرقيق تحته، ثم تتقدم من السرير وهي تنثر شعرها كما الغجر، فاللحظة هي لا تشعر إلا بدم الغجر يهتف في عروقها، تتسلق السرير إلى جواره وهي ترتعش، تميل إليه وهي تهمس بارتعاش متزايد: «سأطعمك فيما بعد، فأرني كم تستحق من طعامي يا ابن الشيوخ».

***

مجلس شيخ الشيوخ.. آخر المساء

يتدثر شيخ الشيوخ بعباءته أكثر بينما يستمع لقول صفوان الضاري وقد أفصح بشكل مباشر عن سبب زيارته الليلة: «أتيتك لأسألك عما حصل يا شيخ الشيوخ وتسبب بقيام النزاع العشائري قبل أشهر».

بوجهه المتجهم بطبيعته، وأجفانه المُرخية قليلاً قال الشيخ عبد الجبار: «أتريد الظاهر أم الباطن؟».

رد صفوان دون تردد: « كلاهما يا شيخ».

التمعت عينا الشيخ وهو يقول برضا: «أحسنت، فيجب أن تعلم سر كذب الظاهر لتفهم إبعاد الباطن».

ثم.. حكى له الشيخ كل ما جرى، كيف بدأ الخلاف بين عشيرة الضاري وعشيرة الجبلي بعد وفاة الشيخ محمد الضاري وخلافة ابنه الأصغر حمدان بدلاً من الأكبر حامد، ثم تلك الأيادي الخفية التي لعبت لتشعل النار بين العشيرتين، بل بين كل العشائر، خاصة بعد مقتل حامد الضاري الغامض وتهجّم حمدان ورجاله يرافقهم ذياب على الشيخ عبد الهادي الأسدي وأهل بيته، في كل ما رواه شيخ الشيوخ يجد صفوان اسم (ذياب واخوته) يتردد في الخلفية، نفس اللعبة يلعبونها منذ الصغر، كما خدعوه وأوقعوا به ليوهموه أنه قتل شقيق دلال فيهرب بذنبه من القرية، إنهم يجيدون قراءة نقاط الضعف واستخدامها بكل خسة ودناءة، ثم ينأون بأنفسهم بعيداً

عن الأعين، يختبئون خلف جبنهم، لقد كان يشك دوماً أنهم من يوغلون قلب جابر عليه كي يرفض زواجه من دلال، لم يكن جابر إلا صبياً في السادسة عشرة مدللاً ولا يملك رجاحة عقل، أعطاه والده أكبر من قدره بكثير وكان يستمع إليه في كل ما يقول، ولا يشك صفوان اللحظة أن ذياب ومروان استغلا الفتى كي يحققا غرضهما.

بينما هو غارق بأفكاره فاجأه شيخ الشيوخ بالسؤال: «أمَا آن الأوان يا صفوان؟». استعاد صفوان تركيزه ليسأل: «أوان لأي شيء؟».

نظرات الشيخ عبد الجبار كانت صريحة بالرد بينما اقتضبت كلماته بالقول: «لتأخذ دورك ومكانك».

صوت ريح الشتاء يذكر صفوان بعبد الواحد الذي أبى المبيت في بيت المضيف وأصر على افتراش أرضية الحظيرة، يخشى عليه ما هو أكثر من البرد، قال صفوان أخيراً: «مكاني مع الناس يا شيخ الشيوخ».

فيحاوره الشيخ عبد الجبار بمنطق قوي: «مكانك لتنهى عن المنكر وتأمر بالمعروف».

ليرد عليه صفوان: «وأنا أفعل هذا ما استطعت إليه سبيلاً».

يعبس الشيخ فيتجهم وجهه أكثر ثم يرفع سبابته نحو صفوان ليواجهه بالمزيد: «وأن تقيم القصاص وتحق الحق، كما كان يفعل عمك الشيخ محمد الضاري رحمة الله عليه،

وهذا يحتاج للسلطة».

انكشف المعنى ولم يعد له ساتر، فشيخ الشيوخ يطالبه لكنه ليس بقادر، قالها صفوان صريحة: «ثقيلة عليّ يا شيخ، وأنا زاهد فيها».

صوت شيخ الشيوخ جاء قوياً وهو يقول له: «لولا أني عرفتك عن قرب منذ عودتك من الغربة ولمست فيك الشجاعة والقوة، لقلت إنك جبان».

تتزلزل قناعة صفوان فيصارح الشيخ عبد الجبار بمخاوفه: «ما تطالبني به يا شيخ سيثير الفتنة».

فيرد الشيخ عليه: «بل أنت تئدها قبل أن تكبر وتخرج عن سيطرتنا».

يصمت صفوان وهو يشعر أنه بات بين نارين، فيضيف الشيخ لينهي الكلام فلم يعد هناك ما يقال: «أنت لها يا ابن إبراهيم، **وُلِدتَ بها بالفطرة، وتسري في دمائك فخذ مني العبرة، عشيرة الضاري تحتاج إليك، وأنت أعلم بما بات مُحتّماً عليك».**

***

دار ضرغام الأسدي

أمام بوابة الدار المفتوحة تعبق رائحة القهوة العربية في الأجواء الباردة وهي تفوح من الدلّة النحاسية فوق نار الحطب، على سجادة حمراء يفترشها ضرغام على الأرض

قبالة النار، يتشارك الجلسة الهادئة مع حيدر الأسدي، الجو شديد البرودة لكنهما يتدثران كلٌّ بعباءته الصوفية ويستدفئان بنار الحطب، يمدّ ضرغام يده كي يصب بعض القهوة لحيدر في أحد الفناجين البيضاء المنقوشة بزخارف حمراء وذهبية، ثم يصب المزيد لنفسه في فنجان مشابه، حيدر شبه مستلق على جانب جسده، وذراعه الأيسر مطوية عند المرفق بزاوية قائمة على الأرض كي تسنده، بينما ضرغام يجلس متربعاً وبظهر منتصب ويحتسي القهوة في هدوء، عيناه مضيئتان، عميقتا التفكير، وابتسامته تراوغ شفتيه فيؤنبها كي تخجل وترتدع، ينظر إلى داره فيباغته شوق رفع يده الحرة إلى وجهه وبحركة شاردة كان يجمع أصابعه ليمرّرها فوق لحيته الكثيفة، وجه سُلافة يتخايل له وكأنه يبصره اللحظة، فيكتم آهة توقٍ في جوفه وحشاه، أنهى قهوته ووضع فنجانه جانباً وهو لا زال ينظر إلى داره

داري كساكنِها، تتوقُ للوليف والونيس

صومُ السنين أزفَ عيدُه، فأشعلَ الفوانيس

صدره يهدر بالنبض، وذكرى كلماتها الصريحة المباشرة تهزه في العمق (**«فكرة جعلتني أسهر طوال الليل وحتى الفجر، ووصلت لنتيجة واحدة، لا يمكن لرجل أن يقول كلامك ويفعل مع امرأة أفعالك ويُسأل عن ماضيه مع امرأة أخرى»**).

ما خاب قلبه حين اختار، ولطلبه الحلال لم يحتار.

طوال ساعات اليوم وهو يستعيد كلماتها في رأسه، يعجب من هذا الرزق الذي أفطر عليه وهو زاهد في الطعام سبحان من أتى بها من عقر دارها ومنبتها لتنبت في طريق إلى عقر داره، كيف جعلت إحساس الخيانة أن يتصالح مع الوفاء بسلاسة عجيبة؟ كيف أعانته على نفسه وكانت وجه السعد والبشارة كي يجد المزيونة ويقيم عزاءها ويكرمها في مثواها الأخير، قبل مغيب الشمس زار قبر مزنة، فسيلتها لا زالت تقاوم البرد، قرأ القرآن وأشعل الشموع وبعض البخور كما تفعل النسوة لأحبابهن المفارقين تحت التراب، لم يكن لمزنة غيره كي يمنحها كل هذا، وسيظل يفعلها حتى الممات.

«السلام عليكم».

تنبه ضرغام من أفكاره على صوت ضفوان الضاري وحوافر حصانه الأشهب، فوقف على قدميه احتراماً كما فعل حيدر وهو يرد السلام قائلاً: «وعليكم السلام ورحمة الله، تفضل يا ابن الأكرمين، شاركنا القهوة».

رفع صفوان كفه إلى صدره في حركة شكر وهو يعتذر عن قبول الدعوة بالقول: «أنعم الله من الأجاويد، في وقت آخر بإذن الله».

ثم ألقى السلام وأكمل طريقه على صهوة حصانه، حيدر وضرغام يعاودان الجلوس وهما ينظران باتجاه ابتعاد صفوان عنهما فيقول حيدر أولاً: «يبدو مهموماً».

فيتمتم ضرغام: «أعانه الله على حمله الثقيل».

يتساءل حيدر بعبوس: «ماذا يحصل في عشيرة الضاري؟».

فيرد ضرغام وهو يصب له القهوة: «كنا نترقب القادم بحذر».

يتربع حيدر وهو يأخذ الفنجان من ضرغام ثم يسأل بجدية: «ماذا قال عمي الشيخ عمران؟».

يرد ضرغام بتفكير: «يرى صفوان الأنسب بالطبع، لكن المشكلة أن صفوان ذاته لا يرى نفسه فيها».

بعبوس أشد وانفعال تلقائي قال حيدر باندفاع: «لا أفهم هذا الرجل لو كنت مكانه لأفرغت رصاصات مسدسي في رأس ذياب قبل حمدان، أنظف عشيرة الضاري من كل الجبناء والأنجاس».

بهدوء عميق قال ضرغام: «هذا تهور لا ينفع الناس، الشيوخ أفعالهم تختلف، وصفوان الضاري شيخ بالفطرة يا حيدر».

فجأة تبسم حيدر ليقول بانشراح: «ناديني أبا حسين».

يرخي ضرغام أجفانه وهو يتبسم قائلاً وقد فهم (البشارة): «مبارك يا أبا حسين».

بأريحية خاصة يقول حيدر: «وهج الطيب غاضبة مني بسبب حملها، تخشى التعطل عن دراستها».

يصمت ضرغام ولا يعقب، إنه يستمع على الدوام، لكن الكلمات منه يزنها بمعايير الذهب قبل أن ينطقها، ساد صمت جديد قطعه حيدر بالقول: «الشيخ عبد الهادي لم يعد يجالسنا كما السابق، ألا تظن هذا؟».

ارتفع صوت قادم من جانب سور دار ضرغام: «من قال هذا يا ابن عمي؟».

يقف الاثنان ليرحب ضرغام بالقادم: «مرحباً يا شيخ».

ثم يعاودان الجلوس بعد أن جلس الشيخ عبد الهادي فيصب له ضرغام القهوة وحالما قدمها له شاكسه الشيخ بالقول: «ألم يصلك الرد؟».

قبل أن يرد ضرغام كان حيدر يتساءل: «رد ماذا؟».

لكن ضرغام يرد على سؤال الشيخ بابتسامة صغيرة تكاد تكون مخفية: «ننتظر موعداً تحدده (عشيرتها)».

يرتفع حاجبا الشيخ وهو يتساءل بدهشة: «عشيرتها؟».

أمّا حيدر فينقل نظراته بين الاثنين ويسأل ببعض الغيظ لجهله: «عمّ تتكلمان؟».

لكن ضرغام يرد على سؤال الشيخ فقط بنفس الابتسامة وهو يرخي أجفانه: «خالتها وابنة خالتها، قالت (هما عشيرتي)».

انفجر عبد الهادي ضاحكاً بينما يعبس حيدر وهو

يطالب مُهدداً بالقول: «سأسكب القهوة فوق النار أن لم تخبراني بما يجري».

عينا الشيخ الضاحكتان لا تفارقان ضرغام وهو يرد على ابن عمه حيدر بالقول: «ضرغام طلب الحلال من الممرضة».

ارتفع حاجبا حيدر عالياً وهو يتساءل بدهشة وتخمين: «أي ممرضة؟ لا تقل لي تلك القادمة من العاصمة قبل بضعة أشهر؟».

يرد الشيخ قبل ضرغام: «أجل هي، أم الليث».

باندفاعه المعتاد يسأل حيدر وهو ينظر إلى ضرغام بفضول: «أجاد أنت؟ أبعد كل هذا الاعتكاف والصوم، تختار امرأة من العاصمة؟».

كفُّ الشيخ ارتفعت وهو يقول بنبرة قاطعة: «اسكت يا حيدر».

تمتم حيدر على مضض: «أمرك يا شيخ».

ثم ركز الشيخ مع رفيقه ضرغام ليقول له بدعم: «وأنت لك عشيرتك أيضاً يا أسديّ، فبلغنا بالموعد لنكون معك».

عندها تفاجأ الشيخ برد ضرغام وهو يقول ببعض الغموض: «عفواً منك يا شيخ، أود الذهاب أولاً لوحدي».

يضيق الشيخ عبد الهادي عينيه وهو ينظر لضرغام ثم

يسأله باختصار: «هل هناك مشاكل؟»».

ليأتيه رد ضرغام أكثر اختصاراً: «لست واثقاً».

فاكتفى الشيخ بالقول» «أطلعني أولاً بأول»».

لم يعد حيدر يحتمل حواراتهما المختصرة الغامضة ليقول بغيظ: «هل أنا دلّة القهوة هنا؟»».

فيضحك الشيخ بينما ضرغام يكتفي بالابتسام.

***

دار صفوان الضاري

(أنت غافل يا ابن سدرة.. غافل عمّن تكون، لا تعرف قيمة نفسك) كلمات العجوز عجمية رافقته طوال الطريق إلى داره، يفكر فيها على نحو مختلف مما فكر عندما سمعها منها لأول مرة، دخل الدار والظلام يعمّ الباحة الداخلية إلا من إضاءة في أعلى السلم، شعر بوجودها قبل أن يراها فتلوع قلبه وسط الهموم، رفع نظره إليها فوجدها تقف منتصف درجات السلم تستند بيدها على الدرابزين الخشبي، جميلة بهية مضيئة في ثوب فيروزي، تجمع شعرها كله للخلف فيبرز عنقها متلألئاً، ثارت الدماء في جسده تطالب بها وبحرارة وصلها مجدداً وقد ذاق معنى الوصل معها وتشبعت حواسه بمعرفتها كامرأة، لكن الروح أقوى والعين تبصر أن تشوشها ما زال حاضراً، فلن يعيد الكرّة مهما تألم وتوجع، صوت يوسوس في أذنه **(هل ستصبر على**

الجوع وأنت للتو أفطرت بتمرة؟ ألا تستجيب لجسدك وقد طال صيامه يا ابن سدرة؟ أتحرّم عليه الحلال اليوم وقد حرّمت عليه الحرام لسنوات، أتصبر على هذا العطش، وفي عقر دارك يجري نهر الفُرات).

أرخى البصر وضيمه يزداد، تتقدم خطواته من السلم وهو يلقي السلام ويسمع ردها الخافت فلا يتبين حالتها بوضوح، ارتقى عدة درجات وكاد أن يصل إليها عندما هبّت ريحها العطرة وهي تسأله بنبرة افتقدها لاثنتي عشرة عاماً: «أين كنت؟».

أغمض عينيه يسترجع رغماً عنه الماضي، دلال الصبية وهي تنتظره في أحد البساتين، كانت تقلق عليه إذا تأخر، لا يعلم لماذا كانت دائماً تقلق هكذا أترى قلبها كان يشعر بالفراق القادم؟! وكأنّ الأمس عاد، وبنفس النبرة القلقة التي باح بها صوتها اللحظة، لكن شتان ما بين حالهما بالأمس واليوم، تمتم بالرد وهو يقف قريباً لا تفصله إلا درجتان عنها: «في دار شيخ الشيوخ».

فيأتيه سؤالها الجدي: «هل حصل شيء؟».

بسلاسة غريبة ولغة مختصرة مفهومة بينهما منذ الطفولة كان يخبرها بحديثه مع الشيخ عبد الجبار، كفه الضخم ارتفع ليضرب به على الدرابزين بغضب ثم قال: «ماذا جرى لعشيرة الضاري يا دلال؟ أيعقل وفاة عمي محمد تشرذمهم هكذا؟».

هبطت درجة وهي تخفف عنه عفوياً بالقول: «الشيخ محمد رحمه الله ضعفت شوكته بالمرض منذ سنوات».

فرفع عينيه أخيراً لها ليقول هادراً: «وماذا عن ولديه؟ كيف يتنازل حامد هكذا عن المشيخة إلى حمدان؟ كيف يترك أحوال الناس في يد من لا يؤتمن عليها؟».

تبادله النظر وسحر الماضي يلفهما بحنين، وكأنه اشتاق إليهما معاً يتلاشى التشوش وهي تهبط درجة لتكون أقرب عفوياً ثم ترد عليه كأنها تواسيه: «حامد كان ضعيفاً للغاية يا صفوان، مسالماً أكثر مما يجب، وقد استسلم لسطوة أخيه الأصغر».

عيناه في عينيها بينما تسأله بصوت خافت مهتم: «هل ستفكر جدياً بما قاله الشيخ عبد الجبار؟ هل ستطالب بمشيخة الضاري؟».

عيناه هبطتا لشفتيها فجاعت روحه وثقلت أنفاسه في صدره، ثم فجأة ارتجف جسدها بقشعريرة فتمتمت بارتباك وهي تحاوط جسدها بذراعيها: «الشتاء قارص هذه السنة».

تلقائياً خلع عباءته ليلفها حول جسدها قائلاً بخفوت: «أنت ترتجفين برداً».

يدثرها بالعباءة بينما عيناها لا تفارقان وجهه، كأنها دون شعورها تبحث فيه عن ماضيها هي، دلال تبحث عن قوتها فيه وهذا يعذبه، ما زالت كفاه تمسكان بطارفي

العباءة وهو يقول لها برجفة توق: «أنت تعذبينني دون غزل انتقامك يا دلال».

تسأله وهي تدور في دواماتها بحثاً عن ركيزة تقف عليها: «هل حقاً احتفظت بالزجاجة كل تلك السنوات؟».

رد بتوجع حلو: «لم تفارقني ولم أفارقها، كنتِ معي دوماً تكلمينني وأكلمك».

جرح.. جرح أطل من عينيها وأطفأ صور الماضي البهيج وهي ترد بألم: «لكنك لم تكن معي تركت لي قبراً فقط يا صفوان، أرابط عنده وأتشبث بشاهده والكل ينهش، القريب من دمي قبل الغريب، كنتُ وحدي يا صفوان.. وحدي».

تراجعت بحركة حادة للخلف فتعثرت بالعباءة، لكن صفوان كان موجوداً اللحظة لم تكن وحدها، أمسكها بين ذراعيه ثم بصمت انحني ليحملها دون أن يتفوه بكلمة، لم يتكلم كلاهما وهو يرتقي بها درجات السلم صعوداً، تركها تتدثر به وتأنس قليلاً من وحشة السنين، دخل بها غرفتها ووضعها بنفسه على السرير فلم تتنازل عن عباءته وهي تلفها حولها وتغلق عينيها بصمت، مدّ يده وفك رباط شعرها ليحرره ثم يملس فوق خصله الداكنة وهو يهمس أخيراً: «نامي مرتاحة، قريرة العين يا دلال، أنا معك اليوم».

لم ترد عليه بينما هو ينسحب كي يغادر الغرفة وهمس اسمه على شفتيها (صفوان).

***

صباح اليوم التالي

يتلثم عبد الواحد بكوفيته البسيطة بينما يقبع منتظراً خلف إحدى الأشجار، يراقب بوابة دار خلفان الضاري، تمتم وهو يرى بضعة رجال يحرسون الدار: «**لن يطول الأمر ويخرج الجبان من جحره، أصل الرجولة في سلساله اشتكى من فقّرِه، صبراً يا ثأر، خنجرك متأهب في غِمده**».

يقولها ونظرات عينيه تكررها، يعيدها ويده تتشبث بالخنجر المخفي تحت ملابسه، ثم ينسحب دون أن يلمحه أحد وهو يردد: «لنا يوم آخر يا خلفان الأجرب أنا أعرف داءك مع النساء، لن تحتمل البقاء دونهن ولن تتجرأ على إحضار إحداهن حتى عقر دارك».

يعود إلى دار صفوان الضاري وصوت الطيور يسمعها وكأنها تسبّح لله، فيرفع رأسه للسماء ويشتكي: «يا أعظم الخالقين، اجبر بخاطر ابنتي كما تجبر بخاطر الطيور لتدلها على أعشاشها».

***

دار صفوان الضاري

خرجت دليلة إلى الباحة الخارجية من الدار وهي تنادي بنظرات حادة: «حنّة.. حنّة».

أتتها الصبية مهرولة من جانب الدار حيث (بيت

المضيف) تلبي نداءها بالقول: «أنا هنا سيدتي، كنت أساعد الخالة أم غنيمة في..».

قاطعتها دليلة وهي تقول بعينين تبرقان وخفقات قلبها تدوي في صدرها بانفعال: «اذهبي وابحثي لي عن أم اسماعيل، قولي لها أن تأتي في الحال».

تلف حنّة الوشاح جيداً حول رأسها وهي تأتمر بقول دليلة قائلة: «لن أعود إلا بها». ثم هرولت الصبية لتغادر عبر البوابة وعينا دليلة تشيعانها.

لقد استيقظت فجراً ورائحة العود ودفء العباءة يمنحها السلام، سلام لذيذ جعل قلبها يتسارع لتغمر أنفها في العباءة وإحساس الأنثى فيها يضطرب بالشوق رغماً عنها، ظلت هكذا قرابة نصف ساعة أو أقل، تنعم بعباءته وعطره كأنها في أحضانه، ثم غفت مرة أخرى، وكأن الأحلام تطاردها، تسرق منها (سلامها)، هذه المرة لم تحلم بمروان، بل حلمت بذاك اليوم الذي أتتها فيه أم إسماعيل، عاشت نفس المشاعر مجدداً، الجروح كلها تفتحت لتنزف، الألم.. آه من الألم لماذا كلهم يوجعونها؟!

استيقظت بصرخة مخنوقة، كانت تلهث وهي تدور بعينيها فيما حولها تبحث غريزياً عما يطفئ نار الوجع، وجدت اسم (أم إسماعيل) على فمها بينما تتذكر نفي صفوان أنه أرسل الخاطبة إليها يوماً، فلم تشعر دليلة بنفسها إلا وهي تهب من سريرها تتخلى عن دفء حماية عباءة صفوان

لتواجه الوجع بنفسها، لبست عباءتها ووشاحها ثم غادرت الغرفة بحثاً عن حنّة، لفّت دليلة ذراعيها حول جسدها والبرد يصل عظامها، تحدق في البوابة وهي تهمس: «لا تتأخري يا حنّة.. لا تتأخري».

في تلك اللحظة دخل عبد الواحد عبر البوابة فأرخى بصره احتراماً وهو يقترب من دليلة يلقي السلام في احترام، ثم قال: «أتحتاجين لشيء سيدتي؟».

عيناها تنظران إلى مكان سيارة صفوان الخالي فتشعر بإحساس أقرب لليتم تسأل عبد الواحد بخفوت: «متى خرج صفوان؟».

رد عبد الواحد: «قبل ثلاث ساعات، قال إن لديه أموراً ليقضيها قبل أن يذهب إلى أرضه الزراعية كي يعمل فيها».

نظرت لعبد الواحد تتساءل ببعض الدهشة: «يعمل فيها؟».

عينا عبد الواحد ترنوان ناحية بيت المضيف وهو يرد على دليلة ببعض الشرود: «إنه يشارك الفلاحين بالعمل، وهذا وقت البذار».

تقدمت منه وقلبها يتوجع، ولا تدري أتتوجع لأجله أكثر أم تتوجع لنفسها، سألته: «كيف هي غنيمة؟».

وكأنها أيقظته فرمش بعينيه وسطعت نظرة غريبة في عينيه ويده تتشبث بشيء مخفي بملابسه عند موضع حزامه،

قال بنبرة غير مفهومة: «ستكون قوية حين يعود حقها».

أخذ قلب دليلة يقرع في قلق غامض، هيئة غنيمة وهي تتستر بالسواد تمثلت لها اللحظة، فشعرت وكأن الصبية تنتظر من أبيها شيئاً، قالت دليلة بحدسها هذا: «ربما تحتاج ابنتك أن تكون قوية قبل هذا يا ابا غنيمة، دعها فقط تشعر أنك معها وراضٍ عنها».

يهز رأسه وهو يتمتم: «سأفعل إن شاء الله».

شعرت أنه ليس بجاد أو كأن أمراً آخر يشغله، ثم انسحب وهو يخطو مبتعداً ويقول: «بالإذن سيدتي، فسيدي صفوان طلب مني العناية بالأرض الخلفية الملحقة بالدار، كانت أرضاً غنية لكنها أُهملت لسنوات فأوشكت أن تبور».

التفتت دليلة ناحية البوابة تنتظر قدوم (أم إسماعيل) مع حنّة وهي تردد: «لن تبور يا عبد الواحد، أبداً لن تبور».

***

بعد نصف ساعة

بدت أم إسماعيل لاهثة وهي تهرول خلف الصبية حنّة تتبعها وهما تدخلان عبر بوابة الدار، رأت من مسافة وقفة دليلة في آخر الباحة الخارجية فترفع كفيها تداهن وتهلل وتزغرد: «مبارك يا سيدة دار شيوخ الضاري، مبارك يا بنت الأشراف».

كسا الجمود محيا دليلة دون أن ترد، تنتظر قدوم الخاطبة إليها مهرولة وخطواتها تتعثر بالحشية، شمخت دليلة بذقنها بينما تصل إليها أم إسماعيل أخيراً وهي تكمل دور الرياء والنفاق: «سيدتي وزوجة سيدي، اعذريني تأخرت بالقدوم والمباركة في دارك، كنتُ.. مريضة».

عينا دليلة لا يُسبر غورهما، رداءها الأسود يزيدها هيبة وهي تقارع ريح شتوية بدأت تهب وتجمع الغيوم لتتلبد السماء فتحيل النهار رمادياً، قال أخيراً بسؤال مباشر: «من الذي أرسلك يا أم إسماعيل؟».

بدت المرأة كبلهاء وهي تتطلع تارة لدليلة وتارة للصبية حنّة ثم ترد على السؤال بسؤال: «ألم ترسلي في طلبي سيدتي؟ خادمتك حنّة قالت لي إنك تريدينني في التو واللحظة».

لم تتحرك دليلة من موضعها عند باب الدار الداخلية بينما توضح للخاطبة ما التبس عليها من السؤال: «من الذي أرسلك إلى كيّ أختار عروساً لصفوان من بين الصبايا اللواتي كنت أعلمهن الغزل».

بهتت أم إسماعيل وبانت المصيبة على وجهها كانت فزعة مرتعبة وهي تتمتم: «سيدتي..».

برقت عينا دليلة بالتهديد فوقع قلب أم إسماعيل في هاوية الرعب فاستسلمت دون مراوغة وهي تتباكى وترتجف تطلب المسامحة: «السماح.. منك السماح.. كذبة صغيرة

وغير مقصودة».

لم تتأثر دليلة للحظة بما تعانيه أم إسماعيل اللحظة فتعيد السؤال باقتضاب شديد: «من.. أرسلك؟».

عينا أم إسماعيل تزوغان هنا وهناك بينما تشوح دليلة بيدها إلى حنّة كي تنصرف، وحالما اختفت الصبية اعترفت أم إسماعيل وهي تطرق برأسها: «لقد كان.. سيدي مروان».

اتسعت عينا دليلة وهي تردد الاسم البغيض: «مروان؟».

خشيت أم إسماعيل أن تتحمل الذنب كله فسارعت لتشرح وهي ترفع وجهها لدليلة: «رأيته يوماً في الطريق، سألني إن كان سيدي صفوان ما زال يبحث عن عروس فأخبرته (نعم)».

تلبدت ملامح دليلة بغضب عارم بينما تكمل أم إسماعيل سرد ما حصل على عجل: «ثم اقترح عليّ أن آتي إليك وأنك ستفرحين لاختيار عروس لسيدي صفوان لمكانته عندك».

أخذت تنهت وهي تضيف مدعية الضعف وقلة الحيلة: «أقسم بالله يا سيدتي كنت حسنة النية».

صدر دليلة يغلي لتسألها بخفوت خشن: «لماذا كذبتِ وقلتِ إنه صفوان من أرسلك؟». ترفع أم إسماعيل يدها لفمها وهي مرتعبة من حالة دليلة الضاري فصرخت بها

دليلة: «انطقي يا امرأة».

بارتجاف أخبرتها أم إسماعيل وهي تبتلع ريقها بصعوبة: «سيدي.. مروان.. هو الذي طلب مني إخبارك بهذا».

***

دار مروان الضاري.. ساعة الظهيرة

تراقبه دنانير بحذر خفيّ، أجفانها مُرخية بينما تدعوه بثقة للجلوس في مجلس الدار: «تفضل يا ذياب».

كانت تدرسه وتحاول تخمين سبب زيارته، لا تطمئن لما يُظهره نحوها مما يشبه الود قائلاً: «زادك الله من فضله».

جلست على إحدى الأرائك العربية الممتدة كديوان بينما يجلس ذياب قبالتها وهو يلملم عباءته حوله، هو أيضاً يراقب في خفية لا يريدها أن تشك فيه، لا يريد أن يبالغ بالتقرب دون حجة مقنعة، لكن كما عبّر الشيخ عبد الجبار (غرورها هو هاويتها)، رسم الجدية على وجهه وهو يسأل متصنعاً الحذر ببراءة: «أين حبّاس؟».

الدهشة أطلت على وجه دنانير تلقائية للغاية بينما ترد عليه: «خرج للسوق».

لقد كان يعلم أن حباس خرج للسوق، ثم أخرج هاتفه ليقرأ رسالة ناطق (إنه أمامي يشتري الدجاج)، إنه يعلم الآن تحديداً أين يقف حباس بالضبط، وضع ذياب هاتفه جواره وكأنها حركة عفوية ثم حنى رأسه وهو يمد يده

داخل عباءته ويقول بتمتمة مقصودة: «الحمد لله».

يشعر بفضولها وهذا جيد، ثم أخرج أول (الطعم) ليرميه إلى جشعها كي يصطاده قائلاً: «تفضلي.. هذا نصيب أخي مروان من تجارة الدواجن لهذا الشهر».

وضع ضبّة ملفوفة بالورق أمامه وهو في سره يتحسر على المال الذي ستأخذه هذه اللعينة؛ لكن كله يهون لينفذ الخطة، يرى عينيها تشعان بالانتصار وتغرقان بالجشع وهما تحدقان في الضبّة الكبيرة، لكنها تقاوم وهي تتمتم بصوت خافت مترفع: «شكراً لك».

كانت تلاعبه وتظن أنها بخلعها لرداء (السحارة الغجرية) تكون قد غيرت جلدها ومحت ماضيها القذر، أسرّها ذياب في نفسه بينما يدعي القلق بتصنع متقن قائلاً: «خبئيهم جيداً فالدار ليست بأمان».

رفعت نظراتها إليه على الفور وقد التقطت منه ما يحاول زرعه بصبر، إنه في الأصل فلاح، والفلاح الشاطر يعرف متى يبذر البذرة، تميل برأسها جانباً ثم تقول وكأنها تبحث عما يطيل الحوار لتكتشف ما يدور في خلد مُحدّثِها: «وكيف حالك يا ذياب؟».

رد وهو يرخي بصره باحترام (لا تستحقه): «بخير والحمد لله، كيف حالك أنت يا زوجة أخي».

يكاد يشعر بابتسامتها المستفزة وهي ترد عليه: «الحمد لله، الحمل فقط بدأ يتعبني».

يرد عليه بمزيد من نبرة الاحترام: «أعانك الله ويسر لك».

ثم رفع وجهه يرسم تعابير محددة فيظهر كرجل سلّم بالأمر الواقع: «أريد أن نبدأ صفحة جديدة، أنت الآن انتميت لعشيرة الضاري وولدك ابننا يحمل دماءنا، دماء شيوخ الضاري».

كانت أصعب خطوة يخطوها معها بينما هي تمعن فيه النظر تحاول الولوج لسريرته، فيضيف ذياب وهو يشير لرداء العباءة السوداء الذي باتت تلبسه: «أحييّ فيك خلعك لرداء الغجريات، فلديك ولد قادم يجب أن تفكري بسمعته».

علقت وهي ترفع يدها لبطنها: «ولدي هو كل ما يهمني، ولأجله سأفعل كل شيء».

قالتها وهي تعنيها، دنانير من جانبها كانت تريد كسب ذياب لأنها ستكسب العشيرة من خلاله، منذ البارحة وهي تفكر بالكثير حول حياتها القادمة، وضع حباس معها بات لا يطاق، كما أنها لا تريد أن تعتزل هنا مع رجل مجنون وآخر مهووس على الأقل بقاء مروان معها يفيد سمعتها كـ(زوجة وفية لابن الشيوخ) لكن حباس يعطلها عن الكثير، تريد الاختلاط بالناس والتقرب منهم، تريد تحسين صورتها أمامهم وتكسب تعاطفهم، تذكرت صباح اليوم وهي تشعر أنها مجبرة كي تنزل إلى حباس وتسمح لها بمعاشرتها، وهو لا يكتفي بالصباح بل يطاردها في أرجاء

الدار وبات يُظهر بعض العنف التملكيّ كلما ذكرت اسم مروان.

تنبهت من شرودها على كلام ذياب قائلاً بنبرة مقلقة بعض الشيء: «وما دمتِ قلتِ هذا فيجب أن أنبهك لأمر غاية بالأهمية والخطورة».

نظرت إليه وتشعر ببعض الحيرة من تصرفاته، تتوخى الحذر بينما تمنحه الطمأنينة كي يفصح فتقول: «تفضل، أنا أسمعك».

كلمة واحدة قالها بنبرة خاصة: «حباس..».

تعقد حاجبيها وهي تتساءل: «ما به حباس؟ لا تقل لي إنك تخشى أن يسرقني ألهذا كنت تسأل عنه وأنت تعطيني المال؟».

رد ونظراته تعبر عن أهمية شديدة: «نعم أنا أخشى أن يفعل بك هذا، فاستمعي لنصيحتي وخذي حذرك لأن المال يغير النفوس».

ثم صمت للحظة قبل أن يضيف: «لكن هناك أمر أهم من السرقة والمال، لم يعد من المناسب بقاء حباس معك في نفس الدار وزوجك معلول».

في مكان ما داخلها كان لجملته صدى طيب عليها مواجهة الأمر، إنها لم تعد تريد حباس حولها، خاصة أنها لم تعد تحتاجه في حياتها الجديدة ومخططاتها للمستقبل، لكنها لم

تتعجل إظهار تأييدها سريعاً فقالت تدّعي نبرة الدفاع: «إنه أخي بالرضاعة».

بدا ذياب محجوباً عنها فلم تتبين صدق نواياه وهو يقول: «أنا أعلم هذا، لكن الناس لا تصدق، وبدأ بعض اللغط هنا وهناك».

لم تعقّب دنانير بشيء تنتظر منه المزيد، فأضاف ذياب بمنطق مقنع في ظاهره: «وضعك اليوم مختلف عما كنتِ عليه بالأمس، فسابقاً لم يكن أحد يهتم للكلام عن.. أخيك بالرضاعة «

في الواقع كان مقنعاً للغاية فالمرء يميل للاقتناع بما يرضي هوى النفس، وهوى نفس دنانير يميل للتخلص من حباس وهوسه وفي ذات الوقت فذياب معه حق فيما قاله، سواء صدق بحسن النية أم كذب، ما زالت دنانير صامتة تفكر بينما تصل رسالة إلى ذياب عبر الهاتف، فيفتحها ذياب ليجد ناطق قد أرسل له (أظنه أكمل التسوق يا سيدي، لا نتأخر بالخروج لأكثر من ربع ساعة).

وضع ذياب الهاتف في جيبه هذه المرة ثم وقف على قدميه ينوي الرحيل فلا يريد المجازفة بلقاء حبّاس وإثارة شكوكه، ليقول ذياب أخيراً بنبرة فخر يغذي به غرورها ويعمي بصيرتها: «دعيه يغادر يا دنانير، أنت زوجة لابن شيوخ الضاري وولدك كأبيه سيكون ابن الشيوخ، ولا

نعلم ما يخبئه له المستقبل فعليك حمايته من الأقاويل وسوء السمعة».

ثم ألقى السلام وغادر بينما دنانير تحدق في الفراغ وتتفكر.

***

دار صفوان الضاري.. آخر الليل

دخل داره مجهد بدنياً وفكرياً، طوال النهار يعمل مع الفلاحين في الأرض، ثم شاركهم الطعام وحثّهم على الكلام معه دون قيود كي يعرف أحوالهم، في البداية تخوفوا وبتوجس ابتدأ بعضهم الشكوى، ثم اطمأنوا وتشجّع الباقون، ومع الطمأنينة تنفتح عقدة لسان الخائفين وتنجلي الحقائق، صدم صفوان وهو يعرف للمرة الأولى كيف يضع حمدان يده على الأراضي الزراعية الصغيرة ويجبر أصحابها على البيع بأثمان بخسة، عدا فرضه قيوداً على استخدام مياه السقي المارة بأراضيه، ثم الأسوأ عندما أخبروه عن جباية أموال من البسطاء العامة لأسباب ما أنزل الله بها من سلطان، منذ تسلّم حمدان المشيخة وهذا هو الحال بل حتى قبلها في عهد أبيه (محمد الضاري) الذي كان طريح الفراش وابنه يعربد في أقوات الناس، لم تكن تلك العجوز الضريرة أول من يتعرض للقهر والظلم من رجال حمدان، ولن تكون الأخيرة، صفوان منذ عودته للقرية ومتابعته لأحوال الناس كان يظن أن حمدان مهمل

لرعيته فقط، وربما أيضا بخيل عليهم فلا يتصرف بكرم الشيوخ، حتى حادثة المرأة الضريرة ظنها مجرد حادث منفرد ولم يتصور أنه سلوك عام لـ(شيخ عشيرة الضاري).

يتحرك ناحية السلم وقلبه يهفو رغماً عنه لرؤية وجه دلال، قدماه ترتقيان درجات السلم وهو يعترف أنه غاب طوال اليوم وحتى هذه الساعة من الليل كي يبتعد عن دلال حتى لا تشوشه، على الأقل هي آمنة في داره، لكن الناس من عشيرة الضاري ليسوا آمنين حتى على أعراضهم في عقر دورهم، مرّ بغرفتها فرأى الباب مغلقاً ولا ضوء من تحت عقب الباب، تنهد بالهموم وهو يكمل طريقه إلى غرفته، تفاجأ عندما أوشك الوصول أن الباب مفتوحً والنور مُضاء فيها، دخل الغرفة وكفه عفوياً تغلق الباب خلفه حالما رأى دلال بجلباب أبيض بسيط تجلس على جانب سريره، لم تتحرك من مكانها بينما تحدق فيه بنظرة غريبة ثم تقول بهدوء غامض: «كنت انتظرك.. تأخرت».

يتقدم منها وقلبه ينبض اشتياقاً فيتشوش عن قراءتها بوضوح، قال وهو يصل عندها: «ذهبت لأزور قبر عمي محمد».

تطلعت إليه عالياً ثم قالت: «اجلس جواري، رقبتي ستتعب هكذا وحديثنا سيطول».

فعل ما طلبت لكنه خلع عباءته أولاً ووضعها جانباً ثم جلس جوارها، وقبل أن يسأل كانت هي المبادرة بالسؤال

الهادئ: «ذهبتَ إليه تشكو أمامه هموم العشيرة أم همّ نفسك يا صفوان؟».

تمتم وهو ينظر في عينيها الحبيبتين: «الاثنان معاً».

ثم رفع كفه الضخمة ليملس فوق شعرها المفرود على ظهرها ثم قال متسائلاً: «تبدين هادئة على نحو غريب، كيف قضيتِ يومك؟».

أغمضت عينيها تستسلم للمساته، يشعر بها تسترخي، بل تكاد تميل إلى صدره، لكن هناك أمر أهم يشغلها اللحظة عن التعاطي مع المشاعر، قالت وهي ما زالت تغمض عينيها: «استطعت أن أقنع غنيمة كي تغادر غرفتها وتشاركني شرب القهوة، لم نتكلم فيما حصل، بل تكلمنا عن الطفولة وشقاوتها».

لم يحتمل وهو يحتاجها كما تحتاجه، يلف ذراعيه حوله ليجرها إليه وينهل من شفتيها رحيق الجنة، لم تكن رافضة ولا مستسلمة، هناك أمر حصل ولا تخبره أبعد فمه عن فمها وهو يلهث، لم تفتح عينيها لكن شفتيها ترتجفان بطلب المزيد بأنوثة عفوية، يبتلع ريقه يحاول أن يفهم ما يحصل ليعلق على كلامها الأخير بالقول الرقيق: «الحمد لله أنها تحسنت، وجبر الله خاطرك كما تجبرين خاطرها، كنت أعلم أنك قادرة على مساعدتها».

فجأة فتحت عينيها بقوة لتحدق في عينيه وتطلب بقوة: «إذن اجبر خاطري أنت». يرفع كفه أمام وجهها ويقول:

«اطلبي روحي وسأسلمها بكفي هذه إليك».

ردت بصوت ثابت: «لا أريد روحك يا صفوان، بل أريد أن أعرف».

ينظر في عينيها باستفهام صامت لتقولها بنفس النبرة والنظرة: «لماذا تركت القرية قبل اثنتي عشر عاماً؟».

تجمّدت ثلّج جسده ودلال في حضنه، شعر كأنه يسير في الصحراء ليلاً وريح الشتاء تعصف به كأنها ريح للموت تقبضه، يكلّم نفسه في سره وهو يرتعد للمواجهة: «ما بالك يا صفوان أخبرها.. كنت تنتظر منها أن تسأل وتسمعك، أخبرها يا صفوان أم تخشى أنها لن تصدقك أم تراك تخشى أنها لن تسامح جبنك أمامها فتفقدها للأبد؟».

تسللت من بين ذراعيه لتواجهه بإصرار أقوى على المعرفة: «أخبرني عن ذاك الذنب، وما علاقة أخي جابر به؟ ».

لم يكن هناك خيار أمامه، قالها والكلمات شاقّة على لسانه: «ذنبي أني.. قتلته».

بدت متفاجئة وكأنها لم تتوقع الرد على الإطلاق، لتتساءل وهي متوجسة من هوية (المقتول): «قتلت.. من؟».

فأخبرها وهو يفتح أبواب الماضي ليعود من جديد إلى تلك الليلة التي غيرت حياته وحياة دلال للأبد: «أخوك..

جابر».

***

بعد يومين.. العاصمة.. عصراً

في غرفة استقبال، تتوسط نرمين الجلسة على إحدى الأرائك بين (العروس المضطربة ذات الضفيرة) من جهة اليسار وبين أمها التي اندمجت في حوار عجيب مع (العريس البدويّ) من جهة اليمين، تشفق نرمين على حال سلافة، فعيناها لم تفارقا باب الغرفة المفتوح، وتكاد تشعر برجفة خفيفة في جسدها تنتابها كل بضع دقائق، طرفت عينا نرمين نحو (العريس)، تعترف أنها لم تتخيله هكذا تصورت أنه أصغر عمراً وأبسط شخصية وأكثر انفتاحاً، لكن ضرغام الأسدي رجل من قلب القرية، منذ أن استقبلوه قبل قرابة الساعة وقد أشاع في المكان جواً عجيباً، ربما ملابسه البدوية أو هالة السكون حوله، أو ربما غض بصره بطريقة خاصة رجولية للغاية، أو ربما لأنها مختلفة عما اعتادت عليه من طريقة رجال العاصمة، لا تعرف نرمين بالضبط ما الذي يجعله (عجيباً) كل ما تعرفه أنها تفاجأت للغاية أن ترتبط سُلافة بهذا الرجل القادم من عصرٍ آخر على الأقل نرمين تراه هكذا.

رجفة جديدة انتابت سُلافة جعلت نرمين تميل إليها تحاول شغلها بأي شيء لتقول بهمس: «ما هذه الضفيرة؟ لماذا لم تسرحي شعرك؟».

لكن سُلافة بدت في وادٍ آخر وهي ترد على همس ابنة خالتها بهمس مرتعش: «هل سيظل.. في الغرفة طوال.. الوقت؟»».

تنهدت نرمين وهي تقول بخفوت: «كفاكِ تعذيباً لنفسك يا سلافة، سيتفهم عندما يكبر، كما قالت أمي»».

يرتعش همس سُلافة وهي تقول: «خالتي قالت إنه صمت عندما أخبرَتْه عن ضرغام، ثم دخل غرفته ولم يغادر الشقة كما توقعت هل كان.. مصدوماً أم مخذولاً أم..»».

تلاشى صوت سُلافة فتتنهد نرمين وهي تعبر عن رأيها: «أظنه كان غيوراً.. أو غاضباً.. لا أعرف يا سلافة»».

يد الخالة نوال امتدت خفية لتقرص ابنتها في فخذها فأجفلت نرمين لكنها اكتفت بالعبوس والامتثال لأمر أمها بـ(الصمت)، هذه طريقة أمها منذ الطفولة عندما تنزعج منها في حضور ضيوف، لا بد أن ثرثرتها الهامسة مع سُلافة أزعجتها، بابتسامة واسعة بشوشة عادت الخالة نوال بتركيزها إلى هذا الرجل الذي لم يرفع نظراته نحوهن لكنها تشعر به أنه قادر على رؤيتهن، منذ رأته على عتبة باب شقتها وقد أخذ بمجامع قلبها، شعرت بطمأنينة تستجلب الدموع لعينيها إنها امرأة لا يخيب إحساسها الأول بالبشر، وهذا الرجل مُذ وقعت عيناها عليه وشعرت أنه سيكون عوض سُلافة بعد كل ما رأته المسكينة خلال السنوات الماضية، قالت الخالة نوال بأريحية وانفتاح أكثر: «الدكتور

فراس شكر فيك كثيراً يا ضرغام».

فيرد ضرغام: «من طيب أصله وكرم أخلاقه، الدكتور من أفضل الرجال، وقفاته معنا لا تُنسى».

كان ضرغام يرد ويحاور لكن ذهنه مشدود مع إحساسه بتوتر سلافة، رغم أنها لا تجلس قريبة منه لكن طاقات جسدها مشعة للغاية وتصله بوضوح، لقد حان الوقت ليواجه مخاوفها وسبب توترها، إنها تطلب نجدته ليعينها حتى دون أن تشعر باستغاثتها، سأل ضرغام بهدوء: «هل ليث هنا يا حاجة؟».

شعر تلقائياً بارتفاع وتيرة التوتر لديهن، بينما ترد الحالة نوال بارتباك: «إنه.. إنه..».

رفع ضرغام رأسه ينظر ناحية الباب بحدس (البدوي) في نفس اللحظة التي جاء فيها صوت الفتى ليعلن بعدائية عن وجوده: «هنا».

يقف ضرغام بهدوء وهو يعدل من عباءته فوق كتفيه ليلقي التحية بنظرة مباشرة عميقة للفتى: «السلام عليكم يا ليث».

وقفت سُلافة دون شعورها وصدرها ينتفض بالأنفاس وهي تتمتم اسم ولدها وقدماها متسمرتان مكانهما، أما ليث فلا ينظر نحوها، بل يتجاهلها بعدائية كما يواجه ضرغام بعدائية وهو يتقدم وسط غرفة الاستقبال ودون أن يرد التحية سأله بنبرة سطعت بالوقاحة والاتهام: «ألست ذاك

الرجل الذي أتى معها إلى دار أبي قبل أشهر؟».

تستند الخالة نوال على ذراع ابنتها وهما تقومان معاً لتحاول التدخل بالقول الحازم: «ليث.. سلّم على عمك ضرغام أولاً».

لكن ليث كان شرساً وهو يتجاهل جدته نوال ليقول بوقاحة أشد، بل إهانة غير مباشرة لأمّه: «هل استطاعت إقناعكَ بالزواج منها؟».

تترنح سُلافة وجسدها كله يرتجف فتسارع نرمين لإسنادها بينما ضرغام صامت يمنح ليث الفرصة كي يواجه كل ما يشعره نحو أمه، مهما كان صعباً، فقط الخالة نوال حاولت احتواء وقاحته بالقول الصارم: «كفى تأدب يا ولد».

لكن الفتى المراهق كان ثائراً وهو يصرخ بعنف ويشوح بيده ناحية سُلافة: «هل حكت لك لماذا طلقها أبي؟ ربما لا تعرف التفاصيل المخزية والفضائح المقرفة».

هنا تدخلت نرمين لتهتف به في انفعال: «لا تتجاوز الأدب مع أمك أبداً، خاصة وأنت لا تعرف شيئاً أيها الغبي ليتها تسمع كلامي وتخبرك بالدليل».

يرد ليث بثورة أعنف وأشد: «لن أصدق أي شيء منها، هي وأبي كلاهما من نفس الطينة ويستحقان بعض».

شهقت نرمين من قسوة كلمات ليث بينما تحجرت

عينا سُلافة اللحظة وهي تنظر لولدها تكاد تكذّب أذنيها لما تسمعه من وحيدها، التزمت الصمت بذاك الجمود لكن دمها أخذ يغلي وزرقة عينيها شعتا بثورة كثورة ولدها، بل وأشد، الخالة نوال قالت أخيراً وهي تنظر إلى ليث بنظرة خيبة: «لقد ظننت أني ربيتك أفضل من هذا يا ليث، ظننت أني زرعت فيك طيب الخلق ونظافة القلب قبل اللسان».

ارتبكت ثورة ليث ودمعت عيناه قهراً وهو ينظر إلى جدته، يزمّ شفتيه بمقاومة ثم ينقل نظراته إلى الرجل البدوي قائلاً بانفعال منفلت وهو يشير إلى أمه: «إنها تخدعك.. لم تخبرك الحقيقة أنا واثق الناس كلهم شهدوا عليها، لو أخبرتك بكل شيء لما رغبتَ بها زوجة».

كان صدر الفتى يرتفع ويهبط بقوة، من يراه عن كثب يشفق عليه فيما يعانيه ساد صمت مشحون للحظات قبل أن يقرر ضرغام التكلم أخيراً فقال وعيناه تسبران أعماق الفتى: «**أنا سمعتُ منها وأنصت، ثم بالمنطق تدبرت، نظرت إليها وأمعنت، وعلى الحقيقة صبرت، الحياة علمتني التأني، علمتني ألا أتسرع في الحكم لما تراه العين أو تسمعه الأذن، فالعين قد تخدع بصيرتك والأذن بالكلمات قد تضللك**».

التفتت نرمين بقوة ناحية ضرغام تحدق فيه مذهولة، لم تستطع إزاحة عينيها عنه وكل ما في هذا الرجل العجيب يبهرها، تكاد تشعر بتأثيره عليهم جميعاً، أيعقل أنه مجرد رجل قرويّ بسيط الحال؟ كلماته تتردد كالسحر في عقلها

فتجد نفسها تعيد الإمعان بالمقاصد عفوياً، الآن فهمت فقط سر تعلق سُلافة به، ما زال ضرغام يقف مكانه يتبادل النظرات مع الفتى كأنه يتأكد من استيعابه لما قال، يعترف في داخله أنه معجب بذاك الذكاء الذي يطلُّ من عينيه الشبيهتين بعيني أمه، لها حقٌ صاحبة التاء الفخر بولدها الليث؛ لكن لغة الجسد لا تخطئ، الفتى لا يريد التصديق، إنه مشوش لأبعد حد، خائف من التفكير ببراءة أمه من عدمها، قال ضرغام بنبرة حسم: «أمك خيرة النساء، رحم الله من أنجبها ورباها، وانظر حولك لمنبتها في هذه الدار واستفتِ قلبك يا ولدي».

تجددت الثورة في عيني الليث وكأنها في نزاعها الأخير ليقول بنبرة مختنقة: «خذها.. تزوجها وأبعدها عني.. أنا.. لا أريدها.. آآه».

لم يشعر أحد هم بتقدم سُلافة السريع من ولدها وصفعها له على خده ثم قالت بنبرة قوية: «أنا التي لا أريدك».

رفع ليث عينيه لأمه مصدوماً فلم تصفعه يوماً في حياتها بينما تضيف سُلافة بثبات رغم ارتجاف جسدها: «هل تعلم أني أوشكت الموت وأنا ألدُك فليتني متُّ يا ليث ولم أرَ هذا اليوم».

تتجمع الدموع في عينيّ صغيرها لكنها لم تستسلم أو تضعف أمامه، بل تكيل له المزيد وهي ترفع يدها لتمسك بقلادتها التي تحمل صورته: «لقد فعلت المستحيل وعانيت

الكثير، فقدتك وفقدت عملي وسمعتي ظلماً وبهتاناً، خانني الجميع ولم يقف معي أحد، أعيش وحدي في قرية بعيدة عنكم وتحمّلت وصمت لأجلك أنت فقط توسلت إليك مراراً كي تستمع إلي لكنك اخترت الاستماع لمن يتهمون أمك في عرضها وشرفها، ثم تأتي اليوم وشاربك للتو يخطّ فوق فمك كي تتهمني أنت أيضاً في عرضي؟».

ترتجف شفتا ليث كأنه يوشك على الانفجار في البكاء لكن عيناه لا تنكسران رغم الدموع فيهما، فيحدق في عيني أمه وتختلط مشاعره ما بين الغضب والخذلان والاتهام و.. الحنين والغيرة عليها من رجل سيأخذها منه إلى الأبد كان مشوشاً للغاية موجوعاً في الصميم، قالت سُلافة أخيراً بحزم وهي تخنق رغبتها بالبكاء: «خالتي نوال محقّة، أنت لم تعد طفلاً يا ليث، وعليك التفكير ملياً بما يحصل حولك، هذا قدرك أن تمر باكراً بكل هذا كما هو قدري لن أستطيع منحك أكثر مما وفّرته لك وضحيت به لأجل أن تعيش حياة طبيعية».

التفتت إلى ضرغام تبحث فيه عن القوة فيمنحها نظرة ملهمة وإيماءة بسيطة للغاية من رأسه، أعانها بشكل لا يمكن حتى أن تصفه لنفسها، تشابكت أصابع كفيها وهي تقول لابنها باختناق: «أنا سأتزوج ضرغام يوم الخميس القادم، عنواني الجديد سأكتبه لنرمين أن فكرت يوماً بزيارتي في دار زوجي في قرية الشيوخ».

تمتمت نرمين وهي تمسك بذراع ابنة خالتها: «سُلافة

لحظة فقط، دعينا..».

قاطعتها سُلافة قائلة بقرار: «لا تقولي كلمة يا نرمين، انتهى الأمر، أنا لم أعد أحتمل».

عادت لتنظر إلى ولدها وللحظة تكاد تنهار من رؤية حالته المزرية لكنها تجلّد لتكمل الطريق قائلة بنبرة قوية شجاعة: «سأقولها لآخر مرة في حياتي، أنا بريئة من كل التهم التي رموها عليّ بشهادات زور ولطخوا بها بياض صفحتي، لم أهتم بأي إنسان أن يصدقني إلا أنت يا ليث».

ساد صمت غريب، فتنظر سُلافة إلى عيني ضرغام لتجد فيهما صدى لعنفوانها وكرامتها، شعرت أنها فعلت الصحيح اللحظة، فربما.. ربما فقط ستجعل ولدها يعيد التفكير، قالت أخيراً لليث دون أن تنظر إليه: «سعيدة أن حضور ضرغام اليوم جعلك تتواجد وتواجه كرجل كما ربيتك، هذا أن كنت تتذكر أني ربيتك يوماً».

كانت تشعر أنها ستنهار بالبكاء فتحركت تشغل نفسها بالبحث عن حقيبتها وهي تقول بصعوبة: «سأنام في غرفة نرمين الليلة وسألغي حجز الفندق فبيت خالتي موجود ولن أحرم نفسي منه لإرضاء أحد، تصبحون على خير منذ الآن، لا أريد العشاء».

ثم غادرت غرفة استقبال الضيوف كي تعتزل في غرفة ابنة خالتها ثم تبعها بلحظات ليث ليهرول راكضاً إلى غرفته يعتزل هو الآخر في غرفته، أخذت الخالة نوال

تعتذر من ضرغام قائلة: «أعتذر منك يا ضرغام، الفتى طيب أقسم بالله لكنه ما زال في حالة تشوش كما أنه صغير كي يستوعب ما حصل ويجد القدرة ليصدق أمه».

أطرق ضرغام قائلاً: «لا داعٍ يا حاجة لاعتذارك، أنا أتفهم وأعذر».

ببعض الإحراج قالت الخالة نوال: «لم نتكلم في تفاصيل الزواج، ولا أعلم هل سُلافة جادة بما قالته حول الخميس القادم؟ والأهم هل أنت مستعد؟».

رد ضرغام يرفع عنها كل حرج: «ما قررته أم الليث هو ما سيكون بإذن الله وأنا بعون المولى مستعد وداري سأجدّدها خلال الأيام المقبلة، وأي مطلب من مهر وغيره مُجاب».

تنهدت الخالة نوال ببعض الراحة ثم قالت بعزم: «على بركة الله، خير البر عاجله».

***

دار مروان الضاري.. في نفس الوقت

في غرفة المجلس الفارغة تُمدِّد دنانير ساقيها أمامها على الأريكة عربية الطراز وهي تحتسي القهوة، بينما الخادمة العوراء عمشة تجثو على ركبتيها جوارها فوق السجادة الفاخرة كي تدعك لها عضلة الساقين، في الظاهر تجيد دنانير تصنُع الاسترخاء والامتنان للخادمة وهي تمتدحها

بالقول: «سلمت يداك، أنت تجعلينني أشعر بتحسن كبير في كل جسدي وليس ساقيّ فحسب».

تفرح الخادمة بالمديح وهي تبذل مجهوداً أكبر بالدعك بينما تتأمل من سيدتها اليوم منحة من المال كالمنحة التي قدمتها لها قبل يومين دون سبب، التفتت الخادمة ناحية الشباك تطالع شمس العصر فتتصنع دنانير الخيبة وهي تسألها: «هل حان وقت مغادرتك يا عمشة؟».

ردت الخادمة وهي ترفع ساعدها لتمسح عن جبينها عرق المجهود الذي تبذله: «أجل سيدتي، نظفت الدار كله».

بتخطيط مسبق تعده منذ يومين، تصنعت دنانير الحزن وهي تمد يدها لتضعها فوق كف عمشة ثم قالت لها بنبرة رقيقة: «ابقي معي قليلاً.. أشعر بالتعب».

ردت عمشة: «لكن سيدتي لا أستطيع التأخر».

فطمأنتها دنانير بالقول وهي تتنهد عن عمد دلالة الضيق والضجر: «لا تقلقي، فقط ساعة تتسامرين معي فأنا أشعر بالوحدة، حباس خرج ولن يعود إلا بعد المغيب، أما.. زوجي.. فأنت تعلمين».

عاودت دنانير التنهد بطريقة توحي بالمعاني وتعطي للخادمة الضوء الأخضر كي تتدخل في خصوصيات سيدتها، وقد كان..

تجرأت عمشة على التعليق بالقول: «أعانك الله سيدتي، فلديك مُصاب جلل في زوجك عافاه الله وأعاده لسابق عهده، كان زينة الشباب».

اعتدلت دنانير في جلستها لتهبط بقدميها للأرض بينما تقول بابتسامة تودّد: «هيا دعينا من حديث الأحزان، ولنثرثر بأمور مُسلية أكثر».

تمتمت عمشة وهي تتربع أمام دنانير قائلة: «حاضر سيدتي».

سألتها دنانير وعيناها تلمعان بنظرة الإثارة وهي تسأل: «هل تحبين حكايات الغجر يا عمشة؟».

هزت عمشة رأسها وقد لاح الفضول على محياها لتعرف أسرار هؤلاء القوم، فأرضت دنانير ذاك الفضول الساذج وهي تحكي لها عن الغجر، بعض القصص كانت من وحي خيالها وبعضها كان حقيقياً بالفعل، اتّسعت عين عمشة السليمة من شدة تأثير القصص عليها بينما تفتح فمها في دهشة دون أن تشعر، أما دنانير فقد قادت الحوار بسلاسة لتصل إلى (حكاية حباس)الكلام الساحر كان لعبتها دائما لتصل إلى المقاصد، قالت دنانير وهي ترفع ساقيها لتطويهما تحتها وهي تقول بنظرات شاردة كأنها تتذكر الماضي: «أمّا حكاية حباس فهي الأغرب على الاطلاق، لن تصدقيها ربما».

قالت الخادمة بلهفة: «سأصدق سيدتي، فقط احكي لي،

هل هو أخوك بالرضاعة حقاً؟».

ردت دنانير وهي تحبك القصة من خيالها وتضيف بعض التفاصيل المثيرة للذهن: «أجل، وجدته أمي طفلاً رضيعاً في أرض مقفرة، وثعبان ضخم يحوم حوله». ضربت عمشة على صدرها وهي تشهق بالقول: «يا الله».

تستمر دنانير بالحكاية قائلة: «أمي قتلت الثعبان بضرب رأسه بحجارة ثقيلة، ثم أخذت الرضيع معها إلى خيم الغجر، لقد أقسمت لي أمي أن على فمه كانت آثار سمّ الأفعى».

هذه المرة شهقة الصدمة من عمشة كانت أعلى وهي تتساءل: «على فمه سمّ الأفعى؟ ولم يقتله السم؟ كيف هذا؟».

هزت دنانير كتفيها وهي ترد: «لا أعلم.. هذا ما أخبرتني به أمي، كنتُ طفلة صغيرة لا أفقه ساعتها».

بفضول رهيب وتصديق ساذج تتساءل الخادمة: «وهل أرضعته حقاً؟».

هذه المرة هزت دنانير رأسها بالإيجاب وهي تقول لتكمل القصة الخيالية: «أجل، كانت قد أنجبت أخاً لي ومات وصدرها ما زال ممتلئاً بالحليب».

دون شعورها تضع عمشة يدها على خدها في تأثر كامل تنتظر تتمة الحكاية فتكمل لها دنانير: «ظلت ترضعه ليل نهار،

حتى خرج سمُّ الأفعى من جسده»».

ظهر الإشفاق على وجه عمشة وهي تسأل: «ألم تعرفوا أين عائلته؟ ومن رماه هناك؟»».

ردت دنانير بالحقيقة الوحيدة في هذه الحكاية المُختلقة: «لم نعلم، أنه لقيط، مجهول النسب»».

تمتمت عمشة بتعاطف كامل: «المسكين»».

أرخت دنانير أجفانها، فقد حان الجزء الأهم، رسمت تعابير وجهها بعناية لتظهر الاشمئزاز والحزن والغضب، تراقبها عمشة ولا تدري ما حلّ بسيدتها ثم تكمل دنانير المشهد المرسوم وهي تزفر نفساً قوياً، سألتها عمشة بفضول حَذِر: «ما بك سيدتي؟ هل قلتُ شيئاً أزعجك؟»».

زمّت دنانير فمها وكأنها تحاول منع نفسها الكلام ثم قالت كأنها لم تعد تحتمل الكتمان: «لم تقولي أو تفعلي ما يزعجني يا عمشة؛ لكني أخفي الكثير من أفعال حباس ولا يعرفها أحد غيري، إنه ليس بمسكين كما تخيلين لكني أستر عليه فقد أوصتني به أمي خيراً»».

تأخذ دنانير الأنفاس وتطلقها بتسارع تدّعي الانفعال، ثم تضيف: «لو تعلمين ما فعل»».

لم تعد عمشة تحتمل فضولها لتسأل بجرأة: «ماذا فعل؟ أخبريني سيدتي»».

تخفي دنانير ابتسامة الانتصار وهي تلبس القناع المرسوم

المُخادع لتميل إلى عمشة وتهمس لها بنبرة توسل: «سأخبرك لكن إيّاكِ أن تخبري أحدا».

أشارت عمشة بيدها إلى فمها وهي تعِدها بالقول: «لن تخرج كلمة من فمي سيدتي».

في سرها تتسع ابتسامة دنانير وداخلها يردد (كاذبة يا عمشة).

نظرت دنانير حولها كأنها تتردد ثم أفصحت أخيراً: «أحيانا كانت بعض النسوة يأتين إليَّ طلباً لعلاجات الغجر كي ينجبن».

تهز عمشة رأسها بانفعال كأنها تحث دنانير على الاستمرار بينما تكمل دنانير بنبرة شديدة الإقناع: «كنتُ أحاول بالطبع بكل جهدي مع علاجات الغجر التي تعلمتها من أمي وجدتي، ساعة تخطئ وساعة تصيب».

تلكأت عن عمد مرة أخرى قبل أن تقول بصوت خافت كأنها تختزي مما ستقول: «ثم.. صدمت عندما علمت بالصدفة أن حباس.. يا إلهي يا عمشة تخيلي أن حباس كان يتلاعب بهن من خلف ظهري فيقنع تلك النسوة المسكينات.. بـ.. بـ...».

تقطع الجملة وهي تدعي مسح دمعة (وهمية) فتحثها عمشة وقد بلغت ذروة الإثارة والفضول: «ماذا؟ ماذا؟».

تنهدت دنانير لتلقي (قنبلتها المدوية) قائلة: «أقنعهن

بمعاشرته كي يحملن منه دون أن يعلم أحد».

رفعت عمشة كفيها فوق رأسها كما تفعل نسوة القرية في المصائب وهي تهتف دون شعورها: «أعوذ بالله من غضب الله، أعوذ بالله من غضب الله».

وبينما عمشة مصدومة من هول ما سمعت، أضافت دنانير لتبريء ساحتها: «لهذا تركت القرية قبل أشهر وأخذتُ حباس معي، أبقيه تحت عيني، تركتُ زوجي المسكين فلم أحتمل الذنب العظيم ولم أعرف ما أفعل مع أولئك النسوة المغفلات ففضلت الستر عليهن بالصمت».

تركتها دنانير تستوعب الصدمة وعندما هدأت مالت إليها أكثر وهمست توصيها: «لا تخبري أحداً، إنها.. أعراض».

ما زالت عمشة تضرب فوق رأسها بذهول بينما دنانير تعلم عن يقين أن هذه الخادمة الثرثارة ستنشر الخبر في القرية بأسرها، وهذا هو المُراد.

***

الغزل الخامس عشر

(إذا تشابكت خيوط الحقيقة فلا تجزع، فالمغزل يظل دائراً وطالب العدل لا يُردع)

دار صفوان الضاري.. غرفة دلال.. قبل الغروب

تتربع على السجادة والمغزل دائر، فتدور معه في أفلاك شديدة التعقيد، منذ يومين وهي تعتزل الجميع ولا تنطق بحرف تشعر بحنّة تلازمها وتسمع صوت صفوان (أحياناً) يأتي من بعيد، وفي ساعات نومها تسمع صوته عند أذنيها يقرأ عليها القرآن فلا تزورها الكوابيس، الخيط يلتف مغزولاً حول المغزل كما يلتف خيط الماضي حول مغزل حكايتها الدائرة، كانت تحتاج لعزلتها هذه مع المغزل، تحتاج أن تسترجع مراراً وتكراراً ما قاله لها صفوان، تحتاج أن تمعن بالتفاصيل كي تجد الخلاص، ينعكس في عينيها صورة المغزل الدائر ومعها يدور في عقلها ما حصل بينها وبين صفوان قبل يومين في غرفته.

تسللت من بين ذراعيه لتواجهه بإصرار أقوى على المعرفة: «أخبرني عن ذاك الذنب، وما علاقة أخي جابر به؟»».

لم يكن هناك خيار أمامه، قالها والكلمات شاقّة على لسانه: «ذنبي أني.. قتلته»».

بدت متفاجئة وكأنها لم تتوقع الرد على الإطلاق،

لتتساءل وهي متوجسة من هوية (المقتول): «قتلت.. من؟».

فأخبرها وهو يفتح أبواب الماضي ليعود من جديد إلى تلك الليلة التي غيرت حياته وحياة دلال للأبد: «أخوك.. جابر».

هبّت من جلستها على السرير دون شعورها لتقف على قدميها وهي تحدق فيه وتهمس: «ماذا.. تقصد قتلت.. جابر؟».

وقف هو الآخر يواجه الماضي ويواجه معه مصيره، لقد هرب لاثنتي عشر عاماً من هذه المواجهة، ورغم براءته اليوم من دم جابر إلا أنه ليس ببريء من (دمها) هي، الكلمات رغم مشقّتها باتت فجأة سهلة شجاعته أثبتت وفاءها اللحظة لتدفعه كي يبوح بكل شيء: «لاثنتي عشر عاماً ظننت جابر ميتاً.. لاثنتي عشر عاماً كنت أستغفر الله كل ليلة وأدفع كفارة ذنبٍ لم أرتكبه يا دلال».

كانت تهز رأسها يميناً ويساراً وهي تهمس بنفس النظرة والنبرة: «لكن.. لكن..».

لم يجرؤ على لمسها فابتلع ريقه ليقول بصبر على ما يعانيانه كلاهما اللحظة: «اهدئي دلال.. سأحكي لك».

أخذ نفساً عميقاً ثم حرّره بقوة لتنطلق أسرار الحكاية القديمة من فمه: «في تلك الليلة التقيت بجابر، أو الأصح هو كان يبحث عني كما قال، بدا جلياً أنه بوضع غير طبيعي

وكأنه تعاطى شيئاً، تهجّم عليّ بخنجره وحاول طعني، كان يتهمني أني أغويكِ وأسيء إليك وإليهم، حاولت ردعه دون أن أؤذيه لكنه لم يرتدع، ثم حصل عراك عنيف بيني وبينه انتهى عندما دفعته بقوة فوقع على ظهره وارتطم رأسه بصخرة كبيرة ليبدأ الدم بالتدفق منه»».

شهقة من دليلة وهي ترفع يدها لفمها كأنها ترى شقيقها ابن السادسة عشرة مُسجى على الأرض بين الحياة والموت خطوة أخذتها للخلف، الماضي البعيد حضر لتتذكر تلك الليلة كما لم تفعل يوماً.

(«ما هذا الدم يا جابر؟ هل تشاجرت مرة أخرى؟» «اخرسي ولا تتفوهي بكلمة كله بسببكِ أنت وذاك المسخ القبيح»).

عيناها مشدوهتان وهي تستعيد المشهد، مشهد لم تفكر به يوماً بجدية وقد اعتاد شقيقها على الشجار في ذاك السن، تركته يذهب للاغتسال وهي تدعو له بالهداية ثم عادت لغرفتها وهي تفكر بصفوان ومتى سيجمعهما دار واحدة ليشرق النهار على اختفاء صفوان، جاءها صوت صفوان يكمل لها الحكاية: «من حيث لا أدري ظهر لحظتها ذياب ومروان»».

رعدة مرت بجسدها وهي تهمس الاسم: «مروان»».

كان صفوان من جهته يحلّل ما حصل تلقائياً: «أجل.. مروان.. عندما أستعيد اليوم ما حصل أجزم أنهما وراء

حالة جابر ليلتها ولا أستبعد أن يكونا من أعطياه حبوباً مخدرة، لقد كنت أعرف أن مروان يتعاطى أحياناً هذه الأمور».

تكرّر دليلة الاسم «مروان» وهي تعود بخطوة أخرى لليلة تسبق تلك الليلة ببضعة أيام، من شباك دار أبيها ترى شقيقها جابر يقف بصحبة مروان في الباحة الخارجية، كانت تبغض ابن عمتها أشد البغض ولا تعلم لِمَ وكأنّ قلبها كان يهمس لها بالقادم كي تحضر لهفي تلك الليلة رأت جابر حانقاً، غاضباً، ومروان كأنه يزيده اشتعالاً بفحيح همساته، ثم رأت مروان يدسُّ في كفِّ جابر شيئاً ما وجابر بدا متردداً في قبوله لكن مروان أقنعه، لا تزال تذكر انقباض قلبها لحظتها فانتظرت شقيقها حتى دخوله.

(«ما الذي أعطاه لك مروان؟» «من أنت لتتجسسي علي؟ اذهبي لغرفتك» «ماذا كان يقول لك؟» «أتعلمين، بدأت أفكر بتزويجك لمروان»).

ساعتها غضبت منه ومن جملته الأخيرة (المستحيلة) فتركته لشأنه وعادت إلى غرفتها، أجفلت على صوت صفوان وهو يكمل ما بدأ بانفعال: «كنتُ محطماً جاثياً على ركبتيّ أحدق في جابر النازف وذياب يتفحصه ليخبرني أنه مات ثم.. ثم..» أخذت حبات العرق تتجمع على جبينه وهو يكمل ما قطعه: «ثم بدأ كلاهما يدفعانني للهرب.. أخبراني أنهما سيدفنان جابر ولن يعرف أحد أني من قتله».

تجمعت الدموع في عينيّ دليلة ثم انهمرت على خديها، تحدق في صفوان وكلماته تخترقها من الماضي لتنغرز كسكين في الحاضر، تقبضت يد صفوان اليمنى ليلكمها براحة كفه اليسرى وهو يهدر: «كم كنت مغفلاً حسن النية سريع التصديق كأبله لم أتخيّل للحظة أن جابر كان حياً وأنهما كذبا عليّ».

تجمّدت حواس دليلة وهي تتمتم بذهول لحظي: «كل ما جرى لي كان بسبب.. كذبة».

فلكم صفوان قبضته براحة كفه الأخرى مجددا وهو يقول بانفعال أشد وقهر لا يوصف: «بل مكيدة وخدعة».

الماضي كله كانت يصرخ في روح دليلة، كل ما جرى من صبيحة ذاك اليوم عندما أخذ الجميع يبحث عن صفوان، لقد صحت الآلام كلها على صرخة واحدة، تمتم بذات الذهول: «مكيدة و.. خدعة».

كانت تترنح دون أن تشعر فاقترب صفوان ملهوفاً لاهث الانفاس موجوع الكلمات: «دلال.. لا تفعلي بي هذا الآن، ألمك يمزق حشاي، إنه لا يُحتمل».

كان يوشك أن يسندها لكنها ابتعدت وهي ترفع كفها لتوقفه ثم تقول بحشرجة: «لا تقترب.. بالله عليك لا تقترب».

توقف كل شيء، الزمان والمكان، كلاهما توقفا عند

دلال وصفوان، ثم كانت دليلة أول المنسحبين لتراجع خطواتها أكثر ما بين مكان الحاضر عائدة إلى غرفتها وبين زمان الماضي عائدة إلى مغزلها.

وها هي منذ يومين تغزل، لم يكن سلوى، بل كان وسيلة، فالغزل الحقيقي في الحياة يعلمك عِبرة الصبر، سكينة الصمت، يعلمك أن **الخيوط تتشابك وتتعقد إذا تعجلت، أو تتقطع وتفشل إذا أهملت،** وهي لا تريد التعجل ولا الإهمال، تسعى لإتقان ما تغزله وعلى مهل، هذه المرة لن تفشل، هذه المرة غزلها سيكون الأفضل، من على الباب يراقبها صفوان ملتاعاً لكنه يصبر ويصمت، يهمس لحنّة التي تلازمها كي تحضر لها العشاء فتفعل الصبية بينما يغادر صفوان الدار كي يؤدي صلاة المغرب في الجامع ويلتقي ببعض الرجال من عشيرة الضاري، همّه يثقل، وحيلته لا زالت ضعيفة، لكنه الحمل الذي سيحمله، وإلى برِّ الأمان سيوصله.

***

العاصمة.. آخر الليل.. غرفة نرمين

في ظلمة الغرفة التي لا ينيرها إلا ضوءُ القمر، تحدّق سُلافة في وجه ابنة خالتها التي تغطّ في نوم عميق، فتوشك سُلافة من شدة غيظها أن تدسّ إصبعها في عين ابنة خالتها لتوقظها مجفلة كما كانت تفعل بها وهي طفلة، الكل نيام، حتى ولدها الذي قهر قلبها غلبه النوم في حضن جدته

نوال، لقد تسللت قبل قليل وعلى رؤوس أصابع قدميها ودخلت غرفته بعد أن تأكدت من سماع صوت شخيره تفكر جدياً أن تجبره ليجري عملية رفع تلك الزوائد اللحمية، تمرغ قلبها بالوجع وهي تراه كطفل صغير التجأ لأمان صدر جدته، وسلافة أكثر من يعرف كيف يكون حضن الخالة نوال آمنا لمن يلتجئ إليه خائفاً، وجودها في حياة سُلافة كان النعمة التي حباها الله بها ليس بعد وفاة أمها فحسب، بل الأكثر بعد وفاة أبيها الحبيب، فلم يخفف عنها اليتم حتى كاد يمحوه، إلا هذا الحضن الذي يحظى به ولدها اليوم، انقلبت سُلافة على الجانب الآخر حتى لا تتهور وتفقأ عين ابنة خالتها، عيناها وقعتا على الهاتف جوارها على المنضدة الجانبية للسرير، دقّ قلبها اشتياقاً، واحمر خداها من فيض الاشتياق إلى حضن ذاك البدوي الذي ستتزوجه خلال أيام.

لم تقاوم لتلتقط الهاتف وهي تحمد الله أنها طلبت رقمه عندما أخبرته البارحة بموعد المقابلة مع الخالة نوال، وسط الصحراء، حيث ينير القمر ظلمتها وتكسر نار الحطب برودتها، يتدثر ضرغام بعباءته وهو يحدق في السماء يعاين النجوم في تأمل، رنّ هاتفه فاستعجب للحظة وحالما قرأ اسم (صاحبة التاء)، ارتجت أضلعه بهدير قلب البدوي فيه، ليت البشر يعلمون ماذا يعني عشق البدوي، فتح الخط وحالما فعل وقبل أن يتفوه بكلمة جاء صوتها الخافت: «هل نمت؟».

تشرق أسنانه وفمه يتسع بالابتسام وهو يرد: «لا..».

بصوتها الخفيض تتساءل: «لماذا؟ وماذا تفعل إذن؟ وأين أنت؟».

خمّن أنها لا تستطيع رفع صوتها كي لا توقظ من يجاورها فيسايرها بذاك الخفوت يرد بنفس النبرة: «**النوم جافى عبدَ الله، ضرغام، بعادك صعب يا أغلى الأنام، لا عدُّ النجوم يُجدي ولا ليل الصحراء يُلهي**».

يكاد يسمع صوت أنفاسها المتسارعة يعلو فوق صوت ريح الشتاء حوله، بينما تهمس بتوسل (أنثى خاصة للغاية): «لا تتغزل الليلة بالله عليك وإلّا سأبكي».

وكأنه يلمسها عن بعد وهو يقول لها: «أنت لا يبكيكِ إلا الليث يا أمه».

يرتجف صوتها وهي تدعو على نفسها بحرقة قلب الأُم: «انقطعت يد أم الليث التي صفعته».

فيرد بترقق كأنه يعاتبها: «اسم الله يحميها».

علا الهدير حتى أوشكت أضلعه أن تئن من الوجع حين قالت بعاطفة عفوية: «اسم الله يحميك أنت يا ضرغام».

أنفاسه ثقُلتْ وعيناه للسماء بالشكوى ارتفعتْ، لينطق الكلمة خافتة، حملت التأنيب والتذكير: «الحلال».

تتنهد وهي ترد عليه: «الحلال، جعلت للحلال فعلاً يفوق القول تأثيراً».

فيؤكد عليها باختصار: «يوم الخميس».

وكأنها اعتادت منه اختصار الكلمات بعميق المعاني، تفهم ما يطلبه وتتطوع كلماتها معه، ترد عليه وهي تعرف ضمنياً أنه يبحث عن التأكيد لجديتها بالموعد: «يوم الخميس».

فجأة شعرت بالتحسن أو ربما التفاؤل، أو ربما.. هي امرأة متفائلة بطبعها ولا تركن لقهر المصائب لا يهم كل هذا، ما يهمها اللحظة أنها واثقة من قرارها الزواج من ضرغام ويوم الخميس تحديداً، قالت أخيراً: «سآخذ أول سيارة في الصباح الباكر لأعود إلى القرية».

اكتفى بالرد: «تحلين أهلاً وتطئين سهلاً».

لم يكن ترحاب أهل بيئته المألوف، بل حمل معنى خاص بسلافة، شعرته محمولاً في نبرته القروية الثقيلة ليصل عمق قلبها ويستوطن فيه، لم يعد للوحدة مكان في قاموس لغة يحفظ اسم (ضرغام).

***

صباح اليوم التالي.. مجلس الشيخ حمدان الضاري

بعد سلام بارد من الطرفين، ونظرات تحفز مكتوم من حمدان يقابلها نظرات مواجهة من صفوان، جلس كلاهما قبالة بعض في ديوان المجلس ليبدأ صفوان بالقول الهادئ: «أرسلتَ في طلبي يا ابن العم؟».

ثارت نظرات حمدان قبل أن تثور بالباطل كلماته قائلاً:

«بلغني أنك تجتمع بالفلاحين وتحرضهم، وببعض الرجال من عشيرة الضاري وعلى شيخهم تألبهم».

الجو بات مشحوناً في أقصاه خلال بضع ثوانٍ، بينما وجه صفوان لا يتغير وهو يتطلع إلى ابن عمه ويقول: «وبعد؟».

تقبضت يد حمدان من شدة الانفعال ثم رفعها ليشير بسبابة الاتهام إلى صفوان يكيل إليه المزيد: «بلغني أنك تقف لرجالي فتنهاهم عن أوامري، تمنع إحقاق الحقوق كما يقررها شيخ عشيرة الضاري».

ثم أشار لنفسي بخيلاء وتعابيره تغلي: «أنا يا صفوان، أنا حمدان ابن محمد، شيخ عشيرة الضاري».

وقف صفوان على قدميه وهو يقول بعينين مخيفتين: «لقد عاهدتك أني سأكون سندك ما دمت تراعي الناس ومصالحهم».

ليقف حمدان هو الآخر يجابه صفوان متستراً من خوفه بجدران دار أبيه الشيخ محمد، وبرجال باتوا مأجورين مجبورين، لا مناصرين وعن شيخهم بروحهم مُدافعين، هدر حمدان وأصابع الاتهام تتكاثر « أنت لا تتدخل في شؤوني مع أهل العشيرة، لا تستغلهم لأغراضك ومطامعك التي باتت مكشوفة يا صفوان، إن كنت تظن أنك بقادر على..».

قاطعه صفوان بهدير رجال يُهابون حتى الموت: «قسماً

بذي العزة يا حمدان لا يقف بيني وبينك اللحظة إلا عمي محمد رحمه الله».

تراجع حمدان للخلف خوفاً ليتعثر ويقع على الأريكة عربية الطراز خلفه وهو يتطلع إلى صفوان بوجل وحقد في ذات الوقت، لملم صفوان عباءته حوله وهو يضيف بنفس النظرة: «أفق يا حمدان، عشيرتنا تتهاوى والناس باتوا جياعاً ينتظرون الإحسان من مشايخ باقي العشائر المظالم كثرت والثورات ستهل، بل ربما هلّت وأنت قابع هنا بين أربعة جدران تحتمي برجال باتوا لا ولاء يعرفون إلا في مال جباية من الضعفاء يتحصلون».

ثم تحرك مغادراً خطواته تزلزل الأرض تحت قدميّ (الشيخ) حمدان الذي أخذ يضرب بقبضته فوق الأريكة لا يعرف كيف يجد مخرجاً مما هو فيه، لقد خسر ولاء ابن عمه صفوان وأعلنها صريحة أنه يقف مع الناس ضده، وذياب يتلاعب في الخفاء من جهة أخرى ليزيحه عن المشيخة.

***

دار مروان الضاري.. في نفس الوقت

كان ينتظرها عند نهاية السلم وهي تنزل الدرجات، ينتظر بلهفة ومطلبه صريح، أخفت دنانير نفورها منه وهي ترخي أجفانها بينما تقول في سرها: «وعد مني يا حبّاس لن تبيت في هذه الدار منذ الليلة».

ما زال لا يملك الجرأة كي يمدّ يده إليها بينما صوته يتقطع بالرغبة وهو يقول: «سيدتي.. عمشة الخادمة لن تأتي اليوم.. ألن..».

قاطعت (لهفته المنفرة) وهي ترفع كفها وتحسم بالقول: «هذا ليس وقته حباس، لدينا عمل مهم اليوم».

بدا خائباً متفاجئاً وهو يتمتم بتذلل: «ألا يمكن تأجيل الأمر للغد، أو حتى للعصر؟».

هدرت به بنبرة (السيدة الآمرة) التي ما زالت لحسن الحظ تؤثر فيه: «لا تناقشني ونفذ».

طأطأ رأسه بينما تضيف دنانير وهي تتحرك وسط الباحة الداخلية للدار لتقول: «أريدك أن تذهب للسوق».

عفوياً رفع وجهه يقاطعها بدهشة: «لكن.. لا نحتاج لأي شيء تسوقت للدار البارحة».

صبرت عليه وهي تستدير بجسدها لتواجهه بالقول الذي يوحي بالجدية وصدق النيّات: «ليس للدار، أريد أن أتقرب لأهل القرية، أريد أن أعدّ موائد لإطعام الجياع والفقراء، أريدهم أن يحبوني ويؤمنون بي».

أخذت تمسد على عباءتها السوداء الأنيقة وهي تضيف بخبث حقيقي وتفكير شيطاني للمستقبل: «هؤلاء هم من سيكونون عزوتي، على الأقل حتى يكون لي رجالاً أشداء تابعين لي».

ربما هي تكذب على حباس اللحظة كي تدفعه الخروج إلى السوق اليوم ولأطول مدة ممكنة، لكن الفكرة والخطة ليست كذباً، هي ستسعى بالفعل كي تفعل كل هذا وأكثر، بدا حباس متفاجئاً وهو يتساءل بعجب: «هل تنوين جمع رجال حماية حولك؟».

ردت بثقة وغرور وعيناها تتوهجان بالطمع: «مؤكد، لكن ليس للحماية تحديداً، إنما وجاهة ومركز ونفوذ».

رد حباس يجادلها: «لكنك لستِ بشيخة، ولا حتى مروان كان شيخاً».

بغيظ منه قالت: « كله بالمال يُشترى، ومال مروان سيضمن لي هذا، ثم لا تجادلني فيما أفعل وأخطط له».

طأطأ رأسه مجدداً بحركة الطاعة المألوفة منه، فشمخت دنانير وهي تأمره بالقول: «اذهب الآن واشتري خمسة عجول».

فيرفع وجهه متسائلاً عن التفاصيل: «هل أذبحهم وافرقهم على أهل القرية سيدتي؟».

فردت بالمكر: «بل أبحث عمّن يطبخهم أيضاً، أحضرهم إلى هنا وأدفع لهم كل ما يشاؤون، الليلة سأفتح بوابة الدار لأهل القرية أجمعين».

بدت الخطة مُرضية لحباس وهو يقول بحماسة: «خطة محكمة سيدتي، سأنفذ في الحال».

ثم أخرجت دنانير حفنة مال من تحت عباءتها وأعطتها له، غادر حباس من فوره ودنانير تشيعه بنظراتها الخبيثة الشيطانية وهي تتأمل بصبر القادم الذي أعدته له وينتظره خارج أسوار دار مروان الضاري: «اذهب لقدرك يا حباس، عمشة لا بد أنها تلف دور أهل القرية وتنشر الخبر، أما خطتي المحكمة لكسب الجياع من أهل القرية فسأنفذها.. بدونك».

***

في الغرفة العلوية من الدار

في هلوسات جنونه يشم مروان عطر دليلة في المفارش فتتداخل الرؤى مع الخيال المعتل الذي بات يسكن تحت جلده، حمى تصيبه وألوان الدم تحاصره، يرتجف ذعراً من مجهول يطارده فيصرخ منادياً ويشدّ شعره ويضرب رأسه بكفيه، شعر بدخولها عليه وانتشر عطرها من حوله، يلهث والجوع يفتك بجسده فلا يفرق عقله أهو جوع معدة أم جوع نيل دليلة، صوتها بات مختلفاً عن الماضي لكن يرضيه بما يحمله: «ها قد أتيتك، لم أشبع منك ليلة الأمس».

بات نظره مشوشاً فلا يرى ما حوله إلا بما يُهمس في عقله لكنه يعرفها من العطر وكفاه تزحفان بحثاً مُضنياً كي يصل إلى بطنها، فتساعده هي بإيصال كفيه إلى مقصدهما، وعندها يجن جنونه صارخاً: «طفلي، ولدي».

تتوضح الرؤيا فيرى وجه دليلة يطوف حوله فيجرها إليه ولا يجد إلا في معاشرتها الخشنة اطمئناناً لا أحد سيأخذ منه دليلة.. لا أحد سيأخذ منه ولده الذي ستنجبه دليلة.

***

قرابة الظهر

يركض حبّاس هارباً بذعر، يتعثر ويقع ثم يعاود النهوض والركض بأسرع ما يستطيع كي يصل إلى دار مروان الضاري ويجد هناك ملجأه، فقد أحد نعليه فلم يتوقف كي يعاود لبسه، ما سمعه في السوق ونظرات بعض الناس الغاضبة نحوه يحمل إليه خبر ذبحه الوشيك، لا يصدق كان يتسوق بشكل طبيعي للغاية والأمور تسير على أفضل وجه وقد اشترى العجول المطلوبة ثم أخذ يبحث عمن يذبح تلك العجول ويطهوها، ومن حيث لا يدري بدأ لغط غريب ونظرات بعض رواد السوق تتغير نحوه وهم يتهامسون، حتى وصلت همسة (يُقال إنه عاشر عشر نساء أو يزيد)، عندها فقط ترك كل شيء ليهرب من هناك قبل أن يشيع الخبر أكثر، تقف دنانير خلف بوابة الدار الخارجية وتستمع لصراخ حباس وقبضته تضرب على البوابة: «افتحي سيدتي، افتحي لماذا تقفلين البوابة من الداخل؟».

تسحق دنانير أسنانها وهي تتمتم في سرها: «اللعنة ألن يأتي أحد ويقتله ليخرس لسانه إلى الأبد؟ أين رجال القرية منه؟ ألم يصل الخبر لأولئك الحمقى؟».

علا صراخ حباس وبات يائساً شرساً: «افتحي الباب لا يمكنك التخلي عني اللحظة، فعلت كل هذا لأجلك».

لم يعد هناك خياراً أمامها، ستنتقل للخطة البديلة قبل أن يتفوه ذاك الكريه بالمزيد ويسمعه الناس، فتحت البوابة وهي ترسم الرعب والغضب على وجهها لتواجه به حباس المذعور المهتاج، لكنها منعته الدخول وعيناها تدوران فيما خلف حباس تبحث عمن يحمل سلاحاً كي يقتله، لكنها لم تجد إلا وجوهاً مصدومة وبعضها غاضبة وأخرى فضولية لم يصلها الخبر، كان عليها التصرف سريعاً وهي تقول لحباس بخفوت: «كيف سأحمي نفسي من غباءك».

رد حباس بصوت عالٍ يدافع عن نفسه: «لكني لم أفعل شيئاً لست أنا السبب».

تواصل حديثها الخافت لكنها ترسم تعابير الغضب والخذلان لمن يراها من بعيد ولا تصله كلماتها: «قلت لك ألف مرة الجدران لها آذان وها قد خرج الكلام يا غبي وعرفت القرية بأسرها بما كنت تفعله مع أولئك النسوة».

ثم أخرجت ضبة المال التي أعطاها لها ذياب قبل أيام لتعطيها له وتقول بتعابير وجه حملت (ألماً وخذلاناً): «خذ هذا المال واهرب، انفد بجلدك يا حباس فالقوم سيقتلونك».

تتسع عينا حباس بخذلان حقيقي وهو يتمتم: «ألن تحميني في دارك سيدتي؟».

الغيظ يكاد يفضح تعابيرها لكنها تمالك نفسها وهي ترد بنفس الخفوت: «كيف أحميك؟ على الأقل أنا زوجة مروان الضاري ولي مكانتي في عشيرة الضاري وأنا أحمل طفله، ودم طفله لن يتورط فيه أحد، لكن أنت لا تملك صفة تحميك، وبعد فضيحتك لم يعد حتى جيش جرار بقادر على حمايتك».

ثم أخذت تؤنبه بنفس الخفوت والتعابير المرسومة بعناية لخداع الناس: «خرّبت عليّ كل شيء.. كل شيء أيها الغبي الثرثار الأبله».

أخذ حباس يرعد وقد صدقها ليلقي التهمة على الخادمة هادراً: «كله من تلك التعسة عمشة لا بد أنها تنصتت على كلامنا، سأقتلها تلك العوراء».

استغلت دنانير الموقف فرفعت كفها ولطمته على وجهه والناس التي تشهد تشهق بينما تصرخ فيها: «أجل اقتلها لتبتلي بمصيبتين عرض ودم».

أخذ يولول والرعب يسيطر على تفكيره: «ماذا أفعل يا سيدتي؟ أرجوك ساعديني ولا تتخلي عني».

أخذت تحايله بخفوت وهي تعصر من عينيها الدموع قائلة: «هل جننت؟ كيف أتخلى عنك».

ناولته الضبة مجددا وهي تحثه بالقول المتعجل فلم يعد لديها وقت: «خذ المال إنه يكفيك لسنة التجأ لإحدى خيم الغجر البعيدة، لا تظهر قبل أن أرسل في طلبك، قد تمر

أشهر طويلة فلا تحبط ولا تيأس، سيولد الطفل وأعزّز مكانتي هنا وأعيدك رغماً عن أنوفهم».

أشعرته بالأمان فأخذ المال وهو يتمتم: «حاضر.. سيدتي».

ثم هرول هارباً مرة أخرى بينما ترفع دنانير صوتها كي يسمع من تجمهر وخاصة كلمة (أخي): «سامحك الله يا حباس.. غفر لك.. يا أخي».

ثم سالت دموعها أخيراً والناس تنظر إليها بإشفاق بينما تربت دنانير على بطنها وهي تقف بالبوابة تستعرض حالها التعس وخذلان أقرب الناس إليها، أخيراً دخلت وأغلقت البوابة وهي تبتسم للشيطان في سرها، عندما تعطي حباس الضوء الأخضر كي يعود ستكون بانتظاره وسط دعم وإسناد أهل القرية، بل ستكون هي من تأخذ بثأر الأعراض المنتهكة والأنساب المختلطة، ستقتله بيدها أمام الملأ وهي تذرف الدموع على (أخيها بالرضاعة)، وحتى تحين تلك اللحظة ستظل (الأخت)، الوفية للصلة، المقهورة بالخزي، دون أن يكون لها أيّ ذنب، ستستفيد من الوقت حتى اقصاه، وستحوّل حباس إلى ورقة ربح بدل خسارة، وكلما صبر هو أكثر على نفيه كلما دعمت هي موقفها في قرية الشيوخ أكثر، حباس كان يجب أن يبتعد هذه الفترة حتى تقوي مكانتها في القرية، إن أمسكوه اليوم وتكلم بكل شيء فقد يصدقونه، لكن فيما بعد لن يصدقه أحد، ستحرص أن لن يصدق أحد إلا كلمة منها هي، هي دنانير أم الحُرّ الضاري، شيخ الضواري

القادم.

***

لحق ناطق بآخر المشهد، كان يلهث وهو يخبر سيده ذياب عبر الهاتف النقال بما سمعه في السوق، أخذ ينهت وهو يرى حباس يهرول راكضاً من جديد ليبلغ سيده بالقول: «لقد أعطته المال وتلثّم هارباً».

حثه ذياب غاضباً عبر الهاتف: «الحق به يا غبي إياك أن يفلت منك».

يعاود ناطق الركض خلف حباس دون أن يشعر به وهو يتمتم: «على أمرك سيدي».

من شدة غيظه يعاود ذياب توبيخه: «ألم أقل لك أن تظل قريباً من أخبارهما؟ كيف لم تعرف بما يدور في السوق إلا متأخراً هكذا».

ظل ناطق يعتذر عن التقصير بينما ذياب يخرسه بالقول: «كفاك الآن اقتفي أثره وفي أي قذارة يلجأ إليها تلازمه حتى أرى ما يحصل وأخبرك بما تفعله، وقسماً بالله يا ناطق لأقتلنك بيدي أن فقدته».

أغلق ذياب الهاتف وهو يسب ويشتم ثم تمتم والحقد يطلّ من عينيه: «إذن تغديتِ به قبل أن أدفعه ليتعشى بكلا بأس يا غجرية، سنرى الذي يضحك في الآخر، على الأقل انتقمت من القذر الذي كان يعربد في دار أخي».

***

في اليوم التالي.. صباحاً

خرجت سُلافة من بوابة المستشفى عابسة الوجه، مفطورة القلب تكاد تصاب بالاختناق، تمسك بيدها ورقة الإجازة الممهورة بتوقيع مدير المستشفى وتحمد الله على وجود الدكتور فراس الذي أعانها للحصول على موافقة الإجازة لأسبوعين، تحشر الورقة في حقيبتها وما زالت تشعر بالاختناق، لم يكن السبب ولدها الذي لم يتصل ولم يبد أي ردة فعل ولكنها لم تحتمل حكاية تلك المرأة التي قتلها زوجها مع ابنها لجر اليوم، رغم أنها اعتادت في عملها على التعامل مع الموت بكل أشكاله ورأت الكثير من الحوادث المشابهة في العاصمة، لكن الأمر يوجعها ويغضبها.

«السلام عليكم».

تنهدت بقوة وطاقاتها السلبية تتبدد في لحظة وهي تحدق بضرغام الذي يقف أمامها اللحظة في باحة المستشفى الخارجية، عفوياً اقتربت منه وهي تعبر عن امتنانها بطريقتها المباشرة الصريحة: «الحمد لله أنك أتيت».

وقبل أن يفتح فمه أضافت بقلق: «أما زال عرسنا قائماً يوم الخميس؟».

هذا الرجل فيه شيء غير محدد يجعل قلبها، لا.. ليس قلبها.. يجعل كل أنوثتها تخفق يرد وهو يبتعد عن (قربها)

نصف خطوة قائلاً: «وما الذي سيؤجله لا سمح الله؟».

دارت بعينيها حولها لترى تلك الممرضة عند البوابة تراقب بحسد وغيرة، لقد ضربتهن كلهم بمقتل حالما ذاع خبر زواجها من ضرغام الأسدي، قالت أخيراً ترد عليه بأسلوبها الفكاهي: «عدا العيون الحاسدة التي سأفقأها بأصابعي، هناك ما يحصل بالقرية، هل سمعت عن المرأة التي اعترفت بما فعلته مع ذاك القذر المدعو مكّاس».

رد وعيناه تشعان بانعكاس ضوء الشمس فيهما وهو يصحّح لها: «اسمه حباس وليس مكّاس».

تأففت وهي تقول بانفعال على طريقتها الخاصة بالتعبير: «مكّاس.. فرناس.. وما همني أنا من اسم (بنك الحيوانات الذكورية) المتنقل المهم أن الغبية اعترفت على نفسها كما ادّعى زوجها قبل أن يذبحها بل وقتل طفلهما ولم ينتهِ الأمر عند هذا، بل أكملها الأخ ليقتل الزوج ليس ثأرا لأخته وابنها، بل ثأراً منه لفضحهم بين أهل القرية يا إلهي، لا أصدق ما يحصل هنا، أهلها رفضوا استلام جثة ابنتهم مع جثة ابنها من سيدفنهما؟ وما ذنب الطفل حتى إن كان ابن سفاح؟ وما ذنب الدماء المراقة دون أن يستمع حاكم عادل للاتهام والدفاع وما يدرينا أن الزوج صدق عندما قال إنها اعترفت؟».

تمرر يدها فوق جبينها وبدت مرهقة الأعصاب فيخفف عنها ضرغام بالقول: «لا تتعبي نفسك بكل هذه التفاصيل،

الشيخ عمران حفظه الله أمرني أن أتكفل بالدفن للمرأة وابنها، فهي من عشيرة الأسدي والشيخ عبد الهادي سيفصل بالأمر حسب قوانين العشائر».

سألت سُلافة بضيق واهتمام حقيقي: «ومتى سينتهي كل هذا؟».

رد يطمئنها: «الشيوخ سيتصرفون لا تقلقي، لن يسمحوا لهذه الفتنة أن تكبر».

عيناها التقطتا زبيبة وهي تتكلم مع صاحبتها وتشير إليهما من عند البوابة فكزت على أسنانها وقالت: «انظر لتلك الزبيبة؟ قسماً بالله سأغزها بمشرط في كبدها».

ناداها بتلك النبرة التي تخرجها من أي حالة تكون فيها لتدخل حالة خاصة متفردة معه: «يا أم الليث، لماذا لا تركزين بالاستعداد ليوم عرسك؟ دعي ما يحصل في القرية لكبرائها، وما يعتمل في قلوب الحاسدين من غيرة لنارها».

تنظر في عينيه وتهمس له: «حاضر، أعدك أن أحاول».

لم تستطع النظر أكثر إليه فأطرقت ليسألها ضرغام وكأنه يخمن: «ألم يتصل الليث؟».

اكتفت بهز رأسها يميناً ويساراً دلالة (لا) فقال بحنو وهو يصبّرها: «بإذن الله خير».

شعر أن هناك المزيد وهي تطرق برأسها هكذا، فصبر حتى قالتها بصوت منخفض مرتبك: «باقي ثلاثة أيام».

ردّ وعيناه تبحثان عن ضفيرتها فلا يجدها: «أعدُّها واحفظها».

رفعت وجهها إليه وقالت على عجل: «أنا لست خجولة بطبعي».

تمتم وهو يكتشف أن الضفيرة محشورة في ملابسها: «والمعنى؟».

بدت مُستفزة منها وهي تقول بغيظ: «أنا أحاول فتح الموضوع وأنت لا تساعد، ولا أدري ما هذا الخجل العجيب الذي يلجم لساني عندما تصبح أنت حولي».

ما زال صبوراً وهو يسأل: «أي موضوع يا أم الليث؟».

تسارعت أنفاسها واحمرّ خداها وهي تخبره أخيراً بما يشبه الكلمات المتقاطعة: «حاجياتي، نرمين ورهف تريدان.. إلى دارك، هل فهمت؟».

عيناه لا تفارقان حمرة خديها وهو يرد بخفوت: «ومتى تريدان فعل (ما فهمت)؟». بنفس التقطع قالت: «بعد.. غد».

أفلتت منه نظرة إلى شفتيها لكن غض الطرف مستغفراً، فيسدل أجفانه قائلاً بصوت فيه بحة خاصة كأنها حرقة: «مفتاح الدار سيكون عندك صباح (بعد غد) فافعلن ما شئتن فيه، ولن أدخل الدار حتى تدخلينه أنت قبلي مساء الخميس».

ثم ابتعد مودعاً وسلافة تتمتم بخدين محمرين وكلمات حانقة: «هذا الرجل يثير جنوني لا أدري حتى كيف أشعر نحوه اللحظة».

ثم عبست وأضافت: «هل نظر لشفتي أم كنت أتمنى أن يفعل فصرت أتخيل؟ حالتي معه صعبة».

سارت بخطوات تحمل حنقها من نفسها ومنه، ثم أخرجت هاتفها من الحقيبة لتكلم نرمين وهي تعود لدارها سيراً على الأقدام.

***

عصراً.. وسط القرية

يقود صفوان سيارته عابساً بين طرقات القرية، الوضع بات مُقلقاً، على الأقل شيوخ العشائر يحاولون تدارك ما يحصل وقد دارت الفتنة بنارها في كل دار بالقرية، الكل له كبير إلا عشيرة الضاري وكأن لا شيخ لها، حمدان يدّعي المرض في داره ولا يفعل شيئاً، وذياب النذل يزيد فوق النار حطباً كي يؤجج الناس ضد حباس ويقحم اسم الغجرية دنانير، لكن الغجرية تفوقه ذكاء وقد أعلنت هدر دم (أخيها بالرضاعة) مع شيوخ العشائر الذين أهدروا دمه، بل وطلبت حماية الناس لها منه، البعض يقول إن حباس هرب عبر الحدود الشرقية تاركاً البلد كله إلى تجمعات الغجر في البلد المجاور، والبعض الآخر يقول إن أحد الرجال المطعونين في عرضه قد تقصى أثره ووصل

إليه قبل أن يهرب فقتله ودفنه في مكان غير معلوم، الغجرية دنانير أعلنت أنها ستفتح بوابة دار زوجها ابتداءً من ليلة الأمس بموائد زاخرة بالطعام للفقراء تكفيراً عن ذنب أخيها، تمثل دور الطيبة، الوحيدة المستضعفة، وقد كسبت القلوب بأفعالها، حتى تبرع البعض بالوقوف كحرس على بوابة الدار كي يمنعوا عنها أذية (أخيها الفاجر).

ضغط صفوان على دواسة التوقف حالما رأى امرأة تحمل طفلاً في الثانية ربما وهي تركض وتولول والناس تحدق فيها بعجب، وعندما ترجل صفوان من السيارة ظهر خلفها رجلاً وبدا جلياً أنه يلاحقها، المرأة حالما رأت صفوان توجهت إليه تستغيث وتبكي: «انجدني يا سيدي يا ابن شيوخ الضاري».

تحرك صفوان يحميها وابنها وهو يقف حائلاً بجسده الضخم بينها وبين زوجها الهائج الذي يحمل سكيناً ويتوعدها القتل علناً ويرميها بالتهمة الشنعاء: «لأقتلنك اليوم واغسل عاري بدمك».

منعه صفوان وهو يمد كفه ويأمره: «قف عندك ولا تقترب منهما».

صرخ الرجل وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما: «لن أتركها ولو فيها موتي». هدر صفوان بغضب مخيف والناس تتجمهر: «امرأتك من الضاري، وقسما بالله لن تسيل قطرة من دم الضاري إلا ومن أسالها يكون خصيمي».

أخذت المرأة تجهش بالبكاء وهي تتمتم: «أدامك الله وأعزك، سامحني يا ابن الشيوخ، سامحني وقد كنت ممن رميتك دون بيّنة».

لكن زوجها كان يحترق بما يظنه العار الذي لطخ شرفه وعرضه ليضرب على صدره ويقول بقهر: «إنه شرفي يا ابن الشيوخ هذه الفاسقة عاشرت ذاك القذر الذي فرّ وأنجبت منه ولداً نسبته لي».

صرخت المرأة بوجع: « كذب.. كذب وبهتان، أنا طاهرة وعفيفة وهذا ولدك من صلبك، حسبي الله ونعم الوكيل، ابنة عمك كادت لي ووسوست بأذنيك، وحق رب الكعبة هذا ولدك، انظر لوجهه، إنه نسخة منك».

بقهر ينظر الرجل للولد لكنه يزم شفتيه رافضاً وهو يهدر: «هاتِ دليلك، لن تخدعيني بالكلام».

هتف به صفوان وهو يدافع عنها بالقول السديد: «عندما تأتِ أنت بالدليل على ما رميتها به».

لم يستطع الرجل الإتيان بشيء ليضيف صفوان بنفس النبرة: «قبحك الله أتكشف سترك وتطعن بولدك من وشاية؟».

علا صوت الحاج عبد القدوس وهو يقرأ الآية بصوت رخيم قوي الوقع على النفس: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ».

صمت الناس والحاج يقترب وقد كان بصحبة الشيخ عبد الجبار، لكن الشيخ لم يتدخل وظل مكانه يراقب ما يحصل وحوله رجاله، قال الحاج عبد القدوس وهو يدور بنظراته من المرأة وطفلها إلى زوجها ثم إلى كل الناس التي تجمهرت ليضيف: «لقد حذرتكم من رمي المحصنات، لقد حذرت بالأمس قلتها لكم أمام دار مروان الضاري وأنتم تحملون الحجارة إنها حوباً كبيراً وانظروا اليوم كيف تدور الدوائر وستظل تدور تحرقكم بنارها ما دمتم على نفس النهج من رمي الأعراض دون بينة، أتقولونها وكأنه لهو كلام وهو عند المولى عظيم؟».

سارعت المرأة الباكية للحاج عبد القدوس تميل إليه لتلثم راحة كفه وهي تشهق بالبكاء وتبدي الندم قائلة: «السماح يا مولانا، السماح، لقد ندمت على ما فعلت».

سارع ليسحب كفه وهو يقول لها: «اطلبي السماح والمغفرة من الخالق لا المخلوق». ثم التفت للزوج وقد عرفه طفلاً في الكتاتيب: «وأنت يا جاسم، اذهب إلى دارك واستغفر الله، زوجتك وابنك في دار أبيها غاضبة عليك، ولن تعود إلى دارك حتى تسترضيها».

طأطأ الرجل رأسه عائدا لداره بينما زوجته تبكي وابنها يبكي لبكائها وهي تحث الخطى لدار أبيها وتدعو لابن الشيوخ الذي أنجدها (صفوان الضاري)، يزمّ الحاج عبد القدوس فمه في غضب مكتوم بينما يتمتم صفوان: «ما الحل

يا مولانا؟ سيختلط الأمر على الناس ما بين حق وباطل».

فتدخل عندها شيخ الشيوخ الذي اقترب والناس تتفرق من حوله مهابة ليقول: «سنحلها بإذن الله يا صفوان، اليوم سنعقد جلسة للعشائر وأريدك أن تحضر فيها، كل شيخ عشيرة سيعلن إقامة الحد على كل من يرمي امرأة في شرفها مع المدعو (حباس) دون بينة أو اعتراف منها يستمع إليها شيخ عشيرتها بنفسه».

زفر الحاج عبد القدوس بقوة وهو يستغفر ثم قال: «الناس تحتاج لصحوة غلب الهوى وساد استصغار المعصية حتى بات فعلها كمضغ علكة في الأفواه ألا يعلمون أن الاستهانة والإصرار على الذنوب الصغيرة قد يرفعها إلى مرتبة الكبائر».

قال له صفوان يخفف عنه وقد تأثر لرؤية الحاج عبد القدوس في غضب نادر منه كهذا: «كما قال شيخ الشيوخ يا مولانا، الامور ستُحل، الناس بسطاء ويحتاجون لتعلم الكثير، وهذا عهد عليّ أمامك وأمام الله، لن أدخر جهداً في إحقاق الحق ودرء الفتن وقتل الباطل في مهده».

يهز الحاج رأسه موافقاً ثم ودّع كلاهما شيخ الشيوخ ليرافق الحاج عبد القدوس صفوان في سيارته، الشيخ عبد الجبار يستغرق بأفكاره وهو يراقب سيارة صفوان تبتعد فيقولها في سرّه: «أخيراً عرفتها يا ابن إبراهيم، فليكن الله في عونك وأنت تأخذها ممن لا يستحق».

***

ليلة عرس ضرغام وسلافة.. دار ضرغام الأسدي

من دار شيوخ الأسدي القريب، حيث أقيم العرس، إلى دار ضرغام، رافقتهم أصوات الأعيرة النارية فكادت سُلافة أن تصاب بالطرش وقد اختلطت تلك الأصوات المُفزعة بأهازيج الرجال الهادرة في الأعراس، لكن قلبها ظل ينتفض بتأثر في صدرها على صوت الزغاريد وأغاني نسوة القرية التي ما زالت تصدح من حولها حتى وهي لم تعد تراهم، تكاد لا تتبين طريقها وهي تخطو في ارتباك وقد وضعوا فوق رأسها برقعاً حريرياً أبيض من نفس قماش الفستان، يغطي رأسها كله كخيمة عازلة ويتهدل حتى منتصف ظهرها، كانت تائهة وسط كل هذا حتى أنقذها كف ضرغام عندما احتضن كفها، رغم شعور الطمأنينة العفوي وهي تجد من يقودها كي لا تتوه أو تتعثر، لكن مستوى النبض ارتفع لأقصاه وللتو فقط شعرت أنها حقاً باتت زوجته حلاله.. وعند كلمة (الحلال) شدّ يده على يدها أكثر حتى شعرت بخشونة راحة كفه، وكأنه فكّر بالكلمة في نفس اللحظة التي فكرت بها هي اعتراها وَجَلٌ مباغت ورجفة خوف لذيذ يسرق الشوق من نبضات قلبها، بعدها لم تكن تشعر إلا بملمس تلك الخشونة، ولم تعد تسمع إلا صوت نبضات الشوق المسروقة، ورغم الخوف اللذيذ ضاقت ذرعاً من كل الناس حولها، وودّت لو يعجّلوا المغادرة لتركها مع (حلالها).

كم مرّ من الوقت حتى حصل المُراد؟ لم تعد مدركة بالضبط لكنه حصل والأصوات تختفي وقد كان صوت خالتها نوال توصيها بزوجها خيراً هو آخر ما سمعته قبل تغادر مع الجمع، وجدت سُلافة نفسها وحيدة معه عندما رفع عنها البرقع الحريري أخيراً ليكشف عن وجهها وشعرها الطويل البني المُسرح ناعماً حتى منتصف ظهرها، لم ينطق بحرف وهو يُرخي أجفانه فجأة ويبتعد خطوة تمتمت بإحباط وهي ترتجف: «ابتعادك في توقيت خطأ للغاية ياه..».

صمتت ولم تعرف كيف تناديه اللحظة ترتجف أكثر وهي تحدق فيه وقد بدا لا يُقاوم على الإطلاق، الزي البدوي والعباءة الثقيلة مذهبة الحواف، كأن تصميمهما استوحي من رجولته هو تحديداً لتكون إلهاماً لبقية الرجال، ابتلعت ريقها وهي تحدق في لحيته التي خط سوادها الشيب وتفكر كيف هو ملمسها يا ترى؟! رفع نظراته إليها فجأة فارتجفت وهي تقرأ فيهما ما جعل أنوثتها تصرخ إنه يقاومها بكل ما أوتي من رجولة متفردة تمتمت كلهاء: «ألن تقترب؟».

عيناه طافتا بها من كل جانب فشعرت وكأنه يحتضنها، بل يعتصرها بين ذراعيه عصراً حتى وهو يقف عن بعد هكذا، ثم رست رحلته عند شفتيها لتهمس سُلافة بجرأة عفوية تميزها وقد قتلها الشوق إليه وأضناها الإحساس به: «ألا يقبّل الرجال في القرية نساءهم ليلة العرس؟».

اشتعلت عيناه فتقسم بالله أنه أخافها وأشعل شوقها أكثر

في نفس الوقت قال بصوت أجش: «قبل الاقتراب غير المأمون لدينا اتفاق نعقده لزواج ميمون».

تهز رأسها وعيناها لا تفارقان فمه، فيضيف بنفس النبرة: «ضفيرتك لا تراها عين ولا تبصرها مُخيلة رجل قط».

همست وهي ترتعش: «حاضر».

فيكمل وهو يكاد يميل بجسده نحوه: «أنا رجل بدويّ حُر وامرأتي لا تتبسط بالكلام مع هذا ولا ذاك، غيور وغضبي مُر لا أحتمل أن أرى صدى ضحكتها في عيون الغرباء، صبور ولو في كفي جمر، فأترك لها أن تأخذ حقها ممن يسيء إليها لكن.. بحدود يا سلافة، هل فهمتني؟ الحدود».

أطلقت تنهيدة كبيرة وهي تقترب بنفسها منه وتقول بهمس: «أفضل ما نطقته الليلة هو اسمي، سلافة، إنها المرة الأولى يا ضرغام».

تشعر بكل جسده يتشنج بينما يرخي نظرته ليؤكد على أهمية ما قاله: «بالله عليك ردّي قبل.. الاقتراب».

هتفت وصدرها يعلو ويهبط وهي تحدق فيه بتوسل: «حاضر، حاضر، حاضر، أية أوامر أخرى؟».

رفع عينين تشتعلان كالجمر وهو يرفع كفه وبخشونة أزاح العقال والكوفية معاً من فوق رأسه ليرميهما أرضاً وهو يهتف بنبرة بدوية خطيرة: «لا يأمر عليك عدو».

أغمضت عينيها بقوة وهي ترتعد لتتذوق (احتضانه الحقيقي)، ذراعاه كانتا قويتين، يا إلهي قويتان جداً لم يكن احتضاناً واعتصاراً، بل.. إعصار تدور بها الدنيا وهي تشعر بقدميها قد ارتفعتا فوق مستوى الأرض، أوشكت أن يغمى عليها من فرط التأثر به، وقد أغمي عليها حرفياً لتدخل عالمه وحده تتشبث به بكل حواسها ولا تريد أن تصحو من ذاك الإغماء.

***

في الوقت نفسه وفي الجانب الآخر من القرية

يترجل خلفان من سيارته وبتعابير منزعجة ينظر ناحية انطلاق الأعيرة النارية المحتفلة من جهة دار شيوخ الأسدي، بينما يتزايد انزعاجه بتوبيخ أخيه الأكبر ذياب عبر الهاتف: «أيها الأبله متى ستتعقل؟ لماذا لم تأتِ للعرس يحاوطك رجالنا بالحماية؟».

هتف خلفان وهو يغلق باب سيارته بحدة: «حماية؟ وهل سأظل مختبئاً خلف رجالنا من ذاك الفلاح الحقير؟ ثم أتريدني أن ألتقي بالقبيح صفوان بعد ما فعله بي؟ ولماذا أحضر العرس من الأساس؟ لم يبق إلا أن احضر عرس ابن السائس وخادم شيوخ الأسدي».

زفر ذياب بقوة عبر الهاتف وهو يرد عليه: «قلت لك ألف مرّة، ضرغام الأسدي عالي الشأن عند شيوخ الأسدي ويجب أن نكسبه نحن في سباق مع صفوان لا

يعرف التراخي، حتى ذاك الحقير قحطان الجبلي جاء من العاصمة بشكل خاص كيّ يحضر عرس ضرغام».

رد خلفان بامتعاض وعيناه تنظران إلى شباك الدار الذي يقصده الليلة: «قحطان يتملق للشيخ عبد الهادي الأسدي، له عنده مصالح مالية ومشاريع مقترحة».

فعلق ذياب وهو يوبخه مجدداً: «إذن فهو يتصرف بذكاء فلماذا لا تفعل المثل بدلاً من الذهاب إلى تلك المرأة على أطراف القرية؟».

يعبس خلفان وهو يتلفت حوله قائلاً: «أتراقبني يا ذياب؟ من أخبرك عنها؟».

بإحباط قال ذياب: «أنا لا أراقبك لكني خمنت فقط، عندما أخبرني حارسك أنك أمرته بالبقاء عند دارك ومنعته من مرافقتك خمنت هل تظن أني فقط من يخمن علاقتك الشائنة بها؟ رائحة تلك المرأة النجسة بدأت تفوح في القرية».

بنزق رد خلفان: «فلتفح وليشمها الجميع، لا يهمني دعني ذياب لحالي، أنا لم أعد أطيق القرية بأسرها».

ثم ألقى تحية عاجلة قبل يغلق هاتفه تماماً وهو يسب ويشتم في الجميع، بدءاً من الشيوخ ثم ضرغام وصفوان وعبد الواحد وكل من يرد بخاطره، وضع الهاتف في جيب جلبابه وعندما تحرك خطوتين سمع حركة بين الأحراش القريبة، فعبس وهو ينادي ويعود بخطواته ناحية الصوت»

«من هناك؟»».

ساد الصمت يتخلله بعض لهاث الأنفاس فيعقد خلفان حاجبيه وهو يخرج مسدسه من جرابه، خمد اللهاث فجأة بينما خلفان يقترب على مهل من الناحية التي سمعه منها، ثم شعر بحركة من خلفه وحالما التفت عاجلته ضربة صخرة، تفاداها جزئياً لكن المسدس وقع منه أرضاً، رفع وجهه والدم ينزف من جانب صدغه ليرى أمامه عبد الواحد بوجه يحمل الغضب والثأر بينما حملت كفه خنجراً ذهبياً يلتمع على ضوء القمر، مدّ خلفان كفه بحركة تهدئة وعيناه تبحثان عن مسدسه بينما يقول لعبد الواحد: «احذر يا عبد الواحد، لا تضيع نفسك، إن قتلتني ستُقتل»».

أخذ عبد الواحد يقترب وهو لا يبالي قائلاً: «وهل تظن الموت يهمني يا هاتك الحرمات وكاشف خدور العفيفات؟»».

هاجمه عبد الواحد بحركة مباغتة فلم تصب خلفان ليبدأ عراك بين الرجلين وينتهي كلاهما على الأرض وكف خلفان تمسك بمعصم عبد الواحد يثبت يده التي تمسك بالخنجر، صراع لم يطل كثيراً حتى غلبت قوة الشباب شجاعة وثأر الشيّاب، تمكن خلفان من أخذ الخنجر وغرزه دون رحمة في قلب عبد الواحد ليسيل دمه مع دمعة قهر سالت على خده، ينهت خلفان وهو ينهض على قدميه لاهثاً ويحدق بجسد عبد الواحد وقد سكن تماماً وعيناه شاخصتان للسماء، ضوء القمر كشف قبضة الخنجر وقد

نُقش عليها اسم (إبراهيم الضاري).

***

الغزل السادس عشر

(الغربة، أن لا تجد للأحباب خيطاً تغزله، وثوب وصالهم لا يعرِفُ مِنْسَجه)

بيت المضيف.. دار صفوان الضاري

تقف غنيمة قبالة ذاك الجدار الذي يحمل روح بيئتها الفخورة، جدار عُلق عليه كل ما له دلالة القوة والشجاعة والنخوة وطيب الأرض وسلسال مجيد لشيوخ عشيرة الضاري، لوحة كبيرة مرسومة لفرسان على صهوة خيولهم الأصيلة يهاجمون وهم لا يهابون الموت، على يمينها سجاجيد صغيرة عربية الطراز منسوجة باليد، وعلى يسارها صور قديمة بالأبيض والأسود لشيوخ الضاري، بعضها يعود للجد الأول، وقد كتبت الأسماء والتواريخ، وتحت اللوحة عُلّقت بعض الأسلحة، بندقية قديمة الطراز صدئة بعض الشيء، سيف غمده فضي مرصع بأحجار العقيق الأبيض، وتحته سيف آخر أصغر حجماً غمده ذهبي ومرصع بأحجار الفيروز، وأخيراً تراصَّ جنب بعض خنجران ذهبيان ذوا نقوش بارزة فتقترب غنيمة أكثر لتقرأ المكتوب على المقبض، ورغم صعوبة الأمر عليها وهي قد تعلمت القراءة والكتابة بشكل مبسط إلا أنها تمكنت من قراءة المنقوش، اسم الشيخ (محمد الضاري)، ثم انتقلت لقراءة المنقوش على مقبض الخنجر الثاني فكان اسم والد الشيخ محمد، الشيخ (فاروق الضاري)، ثم عبست وهي تمد

يدها تلامس موضع رأس بسمار وأثر واضح لخنجر ثالث مفقود، فُتحت باب المضيف لتهب معها ريح الشتاء فترتعد غنيمة تلقائياً وهي تستدير بتعابير الخوف كي تواجه القادم نبضات قلبها كأنها تحتضر من شدة الجزع حتى بدأت تنتظم بالاطمئنان لرؤية أمها وهي تدخل الدار تتمتم بعبوس: «لقد عاد سيدي صفوان مع زوجته من عرس ضرغام الأسدي، ولم يعد أبوك».

تبتلع غنيمة ريقها وهي ترفع يدها لموضع صدرها تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، لا تعلم متى ستتجاوز هذا الرعب كلما انفتح عليها باب الدار، لتعيش تلك اللحظة التي لا تنساها عندما دخل عليها الخسيس يريد نحر شرفها، أخذت نفساً عميقاً وأطلقته وهي تتذكر كلمات سيدتها دليلة، كل كلمة تقولها لها تشعر بصداها قوياً في الأعماق تساعدها على الثبات **(لا تدعيه يخيفك يا غنيمة إنه ذكر جبان، لا تجعليه ينتصر فمثله لن يعرف للنصر عنوان، ارفعي رأسك وانظري في عينيه وقولي: أنا أقوى منك يا هاتك الأعراض، وقدرُك أبد الدهر مُهان).**

هدأت غنيمة قليلاً بينما تغلق أمها باب الدار خلفها ثم قالت تخفف من وطأة القلق عليها وعلى أمها: «ربما ذهب إلى الحظيرة ولم نتنبه له».

ردت أم غنيمة بتعابير قلقة حانقة: «تفقدته للتو هناك ولم أجده، لا أدري أين بات يختفي ذاك الرجل».

لا تعرف غنيمة لماذا عاودت النظر للجدار لتتركز عيناها على موضع الخنجر المفقود وقلبها ينقبض سألتها أمها باستغراب: «لماذا تحدقين هكذا بالجدار؟».

ردت غنيمة وغصة غامضة تخنقها: «انظري لهذا المسمار أمي، ما الذي كان معلقاً هنا؟».

فقالت أم غنيمة: «لا أدري يا ابنتي، مؤكد خنجر أو سيف مما يقتنيه الشيوخ أو مما يأتيهم من هدايا وعطايا، إبراهيم الضاري لم يكن شيخاً لكن مقامه كبير وقد كان دوماً سندا لأخيه الشيخ محمد، رحمهما الله».

ثم تركتها أمها ومضت إلى المطبخ بينما غنيمة لا تطرف عيناها بعيداً عن ذاك المسمار وهي تتذكر مجيء أبيها إليها صباح اليوم كي يكلمها بعد طول انقطاع، لم يقل الكثير وهي لم تستطع الرد عليه، بل لم تستطع حتى النظر في وجهه، قال لها: «يا درّة أبيك سامحي شيبته، لكني بقوة الله سأعيد إليك حقك وأرفع رأسك، فأبشري».

ثم مد يده ليملّس فوق رأسها قائلاً بحشرجة: «قلبي وربي راضيان عنك، نحر الصبايا أنت فلا تطأطئي رأسك إلا لمن خلقك».

فلم تفعل ساعتها إلا أن انحنت لتلثم ظاهر كفه والكلمات تستعصي عليها، دمعت عينا غنيمة وهي تتذكر آخر كلام لها مع أبيها وعيناها ما زالتا معلقتين بالمسمار كأن روحها باتت معلقة به.

***

يهدر ذياب عبر الهاتف وهو يوشك على الجنون من شدة الغضب: «ماذا فعلت أيها الأرعن؟».

يرد خلفان برعونة حقيقية وهو يجلس داخل سيارته المظلمة: «هل كنت تريدني أن أتركه يقتلني؟ هذا الكلب القذر استحق ميتة أسوأ من هذه لو كان بيدي لكنت شددته إلى جذع نخلة وجلدته بالسوط حتى الموت».

يلكم ذياب مقود سيارته على الجهة الأخرى من الاتصال بينما يحاول التماسك ليحل المصيبة قائلاً بتركيز: «هل رآك أحد؟ أجبني بسرعة وتأكد مما حولك».

رد خلفان وعيناه تسبران ما حوله: «لا.. لا أحد.. الكل كان منشغلاً بعرس ابن السائس».

فسأل ذياب بتوتر: «وصاحبتك؟».

حدق خلفان بالدار المظلمة وهو يقول: «لم ترني ولم تشعر حتى بوجودي كما أظن، لكانت خرجت إليَّ، أظنها نائمة فدارها مظلمة منذ وصولي، أو ربما ليست في الدار من الأساس».

عندها هتف ذياب على عجل: «تحرك بسيارتك على الفور وعد إلى دارك، أنا سأتصرف وأخفي جثته بطريقتي».

تساءل خلفان وهو يشغل محرك سيارته ليترك المكان: «ألا تحتاج إليَّ؟».

رد ذياب بنبرة قاطعة: «لا أحتاج لأحد، لا نريد لفت الأنظار وأنت لن تجيد التصرف بمفردك».

زفر خلفان بقوة ثم أغلق الهاتف وسيارته تعود به من حيث أتى تاركاً جثة عبد الواحد مرمية هناك.

***

بعد قليل..

تحرك ذياب بخفة الذئاب بين الأشجار وقد ترك سيارته عن بعد مناسب حتى وصل إلى حيث وصف له خلفان، متلثماً يخفي وجهه وعيناه ترقبان ما حوله بتركيز شديد وتنبه يقظ، وجد جثة عبد الواحد بسهولة ولحسن الحظ لم تكن في مرمى نظر شباك الدار لتلك المرأة صاحبة أخيه، انحنى ذياب مباشرة ناحية الجثة فجذب عيناه ذاك الخنجر الذهبي المغروس في صدر عبد الواحد وكان مقتله، الخنجر بدا مألوفاً بينما تمتم ذياب: «من أين سرقت هذا الخنجر يا عبد الواحد؟ إنه خنجر شيوخ ولا شك».

اتسعت عينا ذياب وهو يقرأ اسم (إبراهيم الضاري)، ثم في مكان من ذاكرته البعيدة وهو طفل قد أضاء فتذكر على الفور أين رأى هذا الخنجر بالضبط، لقد كان معلقاً على الجدار في بيت المضيف التابع لدار (إبراهيم الضاري)، الدار التي جددها وسكنها المسخ صفوان بعد عودته المشؤومة من الغربة، لمعة الشيطان في عينيّ ذياب أخذت تبرق ولم يفكر مرتين قبل أن يمسح مقبض الخنجر بطارف

كوفيته في حرص تحسباً لأي شيء في المستقبل، ثم ترك باقي الأمور على حالها ليغادر وروحه المظلمة تنعم بالرضا، يتمتم وهو يعود من حيث أتى: «التاريخ يعيد نفسه يا ابن سدرة، لكن هذه المرة لن تخطئك جريمة القتل سأحرص أن لن تخطئك».

***

دار صفوان الضاري

يفتح باب مجلس أبيه ليدخله، شعر بالحاجة للبقاء هنا، مجلس نظيف ورائحة البخور والعود تفوح منه وقد أوصى حنّة الاعتناء به رغم خلوه من الزوار هذا المجلس الذي كان عامراً بالقاصدين لأبيه قبل سنوات طويلة فإنه اليوم لا تقصده إلا الغربة والوحشة، جلس صفوان على إحدى الأرائك المتراصة في جلسة عربية الطراز مما هو موجود في معظم دور الشيوخ، لم يشعل إلا إنارة واحدة ليجلس وحيداً هناك وقد تركته دلال لتصعد إلى الطابق العلوي بصمتها الذي رافقها ذهاباً وإياباً في الطريق إلى ومن دار شيوخ الأسدي، أزاح عن كتفيه العباءة الصوفية لتسقط خلف ظهره، الغرفة الواسعة باردة للغاية إلا أنه لم يشعل نار الحطب في المدفئة، فتح أول الأزرار بجلبابه والضيق يسيطر عليه، رغم أجواء العرس المبهجة إلا أنه لم يستطع الاندماج، كأنّ جبل قرية الشيوخ بأكمله قد جثم فوق صدره الليلة، التقى في العرس بسطام الضاري، والد دلال، الذي تجاهله كلياً ولم يلتفت إليه إلا بنظرة تحقير

وكره، أما أزواج بناته فقد اقتربوا بطيب خاطر للسلام والتحية ثم انسحبوا بهدوء.

كل هذا لم يشغله، ربما أقلقه فقط تفكيره بدلال وقد حضرت العرس مع النسوة في دار شيوخ الأسدي، فلم يكن يعرف حالها هناك وقد كانت المرة الأولى التي تخرج في مناسبة كهذه منذ زواجهما، فيما بعد انشغل بحوار خاص مع الشيخ عبد الجبار والشيخ عمران وولده الشيخ عبد الهادي، والثلاثة كانوا يقدمون له الدعم بشكل غير مباشر، الكلمات حملت المعاني وقد تركوا له الخيار الأخير بالإقدام على الخطوة، لم يكن يهاب تلك الخطوة وقد باتت أمراً ملحاً لا غنى عنه، لكنه يخاف الله في دماء قد تُراق على صراع للمشيخة.

هسيس ثوب جعله يلتفت ناحية الباب المفتوح للمجلس فيرى دلال تقف هناك وقد خلعت العباءة السوداء ليظهر الثوب الذي حضرت به العرس، ثوب أبيض مطرز بحلو النقوش المذهبة، شعرها مُرخى حولها فتاقت أصابعه كي يلمسها، كانت هادئة صافية النظرات كتومة بشكل يؤرقه، تقبضت كفاه بتوتر وهو يتبادل معها النظر وينتظر، منذ أيام وهو ينتظر، كان يعلم أنها احتاجت للخلوة وهذا أراحه وخفّف عنه مخاوفه أن يخسرها، استوعب أنها احتاجت أن تواجه اثنتي عشر عاماً من حياتها وأجمل سنيّ عمرها الغالي قد ضاعت ثمناً للخديعة، هو أيضا واجه الأمر قبلها، لكن مؤكد حاله لا يشبه حالها، لا من قريب ولا من بعيد

يمكن أن يُقارن بعذابها وما عاشته من امتهان لإنسانيتها قبل أنوثتها.

خطت لتدخل فيكتشف إنها حافية القدمين بينما تلف ذراعيها حول جسدها وتقول: «أخواتي البنات سلمن علي، ربما بتحفظ لكنهن بادرن مبادرة الغرباء».

يقطر قلبه ألما لأجلها بينما يرد بحنو: «خطوة نخطوة يا دلال والغربة تبددها صلة الدم».

خطت أكثر نحوه وهي تقول بنفس الهدوء والصفاء: «أظنهن بادرن بعد أن لاحظن الاهتمام الذي أبدته نحوي الشيخة نزهت زوجة الشيخ عبد الجبار».

كان ثوبها شاعرياً للغاية في عينيه، كأنه ثوب عرسي تركها نتكلم وقد اشتاق لصوتها فيخاف قول كلمة قد تعكر صفاءها هذا بعد طول صوم عن الكلام، كانت واقعية وذكية كما عهدها في الصبا وهي تضيف: «حتى الشيخة مليحة وكنتها رغد العيش كنّ مرحبات وأطفأن الصمت الذي انتاب النسوة حال دخولي ليعود العرس لصخبه المعتاد».

ينظر في عينيها الخلابتين بسحر عيون البدويات فيقرع قلبه بالنداء، يتنحنح وهو يسأل برفق: «أمك لم تحضر أليس كذلك؟».

ردت وهي تدلك ذراعيها كي تحصل على بعض الدفء: «أمي في حزنها على ولدها الوحيد».

رفع كفه نحوها وقد شعر باحتياجها له قبل أن تشعر هي يناديها بحة المشاعر الصافية من الماضي: «دلال».

غام صفاء عينيها بالتعب وهي تنظر إليه والى كفه الممدودة ثم قالت بتنهيدة شكوى رقيقة: «أنا تعبت من.. الغزل».

تنبت ابتسامة على فمه على استحياء وكفه تهتز بالدعوة قبل أن تهتز كلماته الآمرة من فمه: « كفاك غزلاً.. تعالي.. اقتربي..»».

طالت النظرة بينهما، لا هو يتنازل عن دعوته ولا هي تتراجع عن قبولها، حتى خطت بقدميها نحو القبول لتتقدم إليه وتدسُّ كفها البارد في دفء كفه، بحركة فاجأتها سحبها ببعض الخشونة ليجلسها على حجره فتركن بكفيها إلى صدره بينما يتلفت يميناً وشمالاً كي يرفع طرفي عباءته لتضمهما معاً بالدفء، دقات قلبه تهدر تحت كفها، ليرد قلبها بهدير نبض يجاريه، رفعت عينيها إلى عينيه تسأله ببساطة: «أخبرني صفوان، متى علمت أن جابر ما زال حياً؟»».

رد وكفاه الضخمان تمران فوق ظهرها من تحت العباءة الصوفية قائلاً بنفس البساطة: «صدفة، أو هي مشيئة المولى، بعد اثنتي عشرة عاماً أراه أمامي في الشارع للحظات ظننته شبحاً ولم أصدق عينيّ، هل تتخيلين أن يختار ذاك البلد تحديداً كي يطلب العلاج؟ ويمرُّ بشارع في نفس

اللحظة التي أمرُّ فيها».

سألته ومرارة حزينة تلمس نبرة صوتها الهادئة: «ماذا قال لك؟».

رد بخفوت يستذكر ذاك اللقاء القصير في الغربة: «لم يقل الكثير، أخبرني عن وفاة عمي محمد وبعض الأخبار عن القرية، وعندما سألته عنكِ تهرّب ولم يفصح». ترتعش شفتاها وهي تهمس: « كان نادماً وحاول أن يصلح لكني لم أستطع يا صفوان، لم أستطع مسامحته».

قال يخفف عنها: «لا تلومي نفسك يا دلال، هو كان يعلم بالتأكيد مدى سوء ما فعله معك، فادعي له بالرحمة والغفران، يكفي أنه كان السبب لعودتي، الغربة لم تكن لي على الإطلاق».

شعاع رقيق من الفضول التمع في عينيها وهي تتساءل: «الغربة.. كيف هي الغربة؟».

تنهد بقوة ليميل ويلامس بشفتيه خدها هامساً بلوعة السنين التي ضاعت: «بالنسبة لي، أي مكان لا تكونين فيه هو موطن الغربة».

كفاها ارتفعا إلى مقدمة جلبابه ودون أن تدري كانت تلامس صدره عبر الأزرار المفتوحة وهي تقول بلوعة كلوعته: «احكي لي عنها».

رد وما زال يلامس بشرتها بشفتيه وكفاه يدافعانها

لصدره: «الأيام تتشابه، الوحشة تصبح أوفى الرفقاء فلا تفارقني، والحنين يلبس للقتل رداء، فيميتني في كل لحظة ثم يحييني».

أصابعها تشد على مقدمة جلبابه ببعض الخشونة وهي تسأل: «ألم تغرك امرأة؟». ترتعش ابتسامته وقلبه يرفرف وهي يرد مُحايلاً ربما، لكنه كان صادقاً: «بعضهن حاول..».

تعاود السؤال بإصرار أنثى: «أقلبك من منعك؟».

عندها رفع وجهه لينظر إليها ويقولها بصدق مباشر: «بل الحرام».

تزمّ شفتيها وهي تشعر بالغيظ وتشتعل عيناها وهي تسأل: «إذن ألم يُغرِكَ الحلال في الغربة؟».

لأول مرة منذ عودته للقرية، بل ربما منذ سنوات طويلة يقهقه ضاحكاً ثم يقول من بين ضحكاته: «دوماً كنتِ غيورة كالنار وأنا أول المحروقين بها دون ذنب جنتيه».

ثم يميل لعينيها مضيفاً بنظرات حلوة تشع بالخضرة: «لا أعلم ما الذي رأيته بي منذ البداية يا دلال الحسن أمثلك يقع في هوى مثلي؟».

شيء قديم التمع في عينيها أعادها للصبا وهي تنشد له أبياتها من الماضي: «**وخضرة في عينيه للطيب مَرْعى، ودُكنة سماره تُردي قلوب الصبايا صَرْعى**». صدره أخذ

يعلو ويهبط وهو يتمتم بحشرجة: «أما زلتِ تحفظينها؟».

تكمل ويدها تلامس صدره المكشوف بجرأة أكبر وشوق عارم يكاد يشتعل: «**عنوان الرجولة ولطالبي النخوة مَسْعى، كفُه أن مُدَّت، فالقلوب قبل البطون شَبْعى**».

هادر الأنفاس وهو يميل بها بخشونة لتستلقي على ظهرها وهو يهوي بالعشق نحوها قائلاً: «أو يلومونني أني أحبك كما لم أحب في حياتي أيّ بشر؟».

لم يحتمل الصبر أكثر وهو ينال شوق روحه ورجولته، ووسط صخب مشاعرهما استفاقت دليلة وهي تبعد فمها عن فمه وتهمس بارتعاش المشاعر: «صفوان.. الباب مفتوح.. حنّة».

يرفع رأسه لينظر ناحية الباب وكل جسده وروحه يدوي أبعد طارف العباءة عنه ليقف على قدميه آمراً بأنفاس هادرة: «لا تتحركي من مكانك».

خطا على عجل ناحية الباب فأغلقه بالمفتاح ثم عاد إليها وقد كانت بانتظاره في شوق يباري شوقه، العباءة جمعتهما ورائحة العود تبخرهما واتحاد لا يُفصم مكتوب على جبينهما.

مكيدة أم خديعة من الماكرين، تجبّر أم ظلم من الأقربين، لم يعُد للسؤال معنى؛ لكن سيظل للقصاص مسعى.

***

دار ضرغام الأسدي.. قرابة صلاة الفجر

أنهى حمامه ثم أخذ يجفف جسده وعيناه تحومان حول أغراضها التي ملأت المكان ارتدى ملابسه البيتية ثم مدّ يده يلامس منشفتها الملونة المعلقة على مشذب أبيض صغير لا يعرف من أين أتى ليستقر في زاوية الحمام، اقترب من رفٍّ كان قبل بضعة أيام خالياً ليمتلئ اليوم بما يُعلن عن وجود امرأة في داره، يلامس بيده تلك القوارير العطرية بألوانها الزاهية، ثم بفضول غير مسبوق يفتح القارورة تلو الأخرى فيتشمم العطور الفواحة المنعشة منها، يشعر بارتباك حلو للغاية أمام أشيائها هذه التي غزت داره، يتمتم بابتسامة رجولية والماء يتقاطر من شعره فوق القارورة التي يحملها بيده: «أمضى الزمن طويلاً يا ضرغام حتى بتّ تشعر بالدهشة والعجز أمام أغراض أنثوية كهذه؟ أرأيت كل ما رأيت وظننت أن الحياة بأكملها لم تعد تثير دهشتك ثم تأتي بضعة قوارير تبهرك وتزعزع قناعاتك؟»،

تلتمع عيناه وتتجدد داخله رغبة العودة إلى سُلافة ونزع النوم منها ليجعلها تصاب بالإغماء بين ذراعيه مرة.. ثالثة، أعاد القارورة مكانها جنب رفيقاتها ثم تحرك مغادراً الحمام الدافئ وهو يتمتم بدم ثائر في العروق: «امرأة.. صعبة»،

عند باب الغرفة تباطأت خطواته، لم يتخيل أبداً أن (عروسه) التي قضى معها ليلة اشبه بمفرقعات يوم العيد، سيجدها تجلس هكذا وسط السرير، تغمر وجهها في كفيها وهي.. تبكي، أخفضت سُلافة كفيها عن وجهها وهي

ترفع نظراتها إليه حالما أحست بوجوده، تتسع عيناه برد فعل تلقائي حالما هتفت بصوت باكٍ: «أنا أم سيئة».

يتمتم وهو يقترب: «أم سيئة».

تنهمر دموعها وهي تقول بإصرار يوجع القلب: «أجل سيئة.. سيئة ولدي غير راض عني ولا عن زواجي كيف أفعل هذا به؟ لا أستحق أن أشعر بما أشعره معك».

كان قد وصل إليها ليجلس على حافة السرير جوارها، التزم الصمت وهو يمد يده ليزيح شعرها البني بعيدا عن وجهها المبلل بالدموع بينما تهذر سُلافة وزرقة عينيها تمطر حزناً رقيقاً: «إنه حزين، قلبي يشعر به».

أمسكت كف ضرغام لترفعه مكان قلبها فوق قميصها الحريري المكشوف وهي تتمتم بلوعة: «هنا يا ضرغام، قلب الأم لا يخطئ».

يعترف أن الأمر صعب، صعب للغاية، قضى سنوات طويلة معتكفاً يعتزل النساء، حتى أتت هذه المرأة وقلبت موازينه، قاوم هوى نفسه ليقول بصبر: «مؤكد لا يخطئ، وماذا كان يخبرك عن ولدك قبل زواجنا؟».

أفلتت يده وصوتها يتعثر بالبكاء: « كان.. حزيناً أيضاً.. آه يا ضرغام.. يا لوعة قلبي عليه».

فجأة رمت نفسها على صدره تلف ذراعيها حوله وشعرها يغمر وجهه، آه من الشعور البنية التي جنّنته في ليلتهما

الأولى، تبسّم برعشة وهو يخمن أي قارورة استخدمت ليفوح عطرها من جلدها وشعرها هكذا، كانت قد توقفت عن البكاء وأخذت تشد نفسها إليه وتغمر وجهها عنقه فتهمس له: «رائحتك حلووووة».

أغمض عينيه وابتسامته تشع وهو يقول لها: «ليست كحلاوة رائحتك».

ولم يستغرب عندما سألته ببساطة: «ماذا تستخدم في استحمامك؟ أنا أعشق تجربة كل جديد من غسول الشعر والجسم».

أبعدها قليلاً لينظر إلى وجهها وهو يفكر كم هي امرأة استثنائية خفيفة الروح منعشة حد الإدمان، لا تزال دموعها عالقة برموشها لكنها تبتسم بفضول وتنتظر منه الإجابة بجدية، فيمنحها ما تريد وعيناه تشتاق متعة النظر لشفتيها: «إنه صابون الكافور لا أكثر، محلي يبيعه عطار في سوق القرية، مؤكد لا يضاهي ما تقتنينه أنت».

وكأنها تشعر به فتميل إليه تذيقه شفتيها الحلوتين ثم تبتعد فجأة وهي تهمس بأنفاسها المتسارعة بشوق مفضوح: «كنت تعرف أني سأقول لك (حاضر) أليس كذلك؟».

رد بثقة وهو يعلم أنها تتكلم عن شروطه بالأمس قبل (الاقتراب): «لو لم أعرف لما كنتِ هنا، حليلة لي، من الأساس».

ترفع كفها لتمرر أطراف أصابعها فوق لحيته الكثيفة

وهي تواصل همسها: «إذن لماذا طلبتها ما دمت تعرف أني سأكون راضية؟»».

كانت تجربة لا تضاهى أن يجالس امرأة هكذا، تجعل قلبه يصرخ كأنه عاد شاباً في العشرين، لم يفقد تركيزه وعيناه لا تفارقان شفتيها وهو يرد: «أن أعرف أنكِ سترضين، غير أن أطلبَ منك تنفذين»».

ثم ارتفعت نظراته لعينيها مضيفاً بصوت أجش: «دموعك غالية عليّ جداً يا سلافة، لا أبكاكِ الله وأنا حي أرزق»».

ثم يميل بها يروي روحه من سقيا فمها، وبين شربة وأخرى كان يتمتم الدعاء: «(اللهم إني أسألك خيرها وخير ما جَبَلْتها عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما جَبَلْتها عليه)»».

تستلقي على ظهرها وهي تنظر إليه بعشق جنّنه أكثر لتهمس بعذوبة: «أنت تقرأ الدعاء لأجلنا؟»».

تنهد قائلاً ببعض الخجل من فقدانه السيطرة بالأمس: «لم نصلِ ليلة الزفاف ركعتين لله، وهذا خطئي»».

تتسع ابتسامتها وتضيء فوانيسها وهي تقول له بحماسة وسلاسة: «نصلي الآن، أظن صلاة الفجر قريبة»».

رد وهو عاجز عن الابتعاد اللحظة: «هي قريبة»».

لكنها كانت أقوى منه لتدفعه في كتفيه وهي تقول ببشاشة مُعدية: «سأتوضأ، لا تسبقني للصلاة»».

انقلب على ظهره وشعور بالبؤس يجعله يضحك بينما عيناه تتبعان خطواتها المهرولة في حماسة إلى الحمام، بقميص نومها الحريري المُغري والشعور البنية تتطاير حولها فتزيد بؤسه.

***

العاصمة.. بيت ثامر.. في نفس الوقت

عند حوض غسيل الصحون في المطبخ يقف ثامر مستنداً بكفيه على حافة حوض غسيل الصحون الفضي، سيجارة مشتعلة بين إصبعيه والدخان يتصاعد منها وهو ساهٍ عنها، عيناه تحدقان في الفراغ وحاجباه معقودان، لقد أصر على رشا أن تبيت عنده الليلة رغم أنه لم يكن راغباً حقاً بوصالها، حركة ذكورية بحتة أراد بها الإحساس برد الاعتبار في ليلة زفاف سُلافة على ذاك البدوي، رماد السيجارة تراكم حتى وقع بعضه فوق ظاهر كف ثامر فشتم وهو يرمي السيجارة داخل الحوض ويفتح صنبور الماء فوق يده الملسوعة، أغلق صنبور الماء وأفكاره لا تحيد بعيداً عن ذاك الرجل، منذ أن رآه برفقة سُلافة وعلم أن هناك رابطا بينه وبينها، شيء غريب يجمعهما في صورة تبدو للوهلة الأولى غير متجانسة لكنها في ذات الوقت متكاملة حد الإبهار، أطبق فكيه بقوة وهو يتمتم بمواجهة للنفس: «هل تغار على سُلافة يا ثامر أم تغار من ذاك الرجل؟ هل ما زلت تعتبرها ملكاً لك ولا تتقبل أن تكون لرجل آخر أم إنك كاره أن تكون لذاك الرجل بالذات؟

رجل أهانك كما لم نتلقَ إهانة في حياتك».

أغمض عينيه وهو يتذكر سُلافة ليلة زفافه عليها، كانت صغيرة حلوة متيمة بحبه، ربما لم تكن جميلة بشكل خاص، بل ربما أحيانا كان يراها عادية، لكنه شعر بالرضا عن نفسه وهو ينالها عبر منفذ الحلال ولم يكن لها منفذ آخر، شعر بالانتصار ليلتها فلم تصعب عليه امرأة قبلها ولا بعدها، عليه أن يعترف أنه كان سعيداً معها، امرأة فيها جاذبية طبيعية متفردة فتراها أجمل من حقيقتها رغماً عنك، فيها خفّة ومشاعر تلقائية لا تخجل الإفصاح عنها؛ لكنه لم يكتفِ أراد المزيد من الحرية في إقامة علاقات أخرى، ثم ظهرت رشا في حياته، زميلة الدراسة أتت لتعمل في نفس المستشفى جميلة للغاية، مثقفة لبقة متحدثة بأناقة، و.. مطلقة للتو.

«لماذا استيقظت؟».

لم يلتفت إليها وهو يكتم ضيقه منها بصعوبة ليرد عليها: «لا شيء، عطشت، ثم رغبت بتدخين سيجارة».

اقتربت رشا لتقف جواره ثم مدت يدها فتأخذ علبة سجائره، تفتحها وتلتقط سيجارة ثم تضعها في فمها وتشعلها بالقداحة المرمية، نفثت الدخان من فمها وهي تقول بنبرة عملية: «لم أعد أحب الكذب على عمتي في كل مرة كي أبيت عندك، ألم يئن الأوان؟».

التفت إليها، جمالها مبهر بقميص النوم القصير وشعرها

المرسل الطويل وقد بدت مغوية للغاية وهي تدخن بأناقة لكن تلك الصورة الكاملة للأنثى في عينيه لم تبهره اللحظة، بل شعر بالغربة عنها، رد بنزق: «قلت لك ألف مرة لا تضغطي علي، أنا لا أحب هذا، سنعلن الأمر عندما..».

قاطعته ببرود وهي تمد يدها داخل الحوض لتنفض بعض الرماد عن سيجارتها: «في السابق كنت تقول لي إن سُلافة ستستغل الأمر كي تحاول مجدداً أخذ حضانة ليث، الآن هي تزوجت ولم يعد لديها فرصة لاستخدام هذه الحجة ضدك».

حاول التعلل بسبب آخر وهو يقول بعبوس: «لكن ليث حالته النفسية سيئة».

رفعت حاجبيها قليلاً لتقول بتهكم: «ولا أراك مهتماً كثيراً بنفسيته».

سأل بنبرة أعلى وعبوس يشتد: «ماذا تعنين؟».

ردت دون أن تهابه: «أعني أنك تتركه لحالة مطلقتك».

تأفف وهو يرد بضيق متزايد: «قلت لك لأنه هدّد بالهروب، لكن حضانته ما زالت معي ولن أسمح لسلافة بانتزاعها مني، أستطيع أعادته إلى بيتي بالقانون متى ما شئت».

بحركة عصبية مدت رشا يدها لتدعس السيجارة في بطن الحوض وهي تقول بنبرة غير مريحة يفوح منها

بعض التهديد: «ثامر، لا أريد أن أشعر أنك تتهرب من الإعلان».

لم يحتمل وهو يهتف بها يكذب على نفسه قبل أن يكذب عليها: «ما بالك منذ أسبوع تلحين ما الذي استجد؟ نحن سعيدان هكذا».

نظرت في عينيه وهي تقول: «أنت سعيد لكن أنا لا أنا من اضطر أن أكذب حتى أبيت ليلة معك، أنا من رضيت باعتقاد ولدك أني عشيقتك رغم أني زوجتك».

قال بنبرة عنجهية: «لم أضربك على يدك، أنت طلبتِ قبل عام أن نتزوج لتكون علاقتنا في الحلال، وأنا نفذت لك لكن بشروط وقد وافقتِ عليها».

نظرت إليه مطوّلاً قبل أن تقول بتهديد صريح هذه المرة: «أنا لحمي مر يا ثامر، واللعبة التي لعبتها على سُلافة لن تنجح معي فيها، نحن نفهم بعضنا جيداً».

تأفف مُجدداً وهو يشوح بيده في انزعاج ثم قال: «أرجوك رشا أنا بمزاج سيئ». ابتسامة جانبية لئيمة منها أخفت بها (غيرة المرأة) التي تفهم ما يعتري رجلها من حنين لامرأة أخرى سابقة فتحرق أعصابه انتقاماً وهي تقول له بحلاوة: «ولماذا مزاجك سيئ حبيبي؟ أتغار على.. مطلقتك؟ يقال إن رجال البدو يملكون مواصفات ذكورية عالية، ترا كيف قضت سُلافة ليلتها الأولى في حضن ذاك البدوي؟».

صرخ دون شعوره وعيناه تبرقان بالغضب: «كفى».

تواجهه ببريق أشد في عينيها وهي تقول: «أجل أنت مُحق، كفى».

ثم تميل لتطبع قبلة خشنة على خده قبل أن تضيف: «قبل أن أعود لأنام عليّ أن أبارك لك، أنت ستصبح أباً.. من جديد».

اتسعت عيناه ذهولاً وهو ينزل بنظراته لبطنها متمتماً بصدمة: «أنت حامل».

ابتسامتها ثابتة لا تتزحزح وهي ترد ساخرة: «فرحتكَ معدية».

ثم استدارت لتخطو عائدة من حيث أتت لكن عند باب المطبخ توقفت لتقول بنبرة آمرة لا فصال فيها: «حضّر كل ما تحتاجه للإعلان عن زواجنا خلال أسبوع كحد أقصى».

ثم غادرت لتتركه وحده يشعر كأن فخّاً أطبق عليه.

***

قرية الشيوخ.. دار صفوان الضاري.. مع إشراقة الصباح الباكر

يبتلع ريقه بصعوبة وكفه يمر على صفحة خدها الأبيض، حملها بنفسه إلى غرفتها بعد ليلة لا توصف في غرفة المجلس، لم يكن تبادل العشق والهوى، بل تكلما، ثرثرا بلا

توقف، كما كانا يفعلان بالصغر، أضحكها وأضحكته، أنصت لحكاياتها عن الصبايا اللواتي تعلمن منها الغزل وأنصتت هي لحكايات الغربة والعمل وجيرانه هناك، وكأنهما كانا مسافرين وعادا، وكأن لا ماضٍ فرّق بينهما ولا حاضر يؤلمهما، فقط.. عادا.. اللحظة فقط يشعر أن دلال الحسن عادت إليه، **ضلع من روحه وحَنَّ، عاد لموضعه وكَنَّ.**

لم يحتمل ليلف ذراعيه حولها يضمها إليه فيؤذيها دون قصد فتتأوه مستيقظة من نومها، فيهمس قرب أذنها: «آسف».

ينقلب على ظهره ويجرها معه لتنقلب فوقه وينتثر شعرها الداكن فوق وجهه، يتنهد وصوته يرتجف بالقول الخافت: «منذ عمر التاسعة عشرة كنتُ أحلم بك حليلتي، هكذا بين ذراعي على سرير واحد».

تنظر إليه بعينيها الواسعتين وشغب الصبا الفاتن يلمع فيهما بينما صفوان يفصح المزيد بذاك الخفوت الخجول من ذنبه: «استغفرت بالله كثيراً واستعذت به من وسوسة الشياطين لكني.. رغماً عني.. كنت أحلم مراراً وتكراراً، حتى إني ذهبت لمولانا عبد القدوس، أخبرته عن أحلامي مع صبية لكني لم أخبره أنها كانت أنت». ترخي أهدابها في سحر يأسره ثم تقول: «ألا تظنه خمّن؟».

ترتعش ابتسامته وهو يرد: «مؤكد خمّن، قال لي اطلبها للحلال واعصم نفسك».

صمت فصمتت.. اللحظة بينهما توقفت، ثم قال لها وقلبه في صدره يرتعد: «هل.. سامحتني؟»».

أطالت اللحظة في صمتها ثم أرخت رأسها وعلى صدره نامت وهي ترد أخيراً: «لا أعلم ربما في..»».

انقطعت جملة دليلة ليجفل الاثنان معاً على صوت صراخ وعويل هبّ كلاهما من السرير وقلب دليلة يخلع من مكانه وهي تميز صوت أم غنيمة.

***

شمس النهار ارتفعت وسط القرية والناس اجتمعت من أهل القرية، وجوم ساد الوجوه والكل ينظر بعجز إلى جسد عبد الواحد المطعون بخنجر ذهبي، زوجته وابنته تلطمان على الخدود وتهيلان التراب فوق الرؤوس، عن بعد مترين يقف صفوان جاحظ العينين بارق النظرات بالغضب المكتوم، عيناه لا تفارقان الخنجر الذهبي وقد عرفه حال رؤيته، يسمع همس الناس واسم أبيه المنقوش على مقبض الخنجر بات يتردد على الأفواه فتتقبض كفاه ويزمّ شفتيه وهو ينظر اللحظة إلى غنيمة، تذكر وصية أبيها فيها فأغمض عينيه وهو يتمتم في سره: «رحمك الله يا عبد الواحد، لماذا تعجلت على ثأرك؟»».

ارتفع فجأة صوت ذياب وهو يدّعي الألم والمواساة: «لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله.. أيها المسكين قبل يومين فقط كنت عندي تشكو إليّ وإلى أخي خلفان ضيمك وقهرك»».

التفت صفوان بحدة إلى ذياب يرميه بنظرات الغضب المستعر، ليزداد جحيم غضبه وهو يرى خلفان برفقة أخيه وهو يضرب كفاً بكف بمسرحية مكشوفة، صوت دلال أتاه من قريب وهي تقول له بخفوت: «اهدأ يا صفوان، إنها مكيدة، احذر».

لم يلتفت لزوجته التي تقف في ظهره وهو يواجه ذياب وخلفان وقد بدأ كل منهما يؤدي دوره في المسرحية الخسيسة، ذياب ينظر إليه باتهام صريح وخلفان يهز رأسه يميناً وشمالاً وكأنه يقول له (يا عديم الشرف!)، ولتكتمل المسرحية (بتدبير مسبق أو باتفاق متأخر) بحضور (الشيخ) حمدان ومن حوله رجاله يصرخ باستعراض منفر: «ما هذا الذي سمعته يا صفوان؟ أقتلت الرجل المسكين بخنجر أبيك، عمي المرحوم إبراهيم الضاري؟».

ساد الصمت لكن حال الناس تغير، فالوجوه اليوم لم تكن تحمل نفس تعابير الأمس القريب، حتى صاح أحد هم باستنكار: «لا يمكن لسيدي صفوان أن يفعل هذا».

ليؤيده آخر بالقول: «أجل.. إنه خيرة الرجال ولا يفعلها».

عندها تدخل ذياب كي يوقف أي تعاطف ومؤازرة فيقول بنبرة من يفصح عن أمر خطير: «لولا أن العدل وجب لما كنت سأفصح عما سأقول».

يتبادل النظرات مع صفوان ثم يضيف بنبرة صدق

ولسانه لا ينطق إلا الكذب والبهتان: «عبد الواحد اشتكى منك وأخبرني بكل شيء يا صفوان، قال إنك أغريته بمزيد من المال كي يغادر بستاني ويترك العمل فيه، وهو بطيبة قلبه لم يفهم مقصدك، فصدقك وغادر مع عائلته إلى دارك، وأنت من أصررت عليه ليسكن بيت المضيف عندك، ثم أدرك المسكين سريعاً غاياتك ولن أفصح أكثر إن الله حليم ستار».

تقدم صفوان خطوتين فيتراجع ذياب عفوياً خطوة خوف وهو يقول له: «أتريد مهاجمتي الآن يا صفوان لأني..».

هدر به صفوان: «صه ولا تتفوه بما سيثقل حسابك عندي أكثر أيها الخسيس اللعين».

ابتسامة شامتة من خلفان وهو ينقل نظراته بين صفوان وغنيمة التي تلطم على أبيها، لقد كان يعرف كمعرفة أخيه ذياب أن صفوان سيفعل المستحيل كي يحمي عرض وسمعة الفتاة، قال ذياب بنبرة تتصنع خيبة أمل وترمي بالاتهام: «أتسبني وتشتمني لأني أشهد بالحق؟ ماذا ستفعل بعد يا ابن عمومتنا؟ نكّست رؤوسنا في الوحل».

همسة قلق من دليلة وهي تقف خلف صفوان مباشرة تكاد تلتصق به: «ماذا ستفعل؟».

جاء صوت الشيخ حمدان وهو يشمخ مستغلاً الفرصة: «ما دام صفوان صامتاً وخنجر أبيه في جسد عبد الواحد

فقد عُرف القاتل وقد وشى به المقتول قبل مقتله، وذياب أفصح عن شكوى عبد الواحد إليه».

ثم وجه نظراته الحاقدة لابن عمه مضيفاً: «خسئت أخزيتنا ونكست رؤوسنا كما قال ذياب، ولهذا أحكم عليك بالمغادرة أنت منفيٌ من عشيرة الضاري وهذا حكم أعرافنا، وسيتم دفع الديّة من مالك إلى أهل المقتول، اترك قريتنا في الحال، وبمفردك، عارٌ بقاؤك وعارٌ على من يرافقك».

كفٌّ دليلة تسلّل إلى كفِّ صفوان كما كانت وهي تسنده طفلة لتقول بشموخ كشموخ زوجها الصامت: «كذب وبهتان كل ما يُحاك وإن غادر زوجي غادرت معه».

ثم أشارت بسبابتها ناحية حمدان لتقولها بصلابة وشجاعة: «والعار منك والمشيخة لم تكن لك».

ارتفعت أصوات الناس واختلطت، وتشابكت الآراء وتشتت، أخذ شيوخ العشائر يقبلون نحو الجمع ومن حولهم رجالهم يحومون، وقفت غنيمة مرفوعة الهامة، وجهها الباكي لا ينحني ولا تبالي ببعض العيون المتهمة اللوّامة، تقدمت إلى حيث يقف سيدها صفوان وزوجته بمواجهة الأنذال لتبسط كفيها أمام الجميع وهي تقول بقوة الحق: «وحق دم أبي الذي يُحنّي يدي سأغادر مع سيدي صفوان فلا شيخ لي ينصفني إلا هو».

الشيوخ يلتزمون الصمت، والناس مذهولون مما يحصل وقد كان لفعل غنيمة أبلغ الأثر في نفوسهم وهي تقف شامخة هكذا وتمدّ كفيها مبسوطتين بدم أبيها وتعلن نصرة من يتهمونه بالقتل، لتدعمها أمها وهي تترك جثة زوجها لتلتحق بابنتها في وقفتها تلك وتناصرها بالقول: «وأنا معك سيدي صفوان، ولو تنطق الأموات لنطقها زوجي اللحظة معنا وغادر معك».

تهرول الصبية حنّة لتقف جوار صفوان تتشبث بعباءته وهي تبكي وتقول بارتجاف: «خذني معك سيدي».

تمتم صفوان برقة وهو يناظر رأس الفتاة: «حنة».

فترفع وجهها إليه تتوسل: «لا تتركني هنا، سأخدمك لآخر عمري».

تقدمت المرأة العجوز الضريرة من بين الجموع يسندها أحد أحفادها كي يدلها المسار الذي تريده وهي تقول بصلابة: «إن رحل سيدي صفوان رحلت معه، أمّا بناتي وأحفادي فلهم ربٌّ يرعاهم».

حمدان بات مرتبكاً وهو يغلي من الغيظ ولا يعرف كيف يتصرف، حتى رجاله من حوله تائهون متحيرون، ذياب يشعر أنه سيخسر والناس بدأت تتعاطف وتصدق براءة صفوان دون أن يقول القبيح كلمة دفاع واحدة عن نفسه بل إن الأمر يفلت تماماً من حمدان والمشيخة تقترب من صفوان بمباركة وجود الشيوخ وعلى رأسهم شيخ

الشيوخ عبد الجبار، يهمس خلفان في أذن أخيه بتشنج: «إننا نخسر يا ذياب».

فلا يستسلم ذياب ليتقدم كي يلعب لعبته الأخيرة وهو يهتف في الناس وقد بدأ يزيد عدد المؤازرين منهم لبراءة صفوان فيقول: «أيّها الناس، هذا الرجل قاتل، وسلاح أبيه في صدر عبد الواحد، أتناصرون قاتلاً؟ وأنا أشهد أن المسكين عبد الواحد أتاني شاكياً خائفاً من غدر صفوان به وقد طمع في.. ابنته».

حالما نطقها صرخت غنيمة تواجه ذياب وهي لا تهاب شيئاً ولا أحداً اللحظة: «قطع الله لسانك وأخرسك لآخر عمرك أتقول على أبي شهادة باطل ودمه ما زال حاراً؟ أتطعن بعرض أشرف الشرفاء وهو من ستركما أنت وأخاك النذل خلفان الذي حاول التعدي عليّ وسيدي صفوان أنقذني منه».

شهقت الأفواه وتراجع خلفان غريزياً للخلف بينما يرد ذياب ليدحض كلامها بمزيد من البهتان: «أيتها الملعونة مؤكد تتسترين عليه، لقد أخبرني عبد الواحد بكل ما بينك وبين صفوان، والآن ترمين أخي بالباطل كي ينجو هو؟ لا والله لا يكون هذا، صفوان هو من قتله والخنجر يشهد».

تفاجأ الجميع بقحطان الجبلي وهو يتقدم ويتدخل بهدوء مع لمحة سخرية من الدليل الذي يدعم به ذياب شهادته: «هل يعقل أن يكون صفوان بهذا الغباء يا ذياب؟ يقتل

الرجل ويتركه مسجى على الأرض وخنجر يحمل اسم أبيه منقوش عليه؟ لو كان يريد الإيقاع بنفسه لما برع هكذا».

هتف به ذياب مُحتداً: «لا تتدخل أنت يا قحطان، إنه أمر خاص بعشيرة الضاري وأنت بعيد عن المشاركة فيه ولست بشاهد عيان».

فرد قحطان بنفس الهدوء والثقة: «بل أنا شاهد عيان».

التفت صفوان إليه وهو يعجب بينما يخفي ذياب قلقه وقحطان يوضح أمام الناس والشيوخ كافة: «أنا لن أشهد في حادثة قتل عبد الواحد، بل سأشهد بما رُمي به صفوان الضاري في شرفه».

ثم أشار إلى غنيمة قائلاً: «هذه الفتاة رأيتها في إحدى طرق القرية تستجير بصفوان الضاري كي ينقذها ويصون شرفها ممن يحاول تلويثه، كنت على مقربة وسمعت ما دار بينهما بالصدفة، صادف في يوم عودتي لعملي في العاصمة في تاريخ (...)». لتؤكد غنيمة بشجاعة: «أجل، أنا استجرت بسيدي صفوان في ذاك اليوم عندما رأيته كيف ناصر المرأة الضريرة ضد ظلم الشيخ حمدان ورجاله، ولولاه لكان الخسيس خلفان نال مني وسوّد وجه أبي».

ثم أشارت بأصابع الاتهام نحو خلفان لتقولها بصوت عالٍ: «أنت من قتل أبي، لا أحد سواك، لا بد أنه أخذ الخنجر من بيت المضيف ليثأر منك وقد حاولت تلويث شرفي، لن أخاف بعد اليوم، وسأعلنها أمام القرية

بأسرها».

كان صدر غنيمة يعلو ويهبط وعيناها الدامعتان تشعان بالقوة والثبات وهي تشير لمن حاول اغتصابها دون أن يردعها شيء، تشدّد دليلة من الضغط على كفَّ صفوان وهي مبهورة بغنيمة، وكأنها تصرخ لأجلها هي، وكأنّ أصابع غنيمة الممدودة بالاتهام نحو خلفان باتت أصابعها هي نحو أخيه المغتصب مروان، كفّ صفوان تستجيب لها فيحاوط كفها بقوة ليتكلم بعد طول صمت وهو ينظر إلى ابن عمه حمدان قائلاً بنبرة ثقة ومنطق حكيم يليق بالشيوخ: «لم تحكم بالعدل يا.. شيخ، لم تُقِم مجلس حكم ولم تسمع كل الشهود، بل لم تسمع حتى شهادتي قبل أن تصدر حكمك، وقد امتنعتُ عن الكلام حفاظاً على سمعة هذه الفتاة الشريفة العفيفة ابنة الرجل الطيب وقد أوصاني بها أبوها وكأنه كان يعلم أنه سيموت غدراً هكذا أنت لم تحتكم لعقل ولا لمنطق، كما إنك لم تستشر من يعينك على قصورك».

أخذ بعض الناس من عشيرة الضاري يهتفون بغضب (نحن لا نريدك شيخاً لنا) (لا شيخ للضاري إلا صفوان) (نريد صفوان ابن إبراهيم).

شعر حمدان بانفلات الأمور تماماً فبات أشد عنفاً وهو يأمر رجاله برفع السلاح ناحية صفوان ونحو النسوة اللواتي تجمعن حوله، ينفذ رجاله لكنه يصدم بمجيء بعض الرجال من عشيرة الضاري ممن كانوا حرساً ومقربين لأبيه الشيخ

محمد ثم تباعدوا حال استلامه للمشيخة، خمسة أو ربما ستة رجال حاوطوا صفوان وهم يرفعون السلاح لحمايته ضد من يهددونه، حتى لو كان من يهدده هم رجال (الشيخ)، قال أكبرهم سناً: «لا أحد سيقترب من سيدنا صفوان، ولن يُمَسّ هو وأهل بيته بشعرة».

شيخ الشيوخ يراقب من بعيد ويشير إلى ولده ناصر ورجاله بالتأهب والحذر، وكذا فعل الشيخ عبد الهادي وهو يشير لضرغام، أما الشيخ طالب الجبلي فيتهامس مع ابن عمه قحطان ورجاله يحاوطونه، تحرك رجال من عامة الناس ليقفوا مع صفوان ووجوههم الكالحة غاضبة ثائرة ليقول أحدهم: «نحن مع شيخنا صفوان، هذا دين نرده له وهو المنصف العادل».

أخذ حمدان يرعد وهو يهينهم بالقول: «مجموعة فلاحين أنذال حاقدين».

يشمخ الرجال وأحدهم يرد عليه: «لسنا حاقدين، نحن أبناء الضاري وبعشيرتنا نفورون، ولا شيخ لنا بعد اليوم إلا صفوان الضاري وإنا له مناصرون».

أخذ حمدان يتخبط وهو يهتف: «هذه فتنة.. هذه فتنة».

أخذ ذياب يتراجع للخلف وهو يحامي على أخيه الاصغر بذراعه بينما يتقدم الشيخ عمران الأسدي ليكون أول المتكلمين من الشيوخ: «وواجبك اليوم درء الفتنة أمام أبناء عشيرتك».

بدا حمدان كالثور المنهك وهو يرد: «أتقف ضدي يا شيخ عمران؟».

ثم ينقل نظراته بين الشيوخ ويهدر كامرأة تولول: «أتريدون نزع المشيخة مني؟».

تدخّل عندها شيخ الشيوخ وهو يرفع صوته بالقول للناس: «باسمي كشيخ شيوخ العشائر، أسألكم من يريد المشيخة أن تظل لحمدان الضاري فليقولها الآن أو يصم».

يتلفت حمدان من حوله والناس كلهم صامتون أصابه الهلع وهو لا يستوعب خسارته ثم يعلو الهتاف منهم: «شيخنا صفوان الضاري».

ثم يكررونها ومزيد من الأصوات تنضم إليهم، رفع صفوان كفّه الحر فيصمت الجمع، عيناه فجأة اتّسعتا وهو يلمح العجوز عجمية تقف بعيداً وبمفردها تبتسم له، ثم رآها ترفع كفها بالعصا التي تحملها لتناصره، علم صفوان قَدْرَه وقَدَره، هي الأمانة التي سيحملها وليعينه عليها ربُّ العباد، قال أخيراً لابن عمه الذي لم يستسلم حتى اللحظة: «عُد إلى دارك مُعززاً مُكرماً، أنت ابن عمي محمد، وستظل أبد الدهر أخاً لي».

لكن حمدان أبى الإدراك وأصابته الهستيرية فأخذ يأمر رجاله وقد فقد تحكمه بنفسه: «أطلقوا النار.. أطلقوا النار».

تردد البعض منهم لكن انطلقت أولى الرصاصات

لتتبعها أخرى.

***

الغزل السابع عشر

(الخسارة مغزل يدور بين كل البشر، هنيئاً لمن صبر وبالحق انتصر، وملعون من افترى وبالباطل ثأر)

«توقفوا.. توقفوا.. استسلمنا.. أوقفوا رمي الرصاص».

وسط صراخ الرجال العنيف رفعت دليلة رأسها لتكتشف أنها محاوطة بجسد صفوان الضخم، ولم يكن يحاوطها وحدها بالحماية، بل حاوطهن جميعاً، هي ومن خلفها غنيمة وأمها، حنّة الصغيرة التي تشبثت بها في رعب وتتوسط بينها وبين صفوان، حتى العجوز الضريرة كانت ترفل بحماية ذاك الجسد كسد منيع يمنع وصول الرصاصات إليهن.

«هل أنتِ.. بخير؟».

كانت همسته مرتجفة بالقلق وخضرة عينيه هائجة وهو يطلب طمأنته عليها فتهز رأسها وتمدّ كفيها كي تتحسس جسده من الأمام والخلف، تكاد تبكي وهي تسأل بحشرجة: «لم تصب أليس كذلك؟ أنت بخير؟».

اكتفى بهزة من رأسه بينما عيناه تمران على طول جسدها لزيادة التأكد من سلامتها، ثم تركها ليطمئن بنفسه على حال من حماهن بروحه قبل جسده، أوْلى العجوز الضريرة اهتمامه وهو يلثم أعلى رأسها معتذراً لترويعها، ثم غنيمة وأمها يشد أزرهما ويمدهما من صلابته

وأخيراً الصغيرة حنّة التي عاودت التشبث بطارف عباءته ليدعها تطمئن به قبل أن يلتفت إلى الرجال ويطمئن على سلامتهم، أصيب ثلاثة فلاحين ممن وقفوا سنداً معه، كما أصيب رجل واحد من الحرس القديم لعمه الشيخ محمد الذين حموه بأرواحهم، فأخذ يصرخ صفوان لمساعدته بإسعاف من وقع بينما لا يفوته الاطمئنان على الشيوخ لكنه يبتئس وهو يرى رجلان من رجالاتهم قد سقطا أرضاً إثر الإصابة بالطلق الناري، كان ذياب وخلفان قد انسحبا باكراً ثم حمدان اختفى وسط الإطلاقات النارية التي أشعل فتيلها برعونته ثم ولّى هارباً، اثنان من رجاله أصيبا وثالث قُتل ليستسلم الثلاثة الآخرون وهم يضعون أسلحتهم أرضا ويرفعون أكفهم علامة الجنوح إلى السلام، يتحرك صفوان بعبوس بين المصابين وقد كانت اثنان منهم بحالة خطيرة فنادى لطلب سيارة إسعاف أو أي سيارة عادية كي يتم نقل كل الجرحى إلى المستشفى، وطوال الوقت عيناه لا تفارقان النظر بقهر إلى غنيمة وأمها وقد عادتا إلى جوار جثة عبد الواحد لتبكياه وتلازماه، أخذ ينقل الجرحى بنفسه مع باقي الرجال بينما حنّة تأبى مفارقته وهي تتوسل إليه أن تبقى بصحبته.

دليلة بدورها أخذت تأمر الرجال برفع جثة عبد الواحد تمهيداً لإكرامها بالدفن، ثم كانت نعم العون وهي تشد أزر غنيمة وأمها، ثم أخذت تطلب من أهل القرية المتجمهرين المذهولين مما حصل، أن يثبتوا ويقدموا المساعدة فيتبعها

الناس بثقة تلقائية وعفوية.

من بعيد ما زالت عجمية تراقب، عيناها متوهجتان وتقف وقفة مُحارب،

فجأة التفتت إلى يمينها فتبصر خيال عباءة ترى طارفها،

ثم ظهرت بسمومها تلك الغجرية السوداء، عرفتها عجمية حتى وإن تنكّرت بثوب (شيخة) غرّاء

لم تنتبه دنانير للعجوز الضئيلة التي تقف على مقربة، فبالها مشغول بتحليل الأمور ولم يعجبها أن صفوان الضاري نال (المشيخة) **إذا أنجبت له دليلة (الولد)، ضاعت أحلام دنانير إلى الأبد.**

عبست دنانير وبنظرات الشر الأسود أظلمت، تعاند الأقدار وهي تهمس في سرها: «لن يكون هناك (إلى الأبد)، إن حملت امرأة صفوان سأجد طريقتي حتى لا يرى ما تحمله النور».

«يا حزينة».

التفتت دنانير إلى يسارها لتتنبه لوجود العجوز على بعد مترين، امرأة في أرذل العمر ضئيلة الحجم تقف بهيبة وهي تتكئ على عصاها، تتسع عينا دنانير انبهاراً بلون عيني العجوز المتوهجتين، لكن إحساس غريب أثقل عليها بقوة ونظرات تلك العجوز تهبط إلى بطنها، تضايقت منها وهي تهتف بها: «ما بالك تناديني بـ(يا حزينة)؟ **أنا زوجة**

مروان الضاري إن كنت تجهلين».

إشفاق غريب أطلّ من تلكما العينين وهي تقول لها ما لم تسمع له دنانير شبيهاً: «يا حزينة ستمضين إليه ظهرك محنيّ للأرض بحملك الثقيل، تلاقينه وأنت تتضورين جوعاً وزادك أقل من القليل، تُحمَلين فوق الأكتاف إكراماً بالباطل، وتنزلين أسفل سافلين إحقاقاً للحق من العادل، حكمة من الله في الظالمين ستظل مَخفيّة، يغضب فيمدُّ الطغاة في غيّهم وعيونهم مَعميّة».

عفوياً رفعت دنانير كفها إلى بطنها وقلبها ينبض، ثم هتفت بكره و.. خوف غير عادي: «أيا عجوز الشؤم أنتِ أراني الله يومك في القريب العاجل وأنت محمولة على الأكتاف إلى قبرك».

لم تتأثر نظرات العجوز، بل زاد إشفاقها، ثم تحركت لتبتعد وهي تكرر آخر من قالته: «يغضب فيمدّ الطغاة في غيّهم وعيونهم معميّة سبحانك يا حكيم».

شمخت دنانير بالكبر والغرور، ثم تحركت في خيلاء عائدة إلى دارها ورأسها يعدُّ الخطط للمستقبل.

***

المستشفى

لاهثة الأنفاس وهي تشدُّ الوشاح جيداً حول وجهها بينما تسأل أحد العاملين في المستشفى إن رأى زوجها

(ضرغام)، فيشير لها إلى غرفة الطوارئ ليهبط قلب سُلافة وخطواتها تتعثر بارتجاف ساقيها، في طريقها سمعت صوت ميادة يرنُّ في أذنيها: « نها شؤم على الرجل يا زبيبة في يوم (الصباحية) يصاب بطلق ناري». التفتت سُلافة لتوجه كلامها لميادة وصاحبتها المشؤومة زبيبة وتهدر فيهما: «جعل الله طلقة شؤم تخترق لسانيكما في ذات اللحظة والموقف، قادر رب العالمين».

تطلق زبيبة صوتاً مزمجراً بينما تسحبها ميادة من ذراعها كي تهدأ.

دخلت سُلافة غرفة الطوارئ ملهوفة فترى بعض الأسرة تمدد عليها الجرحى وهي تتنقل بينهم بحثاً عن زوجها، حتى وجدته في نهاية غرفة الطوارئ يقف على قدميه برفقة غانم، تفاجأت أن غانم لا يعالج زوجها الذي تخضّب جلبابه بالدم، بل يعالج رجلاً آخر نصف مستلقٍ على السرير، ضرغام كان أول من تنبه لها ليلتفت إليها وتلمع عيناه بنظرة جعلت قلب سُلافة يتسارع نبضه اشتياقاً تلقائياً مجنوناً.

«أسعدت صباحاً يا أم الليث، زواج مبارك».

نقلت نظراتها إلى زميلها غانم وهي ترد عليه: «شكرا غانم».

ثم عقدت حاجبيها وهي تشير بكفها جانباً وتقول لضرغام بنبرة ممرضة سيئة المزاج: «تفضل لأفحصك».

وكأن طيف ابتسامة يجول مختالاً على شفتيه وهو يقول لها مشيراً لجلبابه: «أنا لم أصب، هذا ليس دمي، بل دم..».

قاطعته وهي تكزّ على أسنانها: «تفضل لأتأكد بنفسي، هذا عملي لأقرر».

ما زالت عيناه تتعبانها وهما تشعان بالنظر إليها وحدها بينما يتمتم باستسلام رقيق: «على أمرك».

بعد أقل من دقيقة كانت سُلافة تغلق بحركة حادة الستارة الفاصلة بين الأسرة بينما تتمتم بخفوت غاضب: «أصحو من نومي صباحاً لأجد عريسي فارق فرشتي ثم تهل عليّ أصوات الأعيرة النارية فظننت لوهلة غباء، أنه احتفاء بليلتنا الاستثنائية».

جلس ضرغام على حافة سرير الفحص يراقبها بابتسامة حلوة وهي تلبس قفازات مطاطية وتضيف: «ثم أكتشف أن قرية ذئاب الجبل كانت في إحدى أصباحها العجيبة وقد قامت الحرب بين العشائر ولم يجدوا إلا يوم (صباحيتي) كي يعلنوها».

يعقد حاجبيه قليلاً وهو يقول باعتراض: «أعوذ بالله لم تكن هناك أي حرب، فقط..». تقاطعه للمرة الثانية وهي تشوح بيدها لتقترب منه قائلة: «صفوان الضاري انتزع المشيخة من حمدان الضاري، علمت بهذا وأنا في طريقي إلى هنا».

بحرفية تفتح أزرار جلبابه لتنظر أولاً كي تتأكد من خلو صدره من أي جرح ثم تمد كفها تتلمس وتتحسس حتى وصلت موضع قلبه الهادر ليقول لها بخفوت شديد: «ما الذي يغضبك؟».

ترد بنبرة عادية وهي ما زالت عابسة: «أنت سليم».

فينكشها بالقول: «هل يغضبك أني سليم؟».

ابتعدت وهي تخلع قفازيها بعنف وترميهما في المزبلة الخاصة ثم تتخصر وهي تعود إليه لتقول بخفوت وعيناها الزرق تبرقان بالغيظ المكتوم: « كيف تتركني في السرير وحدي يوم الصباحية؟».

لم يلمسها حتى لكن نظراته إليها تذيبان ركبتيها وهو يرد بنفس الخفوت: «الشيخ عبد الهادي طلبني، والأمر كان خطيراً ومصيرياً، وجودي كان ضرورياً».

كان شجاراً لذيذاً فوق الوصف ولكليهما وبخفوت شديد غير متفق عليه، تعترض سُلافة والغيظ يقتلها منه: «لكنها الصباحية».

يرد بصبر شديد يزيد غيظها: «الأمور الخطيرة لا تميز يوم صباحيتك من باقي الأيام».

أطلقت زمجرة خافتة تكتمها بشق الأنفس ثم تهمس اسمه بغيظ: «ضرغام».

اشتدت لمعة عينيه وهو يرد بلوعة العشاق: «يا حلال

ضرغام».

تمد يدها وقد اشتاقت للمسه، فتلامس لحيته كما فعلت في لحظاتهما الحميمة فجر اليوم، التمعت عيناها بالدموع دون إرادتها لتسأل همساً موجعاً: «ماذا لو حصل لك مكروه؟».

رد ببساطة: «رب العباد سلّم».

انحدرت دمعة واحدة ليسأل ضرغام بخفوت أجش: «أهذه الدمعة لي؟».

رفعت سبابتها لتمسح الدمعة بعناد تلقائي وهي تتمتم: «ليست دمعة إنما ذرة غبار دخلت عيني».

تتسع ابتسامته فيقضي على عنادها لتعترف بخفوت مرتجف: «حتى أبي وعدته أني لن أبكي عليه».

ابتلع ريقه ويدها ما زالت تلامس لحيته الكثيفة، قتله الشوق ومزق قلبه الهوى لكنه يقاوم لمسها فالمكان ليس مناسباً ليختار أن يطمئنها بالقول المختصر: «أنا بخير». تتنهد وكأنها تحرق قلبه بأنفاسها ثم تقول بانفتاحها العاطفي: «وأنا لست بخير أريد ضمك إلي كي أصبح بخير».

كفاه تعصران حافة السرير ليجفل حرفياً وصوت نسوي يأتي من خلف الستار: «ألم تنتهي من فحص زوجك؟».

فترد (زوجته) بالقول الهادر الفكاهي: «ألم تنتهي من حشر أنفك؟».

ثم أبعدت يدها على لحيته وعادت للعبوس لتقول له بنبرة

توبيخ: «وأنت..».

قاطعها بنبرته البدوي الخافتة: **«أنا غريق العيون الزرق لولا طوق نجاة من الشفتين رمت لي ثم رمتني»**.

عيناه تنطقان الشعر كلسانه وهما تنتقلان من عينيها لشفتيها، نتوهج وجنتاها وتتسارع أنفاسها وهي ترد على غزله بأسلوبها الذي لم يخلُ من عتاب العاشقة: «أنا لم أرمك أنت من تخلى عن طوق نجاة الشفتين يوم الصباحية».

نظرته تمر على الخدين فيهمس بلوعة: **«أغار عليها، حتى من فوانيس العيد إذا أنارت على خديها، وآه من الشعور البنية، قتلتني»**.

قال آخر الكلام وهو يرفع كفه ليدسه في فتحة قميصها بحركة سريعة خاطفة، ودون أن تدري كيف كان قد أخرج ضفيرتها ويميل بفمه يشمها ويلثمها، كانت ترتجف وهي تشعر بالانتصار الأنثوي للحظات، إنها تعرف بحدسها أن رجلاً مثله يفقد زمامه أمام امرأته في العلن فهو أمر ليس بالهين حتى وإن كانت ستائر حاجبة تداريهما، ولم تستغرب أن يعيد ضفيرتها مخبأة مكانها ويقاوم لحظة انفلات منه لتهمس له بطريقتها الفكاهية العفوية: «أنت تجعلني أغضب لأني لا أقو اللحظة على الغضب منك وقد تركتني يوم الصباحية».

يعيد ترتيب قميصها ووشاحها وهو يهمس بخفوت رقيق

ضاحك: «لقد ذكرتِ (الصباحية) لخمس مرات خلال بضع دقائق».

تنهدت وهي تقول بصدق: «لأني أشعر بالتحسن كلما ذكرتها».

رفع نظراته إليها، عيناه البنيتان تذوبان بالوعود، وعود لنفسه قبل أن تكون لها، ثم قال وهو يقف على قدميه: «اتصلي بالخالة نوال طمئنيها عنك واطمئني أنت على ولدك، ثم عودي لدارك يا عروس، أعدك لن أطيل الغياب».

ثم تركها بهدوء (ظاهري) مغيظ ليفتح الستائر ويغادر.

***

العاصمة

يلعب لعبة إلكترونية قتالية مشتركة عبر الإنترنت مع أصدقائه وعيناه محمرتان، يعلو صوته بالشتائم دون شعوره وقد مُنيَ بالخسارة، يرمي ذراع التحكم من يده وينزع السماعات عن أذنيه ثم يضرب بقبضته في حنق لتدخل عليه الجدة نوال وهو بهذا الحال الثائر، في صدره حريق من الحزن أجل هو حزين حد الشعور بالاحتراق، حزين ولا يعرف سبباً واضحاً لهذا الحزن فيداهمه إحساس بالاختناق، صوت خطوات الجدة نوال يقترب منه ثم تميل لتلثم رأسه وهي تقول بحنان: «هل أنت غاضب من جدتك لأني حضرت العرس ليلة الأمس؟».

يزفر بقوة وهو يميل ليسند جبينه على حافة الطاولة ثم يهمس بوجيعة: «لم أعد أفهم شيئاً جدتي، لم أعد أعرف هل أحبُّ والديّ أم أكرههما هل أنا غاضب لأنها تزوجت أو.. لأن ذاك الرجل صدقها بينما أنا..».

صمت وكأنه لا يجد الكلمات التي تعبر عن مشاعره لتمد الجدة كفها تمسد فوق رأسه وتقول: «أنت بدأت تتفكر بمنطق وتحتار، لقد كبرت يا ليث ولم تعد طفلاً، كبرت باكراً لتكتشف أن ليس كل ما يقال من المقربين منك حقيقي وصادق».

رفع رأسه بحدة وهو يهتف: «تقصدين أبي أليس كذلك يا جدتي؟ لكن ماذا عن الآخرين الذين شهدوا ضدها؟».

فقالت الجدة بهدوء: «وماذا عني أنا يا ليث؟».

للحظة لم يفهم فقال بحيرة: «ماذا عنك جدتي؟».

عندها قالت: «منذ أتيت بإرادتك كي تعيش معي وأنا لم أفتح فمي بكلمة، أردتك أن تهدأ وتمالك نفسك بعد كل ما واجهته، لكني اليوم يجب أن أسألك، أتراني جدة سيئة؟».

سارع ليهبَّ على قدميه ثم يرمي نفسه في حضنها قائلاً بتأثر: «أنت أفضل جدة، لا تقولي أبداً كلمات كهذه جدتي».

تواسيه بصمت وكفها يطبطب على ظهره ثم تقول له:

«عندما تشكك بأخلاق ابنتي فأنت تشكك بي وبتربيتي يا صغيري، وأمك أبنتي وأعرفها حتى أكثر من نفسها»،

يغمض ليث عينيه بقوة وهو يعيش الصراع ويشدد من احتضان جدته التي أضافت: «أعلم أن تصديقك لبراءة أمك يعني اتهاماً صريحاً لأبيك، وبغض النظر من المخطئ عليك أن تتعلم التسامح، ليس لانهما والداك فقط، بل لأن هذا طبع البشر، خلقنا الله هكذا، نخطئ طوال الوقت، نكذب.. نرمي بالباطل.. نشهد زوراً وهي من الكبائر»،

يتمتم بصعوبة: «هي لم.. تعد.. تهتم أن أصدقها زوجها الجديد يكفيها أنه صدقها»،

أشفقت عليه، بل دمعت عيناها من الخسارة التي لحقت به باكراً وهو بهذا العمر الصغير، لكن هذا نصيبه ولا راد لقضاء الله، قالت: «لو كان هذا صحيحاً لما اتصلت بي تسألني عنك قبل قليل والقلق يقتلها عليك»،

تنهد وهو يخفي دمعته في كتف جدته والجدة تضيف: «تقبّل الواقع يا ليث، كلما سارعت بتقبله وواجهت المحن كلما كنت أفضل وأقوى، تقبّل أن والديك اختلفا خلافاً شديداً فصم عروة زواجهما بطريقة بشعة، افترقا وكلٌّ سلك طريقه، أنت كبرت وعليك أن تكون أكثر نضجاً في تعاملك مع كل هذا، وأولى علامات النضج هو المنطق بالتفكير والتأني بالحكم و.. التسامح»،

تمتم ليث: «أنا أحبك جداً جدتي»،

تحتضنه بقوة وترد عليه: «وأنت والله أغلى عندي من أمك».

ثم ببعض التردد أضافت: «والدك يريد أن يزورك هنا خلال بضعة أيام ويكلمك، وأنا قلت له إنك لن تمانع».

أبعد ليث رأسه بحدة وهو يقول: «لا أريد رؤيته».

رمقته جدته بنظرة توبيخ ثم قالت بحزم: «بل ستقابله وتكلمه، الاختباء للأطفال وللجبناء، وأنت لم تعد طفلاً فهل تريد أن تكون جباناً؟».

أطرق ليث وهو يهز رأسه بـ(لا) لتتنفس الجدة الصعداء وهي تقول برضا: «بارك الله بك يا صغيري، واجه الأمر وامضي قدماً بحياتك».

***

مجلس دار ذياب الضاري

كذئب أنهكته الجروح وقد خسر معركة ضارية للتو، يدور ذياب في مجلس داره يصرخ دون شعوره أحياناً ثم يعاود الصمت وهو يلف ويدور وعيناه تبرقان ولا أحد يتكهن بما يفكر فيه اللحظة، على بعد مترين يقف أخوه خلفان مكفهر الوجه وهو يتمتم: «خسرنا.. خسرنا، لكن على الأقل سلمنا بأرواحنا ولم نصب بطلقة رصاص».

هدر به ذياب بعنف: «لا أريد أن أسمع لك صوتاً».

ففرد خلفان كفيه وهو يتساءل بضيق: «وما لي أنا؟

المصائب تكالبت علينا من حيث لا ندري ولم نخطط».

ثم صمت للحظة ليضيف بعدها بعجب وغيظ: «لا أدري ما هذه الأقدار وكأن هناك من لا نراه ولا نعرفه لكنه يدبّر لنا ويمكر بنا ويفسد علينا كل خطوة، لقد بتُّ متشائماً من هذه (المشيخة)».

يضرب ذياب قبضة يده اليمنى في باطن اليسرى وهو يهتف: «أضحيت بكل ما ضحيت وخسرت كل ما خسرت، وفي النهاية يلتفون عليّ لينصّبوا صفوان شيخاً؟ أيغيب هذا الأجرب القبيح كل هذه السنوات حتى نسينا اسمه ثم يعود الينا فجأة ليفسد كل شيء ولا يكتفي بالإفساد، بل وخلال أشهر قليلة يقبض المشيخة في راحة كفه دون أن يطلبها».

أخذ ذياب يرفس بقدمه كل ما يصل إليه وقد بدا في ثورة اهتياج غير مسبوقة تتسع عينا خلفان بذهول وهو يتمتم: «ماذا جرى لك يا ذياب؟ اهدأ لم أرك يوماً هكذا».

يشدّ ذياب عقاله وكوفيته عن رأسه ليرميهما أرضاً وهو يهدر بنظرات اهتياج أقرب للجنون: «ما جرى يا ابن أبي وامي إن صفوان يتلقى الآن التهاني من شيوخ العشائر في داره، دار ابراهيم الضاري أتنتقل من دار محمد إلى دار إبراهيم ونحن نشمّ الهواء؟ ليتني متُّ قبل هذا».

لم يعد خلفان يحتمل ليقولها بصراخ: «فلتذهب المشيخة إلى الجحيم، وليذهب ثأر جدنا إلى ذات الجحيم معها».

تسمّرت خطوات ذياب وعيناه تبرقان بفقدان السيطرة ليقول بنية إجرامية صريحة: «لا والله، إن لم تكن لنا فلن يهنأ بها ذاك المسخ».

ثم أخرج هاتفه وخلفان يراقبه دون أن يفهم، أخذ ذياب يتصل ويده ترتجف من شدة الثورة داخله وهو يتمتم « سأصفي حسابي مع الكل، ولن أنتظر للغد، وأولاهم الحقيرة الفاسقة دنانير».

***

ببعض التوتر وكثير من الحذر قال ناطق عبر الهاتف: «لكن سيدي اسمح لي بالرأي، أنت تعرف أن الغجر شكّاكون للغاية وحذرون فوق الحذر، يؤازرون بعضهم ضد الغرباء، ولولا أني رأيت حباس يلتجئ إلى هنا لأنكروا وجوده وأقنعوني بهذا، لا أستطيع دخول مخيمهم بمفردي كي أبحث عنه لأوصل إليه ما تريد مني إيصاله، قد يقتلونني قبل أن أراه، وأنا بمفردي دون عزوة هنا».

جاء صوت ذياب هادراً بغضب رهيب: «وأنا سأقتلك إن لم تنفذ ما قلته لك للتو».

شعر ناطق بالتوتر أكثر وهو يتطلع عن بعد لمخيم الغجر، لا يفهم ما يجري مع سيده ذياب اليوم ولماذا هذا الإصرار على التسرع بعد أيام مضت يحثه فيها على الصبر والتأني حاول ناطق مجدداً بالقول المُهادن: «لماذا لا ننتظر حتى يخرج هو من مخبئه وأوصل إليه الكلام بشكل غير

مباشر؟ ألم تكن تلك خطتك يا سيدي؟».

أبعد ناطق الهاتف عن أذنه تلقائياً وصوت صراخ ذياب يكاد يصيبه بالصمم: «قسماً بالله يا ناطق أن تفوهتَ بحرف آخر، جئت إليك الساعة وقتلتك بيدي ودفنتك في أرض الغجر».

لم يجد ناطق ما يقوله إلا أن يذعن وينفذ.

أغلق الهاتف وهو يطالع المخيم بين الأشجار، يشعر بالخشية على نفسه وهو موقن أن هؤلاء الغجر قد يقتلونه لسبب أهون بكثير من مؤازرتهم لواحد منهم، قد يقتلونه طمعاً بهاتفه أو ساعة يده والأسوأ إذا تنبهوا أو علموا أنه يملك سيارة حديثة يخبئها عن الأعين وعلى مسافة ليست بالبعيدة.

لمح في أول الطريق امرأة غجرية تحمل طفلاً لا يتعد العامين، فجأة خطرت بباله فكرة وقرر أن ينفذها لسلامته، تقدم بخطوات سريعة وهو يتلثم بكوفيته حتى اقترب من الغجرية قبل أن يراه أحد من الغجر، ألقى السلام ليوقف خطواتها ويدرس نظرات التوجس التلقائية في عينيها، كانت شابة جميلة للغاية، والطفل الذي تحمله يشبهها كثيراً لكنه بدا ضعيفاً هزيلاً وكأنه يعاني نقص الغذاء، سرعان ما نحى أفكاره جانباً ليركز على الهدف، سألها بتودد: «ما اسمك يا غجرية؟».

كان يعرف طريقة الغجر، خاصة النساء، أنهن لا

يرفضن تودد الرجال، بل لديهن أسلوب خداع بـ(جر القدم) فإمّا يعملن بالبغاء فيرفعن الأجور أو يوهمن الزبون بهذا ثم يسرقنه وقد يقتلنه بمساعدة رجال من الغجر يشاركونهن الغنيمة، ردت الغجرية وعيناها تدرسانه: «اسمي وسيلة».

فيمد يده ليلامس وجه الصغير قائلاً: «أهذا ابنك؟».

عيناها الجميلتان لم تفارقا وجه ناطق لتقول دون مراوغة: «ما الذي تريده يا غريب؟ يبدو جلياً لي أنك خائف وتريد قضاء حاجتك والرحيل من فورك».

لم يكن هناك وقت ليراوغ، يخشى أن يحضر أحد الغجر اللحظة ويفسد الأمر فسأل من فوره وهو يشير بالاتجاه البعيد: «هل تسكنين هذا المخيم؟».

ردت بتهكم: «أجل، لا تقل لي إنك هنا كي نقرأ لك طالعك وحظك من الرمل أم ربما تبحث عمّن يقرأ خطوط كفك».

لم يبالِ بسخريتها ليباشر بالقول: «أريد إيصال رسالة إلى حبّاس».

التمعت عيناها للحظة ثم قالت تدّعي الضيق: «مجددا تسألون عنه؟ إنه ليس هنا ولا نعرف أحد أمن الغجر بهذا الاسم، سبق وأتى غيرك ليسأل».

قال ناطق عندها: «إن كان هذا ردك فهذا يعني أنكِ

تحاولين حمايته وأنه يهمك، فلا تخافي مني أنا أعلم منذ أيام أنه هنا، ولو كنتُ أريد الإبلاغ عنه لعدتُ إلى قريتي وأوصلت خبره لطلاب الثأر منه».

سألت وسيلة الغجرية بابتسامة استهانة: «ماذا تريد أيها الشاب؟».

مؤكد لا تصدقه بسهولة لكن المهم أن توصل الكلام إلى حباس، قال بنبرة جدية مختصرة: «أريد أن يصل إليه الآتي، ربما هو كان يتوقع أن الشيوخ سيهدرون دمه لذلك هو يختبئ هكذا ولا يغادر المخيم لكن أظن أنه لم يتوقع أن دنانير أيضاً أهدرت دمه».

اتسعت عينا الغجرية وهي تتمتم: «دنانير؟».

يهز ناطق رأسها وهو يرد: «نعم، دنانير الغجرية، أخته بالرضاعة، مؤكد أن حباس لن يصدق هذا الكلام لكن يمكنه التأكد بنفسه من القرى المحيطة بقرية الشيوخ، الخبر انتشر بهدر دمه من الشيوخ ومن اخته بالرضاعة، زوجة مروان الضاري، لكن فليحذر ويأتي متخفياً لأن الناس إذا تعرفت عليه قتلوه من فورهم».

التزمت الغجرية الصمت وناطق ينسحب تدريجياً وهو يضيف أخيراً: «أخبريه أيضاً أن هناك زاوية مهدّمة من السور الذي يحيط بدار مروان الضاري، الزاوية الخلفية الغربية، والبوابة عليها حراسة من رجلين».

تعاود الغجرية سؤاله وهو يبتعد عنها: «ما الذي تبغيه يا

شاب؟ أهي مكيدة أم مصيدة؟».

رد وهو يشوّح بيده: «أنه الآن في (مصيدة)، ودنانير من أوقعته فيها، ولا أظنه سيقضي الباقي من حياته يعيش هكذا كالسجين ومهدد بالقتل في أية لحظة».

ثم تسارعت خطوات الشاب ليختفي بين الأشجار في الجهة المقابلة لمخيم الغجر بينما وسيلة تحدق في الفراغ وتتفكر.

***

في خيمة تتوسط باقي خيم الغجر حيث الأمان أكثر للهاربين والخائفين، تدخل وسيلة مع ولدها دون استئذان لترى حباس عند فرشته وسرعان ما خبّأ ضبة قماش تحت مخدته، ليهب واقفاً على قدميه يقول بغضب وبعض الارتباك: «ماذا تفعلين هنا؟ كيف تدخلين عليّ دون استئذان هكذا؟».

أنزلت ولدها ليسير بخطاه المتعثرة داخل الخيمة بينما ترد وسيلة: «ألا تهتم لرؤية ابنك؟ منذ أيام حضرت إلينا هنا ولم تفكر حتى بالسؤال عنه أو.. عني».

رد وهو يشوح لها بكفه: «لا أهتم، غادري يا وسيلة، لم أعد أرغب بك كامرأة، وخذي ولدك معك».

تشعر وسيلة بالقهر وهي تقول بتظلم: «لكني زوجتك بعرف الغجر ولست واحدة ممن تعاشرهن، وهذا ولدك

من صلبك، إننا نعاني الضنك والحاجة بينما أنت تترك مسؤولياتك نحونا».

رد بعنف: «ارحلي أنا لا أطيق نفسي اللحظة، ألا يكفي هذا الحبس الإجباري الذي أعيشه».

أخذت وسلة تحرك رأسها يميناً وشمالاً بينما تقول بنفور: «كله بسبب تلك القذرة، إنها تتصرف معك دوماً هكذا، تملكك وتسيرك على هواها، لقد سحرت لك وسحرها أسود شيطاني».

شمخ حباس وهو يتفاخر بالقول: «بل أنا سحرها الاسود لو تعلمين، إنها لا تستطيع الاستغناء عني».

هتفت به ساخرة وقد فاض كيلها: «حقاً.. ولماذا أهدرت دمك إذن؟».

تلاشى الفخر في لحظة بينما يسأل بتشكك: «ماذا تقولين؟ من أين لك هذا الكلام؟ أهي لعبة منك يا وسيلة؟».

زفرت أنفاسها بقوة وهي تقول بإحباط ويأس: «ليست لعبة يا حباس، أنت والد طفلي ومهما قالوا عنا نحن الغجر إلا أننا أوفياء حتى إذا كرهنا، كل ما أريده أن احذرك من دنانير».

تقدم منها ثم أمسك بذراعيها ليهزها ويهتف بها: «من أين لك أن دنانير هدرت دمي؟».

ردت وهي تنظر إليه بجدية: «هناك رجل بدوي ملثم جاء ليخبرك بهذا الأمر، لكن يبدو أنه خاف دخول المخيم، وعندما رآني على قارعة الطريق سألني أن أوصل إليك الخبر».

تتسع عينا حباس في صدمة ثم يحاول إنكارها كما أنكر قبلها شعور داخله منذ البداية وهو يشك بدنانير أنها من سرّبت الكلام عن تلك النسوة اللائي عاشرهن بأمرها: «أي رجل؟ إنها مكيدة.. مؤكد مكيدة».

وسيلة نفسها تشك، لكنها لم تستطع الصمت وكان عليها أخبار حباس بما يجري فقالت المزيد: «لقد توقّع الرجل أنك ستقول هذا ولهذا أوصاني أن أخبرك بأن تتأكد بنفسك من القرى المحيطة، الكل يتكلم بما فعلته دنانير».

صدمته كانت رهيبة وما زال ينكر وهو يهز وسيلة ويهددها بتشتت: «سأقتلك يا وسيلة.. أنت تكذبين».

أبعدت كفيه عنها لتهدر فيه: «تقتلني أنا وتترك تلك الساحرة الغدارة؟ متى ستصحو من أحلامك؟ إنها تعاملك كعبد ذليل منذ أخذتك معها قبل سنوات لتترك أمها تعاني سكرات الموت بمفردها، وها قد أصبح (العبد) حملاً كريهاً فرمته للضواري تنهشه».

الغضب المخيف أخذ فتيله بالاشتعال بينما تضيف وسيلة بقهر: « كم مرة أخبرتك أنها سترميك، لم تكن تصدقني».

تحرك حباس ليلبس سترة قديمة سوداء فوق ملابسه، ثم

أخذ يلف كوفية حول وجهه ليخفي هويته، لم يكن بحالة طبيعية وهو يغادر الخيمة ووسيلة في إثره تخبره آخر ما قاله لها ذاك الشاب: «الرجل ذكر أن هناك من يحمي بوابة دار مروان الضاري وذكر شيئاً عن جزء مهدم من السور من الجانب الخلفي الغربي».

شيّعت رحيله وهو يسير وسط المخيم مغادراً، فزمّت شفتيها تكاد تبكي من قهرها، التفتت إلى داخل الخيمة لترى ابنها يلهو عند فرشة حباس، كم مرة شاركت حباس هذه الفرشة وقد ظنّت أنه يحبها لكنه لم يحبها قط ولم يحب ولدها الذي أنجبته من صلبه، وها هي تعاني الأمرين في المعيشة وتود فقط لو تترك هذا المخيم بما فيه لتجد مصدر رزق شريف تعيل نفسها وتعيل ابنها بعيدا عن سمعة الغجر السيئة، مسحت دمعة سالت على خدها وهي تسير نحو طفلها، لقد أرضت ضميرها وأبلغت حباس، انحنت نحو ولدها الذي كان يعبث بتلك الضبة التي أخفاها حباس عندما دخلت عليه الخيمة، عقدت حاجبيها وطارف من الضبة انفتح أمام عينيها فتنشده نظراتها لرؤية الأوراق النقدية، مدت يدها لتفتح الضبة فشهقت وهي تحدق بمبلغ المال الكبير الذي تراه للحظة ولا تصدق أيملك حباس كل هذا المال؟!

ثم برقت عيناها لتتمتم بقرار: «هذا رزق ولده».

ودون أي تردد أعادت لف الضبة ثم حشرتها تحت ملابسها وهي تراقب فتحة الخيمة خوفاً من مجيء أحدهم،

خلال ربع ساعة لا أكثر كانت على الطريق العام مع ولدها لتغادر مخيم الغجر إلى الأبد ودون أن تُعْلِم أحداً، ستعيش مع ابنها بالحلال، ستأخذ داراً في قرية بعيدة نائية وتبتعد عن حياة الغجر، أخذت تقبل رأس ولدها وهي تقول بحشرجة: «منذ اليوم أنت يتيم يا ولدي، هذا قدرك ونصيبك، لكني أهدك سأحسن تربيتك لتكون رجلاً طيباً نخوراً بنفسه».

***

بعد بضع ساعات.. مجلس ذياب الضاري

أغلق ذياب الهاتف بعد أن أبلغه ناطق بأغلب تحركات حباس في القرى المجاورة، ما زال بعيداً عن دخول قرية الشيوخ، وربما سيكون ذكياً كفاية بالانتظار حتى مغيب الشمس، سأل خلفان بحيرة: «لماذا لا نقتل حباس والغجرية معاً؟».

عينا ذياب جامدتان وهو يرد بنبرة غريبة: «أريده قاتلاً لها قبل أن يقع مقتولاً».

تزداد حيرة خلفان فيزفر أنفاساً نزقة وهو يقترب من الشباك، الإطلاقات النارية تعلو فيرجح أنها بالتأكيد احتفالاً بشيخ الضاري الجديد، يزداد بؤسه وضيقه، ثم يتساءل والحيرة تلون كلماته: «لا أفهم المغزى من كل ما تفعله، أريد أن نقتلهما معاً ولا يهمني أن نثبت لأحد شيئاً من أفعالهما الحقيرة، إنهما مجرد غجر نكرة ولن يطالب

بثأرهما أحد».

ما زالت نفس النظرة في عيني ذياب وبنفس النبرة يرد: «أنسيت إنها تحمل طفلاً تنسبه لشقيقنا؟ أي إنها تحمل ابن الضاري، وما زال عليّ مراعاة الأعراف وسمعتنا لأجل مشيخة الضاري»».

استدار إليه ذياب ليقول بعنف: «الأمر انتهى يا ذياب، كفاك تصرفات هستيرية تصغرنا أمام الناس».

عندها هتف ذياب بصوت رجّ الجدران: «أيها الغبي إن آمنت أن المشيخة انتهت وآلت إلى صفوان حقاً فافهم أنك أنت تحديداً انتهيت لا محالة».

اتسعت عينا خلفان وهي يردد: «أنا؟».

لتبرق عينا ذياب وهو يوضح الصورة لأخيه ذي البصيرة المقصورة كالمعتاد: «عندما تهدأ الأمور وتستقر، فصفوان سيقتص منك قبل أن يقتص مني، أم نسيت أن الحقائق انكشفت اليوم وهو لن يقف أمامه شيء ليطالب (كشيخ) بثأر عبد الواحد وابنته، أن نجوت من تهمة القتل حيث لا دليل ولا شاهد عليك، فلن تنجو من محاولة هتك عرض، و(شيخ الضاري) الجديد هو شاهد العيان».

شحب وجه خلفان وظهر الخوف جلياً على وجهه فيتمتم: «ماذا سأفعل؟».

يقترب منه ذياب ليعده بالقول وعيناه تبرقان: «أنا من سيفعل، لقد خسرت مروان ولن أخسرك أنت أيضاً».

ما زال القلق والخوف يسيطران على ذياب وهو يقول بارتباك: «أنا لا أفهم، كيف ستنقذني؟ صفوان قد يحكم عليّ بـ...».

قاطعه ذياب وهو يضع كفه على كتف أخيه يعتصره وهو يقول له بخفوت: «سأدبّر مقتلاً لصفوان».

جحظت عينا خلفان هذه المرة وهو يهمس: «لكن.. كيف؟».

رد ذياب ونية القتل تشع من عينيه: «سأفكر بأمر ما، حتى لو استدعت الضرورة لتأجير من يقتله».

لم يقتنع خلفان وهو يقول بخفوت: «أنت تلعب لعبة خطرة جدا يا ذياب ماذا دهاك؟ أصابع الاتهام ستتجه إلينا دون غيرنا، بل إلي تحديداً أتريدهم أن يلبسوني دم صفوان وقد بات شيخ العشيرة؟».

أبعد ذياب يده عن كتف أخيه وقد بدا مشوشاً للحظة زائغ النظرات وهو يتمتم: «فقط لا تشوش عليّ».

تصاعدت مخاوف خلفان وهو يرى أخاه في حالة غير طبيعية، للمرة الأولى يشعر بأهمية ذياب الحقيقية في حياته، أنه سنده الوحيد والكل سينهش في خلفان إذا حصل مكروه لذياب، حاول إقناع ذياب بالقول المنفعل المتوتر:

«ذياب أنت تتهور».

نظر إليه ذياب نظرة طويلة قبل أن يرد عليه بتهكم: «من المضحك أن تراني أنت تحديداً متهوراً، قضيت حياتي ألملم خلفك نتائج رعونتك وتهورك».

ثم نظر مطولاً إليه ليعده بصدق ومحبة حقيقية: «لا تخف يا خلفان، أنا سأحميك لآخر يوم في حياتي، لآخر نفس».

النظرة في عيني ذياب أثّرت في خلفان ليتقدم منه ويعانقه دون كلمة، لقد صدق أخوه الأكبر، بينما هو يسرح ويمرح متبجحاً لا يخشى ارتكاب أي فِعلة فإنه دوماً مطمئن فذياب موجود ليحميه، أبعده ذياب ليقول له بجدية: «دعنا أولاً نتخلص من ذاك العبء البغيض الذي تحملته طويلاً، وحباس الحقير سيتولى المهمة بكل غباء».

ما زال خلفان قلقاً من النظرة في عيني ذياب ليطرح تساؤلاً خطر بباله اللحظة: «لكن ماذا لو أن حباس قتل أخانا مروان أيضاً؟».

عندها رد ذياب بعنف مخيف: «ليته يفعلها ويخلص مروان من حياته البائسة لو كنت أستطيع لفعلتها بنفسي وأرحته».

كسا الانشداه وجه خلفان وهو يتمتم اسم أخيه: «ذياب».

لكن ذياب يفجعه بمواجهة الواقع كما يراه: «مروان

انتهى يا خلفان، لقد فقد عقله ولن يعود إليه، أتريده أن يظل حياً بعاره؟ أشرف له ولنا أن يموت ويتخلص من بؤس حياته».

ما زال خلفان غير مقتنع وهو يقف عابس الوجه ليزمجر ذياب مضيفاً: «وأنا والله سآخذ بثأره منهم جميعاً، أن يخسر مروان نفسه وحياته فله ثمن باهظ ولن أعتق أحد أمن تسبب بهذا».

***

مع مغيب الشمس

في سيارة مخفية بين الأشجار يجلس خلفان إلى جوار أخيه الأكبر ذياب يشاركه مراقبة الزاوية الغربية الخلفية من سور دار أخيهما مروان، ورغم معارضة ذياب لمرافقته إلا أن خلفان أصر، فذياب لم يكن بوضع طبيعي وقد خشي خلفان أن يتصرف شقيقه بطريقة تؤذيهما معاً، بدأ ظلام ليلة شتوية يعم وخلفان أصابه الملل، بضع اطلاقات نارية تأتي من بعيد ثم تصمت جعلته يقول بغلٍّ وحقد: «أتصدق يا ذياب؟ كل الشيوخ ساروا في جنازة عبد الواحد اليوم».

رد ذياب وعيناه لا تبعدان عن مراقبة أي حركة قريبة من السور: «يكرمونه لأجل شيخ الضاري الجديد الذي دعموه».

فعلّق خلفان: «سمعت من بعض رجالنا أن صفوان

رفض الاحتفال بالمشيخة وأوقف إطلاقات النار، وطلب من الناس أن تكرمه بحضور تشييع ودفن عبد الواحد وإعلان الحداد عليه، وكأنه (شيخ) لا (فلاح)».

بكره شديد قال ذياب: «دوماً يحن لأصل أمه إبراهيم الضاري عرفها فلاحة في مزرعة بإحدى أسفاره إلى بلد بعيد وعاد بها زوجة له، هو ابن شيوخ الضاري».

شعر خلفان بمزيد من الملل فقال بطبعه النزق: «الظلام حلّ، هل تظن أن حباس سيدخل القرية هذه الليلة؟».

فرد ذياب بثقة وعيناه تبرقان بنيل الثأر أكثر من حباس نفسه: «لن يصبر أكثر من سواد الليل».

فجأة لمح ذياب خيالاً أسود فهمس: «لقد وصل جرذ الصحراء، وها هو سيتسلل إلى مقتله».

أخذ خلفان يتابع وإحساس بالقلق يسيطر عليه بينما يسأل بجدية: «هل حقا ستتركه يقتل مروان؟».

كان حباس قد تسلق السور وقفز ليقول ذياب بنبرة عجيبة: «ليته يجن ويفعلها سيعطيني الضوء الأخضر كي أفعل به كل ما أشاء وعلى الملأ والله ثم والله لأسلخَ جلده عن لحمه، سأجعله يتمنى الموت ألف مرة ولن يناله لأيام».

سأل خلفان بتوتر: «ماذا سنفعل الآن؟».

رد ذياب بنظرات مظلمة برغبة القتل: «سننتظر مغادرته، الجرذ يدخل ويخرج من نفس الجحر».

***

يملأه الحقد وهو يعبر السور عبر الزاوية المهدمة، يسير في ظلمة الحديقة الخلفية بخفة حتى يصل إلى شباك غرفته، انحنى إلى الأرض وأخذ يبحث بين الأحراش حتى وجد ما يصبو إليه، رفع الخنجر ذا القبضة المحروقة وعيناه تلمعان بالثأر، تمتم: «الخسارة طعمها مر لكن الخيانة أكثر مرارة وعقابها شديد، شديد يا.. دنانير».

نطقه باسمها مجرداً هكذا جعله يشعر بالقوة والقدرة المطلقة، وكأنه تحرر من قيود العبودية وأصبح مساوياً لها، مدّ حافة الخنجر الحادة بين ضرفتي الشباك ليفتحه بسهولة، أذناه تتسمعان وعيناه تراقبان أي اقتراب محتمل للحارسين عند البوابة، وعندما أمن المكان قفز بخفة من فوق حافة الشباك ليدخل إلى الغرفة التي كان ينام فيها، حيث السرير الذي منحته فيه دنانير متعة جسد لا تضاهى فقط كي تخدره وتكسب الوقت قبل أن تطعنه بخنجر الخيانة وترميه مهدور الدم، خلع فردتي حذائه وهو يسير على مهل مغادراً غرفته نحو الباحة الداخلية للدار حيث يعمّ الهدوء.

ومن الباحة يتسلق درجات السلم ونصل الخنجر في يده يلتمع كأنه يشتاق لمذاق الدم.

***

غرفة دنانير ومروان

تنام قريرة العين أخيراً وقد أقنعت مروان الليلة أن ينام

جوارها بدل افتراش الأرض، تعترف أن تلك العجوز الحقيرة قد أوقعت في نفسها خوفاً غريباً لم تشعر به طوال حياتها، كلمات العجوز عادت لتدور في رأس دنانير وهي نائمة، حتى تشابكت أحلامها المظلمة لترى نفسها محمولة على الأكتاف وهي تصرخ ولا أحد ممن يحملها يسمعها، صرخة وجع رهيب تفتك ببطنها لتفتح عينيها في نفس اللحظة التي كمّمت كفٌّ فمها، اتسعت عيناها بصدمة لا توصف وهي ترى وجه حباس مُطلّاً فوق رأسها، عيناه تبرقان كشيطان ويده الأخرى يرفعها عالياً بخنجر يقطر دماً، هل.. طعنها؟ هل تحلم بكابوس أم أنه حقيقة؟ وقبل أن تبدي حركة جديدة توالت الطعنات السريعة العنيفة في بطنها تحديداً وصوت حباس الخافت: «اشعري بموت الطفل الذي كنتِ تعولين عليه قبل أن تلحقي به».

جن جنون حباس وهو يواصل طعنها وتمزيق بطنها أرباً حتى ارتوى انتقامه وأخذ ينهت من شدة التعب، وعندها شعر أنها فارقت الحياة ودمها يسيل على فرشتها والى جوارها مروان لا يشعر بشيء، التف حباس حول السرير وفي نيته أن يطعن مروان حتى الموت أيضاً وبنفس الخنجر، لكنه تراجع والتمعت عيناه بالخبث، أفضل عذاب لهذا المجنون أن يكتشف موت (الوعاء وولده) والخنجر بيده.

لم يتردد حباس ليضع الخنجر قرب كف مروان ثم يتركه هناك ويتحرك على عجل نحو خزانة ملابس دنانير، لقد أعد

خطته وسينفذها، بحث عن عباءة سوداء من عباءات دنانير اللواتي اشترت الكثير منهن بالفترة الأخيرة ثم لبسها فوق ملابسه، ثم انتقى وشاحاً أسوداً ولفه جيداً حول رأسه وهو يرده على وجهه ليخفيه، وأخيراً بحث عن خف نسائي مفتوح يلائم قدميه قدر المستطاع ثم تحرك كي يترك الغرفة، ألقى نظرة أخيرة على دنانير الغارقة بدمها وعيناها شاخصتان للسقف بنظرة رعب رهيب أرضته لأبعد حد، بصق نحوها وقد شعر بالفخر بنفسه، إنه أقوى منها وقد ظنت دوماً أنها الطرف الأقوى.

غادر لينزل السلم على مهل، ثم أخذ عدة أنفاس قبل أن يفتح باب الدار الأمامية كي يغادر وهو يسحب الوشاح جيداً يغطي وجهه، ثم إلى البوابة حيث كان هناك الحارسين وقد وقفا على قدميهما حالما رأوه وقد ظنّاه (دنانير)، تقدم حباس بينما أحد الحارسين يسأل: «هل تحتاجين لشيء سيدة دنانير؟».

حباس برع منذ صغره بتقليد الأصوات رجالاً ونساءً كي يخدع زبائن دنانير، فلم يكن صعباً على الإطلاق أن يخدع هذين الحارسين ليقول بنبرة صوت دنانير الآمرة: «سأذهب لأتمشى وحدي قليلاً، لن أتأخر».

عرض أحدهما أن (يرافقه) لكنه رد: «لا داعٍ، أريد السير بمفردي».

يهز الحارسين رأسيهما بطاعة بينما حباس يتجاوزهما بفخر

أنه خدعهما بهذه السهولة، خرج من دار مروان الضاري وسيخرج من قرية الشيوخ النتنة ثم يعود إلى مخيم الغجر يأخذ ماله ويغادر البلد كله إلى بلد مجاور ويبدأ حياته حرّاً، لقد انتصر ودنانير هي الخاسرة.

***

الغزل الثامن عشر والأخير

(للربِّ على البشر أحكامه وأقدارُه، وربما في يوم، قريبٍ أو بعيدٍ، تُفَكُّ أسرارُه، يصبر على غزل من خلق، ثم ينظر في نسجهم إذا اتسق، ويوم الحساب كلٌّ يأخذُ من سعيهِ مقدارُه)

ما بين طبعه النزق المعهود وبين قلق يستبد به قال خلفان: «كان الأفضل أن تدع ناطق يراقب البوابة».

ردّ ذياب بنظرات تحوم حول السور: «لا أريده أن يطّلع على المزيد، يجب أن نتصرف بمفردنا في هذا تحسباً لأي موقف، تعلّم الكتمان يا خلفان في امور كهذه ولا نثق بأحد ولو كان أقرب رجالنا إلينا».

نظر خلفان للساعة ثم قال: «لكن قد مضى ما يقارب نصف الساعة، وربما الغجرية تنبّهت لحباس قبل أن يقتلها وأثارت له فضيحة».

يضغط ذياب على زر الشباك ليخفضه فتصفع وجهه برودة الهواء لكنه ينصت بتركيز للهدوء الشديد الذي يعمّ ما حوله عدا أصوات الحشرات وحركة أغصان الشجر فيقول ببعض الثقة: «ولا أدنى صوت أسمعه اللحظة، لَكُنّا علمنا لو أثارت له فضيحة، فالبوابة ليست ببعيدة والحارسان كانا سيثيران ضجة».

يعبس خلفان وهو يتساءل بحيرة وشك وقلة صبر: «إذن

ما الذي أخّر خروجه؟». يعاود ذياب إغلاق الشباك الجانبي بضغطة زر ثم يقول بسخرية: «ربما يجمع ما خفّ وزنه وغلا ثمنه».

ليهتف خلفان بفكرة خطرت للتو برأسه: «وربما قتلته الملعونة ألم تفكر في هذا يا ذياب؟ دوماً قلت لي إنها داهية وحذرة».

نظرات ذياب انتقلت من مراقبة السور إلى أخيه ليعقد حاجبيه وتتجهم تعابيره بالقلق ليقول وهو يمدُّ يده كي يفتح بابه: «بدأت تثير قلقي معك أبقَ هنا ريثما أعود إليك، لا تتحرك».

ثم ترجل ذياب على عجل ليتحرك ناحية مقدمة الدار بينما يظل خلفان في السيارة يراقب وهو يشعر بالسوء.

***

عند بوابة دار مروان الضاري

بدا الحارسان في وقفتها كأنهما قلقان من شيء ما ويتكلمان بصوت منخفض وقبل أن يلتقط ذياب منهما شيئاً كان أحدهما قد تنبه إليه ليقول ببعض الدهشة: «سيدي ذياب؟».

بعد أن ألقى السلام قال ذياب بنبرة تُظهر قلقاً: «مررنا من هنا أنا وأخي خلفان بالصدفة ورأينا حركة غير طبيعية في الظلام من الجانب الخلفي للسور».

أخذ الحارسان ينظران إليه بقلق أشد وهما يتلفتان ليقول أحدهما: «حركة غير طبيعية؟».

بينما يسأل الثاني: «وأين سيدي خلفان؟».

يرد ذياب على الثاني قبل الأول: «خلفان تركته يبحث ويتقصى عند السور الخلفي وقد أتيتكما لأرى ما يحصل».

تأهب الرجلان بسلاحيهما بينما يضيف ذياب وهو يدّعي جهله بهوية (من رآه): «كأن خيال رجل كان يحوم هناك، ألم تشعرا بشيء؟ ألم يحصل أمر غير معتاد؟».

ينظر كل منهما للآخر وقد بدوا محتارين بشكل مريب لذياب فيضيق عينيه بتركيز بينما أحدهما يرد على سؤاله: «لا، لكن السيدة دنانير..».

تردد الحارس الأول لإكمال جملته فيهتف به ذياب يدّعي الاهتمام بما يجري عليها: «انطق ما بها زوجة أخي؟».

في هذه اللحظة أتى خلفان مهرولاً وقد قتله الانتظار بمفرده هناك فوصل وهو يسمع سؤال ذياب بينما الحارس الثاني يتمتم بخشية: «لقد خرجت السيدة دنانير منذ قرابة العشرين دقيقة يا سيدي وبمفردها».

اتسعت عينا ذياب صدمة كمن لكمه أحدهم في بطنه فظن الحارسان أنه غضب من إهمالهما ليبرر الثاني بخوف: «لقد رفضت تماماً أن يرافقها أحدنا حاولنا ولم نستطع

إقناعها سيدي»».

تجمّد ذياب وهو يتمتم كمن يحاول الاستيعاب بينما هو يحاول تحليل الموقف وما يعنيه: «خرجت؟ دنانير خرجت؟»».

عندها هتف خلفان بتهور: «ألم أقل لك؟ لقد قتلته الملعونة»».

رمقه ذياب بنظرة غضب فصمت خلفان بينما تزايد توتر الحارسين ليصرخ بهما ذياب في عنف: «أوسعا الطريق أمامي، شقيقنا مروان بمفرده ولا يستطيع الاعتناء بنفسه إذا كان هناك لص دخل الدار»».

في تلك اللحظة جاءت صرخات مهولة من داخل الدار فهرع الرجال الأربعة للدخول وفي مقدمتهم ذياب وقلبه شديد الانقباض.

***

عند باب الغرفة المفتوح يتقدم ذياب خطوة واحدة كي يدخل وهو يتمتم بنظرة رهيبة: «يا الله»».

بينما يتبعه خلفان والحارسان والمشهد الذي يروه جميعاً تقشعر له الأبدان، دنانير ممددة على السرير جثة هامدة وعيناها شاخصتان للسقف بنظرة رعب لم يرها أيّ من الرجال الأربعة في حياتهم، احشاؤها تكاد تبرز من بطنها والدماء تقطر من المفارش على الأرضية في مشهد مريع،

مروان يجلس جوارها والخنجر في يده بينما يضرب بكلتيّ كفيه على رأسه وهو يصرخ دون توقف بكلام غير مفهوم.

كان مشهداً لا يوصف ورغم أن ذياب حقّق بغيته بموت دنانير إلا أن رؤيته لشقيقه مروان هكذا أوجعته، حتى قال أحد الحارسين بنبرة مصدومة: «لقد قتل زوجته المسكينة وطفله رباه».

فتيقظت حواس ذياب ليدرك أن التهمة ستلبس مروان بينما يضيف الحارس الثاني بعجب: «لكن متى عادت وكيف دخلت وقد غادرت أمام أعينا والبوابة مُغلقة؟». ارتعش صوت الحارس الأول وهو يردد بإيمان بالفكرة: «رباه.. لقد كانت روحه أما رأيناه لم يكن جسد بشر».

فجأة انكمشوا على بعض بتحفز عندما توقف صراخ مروان وقد تنبّه لوجودهم أخيراً، نزل عن السرير وهو ينظر نحوهم بغضب مجنون، هيئته مريعة وقد تلطخت يداه ووجهه وملابسه بدم دنانير، ثم شرع بالتقدم في خطوات مهزوزة وهو يوجه الخنجر نحوهم متمتماً بنبرة مخيفة: «ولدي.. ولدي».

تفاجأ ذياب بحركة غير متوقعة من خلفان وهو يتجاوزه بخطوة ليقول بمحاولة ركيكة لتهدئة شقيقهما مروان: «أخي.. اهدأ و.. سلّم.. لنا الخنجر».

لكن مروان أخذ يصرخ: «ولدي.. ولدي».

يمد ذياب يداً مرتجفة لذراع خلفان يحاول سحبه للخلف

بينما يده الأخرى يدسُّها في جراب مسدسه كي يسحبه وهو يقول بخفوت: «خلفان.. دعه إنه لا يفقه من نحن..». تردّد خلفان أن يطيع أخاه فيهتف به ذياب: «قلت لك تراجع».

علا صراخ مروان: «وبشِّر القاتل بالقتل».

ثم زجر مهاجماً بخنجره في اللحظة التي كان فيها خلفان يتراجع خطوة وذياب يوجه سلاحه نحو شقيقه المجنون، كانت لحظة رهيبة عندما رأى خلفان شقيقه الأكبر يوشك على قتل أخيهما مروان بيده دون شعوره أمسك خلفان بكفِّ ذياب كي يبعد المسدس فانطلقت رصاصة لتصيب السقف وقبل أن يفقه ما يجري شعر خلفان بألم مبرح في ظهره وصوت مروان يعلو بجنون مطبق: «وبشِّر القاتل بالقتل.. وبشِّر القاتل بالقتل».

أدرك أخيراً أن مروان طعنه بمقتل ثم صرخة ذياب وهو يتلقف جسده المتهاوي كي يحتضنه: «لاااا».

وقع ذياب على ركبتيه وجسد شقيقه الأصغر بين ذراعيه وقد أخذ ذياب يهذر بجزع وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما: «خلفان.. خلفان..».

حاول الحارسان امساك مروان وإيقافه لكنه كان في قمة الاهتياج والجنون ليدفعهما معاً بعنف شديد ويفلت منهما فارّاً بنفسه، فيركضان خلفه عسى أن يلحقا به تاركين ذياب مع أخيه الذي لفظ آخر أنفاسه، بنظرة المفجوع

يتمتم ذياب: «خلفا.. ا.. أ.. أ»، علق الحرف على لسان ذياب ثم حشر ليكون آخر حرف ينطقه بينما عيناه لا ترمشان وهما تحدقان في وجه شقيقه الأصغر.

***

مخيم الغجر.. مع اقتراب الفجر

في جنح الظلام يتسلل حباس إلى خيمته، كان قد خلع العباءة التي تخفّى فيها طوال الطريق من قرية الشيوخ وحتى مخيم الغجر، ولم يخلعها إلا عند شعوره بالأمان أن لا أحد يلاحقه واقتراب وصوله للمخيم، لم يحتفظ إلا بخفيّها في قدميه، كان فخوراً بنفسه وقد نجا انتقم.. أخذ حقه ولن يتندم، لم يزعجه إلا سهوه عن ماله الذي يخبئه في خيمته، مؤكد لن يشكّ أحد أن بحوزته هذا المال وقد عاش الأيام الماضية مُدعياً العوز والحاجة فيطعمه أهل الغجر في مؤازرة لحاله البائس، دخل للخيمة دون أن يصدر صوتاً وتحرك نحو فرشته ببعض القلق، كان غباء منه أن ينسى المال هناك، لكن غضبه من دنانير ساعتها فاق كل الحدود، جثا على ركبتيه وهو يمدّ كفه تحت وسادته لتتسع عينا بنظرة صدمة قلبه يرتعد في صدره وهو يزيح الوسادة بعنف لتتأكد صدمته أن ضبة المال مفقودة.. ماله سُرِق، صرخ دون شعوره وهو يهبّ على قدميه كالمجنون يبحث في كل مكان وزاوية من الخيمة دون أن يجد أثراً توقف وسط خيمته يشد شعره وهوية الفاعل تتجسد في رأسه بـ(وسيلة)، هي ولا غيرها

خرج من خيمته كالمجنون وهو يصرخ: «أين وسيلة؟ أين الحقيرة التي سرقتني ونهبت مالي»».

استفاق بعض الغجر من نومهم ليخرجوا من أكواخهم وخيمهم على صوت صراخه، ثم لاحق خطواته بعضهم وحباس يتجه نحو خيمة زوجته للمرة الأولى منذ عودته وهناك يُصدم برؤية الخيمة البائسة خالية، حريق دبّ فيه وهو يصرخ بينما يستدير إلى جمع الغجر الذين تجمهروا ليرميهم جميعاً بأبشع الكلمات: «أيها الأنذال كلكم غجر لصوص أنذال.. سرقتم مالي معها أليس كذلك؟ كم أعطتكم تلك الحقيرة قبل أن تفرَّ مع ولدها؟»».

الجمع ينظرون إليه بغضب وهو يلتزمون الصمت أمام ثورته، ثم أخذوا يتفرقون وكبير الغجر يخترق تجمعهم كي يواجه حباس، جسّاس البكري، أو البكري فقط كما يُناديه الجميع، رجل في الأربعين، غامض حتى في أعين قومه من الغجر، ولا يُعرف عنه اتخاذ مهنة واضحة، لكنه يحكم الغجر بيد من حديد دون أن يتدخل بنوع الحرف التي يتخذونها خارج المخيم، حكمه قائم على إيجاد هذه البقعة من الأمان لهم، ويمنع أي محاولة لزعزعته، هواء الشتاء يتلاعب بشعره الداكن الطويل الأجعد وهو يواجه ثورة حباس بالقول: «داخل المخيم لا أحد يسرق، هذا قانوني هنا»».

ثم التمعت عيناه الداكنتان بالتهديد الصريح مضيفاً: «ومن يخالف القانون أنت تعرف جزاءه»».

في حركة مباغتة هستيرية مدّ حباس يده إلى أحد الرجال القريبين لينتزع من حزامه سكين كبير يواجه بها الجميع وهو يواصل صراخه: «لا يهمني قوانينكم وأحكامكم القذرة أريدكم أن تخبروني اللحظة بمكان وسيلة، أم أنكم اتفقت معها كي تخفوها عني ثم تقتسمون مالي»».

زمجر الغجر غضباً منه بينما رفع البكري كفه ليقول: «امرأتك اختفت منذ ساعات وهذا شأنها مع ولدها، إن كانت أخذت مالاً منك فهذا شأنك معها وليس معنا، فهي زوجتك وأم ولدك»».

أخذ حباس يصرخ: «ليست زوجتي.. ليست زوجتي.. إنها طالق.. طالق»».

ثم فقد سيطرته بالكامل ليهتاج كما لم يفعل في حياته، لا زالت دماء دنانير في يده التي تحمل السكين اللحظة، دماء (سيدته) التي قتلها تمد شرايينه بقوة هستيرية تجعله لا يقدّر ما يواجه اللحظة، أخذ يشوح بالسكين في وجوههم جميعاً فيتباعدون عنه خطوات للخلف بينما البكري ثابت مكانه لا يتزحزح، ليزداد جنون حباس وهو يشوّح بالسكين الآن نحو كبير الغجر ومن خلفه القوم يشهقون لجرأته، بخفة وهدوء كان البكري يتمايل بجذعه للخلف يميناً ويساراً كي يتجنب السكين بمهارة بينما حباس يلهث كمن أصابه المسلم يكف عن محاولاته والبكري يحذره: «أنت خدعتنا جميعاً وادّعيت العوز، والآن تهاجم من آواك وحماك ارحل يا حباس فصبري عليك..»».

مسّت السكين جانب عنق البكري فجرحته لتهتاج عيناه ويفقد صبره وبحركة هجومية كان ينتزع السكين من حباس وهو يكمل جملته: «نفد».

ودون رحمة رفع السكين وأنهال بها فوق وجه حباس ليصيبه بجرح عميق ممتد من جبهته مروراً بعينه اليسرى وحتى خده، صرخ حباس من الوجع والصدمة والدماء تنزف من وجهه بينما البكري يأمره بقسوة: «غادر المخيم ولا تعد، سأقتلك أن اقتربت».

يركض حباس حافياً وقد خلع خفيّ دنانير أخيراً، يغلق جرح عينيه بكفه وهو يلهث للنجاة بحياته.

***

قرية الشيوخ

مع بزوغ الفجر جنازتان دخلتا مقبرة القرية، نعشان، أحدهما محمول على أكتاف المخدوعين بكرم زائف فيُكرمون (السيدة) وهم يحملونها بحزن بليغ إلى مثواها الأخير، والثاني لا يحمله إلا أربعة رجال غرباء عنه وليسوا من دمه، بل متبرعين لدفنه وقد غاب شقيقاه، أقرب الناس اليه، ولم يرغب أحد من أهل القرية المشاركة بتشييع (خلفان الضاري)، من مسافة ليست بالبعيدة يشير صفوان برأسه إلى الدفّان كي يبدأ بتجهيز الحفرتين والنعشين في طريقهما نحوه، بينما يلتزم صفوان موقف الحياد ليؤدي واجبه كشيخ للعشيرة، ويؤدي التزاماته كما يراها، لا يسعه

إلا التفكير بحال ذياب وما آل إليه الرجل فقد النطق ولا يعلم صفوان أهي حالة عابرة أم ربما ستدوم، لقد نقل الرجال ذياب إلى داره وتعابير الصدمة لا تفارق محياه الذاهل، ورغم كل أفعال ذياب الشائنة هو وشقيقيه إلا أن صفوان لا يستطيع إنكار تأثره بما جرى عليهم، حتى مروان فرّ إلى الصحراء بعد فعلته ولا أحد يعلم مصيره.

«أتسمع صراخها؟».

أجفل صفوان وهو يلتفت إلى صوت العجوز عجمية ليراها تقف خلفه مستندة بيد واحدة على عصاها وعيناها نحو النعشين المحمولين إلى زاوية قصيّة من مقبرة آل الضاري، سألها ليتأكد من مقصدها المبهم: «من يا أماه؟».

ردّت بتعابير عابسة ومشفقة في ذات الوقت: «الحزينة.. إنها تصرخ دون توقف لقد جعلتني أترك ولادة حفيدي الأول كي آتي إليها».

قالتها وهي ترفع يدها الحرة لتشير بسبابتها نحو نعش دنانير، ثم ترتعش يدها للحظة من شدة التأثر، شعر صفوان بقشعريرة تمر بجسده الضخم وهو يسأل: «ماذا تسمعين؟».

ردت وعيناها تتوهجان: «لا تريد منهم دفنها، تريد الهروب والعودة من حيث لا عودة لم أسمع في حياتي صراخاً لميت كصراخها».

ظلّا هكذا يحدقان وقد شعر صفوان للحظة أنه قادر على

سماع صرخات الغجرية امتلأ قلبه الرحوم بالإشفاق فقال: «ادعي لها بالرحمة والغفران يا أماه».

التفتت إليه لتقول بتوصية مُشدّدة: «**قلبك خسوف يا ابن سدرة فاحذر ممن سيظنه ضعفاً فيك، تعلّم بعض القسوة وقت الحاجة ولو ادعاءً بما لا يُرضيك**».

تمتم صفوان متنهداً: «فليعينني الله على ما حملت، لم أسعَ إليه في حياتي وما خطّطت».

عاد صراخ الغجرية يصمّ أذنيّ عجمية لتلتفت مجدداً نحو مكان الدفن وقد أوشك الرجال أن يضعوها في مثواها الأخير: «يا حزينة.. يا حزينة».

كفُّ صفوان حطّت على كتفها ليواسيها بالقول: «ليس هناك ما تفعلينه لأجلها غير الدعاء، عودي إلى دارك يا أماه، ربما وُلِدَ حفيدك وسينشغل بالهم عليك إذا لم يجدوكِ».

شقاوة سطعت في عينيها تعيدها كأنها صبية يعجب صفوان كيف يمكن لها أن تكون مؤثرة هكذا بعينيها الغريبتين وهي تنتقل من حال إلى حال، قالت له: «أنا أجيد الاختفاء حين لا ينتبهون ثم الظهور من حيث لا يتوقعون».

ثم بفضول غريب أخذت تمعن النظر فيه وتدّقق، يسألها بارتباك طِيبِ رجولته: «ما بالك يا أماه؟».

ردت بنبرة آمرة وهي تبسط راحة كفها أمامه: «أريد ما تحفظه في جيبك منذ سنين يا صاحب العود».

كفّه الضخم لامس من فوق العباءة ما يخفيه دوماً في جيبه ولا يفارقه ليرد برجاء رقيق: «اطلبي ما تشائين أقول لك، لبيّك لكن..».

لم تتنازل، بل طلبتها بإصرار: «أتردني يا شيخ في مطلبي؟».

تنهّد ليغلبه طبع الكرم فيخرج من جيبه القارورة الصغيرة فيقدمها لها بنفس راضية قائلاً بصوت أجش: «إنها أعز ما ملكت لكن لا تغلو عليك».

ابتسمت وهي تأخذها بلهفة طفلة من يده، ثم تحركت فجأة لتشير إلى الناحية الأخرى حيث قبر عبد الواحد الذي دفن بالأمس في تشييع مهيب فتقول بجدية: «عبد الواحد يوصيك بابنته، احفظ الأمانة.. احفظ الأمانة».

أخذ صفوان ينظر مطولاً ناحية قبر عبد الواحد وهو يتمتم: «نعم.. سأفعل بإذن الله يا أماه».

لم ترد عليه، وعندما التفت لم يجدها كأنها لم تكن عنده قبل لحظات، أخذت القارورة ورحلت، اقترب من قبر عبد الواحد وهو يقول له: «سبحان الله لم يمر يوم يا عبد الواحد على مقتلك لينال قاتلك القصاص، ماذا كان بينك وبين الله ليثأر لك بتدبير من عنده؟ أم هي دعوة مظلوم فأجرْنا يا رب من قصاص أعددتَه للظالمين».

يصل مسامع صفوان توحيد وتكبير الرجال ثم بدأ شيخ الجامع بتلاوة القرآن كما تجري العادة عند الدفن فيقترب أكثر من قبر الرجل الطيب ليضيف بوعد رجل يحفظ كلمته: «لا تخشَ على غنيمة، هي في رقبتي إلى يوم الدين، سأزوّجها لمن يصونها وأكون لها كما كنت لها».

طبطبة كفٍّ فوق كتف صفوان الأيمن وصوت رجل يعرفه يقول له: «بارك الله فيك يا شيخ صفوان».

استدار إليه يصافحه قائلاً: «وبكِ يا قحطان».

تبسّم قحطان الجبلي وهو يقول: «سألت عنك وقيل لي سأجدك هنا».

ثم دارت عيناه بين الأشجار عن بعد وهو يلمح خيالات رجال مضيفاً: «رجالك يخشون عليك الغدر فيرافقونك حتى وأنت تنهاهم، انظر إليهم يتخفون عن ناظريك لكن أنظارهم لا تغفل عن حمايتك».

رد صفوان بقناعة: «الله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين».

قال قحطان باحترام خاص لهذا الرجل: «ونعم بالله، أردت توديعك قبل عودتي مجددا لعملي في العاصمة».

فرد صفوان بامتنان وتثميناً للمعروف: «وأنا أشكر وقفتك معي بالأمس».

عينا قحطان طرفتا نحو قبر المدفون للتو، لم يحمل اللحظة

أي مشاعر نحو نهاية خلفان المفجعة فقال: «كانت شهادة حق يا شيخ صفوان، قدمتها لأجلك ولأجل الفتاة، المسكينة كان يلاحقها من قبل أن تستغيث بك».

تعجّب صفوان وهو يسأل: «كيف علمت؟».

ردّ قحطان وهو يستذكر ذاك اليوم: «قبل أن استمع بالصدفة لشكواها إليك بمدة بسيطة كنتُ في بستان ابن عمي طالب الجبلي، البستان كان خالياً تماماً حتى سمعت صوتاً لفتاة تصرخ مستنجدة، لم أرَ وجهها لكن حالما سمعت استنجادها أطلقت الرصاص في الهواء لأخيف المعتدي».

يزمُّ صفوان شفتيه الغليظتين بينما يكمل قحطان بالقول: «ثم طاردت خطواته حتى ظهر لي خلفان الضاري، كان أكثر تبجحاً من الهرب أو حتى الشعور بالعار مما يفعله».

لم يحتمل صفوان ليهتف: «النذل الخسـ..».

ثم قطع شتيمته ليتمالك نفسه فيستغفر ويقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله، ذهب إلى دار حقه وله ربٌّ يحاسبه».

اكتفى قحطان بالقول: «أنت مُحق للشيخ، له رب يحاسبه وهو أعلم به».

ثم تصافح الرجلان وتعانقا كتفاً بكتف قبل أن يغادر قحطان المقبرة ثم ينطلق بسيارته في طريق العودة إلى العاصمة، كان يظنها زيارة سريعة لا تتعد يوماً وليلة

كي يحضر عرس ضرغام الأسدي إكراماً له ولشيوخ الأسدي، ولم يكن في حسبان قحطان أنه مُساق كي يشهد في صباح العرس هذه الأحداث الجسام، بل ويدلي بشهادة حق فيها، بداية عهد مختلف مع عشيرة الضاري، سلسال شيوخ من فرع جديد اختاره الناس بملء إرادتهم، فماذا سيحمل الغد؟!

اتصال هاتفي جعله يتبسم تلقائياً ليفتح الخط بضغطة زر في مقود سيارته الحديثة فيأتيه صوت أمه الغاضب بلكنتها العربية الفصحى الخاصة بها: «أين تتركني منذ يومين يا ولد؟»،

رد ضاحكاً: «في طريق العودة إليك يقتلني الشوق يا مكيّة».

هدرت فيه تتشكى كعادتها كلما سافر للقرية: «دوائي سينفد وأنت تهملني».

التمعت عيناه وتتسع ابتسامته وهو يقول بصوت خافت: «هذا أفضل خبر سمعته منذ أيام».

ثم انفجر ضاحكاً ويترك لأمه مهمة (توبيخه) بكلمات اختلطت فيها العربية بالتركية بينما قلبه يرفرف في صدره لموعد لقاء قريب جداً مع الدكتورة لولو، ألا يقال (من طلب العُلا سهر الليالي)؟

وهو طالب لـ(عُلا) ويسهر الليالي كما لم يفعل حتى في أيام الصبا والمراهقة والشباب المتهور، سيموت ليعرف سرّها

تكرهه بلا سبب وتصدّه بلا سلاح وترفضه بلا تفكير، فتكون ردة فعله أن يحبها أكثر ويسعى نحوها أكثر ويريدها أكثر وأكثر، إن كانت مجنونة فسيدخل معها مستشفى المجانين.

***

دار ضرغام الأسدي

لم يشتاق يوماً لداره كما اليوم، يتثاءب وقد كان تثاؤبه المستمر مادة تندر من الشيخ عبد الهادي وهو يشاكسه بالقول عن قلة النوم و(بذل مجهود)، يتبسم ضرغام وهو يهز رأسه بينما يدلف للدار، وحالما خطت قدماه الدار امتلأت رئتيه بالروائح، عطورها لا تكف عن إبهاره، وبطريقة ما تمتزج برائحة القهوة العربية في تضادد متجاذب خلّاب، يسير في الدار التي تعمّها حركة غير محسوسة صخب غير مسموع لا يعلم كيف وجودها يبعث الحياة في جدران من الطوب فيجعلها تنطق بل تغني وترقص في ابتهاج.

وجدها في غرفة الجلوس توليه ظهرها تقريباً، شعرها البني مجدول بضفيرة دون رباط ليكون ربعها الأخير محلولاً، وقد تربعت سُلافة بقميص نومها الحريري أمام المدفئة، التفتت نحوه بجذعها لتهبط عيناه تلقائياً إلى ساقيها المكشوفتين وقد وضعت أمامها صينية مُذهّبة وفيها دلّة القهوة النحاسية وبضعة فناجين بيضاء وصحن كبير من قالب كيك، تمتم بصوت أجش وقد تلاشى تثاؤبه

وارتحل نعاسه: «ماذا تفعلين؟ ظننتك ما زلتِ نائمة».

ردت بإشراق غمازتيها: «أعددت قهوة لذيذة وقالب كيك بنكهة الكراميل ثم جلست هنا بانتظارك».

كيكة بالكراميل لا يظن أنه تذوق شيئاً مماثلاً من قبل، تقدم نحوها ثم ينحني ليجلس قبالتها والصينية بينهما ثم قال مُلاطفاً: «الشيخ يعتذر منك شخصياً».

رفعت حاجبيها وهي تتساءل: «ولماذا يعتذر؟».

رد بصوت مبحوح وعيناه تمران عليها: «لأنه على مدى يومين متتالين يأخذني منك قبيل الصباح».

دون مقدمات مدّت كفيها لتزيح عن رأسه كوفيته وعقاله ثم تقول بأسلوبها الصريح الفكاهي: «دعك منه إنه يحاول خداعي بالكلام المعسول حتى أغض الطرف عن سرقته لك من فرشتي».

يضحك بينما تصب له سُلافة بعض القهوة وعندما مدّت كفها إليه بالفنجان يمسك ذاك الكف ويميل برأسه ليلثمه بشفتيه قبل أن يأخذ الفنجان ثم يرتشف منه، ربما ليست أفضل قهوة شربها، لكن مؤكد لن تكون مميزة كهذه، يكفي الصحبة مع سُلافة لتمنحها التفرد بالمذاق، سألها وهو يراها تقطّع الكيك: «هل سمعت بما حصل في دار مروان الضاري ليلة الأمس؟».

ردت: «لحسن الحظ ما زلت في مجموعة الممرضات

البائسة على الواتس آب فينقلن آخر الإشاعات».

ثم رفعت يدها بالسكين لتعد على أصابع يدها الأخرى وهي تقول: «جثة في الصباحية الأولى، وجثتان في الصباحية الثانية أخشى أن نصحو بعد شهر فنجد أنفسنا بمفردنا أنا وأنت في هذه القرية».

تلتمع عيناه بالضحك، ضحك من القلب لا يحتاج لصوت القهقهة، يستسلم ليدها وهي تدسّ في فمه قطعة صغيرة من الكيك، لم يستسغ الطعم ربما لغرابته عما اعتاد، لكنها كالعادة تسحره خاصة وهي تنظر إليه بتلكما العينين الزرقاوين وتسأله: «هل أحببتها؟».

فيرد مستسلماً: «كأنها من طعام الجنة».

تتسع ابتسامة الرضا الأنثوي على فمها فيشعر بالجنة حقاً وقد أنارت فوانيسها حوله، بصبر على ما ستؤول إليه هذه الجلسة فيأكل المزيد من الكيك بينما تسأله باهتمام: «هل قتل مروان الضاري زوجته وأخيه بالفعل؟».

ردّ: «الله أعلم».

تمسح بعض ذرات الكيك عن لحيته بينما تقول بثرثرة: «تقول إحداهن إن الحارسين بالبوابة قد شاهدا روحها وهي تغادر مرتدية عباءتها السوداء وقد تحدثت إليهما وظنّا إنها حقيقة من لحم ودم وهي تخبرهما إنها ذاهبة للسير قليلاً».

ردّ ضرغام بنفس النبرة وقد كانت لديه شكوك وأفكار حول ما جرى في دار مروان الضاري: «الله أعلم».

نفضت كفيها من أثر الكيك ثم وقفت على قدميها لتتحرك كي تجلس جواره، مدّت يدها نحو يده وهي تطلب منه: «أعطني كفك».

يمنحها ما طلبت وهو يسلمها كفه ويسأل بمداعبة: «أقارئة كفوف أنتِ؟».

تهز كتفيها وهي تكرر جملته السابقة: «الله أعلم».

يضحك قليلاً ثم يرتعش قلبه عندما انحنت بوجهها لتلثم باطن كفه وتهمس: «يدك خشنة، لكني أحبها».

يبتلع ريقه وهي تمعن النظر في كفه وتضيف: «خطوط يدك كثيرة يا ضرغام صعبة ومتداخلة وغامضة، بعضها وُلدتَ بها وبعضها خطّها الزمن وخشونة العمل».

بحشرجة العاطفة يسألها: «عمّ تبحثين يا صاحبة التاء؟».

ترد وهي ترفع إليه (مَوْطنيّ غرقه): «أبحث عن اسمي، ربما حروفه محشورة بين الخطوط».

يسحب كفه من بين يديها ليميل بجسده في خشونة فوق جسدها قائلاً بخفوت: «**حما الله حروفاً أُخبئها عن العيون، وأدام عليّ اسماً كان لي في سره المكنون**».

يمدُ يده ليحِلَّ ضفيرتها وانفاسه تتسارع لهفة كأنفاسها وهو يمطرها بالعشق في كل حرف وكلمة: «**(سينٌ) سقتني**

فبتُّ بالسقيا مفتون، و (لامُ) لبيّكِ وأنا للنداء ممنون، و(ألفُ) أهواكِ وحرف الهوى عندي مجنون، و (فاءٌ) فوضت أمري لله يا سُلافُ وقلبي باسمك مطعون، وهل أنسى الـ(تاء)؟ آه يا ربي حرف التأنيث بالحشا معجون».

لهفة بلهفة تردها له وهي ترتجف بين لمسات كفيه: «فوضت أمري لله فيك يا أسدي، أين كان يخبئك ربي لي؟».

***

دار عبد الملك الشيخ

الزغاريد تعمُّ الدار والخادمة تحمل المولود وهي تركض خلف العمّة عجمية تتوسل إليها: «يا عمة عجمية هذا مجلس الرجال وليس مخدعك».

تضرب عجمية بعصاها باب المجلس الموارب لينفتح وهي تشاكس الخادمة بالقول: «سخطك الله رجلاً أترينني عمياء؟ أم تظنين أني لا أعرف دار زوجي وقد سكنته لضعفيّ عمرك يا مهبولة؟».

تبتئس الخادمة وهي تحاول تنبيه العمّة: «لكن هناك..».

صوت ضاحك رجولي قطع على الخادمة مجهودها في الكلام غير المُجدي قائلاً: «مرحباً عجمية».

يقف الدكتور فراس احتراماً وفنجان القهوة في يده بينما تتطلع إليه عجمية بابتسامة عريضة شقية ودون أن ترد

تحيته تغمزه قبل أن تكمل خطاها نحو جانب من الأرائك العربية الطراز وهي تقول للخادمة المسكينة: «ناوليني حفيدي وافرشي فرشته أمامي على الأرض ثم ارحلي لتنفذي ما طلبت».

فعلت الخادمة ما أمرت به العمّة على مضض، فتنتظر استقرار عجمية في جلستها على جزء من الأريكة المنخفضة وقد وضعت عصاها جوارها ثم تسلمها المولود بحذر واهتمام قبل أن تفترش فرشته البيضاء على الأرضية، تشع عينا عجمية وهي تنظر لحفيدها ثم تميل كي تغمر وجهها في رقبته وهي تتمتم بكلمات غير مفهومة، تشعر الخادمة بالضيق والحيرة ولا تعرف كيف تتصرف فتنظر إلى الدكتور فراس الذي عاود الجلوس وكأنها تستنجد به فلا يملك إلا أن يبتسم لها بمواساة، شابكت الخادمة أصابع كفيها وهي تسأل باضطراب: «إن سألتني سيدتي نسرين عن ولدها ف...».

قاطعتها عجمية وهي ترفع وجهها بغضب: «سيدتك نسرين تثرثر مع طبيبتها وأمها نزهت وابنتها، وكأنهن اجتمعن في جلسة نسوة لا ولادة طفل فلا تزعجي خلوتي مع ولدي، اغربي عني وحضري المبخرة كما علمتك».

تهز الخادمة رأسها بطاعة فتغادر لتنفذ بينما يعاود فراس ارتشاف قهوته وهو يقف على كلمة (ولدي) التي قالتها عجمية ليقول بنبرة هادئة: «اتصلت بعبد الملك قبل قليل، يكاد يطير فرحاً رغم شعوره بالذنب لأنه لم يحضر الولادة،

إنه في طريق العودة من العاصمة، وقد حضر بصحبته فرقد وزوجته هاجر والتوءم، سيصلون خلال نصف ساعة إن شاء الله».

أطلت من عينيّ عجمية نظرة تشتت خاطفة ثم رفعت كفها وكأنها تريد فتح الأزرار العلوية لجلبابها وهي تتمتم ببعض التيه وعيناها تحدقان في المولود: «عبد الملك جوعان أظنه يريد أن يرضع الآن».

بسلاسة من اعتاد حالها رد فراس بتركيز على أول كلمة: «حفيدكِ نائم اللحظة يا عجمية، لو كان جائعاً لصرخ باكياً».

تنطفئ نظرة التشتت لتحل مكانها نظرة حنان ولهفة ثم تعيد نظراتها إلى المولود وتهمس: «يشبه جده الحبيب، آه يا حبيب».

يناغشها فراس بالقول: «التاريخ يعيد نفسه وكأنه بالأمس فقط التقينا أنا وأنت للمرة الأولى وخادمة مسكينة تركض خلفك وأنت تصرين على الدخول إلى مجلس الرجال في دار الشيخ عبد الجبار، لماذا تحبين كسر كل محظور؟».

تنود عجمية بالمولود بحركة عفوية تلقائية بينما ترد عليه بنظرة ألفة خاصة: «وعد مكتوب يا طبيب».

يهز فراس رأسه بقناعة وهو يردد نفس الجملة: «وعد مكتوب يا عجمية».

يضع فنجانه جانباً ثم يقف ليقترب منها ويجلس

إلى جوارها، يميل إليها ثم يسألها بخفوت وسرية: «أين اختفيتِ؟ لا تظني أني لم ألحظ تسلّلك عائدة إلى الدار قبل نصف ساعة والكل كان يظنك ما زلتِ نائمة في سريرك».

غامت عيناها وأظلم توهجهما وهي تقول: «ذهبت إلى الحزينة، دعوت لها فربما دعوة تنفع».

تساءل فراس ببعض الحيرة: «أتتركين ولادة حفيدك لأجل امرأة حزينة؟».

فردَت كفها الأيسر تبسطه أمام فراس وسطعت عيناها بنظرة رهيبة مخيفة.. خائفة حشرج صوتها وهي تصف ما لا يوصف: «**رأيت جمرة من جهنم في راحة كفها، تقبضها ومأمورة ألا تفلتها تلك الغجرية السوداء تبجحت على قدرة الخالق، فأمهلها ولم يهملها ثم يأتيها وعدُه لكلِّ مارق**».

اقشعر جلد فراس وهو يتمتم: «رباه».

ثم أضاف بتخمين: «الغجرية ذهبت إلى جنازة الغجرية؟».

تهز رأسها وعيناها تتوهجان أكثر وهما تشردان للبعيد هامسة: «نادتني بذاك الصراخ، كانت تصرخ بلا توقف، آه يا طبيب لو سمع كل البشر صراخها لما بَغَوْا وما عَصَوْا».

ثم أخذت عجمية ترتعد ليمد فراس يده يحاوط كفها الذي ما زال مبسوطاً فيقول لها بإعجاب وتعاطف في ذات

الوقت: «لا أعلم كيف تحتملين كل هذا يا عجمية».

فترد عجمية بقناعة وهي تناديه بالاسم الذي اختارته له: «للبشر أدوار يا (فارس)، وكل على صهوة جواده يمضي في دوره حتى يلقى وجه ربه».

يشدُّ على كفها ويقول بمحبة خالصة: «أطالَ الله بعمرك».

كانت قد استعادت هدوءها وطبيعتها فتعبس وهي تسحب كفها منه وتقول: «دع كفي توشك عظامي الواهنة أن تتكسر في قبضتك وعندها حتى أنت لن تستطيع إصلاحها يا طبيب».

يضحك فراس بينما يصحو المولود ويبدأ بالبكاء فترفعه عجمية عالياً وتحرك جسده الصغير يميناً ويساراً وهي تجهر بالإعلان: «سيف الدين عبد الملك الشيخ».

قال فراس وهو يراقب ببعض القلق حركات عجمية مع المولود خشية عليه: «اخترتِ اسمه قبل وصول أبيه؟».

ثم ارتاح وتنفس الصعداء عندما قررت عجمية أخيراً أن تضع المولود في فرشته ليعود الصغير إلى غفوته، تمتمت عجمية: «كأبيه، قليل الشكوى والبكاء، هادئ الطبع سهل الإرضاء».

ثم مدت يدها بين ملابسها لتُخرج قارورة صغيرة مما يشبه نماذج قوارير العطر المركزة، ابتسامة شقية أطلّت من عينيها ثم فتحتها لتنتشر رائحة العود فتغمض عجمية عينيها

وتهمس: «أتعلم ما هذا العطر يا طبيب؟».

رد فراس ببهجة رفقتها التي لا تُعوَّض: «عطر العود أظن».

قالت وهي تأخذ مزيداً من الأنفاس: «هذا عنوانه فقط، أبحث عن العمق يا طبيب كما أبحثُ أنا عنه».

بمزاج رائق يقول: «منكِ أتعلم فأخبريني يا عجمية».

فتحت عينيها ثم أخذت تقول: «**إنه أول الحكاية وبداية الرواية، هو العهد وكأنه مولودٌ في المهد**».

وضعت قطرة على طارف سبابتها ثم انحنت لتمسح على رقبة حفيدها فيتهلل وجهها بالبشارات ثم تقول ببهجة وتأثر عجيبين: «ابشر يا ابن سدرة، لن يمر العام إلا وولدك ذو الفقار في حجرك، وسيف الدين سيكون له، **رفيقٌ وزادٌ في الطريق، صديقٌ وشقيقٌ وقت الضيق، صاحبٌ وللحق مُصاحِب**».

يتساءل فراس باهتمام شديد: «من هو ابن سدرة؟ وهل تقصدين حفيدك، سيف الدين؟».

لا ترد عليه وقد انغمست فيما تراه: «**عباءة خضراء تطوف فوق دارك يا إبراهيم، عباءة ابن سدرة، وليفة الليل البهيم، أراه يلبسها الساعة، والناس من حوله تنحني في طاعة، ومن بعده سيلبسها أولادُه ثم أحفادُه، قد أن لسلسال الضاري أن تُعادَ أمجادُه**».

تضع قطرة أخرى على سبابتها لتمسح فوق جبين حفيدها ثم أخذت تترنم: «إنها **حناء العهد، تذكّرها يا مولود من المهد إلى اللحد**».

كان فراس مبهوراً اللحظة دون أن يفهم سر انبهاره الإحساس بوجوده في حضرة عجمية عندما تمر فيها هذه الحالة يعجز عن وصفه، لكن عقله العلمي يسجل الآتي (تتأثر قدراتها بشكل ملحوظ عند الولادات والموت، كذلك في الأحداث الجسام التي تمرُّ بمن حولها، فتصبح حواسها مرهفة للغاية والتقاطها للإشارات البعيدة أقوى وأكثر وقعاً، ولا يقتصر هذا على دائرتها الأولى بل يمتد لأشخاص لا رابط مباشر معها لكن مؤكد دوماً هناك صلة، المذهل هو قدرتها على السيطرة على غرورها وبيد من حديد، فتمنع شعور الكبر من التشويش عليها بذكاء وفطنة مذهلين، لكنها لا تسيطر على رغبتها الدائمة لربط الأشخاص معاً في عهود ومواثيق تحكم علاقاتهم، ربما هو انعكاس بيئتها العشائرية التي تقوم على التحالفات).

لم يقطع عليه الملاحظات الذهنية التي يسجلها لأجل الكتاب الذي يؤلفه عن قدرات عجمية إلا صوت زغاريد مع دخول بعض الأشخاص ليخمن فراس تلقائياً هوية الواصلين: «لقد وصل عبد الملك مع ابن عمه فرقد».

ثم علا صراخ طفلين ليضيف فراس بابتسامة عريضة: «والتوءم الشقيّان بكل تأكيد».

***

دار حمدان الضاري.. عصراً

تحت سقف مجلس الشيخ محمد الضاري يقف صفوان في مواجهة ابن عمه حمدان، كان هذا اللقاء على انفراد حتمياً بينهما، ينظر صفوان إلى ما تبقى من آثار الكبر والغرور على محيا حمدان لكن الانهزام والخوف تفضحهما عيناه، رقّ قلب صفوان وهو يراه صغيراً ضعيفاً هكذا، ما زال يصر على ارتداء عباءة أبيه الشيخ محمد وكأنه يلتجأ للقشور مما تبقى من المشيخة التي أضاع هيبتها برعونته وقصوره، لكن الدماء التي سالت والحقوق التي ضاعت تشد على قلب صفوان برباط القسوة، فيتجلد في هذه المواجهة التي يكرهها، تجرأ حمدان على القول ببعض تبجحه القديم: «ماذا تفعل هنا؟ ألديك الجرأة لتدخل دار الشيخ محمد الذي رباك لتأتي اليوم وتنتزع من مجلسه المشيخة؟»،

رد صفوان بهدوء شديد وقد توقّع كل كلمة قالها حمدان: «الشيخ محمد مات، والمشيخة تحتاج لرجل حيّ يُقيم العدل ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا تحتاج لجدران مجلس بارد لا تسمع حتى المظالم»،

يسحق حمدان أسنانه بينما يضيف صفوان بنبرة أمر: « كما أخبرتك بالأمس يا ابن عمي، ستلزم دارك ولن تغادره حتى أصرّح لك بنفسي»،

تتقبّض يدا حمدان ويزم شفتيه بقهر لكن صفوان

استطاع الانفصال عن أية مشاعر أخرى ليحكم من تحت عباءة المشيخة التي ارتداها قائلاً: «وستدفع ديّة من مات وديّة من جرح وقد كنت السبب فيما حصل».

ثم صمت للحظة قبل أن يكمل: «وحقي أنا اتنازل عنه وقد رميتني بالتهم دون بينة»».

لم يحتمل حمدان ليقول بانفعال: «وماذا عنك؟ أنت خنتَ عهدك معي».

برقت عينا صفوان ليرد عليه: «بل أنت من خنته عهدي كان مشروطاً بعهدك يا ابن عمي، وعدتني أن تحمي حقوق الناس في العشيرة فانظر ماذا فعلت؟»».

أخذ يصرخ بانفعال أشد: « كلهم كلاب.. كلهم كاذبون»».

لم يتأثر صفوان بانفعاله، بل قال المزيد: «والأهم أنكَ خنتَ عهد الله في الأمانة التي سعيتَ جهدك لأخذها من أخيك حامد رحمه الله، ألم تفعل؟ أنهيت عزاء أبيك منذ يومه الأول ثم أعلنت نفسك شيخاً في نفس الليلة، ألم.. تفعل؟»».

ارتبك حمدان ثم شعر بحقد صبياني وهو يفكر بمن أوصل هذه المعلومات إلى صفوان، مؤكد الشيخ عبد الجبار الحقير، هدر صفوان بتوبيخ صريح: «أتظن المشيخة جاه وسلطة؟ مال وعزوة؟ أهذا كل ما تعلمته من أبيك؟ أخزاك الله»».

قال حمدان برعونة وغباء: «ألم تسعى إليها لهذا أيضاً؟ للجاه والسلطة والعزوة؟ لا تدّعي الزهد الآن وقد نلت بغيتك يا صفوان».

جلجل صوت صفوان مهيباً وهو يقول بقوة: «اسمي الشيخ صفوان، شيخ عشيرة الضاري، ومقام عشيرة الضاري كبير لن تتجرأ عليه، إن خالفت ما أمرتك به يا حمدان نزل فيك القصاص».

ثم رفع صفوان سبابته وهو ينذره بالنظرات الجادة في الوعيد الذي ينطقه: «قسماً بذات العزة أن تعرّض من تبقى من رجالك للناس في القرية، أو نهبت حقوقاً ليست لك، لاستردّنَ حقوقهم ضعفين وإنْ كررتها نفيتك من القرية».

تزلزل قلب حمدان وظهر للعيان ضعف شخصه دون هالة المشيخة والرجال الذين احتمى بهم ليقول بنبرة توسل: «لا تفعل هذا بحق أبي عليك».

لم يكن هناك تراجع عن الطريق ليقولها صفوان وهو يعنيها: «لو كان أبوك حياً لنفاك إلى الصحراء في هذه الساعة ودون ماء أو زاد».

أخذ حمدان يشوح بيديه وهو يبتلع ريقه بصعوبة ويتوسل: «لن أتعرض لأحد، أعدك.. أعدك».

أخفض صفوان سبابته ليجمع طرفي عباءته حوله قبل

أن يقول أخيراً: «ليس لوعدك قيمة، ووعيدي بأفعالك رهينة».

ثم استدار مغادراً وحمدان ينهار للأرض يكتم صرخة عجز وقهر خسارة.

***

دار إبراهيم الضاري.. آخر الليل

بعباءتها السوداء والوشاح يغطي شعرها تنزل دليلة درجات السلم لتلتقيه في الباحة الداخلية للدار حال دخوله، عيناها تبحثان عن النظر لعينيه وهي تقول بخفوت: «تأخرت..».

تقدّم إليها ووسط الباحة يفتح ذراعيه بصمت فتطلق تنهيدة وهي ترتمي على صدره تلف ذراعيها حول جسده وتهمس من القلب تختصر كل الكلام: «افتقدتُك».

يميل برأسه لأذنها يصارحها بالهمس: « كان يوماً طويلاً، ثقيلاً.. غريباً جدا يا دلال».

تشدّد من احتضانه وكأنها تلجأ إليه وتسنده في ذات الوقت بينما ترد بنفس الهمس: «خفتُ عليك».

لا يبخل عليها بالطمأنينة وهو يعتصرها إليه أكثر ويقول: «أنا معك».

وسط ظلمة الباحة يختليان لاجئين إلى بعض، يعلم كلاهما أن حياتهما ستتبدل وأدوارهما تتشكّل، أصوات

رجال تأتيهما من الباحة الخارجية للدار ولا يفصلهم عنهما إلا باب واحد، رجال يذودون بأنفسهم لحماية شيخ الضاري الجديد، هذه الدار لم تعد داراً عادية، بل باتت دار مشيخة ومقصد الناس من عشيرة الضاري لقضاء حوائجهم، مجلس إبراهيم الضاري يُعاد فتحه لاستقبال شيوخ العشائر ورجالاتها، عهد جديد ودار مشيخة الضاري أضاءت أنوارها بعد طول ظلمة، فسبحان من يُحيي الأرض بعد موتها، ولنبض الدار الجديد ثمنها، لم تعد لهما خلوة حقيقية إلا في مخدعهما، كفّه بحثت عن كفها ليمسكها ثم يتحرك بجسده ليسير مع دليلة نحو السلم قائلاً: «لم تعد الدار كما كانت، زاد قاطنوها منذ حللتِ فيها يا دلال، دوماً تجتذبين الأفئدة حيثما تحلين».

يداً بيد يرتقيان درجات السلم، كأنهما عادا لأيام الصبا وحلاوة القرب البريء، تسامره بالكلام وإن اختلف السمر عن الماضي: «أظن أننا بحاجة لامرأة تساعد حنّة، إنها صغيرة على كل هذا التعب في التنظيف والطبخ، خاصة بعد الوضع الجديد».

شعر بالراحة أنها لم تسأله عما حصل في يومه الطويل الثقيل وقد أدركت أنه لا يريد فعل هذا الليلة، لم يكن في حياته أحد بعد رحيل أمه كدلال، تفهمه دون أن يتكلم، تلبي شكواه دون أن يكشفها لها، درجة سلم تتبعها أخرى وعلى مهل بينما هو يرد على كلامها: «ليتها تهوى طلب العلم، لكنتُ أرسلتها للمدرسة».

تطمئنه بالقول: «سأعلّمها أنا لا تقلق، وإن أحبت التعليم سنرسلها كي تدرس هناك». ثم ضحكت وهي تضيف: «الفتاة تحب الالتصاق بك وبدارك، أحياناً أراها تطوي ملابسك بعناية شديدة ثم تشمها قبل أن تضعها باعتناء في الخزانة، ما طلبتُ منها أمراً يخصك إلا وأنجزته من فورها وهي في أوج سعادتها».

كان ينظر لوجهها الضاحك فيزول نصف تعبه بينما يصلان أعلى السلّم وهو يفسّر حال الصبية (حنّة) بالقول: «إنها يتيمة، واليتم يجعلنا ننجذب تلقائياً للبدائل المتاحة، نتعلق بها، حتى لو كانت تلك البدائل غير كافية أو غير مُرضية».

ومن فيض دلالها تغمره، تميل إليه تلتصق فيه فتكفيه وترضيه، يلف ذراعه حولها ويضمها أكثر وهما يسيران نحو مخدعهما ثم يسألها: «كيف كانت غنيمة وأمها في عزاء النساء؟».

ترفع وجهها إليه لترد بنشوة المنتصر: «شامختان، مرفوعتا الهامة، أخذتا العزاء في عبد الواحد وهما منتصرتان، حقهما عاد ورب العزة كان بالمرصاد».

يهز رأسه بارتياح ثم يتأكد أكثر بالسؤال: «ألم تُسْمِعُهما النسوة ما يزعجهما؟».

عند باب المخدع تفتحه دليلة ثم تنظر لصفوان وعيناها تلمعان بالفخر ثم همست: «وهل يجرؤن في دارك يا

شيخ؟».

يتبسم، ثم يسحبها ليدخلا معاً، يغلق الباب قائلاً بقناعة: «بل لا يجرؤن في حضورك، أكاد أتخيلهُن كيف يهبْنَك».

تركها تفعل ما تشاء وهي تخلع عنه عباءته وتعلقها، ثم تتبعها بكوفيته وعقاله، يتنهد برجفة شوق وهي تمرّر كفيها فوق صدره صعوداً حتى تصل إلى رقبته ثم وجهه، لم ينم في فرشتها ليلة الأمس وقد كانت ليلة عصيبة بعد كل ما جرى، حاوطت دليلة خديه وتنظر في عينيه بشوق امرأة لا تعشق بسهولة، وقد عشقته هو فقط إنه في دمها كما هي في دمه، التصقت به حتى بات يشعر بنبض قلبها فوق نبض قلبه ثم قالت لتزيل ما تبقى من تعبه: «أدامك لنا الله».

فيرد لها الدعوى يبثها القوة وقد استعادت دلال روحها القديمة التي لم تتكسر: «أدامكِ لي أنتِ، أنت من يشدُد بها الله أزري، أريدك قوية كما عهدتك فنحن في أول الدرب يا شيخة دلال».

تبتسم بدهشة حقيقية وهي تبتعد قليلاً لتمسك كفه وتسحبه نحو السرير وهي تقول: «لم أعتد بعد على كل هذا، أشعر بالغرابة».

تجلسه على السرير ثم تخلع عنها عباءتها ووشاحها وتقف أمامه بثوبها الأبيض لتملأ ناظريه بحسنها قبل أن يمدّ كفيه ليسحبها بخشونة، على فرشتهما يحتضنها صفوان وفي فورة

العاطفة وقد قتلهما الشوق اعترف لاهثاً: «سامحيني.. فرّطت في قارورتك».

عيناها الجميلتان غارقتان بالعشق وشفتاها اللتان لم تشبعا من قبلاته تبتسمان له، يكمل اعترافه بالهمس الخشن: «طلبتها مني العجوز عجمية ولم أستطع ردّها».

تتسارع أنفاسها وهي تشده إليها هامسة: «**لا جعلكَ الله تردُّ سائلاً لطلب وأنت قادر، ومكّنكَ المولى من الاستجابة وأمدّك من فيضه الهادر**».

يغرقان ببعض وهي تردّد همساً شقيّاً ذائباً: «**القارورة كانت لتعيدك إلى دوماً يا حبيب، خدعة من صبية تدّعي المرض، وأنت العلّة والطبيب**».

***

العاصمة.. بعد يومين.. عصراً

دخل ليث غرفة استقبال الضيوف يحاول جهده السيطرة على ما تبقى من ارتجافه، نرمين جعلته يسترخي قبل أن يغادر غرفته وقد طلبت منه أخذ أنفاساً عميقة متتالية، واجه ليث المحتوم وهو ينظر إلى أبيه الذي وقف على قدميه بينما تلك المرأة تجلس بأناقة وهي تضع ساقاً فوق ساق بل وتبتسم له ابتسامة واسعة وهي ترحب به: «كيف حالك يا ليث؟».

أبوه حتى اللحظة لا ينطق لكن ليث لا ينظر إليه، بل

يحدق في وجه المرأة وشكوكه تتأكد، إنها ذات المرأة التي كانت مع أبيه في سرير أمه منذ أن رآهما يدخلان شقة الجدة نوال قبل نحو عشر دقائق وذاكرته تعرّفت عليها، فلم يحتمل ليعود إلى غرفته يحاول السيطرة على نفسه فلا يريد أن يظهر كطفل.

(أنت قوي يا أسدي، ودوماً ستكون سندي).

كلمات أمه ترن في أذنيه، مضى زمن طويل لم يستذكر شيئاً عنها، وللحظة دمعت عيناه ولا يعرف السبب أهو الاشتياق إليها أم شعور الخذلان منها ومن أبيه، أم ربما هو يشعر بالقهر لكل ما يواجه ولا يعرف كيف يتصرف فيه.

صوت الجدة نوال يأتيه من الخلف وهي تشجعه وتشد أزره بالقول: «سلم على أبيك يا ليث، وعلى زوجة أبيك».

اتسعت عيناه وجفت آثار دموع لم تجد متسعاً من الوقت كي تجري على خديه، تمتم وهو يحدق في وجه أبيه المرتبك: «زوجتك؟».

بدا والده صغيراً للغاية أمامه فأوجعه هذا، عندما كان طفلاً كان يرى أباه كبيراً، خارقاً، مميزاً ساحراً، لكنه اللحظة لا يراه إلا رجلاً ضعيفاً غريباً لا يعرفه، وقفت رشا على قدميها بنفس الأناقة التي كانت تجلس بها لتعرّف بنفسها في شموخ: «أجل يا ليث، أنا زوجة أبيك منذ عام كامل، آن الأوان لتعرف هذه الحقيقة».

يتمتم ليث بصدمة وهو يوجه كلامه لأبيه: «زوجتك

منذ.. عام؟».

ثم يلتفت بحدة إلى جدته ليسأل بانفعال: «هل كنت تعرفين هذا جدتي؟ ولم تخبريني؟».

ردّت الجدة ونظراتها تتجه نحو ثامر قائلة ببعض الغيظ المكتوم: «لم أكن أعرف أنهما متزوجان إلا بعد حضورهما هنا، والدُك كان قد أخبرني فقط أنه ينوي الزواج ولذلك طلب رؤيتك ليُعلمك».

ثم بحزن نقلت نظراتها إلى ليث كي تقول له: «أنا آسفة يا صغيري لأنك تواجه هذا دون سابق تمهيد».

تقدح عينا ليث الزرقاوين بينما يلتفت لأبيه هادراً: «لماذا أتيت؟ ماذا تريد مني؟».

تدخلت رشا لتوبخه: «تكلم مع أبيك باحترام يا ولد».

انفعلت الجدة نوال لتدافع عن حفيدها بانفعال: «إياكِ أن تكلميه هكذا، أعرفي حدودك يا رشا ولا تتجاوزيها».

أوشكت رشا أن ترد بعنف عندما انفجر ثامر بينهم ولم يعد يحتمل التوتر: «كفى رشا، وانزلي إلى السيارة انتظريني هناك.»

احمر وجه رشا من شدة الانفعال لكنها نفذت وهي تنحني لتلتقط حقيبتها ثم تخطو بخطوات واسعة كي تغادر، لكنها عند مرورها بليث توقفت لتلقي قنبلتها انتقاماً: «أحببت أن أعلمك أيضا يا ليث أنك ستحصل على أخٍ

قريباً، أخ غيرُ شقيق».

ثم شمخت برضا وهي ترى إمارات الغضب على وجه الجدة بينما ليث يحدق في أبيه اللحظة وقد أخرسه الخبر، ساد الصمت بمغادرة رشا بينما ثامر ينظر بانفعال العاجز إلى ولده المصدوم، أخذ يشتم رشا في سره، لقد أجبرته على الكثير في الأيام القليلة الماضية، وأول ما أجبرته هو الإعلان بين الأصحاب المقربين عن زواجهما، الأصح هي من أعلنت ووضعته أمام الأمر الواقع، ثم ارتدت ثياب الزوجة المضحية لاختيارها البقاء في السر حفاظاً على مشاعر (ليث) خاصة بعدما تعرض له بسبب والدته كان إحساس ثامر ساعتها مريعاً وهو يواجه كل هذه الأكاذيب بابتسامة بليدة والاكتفاء بهزة تأييد من رأسه، رفع ثامر يده ليمرر أصابعه في خصلات شعره، البارحة كان الأسوأ وهو يقابل عمة رشا، تلك المرأة الكريهة الشمطاء، مسحت بكرامته الأرض واتهمته أنه غرّر بابنة أخيها (البريئة) والأسوأ من عمتها كانت (البريئة) نفسها، وقد أعجبها الدور لتكتفي بالصمت وتطأطأ رأسها تتصنع الانكسار في بيت عمتها.

«هل تزوجتها حقاً منذ.. عام؟».

تنبّه ثامر من ارتباكه على سؤال ولده المباشر، نظر إليه وشعر بالاختناق وكأنه الجدران والسقف سيطبقون عليه، وجه كلامه للجدة قائلاً: «أتمنى أن تتركيني بمفردي مع ولدي».

زمّت الجدة فمها قبل أن تستدير لتترك غرفة استقبال الضيوف فيواجه ليث أباه ربما مواجهة هي الأولى من نوعها، أخذ ثامر ينظر إليه ويفكر، لقد كبر الفتى، شاربه بدأ يخط فوق فمه، وصوته اخشوشن، لكن الأمر لا يقتصر على مظهر خارجي فحسب، نظرات ولده اللحظة تعبر عن ذاك التغيير الذي يطرأ على داخله أيضاً، قبل عامين كانت نظراته مشوّشة وأسئلته حول أمه غير واضحة وانفعالية، ويعترف ثامر أنه (احياناً) كان يشعر نحوه بالذنب أما اليوم فنظرات ليث فيها الكثير من الوضوح، الكثير من طلب الإجابات والتفسيرات، إنه يسعى ليعرف الحقيقة، رد ثامر وهو يعاود الجلوس: «تعال واجلس قريباً مني بني»».

لكن ليث هزّ رأسه برفض وهو يلح بالسؤال: «فقط رد على أسئلتي أبي، هل حقاً تزوجت هذه المرأة منذ عام؟ وإن كان صحيحاً فلماذا أخفيته عني؟»».

اختصر ثامر الرد على السؤال الأول عبر الرد مباشرة على السؤال الثاني ليبرر بالقول: «خشيت أن نتأثر ويسوء وضعك، كنت في حالة نفسية سيئة»».

يبتلع ثامر ريقه وهو يرى في عيني ولده نظرة تجلده بالسياط إنها نظرة يكرهها أي أب، ليعبر ليث عن تلك النظرة بالقول الصريح: «إذن رشا زوجتك عندما رأيتها معك في.. الفراش؟ فراش أمي»».

حاول ثامر تخفيف الأمر بالقول: «قلت لك خفت عليك، وكان لي احتياجات كرجل و...».

لكن ليث قاطعه وهو ينظر لأبيه بذهول من اكتشاف (حقارته) فيقول: «احتياجاتك كرجل؟ وماذا عن شرف زوجتك؟ لقد جعلتني أظن أنها.. امرأة سيئة؟».

فغر ثامر فمه للحظة وعقله لم يسعفه بالكلمات المناسبة بينما يحمر وجه الفتى عفوياً وصوته يرتفع أكثر مضيفاً: «كيف ترتضي يا أبي أن يظن أحدهم السوء بزوجتك؟ كيف؟ ألم تقل لي دوماً أن شرف الرجل هو أهم شيء عنده؟ ألم تقل لي إن أمي مرّغت سمعتك وشرفك بالتراب بسبب تصرفاتها المستهترة مع الرجال؟ ألم تقل لي إن الرجل يغار على زوجته ولا يحتمل أن يسمع كلمة واحدة تمسها؟».

وقف ثامر وهو يتمتم بارتباك شديد: «نعم بنيّ.. لكن...».

هدر ليث وهو يتقدم لأبيه « لكن ماذا؟ أنت حتى لم تحاول كشف حقيقة زواجك إلا بعد مرور أشهر على رؤيتي لكما معاً أشهر يا أبي وأنا أفكر أنك رجل فاسق و(زوجة أبي) فاجرة».

انفعل ثامر ليصرخ في ولده في غضب: «لا تكلمني بهذه اللهجة يا ولد أنسيت نفسك؟».

لكن ليث لم يتأثر بغضب أبيه ليواجهه بما لم يتوقعه ثامر: «أريدك أن تخبرني اللحظة، هل ما أشيع عن أمي صحيح أم

افتراء؟».

انعقد لسان ثامر بينما ليث يرتجف من شدة الانفعال وهو يضيف بتهديد: «إن كذبت عليّ أبي اليوم فلن أكلمك لآخر عمري».

عيناه تدمعان وصوته يحشرج مضيفاً المزيد من التهديد: «بضع سنوات وأبلغ سن الرشد ولن يكون لك حكم عليّ وعندها سأبحث في كل مكان عن دلائل تدين أو تبرئ أمي».

كان صدره يعلو ويهبط بانفعال ليعدل جملته الأخيرة بالقول: «بل دلائل تدينك أو تبرئك أنت يا أبي حول ما رميتها به وأقنعتني أنها الحقيقة، وعندما أعرف سأفعل كل شيء لأعاقب من آذاها وحرمني منها».

خرج صوت ثامر أخيرا خافتاً نجولاً: «لا تفتح أبواب الماضي بنيّ».

لكن ليث أخذ يصرخ ودموعه تهطل: «هل أمي سيئة السمعة؟ أريد رداً لسؤال لم أجرؤ على النطق به وأنا صغير تائه بينك وبينها».

شعر ثامر أنه يواجه ما لم يحسب له حسباً، أن يواجه نضوج ولده، أن يواجه ما عاناه الفتى من التخبط على مدى سنوات كان ثامر عند مفترق طرق لم يتحضر له، أن اختار التشبث بالكذبة سيحاسبه ليث عليها يوماً وإن اختار الاعتراف فلن يسامحه أبداً، حاول ثامر إيجاد مخرج

من هذه الورطة العصيبة، فقال بتردد: «ربما.. كان.. سوء تفاهم».

يتمتم ليث بنظرة ذهول: «سوء تفاهم؟»،

فوضّح ثامر فكرته (المُختلقة) بارتباك شديد وجبينه يتفصد عرقاً: «أقصد.. ربما أسأت فهم الأمور.. مؤخراً فقط.. اكتشفت أن.. بعض الشهود كذبوا.. لكن..». تلاشت كلمات ثامر ولم يعد يجد ما يقوله، لقد كره نفسه اللحظة وودّ لو يترك البلد برمته ويهاجر، أخذت دموع الفتى تجري على خديه ليقول بنبرة تقطّع القلب: «أنت لا تهتم إلا بنفسك لم تهتم بسمعة أمي وقد كانت زوجتك لتشوهها، كما لم تهتم بسمعة زوجتك الثانية فلا تهتم أن تشوهت أمامي».

تقدّم ثامر خطوة من ولده لكن ليث تراجع خطوات وهو يقول له: «لم أعد أعرفك يا أبي لم أعد أصدق أي شيء حولي».

ثم تركه ليغادر ليث الغرفة بخطوات راكضة إلى غرفته وثامر يسب ويشتم.

***

في اليوم التالي.. صباحاً.. دار ضرغام الأسدي

يراها مرتبكة منذ استيقظت وهجرت حضنه، تتحرك ذهاباً وإياباً أمامه وعيناها شاردتان، طلب منها القهوة فأعدّت

الشاي وعندما سألته أيرغب بالبيض أم الجبن، ردّ باختيار الجبن، لتغيب في المطبخ دقيقة ثم فاحت رائحة البيض المقلي، وضعت أمامه صحن البيض ثم جلست جواره على مائدة الطعام تشاركه الإفطار بصمت، يقتطع رغيف الخبز ليأكل من البيض وهو يتساءل عن سرها اليوم، امرأة حيوية متفجرة الطاقات ليس عادياً منها هذا الصمت المفاجئ، يشعر أن حتى الجدران تفتقدها هذه الصباح وتفتقد حيويتها الصاخبة، سألها وهو يمضغ لقمته بتأنٍ: «ستعودين للعمل اليوم؟».

ردت وهي تهز رأسها: «أجل.. سأغير ثيابي بعد قليل».

ثم رفعت عينيها إليه لتقول فجأة: «أريد...».

لكنها صمتت بعد كلمة (أريد) فينتظرها ضرغام بصبر وقد بدت مشتتة وكأن هناك ما يقلقها ولا تعرف التعبير عنه، لتحاول مُجدداً: «هل أستطيع أن..».

عاودت الصمت لتضرب بقبضتها على حافة الطاولة وهي تهمس بارتجاف: «أنا قلقة على ليث، صوت خالتي نوال بالأمس كان غريباً ونرمين كأنّها تهربت من الكلام معي ثم..».

خنقتها العبرة ليرفع ضرغام كفه يحاوط قبضتها المتوترة فوق الطاولة ثم قال: «ثم ماذا؟ ما الذي جعلك تهجرين حضني باكراً اليوم؟».

تجمعت الدموع في عينيها لتقولها بحشرجة البكاء المكتوم:

«حلمت به، كان.. يبكي.. كان خائفاً يا ضرغام».

ببساطة قال: «اتصلي بخالتك نوال واسأليها».

ردّت وهي ترفع يدها الأخرى لتمسح دمعة سالت: «بالأمس لم تخبرني بشيء، شعرتُ أن هناك ما تخفيه عني».

كرر كلامه بنفس الهدوء: «اتصلي بها الآن واسأليها».

أخذت تهز رأسها وهي تمسح دمعتين أخريين قبل أن تلتقط هاتفها لتتصل بخالتها.

فتح الخط وقبل أن تنطق سُلافة جاءها صوت ليث خافتاً مخنوقاً كأنه يبكي: «أمي..».

غار قلبها في صدرها وهي تسحب يدها من تحت كفِّ ضرغام لتقف على قدميها تهمس اسم ولدها بقلق شديد: «ليث..».

رد بطلب مباشر شديد الإلحاح: «أريد أن أراك، تعالي».

***

ختام المغازل

(يا مغازل اختمي غزل الحكاية، كلٌّ أخذ نصيبه وتنتهي هنا الرواية)

بعد عشرة أيام.. مع انبلاج الصباح.. على الطريق الخارجي من العاصمة إلى قرية الشيوخ

في سيارة أجرة تقلها عائدة إلى دارها في القرية، تجلس سُلافة بالمقعد الخلفي وهي تشعر بالاختناق، عيناها دامعتان دون دموع، وحيرة تعصف بروحها والقلب موجوع، عشرة أيام مرت عليها وهي لا تفارق ابنها ليل نهار، ترافقه طوال اليوم ثم تنام جواره تحتضنه وتشم فيه في الليل، لحسن الحظ كان في عطلة مدرسية لنهاية الفصل الدراسي الشتوي، وكأنه توقيت عجيب من الله ليكونا معاً دون أن يفرقهما أحد، رفعت يدها إلى عنقها والاختناق يشتد وهي تهمس في سرها: «لكنكِ افترقتِ عنه في النهاية يا سلافة تركتِ ولدك الوحيد وقد عاد إليك أخيراً».

أغمضت عينيها تستسلم لرتابة حركة سيارة الأجرة وصوت المذياع يصدح بأغاني فيروز الصباحية، فيشتد الألم والحنين لقطعة منها منزوعة من قلبها، قبل عشرة أيام حينما استجابت دون تأخير لطلب ليث عبر الهاتف فسافرت إليه من فورها برفقة ضرغام، لم تتخيل أن لقاءهما سيكون بهذا الانهيار وكأنها كانت تفارقه منذ سنوات طويلة وللتو التقت به تتشبث به ويتشبث بها والبكاء الهستيري منهما

معاً ولم يعودا يشعران بمن حولهما، تقبّل وجهه وعينيه الباكيتين وتضم جسده الذي كبريا الله.. كم كبر الفتى ولم يعد طفلاً، افتقدت ليونة طفلها وهي تحتضن خشونته كمراهق، فزاد بكاؤها ولم تشعر إلا بولدها يضمها إلى صدره ليكون هو من يحضنها بينما يواسيها بالقول الذي يفيض عاطفة: «لا تبكي أمي.. لا تبكي هكذا».

عندها أخذت تضحك وتبكي معاً وهي ترفع قبضتها لتدق بها على صدره وتقول: «ستكون عريض المنكبين قريباً جدا يا فتى، بضع سنوات أخر وإحداهن ستنعم بكل هذا».

ساد الضحك وسط بكاء التأثر ثم فجأة عندما رفعت وجهها لم تجد ضرغام لقد انسحب تاركاً إياها (تعود) إلى ولدها، ولعشرة أيام منحها الحرية الكاملة لتنعم بتلك (العودة) دون أن يظهر في الصورة، وكم كانت ممتنة لصبر ضرغام، عشرة أيام مع ليث لم يتوقفا فيها عن الكلام، حتى اشتكت نرمين من الصداع في إحدى المرات بسبب ثرثرتهما المتواصلة لحبساها في الحمام وهما يضحكان ونرمين تصرخ مستنجدة بأمها، عشرة أيام كانا يتحدثان آخر الليل بكل جدية، فأوجدت بأسلوبها طريقة لتعيد توازن ولدها حول أبيه وتصدّق (الكذبة) كي تقنع بها ولدها كذبة أن أباه قد أساء فهم الأمور في الماضي واستطاع البعض أن يخدعه بشهادات الزور والوشايات، صدّقت سُلافة الكذبة تلو الأخرى لأجل ولدها، لأجل أن تعيد له بعض الإيمان

أن والده ليس بهذا السوء، ولا تعلم هل صدّقها ليث لأنه اقتنع بالفعل، أم لأنه يريد التصديق، فجأة أخذت دموعها تجري، تلوم نفسها في سرها: «لا يحق لك بعد اليوم لوم ثامر على شيء فولدك كما صدّق كذبة أبيه يصدّق كذبته عليكِ وعلى نفسه عندما قال لك إنه سيكون بخير ويمكنك العودة إلى زوجك دون قلق».

رنّ هاتفها فسارعت لإخراجه من حقيبة يدها لترد بصوت متهدج بالبكاء: «خالتي.. هل ليث بخير؟».

ردت خالتها تطمئنها: «مؤكد بخير وقد عاد لينام في سريره بعد مغادرتك، أنا قلقة عليك أنتِ، أما زلتِ تبكين؟».

تختنق بعبرات البكاء فشوّحت بيدها إلى سائق السيارة وهي تطلب منه بتقطع: «أوقف.. السيارة لو.. سمحت».

يلتفت إليها السائق وإمارات الاستياء على وجهه فتسترضيه بالقول والوعد: «سأدفع لك أكثر.. لا تقلق».

تنهد الرجل وهو يميل بالسيارة إلى الجانب فيترك الطريق المعبد ويتوقف فوق الرمال لتفتح سُلافة الباب وتترجل من السيارة وهي تتمتم بالشكر، تبتعد بضع أمتار في الصحراء وهواء بارد يضرب وجهها فيجفف بعض دموعها وهي تعترف لخالتها بما يوجعها: «أشعر أني أُمّ سيئة».

زفرت الخالة نوال نفساً حانقاً من ابنتها ثم قالت بتوبيخ: «كله بسبب طويلة اللسان نرمين».

أطراف وشاح سُلافة يتطاير فترفع يدها الحرة لتلمه وهي تقول لخالتها تبرئ نرمين: «لا تظلميها خالتي، هي لم تقل لي شيئاً».

فتصر الخالة نوال بالقول: «لكنها أشعرتك بهذا».

عادت دموع سُلافة للهطول وهي تقول بحيرة وتخبط: «ليست نرمين فقط، وربما هي محقة».

ثم تختنق أكثر وتتوجع أكثر وأكثر وهي تضيف بحشرجة: «أفكر أن.. أكلّم ضرغام وأطلب منه الـ..».

منعتها خالتها أن تتم جملتها وهي تهتف بها: «سلافة هل جننتِ؟ إياك أن تقولي لضرغام هذا الكلام السخيف».

ترفع يدها لوجهها وهي تجهش بالبكاء وتهمس دون شعورها: «لا أحتمل الوجع أمي».

لا تعرف كيف نادت خالتها بـ(أمي) فتلتاع الخالة نوال عليها وهي تبكي معها وتقول: «يا روح أمك، لم تفعليها يوماً وتناديني (أمي) أنتألمين لهذه الدرجة؟».

لا تتوقف سُلافة عن البكاء وهي تلوم نفسها بانفعال عاطفي شديد وحيرة أشد: «كيف أترك ولدي؟ وكيف يمكن أن أفكر حتى، ولو مجرد فكرة عابرة، أن أترك ضرغام أنا وسط نارين».

استعادت الخالة نوال سيطرتها لتقول بحزم أمومي: «لن تتركي هذا ولا ذاك». همست سُلافة بحرقة وهي ترفع

عينيها للسماء: «ليث..».

لتقول الخالة نوال بنفس الحزم: «ليث سيبقى معي كما اتفقنا ويزورك في دار زوجك نهاية كل أسبوع، إنه ذكي ويفهم صعوبة الذهاب والعيش في القرية ومكان دراسته الذي أعتاد عليه في العاصمة، ثم لم يتبق إلا بضع سنوات وسيدخل الجامعة بإذن الله».

أخذت سُلافة تضرب بكفها على فخذها وهي تردد: «لماذا حصل هذا؟ لماذا لم تنكشف له الحقيقة قبل أن يتورط قلبي لهذا الحد؟».

اسم (ضرغام) لوحده يشعل قلبها بالاشتياق فتتوجع أكثر لمشاعرها نحو زوجها وكأنها تخون ولدها رغم إدراكها في العمق أنه كلام عبثيّ لكن مشاعر الأمومة تفوق أي منطق، جاء كلام خالتها اللحظة عقلانياً وهي تذكرها بالقول: «سلافة، لا تنسيّ أن زواجك من ضرغام كان البداية لليث كي يعيد التفكير ببراءتك، فلولا هذا لما حصل ذاك».

تغمض سُلافة عينيها وهي تشعر بالعجز عن نكران هذه الحقيقة بينما تضيف الخالة نوال بواقعية: «أنت بحاجة إلى رجل في حياتك، رجل كضرغام تحديداً».

تنبيه من هاتفها جعلها تبعده عن أذنها فترى اتصالاً آخر يرِدُها من ليث فسارعت لتتمالك نفسها وهي تقول لخالتها: «هذا ليث يتصل، يجب أن أرد عليه كي لا يقلق».

بعد وداع سريع أنهت سُلافة الاتصال مع خالتها لترد على ولدها بنبرة مشرقة تغطي على رجفة التأثر والبكاء: «صباح الخير يا أسدي».

أتاها صوت ولدها ممازحاً بالقول: «أنا موجود في الشقة في حال نسيتِ أنت وجدتي، وأستطيع سماع صوت جدتي عندما تظن إنها تهمس عبر الهاتف».

انهارت سُلافة مرة أخرى وهي ترفع يدها لفمها تكتم شهقة بكاء بينما يضيف ليث بجدية هذه المرة: «ألم نتفق قبل مغادرتك أمي؟».

أفلتت عدة شهقات مكتومة ليسمعها ليث فبدا وكأنه هو الآخر يوشك على البكاء ليقول وهو يدّعي قدرةً على الإقناع أكبر من سنه: «لا تشعري بالذنب.. أنا.. سعيد مع.. جدتي.. ونرمين».

لم تحتمل لتقول لولدها بتهور: «إن طلبتَ مني الانفصال عن ضرغام نفذت اليوم».

لا تصدق هذا الوجع الذي داهمها حالما نطقتها قلبها ينعصر ويصرخ في صدرها وجعاً، فكان رد ولدها البسيط دون أي محاولات إقناع: «لن تكوني سعيدة».

وكأنه لخص الأمر كله بتلك الجملة فترد سُلافة بقوة شعورها كأم: «ليس مهماً.. أنت فقط من تهمني سعادته».

ثم أثبت لها كم هو مصدر فخر لها عندما قال بحسن تفكير: «أريد أن أتعرف بـ.. العم.. ضرغام أكثر».

عندها فقط علمت أنها لن تستطيع العيش بدون ضرغامكما لا تستطيع العيش بدون ولدها، هذه المرة بكاؤها كان انهياراً فيسألها ولدها بحيرة وارتباك: «لماذا تبكين الآن؟ ظننتُ أن هذا سيسعدك».

ثم تزداد حيرته وأمه ما زالت تبكي ليضيف بصدق بريء: «أقسم بالله أمي أنا.. أريد أن أعرفه، ليس لأجل إقناعك بشيء.. يبدو أنه.. رجل طيب.. و..».

قاطعته سُلافة وهي تماسك: «أردتك أن تعيش حياة طبيعية بين والديك، سامحني لأني لم أستطع توفير هذا لك».

تنهد الفتى عندها ثم قال: «جدتي نوال دائما تقول لي أن من يعاني في صغره ينضج باكراً ويتعلم الكثير».

تبتلع سُلافة غصتها وأخذت تمسح وجهها بينما يضيف ليث بصدق: «وأنا تعلمت أمي، تعلمت إلا أتسرع بالحكم على أحد، تعلمت أن أفكر بعقلي ولا اسمح لمشاعري أن تشوش عليّ».

رجفة من أثر بكاء مع شهقة صغيرة سبقت كلماتها الحزينة الفخورة: «كبرت يا صغيري كبرت كثيراً قبل أوانك».

همس صوته الحبيب: «أنا أحبك جدا أمي».

تنهدت ولا شيء في الدنيا يمكن أن يعبر عن عمق حبها لولدها اللحظة.

لم تكن تعلم أنه يكلمها وقطعة من ملابسها يضمها لصدره، أخذها دون علمها من حقيبة سفرها، ولم يكن يعلم أنها اللحظة تخرج كيساً صغيراً من جيبها فيه خصلة من شعر رأسه، قصّتها منه وهو نائم، أخبرها أنه سيأتي إليها كما وعدها نهاية الأسبوع وبينما هي ترد عليه أنها ستكون بانتظاره لمحت على مقربة رجلاً قذراً ظهر فجأة أمامها بدا مجنوناً بجلباب ممزق في هذا البرد، كل جزء فيه قذر، من قمة شعره الطويل المشعث وحتى قدميه الحافيين، ثم اقشعر بدنها وهي ترى في يده جرذاً ميتاً خافت منه وهو يبرق بنظراته المجنونة ويقول: «انكسر الوعاء ومات الولد والقاتل يُقتل بهذا البلد».

سارعت سُلافة للابتعاد والعودة إلى سيارة الأجرة بينما ولدها يسألها بقلق: «من يكلمك أمي؟ لم أسمع كلماته بوضوح».

صعدت سُلافة إلى السيارة وهي تطلب من السائق الانطلاق بينما تلقي نظرة أخيرة على ذاك الرجل المجنون لتراه يقف حيث هو بينما ترد على ولدها بالقول: «لا أحد بنيّ، مجرد رجل مسكين شحاذ».

ثم أمضت ما تبقى من الوقت تثرثر مع ولدها بخفوت

حتى الوصول إلى قرية الشيوخ.

***

دار الشيخ صفوان الضاري.. في نفس الوقت

لم تستطع العودة للنوم منذ صلاة الفجر، فالتجأت إلى مغزل جدتها، وها هو مغزلها يدور وتدور معه كلمات أبيها بالأمس..

(اخرجي من داري يا.. شيخة دليلة أنا لم أمت بعد لتأتي إلى هنا وتشمتي بي كما شمتِّ بأخيك، جابر الغالي، اخرجي وعودي إلى الشيخ وامسحا سوية بعباءة المشيخة تاريخكما الأسود الملوث والله لو بايعه أهل الأرض جميعاً لما بايعته).

حُسن وجهها غائم مُغبر بسواد كلمات أبيها التي تطعنها كما في كل مرة، وذكرى نظراته الكارهة لها تطحن قلبها في رَّحَى البنوّة بين حجريّ قسوته وجبروته، حتى اللحظة يرفض الاعتراف أنه زوّجها بمروان بعقد باطل لا يعترف أنه كان اغتصاباً تحت مرآهم جميعاً، إنه مقتنع تماماً أنه فعل حلالاً يؤجر عليه وقد ستر ابنته المشكوك بشرفها، ورغم طرده لها فهي ليست بنادمة على زيارتها له، فقد فعلت ما كان يجب أن تفعله مع أخيها جابر في حياته، أن تسامحه تسامحهما هما الاثنين على ما فعلاه بها، دخلت دار أبيها كما خرجت منها، كغريبة غير مرغوبة، وإن رُغِبت من البعض فرياء واتقاء لشر، لقد رأت في عيون

أخواتها الخوف منها والمهابة لها فتملقن وتمسحن بعباءة (المشيخة)، أما أمها فبدت تائهة كعهدها ولم تعرف ماذا تقول لها وكيف تتصرف، لتأتي كلمات أبيها وحسمت الأمر فتقهقرت الأم خلف ظل الأب ترفع راية صمت ومناصرة!

تتسع عينا دليلة وهي تحدق في المغزل، للمرة الأولى ترى نفسها تشبهه **قضت عمرها تدور دون توقف لتغزل من روحها الثائرة، في كل خيط تصرخ بـ(لا) للأحكام الجائرة.**

يده السمراء الضخمة امتدت لتوقف المغزل وهمس الحبيب يطفئ الثورات بالقول: «لا تؤلميني بك يا دلال».

انحسرت الغيوم وتراجعت الريح المغبرة فأشرق حُسنها من جديد، قلبها المطحون يتجبّر فدعت لأبيها من بعيد، نظرة في عيني صفوان تكفي لتمدها بفيض من الطيبة والتسامح فتكتشف للمرة الأولى أنه دوماً أمدّها بهذا منذ ارتبطا معاً في الطفولة وأحدهما يردف الآخر بما يحتاجه ويوازن نواقصه، أمالت رأسها لتتوسد صدره بينما يسألها صفوان وهو يضمها بحنو أب لم تعرفه من أبيها: «ألن تخبريني بما حصل بالأمس في دار أبيكِ؟».

لا تعرف لماذا تذكرت شقيقها جابر اللحظة تخنقتها العبرة وهي تخبر صفوان: «طردني.. وقبلها أتهمني أني.. أتشمّت فيه وهو طريح الفراش وأنتظر موته كما تشمّت في موت..

أخي جابر».

تذكرت وجه جابر الوسيم وضحكته الحلوة في الصغر فهطلت دموعها وهي تضيف: «يظنني أيضاً ذهبت إليه كي أترفع عليه وقد بتُّ زوجة الشيخ، ولست في نظره إلا ذات الابنة العاقة التي تبرأ منها ومن تاريخها الأسود».

يمرر يده فوق رأسها قائلاً: «أنت كنتِ تعرفين هذا يا دلال وتوقعته منه وأنت ذاهبة لزيارته».

ردّت بخفوت: «أجل.. لكن المعرفة بالشيء لا تمنحك درعاً للحماية وأنت تواجهه، أردتُ أن أسامحه يا صفوان، أردتُ بقوة أن أفعل هذا، لكن أبي يأبى إلا أن يجدّد الطعنات».

ثم رفعت رأسها فجأة لتمسح دموعها وهي تتطلع إليه وتضيف بنظرة لامعة: «ربما لن أسامحه يوماً لكني مضيتُ قدماً ولم أعد التفت لغزل الغضب والانتقام».

تفيض خضرة عينيه فتمسك كفه في لهفة وتضعها على بطنها وتقول: «أريد أن أغزل في رحمي طفلاً منك، قلبه كقلبك».

يرفع كفه ليحاوط خدها ثم يقول بذاك الرضا والقناعة: «إذا شاء سيرزقنا متى ما شاء».

لكن لهفتها تغلب على قناعته بالمكتوب لتقول بحسن ظن في الله: «أن رزقنا بولد سأسميه (ذو الفقار) وإن كانت

أنثى اسميتها (سدرة المنتهى)».

يجاريها في حسن ظنها، بل ويظن في العاطي الوهّاب المزيد وهو يقول لها: «وقد يغدق بالعطاء ونرزق بالاثنين، ذو الفقار وسدرة المنتهى».

عاودت الميل برأسها إلى صدره لتطلب منه بفضول: «أخبرني المزيد عن تلك العجوز عجمية، كنت أسمعُ عنها فيما مضى لكني ظننته مجرد كلام نسوة». يحتضنها لينعم بها كما تنعم هي به: «ما الذي ذكّرك بها الآن يا دلال الحُسن؟». تغمض عينيها باسترخاء آمن حلو وهي ترد عليه ببساطة: «لا أعلم، خطرت ببالي دون سبب».

أصابعه تتسلل بين خصلات شعرها وهو يخبرها: «إنها امرأة متبصرة، لها من البصيرة ما ليس لغيرها، كانت أمي رحمها الله تحكي لي أحياناً وأنا صبي عن نساء ورجال من أمثال عجمية، دوماً قالت لي، لا تسأل عن السبب، بل آمن بعظمة المُسبِّب، وربُّ العباد هو وحده مُسبِّب الأسباب».

تكاد تغفو هانئة وهي تطلب المزيد: «أخبرني مجدداً ماذا قالت لك عني عجمية؟ احكي لي يا حبيب».

***

دار عبد الملك الشيخ

ينظر إلى ساعة يده وهو يتجه ناحية سيارته، يعدل من

عباءته فوق كتفيه وهو مشغول بالتفكير بترتيب يومه، بضعة مشاوير طلبها منه الشيخ عبد الجبار ثم زيارة عاجلة إلى معمل الطوب في المدينة القريبة من القرية، فتح باب سيارته دون تركيز وحالما جلس على الكرسي أجفل وهو ينظر إلى أمه الجالسة باستعداد في المقعد المجاور، أطلق نفساً وهو يقول لها بما يشبه العتاب: «أفزعتني يا أم عبد الملك كيف دخلت السيارة؟».

تلتفت إليه تتبسم ببشاشة في وجهه وتقول: «أفزع الله قلوباً تراك ولا تصلي على الحبيب المصطفى».

تتسع ابتسامة عبد الملك وهو يميل ليلثم ظاهر كفها ثم قال: «ألف صلاة وسلام على رسول الله، إلى أين يا أم عبد الملك؟».

لمح في حجرها وعاء مجدولاً من الخوص ومغطى بقطعة قماش بينما ترد عليه ببساطة: «إلى دار الأسدي يا أبا سيف الدين».

يستغرب وهو يتساءل: «الشيخ عبد الهادي الأسدي؟».

فردّت وعيناها تلتمعان بالبشاشة التي تزين وجهها: «**بل إلى قرينه الذي لا يُفارق، مهما فعل العشق في حياته من فارق**».

يرتفع حاجبا عبد الملك وهو يتمتم بتخمين: «ضرغام الأسدي».

تهز رأسها ثم تعتدل في جلستها وهي تأمره بالقول: «هيا بنا، لدي تمر في وعائي لا ينتظر، وبعض البشر له مُنتظر».

لم يكن هناك ما يقوله كي يقنعها تأجيل الزيارة الباكرة هذه، ومن خبرته معها لو رفض الساعة ومضى لشؤونه اليوم فلن ينقضي منها ولا حتى شأن واحد، فوّض أمره لله وهو يشغل سيارته ويقول: «بعض البشر؟ يبدو أن نهارنا سيكون طويلاً يا عجمية».

***

دار ضرغام الأسدي

أتمّ ضرغام ختم القرآن اليوم بعد صلاة الفجر، فمنذ سفر سُلافة وهو يجد في قراءة القران سلوته، نور الصباح الباكر يخفف عنه وهو يتحرك في داره الصامتة وكفاه معقودان خلف ظهره، لم يشعر يوماً بوحدة موجعة كهذه، وما يفوق الوحدة وجعاً هو الانتظار، انتظار قرار من سُلافة هي نفسها لا تعلم بوجوب اتخاذه، على الأقل حتى مكالمتهما الأخيرة بالأمس لم تكن تعلم، فتح لها بوابة الوقت على مصراعيها كي تظل بصحبة ولدها في الظرف الصعب الذي يمر به، لكن الأمر أبعد من (ظرف صعب)، كل يوم كان يشعر بها تزداد تشوشاً لكن يطمئنه أنها وسط تشوشها تتشبث به لا شعورياً، كغيرتها وغضبها قبل يومين عندما علمت أن خادمة دار الشيخ الأسدي تحضر له الإفطار يومياً حتى داره فشبّت نار الغيرة

لتكون قشّتها التي تتشبث من خلالها به، وقشّته هو أيضا كي يحتمل وجع الانتظار ويهون عليه، هو أيضا تشتعل الغيرة في حشاه كلما فكر بوجود مطلقها ثامر قريباً منها، وقد كان شرطه الوحيد إلا تقابل والد ابنها مهما كانت الأسباب، وهي وعدته.. ووعد الحرّة ما يبرد ناره.

آه يا سُلاف، قد ضممتُ التاء في راحة كفي ثم بأصابعي أقفلت، غيرة البدوي صعبة وعشقه واعر فرحماه ربي كيف لبعدكِ ارتضيت!

دقٌّ على بوابة الدار جعله يلتفت بقوة هامساً اسمها وعيناه تبرقان كالرعد: «سُلافة».

خطوة من لهفة حملته نحو الباب لكن سرعان ما توقف ثم أطرق برأسه مستدركاً بالقول: «ليست هي قد شدّدتُ عليها وطلبتُ منها الاتصال عندما ترغب العودة لآتيها بنفسي وآخذها من العاصمة».

عاود التحرك وهو يتبسم بشجن ويفكر أن ربما كانت تلك الخادمة التي تثير غيرتها قد أتت له بالإفطار باكراً، فيتمتم ضرغام همساً: «ليت الغيرة تحضركِ الساعة».

تفاجأ ضرغام وهو يفتح البوابة ليرى أمامه عبد الملك الشيخ رحّب به كما تقضي الحفاوة والكرم قائلاً: «أهلا بك يا أبا سيف الدين، تفضل».

لكن عبد الملك تبسم شاكراً ثم اكتفى بأن أشار إلى سيارته، تتبع ضرغام النظر فاتسعت عيناه وهو يبصر

العجوز عجمية تجلس في المقعد المجاور للسائق تبادله النظر بينما عبد الملك يقول: «أمي أصرّت أن نحضر إليك الساعة».

يعترف ضرغام أن قلبه اهتز في صدره ثم تمتم في دعاء وهو ينظر لعيني العجوز المنتظرتين: «ربي ومولاي، لا تجعلها مرسال فراق كما في أولها، بل دعها تفتح لي بإذنك ومشيئتك باب اللُقيا كما في ثانيها».

تقدم ضرغام يواجه قدره، وحينما وصل إليها فتح الباب وعجمية تقول له: «لا تحزن، الرزق وفير».

تنفس الصعداء وهدأت مخاوفه فقال دون شعوره: «نحمد الله».

كشفت عن الوعاء المغطى في حجرها فيراه ممتلئاً بالتمر ليقول بترقق واعتذار: «أنا من كان يجب أن أحضر لك الهدية يا عمة عجمية، فسامحي من أغفله الشيطان عن تذكرك».

لم تلتفت لقوله، بل ظلت تبحث بين التمرات وتتمتم بكلمات حانقة: «أين هما؟ أين وضعتهما؟».

حار ضرغام عمّ تبحث وسط حبات التمر ثم فجأة رفعت عينيها وهما تتوهجان كالجواهر لتهتف بانتصار: «ها هما، حبتان، لك ولها».

للحظة لم يستوعب ضرغام وهو ينقل نظراته إلى كفها

الممدود بحبتيّ تمر لا غير، ليس فيهما أي شيء خاص لتبحث عنهما وسط تمر مشابه، مدّ يده في احترام وأخذ منهما التمرتين وقبل أن يشكرها قالت له بحزم: «**انتظرها، إنها لا تقوى على البعاد، انتظرها فقد حان الميعاد**».

يتمتم ضرغام مذهولاً بـ(نعم) بينما تغلق عجمية بابها بنفسها ثم أخذت تشير لعبد الملك أن يعود لركوب السيارة، ودّع الرجلان بعضهما ثم عاد عبد الملك للجلوس في كرسيه وهو يسأل بلا حيلة: «إلى أين الآن يا أم عبد الملك؟»،

فتتسع ابتسامة الرضا على وجهها وهي ترد عليه: «إلى دار الطيب والغزل الوفير».

شعر عبد الملك بالغباء فيسألها: «بالله عليك فسّري يا أم عبد الملك»،

فردت وهي تتنهد متعبة من الشرح: «دار صفوان الضاري»،

فانطلق عبد الملك وضرغام يلوح لهما بالتحية بينما عجمية تسرق حبات التمر من الوعاء وتأكل خفية، ثم تمتم في سرها بشقاوة: «بضع حبات لا أكثر والباقي سأتركه لابن سدرة».

***

في الطريق إلى دار صفوان الضاري تمر بدار ذياب،

البوابة تنفتح أمام ناظريها لتحمل الريح أخبار من في الدار، رأت ذياب الضاري يجلس مكسوراً وحوله ولدان في السابعة والتاسعة، الصغير يتسلق الأريكة كي يُلبس أباه كوفيته وعقاله، والكبير عند قدميه يُلبسه خفيه الجلديين، **نظرة في عينيه أنارت بعد انطفاء، لكن لسانه معقود فتبقى الكلمات في جوفه خرساء، تراه ينظر إلى صغيريه، فيتذكر أخويه وتنهال دموع مُقلتيه.**

أخذت عجمية تترنم بالكلمات: «**أخرستك دعوة مظلومة، وأبكت عينيك الأقدار المحتومة، سبحانه أن أراد لك الغفران والعوض، ولدان كعكازين في الضعف والمرض**».

***

دار ضرغام الأسدي

ترجلت سُلافة من سيارة الأجرة وهي تنهي المكالمة مع ولدها بانشراح فتقول له: «لقد وصلت حبيبي، شكرا لأنك رافقتني بقية الرحلة».

أتاها صوته الناعس قائلاً: «أراك بعد ستة أيام أمي».

ثم تثاءب وقلب سُلافة يذوب حباً فيه لتقول له: «عد لنومك يا أسدي، سأشتاق إليك حتى عصر الخميس القادم».

ثم استغلت السائق ينزل لها حقيبتها من الصندوق الخلفي للسيارة فأدارت جسدها لتطبع عدة قبلات على الهاتف

ترسلها لولدها، نقدّت السائق أجرته وشكرته مودّعة قبل أن تتحرك نحو بوابة الدار وهي تحمل حقيبة السفر الصغيرة، هواء الصباح البارد كان منعشاً بلا شك لكن النظر إلى دارها مع ضرغام ينعش روحها أكثر بكثير، تمتمت وهي تتطلع للدار: «ليث سيحبه، أنا متأكدة، سأقنعه في العطلة الصيفية أن يأتي هنا ويقضيها معنا في القرية».

ثم تسترسل بالخطط وهي تفكر بحماسة: «سأجعل ضرغام يعلّمه ركوب الخيل وحتى استعمال السلاح، أريده أن يكون مختلفاً، مختلفاً ومميزاً».

وعلى اسمه ضرغام تنهدت، رجفة مرّت في كل جسدها وهي تحثُّ الخطى اشتياقاً للحبيب، ترتسم الابتسامة الواسعة على وجهها فتشرق الفوانيس وتتعثر خطواتها المتعجلة كي ترى الغزل في عينيه حالما تقع نظراته عليها.

كانت إحدى ضرفتي البوابة مفتوحة بينما تتقدم سلافة، وعندما وصلت على أعتابها سمعت صوت ضرغام يقول بنبرة امتنان خاصة: «شكراً لكِ وللشيخة رغد، لم يكن هناك داعٍ لتعبكم بإعداد الإفطار مجدداً».

قبل أن تسمع الرد انطفأت الفوانيس في لحظة وانعقد الحاجبان فوق عينين غاضبتين وهي تعبر البوابة بتأهب للشجار، لا بد أنها تلك الخادمة الشابة السخيفة المسرفة بالابتسامات كلما رأت ضرغام، لكن ما إن عبرت البوابة إلى الباحة الخارجية للدار حتى توقفت قدماها للحظات

وهي تحدق في زوجها عند الباب الداخلية للدار يتسلم الصينية من الخادمة الضخمة الخرساء (زادة)، تعرفها سُلافة منذ زياراتها للشيخة مليحة، فزادة لها مكانة في دار الشيخ الأسدي وهي المقربة والمفضلة لدى الشيخة رغد، شعرت سُلافة ببعض الخجل والحرج من ظنونها السيئة بينما تمر بها زادة وهي تهم بالمغادرة فتحييها بابتسامتها الطيبة، لترد لها سُلافة التحية وهي تشكرها بالقول: «شكرا لك يا زادة، سلمي لي على الشيخة رغد واشكريها نيابة عني لعنايتكم بزوجي في غيابي».

تهز الخادمة رأسها ثم تواصل خطواتها نحو البوابة كي تغادر بينما تسمع سُلافة صوت زوجها يعلق بهزل: «التسرع وسوء الظن».

التفتت إليه لتجده قد اختفى كزّت على أسنانها غيظاً وهي تتقدم لتدخل خلفه وتتمتم: «لا أعلم هذا الرجل كيف يتحرك دون أدنى صوت».

وجدته يضع الصينية على الأرضية فوق السجادة قرب المدفئة فهتفت بانفعال أنثوي: «أتتركني عند الباب هكذا؟ وأنا التي أردت أن أفاجئك بحضوري منذ الصباح الباكر».

لم يرد عليها فانتظرته حتى استدار إليها ووقعت عيناها في غزل عينيه، النظرة في عينيه كانت القاضية ثم يرديها قتيلة الغزل وهو يسألها بصوت أجش: «جائعة؟».

انفجرت المشاعر بينهما كقنبلة.

ركضت إليه وحلّق بخطواته نحوها كطيور الجوارح حتى انقض يرتوي من شفتيها وهي ترتمي في حضنه وتتشبث كتشبثه، لكنها جبارة وهي تبعد شفتيها عن قبلاته لتواجهه لاهثة: «لحسن حظك أن زادة من أحضرت الإفطار، تلك الخادمة الأخرى لا أريدها أن تدخل داري؟».

يلفُّ ذراعيه حول خصرها بقوة حتى شعرت سيقسمها نصفين يرفعها عن الأرض ثم يسير بها إلى غرفة نومهما هادراً: «**دارك دونك لم تكن داراً، تركتِ ساكنيها جياعاً، لا لقمة تسد الرمق، ولا علاج للشوق قد صَدَق**».

أصابها دوار لذيذ من فرط الشوق فتغمض عينيها وهي تهمس اسمه: «ضرغام».

لم تعلم متى وضعها على السرير ولا عبثه بحجابها وملابسها إلا عندما شعرت بمذاق سكري حلو على شفتيها، فتحت عينيها تنظر إليه وتكتشف سر الحلاوة في تمرة يضعها عند فمها وهو يأمرها بخشونة وأنفاس لاهثة: «أريد أن تأكلي تمرتك أولاً».

ترمش بعينيها وكفه الحر يحل شعرها الطويل بقلة صبر بينما هي تتمتم بلا فهم: «تمرتي».

يهز رأسه ثم يمد يده جانباً إلى صحن صغير على الطاولة جوار السرير ليأخذ التمرة الأخرى ويضعها في فمه ثم

يقول بنفس الخشونة: «لن أقربك حتى نتشارك التمرتين، أخرجتُ النوى، فقط كُليها».

قلبها يدقُّ بإثارة رهيبة وهي تطيعه وتأكل تمرة من ألذ ما ذاقته في حياتها لتهمس بعدها بدلال أنثوي رقيق: «أأطعمتني تمرة مسحورة؟».

ردّ وهو يمسك معصميها يرفعهما فوق رأسها هادراً: «بل لجمعنا مأمورة».

***

الأرض الخلفية الملحقة بدار الشيخ صفوان الضاري

غنيمة وأمها تعزقان الأرض في الناحية الشمالية منها ليكملا عمل عبد الواحد الذي بدأه هناك، بينما صفوان يعزق في الجزء الجنوبي وتعينه دليلة، يرفع صفوان الفأس عالياً فوق رأسه ثم يهوي به إلى الأرض فيشقّه ويكشف تربته، الأرض كانت مهملة منذ سنوات وقد احتاجت لمجهود كبير في إزالة النباتات والأعشاب المُضِرّة، بعض الجذور لتلك النباتات امتدت عميقاً واحتاجت لمجهود مضاعف في قلعها، عمل مضنٍ لكن شديد الأهمية لتهوية تربة الأرض وإعدادها للزِّراعة، حنّة تجلس جانباً وبيدها مغزل اشترته لها دليلة قبل يومين، فبدت الصبية فرحة كما لم تشعر بالفرح يوماً، تلازم مغزلها أينما حلّت، تراقبها دليلة عن بعد وتوجهها أيضاً بينما تجثو على ركبتيها وتساعد زوجها باقتلاع النباتات الضارة، يتنهد صفوان وهو يستند

بالفأس على الأرض وينظر لجذر نبات متين ممتد عميقاً ويعاند الفأس ويقاومه فيأبى الرحيل تداعبه دليلة بالقول الخافت: «من يقول إنك تملك قوة بدنية مهولة فليأتوا ويروك كيف تقف عاجزاً أمام جذر نبات عنيد».

يرمقها بنظرة ذكرتها بأيام الصبا عندما كانت تغيظه فيرد الإغاظة بابتسامة تسامح تنير وجهه، كما الآن بالضبط، يرد عليها وخضرة عينيه تنير بالرضا: «ليس كل شيء يحتاج للقوة، فالصبر أقوى، وكل ما احتاجه مع هذا الجذر الدخيل العنيد هو أن أصبر عليه حتى أجد موطن ضعفه وبضربة واحدة صحيحة سأصيبه بمقتل».

صوت أحد الرجال جاء منادياً من مسافة: «يا شيخ صفوان، يا شيخ صفوان، أتاك ضيوف يا شيخ».

ترك صفوان فأسه لينفض كفيه ببعض ثم يتحرك إلى مقدمة الأرض لاستقبال الضيوف، عند البوابة المعدنية المشبكة كما السور المحيط بالأرض، يحيي صفوان ضيفيه بابتهاج خاص بينما يعتذر عبد الملك قائلاً ببعض الحرج: «عفواً منك يا شيخ، لكن أمي أصرّت على زيارتكم اليوم».

قبل أن يرد صفوان بادرت عجمية للقول وهي تحمل وعاء الخوص تضمه لصدرها: «اذهب أنت لشؤونك واقضِها يا عبد الملك، أنا سأبقى هنا».

زاد حرج عبد الملك فحاول معها: «لكن يا أمي..».

قاطعه صفوان بالقول: «دعها معنا فوق رؤوسنا نحملها، واقضي كل شؤونك ثم احضر مع أهل دارك فعشاء كم اليوم في داري».

رد عبد الملك بامتنان: «أدام عزك يا شيخ، وأدام دارك، دار الجود والكرم».

تسلّلت عجمية عبر البوابة المشبكة دون أن يتنبها لها، وتركتهما يتكلمان بينما تسير في داخل الأرض الصغيرة التي يُعاد استصلاحها وعيناها تدمعان بتأثر غريب، تأخذ نفساً عميقاً فتشعر بريح من الطيبة تملأ رئتيها فتتمتم: «سبحانك يا الله عندما تنعم على عبادك».

رأت صبية صغيرة تغزل فالتمعت عينا عجمية وهي تحث الخطى إليها، وعلى مسافة من الصبية كانت امرأة تجثو على ركبتيها وقد وقع عن شعرها الوشاح فكشف عن جماله، صوت صفوان من خلفها يتبع خطواتها قائلاً بانشراح: «حلّت البركة بمقدمك يا أماه».

تستند بعصاها في خطواتها بينما ترد عليه بمودة خالصة: «البركة حلّت بمقدمك يا ابا ذو الفقار».

أصابته صعقة ذهول وهو يتساءل: «كيف علمتِ؟ صباحاً باكراً كنا نتحدث أنا ودلال».

ابتسامة منيرة تشع على وجه عجمية وهي ترفع وجهها للسماء وقالت: «ربك في عُلاه عندما يشاء، يأمر، فتخضع لإرادته الأشياء».

تنبهت دليلة لمقدم زوجها مع تلك العجوز فتقف على قدميها وتتحرك نحوهما مرحبة، أطالت عجمية النظر إليها لتقول بانبهار: «سبحان من خلق حُسنك يا غازلة، أبدع حين صوّرك ثم أودعك قرينة روح في قلب أطيب البشر».

توردّت دليلة وهي تشكرها بالقول: «سلّمك الله يا عمّة عجمية».

ثم حولت نظراتها لصفوان مضيفة: «الحُسن، كل الحُسن، في قلب من أودعني فيه ربي، فزادني من فضله».

انحنى رأس عجمية فجأة وهي تمد عصاها إلى صفوان تسلمها له، ثم بنفس اليد تدسّها تحت غطاء الوعاء الذي تحمله، مرّت لحظتان أو أكثر عندما رفعت عجمية وجهها إلى صفوان ودليلة لتقول بتعابير طفلة مذنبة: «لم يتبق إلا تمرة أكلت زادكما كله في الطريق، لعن الله الشيطان وقد أغواني لأطمع».

خسف قلب صفوان رحمة وهو يراها تُخرج التمرة المتبقية لتستقر وسط راحة كفّها الممدود، يهوّن عليها صفوان فيقول لها: «والله لن تخرجي من هذه الدار إلا ومقدار حملك من التمر معك يا أماه، جعله الله لك عافية وإطالة في العمر».

يتهلل وجهها بالبشر وهي ترد عليه: «لا أريد إلا أن تملأ لي وعائي يا ابن سدرة». فيرد بوعد: «لك كل ما تشائين يا

أماه».

ثم أشار للتمرة وقال برقة قلب: «كليها، بألف هناء وشفاء».

لكن عجمية تهز رأسها رفضاً وهي تقول: «من زادك طمعت وأكلت، لكن هذه التمرة ليست لك لأطمع فيها».

فتساءلت دليلة بعجب: «إذن لمن هي يا عمّة؟».

ضمّت عجمية التمرة وهي تجمع أصابعها إلى راحتها عدا السبابة التي تشير بها إلى الناحية الشمالية من الأرض وقالت: «إنها للشابة هناك، رزق من المولى أمرني أن أوصله إليها».

التفت كل من صفوان ودليلة إلى الاتجاه الذي تشير إليه عجمية فتمتم دليلة الاسم بتأثر: «غنيمة».

فجأة قالت عجمية وهي تتحرك: «أريد الجلوس الآن، سأعطيها تمرتها لاحقاً».

أعادت التمرة إلى الوعاء تحت الغطاء ثم أخذت العصا من صفوان وتحركت نحو الصغيرة حنّة التي تجلس على الأرض وتعبث بمغزلها، ساعدها صفوان لتجلس ثم صرفته هو وزوجته كيّ يعودا لعملهما في الأرض يصلحان فيها ما أعطبه الزمن والإهمال، يعاود صفوان محاولاته لاقتلاع الجذر العنيد، حتى نجح أخيراً وهو يضربه ضربة محكمة

أصابت مقتله في موطن ضعفه، فيمسكه بكفيه ليسحبه ويقتلعه لكن جسده يرتد للخلف فيقع أرضاً وصوت ضحكات دليلة يعلو، وعلى صوت ضحكات الغازلة وترنيمة حنّة الطفولية وهي تغزل الصوف، غلبت عجمية سنة نوم وهي جالسة.

***

عادت عجمية شابة بلمح البصر، أو هو الحلم على الواقع أمر، في زهوتها تدور حول نفسها كما يدور المغزل، فتغزل النجوم اللامعة لترصع ليل ثوبها الأكحل، يتطاير الثوب في كل اتجاه، ومهرة ذهبية ذات غرّة مجعدة تدور في مداه، المهرة تركض يلاحقها شهاب مضيء، يسبقها فيمر بها خاطفاً مضيئاً ليكشف عن ضحكة وقول رجل بدوي جريء: «أتقتحمين أرضي دون سابق إنذار يا ملكة النساء».

تصهل المهرة في اعتراض فتسبقه وترد عليه بفخر سيدتها: «إنها عجمية يا بدويّ فإياك والافتراء».

تضحك عجمية حتى اشتد ضياء نجومها وما زالت تدور حول نفسها لاهية وليست بلاهية تراقب ذاك الشهاب يخطف بمهرتها مضيئاً مرة أخرى ليكشف عن عينيه وصوته يعلو منشداً بنبرته البدوية على أنغام الربابة: «**كل الملكات تيجانهن فوق رؤوسهن، وأنت تاجك يتوهج في عينيكِ، لن ينزع ملككِ إلا مالكُ الملك، قدر منقوش**

كالحناء في راحتيّ كفيكِ».

***

شهقت عجمية مبهورة من غفوتها لتفتح عينيها فلا تجد إلا وجه الصبية حنّة قريباً من وجهها وهي تسألها باهتمام وبعض القلق: «هل أنت بخير يا عمّة عجمية؟ هل أنادي سيدي صفوان؟ لقد ذهب هو وسيدتي دليلة ليساعدا غنيمة هناك».

ما زالت عجمية تشعر بالحلم يتدفق كالدم النقي يجدّد شرايينها، لتقول بعينين متوهجتين: «لقد تذكرت اسمي، بعد كل هذه السنوات.. زوجي ذكّرني به إنه ليس عجمية، بل شاه زنان، ملكة النساء».

تمت

٢٦/١٠/٢٠٢١

سلسلة قلوب تحكي 8

تغزلين للعشقِ جيوشاً

تغزلين للعشق جيوشاً
تطاردين للماضي فلولاً
تشهدين للثأر زوراً
ثم تنحرين القلب باطلاً زهوقاً

RB COVER DESIGNED BY

9 789777 794503
منشورات تدوين
إبداع

t.me/twinkling4